

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب: حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

المؤلف: محمد حسين هيكل

التعليق: السيد عبد الرحيم الحصري

المراجعة: الشيخ أبو الفضل الإسلامي، الشيخ محمد هادي الغروي،

السيد منذر الحكيم

التحقيق: قسم التأليف والتحقيق في المعاونة الثقافية للمجمع العالمي

لأهل البيت (عليهم السلام)

الموضوع: السيرة والتاريخ

الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)

الطبعة: الأولى

المطبعة: اعتماد

الكمية: ٣٠٠٠

تاريخ النشر: ١٤٢٨ هـ

ISBN: 978-964-529-252-0

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)

www.ahl-ul-bayt.org

E-mail: info@ahl-ul-bayt.org

كلمة المجمع

لم يكن الاهتمام بكتابة السيرة النبوية وليد هذا العصر، وإنما اعتنى المسلمون بها منذ وقت مبكر، ولم يقف قرار حظر التدوين الشهير الصادر عن الخليفة الأول والثاني وغيرهما، الذي يتضمن المنع عن كتابة السيرة أيضاً، عائقاً أمام التحديث بها وتدوينها.

فلو أردنا أن نؤرخ اهتمامات الصحابة بالسيرة النبوية لوجدنا مصحف الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يُمثّل باكورة للتدوين، وإن كان بعنوانه لا ينطبق على السيرة وإنما كان تسجيلاً لأسباب النزول وتفسيراً لآيات القرآن الكريم، وبعض الأحداث والوقائع التي كانت تستحق التسجيل.

بدايات تدوين السيرة

وإذا اختار البعض تداول السيرة عبر المشافهة والحكاية في الفترة القريبة من عصر الرسول (صلى الله عليه وآله)، إلا أن البعض ترك لنا صُحُفاً سجّلت بعض الجوانب المهمة من حياة النبي (صلى الله عليه وآله)، كسهل بن أبي خيثمة الأنصاري (٦٠ هـ) وابن عباس (٦٨ هـ) وسعيد بن سعد بن عباد، وسعيد بن المسيب (٩٤ هـ). وعروة بن الزبير بن العوام (٩٤ هـ) وأبان بن عثمان (١٠٥ هـ).

وشكّلت تلك الجهود أرضية لمرحلة أخرى، فقد سجّل أشهر تلاميذ الزهري محمد بن شهاب (١٢٤ هـ) وهو محمد بن إسحاق المدني المطلبّي (١٥٢ هـ)، كتابه المعروف بسيرة ابن إسحاق

ليكون مادة لكتابات أخرى لاحقة، وجاء بعده محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) وابن سعد البصري (٢٣٠ هـ) على نفس الخط.

مستويات كتابة السيرة

وبعد هذه الحقبة الزمنية ارتقت الكتابة حول السيرة إلى اهتمامات أوسع، حيث شقت موضوعات عنها مفصلة ضمن أبواب خاصة، من قبيل دلائل النبوة، وسُنن النبي (صلى الله عليه وآله) وشمائله، ونظم السيرة شعراً، أو غزوات الرسول أو أساليب دعوته.

فإذا امتازت الكتابة في هذه المرحلة بطابعها السردى، الذي يعتمد النقل الروائى، فقد لحقتها مستويات أخرى من الكتابة، كالبحث التاريخى التحليلى، الذى يُعنى بتحليل الحوادث التاريخية من خلال التعرف على أسبابها واكتشاف آثارها ونتائجها بالإضافة إلى الإهتمام بمدى ارتباطها بالحوادث التى تعاصرها.

ثم أخذت الكتابة مستوى ثالثاً كالبحث التاريخى الفلسفى (فلسفة التاريخ)، الذى يعتنى باكتشاف السنن التى تتحكم بالتاريخ وكيفية عملها ومراحل التاريخ البشرى وعلل تطوره، وهذه المستويات قد اعتنى بها القرآن الكريم وذلك لترابطها وعدم الاستغناء عن واحد منها.

أساليب كتابة السيرة

أمّا الأساليب التى كُتبت بها السيرة فهي متعددة، فقد سلك البعض من مؤرخي السيرة الأسلوب الأدبي، ومنهم الأسلوب العلمى، ككتاب حياة محمد لهيكل، ومنهم من سعى إلى كتابتها بالأسلوب الحركى.

ولكن تبقى كل تلك الاهتمامات ناشئة عن دافع حب المعرفة والإطلاع على سيرة النبي (صلى الله عليه وآله)، والحرص على معرفة الدين.

دور السيرة في بناء المجتمع الإسلامى

فلما كان القرآن الكريم يُمثّل البذرة الأولى لبناء المجتمع وتغيير الإنسان وهدايته، تأتى سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) وخطواته الإلهية المُسددة لتُشكّل البذرة الثانية لبناء المجتمع، ولذا يأتي الإطلاع عليها مصدراً لمعرفة الدين وعنصراً مقوماً لبناء المجتمع الإسلامى السليم، لتمتعها بقابلية تمدد المسلم بالتجارب النبوية، حين استنطاقها لأنها تحتزن في داخلها تجربة الوحي الذى يؤمن لمشاريعنا الأصالة والمواكبة والتغيير في حياتنا المعاصرة.

الدسّ في كتب السيرة

ولكن ليس الاطلاع على السيرة بما هي مدوّنة له كلّ التأثير الإيجابي على حياة المسلمين، وذلك لأنّها قد حملت بين سطورها جهوداً يُشكّ في منطلقاتها، فقد دُسّ في السيرة من الروايات المحرّفة والإسرائيليات ما ليس من السيرة، مع كونها مُريية في أهدافها، لأنّ السيرة وإن نقلها علماؤنا الأجلاء إلّا أنّها لم ترتق إلى مستوى القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... حتّى قال ابن خلدون (لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق)، وكثيراً ما وقع للمؤلفين والمفسرين وأئمة النقل المغالطة في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً وسميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحقّ وتاهوا في بيداء الوهم والغلط.

في الوقت الذي تعيش فيه الأمة أعلى مراحل صحوها ووعيها حيث اكتسحت بفعل حركتها وأنشطتها قلاع الظالمين وهزّت عروشهم وأرقت نفوسهم حتّى دفعت بهم إلى أن يحشّدوا كلّ قواهم ويوظّفوا آخر ما أنتجه العقل الإنساني من ابتكارات علمية وتقنية فنيّة كان من اللازم توجيهها وتسخيرها لصالح الإنسانية لكنّها وظّفت من أجل الحيلولة دون تنامي الصحوّة الإسلامية، إذ خلصوا إلى أنّ الجبهة الثقافية هي السرّ في تنامي وقوة هذه الصحوّة، لذا عمدوا إلى التشكيك فيها وإثارة الشُّبهات حولها واستهدفوها ضمن برنامج مدرّوس من شأنه أن يكون مانعاً من الارتباط بالثقافة الإسلامية. فبعد أن عجزوا عن تمرير مخططاتهم القديمة والحديثة باتجاه القرآن توجهوا نحو تاريخ الأمة المسلمة لأهميته باعتباره عنصراً مقوّماً في نهضة الأمة وباعثاً لكامالها وواقياً لها من الانحراف.

مسؤوليتنا تجاه السيرة

من هنا تأتي الكتابة حول السيرة والاطلاع عليها بعين إسلامية أصيلة ومسؤولة لأجل أن تحصل الأمة عبر اطلاعها على أغنى التجارب وأثرى الدروس.

وبناءً على ذلك فقد تصدّى المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) لاختيار كتاب (حياة محمّد) للتحقيق والتعليق عليه لمؤلفه محمّد حسين هيكّل الذي طبع ما يزيد على الاثني عشرة طبعة إذ كان نافذة لوعي الأمة ووسيلة لتقريب وجهات نظرها، وجعل القارئ وجهاً لوجه أمام سيرة نبيّه الكريم بفعل الانفتاح على السيرة في عمقها التاريخي الذي حققناه من خلال التحقيق الذي يعني سهولة رجوعه للمصادر الأمّ التي اعتمدها الكاتب، أو التي غفل عنها ولم يطلّع عليها لتكون سهلة المنال ودالة للباحث حين يرغب الاستقصاء في الدليل الأمر الذي يكشف لنا عن الغبار الذي شوّش على

بعض الحقائق والأحداث التاريخية المشهورة كحادثة الغدير وغيرها، التي عجز الكاتب عن تصويرها كما دونتها كتبنا الحديثية، أو التفسيرية، أو التاريخية هذا أولاً.

كما يؤدي التعليق الذي سجلناه على صفحات الكتاب إلى وقوف القارئ على حقيقة السيرة وهو يطالع الآراء المختلفة لشاركننا الهموم حول كتابة السيرة وغيرها ويكشف بالتالي عن ضخامة الجهود التي كان يمارسها النبي (صلى الله عليه وآله) حين كان يعاني من قومه ما عاناه ثانياً.

وأما ثالثاً فسيكشف القارئ أنّ السيرة النبوية إذا كتبت أو درست بمعايير الرسالة فسوف تكون أداة تقريب وتفعيل لحركة الأمة، وجهادها ووعيتها ووحدة صفّها، ويتلمّس الدارس — من خلال الاطلاع الواعي، والمقارنة المنصفة بين الآراء — مدى إنسجام ما كتب من السيرة مع القرآن الكريم.

وختاماً نتقدم بالشكر للإخوة الأفاضل في لجنة التحقيق حسين رفعت الصالحي والشيخ عبدالأمير كمال وان، والشيخ علي بهرامي، لتوثيق النصوص وضبطها. وللأخ الفاضل السيد عبدالرحيم الموسوي الحصري حيث كان له شرف التعليق على الكتاب والتقديم له، وللأستاذ الباحث المحقق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي والأستاذ أبي الفضل الإسلامي والأستاذ السيد منذر الحكيم لمراجعتهم الكتاب بدقّة وإبداء الملاحظات اللازمة، وكذلك الإخوة الأفاضل أعضاء لجنة المقابلة عزيز العقابي وحسين الصالحي والأستاذ محمد حافظ الزيدي لمراجعته الكتاب لغويّاً، تمنّى لهم جميعاً دوام التوفيق من الله تعالى وحسن القبول إنّه سميع مجيب.

المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)

المعاونية الثقافية

المدخل

المدخل

الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيّبين الطاهرين. يُعرّف التاريخ بشكل عام على أنّه الترجمة الواقعية لمسيرة الأُمّة الحاوية للمواقف والثقافة والفلسفة التي تتبناها الأُمّة نحو الكون والحياة، كما يعني التاريخ الضارب في عمق المجتمع البشري مجموعة الظواهر والتضحيات والابداعات في حقول الحياة المختلفة . وهذا يكون التاريخ كاشفاً عن طاقات الأُمّة والمواقف التي ساهمت في صيرورتها وهويتها، لذا ينبغي النظر إليه بدقّة وإمعان لالتقاط ما هو المشرق من حياتها بُغية الإهتمام به، ودراسة الهزائم والضعف الذي يتخلّل حياتها، لتُشكّل المواقف على اختلافها دروساً للحاضر على أمل أن يكون المستقبل وفق هذا الفرز الواعي أكثر إشراقاً وكمالاً. وهذا التعريف للتاريخ لا إشكال فيه من الناحية العامّة، وبإمكان الدارس أن يُطبّقه في دراسته التاريخية مهما اختلفت رؤاه ومهما اختلف المجتمع الذي كان موضوعاً لبحثه. ولكن التاريخ في منظوره الإسلامي له ما يميّزه عن المدارس الأخرى، إذ يصطبغ التاريخ إسلامياً بالبُعد الديني، أو العقائدي ويرى الحضور الفاعل للبُعد المعنوي في حركة الإنسان وتكامل مسيرته. ولا يمكن النظر إلى التاريخ والتعامل معه والاستفادة من دروسه وعبره بمعزل عن الدين والعقيدة، لأنّ التاريخ هنا تاريخ رسالة لا تاريخ قبيلة، أو تاريخ حكومات، أو أبطال، والدولة لا تُمثّل سوى مفردة من مفردات التاريخ، نعم، ينظر المنهج الإسلامي إلى الحكومة لا باعتبارها ذات قيمة بحدّ رأسها، وإنّما باعتبارها أداة وخلافة ربانية يتم بواسطتها تحقيق العدالة بين الناس: (يَا دَاوُدُ إِنَّا

جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ^(١) وقول الإمام أمير المؤمنين: يا ابن عباس ما قيمة هذا النعل؟ قال: لا قيمة له. قال: والله لَهي أحب إليّ من إمرتك، إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً^(٢).

والتاريخ وفق هذا التصوير انطلق بكلّ جوانبه على يد أوّل نبيّ وامتدت حلقاته عبر سلسلة الأنبياء مصحوباً برسالاتهم، حتّى مجيء الرسالة الخاتمة للرسالات السماوية. ولما كان من الثابت أنّ لخلق الإنسان في هذا الوجود هدفاً ربانياً تتحرّك البشرية باتجاهه: (أَفَحَسِبْتُمْ أَلَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَشًا وَآتَيْنَاكُمْ إِيَّاكُمْ إِلَّا نَرْجِعُكُمْ^(٣)) وسيتمّ تحقيق ذلك الهدف في عقيدتنا على يد قيادة ربّانية محمّدية تتجسّد في خاتم الأوصياء المهدي بن الحسن العسكري (عليه السلام) وعلى يديه ستتصوّر رسالة الإسلام في العالم الإنساني. إذاً فللتاريخ مستقبل مشرق من خلال رسالة الإسلام العالمية. ولو لاحظنا التاريخ حين يعرضه القرآن الكريم بنحده يلقي ضوئه على كلّ المسيرة الإنسانية، ويُسلّط النظر على أهمّ مفاصلها الحيوية، ويصوّر مواقف الأُمّة وتاريخها انطلاقاً من كون المحور في التاريخ هو حركة الأنبياء والمصلحين الرساليين، لأنّهم قد مثّلوا الإرادة الإلهية في مجال هداية البشرية إلى طريق الكمال الإنساني المنشود.

ونجد القرآن يفرز المواقف البشرية ويُصنّف الشعوب والأُمم على أساس موالاتها واقتربها من خطّ السماء، فتزّل البركات وتنعم الأُمم بالأمان والرخاء تبعاً لاستقامتها وهدايتها، ويعرض القرآن صوراً لدمار الشعوب وسقوط الحضارات تبعاً لطغيانها وتمردّها على خطّ السماء.

نعم، نجد في قصص القرآن الكريم عرضاً لصور وأحداث جانبية فهذه ترشحات وفيوضات إلهية تُشكّل بمثابة خطوط عامّة تُساهم في الوعي والتثقيف للأُمّة، فقصة يُوسُف (عليه السلام) وإن كان البطل فيها النبيّ وهو المحور الأساس، إلّا أنّه تبرز فيها شخوص أخرى تنفصل أو تلتئم مع محور التوحيد، كالنسوة والعزير وامرأته وأصحاب السجن وإخوة يوسف حين ابتعدوا بادئ الأمر وكادوا ليوسف، إلّا أنّهم قد اقتربوا في نهاية القصة من يوسف وأعلنوا توبتهم قائلين: (اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)^(٤).

ويلمح القرآن وهو بصدد العرض لقصة يوسف إلى أنّ السلطة لا تُمثّل سوى أداة لتحقيق العدالة، حيث قال النبيّ: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ)^(٥).

(١) سورة ص (٣٨): ٢٦.

(٢) نهج البلاغة: ٨٠/١ خ ٣٣، الشيخ محمد عبده.

(٣) المؤمنون (٢٣): ١١٥.

(٤) يوسف (١٢): ٩٧.

(٥) يوسف (١٢): ٥٥.

وهكذا يعرض القرآن لقصة موسى(عليه السلام) في الوقت الذي تبرز معه شخص آخر كيني لإسرائيل أنفسهم حين أسلموا إلى رسالته أو الأمرأتين اللتين تذودان بنبي شعيب. وهارون والسامري، وبعد ذلك قارون وقبل ذلك طالوت وجالوت وهكذا بلقيس مع سليمان(عليه السلام).

كما لا يقتصر الطرح القرآني على خطّ التوحيد عبر رمزه والحرك لتاريخه وهم الأنبياء بل نجد يعرض مرة أخرى لحياة الأمة ومسيرتها ووعيتها وحركتها وخياراتها: (خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)^(٦)، وهكذا القرية التي كانت حاضرة البحر وما فيها من دعاة الخير وصراعهم مع أهل الشرّ في كلّ هذه المشاهد وغيرها نجد قيم السماء هي الحاكمة في حقل التاريخ، والأنبياء هم الرموز لحركة التوحيد وأحياناً يجعلهم النصّ وراء الحوادث الصانعة للتاريخ.

فالقرآن إذاً يؤكد المعيار في الفرز التاريخي، ولا يلحظ المعايير الأخرى كضخامة الشعوب وسعتها، أو تقدّمها التكنولوجي: (إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ* وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِمٌ)^(٧)، ولا عبرة في تشييد البناء الحضاري بإطاره المادي فقط، وإنّما تُحاكم الأمم والشعوب وتسقط حضارات بأكملها على أساس مواقفها من الرسالات وقيم السماء.

فالنبي إبراهيم(عليه السلام) كان أمة وإن كان فرداً من حيث العدد، والأمة التي عاصرتة شكّلت موقفاً إزاءه لكنّ الفرز القرآني تمّ بين جبهتين: النبي(صلى الله عليه وآله) وأمتّه، ولا وزن للكثرة ولا للقلة، فالتاريخ عبر تصويره للماضي يمنح القدرة للأمة الإسلامية بأن تراقب حركتها في الحاضر فيما إذا كانت قريبة من خطّ التوحيد أم لا، ويوقفها على أسباب النصر والهزيمة ومن خلال زوايا التاريخ الإسلامي يستطيع أن يربط الباحث حاضر الأمة ومواقفها بالماضي ليُقارن ويترصّد العوائق والعقبات التي تحول دون المسيرة المطلوبة.

فالعقيدة إذاً تُفسّر حركة التاريخ على أساس حركة محور التوحيد، الذي يكون هو بنفسه دافعاً ومُحرّضاً للجماعات الموحّدة، في أن تستهدف مظاهر الفساد والشرك بُغية تحريرها وإزالتها من صفحة التاريخ.

فإذا كان التاريخ ينبغي أن يُلاحظ ويُقرأ بل ويُفرز على أساس البُعد العقائدي، أو قلّ على أساس حركة التوحيد التي جسدها الأنبياء بحركاتهم ضد مظاهر الطغيان والشرك والفساد، إذاً فمواقف البشرية إزاء رسالة التوحيد لا بدّ من تقسيمها إلى موقفين متقاطعين لا توليف بينهما ولا خلط ولا دمج بين الشرك والتوحيد:

الأوّل: مواقف البشرية وانضمامها إلى صفّ التوحيد وتضحياتها ومواقفها في خضمّ هذا الخطّ.

(٦) البقرة (٢) : ٢٤٣.

(٧) الفجر (٨٩) : ٧ - ١٤.

والثاني : مواقف البشرية المضادة لحركة الأنبياء.

لكنَّ الموقف الأوَّل انقسم هو الآخر على نفسه. فالنبيّ (صلى الله عليه وآله) من جانبه بين مقاصد الشريعة وبلغ ما كلّفه الوحي وطبق ما نادى به على أكمل وجه وبهذا التبليغ تمت الحجّة على الخلق، وقال المولى سبحانه: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) ^(٨). يعني بالخلافة الإلهية الإسلامية قد تمت النعمة وبها ستتم أركان الهداية للناس.

فبالخلافة من بعده (صلى الله عليه وآله) نُقلت لعلّيّ (عليه السلام) وتعبير آخر أنّ عنصر الهداية قد تكامل ضمن خطّ العصمة الهادي للأمة بعد الرّسول (صلى الله عليه وآله) بالإضافة إلى الثقل الأكبر — أعني كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — .

فتاريخ الإسلام الذي بدأ برسالة وبعثة النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله)، واكتملت مقوماته الحجّة بوجود الثقلين، بعد أن كان الحجّة على الناس الكتاب والرّسول (صلى الله عليه وآله)، الأمر الذي كان على أساسه يفرز القرآن حوادث التاريخ والوقائع التي عاصرها النبيّ وصحبه الأخيار. وهناك مصاديق كثيرة للفرز، حتى قال عبدالله بن عمر : والله ما كنّا نعرف المنافقين في زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلاّ يبغضهم عليّاً ^(٩).

وقال الله سبحانه: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ^(١٠) فالقرب من الرّسول والذوبان بمنهجه والاستماع لقوله وتطبيق أوامره والاقتداء بسنّته وعدم التشكيك في خطواته، فكراً وعاطفة وسلوكاً هو المعين لمواقف الآخرين، ولذا كان القرآن يُصنّف الأمة على هذا الأساس ففئة تُضحّي وفئة تُنافق وفئة تتخندق في صف آخر كأصحاب مسجد ضرار وجماعة عبدالله بن أبي.

وإذا كان الفرز القرآني للجماعة الإسلامية يتم على أساس مواقفها من الرسالة والرّسول والقيم التي جاء بها الوحي، فينبغي أن يستمر الفرز لمسيرة الأمة على نفس الوتيرة والمنهج بناءً لاستمرارية التاريخ الإسلامي الممتد بامتداد خطّ العصمة، باعتبار أن خطّ العصمة يُمثّل روح التاريخ وطبيعة حركته، فيما بعد النبيّ (صلى الله عليه وآله) حتّى ظهور خاتم الأوصياء المعصومين أعني محمّد المهدي بن الحسن العسكري (عليه السلام). بغضّ النظر عمّا لو كان الإمام خليفةً وحاكماً وعلى رأس السلطة، أم يعيش في داخل السجون وظلم المطامير.

فالجانب الثاني الذي انقسم على نفسه أصبح ذا قسمين، الأوّل: من التزم خطّ العصمة بعد النبيّ. والثاني: من وقف سلباً أمامه.

(٨) المائدة (٥): ٣.

(٩) قرب الاسناد : ٢٦، والترمذي في سننه: ٥ / ٦٣٥ ح ٣٧١٧. وقد ورد بطرق مختلفة وألفاظ مختلفة منها: المستدرک للحاكم: ١٣٩/٣،

المعجم الأوسط للطبراني: ٢٦٤/٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٨٢/٤، كتر العمّال: ١٠٦/١٣ ح ٤٦٣٤٦.

(١٠) النساء (٤): ٨٠.

وعليه لا يمكن التعامل مع التاريخ ودراسته على أساس البدائل التاريخية، وتصنيف المواقف والأحداث وفق معايير وقوالب قد ابتكرها الإنسان لحماية لمصالحه وتقوية لخدمة سلطانه.

فهذا الابتداع الذي أملت الظروف ما بعد النبي (صلى الله عليه وآله) لا يصعد به إلى مستوى التقديس ليكون إلهياً في رده لنجعل منه بالتالي عنصراً له القابلية في أن يعطف التاريخ ليحوّله إلى تاريخ عظماء وعباقر، أو تاريخ قبائل وقوميات، كأُموية وعبّاسية، أو تاريخ فرق وعقائد، كمعتزلة، أو أشاعرة، أو صوفية، إذ تلك أمور ابتدعتها الظروف السياسية في أمة الإسلام.

فالحق لا تهمسه الظروف ولا تلغيه إرادة السلاطين. نعم، أجداد الأمة الإسلامية ومواقفها تُفَرِّز على أساس تضحياتها للرسالة وإبداعاتها لخدمة الإنسانية وفق المنهج الأصيل.

وانطلاقاً من هذا التأسيس ينبغي أن نقرأ التاريخ وفق هذا المعيار والتسليم بهذا المنطق الإلهي، والإلتزام به وجعله معياراً لمحاكمة الأحداث، وفهمها على أساسه.

ويمكن القول بأنّ العقل لوحده لا يصلح أن يكون حاكماً لتحليل الأحداث وقراءتها بدون ضم المنطق الإلهي الإسلامي إليه، إذ لا يمكن اعتبار رضى الأمة أو غضبها أو عدم قبولها لشيء ما لنقرّ ونحكم على مَنْ خالفها من الأفراد بالمرور عن إرادة الأمة وطموحاتها.

قال ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله) : «لا يكون أحدكم إمعة، قالوا وما الإمعة ؟ قال : يقول إنما أنا مع الناس إن اهتمدوا اهتمدت وإن ضلّوا ضللت ألا يوطّن أحدكم نفسه على إن كفر الناس أن لا يكفر»^(١١). وكان الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يُحذّر أصحابه بأن لا يكونوا تُبَعاً للناس بلا تعقّل ولا رجوع للقيم والموازين الإلهية حين يمارسون وظائفهم الاجتماعية أو السياسية، فقد ورد عنه (عليه السلام) أنّه قال لرجل من أصحابه : «لا تكوننّ إمعة، تقول أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس»^(١٢). كما ليس بصحيح أن يكون رضا الحاكم ومزاجه هو السيّد والحاكم في التاريخ لنقول لمن خالفه قد خالف الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله.

وملخص القول فإنّ المعيار لقراءة التاريخ وكتابته ينبغي أن يقوم على أساس معايير الرسالة وقيمها كما أكدناه وأكّدته نصوص الكتاب المجيد قال تعالى : (فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(١٣).

عقبات في كتابة التاريخ

تبرز أمامنا مشكلات كثيرة نحن أبناء الأمة الإسلامية في هذا العصر، بالذات.

(١١) المعجم الكبير للطبراني : ٩ / ١٥٣.

(١٢) معاني الأخبار للصدوق : ٢٦٦.

(١٣) البقرة (٢) : ٣٨ — ٣٩.

منها: مشكلة كيفية قراءة التاريخ وما هي النظرة أو العين التي نلاحظ من خلالها الوقائع والأحداث التاريخية التي وقفتها الأمة إزاء الرسالة؟ وذلك ليكون التاريخ وفق هذا المنظور أداة لتحريك والتربية والإصلاح بين الناس.

والمشكلة الأخرى الموقف من التاريخ المدوّن والكيفية التي سجّلت على أساسها الأحداث. والمشكلة الأخيرة ما هو المعيار والضابط الذي أملتته الرسالة؟ الأمر الذي يتمّ بموجبه فرز الأحداث التاريخية لتدوّن في مرحلة لاحقة، ثمّ يحقّق للناقد أو الباحث المعاصر أن يلاحظ التاريخ المدوّن وينقده، أو يُصنّفه ويُنظمه على أساس ذلك المعيار. بعد ذلك من حقّه أن يحكم على الأحداث فيما إذا كانت تكرارية في مناهجها، أي تستصحب المناهج القديمة ومتأثرة بها، أو من حقّها أن نحكم الأحداث التاريخية التي كتبها المسلمون وفق مناهج حديثة، كالمنهج التجريبي الذي بَشَّرَ به (روجريكون) أو غيرها.

هذه بعض المشكلات التي تعترض الباحث التاريخي حين يُقلّب صفحات التاريخ المدوّن في ظروف أملت تصوراتها ومناهجها على عقل الباحث آنذاك.

ولما كان للتاريخ دور في صياغة الحاضر ويُشكّل عنصراً مؤثراً في وعي ومسيرة الأمة فيما لو كُتِبَ بمعايير الرسالة، وانطلاقاً من كونه أداة مُحَرِّكة في بناء غد الأمة. إذن ينبغي أن ندرس التاريخ بالكيفية التي رسمها القرآن، حين يعرض لحركة الأمم والجماعات البشرية في السابق، وانطباق تلك الظواهر والإفرازات على الأمة الإسلامية لغرض التوظيف والاستفادة، إنطلاقاً من وحدة الاشتراك في الحكم، وشمولية الخطاب القرآني على الأمة بعد الرسول ما لم يرد فيه تخصيص.

ولذا لا بدّ من التأمل حين نجد القرآن وهو يُسلّط الضوء على الاخفاقات التي أصابت الأمة أثناء عصر الرسالة، كتحدّثه عن معركة أحد وهزيمة المسلمين فيها، وكذا معركة حنين كاشفاً عن الأسباب والخبايا النفسية التي أدّت إلى هزيمة المسلمين فيهما، كما ينبغي التأمل في مواطن القوّة التي أدّت إلى انتصار المسلمين في بدر وغيرها.

حُجَبَ تعترض الثقافة

أدرك السلطان من جهته القضية بدقّة وتعامل مع التاريخ بحذر؛ لأنّه وجد منه سداً مانعاً من تجاوزاته ورآه عنصراً مساعداً في تفعيل وعي الأمة، ومُنْبِهاً لها فيما إذا ضلّت الطريق فهو عنصر ترشيدي بالغ الأهمية، لقد كان أمام السلطان موقفان :

الأول: إمّا أن يمضي على سلوك ومسيرة الصحابة الصادقين من قبله، وبهذا ستتقاطع مسيرته ومواقفه مع مواقف ومسيرة من سبقه من هؤلاء الصادقين، وهذا يعني إقصاء دوره.

والثاني: أن يقف السلطان موقف المُشدِّب والمُحرِّف للتاريخ السابق ليكون منسجماً مع حاضر السلطان وسياسته، كالذي فعله العباسيون حين أقدموا على تعديل مواقف العباس عم النبي (صلى الله عليه وآله) جدهم ليكون تاريخه منسجماً مع أحكام الرسالة وقيمها، أو محاولة إلغاء مواقف وأحداث برمتها كانت قد حدثت في عصر الرسالة، مخافة أن تكون شاهداً يكشف عن زيف السلطان ومخالفته لمسيرة الصحابة الصادقين.

ولكنَّ الواقع قد أثبت أن الجهود السلطانية قد سلكت الأسلوب الثاني وتمَّ تدوين التاريخ بطريقة ذكيَّة ليكون أداة قمع وإلغاء للآخر وتحجيماً لدوره التاريخي. وقد تأثر مؤلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا بهذه الجهود واستجاب لأهدافها بقصد أو غير قصد.

فدخول يد السلطان في تاريخ الأمة وتراثها وبطولاتها لم يقتصر على الأحداث والمنعطفات المهمة في تاريخها بل طال الجزئيات أيضاً، لأنَّ التاريخ يدخل فيه الحديث والتفسير والفقه، فكلُّ ما من شأنه أن يخدم السلطان دخلت اجتهاداته فيه بهدف تطويعه لمصلحته.

وبالبحث الذي يُطبع السلطان ويُحقِّق له غرضه يُساهم في خطئه إذ أنَّ الجهد العلمي المبذول إذا استهدف رضى السلطان وجعله هو الملاك لصحته فهو غمص كبير لحقَّ الرسالة والأمة معاً، وقد نعى القرآن وذمَّ مثل هذا الجهد، قال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (١٤)@.

لذا نجد القرآن قد ندَّد باتباع السلاطين فقال: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) (١٥)@.

وجاء في تفسيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلَّوهم حراماً وحرَّموا لهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون (١٦)@.

فالتاريخ والسيرة النبويَّة يتضمَّنان سلوك النبي وسُنَّته، وسيرة المعصوم تُمثِّل السيرة المطلوبة عند الله تعالى، من هنا جاء الأمر باتباع النبي (صلى الله عليه وآله) من حيث القول والفعل والتقريب، فلا يقول المعصوم من عند نفسه ولا يجتهد قبل الأمر الإلهي.

والأمة التي تُلاحظ التاريخ من خلال العقيدة السليمة بفاعلية التاريخ وسُنَّته سترتفع بالتاريخ، لأنَّ يكون فاعلاً في حياتها وبنائها بل ويساهم في توحيد جهودها، لأنَّ الأمة تقرأ التاريخ بمنظور ترسيخ العقيدة، وبهذا سيرتقي التاريخ إلى مستوى العطاء والتربية.

(١٤) البقرة (٢): ٧٩.

(١٥) التوبة (٩): ٣١.

(١٦) الحاسن للبرقي: ٢٤٦/١، ح ٢٤٦ باب الوعد والوعيد، تفسير العياشي: ٨٧/٢.

السلطان والسنة

ولما أدرك السلطان خطورة هذه المسألة تعجّل فمنع تدوين الحديث.
قال الخليفة الأول: إنكم تُحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ خلافاً، فلا تُحدثوا عن رسول الله شيئاً فمَن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه^(١٧).

وأما الخليفة الثاني فقد أنشد الناس بأنّ يأتوه بما فلمّا أتوه بما أمر بتحريقها^(١٨).
علماً أنّ السنة والتاريخ وطبيعة نقل الأحداث وتداولها بغضّ النظر عن قرار حضر التدوين قد تعرّضت للاختلاف فيما بين المسلمين تبعاً لقرهم من الحادث، أو الذوق الذي يقرأ بموجبه الأحداث، وما إلى ذلك من دواعي الاختلاف في النقل.

ف نجد الخليفة الأول اختلف مع الثاني في أمور كثيرة كقسمة الأراضي المفتوحة وكطريقة الاستخلاف، حتّى قال ابن نعيم: إنّ عمر بن الخطاب اختلف مع عبد الله بن مسعود في أكثر من مئة مسألة، ولذا يقولون إنّ الصحابة كانوا يعدلون عن النصّ عند الضرورة الداعية، وفي أحوال مخصوصة تدعو إليها المصلحة التي يبتني عليها الشرع، فهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الاختلاف في النصوص يرجع إلى وجهات نظر الحاكمين لا إلى الميزان الثابت كالقرآن، أو خليفته المنصوص عليه الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ثمّ إنّ تعليل مسألة تجاوز النصّ وصلاحيّة التلاعب بالأحداث والنصوص المحمّدية وغيرها من الأحكام بحجّة كون المجتهدين أمام النصوص هم من الصحابة، فهذا التعليل مردود بميزان الرسالة إذ لا يمتلك الصحابي صلاحيّة تؤهّله لتجاوز النصّ الصادر عن الوحي الوارد على لسان رسول الله: الذي لا ينطق عن الهوى (إن هو إلّا وحي يوحى)^(١٩)، وقد صرح تعالى قائلاً: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)^(٢٠).
وقال تعالى: (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ...) ^(٢١).

السلطان والفقه

وجاء دور الفقهاء ما بعد الصحابة الذين اعتمدوا التركة الحديثية والتاريخية المسجّلة بعد الرسول حسب ذوق الحاكمين لتكون أساساً في الفقه والحكم.

(١٧) تذكرة الحفاظ للذهبي: ١ / ٣ / ط ١.

(١٨) النصّ والاجتهاد: ١٤١، ح ١٨٨.

(١٩) النجم (٥٣): ٤.

(٢٠) الحاقة (٦٩): ٤٤ — ٤٦.

(٢١) المائدة (٥): ٦٧.

ومع ذلك فما زالت سلطة الحاكم على الفقيه قائمة، فهذا مالك بن أنس فقيه المدينة، نجده حين تولى جعفر بن سليمان إمارة المدينة زمن خلافة أبي جعفر المنصور العباسي، فقد جرّد الأمير مالكا وضربه حتّى انخلعت كتفاه، بسبب كون المنصور قد نهى مالكا عن تداول ونقل حديث «ليس على مستكره طلاق»^(٢٢)، ثمّ دسّ إليه من يسأله عنه فحدّث به مالك فنال ما نال منه.

وبعد هذه الحادثة المشهورة نجد سياسة الخليفة ومصلحته تستدعي تقريب الفقيه، وفعلاً قد قرّبه وقدمه على كثير من الفقهاء، ممّن هو أعلم منه كالإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام). ويروي مالك نفسه قصة هذا التحوّل المثير في حياته، الذي تمّ عبر اللقاء بينه وبين المنصور، حيث استطاع المنصور أن يستميل مالكا ويخلع عليه آلاف الدنانير والحلّ والعطايا، ثمّ يأمره بتدوين الموطأ.

وترتقي علاقة الفقيه مع السلطان إلى رتبة أعلى من ذلك، حيث مُنح سلطة قوية تعتبر آنذاك أقوى من سلطة حاكم المدينة، فقد كان مالك يأمر بحبس من يشاء أو يضرب من يُريد. وبناءً على ذلك يُمكنك التوصل إلى معرفة علّة عدم ذكر مالك فضائل أهل البيت (عليهم السلام)، في موطأه وبخاصة الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي لا تخلو كتب الحديث والسير والتفسير من ذكره.

وقد أجاد مالك حين مثّل إرادة السلطان ونفّذ له ما كان يُريده منه، حيث حذف ما لا يريد السلطان ذكرهم في وثائق التاريخ.

السلطان والتاريخ

وينقل لنا السيوطي في تاريخه أسلوباً آخر للسلطان ومدى تأثيره على كتابة التاريخ، فعن عبدالله بن أحمد بن حنبل أنّه قال: (إعلم أنّ عليّاً كان كثير الأعداء ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له)^(٢٣).

ويبين ابن عزيمة نفطويه في تاريخه مدى جهود السلطان ومحاولاته في تشويه الحقائق ومحوها، واختلاق أحاديث وأجناد لخصوم أهل البيت (عليهم السلام) الذين يُمثّلون الخط الامتدادي للإسلام قال: (إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أميّة تقريباً إليهم بما يظنون أنّهم يُرغمون أنوف بني هاشم)^(٢٤).

(٢٢) مواهب الجليل للخطاب الرعي: ٤٠/١، وسير أعلام النبلاء: ٨٠/٨.

(٢٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩٩.

(٢٤) شرح نهج البلاغة: ٣٦/١١.

ولاحظ معي جهود السلطان في مجال كتابة التاريخ، فقد جاء في مقدّمة كتاب السيرة لابن إسحاق أنّ عبد الملك بن مروان ودّ لو لم ينشغل أحد بالسيرة لما فيها من تقديم لبني هاشم والأنصار^(٢٥).

وصرّح كذلك في مقدمته على السيرة، أنّ ابن إسحاق صنّف السيرة بأمر من المنصور العبّاسي، فلمّا اطّلع عليها المنصور طلب إليه القيام ببعض التعديلات فيها، وقال: «إنّ المنصور أراد من ابن إسحاق التركيز بشكل أوضح على دور العبّاس بن عبد المطلب، وأخباره مع النبيّ وخدماته الجلّي للإسلام، وربّما رافق ذلك طمس بعض ما يتصل بنواحي ضعف العبّاس وأعماله المعادية للرسول قبل إسلامه»، ولم تسلم سيرة ابن إسحاق من الطمس والتعديل بطلب من المنصور، حتّى جاء ابن هشام الذي جمع هذه السيرة ورواها عن ابن إسحاق في كتابه «السيرة النبويّة». وقد بيّن الدكتور زكّار ذلك في مقدمته فقال: «أمّا رواية البكائي فلم تصل إلينا للأسف في شكلها الأوّل بل نالها تعديل ابن هشام واختصاره». وبيّن سبب الطمس بأنّه ممّا يُسيء للسلطان ذكره، «وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، ولهذا النوع من الحذف ولا شكّ أسباب سياسية وأخرى تتصل بالصورة التاريخية لعصر ابن هشام عن النبيّ وصحابته».

وهذا الطبري عندما يقترب التاريخ من مسّ الحاكم تجده يتقلب على وجوه، فيذكر ما يروق له ويترك غيره، فهو عندما يذكر معاوية يتعمّد التعظيم على سيرته من بذخ وترف، وتسلّط على العباد وبناء القصور الفخمة وأكله بأنية الذهب والفضة ولبسه الحرير والدياج، وقد حدّره الخليفة عمر بن الخطاب من ذلك حين لقيه قائلاً: «أكسروية يا معاوية؟!». وقد ترجم ابن خلدون هذه الكسروية فقال: «إنّما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سُبُل الغفلة عن الله».

روى الطبري في تاريخه، في أحداث سنة (٣٠ هـ)، ما كان من أمر معاوية وأبي ذر الغفاري قال: «وقد ذكر في سبب إشخاصه إيّاه منها إليها أمور كثيرة، كرهت ذكر أكثرها. فأما العاذرون معاوية فإنّهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السري يذكر أنّ شعيباً حدّثه عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله، ألا إنّ كلّ شيء لله، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين، وبمحو اسم المسلمين...»^(٢٦)، فروي ما قاله العاذرون معاوية، وترك ما قاله غيرهم، فصار هو أيضاً عاذراً لمعاوية في ذلك، ونقل كثيراً من تاريخه عن الكذّاب المتزندق سيف بن عمر التميمي الذي لم يذكره

(٢٥) مقدّمة ابن إسحاق تحقيق الدكتور سهيل زكّار.

(٢٦) تاريخ الطبري: ٦٦/٥.

أحد من علماء الجرح والتعديل إلاّ وذمّه وآثمّه بالكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولقد انفرد الطبري برواية شخصية عبدالله بن سبأ ومن طريق سيف هذا فقط كيداً لأهل البيت (عليهم السلام) وتشجيعاً لأتباعهم، وتأيداً لسياسة عاذري معاوية. يقول المستشرق البريطاني «جيمس رابسن»: «ومع أنّي لاحظت أنّ العلماء القدامى لا يتفقون في دراساتهم لرواة الحديث، غير أنّا وجدناهم هنا متفقين حول سيف، وهذا ما يجعل الشخص يتعجب من الكتاب الذين جاءوا بعد سيف، وأنهم كيف رضوا لأنفسهم أن يتقبلوا أساطير سيف». المستشرق كاتاني شك في وجود عبدالله بن سبأ وقال عما ينسب له من أعمال ضخمة ومؤامرة مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم لا يمكن أن يتصورها العالم العربي المعروف عام خمسة وثلاثين بنظائمه القائم على سلان الأبوة، إنّها تعكس أحوال العصر العباسي الأوّل بجلاء^(٢٧).

وعى التاريخ وضعف الأمة

يعتقد الكثير من المفكرين الإسلاميين بأنّ العوامل التي أدّت إلى ضعف المسلمين في أن يعيشوا هذا التدهور هي عوامل ضعف داخلية والبعض أرجعها إلى عوامل خارجية والصنف الأكثر وجد أن هناك ترابطاً بين العاملين.

والصنف الأوّل أصر على فاعلية العوامل الداخلية واعتبرها العلّة الأصيلّة في التدهور، مستفيداً من الآيات القرآنية كقوله تعالى: (أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أُنْزِلَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢٨).

وإذا كانت أزمة التدهور والانحطاط ترجع إلى العامل الداخلي فأوّل فقرة من هذه الأزمة ترجع إلى العامل الثقافي، فترى الأمة في عصر ضعفها أنّ العمل الصالح ينحصر بالعبادة، أي في إطارها التعبدي ولم تر أنّ أساس العمل الصالح محوره التوحيد لتكون أنشطتها وفعاليتها تنطلق من هذا المفهوم، فالحجّ عبادة والجهاد عبادة والحكومة عبادة والطاعة عبادة والانتظار عبادة. وهذا المفهوم اتّجه بهموم المسلمين إلى أن تكون واطئة محصورة بالحياة والأسرة والزوجة والمال. وجعل محور النشاط والحركة بهموم الفرد وحاجاته وإقصاء نهج الدين الذي يتسع بهمومه لأكبر من ذلك لتكون هموم عقيدة تدفع بأبنائها إلى الإصلاح بين الناس، الأمر الذي يحتاج إلى ثقافة قرآنية وتاريخية كاملة وربط ذلك ببناء الحضارة والإنسان وعدم الاكتفاء بتمجيد الأسلاف والتغني بترائهم.

(٢٧) هوية التشيع، أحمد الوائلي: ١٣٨، انظر آراء المستشرقين المذكورة في نظرية الإمامة لأحمد محمود: ٣٧.

(٢٨) آل عمران (٣): ١٦٥.

ويأتي السلطان ليعمّق الأزمة الثقافية بتشويهه الحقائق، ومنع تداول ثقافة القرآن وحصرها
بمهوم ثقافة السلطان وانعكاسات ذلك على التربية.

وتأتي وسائل إعلام المرحلة الراهنة بمختلف مراكزها لتطعن بالإسلام محاولة اختراق ثقافته عبر
إثارتها النعرات القومية والعنصرية بهدف إبعاد المسلم عن ثقافته الإسلامية الأصيلة.
وهكذا زرع الأحزاب التشكيك بالفكر الإسلامي نفسه واتهام مَنْ يفكّر بالغيب بأنّه رجعي
مُتخلّف وأنّ الإيمان بالغيب من الخرافة.

وقد لعب الاستشراق دوره البالغ في هذه المسألة وإن كان يُعدّ من العوامل الخارجية للتحدي
الثقافي حيث أصبحت كتابات المستشرقين مرجعاً لفهم الدين عند البعض ممّن تأثّر بالنهضة الأوربية
الحديثة.

وهؤلاء قد استهدفوا الرسول(صلى الله عليه وآله) فقد وصفه أحدهم على أنّه لم يُعرف والده
مستدلاً بأن اسم عبدالله يضاف إلى مجهول لم يُعرف والده، إذاً فالرسول مجهول الأب.
ونسى هذا المستشرق بأنّ العرب بالإضافة إلى معرفتها بأنسابها تعرف حتّى أنساب الخيول
والجمال، وكذلك أشاعوا بأنّ النبي(صلى الله عليه وآله) كان اسقفاً مسيحياً فهو لا يتعدى كونه مصلح دين
وليس مُرسلاً من ربّ العالمين.

واستهدفوا القرآن أيضاً وقالوا بأنّ مرجعه إلى الذات الحمّدية وليس إلى وحي من خارج
الذات، فهو إذن من تأليف محمّد. وهكذا شكّكوا في الحديث وكتبه ومصادره.
أمّا الفقه الإسلامي فقالوا إنّهُ متأثر بالقانون اليوناني، كما استهدفوا التاريخ والسيرة النبويّة
بالذات فكتبوا حولها كتباً كثيرة كان أكثر تلك الجهود مُنصبّاً على تشويه الحقائق، وما إلى ذلك من
شُبّه وافتراءات.

الوعي التاريخي طريق الاستنهاض

فإذا كانت الظروف التي عاصرها المؤلف تستدعي الاستنهاض والاقلاع عن السُّبات والترديّ
الذي طال مظاهر الحياة في البلاد الإسلامية، وتسبّب في تخلفها وتدهورها ودعا بالمفكرين إلى أن
يسجّلوا آراءهم ويتفحصوا الأسباب القديمة بُغية السعي نحو الإصلاح وإيجاد العلاج الملائم نجد مؤلّفنا
يرى أنّ العامل الثقافي هو السبب الأساسي في الهزيمة وعليه لا بدّ من رجوع الأمة إلى أصلاتها
وعقيدتها والاطلاع على التاريخ بل، والسيرة النبويّة بالذات تُكفل لنا نهضة الأمة إذا كُتبت بلغة
علمية نزيهة تُحاكي ضمير الأمة وتشكّل عنصراً نهضوياً ومُحفزاً لحركتها ومساهمة فعّالة في إعادة
وعياها؛ لأنّ التشويش الذي أُلقت به الحقب الزمنية المعتمدة من تاريخها والتلاعب بما كُتب من تراثها
كان السبب الأساسي في التدهور المعاصر.

من هنا لابدّ من التجديد في الكتابة وفحص ما كتبه الأقدمون ونقد ما يكتبه المعاصرون المتأثرون بالمناهج الحديثة والمناهج التاريخية القديمة التي لم تراعى الموازين والمعايير المعتمدة في الفكر الإسلامي. وبناءً على ذلك تأتي السيرة وبعدها تاريخ الأمة كمسيرة لابدّ من تسليط الضوء عليها لغرض الاستنهاض والسعي نحو الكمال المنشود . — طبعاً — بعد مراعاة عدّة أمور ينبغي للباحث العمل بموجبها ، وهي:

١ — استبعاد المناهج الحديثة التي انتهجها العقل الأوروبي كحاكم على تاريخنا ومسيرتنا لنُصنّف على أساسه الأحداث.

٢ — تحرير عقل الباحث من سلطة المذهب أو الطائفة التي يعتقدها، وعدم محاولة توظيف النصوص التاريخية وتحويلها، بما يتلائم مع متبنياته المذهبية.

٣ — دراسة السيرة وفق الميزان القرآني والسنة النبوية الصحيحة، الذي يلزم فيها عدم إقصاء الغيب وأثره في سياق الأحداث والمنعطقات التاريخية كالمعجزة التي مصدرها الوحي أو الرسول.

٤ — الرجوع إلى ثوابت الإسلام ومعتقداته الأمّ من أجل تمييز نتائج المؤرخين والباحثين الإسلاميين والقدرة على الأخذ منها لا إنشاء اعتقادات وموازن جديدة يخترعها الباحث لتكون ميزاناً لقراءة التاريخ الإسلامي.

٥ — بلورة وتشخيص مناطق الضعف وفرز الأحداث التي سببت انتكاسة الأمة وضعفها مخافة الوقوع في نفس ما ارتكبه الأسلاف لئلا يكون مستقبلنا تكراراً لمأساتنا في الماضي.

محمد حسين هيكل ومنهجه في كتابة التاريخ

فإذا كانت الملاحظات الآتية تساهم في نتائج الباحث التاريخي وتؤثر فيه، بالإضافة إلى كون المؤلف قد لاحظ الظرف المعاصر بكلّ ملابساته فعلياً أن نرى (هيكل) كيف اختار منهجه لكتابة التاريخ؟

ثمّ ما هي الدواعي التي دفعته نحو كتابة (حياة محمد) بالذات؟

لقد ذكر المؤلف بهذا الصدد في طيّات بحثه وفي أكثر من مرّة أنّ الذي دفعه لتأليف كتابه هذا هو الظروف الظالمة التي مرّ بها العالم الإسلامي وانخراط أكثر الشباب في التيارات المعادية للإسلام بالإضافة إلى تعلّقه واعجابه بما أنتجه العقل الأوروبي في الفكر والنظم والسياسة والعلم فقال: لا مفرّ من هذا السبيل أن يصل الحاضر الحي وثروة الماضي وتراثه العظيم فهو يريد أن يعرف الإنسانية كلّها كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلّها إليه النبي (صلى الله عليه وآله) على طريقه.

وهذه الغاية غير ميسورة إذا لم يهتد الإنسان إلى هذا السبيل. بمنطق عقله ونور قلبه، راضي النفس بهذا المنطق منشرح الصدر إلى هذا النور، لأنَّ مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح، فالتفكير الذي لا يعتمد على المعرفة الدقيقة ولا يتقيّد مع ذلك بالطرائق العلمية كثيراً ما يُعرّض صاحبه لأن يُخطئ ويكبو، وكثيراً ما ينأى لذلك به عن مَحَجَّة الحق... ودراسة التاريخ يجب أن تكون غايتها نشدان الأمثال العليا من حقائق الحياة، ويجب لذلك أن يتجنب مَنْ يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المزاج، ولا سبيل إلى تجنّبها إلا أن يتقيّد الإنسان بالطريقة العلمية أدقّ التقيّد، وألاً يجعل من العلم والبحوث العلمية في التاريخ أو غير التاريخ مطية لإثبات هوى من أهوائه أو نزوة من نزوات مزاجه^(٢٩).

والناس، على اختلاف مشاربهم الفكرية والعقيدية وتنوع أمزجتهم وأهوائهم لا يجمعهم — من وجهة نظر هيكل — سوى العلم والمنهج العلمي، فهو الوحيد الذي له على هؤلاء جميعاً سلطان وسطوة، بحيث لا يبقى لأيّ واحد منهم حجّة أو ذريعة إن حكم في قضية ما. وقد فرض عليه منهجه الذي أشار إليه غير مرّة أن ينأى عن أكثر كتب السيرة ممّا يعدُّ من أمّهات المصادر في هذا الحقل المعرفي، معترفاً عن ذلك بكثرة الدخيل في هذه السير ممّا لا يصدّقه العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة، والذي اعتمده المستشرقون للنيل من النبوة والنبّي (صلى الله عليه وآله).

وعلى الرغم من ذلك فقد أدان الدكتور هيكل ما يسمى بالفلسفة الواقعية (الوضعية) وموقفها من المسائل الدينية، ورأى أنّها لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيّز التفكير العلمي، وأنّ ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي (المتافيزيقي) ليس — هو أيضاً — من الطريقة العلمية في شيء. كما أدان الدكتور هيكل المحاولات التي استهدفت الحياة الروحية باسم العلم وإحلاله محل الإيمان، وفي الوقت نفسه أكّد على قصور العلم وأنّه لا يزال قاصراً عن تفسير كثير من الظواهر الروحية والنفسية، وأنّه لا يزال قاصراً عن تفسير الظواهر الكونية، فكيف يمكنه تفسير الظواهر الروحية؟ بل إنّ إنكار الظواهر الروحية، وبخاصّة ظاهرة الوحي ممّا يأباه العلم وتنتزه عنه قواعده^(٣٠).

ملاحظات حول منهج الدكتور هيكل في كتابه حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

قد سجل كثير من الباحثين جملة من الملاحظات على كتاب (حياة محمد) لهيكل منهم السيّد محمد الحسيني تحت عنوان الاتجاهات العامّة في دراسة السيرة النبويّة وإليك جملة منها :

(٢٩) راجع ص ٦١ من الكتاب.

(٣٠) مجلة المنهاج: ١٦٣، العدد السادس، السنة الثانية (١٤١٨ هـ) تصدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلامية وراجع ص ٦٠ وما بعدها من الكتاب.

أولاً: اشتمل الكتاب على دراسات نقدية ومعالجات جيدة لا تخلو من الدقة والروعة، ومن ذلك قضية صيانة القرآن من التحريف وكونه متواتراً ومحفوظاً من الزيادة والنقصان. كما عالج عدداً من المسائل الفكرية المهمة مثل الرسائل السائدة يومذاك، وموقع المرأة ومركزها في الإسلام وقبل عصر الإسلام. إضافة إلى ذلك اشتمل بحثه على عدة تساؤلات جدية بالبحث، وبخاصة تلك التي أثارها في فصل الهجرة إلى الحبشة. وناقش بتفصيل مقولات تاريخية إهتم بها المستشرقون لعل في مقدمتها أكذوبة الغرائق وفرية الصرع.

ثانياً: يبدو أن المنهج العلمي الذي إرتضاه هيكل لنفسه فرض عليه التشدد في ما يعرف بمعجزات النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وقد أصر الدكتور هيكل على أن القرآن الكريم هو معجزة الرسول (صلى الله عليه وآله) الكبرى. قال: «و لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة، على اختلاف عصورهم برسالة محمد (صلى الله عليه وآله) إلا القرآن الكريم هذا؛ مع أنه ذكر المعجزات التي جرت بإذن الله على أيدي من سبق محمدًا من الرسل، كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد (صلى الله عليه وآله) وما وجه إليه الخطاب فيه، وما ورد في الكتاب عن النبي لا يخالف سنة الكون في شيء. وكلامه ليس صريحاً في نفي المعجزة، إلا أنه نفى بالفعل عدداً مما عرف من معجزات النبي (صلى الله عليه وآله)، وقد ردّ شيوع هذه المعجزات في كتب المسلمين إلى اعتقادهم بأنها — أي الخوارق المادية — لازم لكمال الرسالة فصدّقوا ما روي منها وإن لم يرد في القرآن الكريم. كما أكد على أن التاريخ لم يذكر أن المعجزات حملت أحداً منهم على أن يؤمن، بل كانت حجة الله البالغة هي الوحي، وحياة النبي في سموها، لذا نوّه في الحديث عن مصادر بحثه إلى أن القرآن الكريم هو المرجع الأصديق.

وعلى أساس هذا المنهج رفض معجزة الغار وحاول التشكيك بها، كما استهان بحادثة سراقه في مطاردته للنبي (صلى الله عليه وآله) وردّها إلى أسباب طبيعية.

وقد جاءت كلمات هيكل في تعليقه على حادثة الإسراء والمعراج مبهمة غامضة، وبخاصة عن وحدة الكون في روح محمد (صلى الله عليه وآله)، إلى درجة علّق معها عبدالله القصيمي في نقده لكتاب هيكل: «والذي نخشاه أن يكون هذا القول قد تضمن نفي الإسراء والمعراج فإنه إذا كان للكون وحدة، أو إذا كان الكون كلّ واحدًا مجتمعاً في روح محمد (صلى الله عليه وآله) وفي صدره كما يريد كاتبنا لم يكن هناك حاجة إلى أن يُسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أو يُعرج به من الأرض إلى السموات العلى، بل لم يكن ذلك مستطاعاً ولا معقولاً، لأن المسجد الحرام والمسجد الأقصى كلاهما

روح محمد وكلاهما شيء واحد، ولأن السماء والأرض شيء واحد وكلاهما في روح محمد، فهل يمكن أن يُعرج به أو يُسرى به إلى شيء هو في روحه ومعه ؟!».

ولكنّ تعسّف الدكتور هيكل واضح في نفي المعجزة بشكل عام، ولعلّ ذلك يرجع إلى ما أسماه بالطريقة العلمية الغربية، وإلاّ إذا كان الدكتور هيكل يعدّ القرآن المرجع الأصدق فلماذا يتعسّف في نفي ما أشار إليه القرآن الكريم في قضية جيش أبرهة الحبشي ويلجأ إلى تفسيرها بالوباء، وباء الجدري الذي تفشّى في الجيش على حدّ زعمه؟! هل من الطريقة العلمية أن يفسّر القرآن خلاف الظاهر من دون قرينة صارفة عن الظاهر؟

ثالثاً: إنّ المؤلّف وإن تأثّر بمنهج الاستشراق إلاّ أنّه درس الاستشراق، بعمق وبمنظرة نقدية لا تخفي امتعاضها منه. وقد أشار في عدد من المواطن إلى أخطاء المستشرقين وحذّر منها صريحاً، وإن عدّ بعضهم من النُصفين، وقد أرجع تلك الأخطاء إلى أهمّ سببين: أولاً: جهل المستشرقين بأسرار اللغة العربية، أو لما يشوب نفوس طائفة منهم ثانياً.

رابعاً: وإن اصطبغ بحث الدكتور هيكل بروح نقدية واضحة، إلاّ أنّه لم يشأ مفارقة المشهور في عدد من المقولات التاريخية، ولم تُثر عنده التساؤلات والاحتمالات ومن ذلك تأخّر جمع الحديث. كما سائر المشهور في إعراض حليلة السعدية عن قبول إرضاع النبيّ (صلى الله عليه وآله) أوّل الأمر ثمّ اضطرارها لقبوله ثانياً.

وتمرّ عليه مقولات تاريخية لا يُعلّق عليها ويُرسلها إرسال المُسلّمات، ومن ذلك ما ذكره على هامش حديثه عن نذر عبدالمطلب، فينقل عن الطبري أنّ امرأة من المسلمين نذرت إن فعلت كذا لتنحرنّ ابنها، وفعلت ذلك الأمر ثمّ ذهبت إلى عبدالله بن عمر فلم يرَ في فتياها شيئاً، فذهبت إلى عبدالله بن العباس فأفتاها بأن تنحر مائة من الإبل، كما كان الأمر في فداء عبدالله بن عبدالمطلب، فلما عرف ذلك مروان والي المدينة أنكره، وقال: لا نذر في معصية.

هنا لم يشأ التعليق. وكيف يخفى الحكم على حبر الأُمة عبدالله بن عباس أو عبدالله بن عمر (ابن الخليفة الثاني) وأجاب عنه مروان المفيّ !!.

أمّا ما هو أكثر طرافة ما نقله عن أمّ المؤمنين عائشة، يقول هيكل: ويروى أنّ عائشة كانت تزور حجر القبر — يعني قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) — سافرة إلى أن دُفن عمر بها إذ لم يكن بها يومئذ غير أبيها وزوجها فلما دُفن عمر كانت لا تدخل إلّا محتجبة لابسة كامل ثيابها.

خامساً: انتماء هيكل المذهبي فرض عليه التعامل بحذر مع النصوص التاريخية وبانتقائية، فهو في الوقت الذي لم يشر فيه — إطلاقاً — إلى حديث الغدير، فإنّه أشار إلى حديث الدار بتصرف، فنقل قول عليّ (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد قوله (صلى الله عليه وآله): فأَيُّكم يؤازرني على هذا الأمر: «أنا يا رسول الله عونك. أنا حربٌ على مَنْ حاربت» ولم يشأ إكماله. نعم، كان هيكل قد

ذكره في الطبعة الأولى عن الطبري في تاريخه ثم حذفه من الطبعة الثانية وما بعدها^(٣١). بل اتهم علياً (عليه السلام) في أمر عائشة في ما عُرف بحديث الإفك قال : «وكانت — الإشاعات — تجد من حسان بن ثابت عوناً ومن علي بن أبي طالب سميعاً». يُلاحظ أن هيكمل نفسه ذكر مقالة عائشة لرسول الله، وهو يحمل ابنه إبراهيم من مارية من أنها لا ترى بينهما شبهاً. كأنه يُشير بذلك إلى نزول آيات الإفك في مارية لا عائشة كما هو في عدد من الروايات.

ولكن الأخطر في هذا الصدد هو اتّهامه لأهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) بوضع الأحاديث والزيادة فيها وإذاعتها بكلّ الوسائل.

وأخطر منه ما ذكره من اتصال النبي (صلى الله عليه وآله) بالنصرانية وحديثه إلى رهبانها وأخبارها وجداله معهم، وبخاصّة مع الراهب النسطوري، وهي مقالة نقلها الدكتور هيكل عن «در منعم» في كتابه «حياة محمد».

سادساً : وقد يبدو التناقض واضحاً على عدد غير قليل من المقولات الفكرية والتاريخية في بحث الدكتور هيكل، فهو في الوقت الذي يمنح فيه دوراً مهماً لحديجة رضي الله عنها في تطمين النبي (صلى الله عليه وآله) إبان نزول الوحي لا يتحرّج من نقل ما روي أنها قالت له : ما أرى ربك إلا قد فلاك، بعد تأخر الوحي وإبطائه عنه.

ومن ذلك إنسياقه مع المقولة التاريخية الشهيرة في إعراض المراضع ومنهم حليلة عن قبول النبي (صلى الله عليه وآله) ليطمه، لأنّ الرجاء في الأياشي قليل، وهو في الوقت نفسه وبعد عدّة صفحات يشيد بأيادي عبدالمطلب على أهل مكّة وكرمه، فكيف غاب عن هؤلاء المراضع أن محمّداً هذا الطفل ليس كأبيّ يتيماً، بل هو حفيد هذا الزعيم المكي الذي يجود على الناس في ساعات العسرة وأيامها ! وقد يكون من أكثر مظاهر التناقض عنده، وهو يقرر أنّ التاريخ لم يذكر أنّ المعجزات حملت أحداً على الإيمان، ففي الوقت نفسه يؤكد أنّ طائفة من الذين آمنوا بمحمّد (صلى الله عليه وآله) ارتدت بعد حادثة الإسراء. فلماذا ارتدت هذه الطائفة وهي لم تؤمن للمعجز؟ فكما أنّها لم تؤمن لأمر حسّي أو أمر خارق للعادة فهي بكلّ تأكيد لا يثنيها عن إيمانها ذلك الأمر، إن لم يزيدها إيماناً^(٣٢).

ونضيف لما ذكره السيّد الحسيني ما يلي :

سابعاً: حبذا لو اطلع مؤلفنا على الكلام المقارن لكي يرعى بعض الأحكام لئلاّ يتوهم القارئ للسيرة بأنّ الحكم فقهيّاً أو عقائديّاً في مسألة من المسائل، كما قرّرها الكاتب كمسألة الشفاعة والعصمة للنبي قبل أو بعد البعثة انظر(ص ٥١١) وكمفهوم الشورى انظر (ص ٣٧٣، ٤١٣، ٤١٤)

(٣١) راجع حياة محمد، الطبعة الثالثة عشر لهيكل: ١٤١ — ١٤٢ .

(٣٢) مجلة المنهاج: ١٦٣ — ١٦٧، العدد السادس، السنة الثانية (١٤١٨ هـ) تصدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

وتشريع حكم الأذان فيما إذا كان متضمناً لقول (الصلاة خير من النوم) أم لا انظر (ص ٤١) والمثلة بالميت انظر (ص ٤٢٨).

ثامناً: النظرة للنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) كرجل عادي لا كنبى له من الامتيازات والصفات التي تستثنيه من ذلك، كحديثه عن حيرة النبي حين طمأنته خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل واتهام زوجات النبي له بالظلم (ص ٦٣٧).

تاسعاً: الارتفاع بالصحابي أبي بكر من حيث قوته الإيمانية أقوى من النبي (صلى الله عليه وآله) كما في (ص ٣٧٥).

عاشراً: ترقيع الأخبار وتشويشها مما يدل على أن الكاتب لم يقو على تصوير الأحداث؛ أو أنه عمد إلى تشويشها، بالوقت الذي كان الهدف من الكتاب عرض السيرة بلغة يفهمها المسلمون لأجل أن يقتدوا بها، كما في (الصفحات ٢٢١ و ٢١٦ و ٣٥٩ و ٧١٤) .

حادي عشر: إحقاق دور الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في نصرته للرسالة والرسول (صلى الله عليه وآله)، ذلك الدور المميز الذي تحدثت عنه الكتب الحديثية والتاريخية المتداولة، ويكفي الباحث مراجعة كتاب شرح نهج البلاغة^(٣٣) وغيره لمعرفة تلك المناقب، إلا أنه نقل لنا من الكتب ما من شأنه أن يقلل من قيمة علي (عليه السلام)، فينقل لنا تردد علي في قبوله الإسلام انظر (ص ١٨٨) وكأن كاتبنا لم يطلع على حياة علي قبل البعثة ومستوى العلاقة التي كانت تربطه مع النبي (صلى الله عليه وآله). وقد سجلت لنا كتب التاريخ قاطبة تحت عنوان أول من أسلم: إنه علي بن أبي طالب (عليه السلام).

والشيء الملفت للنظر أن الكاتب لم يهضم بطولات علي (عليه السلام) حين لاحظ أن راية رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانت في أكثر المعارك بيد علي (عليه السلام)، ربّما رأى هذه الحقيقة بمنهجية غير واقعية، أو غير مُستساغة، أو بدافع إرضاء البعض فحاول عدم إبرازها، كما في (ص ٣٣١)، كما سجل اتّهامه للإمام حين نقل موقفاً سلبياً لا يليق بعليّ إزاء زوجات النبي (صلى الله عليه وآله) انظر (ص ٥٠٨).

ثاني عشر: نقله لمقاطع تاريخية مهمة ومعروفة في تاريخ الرسالة، وقد نقلتها كتبنا الأخبارية بلغة عربية واضحة تُعبّر عن واقعها بما لا لبس فيه ولا غموض إلا أن المؤلف حاول أن يؤلف صورة من عنده تتسم بالغموض والالتباس والشك في ذهن القاري. مثلما فعله في (ص ٥٥٣) وبدأ (محمد) يومئذ غاية من السماحة... والكاتب في معرض بيان سماحة النبي (صلى الله عليه وآله) لكنّه ينقل لنا نصّ

قطع اللسان بأمر النبيّ لأحد الأشخاص فهذه الصورة حتّى على فرض صحّتها لا تنسجم مع هدف الكاتب.

كما أنّ الكاتب يتخيّل لنفسه تصورات ذهنية ثمّ يُملئها على النصّ التاريخي، كما فعل في (ص ٥٢٦).

ثالث عشر: إهماله لبعض الأحداث المهمة في تاريخ الرسالة كالمباهلة (ص ٢٨٦) .

رابع عشر: والتقطيع في النصوص بما يتلائم مع ذوقه مثل ذكره لأسماء الصحابة (ص ٦١٢) وعدم ذكر أسماء البعض الذين ثبتوا في واقعة حنين. وكما فعل في حادثة الغدير ودمجها مع حجة الوداع.

وعدم تعليقنا على بعض الأمور لا يعني إمضاءها وصحّتها لأنّنا التزمنا التعليق على التفاصيل المهمة والحيوية في تاريخ الرسالة وأعرضنا عن بعض لا لعدم أهميتها، بل لأنّ الكتاب أُلّف بهذه الطريقة ونحن لا نريد أن نغيّر طبيعة هدفه ومخافة أن يتحوّل إلى كتاب مناظرة، في الوقت الذي نريده أن يكون نافذة أو إثارة للانفتاح والحوار فيما بين المسلمين، والاطلاع على تراثهم وكتاباتهم، ولغرض صياغة المواقف المطلوبة وممارسة صنع الحاضر والمستقبل الذي يخدم الرسالة.

استفدنا من كتابات كبار الباحثين والحقّقين ونقلنا البعض منها نصّاً في هوامش الكتاب، أمثال العلامة الشيخ محمّد رضا المظفر والعلامة السيّد مرتضى العسكري والعلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي. ولا أنسى الملاحظات القيّمة لفضيلة الشيخ محمّد هادي اليوسفي وفضيلة السيّد مُنذر الحكيم على بعض تعليقاتنا ممّا أضفت على الكتاب جودة وحيويّة.

وأخيراً نأمل من المفكّرين والباحثين أن يثروا السيرة النبويّة بالدراسة والتحليل لتكون حافزاً لمعرفة الدين وعنصراً للإصلاح والتغيير. نسأله تعالى أن يكون عملنا لرضاه إنّه ولي التوفيق. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمّد وآل محمّد.

عبدالرحيم الموسوي الحصري

١٧ / جمادى الأولى / ١٤٢٤ هـ

١٧ / تموز / ٢٠٠٣ م

حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

تقديم الكتاب

حياة محمد

تأليف

محمد حسين هيكل

علق عليه: عبدالرحيم الموسوي

تقديم الكتاب

محمد عليه الصّلاة والسّلام

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه، وله تَهْتَرّ ملايين القلوب كلّ يوم مرّات. وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تَهْتَرّ منذ أربعمئة وألف سنة إلّا خمسين. وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتَهْتَرّ ملايين القلوب إلى يوم الدين. فإذا كان الفجر من كلّ يوم وتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهاب المؤذّن بالناس أنّ الصّلاة خير من النوم^(٣٤)، ودعاهم إلى السجود لله والصّلاة على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعمورة يُحيّون بالصلاة رحمة الله وفضله متجلّين في مطلع كلّ نهار. وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذّن بالناس لصلاة الظهر، ثمّ لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء. وفي كلّ واحدة من هذه الصلّوات يذكر المسلمون محمداً عبداً لله ونبّه رسوله في ضراعة وخشية وإنابة. وهم فيما بين الصلّوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى ترجف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفىه. كذلك كانوا وكذلك سيكونون، حتى يظهر الله الدين القيم ويتمّ نعمته على الناس أجمعين.

ولم يكن محمد بحاجة إلى زمان طويل ليُظهر دينه ولينتشر في الخافقين لواءه، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته^(٣٥)، ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين؛ فبعث إلى كسرى وإلى هرقل كي يُسلما^(٣٦). ولم تمض خمسون ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علم الإسلام خفّافاً ما بين الأندلس في غرب أوربا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين في شرق آسيا، وحتى كانت الشام والعراق وفارس وافغانستان قد أسلمت كلّها واصلت ما بين بلاد العرب ومملكة ابن

(٣٤) كتب الحديث وفتاوى الفقهاء تؤكد بأنّ تشريع الأذان في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان خالياً من التثويب (الصّلاة خير من

النوم) وله كيفية أخرى، وقد أضيف التثويب بعد عصر التشريع وهو من مبتدعات بعض الصحابة.

راجع شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: ٢٤٣/١ ح ٤٠ ط دولة الإمارات العربية ١٤١٣ هـ، وكتر العمال: ٣٥٥/٨ ح ٢٣٢٥١ ط

بيروت مؤسسة الرسالة ١٤١٣ هـ، ووسائل الشيعة للحرّ العاملي: ١٤٦/٥ ط بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٤١٢ هـ، ط ٦.

(٣٥) قال تعالى: (إِذْ يَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) المائدة: ٣.

(٣٦) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، والفتوحات في زمن الخلفاء والدولة الأموية والدولة العباسية.

السماء ، وكانت مصر وبرقة وتونس والجزائر ومراكش قد وصلت ما بين أوروبا وأفريقية ومبعث محمد (عليه السلام). ومن يومئذ إلى يومنا هذا بقيت راية الإسلام عالية في هذه الربوع جميعاً خلا الأندلس التي أغارت النصرانية عليها فعذبت أهلها وأذاقتهم من ألوان الشدة والبأس، حتى لم يطبقوا صبراً على الحياة فعادوا إلى أفريقية وارتد من ارتد منهم هولاً وفزعاً عن دينه ودين أبيه إلى دين العُتاة المعذِّبين.

على أن ما خسره الإسلام في الأندلس من غرب أوروبا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكنوا لدين محمد فيها، فاستشرى في البلقان كلها وأبلغ نوره في روسيا وفي بولونيا وخفقت أعلامه، في أضعاف ما كانت تخفق من أرض اسبانيا^(٣٧)، ومن يوم انتشر الإسلام في صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلب عليه من الأديان متغلب ، وإن تغلبت على أمه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله إيماناً، ولحكمه إسلاماً، وفي رحمته وفي غفرانه أملاً ورجاءً.

هذه القوة التي انتشر الإسلام بها سرعان ما جعلته يقف وجهاً لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مُستमित. لقد تغلب محمد على الوثنية ومحاه من بلاد العرب كما محاه خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها . ولقد تغلب خلفاء محمد على المسيحية في الحيرة واليمن والشام ومصر إلى مهد المسيحية في رومية وفي مدينة قسطنطين. أفقُدر للمسيحية ما قُدر للوثنية وهي دين كتاب من الأديان التي أشاد بها محمد ووضع صاحبها في مصاف الأنبياء؟ وهل قُدر لهؤلاء العرب، عرب البادية الزاحفين من شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة، أن يضعوا يدهم على حدائق الأندلس و رومية وسائر بلاد المسيحية؟ الموت ولا هذا ! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قروناً وقروناً متتالية، ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع ، بل انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامي، جاء المتقاتلون فيه بأسماء محمد وعيسى، وجعل كل فريق من انتقاص رسول الفريق الآخر^(٣٨) وسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصُّبها^(٣٩).

(٣٧) تاريخ الدولة العثمانية العلية، محمد فريد بك : ١٨٣ وما بعدها .

(٣٨) لم يُحدثنا التاريخ بأن المسلمين قد شنعوا بنبي الله عيسى (عليه السلام) في يوم من الأيام بل يعتبرونه من أولي العزم من الرسل، كما صرح به القرآن وله من القيمة والتقدير في نفوسهم كما لباقي الأنبياء التزاماً بقوله تعالى: (لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...) كما ينقل لنا القرآن الكريم بشارته (عليه السلام) للنبي محمد ودعوته إلى دينه.

(٣٩) قصة الحضارة: ١٨/١٥ الحروب الصليبية.

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الخطّ من مقام عيسى، إله عبدالله آتاه الكتاب وجعله نبياً وجعله مباركاً أينما كان، وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حياً، وبراً بوالدته ولم يكن جبّاراً شقيّاً، فسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً. أمّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم التعريض بمحمّد ونعته بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال، شفاءً لما في نفوسهم من غلٍّ، واستفزازاً وحفزاً لشهوات الناس الدنيا. وبرغم ما وضعت الحروب الصليبية أوزارها منذ منات السنين فقد ظلّ تعصّب الكنيسة المسيحية ضد محمّد على أشده إلى عصور قريبة. ولعلّه كذلك ما يزال إن لم يك أشد، وإن يك خفياً يعمل في ظلمات التبشير بالدون من الوسائل. ولم يقف الأمر عند الكنيسة بل تعدّاها إلى كتاب وفلاسفة في أوروبا وفي أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسة صلة تُذكر^(٤٠).

ولقد يعجب الإنسان أن يظلّ تعصّب المسيحية على الإسلام بهذه الشدّة في عصر زُعم أنّه عصر النور والعلم، وأنّه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق. ويزداد الإنسان عجباً حين يذكر المسلمين الأوائل وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحية على الجوسية عظيماً حين اقتحمت جيوش هرقل أرض فارس وكسرت عسكر كسرى. فقد كانت فارس صاحبة النفوذ في جنوب شبه جزيرة العرب منذ طرد كسرى الأحباش من اليمن. ثمّ إنّ كسرى وجّه جيوشه — في سنة (٦١٤ م) — تحت إمرة قائد من قوّاده يُدعى شَهْرَبَاز لغزو الروم، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذرعات وبُصرى^(٤١)، أدنى الشام إلى أرض العرب، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطّع زيتونهم. وكان العرب وكان أهل مكّة يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهّف وشغف، أن كانت القوتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ، وأن كانت في جوار بلاد العرب التي تخضع بعض أجزائها لفارس وتُناخم الروم بعض أجزائها الأخرى. وشمت كفار مكّة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم، لأنّهم أهل كتاب كالمسلمين، وحاولوا أن يلصقوا بدينهم عار اندحارهم. أمّا المسلمون فشقّ عليهم أمر الروم وهم أهل كتاب مثلهم، فكان محمّد وأصحابه يكرهون أن يظهر الجوس عليهم. وأدّى هذا الخلاف بين مسلمي مكّة وكفارها إلى تنادر الفريقين وإلى تمكّم الكفار بالمسلمين، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبي بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول: لا تعجل بالمسرّة، فسيأخذ الروم بثأرهم. وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس. فلمّا سمع الكافر قوله أجابه مُتهكِّماً: كذبت، فغضب أبو بكر وقال: كذبت أنت يا عدوّ الله، وهذا رهان عشرين ألفاً أن

(٤٠) من هؤلاء الفيلسوف الفرنسي فولتير رغم عدائه للنصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر إلّا أنّه كان في الوقت نفسه، مُبغضاً للإسلام

ولرسوله (صلى الله عليه وآله)، راجع الإسلام على مفترق الطرق، ليوبويد بايس المُسمّى بمحمّد أسد: ٥٨.

(٤١) أذرعات وبُصرى تابعة اليوم لأرض الشّام.

ستغلب الروم الجوس قبل عام. وعَرَفَ مُحَمَّدٌ أمرَ هذا الرهان فنصح إلى أبي بكر أن يزيد في الرهان وأن يطيل المدة. وزاد أبو بكر في الرهان إلى مئة بعرٍ إن هُزِمَتِ الفُرس قبل تسع سنين وانتصر هِرَقْلُ سنة (٦٢٥ هـ) وهزم فارس واستردَّ منها الشام واستعاد الصليب الأكبر وكسب أبو بكر رهانه^(٤٢)، وفي النبوءة بهذا النصر نزل قوله تعالى في صدر سورة الروم: (أَلَمْ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٤٣).

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هِرَقْل والنصارى عظيماً، وظلَّت صلة الإخاء بين الذين اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا والذين آمنوا بعبسى عظمة طوال حياة النبيِّ برغم ما وقع في غير ظرف بين الفريقين من مجادلة، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من قهادن أول الأمر ثمَّ عداوة استحرَّت^(٤٤) وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما أجلى اليهود^(٤٥) عن شبه جزيرة العرب جميعاً ومصادق ذلك قوله تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)^(٤٦).

ثمَّ إنَّكَ لترى الدينين يُصَوِّرَان الحياة والخلق صورة تكاد تكون واحدة. وهما في تصوير الإنسانية ومبدأ خلقها سواء. خلق الله آدم وحواء وأسكنهما الجنة وأوحى إليهما ألاَّ يسمعا إلى نزع الشيطان فيأكلا من الشجرة، فيخرجهما من الجنة. والشيطان عدوُّهما، الذي أبي أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لحمد، والذي أبي أن يقُدَّس كلمة الله على رواية كتب النصارى المقدسة. ووسوس الشيطان لحواء وزين لها، فزيت لآدم فأكلا من شجرة الخلد فبدت لهما سوءا قهما^(٤٧)، فاستغفرا ربَّهما فبعثهما على الأرض بعض ذريتهم لبعض عدو، يُغريهم الشيطان فيضلَّ قوم ويقاوم الهلاك آخرون. ولتقوى الإنسانية على حرب هذه الغواية بعث الله نوحاً وإبراهيم وموسى

(٤٢) الطبري في تفسيره عن عكرمة: ١٣/٢٠ ط بولاق وتاريخه: ١٨٤/٢، ١٨٥ ط المعارف .

(٤٣) الروم (٣٠): ١ — ٦ .

(٤٤) استحرَّت: استعرت: المصباح المنير لأحمد بن محمد بن عليّ الفيومي المتوفى عام ٧٧٠ هـ مادة الحُر: ١٢٩ .

(٤٥) لأنَّ القبائل اليهودية الثلاثة التي كانت تقطن المدينة قد نقضت العهود التي أبرمتها مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) وكادت به فيما بعد من أجل

قتله وتحالفت مع الشرك ضد الإسلام، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٨/٢ و ٥٧ و ٧٧ ط بيروت دار صادر، والواقدي في المغازي تحقيق

مارسدن جونز: ٦٥/١ و ٧٦ و ٥٠٢ .

(٤٦) المائدة (٥): ٨٢ .

(٤٧) سفر التكوين: ٣ / ١ — ٧ .

وعيسى والنبيين، وبعث مع كل رسول كتاباً مصداقاً لما بين يديه. وكما يقوم في صف الشيطان أنصاره من أرواح الشر، تقوم الملائكة تُسَبِّح بحمد ربّها وتقدّس له. وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياة والكون جميعاً حتى يوم البعث، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا يسأل حميم حميماً.

وإنّك لتجد في القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إليهما ما تشعر معه حقّ الشعور بهذا الإخاء وما يجعلك تتساءل: ما بال المسلمين والنصارى إذا ظلّوا على القرون خصوصاً متقاتلين؟ والجواب على سؤالك أن بين الإسلام والنصرانية خلافات على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد في عهد النبي لم يتعد حدود الجدل إلى العداوة والبغضاء. فالنصرانية تقول بالتثليث، والإسلام ينكر كلّ ما سوى التوحيد أشد إنكار. والنصارى يؤلّهون عيسى ويلتمسون الدليل على ألوهيته في أنّه ليس بشراً كالناس، بل تكلم في المهد وأوتي من المعجزات ما لم يؤت غيره ممّا هو من عمل الخالق جلّ شأنه. وهم كانوا أيام الإسلام الأولى يُحاجّون المسلمين في ذلك بالقرآن ويقولون: أوليس يقرّ القرآن الذي نزل على محمد رأينا حين يقول: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ* وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ) (٤٨). فالقرآن قد ذكر إذا أنّه يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً ويخبر بالغيب . وكلّ هذه خصائص إلهية، هذا رأي نصارى عهد النبي الذين كانوا يُحاجّونه وبجادلونه ويذهبون إلى أنّ عيسى إله مع الله. ولقد ذهبت طائفة منهم إلى تأليه مريم أن ألقى الله إليها بكلمته. وكان أصحاب هذا الرأي من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. ولم يكن أصحاب هذا القول بتأليه عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرقة يومئذ شيعاً وأحزاباً (٤٩).

(٤٨) آل عمران (٣): ٤٥ — ٤٩.

(٤٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد بن عليّ بن أحمد بن حزم الظاهري : ٤٨/١ (الكلام عن النصارى) ط بيروت دار المعرفة

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمداً على اختلاف نحلهم على أساس مذاهبهم . فكانوا يقولون إنّ المسيح هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة. وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه. ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يعلم، وأنه تكلم في المهد صبيّاً ثم لم يقع لأحد من بني آدم. ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول: أمرنا وخلقنا وقضينا، ولو كان واحداً لقال: أمرت وخلقنا وقضيت. وكان محمد يستمع لهم جميعاً ويجادلهم بالتي هي أحسن. وهو لم يكن في جدالهم يشتد شدته في جدال المشركين وعُباد الأصنام، بل كان يحاجّهم بالوحي من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها^(٥٠).

فالله تعالى يقول : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ)^(٥١).

وقال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٥٢).

وقال جلّ شأنه: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٥٣).

تقول المسيحية بالتثليث وبأن عيسى ابن الله، والإسلام ينكر إنكاراً صريحاً باتاً أن يكون لله ولد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)^(٥٤). (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ)^(٥٥) (وإنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن

(٥٠) راجع السيرة النبوية لابن هشام: ٥٧٥/١ — ٥٧٨ انظر (أمر السيد والعاقب وذكر المبالغة) ط بيروت دار الوفاق: ١٣٧٥ هـ ، وحادثة

المبالغة كانت احتجاجاً صارخاً من النبي (صلى الله عليه وآله) تجاه معتقدات النصارى المنحرفة.

(٥١) المائة (٥): ١٧ — ١٨ .

(٥٢) المائة (٥): ٧٢ — ٧٣ .

(٥٣) المائة (٥): ١١٦ — ١١٨ .

(٥٤) الإخلاص (١١٢): ١ — ٤ .

(٥٥) مريم (١٩): ٣٥ .

فَيَكُونُ^(٥٦) (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)^(٥٧)، فمهما يكن للصورة المسيحية في التثليث من جمال فهي ليست من الحق عند محمد في شيء. إنما الحق هو الله وحده، وحده لا شريك له (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) فلا عجب إذاً أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتي هي أحسن، وأن يؤيد الوحي محمداً بما تلوت من الآيات.

ومسألة أخرى يختلف فيها الإسلام والنصرانية. وكانت مثار جدل في عهد النبي، هي مسألة صلب عيسى ليشتري بدمه خطايا الخلق، فالقرآن صريح في نفي أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه، إذ يقول تعالى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(٥٨).

ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته بني الإنسان جميلة لا ريب ويستحق ما كتب فيها دراسة من نواحيه الشعرية والخلقية والنفسية، فإن المبدأ الذي قرره الإسلام من أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن كل امرئ يوم القيامة مجزي بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن، ويجعل منطق الإسلام من الدقة بحيث لا تجدي معه محاولات التوفيق مع التناقض الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتي (لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ حَازَ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)^(٥٩).

هل فكر أحد من النصارى يومئذ في هذا الدين الجديد وفي إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى؟! نعم، وآمن به منهم كثيرون. لكن الروم الذين اغبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابية، ولم يكلف سادتهم أنفسهم مؤونة البحث في الدين الجديد، ولم يلبثوا أن نظروا للأمر من ناحيته السياسية وإن فكروا فيما يصيب ملكهم إذا ماتم للدين الجديد الغلب. لذلك بدأوا ياتَمرون به وبأهله حتى أرسلوا جيشاً عَرَمَراً عدته مئة ألف في رواية ومئتا ألف في رواية أخرى، فما أدى إلى غزوة تبوك، انسحب الروم فيها أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوغه^(٦٠).

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتالية امتدت امبراطوريتهم أثناءها إلى الأندلس غرباً وإلى الهند والصين شرقاً، وآمنت أكثر

(٥٦) آل عمران (٣): ٥٩ .

(٥٧) النساء(٤): ٤٨ .

(٥٨) النساء (٤): ١٥٧ — ١٥٨ .

(٥٩) لقمان (٣١): ٣٣ .

(٦٠) تاريخ الطبري: ١٨١/٢، ط بيروت دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ، ط ٢ .

أجزاء هذه الأباطورية بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربية. فلما آن لدورة التاريخ أن تدور^(٦١) ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس وحاربوهم الحروب الصليبية وأخذوا أنفسهم بالطعن أقبح الطعن على دينهم ونبههم، طعن كَلِّه الفُحش والكذب والافتراء . ولقد بلغوا من الطعن على محمد (عليه السلام) ما بَلَغ هو في أحاديثه وما بلغ القرآن في الوحي الذي نزل عليه من الارتفاع بعيسى (عليه السلام) إلى المكان الذي اختاره الله له.

جاء في موسوعة (لاروس الفرنسية) خلال العرض لآراء كُتّاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ثَمَّن نالوا من محمد شرَّ النيل ما يأتي: «بقي محمد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخلق، لصَّ نياق، كَرديناً لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية، فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه ، واستولى القصص الخيالي والماجن على سيرته^(٦٢)، وسيرة باهومييه (محمد) تكاد تقيم أدباً من هذا النوع. وقصة محمد التي نشر رينو وفرانسيسك ميشيل سنة (١٣٨١م) تصوّر لنا الفكرة التي كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه. وفي القرن السابع عشر نظر بيل في تاريخ القرآن نظرة تاريخية، مع ذلك ظَلَّت مقررات ظالمة ثابتة في نفسه عنه. على أنه يعترف بالرغم من ذلك بأنّ النظام الخلقي الذي أقام لا يختلف عن النظام المسيحي لولا القصاص وتعدد الزوجات»

وإنَّ واحداً من المستشرقين الذين عرضوا حياة محمد بشيء من الانصاف — ذلك هو الكاتب الفرنسي إميل درمنجيم — ليذكر من هذا الذي كتب إخوانه في الدين، حين قال: «لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة^(٦٣)، ويجب أن يعترف الإنسان بأنَّ الغربيين كانوا السابقين إلى أشدّ الخلاف. فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلّفوا أنفسهم — فيما خلا جان داماسين — مؤونة دراسته . ولم يحارب الكُتّاب والنظامون مسلمي الأندلس إلّا بأسخف المثالب. فقد زعموا محمّداً لص نياق ، وزعموه متهاكاً على اللهو، وزعموه ساحراً، وزعموه رئيس عصابة من قُطّاع الطرق، بل زعموه قساً رومانياً مُغيظاً مُحققاً أن لم ينتخب

(٦١) لم تكن حركة التاريخ قائمة على المسار الجبري، وإنّما تدخل الإرادة الإنسانية والقيم كعاملين مؤثرين في بناء الحضارة.

(٦٢) راجع موسوعة لاروس الفرنسية، مادة محمد: ١٨٣ .

Rengwlte et Franciak, Mahomet. Paris, 183.

(٦٣) حياة محمد (صلى الله عليه وآله) لأميل درمنجيم.

لكرسي البابوية.. وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية. وإن جبريدونوجن نفسه ، وهو رجل جدّ، ليذكر أنّ محمّداً مات في نوبة سكر بين ، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسّر السبب الذي من أجله حرّم الخمر وحرّم لحم ذلك الحيوان... وذهبت الأغنيات إلى حدّ أن جعلت محمّداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية براى ملأى بالتماثيل والصور!! وقد تحدّث واضع أغنية انطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء. أمّا أغنية رولان التي تصوّر فرسان شارلمان يُحطّمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم وأبولون. وتحسب «قصة محمّد أنّ الإسلام يُبيح للمرأة تعدد الأزواج!»^(٦٤).

«وقد ظلّت حياة الأحقاد والخرافات قوية مُتشبّثة بالحياة. فمنذ رودلف دُلوهيم إلى وقتنا الحاضر أقام (نيكولادكيز) و(فيفس)، و(مراتشي)، و(هوُتنجر) و (بلياندر) و (بريدو) وغيرهم فوصفوا محمّداً بأنّه دجال، والإسلام بأنّه مجموعة الهرطقات كلّها، وأنّه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنّهم وحوش ، والقرآن بأنّه نسيج من السخافات. وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجدّ في أمر هذا مبلغ سخافته^(٦٥). مع ذلك فإنّ بيير المحترم (فرابل) مؤلف أوّل رسالة غربية ضد الإسلام قد ترجم القرآن في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية^(٦٦). وفي القرن الرابع عشر كان بيير باسكال من الذين توسعوا في الدراسات الإسلامية. وقد وصف إنوسان الثامن محمّداً يوماً بأنّه عدوّ المسيح. أمّا القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمّداً إلّا هرطيقاً. وكان لريمون ليون في القرن الرابع عشر، ولغليوم بستل في القرن السادس عشر، ولرولان وجانييه في القرن الثامن عشر، وللقسيس دُبرجلى ولرينان في القرن التاسع عشر أحكام وآراء مختلفة... على أنّ الكونت بُولنفلييه وشُول وكوسّان دُبرسفال ودوزي وسبرنجر وبارتلمي سانتليير ودكاستري وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الإجمال إنصافاً للإسلام ونبّه ويُشيدون في بعض الأحيان بهما. مع ذلك فإنّ دروتي يتحدّث في سنة (١٨٧٦ م)

(٦٤) راجع موسوعة لاروس مادة محمّد: ١٨٣ .

(٦٥) الدراسات العربية في ألمانيا ألبرت ديتريش: ١٤ .

(٦٦) الدراسات العربية والإسلامية رودى بارت: ٩ .

عن محمد قاتلاً: «هذا الأعرابي المنافق القذر»^(٦٧) كما طعن عليه فوستر من قبل ذلك في سنة (١٨٢٢ م): «وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون».

أرأيت هذا الحضيض الذي هوت إليه الطائفة من كتاب الغرب؟ أرأيت إصرارهم ، رغم مرّ القرون ، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية؟! ومن هؤلاء من جاءوا في العصور التي نسميها عصور العلم والبحث والتفكير الحرّ وتقدير الأخاء بين الإنسان والإنسان. وبرغم أولئك المنصفين إلى حدّ، ثمّ أشار إليهم درمنجم^(٦٨)، وهو منهم، ومنهم من أقرّ بصدق إيمان محمد بالرسالة التي ألقى الله إليه تبليغها من طريق الوحي، ومنهم من أشاد بعظمة محمد الروحية وبسمو خلقه ورفعة نفسه وجمّ فضائله، ومن صوّر ذلك في أقوى أسلوب وأروع^(٦٩) — برغم ذلك — ما يزال الغرب يوجّه للإسلام ونبّه أشدّ المطاعن، وتبلغ منه الجرأة حتى يثّ المبشرين في أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية.

يجب لذلك أن نبحث عن السبب الذي ترجع إليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العيفة التي تُثيرها المسيحية على الإسلام. وعندنا أنّ جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبيّ في مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة. والجهل لا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصّب وأشدّها استعصاءً. ولقد تراكم هذا الجهل على مرّ القرون وقامت له في نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الإسلام أوّل ظهوره. على أنّا نحسب أنّ ثمة سبباً غير الجهل قد دفع أهل الغرب إلى هذا التعصّب، وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء، التي أثاروها ويثيرونها الوقت بعد الوقت على الإسلام وعلى المسلمين. وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من أقدار السياسة وحبّ الظفر بالشعوب لاستغلالها، فتلك في اعتقادنا نتيجة وليست سبباً لهذا التعصّب المستعصي حتى على العلم وعلى بحوثه.

أمّا السبب في رأينا فيرجع إلى أنّ المسيحية وما تدعو إليه من الزهد في الحياة واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعاني النفسانية السامية ليست ممّا يلائم طبيعة الغرب الذي عاش ألوف السنين على دين تعدد الآلهة، والذي يدعوه مركزه الجغرافي إلى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير

(٦٧) راجع موسوعة لاروس، مادّة محمد وإسلام وقرآن.

(٦٨) راجع حياة محمد لأميل درمنجم

Emile Der Menghem The Life of mahomed pp. 135 NewYork Dial Press 1930

(٦٩) منهم السير وليم موير في كتاب حياة محمد

والضنك وسوء الحال. فإذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يعتنق المسيحية فلا مفرّ له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحي الذي يجعل منها حلقة في سلسلة الوحدة التي أتمّ الإسلام، والتي تؤاخي بين الروح والجسد وتزواج بين العاطفة والعقل، وتسلك الفرد والإنسانية جميعاً في نظام الكون على أنّهم بعض منه مُتسق وإيّاها في لا نهاية الزمان والمكان. هذا في رأينا هو مرجع السبب في تعصّب الغرب ومرجع السبب في موقفه من الإسلام، هذا الموقف الذي تجافت الحبشة عنه حين احتّمى المسلمون بها أوّل ظهور النبيّ.

وإلى هذا السبب في رأيي يرجع إغراق الغربيين وغلوّهم في التدين وفي الإلحاد جميعاً إغراق تعصّب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح. وإذا كان التاريخ قد عرف منهم قديسين احتذوا في حياتهم مثال السيّد المسيح والحواريين، فإنّ التاريخ أيضاً قد عرف أنّ حياة أمم الغرب كانت أبداً حياة نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين، وعرف أن بابوات الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية كانوا في نزاع دائم يغالب بعضهم بعضاً، فيتغلب هذا يوماً ويتغلب ذاك يوماً آخر. ولما كان الكفاح في القرن التاسع عشر قد تغلبت فيه السلطة الزمنية، حاولت هذه السلطة أن تقضي على الحياة الروحية باسم العلم قضاءً مُبرماً عرفت اليوم بعد جهاد طويل أن لا سبيل إليه وآته مستحيل. والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة يريد أهله حياة روحية أضاعوها فهم يلتمسونها في الشيوزوفية^(٧٠)، وغير الشيوزوفية. ولو أنّ المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التي تنشأ بحكم الطبيعة كجزء من حياة أهل الغرب لرأيتهم، وقد شعروا بعجز الفكرة المادية عن أن تلهمهم المدد الروحي، يعودون إلى الدين المسيحي الجميل دين عيسى بن مريم، إن لم يهدهم الله إلى الإسلام، ولما كانوا بحاجة إلى هذه الهجرة إلى الهند وإلى غيرها يستوردون منها حياة روحية يشعر الإنسان بالحاجة إليها حاجته إلى التنفس لأنّها بعض طبعه، بل لأنّها بعض نفسه وكيانه.

وقد عاون الاستعمار الغربي أهله على الاستمرار في الحملة التي أثاروا على الإسلام وعلى محمّد، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكّة حين أرادوا أن يحمّلوا النصرانية عار هزيمة هِرقل والروم أمام فارس. فقد قالوا: وما يزال الكثيرون منهم يقولون إنّ الإسلام هو السبب في انحطاط الشعوب الآخذة به وفي خضوعهم لغيرهم. وهذه فرية يكفي لدحضها أن يذكر قائلها أنّ الشعوب الإسلامية ظلّت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبة السيادة على العالم المعروف كلّ قروناً

(٧٠) الشيوزوفية: تعني بأنّ معرفة الله تعالى تتم عن طريق الكشف القلبي أو بالتأمّل الفلسفي، راجع موسوعة المورد لمير البعلبكي:

طويلة متوالية، وأنها كانت محطّ رجال العلم والعلماء وموئل الحرية التي لم يعرف الغرب إلاّ من أمد قريب. فإذا أمكن أن ينسب انحطاط طائفة من الشعوب للدين الذي يؤمن به أهلها فلا يكون هذا الدين هو الإسلام وهو الذي حفّز بدو شبه جزيرة العرب وأثارهم ومكّن لهم من حكم العالم. على أن هؤلاء الذين يُحمّلون الإسلام وزر انحطاط الشعوب الإسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورُمي من ينكره بالزندقة، وندع الدين جانباً ونقف عند سيرة صاحبه (عليه السلام). فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبيّ ما لا يُصدّقه العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة. وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الإسلام ونبيّه وعلى الأمم الإسلامية واتخذوه تكأّهم^(٧١) في مطاعنهم المثيرة لنفس كلّ منصف. اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم ومازعموا أنّهم يكتبونه على الطريقة العلمية الحديثة. هذه الطريقة التي تستعرض الحوادث والناس والأبطال فتصدر بعد ذلك حكمها عادلاً إن هي رأت لإصدار حكم محلاً. فإذا أنت وقفت عندما كتبه هؤلاء رأيته تُمليه شهوة الجدل والتجريح مصوغاً في عبارة لا تخلو من براعة تستهوي اخوانهم في العقيدة إلى الظنّ بأنّ البحث العلمي المجرد والتزاع إلى الحقيقة وحدها يريد أن يستشفها من وراء كلّ الحجب، وهو الذي وجّه هؤلاء المتعصّين من الكتّاب والمؤرخين، على أنّ السكينة التي يترّ لها الله على نفوس الراضين من الناس — كتّاباً وعلماء، قد أدت بآخرين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى إلى العدل وأحرص على النصفة^(٧٢).

ولقد قام بعض علماء المسلمين في ظروف مختلفة بمحاولة دحض مزاعم أولئك المتعصّين من أبناء الغرب. واسم الشيخ محمّد عبده هو أنصع الأسماء في هذا الصدد. لكنّهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التي زعم أولئك الكتّاب والمؤرخون الأوروبيون أنّهم يسلكون لتكون حجّتهم قوتها في وجه خصومهم. ثمّ إنّ هؤلاء العلماء المسلمين والشيخ محمّد عبده في مقدمتهم، قد اتّهموا بالاحاد والكفر والزندقة فأضعف ذلك من حجّتهم أمام خصوم الإسلام^(٧٣)، ولقد كان اتّهامهم هذا بعيد الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلّم. شعر هؤلاء الشبان بأنّ الزندقة تقابل، في

(٧١) تُكأّة: وهو ما يتكأ عليه، المنجد في اللغة والأعلام مادة التُّكأة: ٩١٥، ط بيروت.

(٧٢) راجع تاريخ الطبري: ٥٥٠/١ و ٨٩/٢ وتفسير الطبري: ١٤٧/٢ ط بيروت دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ — ط ١، وأسباب الزول للواحيدي، سورة النجم والتحريم والأحزاب وسيرة ابن هشام: ١٦٤/١ و ١٦٧ و ١٨٧ و ٢٣٥ فإنّك ستري في تلك المصادر كثيراً من الأخبار التي تشوّه الحقائق ويرفضها العقل وتُسيء للنبيّ (صلى الله عليه وآله) وتصطدم مع عقائدنا الإسلامية الثابتة في الرسالة والرسول. وسيأتي التعليق عليها في المحل المناسب من فصول هذا الكتاب.

(٧٣) أسلوب تكفير الخصوم لم يكن وليد الساعة وإنّما هو قديم ولازال يُمارَس ضد العاملين من أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، المدافعين عن الرسالة وصاحبها (صلى الله عليه وآله).

نظر جماعة من علماء المسلمين، حكم العقل ونظام المنطق، وأنّ الاتحاد قرين الاجتهاد كما أنّ الإيمان قرين الجمود؛ فجزعت نفوسهم وانصرفوا يقرأون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة، اقتناعاً منهم بأنّهم لن يجدوها في كتب المسلمين. وهم لم يفكّروا في كتب المسيحية والتاريخ المسيحي بطبيعة الحال؛ إنّما فزعوا إلى كتب الفلسفة يلتمسون في أسلوبها العلمي ربيّ ما في نفوسهم من ظمأ مُحرق للحقّ، وفي منطقها ضياء للجذوة المقدّسة الكمينّة في النفس الإنسانية ووسيلة إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا. وهم واجدون في كتب الفلسفة وفي كتب الأدب الفلسفي وفي كتب الأدب نفسه الشيء الكثير ممّا يأخذ الإنسان عن نفسه، لروعة أسلوبها ودقة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحقّ. لذلك انصرفت نفوسهم عن هذا التفكير في الأديان كلّها وفي الرسالة وصاحبها، لأنّهم لم يريدوا أن تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها، ولأنّهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي بين الإنسان وعوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية.

انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلّها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها، وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقرّانه من أنّ المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيّز التفكير العلمي، وأنّ ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي (الميتافيزيقي) ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية في شيء. ثمّ إنّهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحاً صريحاً في البلاد الغربية، ورأوا البلاد التي تُقرر دساتيرها أنّ ملكها هو حامي البروتستانتية أو الكاثوليكية، أو تقرّر أنّ دين الدولة الرسمي المسيحية، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها؛ فازدادوا انحرافاً في هذا التفكير العلمي وحرصاً على الأخذ منه وممّا يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب. فلمّا آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية اشتغلوا بها وازدادوا انصرافاً عمّا انصرفوا من قبل عنه، وظلّ اتجاههم الفكري في تياره الأوّل ينظر إلى الجمود العقلي مشفقاً مزدرياً، وينهل من ورد التفكير الغربي والفلسفة الغربية، فيجد فيهما لذّة للناهلين، فيزداد بهما إعجاباً وعلى ما نهّل صدر الشبان منهما حرصاً.

وليس ريب في أنّ الشرق اليوم بحاجة أشدّ الحاجة إلى النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن. فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامي وماضيه قرون من الجمود والتعصّب غشّت على تفكيره السليم القديم بطبقة سمّكة من الجهل وسوء الظنّ بكلّ جديد. فلا مفرّ لمن

يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم. ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحي وثروة الماضي وتراثه العظيم.

ومن الحقّ علينا للغرب أن نقول: إنّ ما يقوم به علماء اليوم من بحوث نفيسة في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية قد مهّد لأبناء الإسلام والشرق أن يتزوّدوا من هذه البحوث في تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاء في الاهتداء إلى الحقّ. فهم أقرب بطبعهم إلى حسن ادراك الروح الإسلامي والروح الشرقي. ومادام التوجيه الجديد قد بدأ في الغرب، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصحّحوا أغلاطه وأن يبثوا فيه الروح الصحيح الذي يعيده إلى الحياة ويصله بالحاضر، لا كمجرد دراسة وبحث بل كميراث روحي وعقلي يجب أن يتمثله الوارثون ، وأن يضيفوا إليه وأن يزيّدوا سناً^(٧٤) ضيائه بما يزيّد الحقيقة الكامنة فيه ضياءً ونوراً.

وقد توفّر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقة العلمية الحديثة، والمستشرقون أنفسهم يُقدّرون لهم ذلك ويُشيدون بفضلهم فيه.

وبينا يقوم هذا التعاون العلمي الجدير بأن يؤتي خير الثمرات، إذا بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفتّر في الطعن على الإسلام، وعلى محمّد طعنًا لا يقلّ عما تلوت منه فيما سبقت الإشارة إليه، وإذا الاستعمار الغربي يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأي^(٧٥)، مع أنّ أصحاب هذه المطاعن، قد أجّلوا عن بلادهم وحيل بينهم وبين ما يسمّونه تثبيت الإيمان في نفوس إخوانهم في الدين، وإذا هذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين. وكذلك تصافر العمل على تأييد ما دُسّ على الإسلام، ما يبرأ الإسلام منه^(٧٦)، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسيع العقل ولا يقبل الذوق، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمّد بما دُسّ على الإسلام وعلى سيرة الرسول.

(٧٤) سنا: لمع، المنجد في اللغة والأعلام ، مادة سنا: ٣٥٩.

(٧٥) لا يُعد الكفر في الدين واشاعة الفساد في الأرض من الحرية في منظورها الإسلامي، وإنّما لها إطارها الخاص الذي يميّزها عن الحرية في مفهومها الغربي.

(٧٦) مثلما تروّجه دائرة المعارف الإسلامية الألمانية للنيل من القرآن الكريم بأسلوبها الخبيث الذي يعمّق الفِرقة بين المسلمين قاتلة: (وقد أثّرت تهمة التحريف فيما وقع جدل بين الفرق الإسلامية المختلفة، فالشيعة يصوّرون على أنّ أهل السنّة قد حذفوا وأثبتوا آيات في القرآن بُغية محو أو تفتيد ما جاء من الشواهد معزّزاً لمذهبهم وقد كال أهل السنّة بطبيعة الحال نفس التهمة للشيعة) دائرة المعارف الإسلامية: ٦٠٨/٤. ط بيروت دار الفكر.

أمّا المتتبع لآراء علماء المدرستين سيجدها تنفي مسألة التحريف في القرآن المتداول، راجع الموقف الإسلامي من أسطورة تحريف القرآن الكريم الصادر عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) والبيان للسيد الخوئي (قدس سره) .

أتاحت لي ظروف حياتي العملية أن أرى ذلك كله في مختلف بلاد الشرق الإسلامي، بل في البلاد الإسلامية كلها، وأن أتبين ما يقصد إليه من القضاء على الروح المعنوية في هذه البلاد، بالقضاء على حرية الرأي وحرية البحث، ابتغاء الحقيقة، وشعرت بأن عليّ واجباً أقوم به في هذا الموضوع، لإفساد الغاية التي ترمي هذه الخطة إليها، والتي تضرّ الإنسانية كلها ولا يقف ضررها عند الإسلام والشرق. وأي أذى يصيب الإنسانية أكبر من العقم والجمود، يُصيب نصفها الأكبر والأعرق في الحضارة على حقبة التاريخ! ولذلك فكرت في هذا وفكرت طويلاً، وهداني التفكير آخر الأمر إلى دراسة حياة «محمد»، صاحب الرسالة الإسلامية، وهدف مطاعن المسيحية من ناحية، وجهود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة^(٧٧)، خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده.

بدأت أراجع تاريخ «محمد»، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازي الواقدي، وعدت إلى كتاب سيّد أمير عليّ (روح الإسلام). ثمّ حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين، فتلوت كتاب درمنجم، وكتاب واشنطن (إرفنج)، ثمّ انتهزت فرصة وجودي في الأقصر في شتاء سنة (١٩٣٢م) وبدأت أكتب. ولقد ترددت يومئذ في أن أجعل البحث الذي أطلع قرّائي به من وضعي أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود، والمؤمنون بالخرافات، من ضجة تفسد عليّ ما أريد. لكنّ ما لقيت من إقبال وتشجيع من طائفة شيوخ المعاهد، وما أبدى لي بعضهم من ملاحظات تدل على العناية بالبحث الذي أقوم به، جعلني أفكر تفكيراً جدياً في تنفيذ ما اعترفت من كتابة حياة محمد على الطريقة العلمية الحديثة كتابة مفصلة، ودعائي للتفكير في أمثل الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصاً علمياً جهد ما أستطيع.

ولقد تبين أن أصدق مرجع للسيرة إنّما هو القرآن الكريم. فيه إشارة إلى كلّ حادث من حياة النبيّ العربيّ يتخذها الباحث مناراً يهتدي به في بحثه ويُمحّص على ضيائه ماورد في كتب السنّة وما جاء في كتب السير المختلفة. وأمعت أريد أن أقف على كلّ ماورد في القرآن متصلاً بحياة النبيّ، فإذا معونة صادقة في هذا الباب يقدّمها إليّ الأستاذ أحمد لطفي السيّد، الموظف بدار الكتب المصرية، هي مجموعة وافية مبوّبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أوحى الكتاب الكريم إليه. ورحت أدقق في هذه الآيات، فرأيت أن لابدّ من الوقوف على أسباب نزولها، وأوقات هذا النزول ومناسباته. وأعترف بأنّي، برغم ما بذلت في ذلك من جهد، لم أوفق إلى كلّ ما أردت منه. فكتب التفسير تُشير أحياناً إليه وتهمّل هذه الإشارة في أكثر الأحيان.

(٧٧) المنهج القرآني في فهم التاريخ والتعامل معه، له ما يميّزه عن المنهج الغربي الذي يعتمد المنهج التجريبي في البحث عن الحقائق، كما أنّ لكل من المنهجين آثارهما ونتائجهما المختلفة فيما بينهما على ذهن الباحث.

ثمَّ إنّ كتاب (أسباب التزول) للواحدي، وكتاب (الناسخ والمنسوخ) لأبي النصر، إنّما تناولوا هذا الموضوع الجليل الجدير بكلّ تدقيق واستيفاء تناولاً موجزاً. على أنّي وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدّة استطعت أن أُخصّ بها ما ورد في كتب السيرة، وإن وجدت فيهما وفي كتب التفسير نفسها أشياء جديرة بمراجعة العلماء المتبحّرين في علوم الكتاب والسنة وتحقيقهم من جديد.

ولما تقدم بي البحث بعض الشيء ألفت المشورة الصادرة تصل إلى من كلّ صوب، ومن ناحية الشيوخ أكثر من كلّ ناحية أخرى بطبيعة الحال. وكانت المعونة الكبرى معونة دار الكتب المصرية، ورجالها الذين أمّدوني من ألوان المعونة، بما لا يفي بالشكر بحسن تقديره. ويكفي أن أذكر أن الأستاذ عبدالرحيم المصحح بدار الكتب، كان يكفيني مؤونة الذهاب إلى الدار في كثير من الأحيان، ويستعير لي ما أريد استعارته من الكتب، مشمولاً بعطف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها، وأن أذكر أنّي في كلّ مرة ذهبت إلى الدار كنت أجد أجمل العون في البحث عما أريد البحث فيه من موظفي الدار كباراً وصغاراً، من عرفت منهم ومن لم أعرف. ثمَّ إنّني كانت تستغل عليّ بعض المسائل أحياناً، فأفضي إلى من أنس فيه المعرفة من أصدقائي بما استغل عليّ، فأجد في كثير من الأحيان خير العون. وجدت ذلك غير مرة عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، ووجدته عند صديقي الضليع جعفر باشا ولي الذي أعارني عدّة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكة، ودلّني على غير مسألة من المسائل وهداني إلى موضعها. وقد أعارني صديقي الأستاذ مكرم عبيد كتاب المستشرق السير وليم موير (حياة محمد)، وكتاب الأب لامنس (الإسلام). هذا إلى ما وجدت من عون في مؤلفات المعاصرين القيمة، ككتاب (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين، و (قصص الأنبياء) للأستاذ عبدالوهاب التّجار، و (الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين، و (اليهود في بلاد العرب) لإسرائيل ولّفنسن، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته في بيان المراجع القديمة والحديثة، التي استعنت بها على وضع هذا الكتاب.

ولقد كنت كلّما ازددت توسّعاً في البحث أرى مسائل تنجم أمامي وتستدعي التفكير، ومزيداً من البحث لحلّها، وكما عاونتني كتب السيرة وكتب التفسير في الاهتمام إلى غاية من تفكيري أطمئن لها، كذلك عاونتني كتب المستشرقين في الاهتمام إلى غاية أطمئن لها. على أنّي رأيتني مضطراً في كلّ المواقف لأقصّر بحثي في حدود حياة «محمد» نفسه ما لم أضطرّ إلى تناول مسائل أخرى متصلة بهذا البحث اضطراراً. ولو أنّي أردت أن أبحث كلّ ما اتصل بهذه الحياة

الفيّاضة العظيمة، لاحتاج الأمر إلى وضع مجلدات عدّة في حجم هذا الكتاب. ويحسن أن أذكر أن (كُوسان دبرسفال) وضع ثلاثة مجلدات، بعنوان (رسالة في تاريخ العرب) جعل المجلدين الأولين منها في تاريخ قبائل العرب وحياتها، وجعل الثالث عن محمد وخليفته الأولين أبي بكر وعمر. وطبقات ابن سعد تقع في مجلدات كثيرة يتناول جزؤها الأوّل حياة محمد، وسائر أجزائها حياة أصحابه. ولم يكن غرضي أوّل ما بدأت البحث ليتجاوز حياة محمد، فلم أُرِد أثناءه أن أتركه يتشعب فيحول ذلك بيني وبين الغاية التي إليها قصدت.

وشيء آخر كان يمسكني في حدود هذه الحياة ، ذلك روعة جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياءً يتوارى دونهما كلّ ما سواهما. فما كان أعظم أبابكر! وما كان أعظم عمر! إذ كان كلّ منهما في خلافته علماً يحجّب من سواه^(٧٨)! وكم كان للسابقين الأولين إلى صحبة محمد من

(٧٨) التصعيد ببعض الصحابة فوق الواقع وخلافاً للتاريخ يفضي إلى فقدان الثقة بالتاريخ نفسه ويجعل منه أداة تضليل وتوظيف بيد الحكام لا أداة قوة وعطاء بيد الأمة ووسيلة للهداية والافتداء. وقد حصل هذا التصعيد في حقبة تاريخية خاصّة وذلك حين قرّر الحكام تمهيش دور أهل البيت (عليهم السلام) في الحياة الإسلامية وفي الثقافة التي اتّخذت السّنة شعاراً لها واختفت وراءها سنة الصحابة بدل سّنة النبي (صلى الله عليه وآله).

لمعرفة حجم التضليل التاريخي الذي حصل للمؤلف نفسه لاحظ ما صرّح به الخليفان أثناء حكمهما حين عجزا عن مواجهة كثير من المعضلات ولجاءا إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في حلّها، راجع:

ذخائر العقبي: ٩٧ و ٨١ و ٨٢، والاستيعاب بمأش الإصابة: ٣/٣٩، وتذكرة الخواص: ١٤٤، ١٤٨، وكفاية الطالب للكنجي: ١٩٢ ط. الغري و ٣٤٤ ط. الحيدرية، والرياض النضرة لخبّ الدين الطبري الشافعي: ٢/٢٥٥ — ٢٦١، والفصول المهمة لابن الصّبّاغ المالكي: ١٧، المناقب الخوارمي الحنفي: ٣٨ و ٣٨ و ٥٠ و ٥١ و ٥٣ و ٥٤، وفرائد السمطين: ١/٣٧٧ و ٣٤٢ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٥١ و ٣٥٤.

نعم لا يمكن الالتزام بهذا الإطراء الذي يسيطر على ذهنية عامّة الناس غير الباحثين عن حجم الحقيقة في كتب التاريخ، فأبوبكر وعمر وعثمان أثناء الخلافة كانوا يراجعون عليّاً (عليه السلام) في المسائل المهمّة التي كانوا يعجزون عنها ولم يرغبوا في إعطاء دور فاعل لعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أيام خلافتهم وقد صرّح الخليفة عمر بذلك في أكثر من مرّة قائلاً: لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو حسن. لولا عليّ لهلك عمر. راجع الاستيعاب بمأش الإصابة: ٣/٣٩، ذخائر العقبي: ٨١، كفاية الطالب: ١٩٢، الرياض النضرة: ٢/٢٠٠، الفصول المهمة: ١٧، المناقب للخوارزمي: ٣٨، فرائد السمطين: ١/٣٣٧.

كما صرّح أبو بكر واعترف بضعفه وعدم قدرته على تحمل مسؤولية الخلافة في أوّل خطبة خطبها حين قال: «فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوموني... ألا وإن لي شيطاناً يعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني»، وفي بعض الروايات فإذا غضبت فاجتنبوني. انظر كثر العمّال: ٦/١٣٦ ط. حيدرآباد، وصفوة الصفوة: ١/٢٦١، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٨/٢، والبداية والنهاية: ٦/٣٠٧، وتاريخ الأمم والملوك: ٣/٢١٠ — ٢١١.

وندم أبوبكر على بعض أفعاله أثناء خلافته، حيث أخرج العسقلاني بسنده عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، قال: دخلت على أبي بكر أعوده فاستوى جالساً فقلت: أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال أبوبكر: أما إني على ما ترى بي... إني لا آسى على شيء إلا على ثلاث وددت أنني لم أفعلن: وودت أنني لم أكشف بيت فاطمة وتركته وإن أغلق على الحرب، وودت أنني يوم السقيفة كنت قدذفت الأمر في عنق أبي عبيدة، أو عمر فكان أميراً وكنت وزيراً. انظر لسان الميزان: ٤/١٨٨ — ١٨٩، وميزان الاعتدال: ٢/٢١٥، والإمامة والسياسة: ١/١٨، ومجمع الزوائد: ٥/٢٠٢ — ٢٠٣، وكثر العمّال: ٥/٦٣١، الحديث ١٤١١٣.

وينقل ابن قتيبة قول عمر لأبي بكر ودخولهما على بيت فاطمة ورفض فاطمة لهما واحتجاجها عليهما بأنّهما سمعا رسول الله أنّه قال: «رضي فاطمة رضي وسخط فاطمة سخطي» وقولها أنّهما سخطاها ولم ترض عنهما وأنّها ستشكوا أمرها إلى الرسول وستدعو عليهما في كلّ صلاة تصلّيها. انظر الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/١٣ ط. ١٩٦٩م.

عظمة ثبتت على الأجيال وهي بعد ثمة تفاخر به الأجيال ! لكن هؤلاء جميعاً كانوا يستظلون أثناء حياة النبي بجلال عظمته ويستضيئون بباهر لآلئه. فليس يسيراً على من يبحث في سيرة الرسول أن يدعها لشيء سواها. وهو أشد بذلك شعوراً إذا تناول البحث على الطريقة العلمية الحديثة على نحو ما حاولت أن أفعل، هذه الطريقة التي تجلو عظمة محمد على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة والفؤاد جميعاً ويغرس فيها من الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم.

وأنت إذا طرحت جانباً أولئك المتعصّين الحمقى الذين جعلوا النّيل من محمد دأهم كالمبشرين وأشباههم، فإنك واجد هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها في كتب العلماء المستشرقين واضحين جليّين، عقد كارليل في كتابه «الأبطال» فصلاً عن محمد صور فيه الجدوة الإلهية المقدّسة، التي أوحى إلى محمد ما أوحته إليه، فصور العظمة في جلال قوتها. ومؤيّر، وإرفنج، وسيرنجر، وفيل، وغيرهم من المستشرقين العلماء، قد صور كل واحد منهم عظمة محمد تصويراً قوياً، وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة بالإسلام، لغير شيء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحّصها التمحّص العلمي الدقيق، ولأنه اعتمد فيها على ما ورد في كتاب، أو في آخر من كتب السيرة، أو من كتب التفسير، متناسياً أن أول كتب السيرة إنما كتبت بعد قرنين من عصر محمد، دُست أثناءهما على حياته وعلى تعاليمه إسرائيليات كثيرة، ووُضعت أثناءهما ألوف الأحاديث المكذوبة. ومع أن هؤلاء المستشرقين يقرّرون هذه الحقيقة، فإنهم لا يأبون مع ذلك تناسيها ليقرّروا أموراً، ينفىها شيء من التمحّص، على أنها صحيحة، كمسألة الغرائق وكمسألة زيد وزينب، وكمسألة أزواج النبي، ثمة أتيح لي امتحانه وتمحيصه في هذا الكتاب.

لست مع ذلك أحسب أنني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد، بل لعلّي أكون أدنى إلى الحقّ إذا ذكرت أنني بدأت هذا البحث في العربية، على الطريقة العلمية الحديثة، وأن ما بذلت في هذه السبيل من مجهود لا يخرج هذا الكتاب عن أنه بداية البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل. وإذا كان جماعة من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا لبحث عصر من العصور، كما انقطع أولار في فرنسا لبحث عصر الثورة الفرنسية، وكما انقطع غيره من العلماء لبحث عصر، أو عصور معينة من التاريخ في مختلف الأمم، فحياة «محمد» جديرة بأن

وقد استحدث عمر في أيام خلافته كثيراً من الأحكام خلافاً لما سنّه رسول الله ونزل به الوحي في آياتي الخمس والزكاة وآياتي المتعنتين وآية الطلاق الثلاث واستبدال السنّة الواردة بكيفية نوافل شهر رمضان وكيفية الأذان والتكبير في صلاة الجنائز والعول في الفرائض ومسألة تحديد صداق النساء حين اعترضت عليه امرأة فقالت قال تعالى: (وآتيتهم إحداهنّ قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال لها عمر: كلّ أحد أفقه من عمر مرتين أو ثلاث. انظر السنن الكبرى: ٢٣٣/٧، كتر العمال: ٢٩٨/٨، والدر المنثور: ١٣٣/٢.

ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ، يتخصص فيها ويتوفر عليها. وليس يساورني شك في أنّ الانقطاع والبحث العلمي في هذه الفترة القصيرة، من حياة بلاد العرب، واتصالها بحياة الأمم المختلفة في ذلك العصر، تفيض نتائجها على العالم كله لا على الإسلام والمسلمين وحدهم أغزر الثمرات، وتجلو أمام العلم كثيراً من المسائل النفسية والروحية، فضلاً عما تفيض عليه من ضياء في نواحي الحياة الاجتماعية والخلقية والتشريعية ما يزال العلم يتردد أمامها متأثراً بهذا النزاع الديني بين الإسلام والنصرانية، وبهذه المحاولات العقيمة التي يقصد منها إلى (تغريب) الشرق أو تنصير المسلمين فما ثبت على الأجيال فشله واستحالته وسوء أثره في علاقات أجزاء الإنسانية المختلفة .

وأذهب إلى أبعد مما تقدم، فأقول: إنّ هذا البحث جدير بأن يهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تلتمسها. وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد في الإسلام ورسوله، وتلتمس هذا النور في ثيوزوفية الهند وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى، فإنّ رجال هذا الشرق من المسلمين، واليهود والنصارى جميعاً خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجلية بالتراهة والانصاف، اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق. فالتفكير الإسلامي — على أنّه تفكير علمي الأساس على الطريقة الحديثة، في صلة الإنسان بالحياة المحيطة به، وهو من هذه الناحية واقعي بحث — ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون، وخالق الكون، ويدع لذلك في النواحي النفسية والنواحي الروحية آثاراً قد يقف العلم بوسائله حائراً أمامها، لا يستطيع أن يثبتها أو ينفيها، وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية، ثمّ هي تظل مع ذلك قوام سعادة الإنسان في الحياة ومقومة سلوكه فيها. فما الحياة؟! وما الكون؟! وما صلة الإنسان بهذا الكون؟! وما حرصه على الحياة؟! وما هي العقائد المشتركة التي تبث في الجماعات القوة المعنوية، التي تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة؟! وما الوجود؟! وما وحدة الوجود؟! وما مكان الإنسان من الوجود ووحدته؟! هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدي ووجدت منه أدباً مترامي الأطراف. لكنك تجد حلّها في حياة «محمد» وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريدي، الذي أفنى فيه المسلمون قروناً منذ العهد العباسي، وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، ثمّ انتهى بالغرب إلى العلم الحديث (على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى) ثمّ وقف العلم في الماضي، كما أنّه مهدد اليوم بالوقوف دون اسعاد الإنسانية . ولا سبيل لدرك هذه السعادة إلاّ العود لحسن ادراك هذه الصلة الذاتية بالوجود، وخالق الوجود في وحدته التي لا تتغير سننها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلاّ وجود نسبي لحياتنا القصيرة. وحياة «محمد» هي لا ريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية، دراسة

علمية لمن أراد ، ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال في مراتب أولية، لبعدها ما بينها وبين الصلة الإلهية التي أفاء الله على رسوله. وأكبر ظني أن كلتا هاتين الدراستين خليقتان، يوم يُتاح لهما التوفيق أن تنقذا عالمنا الحاضر من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية، أو العلمية. وثنية جعلت المال وحده معبوداً، وسخرت كل ما في الوجود من علم وفن وخلق ومواهب لعبادته، والتسبيح بحمده.

قد يكون هذا التوفيق ما يزال بعيداً. لكنّ طلائع القضاء على هذه الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر، وتوجّه الحضارة الحاكمة فيه، تبدو واضحة لكل من تتبع سيرة العالم وأحداثه. فلعلّ هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها، إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية، بالتخصص لدراسة حياة «محمد» النبي، وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التي انتشرت في العالم كأثر من آثاره.. وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الإنسانية الكمينية مزيداً من اتصال بني الإنسان بحقيقة الكون العليا، كان ذلك الحجر الأول في أساس الحضارة الجديدة.

وهذا الكتاب ليس إلا محاولة بدائية في هذه السبيل كما قدمت. وبحسبي أن يُقنع هذا الكتاب الناس بما فيه، وأن يُقنع العلماء والباحثين بضرورة الانقطاع والتخصص لبلوغ الغاية من بحث موضوعه. ولو أنّه أثمر أيّاً من هذين الأثرين أو كليهما لكان ذلك أكبر جزاء أرجو عن الجهد الذي بذلت فيه. والله يجزي الحسنيين.

محمد حسين هيكال

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الإسلام

مهد الحضارة الأولى، اليهودية والمسيحية، الفرق المسيحية وتناحرها، مجوسية فارس، شبه جزيرة العرب تموج بطرق القوافل، اليمن وحضارتها، بقاء شبه الجزيرة على الوثنية.

ما يزال البحث في تاريخ الحضارة الإنسانية وأيان كان منشؤها متصلاً إلى عصرنا الحاضر. وكان هذا البحث قد استقرّ زماناً طويلاً عند القول بأنّ مصر كانت مهد هذه الحضارة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مضت، وأنّ ما قبل هذا الزمن يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ممّا يتعدّد الكشف عنه بطريقة علمية صحيحة. أمّا اليوم فقد عاد علماء الآثار يُنقبون في العراق وفي سوريا يريدون الوقوف على أصل الحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية وتحقيق العصر الذي ترجع هذه الحضارة إليه. أهو سابق عصر الحضارة المصرية الفرعونية مؤثر فيها، أم هو لاحق عصر هذه الحضارة متأثر بها؟ ومهما يسفر تنقيب علماء الآثار عنه في هذه الناحية من نواحي التاريخ، فهو لا يُغيّر شيئاً من حقيقة لما يكشف التنقيب في آثار الصين والشرق الأقصى عمّا يخالفها. هذه الحقيقة هي أنّ مهد حضارة الإنسان الأولى، سواء أكان في مصر أم في فينيقيا أم في آشور، كان متصلاً بالبحر الأبيض المتوسط، وأنّ مصر كانت أقوى المراكز التي أصدرت الحضارة الأولى إلى اليونان وإلى رومية، وأنّ حضارة عالمنا في هذا العصر الذي نعيش فيه ما تزال وثيقة الصلة بتلك الحضارة الأولى، وأنّ ما قد يكشف البحث عنه في الشرق الأقصى من تاريخ الحضارة في تلك الأقطار لم يكن له في عصر ما أثرٌ يذكر في الحضارات الفرعونية والآشورية والأغريقية، ولم يُغيّر من اتجاه تلك الحضارات وتطوّرها إلى أن اتصلت بها حضارة الإسلام، فأثّرت فيها وتأثّرت بها وتفاعلت وإياها تفاعلاً كانت الحضارة العالمية التي تخضع الإنسانية اليوم لسلطانها بعض أثره.

وقد ازدهرت تلك الحضارات التي انتشرت على شواطئ البحر الأبيض أو على مقربة منه في مصر وآشور واليونان منذ أُلوف السنين ازدهاراً مايزال حتى اليوم موضع دهشة العالم وإعجازه، ازدهرت في العلم والصناعة والزراعة والتجارة وفي الحرب وفي كل نواحي النشاط الإنساني. على أن الأصل الذي كانت تصدر تلك الحضارات عنه وكانت تستمد قوتها منه كان أصلاً دينياً دائماً. حقاً أن هذا الأصل اختلف ما بين التثليث المصري القديم مصوراً في أوزوريس وإيزيس وهورس مشيراً إلى وحدة الحياة في أنهارها وتجدها، وما بين الوثنية اليونانية في تصويرها للحق والخير والجمال تصويراً مُستمداً من مظاهر الكون الخاضعة للحس، كما اختلف من بعد ذلك اختلافاً هوى بهذا التصوير في عصور الانحلال المختلفة إلى دنيا المراتب. لكنّه بقي دائماً أصل هذه الحضارة التي شكّلت مصير العالم، كما أنّه قوي الأثر في حضارة هذا العصر الحاضر، وإن حاولت هذه الحضارة أن تتخلص منه وتقف في وجهه وقوفاً ما يزال الحين بعد الحين يستدرجها اليه. ومن يدري لعلّه سيدمجها فيه في مستقبل قريب أو بعيد مرة أخرى.

في هذه البيئة التي استندت حضارتها منذ أُلوف السنين إلى أصل ديني، نشأ أصحاب الرسالة بالأديان المعروفة حتى اليوم. في مصر نشأ موسى، وفي حجر فرعون تربى وقهّذ ، وعلى كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرف الوحدة الإلهية وعرف أسرار الكون^(٧٩)، فلما أذن الله له في أداء الرسالة ببلد كان فرعون يقول لأهله : (أنا ربكم الأعلى)^(٨٠) وقف يجادل فرعون وسحرته حتى اضطره فرعون فهاجر ومعه بنو إسرائيل إلى فلسطين. وفي فلسطين نشأ عيسى روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم. فلما رفع الله عيسى بن مريم إليه، قام الحواريون من بعده يدعون إلى المسيحية التي دعا إليها. ولقي الحواريون ومن اتبعهم أشدّ العنت، حتى إذا أذن الله للمسيحية أن تنتشر حمل علمها عاهل رومية صاحبة السيادة على العالم يومئذ، فدانت الأمبراطورية الرومانية لدين عيسى ، وانتشرت المسيحية في مصر والشام واليونان، وامتدت من مصر إلى الحبشة، وظلّت ستة قرون متتابعة يزداد سلطانها اتساعاً ويستظل بلوائها كل من استظل بلواء رومية، وكل من طمع في مودّتها وفي حسن العلاقة بها.

(٧٩) لم يتربّ النبيّ موسى (عليه السلام) أخلاقياً ولا ثقافياً على يد فرعون وكهنته، بل شاءت القدرة الإلهية ولمصلحة أرادها الله سبحانه، أن يعيش النبيّ موسى (عليه السلام) فترة من حياته على مقربة من فرعون كلّون من ألوان المحافظة عليه، فعليه لم يكن حضوره (عليه السلام) في القصر قد جاء بطريقة عفوية ليتولى فرعون تربيته، وإنّما كان يخضع لإرادة ومخطط إلهي سابق، قال تعالى: (إِنَّا رَأَوُہُ إِلَیْکَ وَجَاعِلُوہُ مِنَ الْمُسْلِمِیْنَ) القصص: ٧، إذاً فوجوده في القصر الفرعوني كان ضمن مرحلة مُقدّرة حتى إذا استنفذ غرضها تلقى (عليه السلام) دوره الرسالي الموعود.

تجاه هذه المسيحية التي انتشرت في ظلّ لواء رومية ونفوذها، وقفت مجوسية الفرس تؤازرها قوى الشرق الأقصى، وقوى الهند المعنوية. وقد ظلّت آشور وظلّت مدينة مصر الممتدة في فينيقيا عصوراً طويلة حائلة دون انتطاح^(٨١) الغرب والشرق وحضارتيهما. على أنّ دخول مصر وفينيقيا في المسيحية أذاب هذا الحائل ووقف الغرب والشرق وجهاً لوجه. وقد ظلا عصوراً متصلة وفي نفس كلّ من هيبة الآخر ما أقام مكان ذلك الحائل الطبيعي الأوّل حائلاً معنوياً اقتضى قوته أن توجه كلتا جهودها وغزواتها في ناحيتها دون مُبادأة الأخرى بالعدوان. وبذلك ظلّت غزوات الغرب في الغرب، وغزوات الشرق في الشرق، وبذلك كان الحائل المعنوي في مثل منعة الحائل الطبيعي، وكفل تكافؤ القوتين عدم تصادمهما.

وكذلك ظلّ الحال إلى القرن السادس المسيحي. وفي هذه الأثناء بدأت المنافسة بين رومية وبيزنطة، وبدأت أعلام رومية، التي أظلت من قبل بوليوس قيصر وفي أثناء حكمه ربوع أوروبا إلى الغال^(٨٢) وإلى السلت في إنجلترا، تنطوي وتنكمش رويداً رويداً، حتى أغار الفندال الهمج على رومية واستولوا عليها وعلى سلطاتها، وانفردت بيزنطة بالسلطات وأصبحت وارثة الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف. وكان لانكماش رومية وقيام بيزنطة مكانها أثره الطبيعي في المسيحية التي نشأت في أحضان رومية وتأثرت بحضارتها وتعاليمها. بدأت المذاهب تتعدد وينقسم كلّ مذهب على توالي الزمن فرقاً وأحزاباً، ولكلّ شيعة في طقوس الدين وأسسها رأي يخالف رأي الشيعة الأخرى. وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها في الرأي تنكراً أنتج العداوة الشخصية التي تلمسها حيثما دبّ الضعف الخلقي والذهني إلى النفوس فجعلها سريعة إلى الخوف سريعة لذلك إلى التعصب الأعمى والجمود العقيم. كان من بين طوائف المسيحية في تلك الأزمان من ينكرون أنّ لعيسى جسداً يزيد على طيف^(٨٣) كان يتبدّى^(٨٤) به للناس! وكان من بينها من يزوجون بين شخصه ونفسه زواجاً روحياً يحتاج إلى كثير من كدّ الخيال والذهن لتصوره. وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعد وضع المسيح، وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام الانحلال في كلّ أمة. كان يقف

(٨١) إنتطاح: النطح للأكباش ونحوها، وقد يقتاس من ذلك تناطحت الأمواج والسيول والرجال في الحرب. لسان العرب مادة نطح: ٦٢١/٢.

(٨٢) كانت القبائل المسماة بالغالية تسكن فرنسا الحالية قبل الميلاد، وقد تعرضت إلى احتياح من قبل القبائل السلتية وجاءت تسميتها بالغالية

بعد الاجتياح وقد استمرت سيادتها على الأراضي الفرنسية حتى القرن الأوّل قبل الميلاد. راجع موسوعة السياسة: ٥٠٨/٤.

(٨٣) طيف الخيال: مجيئه في النوم — صحاح الجوهري: ١٣٩٧/٤.

(٨٤) تبدّى: ظهر. مجمع البحرين: ٤٤/١ — ٤٧.

عند الألفاظ والأعداد يُسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعاني ويُضفي عليه من الأسرار ويُحيطه من ألوان الخيال بما يعجز عنه وهم المنطق ولا تسيعه إلا سفسطة الجدل العقيم^(٨٥).

قال أحد رهبان الكنيسة: «كانت أطراف المدينة جميعاً ملاءى بالجدل سواء في الأسواق وعند باعة الملابس وصرّافي النقود وباعة الأطعمة. فأنت تريد أن تبدّل قطعة من ذهب ، فإذا بك في جدل عمّا خلق وما لم يخلق. وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك مَنْ تسأله : الأب أعظم من الابن والابن خاضع له. وأنت تسأل عن حمّامك وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك: لقد خلق الابن من العدم».

على أنّ هذا الانحلال الذي طرأ على المسيحية فجعلها أحزاباً وشيعاً لم يكن ذا أثر قوي في كيان الأمبراطورية الرومانية السياسي. بل ظلّت هذه الأمبراطورية قوية متماسكة، وظلّت هذه الفرق تعيش في كنفها في نوع من النضال لم يتعدّ الجدل الكلامي، ولم يتعدّ المؤتمرات اللاهوتية، تعقد لثبّت في مسألة من المسائل ، فلا يكون لقرار طائفة ما من السلطان ما يلزم الطوائف، أو الفرق الأخرى. وأظلت الأمبراطورية هذه الفرق جميعاً بحمايتها، ومدّت لها جميعاً في حرية الجدل ممّا زاد في سلطان الأمبراطور المدني، من غير أن يضعف من هيئته الدينية، أن كانت كل فرقة تعتمد على عطفه عليها، بل تذهب إلى الزعم بأنّها تعتمد على تأييده إيّاها. وهذا التماسك في كيان الأمبراطورية هو الذي طوّع للمسيحية أن يظل انتشارها في مسيره وأن تصل من مصر الرومانية إلى الحبشة المستقلة المخالفة لرومية فتجعل لحوض البحر الأحمر من المكانة ما لحوض البحر الأبيض، وأن تنتقل من الشام وفلسطين حيث اعتنقها أهلها واعتنقها العرب الغساسنة الذين هاجروا إليها، إلى شواطئ الفرات ليدين بها أهل الحيرة ويؤمن بها اللخميون والمناذرة الذين ارتحلوا من جذب الصحراء وباديتها ليستقروا في هذه المدائن الخصبة العامرة، وليكونوا مستقلين زمناً لتحكمهم الفرس المجوس من بعده^(٨٦).

في هذه الأثناء كذلك أصاب المجوسية في الفرس من أسباب الانحلال ما أصاب المسيحية في الأمبراطورية الرومانية. وإذا كانت عبادة النار قد ظلّت الظاهرة المجوسية البادية للعيان، فإنّ آلهة الخير والشرّ واتباعها قد انقسمت هي أيضاً عند المجوس فرقاً وطوائف ، ليس هاهنا مكان عرضها. مع ذلك ظلّ كيان الفرس السياسي قوياً لم يؤثر فيه هذا الجدل الديني حول صور الآلهة والأفكار المطلقة التي ترتسم وراء هذه الصور، واحتتمت الفرق الدينية المختلفة بعاهل الفرس

(٨٥) الفصل في الملل والأهواء، لأبي محمّد بن عليّ بن أحمد بن حزم الظاهري: ٤٨/١ — ٦٣ ط بيروت دار المعرفة ١٣٩٥ هـ ط ٢.

(٨٦) الكامل في التاريخ: ١٨٣/١ و ٢٥٣، ط بيروت دار الكتاب العربي ١٤٠٦ هـ ط ٦ / ٦، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم: ٣٢/١،

ط بيروت دار الجبل ١٤١١ هـ ط ١٣ .

الذي أظّلها جميعاً . بلوائه والذي ازداد . باختلافها قوة على قوة، أن جعل من اختلافها وسيلة لضرب بعضها ببعض كلما خيف أن تقوى شوكة إحداها على حساب الملك أو على حساب الفرق الأخرى^(٨٧).

هاتان القوتان المتقابلتان ، قوة المسيحية وقوة المجوسية، قوة الغرب وقوة الشرق، ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما. كانتا في أوائل القرن السادس الميلادي تحيطان بشبه جزيرة العرب. ومع ما كان لكل واحدة منهما من مطامع في الاستعمار والتوسع. ومع ما كان يبذل رجال الدين في كليتهما من الجهود لنشر الدعوة إلى العقيدة التي بها يؤمنون، فقد ظلّت شبه الجزيرة وكأنّها واحدة حصينة آمنة من الغزو إلّا في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوة الدينية، مسيحية أو مجوسية، إلّا في قليل من قبائلها. وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة ، لولا ما يُفسّرُها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها وما للموقع والطبيعة من أثر في حياة أهلها وفي أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم.

فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازي الأضلاع، شماله فلسطين وبادية الشام، وغربه الحيرة ودجلة والفرات وخليج فارس، وجنوبه المحيط الهندي وخليج عدن، وشرقه بحر القلزم (البحر الأحمر) . فهو إذاً حصين بالبحر من غربه وجنوبه، حصين بالصحراء من شماله، وبالصحراء وخليج فارس من غربه. وليست هذه المناعة هي وحدها التي أعفته من الغزو الاستعماري أو الغزو الديني، بل أعفاه كذلك ترامي أطرافه، إذ يبلغ طول شبه الجزيرة أكثر من ألف كيلومتر ويبلغ عرضها نحو الألف من الكيلومترات. وأعفاه أكثر من هذا جذبه جذباً صرف عين كلّ مستعمر عنه. فليس في هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد، وليست لأمطارها فصول معروفة يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعة إيّاها. وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بمخصب أرضها وكثرة نزول المطر فيها، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعة جرداء لا تُيسّر الاستقرار ولا تجلب الحضارة ولا تُشجّع على حياة غير حياة البادية، حياة الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينة للصحراء وانتجاع^(٨٨) المرعى لهذه الإبل والاستقرار حيثما يكون هذا المرعى حتى تجيء الإبل عليه، ثمّ الارتحال من جديد انتجاعاً لمرعى جديد. وهذه المراعي التي ينتجعها بدو شبه الجزيرة إنّما تنمو

(٨٧) الملل والنحل، للشهرستاني: ٧٠/٢ — ٩٥ هامش على كتاب الفصل في الملل والأهواء.

(٨٨) التّنَجُّع والانتجاع والنجعة: طلب الكلاء ومساقط الغيث — النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢٢/٥.

حول عين من العيون تتفجر عن ماء المطر الذي يتسلل خلال أرض البلاد الحجرية حتى يتفجر في ناحية أو في أخرى، فينبت انفجاره الخضرة المنتشرة ها هنا وهناك في واحات تحيط بهذه العيون. طبيعي في بلاد هذه حالها أن تكون كصحراء افريقية الكبرى لا يقيم بها مقيم ولا تعرف الحياة الإنسانية إليها سبيلاً. وطبيعي ألا يكون لمن يحلّ بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاة بنفسه منها، إلا في هذه النواحي القليلة التي تثبت الكأ والمرعى. وطبيعي أن تظلّ هذه النواحي مجهولة من الناس ، لقلّة من يغامر بحياته لارتيادها. وقد كانت بلاد العرب فيما سوى اليمن مجهولة بالفعل من أهل تلك العصور القديمة.

لكنّ موقعها أنجأها من الإقفار حتى لا يقيم بها مقيم. ففي تلك العصور القديمة لم يكن الناس قد آمنوا البحر ليتخذوه مركباً لتجارهم أو لأسفارهم. وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تنبئنا بما كان من خوف الناس للبحر كنخوفهم من الموت. فلم يكن بدّ إذاً للتجار من أن تجد التجارة لها وسيلة انتقال غير هذا المركب الخطر المخوف. وكان أهم انتقال التجارة يومئذ بين الشرق والغرب، بين رومية وما وراءها والهند وما وراءها. وكانت بلاد العرب هي طريق انتقال هذه التجارة التي كانت تجتاز إليها عن طريق مصر أو

عن طريق الخليج الفارسيّ مُتخطّية البوغاز^(٨٩) الواقع على مدخل خليج فارس. فكان طبيعياً إذاً أن يكون بدو شبه جزيرة العرب هم أمراء الصحراء ، كما أصبح رجال السفن في العصور التي تلت والتي طغى الماء فيها على اليابسة هم أمراء البحر. وكان طبيعياً إذاً أن يرسم أمراء الصحراء هؤلاء طرق القوافل من أنحائها فيما لا يخاف خطره، كما يرسم رجال البحر خطوط سير السفن بعيدة عن شعاب البحر ومخاطره. ويقول هيرن: «لم يكن طريق القافلة شيئاً متروكاً للاختيار بل كان مُقرّراً بالعادة. ففي هذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرملية لما كان رجال القوافل يجتازون، حَبَّت الطبيعة المسافر بضعة أماكن مُبعثرة في جذب البادية يتخذها موئلاً لراحته. وهناك، في ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التي تجري من حولها، يستطيع التاجر ودابة حملة أن ينهلا من طيها ما أحوجهما إليه العنت الذي لقياً وأصبحت منازل الراحة هذه مستودعات للتجارة، وصار بعضها مقاماً للهاكل والحارِب، يتابع التاجر في حمايتها تجارته ويلجأ الحاج إليها لالتماس العون منها»^(٩٠).

وكانت شبه الجزيرة تموج بطرق القوافل. على أنّ طريقين منها كانا رئيسين؛ فأما أحدهما فيتاخم الخليج الفارسي ويتاخم دجلة ويقتمح بادية الشام إلى فلسطين؛ ويصح لجاورته لحدود البلاد الشرقية أن يسمى طريق الشرق. وأما الآخر فيتاخم البحر الأحمر. ويصح لذلك أن يُسمّى طريق الغرب.

وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغرب إلى الشرق ومتاجر الشرق إلى الغرب، وكانت تجبى إلى البادية أسباب الرخاء والرفاهية. على أنّ ذلك لم يزد أهل الغرب معرفة بهذه البلاد التي تجتاز تجارتهم؛ فقد كان الذين يعبرونها من أهل الشرق والغرب قليلين؛ لما في عبورها من مشقة لا يحتملها إلاّ الذين اعتادوها منذ نعومة أظفارهم، وانجازفون الذين يستهينون بالحياة والذين كانوا كثيراً ما يُضَيَّعون في هذه المهامه^(٩١) والقدافد^(٩٢) عبثاً، وما احتمال رجل اعتاد بلهنية^(٩٣) الحضر لوعث^(٩٤) هذه الجبال الجرداء التي تفصل قمامة بينها وبين شاطئ البحر الأحمر بفاصل ضيق؛ فإذا بلغها المسافر في تلك الأيام التي لم تعرف غير الحمل مطية للسفر ظلّ يصعد بين قممها حتى تقذفه إلى هضاب نجد الصحراوية القليلة الغناء! وما احتمال رجل اعتاد النظام

(٨٩) البوغاز: كلمة تركية تعني هنا المضيق. والآن يُسمّى بمضيق هرمز بين الخليج الفارسي وبحر عمان.

(٩٠) حياة محمد : ولیم مویر .

Sir William Mair the Life of Mohammed Edinburgh , 1923.

(٩١) المهامه: المقارة البعيدة، — أي الأرض الخالية — مجمع البحرين: ٣٦٢/٦ .

(٩٢) القدافد : وهي جمع فدفد: المكان الغليظ المرتفع عن الأرض. مجمع البحرين: ١١٩/٣ .

(٩٣) بلهنية العيش: سعة ورفاهية. مجمع البحرين: ٢١٦/٦ .

(٩٤) وعثاء السفر: مشقته، من الوعث وهو الرمل السهل الكثير الذي يتعب فيه الماشي ويشقّ عليه — مجمع البحرين: ٢٦٩/٢ .

السياسي الذي يكفل للناس جميعاً طمأنينتهم لعنت هذه البادية التي لا يعرف أهلها نظاماً سياسياً، بل تعيش كل قبيلة بل كل أسرة بل كل فرد وليس ما ينظم علاقاته بغيره إلا روابط عصبية الأسرة والقبيلة، أو قوة الحلف. أو حمى الجوار يلتمس الضعيف به رعاية قوي إياه. فقد كانت حياة البادية في كل العصور حياة خارجة على كل نظام عرف الحضرة مطمئنة إلى العيش في حمى مبادئ القصاص، ودفع العدوان بالعدوان، واغتيال الضعيف ما لم يجد من يجيره. وليست هذه بالحياة التي تُشجّع التطلع إلى استكناه أخبارها والتحقق من تفاصيل نُظُمها. لذلك ظلت شبه الجزيرة مجهولة من سائر العالم يومئذ، إلى أن أتاحت لها الأقدار ، بعد ظهور «محمد» عليه الصلاة والسلام فيها، أن يقصّ أخبارها من نرح عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك في أتم الجهل به.

لم يند من بلاد العرب عن جهالة العالم به سوى اليمن وما جاورها من البلاد المتاخمة للخليج الفارسي. وليس يرجع ذلك إلى متاخمتها الخليج الفارسي أو المحيط الهندي أو البحر الأحمر وكفى، ولكنه يرجع قبل ذلك وأكثر منه إلى أنها لم تكن كسائر شبه الجزيرة صحراوية جرداء لا تلفت العالم ولا تجعل لدولة من صداقتها فائدة ولا لمستعمر فيها مطمناً، بل كانت على العكس من ذلك موطن خصب في الأرض ومطر منتظم الفصول في قمتانه^(٩٥)، ومن ثم موطن حضارة مستقرة ذات مدائن عامرة ومعابد قوية على نضال الزمان. وكان سكانها من بني حمير ذوي فطنة وذكاء وعلم، هداهم إلى حسن الاستفادة من الأمطار حتى لا تتسرب إلى البحر فوق الأرض المنحدرة إلى ناحيته؛ ولذلك أقاموا سدّ مأرب، فحوّروا اتجاهها الطبيعي تحويراً تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار. وكانت الأمطار إلى أن أُقيم هذا السدّ تتزل بجبال اليمن المرتفعة ثم تنحدر في وديان واقعة إلى شرق مدينة مأرب. وكانت في انحدارها الأوّل تتزل بين جبلين يقومان عن جانب هذه الوديان يفصل بينهما أربع مائة متر تقريباً؛ فإذا بلغت مأرب انفرج الوادي انفراجاً تضيع المياه فيه كما تضيع في منطقة السدود بأعالي النيل. وكان سدّ مأرب قد شُيّد بالحجر عند مضيق الوادي، وجُعِلت له فتحات يمكن تصريف المياه منها وتوزيعها إلى حيث يشاء الناس لتروي الأرض وتزيدها خصباً وإثماراً^(٩٦).

وإنّ ما كشف وما لا يزال يُكشف عنه حتى اليوم من آثار هذه الحضارة الحميرية في اليمن ليدل على أنها بلغت في بعض العصور مكاناً محموداً، وأنها صمدت لقسوة الزمان في عصور قسا باليمن فيها الزمان.

(٩٥) التهتان: مطر ساعة ثم يفتّر ثم يعود — عن الجواهري في الصحاح: ٢٢١٦/٦ .

(٩٦) مروج الذهب: ١٦٢/٢ ط بيروت.

على أنّ هذه الحضارة وليدة الخصب والاستقرار جلبت على اليمن من الأذى ما منع الجذب منه أو اسط شبه الجزيرة. فقد ظلّ ملك اليمن في بني حَمِير يتوارثونه حيناً ويشب عليه حَمِيرِيٌّ من الشعب حيناً آخر حتى ملكهم ذوئُوَاس الحميريّ. وكان ذو نواس هذا ميّالاً إلى دين موسى راغباً عن الوثنية التي تورّط فيها قومه، أن كان من اليهود من هاجر إلى اليمن وأقام بها. وإلى جانب هؤلاء اليهود قام بعض النصارى بنجران ، اتّبعوا رجلاً صالحاً من أتباع عيسى يُدعى فيميون . وذو نواس الحَمِيرِيّ هذا هو، فيما يذكر المؤرخون ، صاحب قصة أصحاب الأخدود التي نزل فيها قوله تعالى: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)^(٩٧). وخلاصة هذه القصة أنّ ذا نواس ، وكان ذا ميل لليهودية، نَمَى إليه استفحال النصرانية في نجران، فسار إليها ودعا أهلها إلى دين بني إسرائيل أو يقتلوا. فلمّا أبوا شقّ لهم أُخدوداً أو قد فيه النار ثُمَّ ألقى بهم فيها وقُتل بالسيف مَنْ لم يمت بالنار، ومثّل بهم، حتى هلك منهم — على رواية كتب السيرة — عشرون ألفاً. وقد فرّ أحد هؤلاء النصارى من القتل ومن يد ذي نواس حتى أتى قيصر الروم جوستينيان فاستنصره على ذي نواس. ولَمّا كانت الروم بعيدة عن اليمن كتب القيصر إلى النجاشي ليأخذ بالتأر من ملك اليمن. ويومئذ (في القرن الخامس الميلادي) كانت الحبشة — والنجاشي على رأسها — في ذروة مجدها، تجري بأمرها على البحار تجارة واسعة، ويمخر^(٩٨) لها العُباب^(٩٩) أسطولٌ قوي يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذها من البلاد؛ وكانت حليفة الأمبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر، كما كانت بيزنطة رافعة عَلمها على البحر الأبيض. فلمّا بلغت النجاشي رسالة القيصر بعث مع اليمني الذي كان قد فرّ وجاء بالرسالة جيشاً، جعل على رأسه أرياط ومعه في جنده أبرهة الأشرم، فغزا اليمن وملكها باسم عاهل الحبشة، وظلّ على حكمها حتى قتله أبرهة واستولى على الحكم مكانه^(١٠٠). وأبرهة هذا هو صاحب الفيل، وهو الذي غزا مكّة ليهدم الكعبة ففشل، على نحو ما سيري القارئ في الفصل الآتي.

ومَلِكُ أبناء أبرهة اليمن من بعده وفشا فيها استبدادهم، حتى إذا طال على الناس البلاء خرج سيف بن ذي يزن الحَمِيرِيّ حتى قدم على مَلِك الروم فشكا إليه ما هم فيه وسأله أن يبعث

(٩٧) البروج (٨٥): ٤ — ٨.

(٩٨) مختر السفينة: الماء، إذا شقته بصدرها وجرت. النهاية في غريب الحديث: ٣٠٥/٤ .

(٩٩) العُباب: معظم السيل، لسان العرب: ٥٧٣/١ عن التهذيب.

(١٠٠) الطبري: ٤٣٦/١ — ٤٣٨، تفسير القمّي: ٤١٤/٢ ط النجف.

اليهم من الروم من يكون له مُلك اليمن. لكنّ حلف القيصر والنجاشي حال دون سماعه شكاية ابن ذي يزن؛ فخرج من عند القيصر حتى أتى النعمان بن المنذر، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق.

فلما دخل النعمان على كسرى أبرويز دخل سيف بن ذي يزن معه. وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دارا، وكانت موشاة بصور نجوم الجرة من أعلام فلك البروج؛ فإذا كان في مشتاه وضعت هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفاس الفراء^(١٠١) تتدلى أثناء ثريات من فضة وأخرى من ذهب ملئت بالماء الفاتر ونصب فوقها تاجه العظيم يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة مشدوداً إلى السقف بسلسلة من ذهب، وكان يلبس نسيج الذهب ويتشح بحليّ الذهب؛ فما يلبث أن يراه من يدخل إلى مجلسه حتى تأخذه هيئته. وكذلك كان شأن سيف بن ذي يزن. فلما تطامن وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قصّ له أمر الحبشة وظلمها اليمن. وتردد كسرى بادئ الرأي، ثم بعث معه جيشاً على رأسه وهُزِر من خير بيوت فارس وأكثرها فروسية وشجاعة. وتغلب الفرس وأجلوا الأحابش عن اليمن بعد أن ملكوها اثنتين وسبعين سنة. وظلت اليمن في حكم فارس حتى كان الإسلام ودخلت مع سائر البلاد العربية في دين الله وفي الأمبراطورية الإسلامية^(١٠٢).

على أن الأعاجم الذين تولوا أمر اليمن لم يكونوا تابعين تبعية مباشرة إلى ملك فارس. وكان الأمر كذلك بنوع خاص بعد أن قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز وقام في الملك مقامه، وخيّل إليه في غرارة سذاجته أنّ العوالم تسير على هواه، وأنّ ممالك الأرض تعمل ملء خزائنه ولتزيد فيما أغرق فيه نفسه من نعيم. فلقد انصرف هذا الملك الشاب عن كثير من شؤون الملك إلى مُتعه ولذّاته؛ فكان يخرج للصيد في ترف لم تسمع به أذن، كان يخرج ويحيط به الشبان الأمراء في ثياب حمر وصفر وبنفسجية ومن حولهم حملة البُزاة والخدم يمسكون الفهود الأليفة بالكمّامات، والعبيد حملة الطيب، ومطاردوا الذباب والموسيقيون وهو في هذا الحال يجلس وحاشيته على بساط فسيح صوّرت عليه طرق المملكة ومزارعها وفيها الأزهار المختلفة الألوان من ورائها الأحراش والغابات الخضراء والأنتهار ذات اللون الفضيّ. على أن فارس، رغم انصراف شيرويه إلى مسرّاته، كانت ماتزال في قمة مجدها، وكانت المنافس القوي لسلطان بيزنطة ولانتشار المسيحية،

(١٠١) الفراء: من (الفرو) فروة الرأس: جلدتها بشعرها. والفرو: مصروف وجمعه فراء — العين: ٢٧٨/٨.

(١٠٢) الكامل في التاريخ: ٢٦٣/١ — ٢٦٥ و ٢٩٣/١ — ٢٩٦، وتاريخ الإسلام، حسن إبراهيم: ٢٧/١ — ٢٨، التفسير الكبير للفخر

الرازي: ٢٥١/٢٥ بيروت دار احياء التراث العربي ط ٣، وتفسير مجمع البيان للطبرسي: ٥٠١/٨ بيروت دار احياء التراث ١٤١٢ هـ ط

وإن كان اعتلاء شيرويه عرشها قد آذن بأفول هذا الجند ومهّد لغزو المسلمين من بعد إياها ولانتشار الإسلام فيها.

هذا النزاع الذي كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحي كان عميق الأثر في تاريخ شبه جزيرة العرب من حيث توزيع سكانها. فقد قيل: إنّ سدّ مأرب الذي حوّر الحميريون الطبيعة به لفائدة بلادهم، قد طغى عليه سيل العرم فحطّمه، أن كانت هذه المنازعات المستمرة قد صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهّده والاستمرار في تقويته، فضعف فلم يقوَ على صدّ هذا السيل. وقيل: إنّ ملك الروم لما رأى اليمن موطن نزاع بينه وبين فارس وأن تجارتها مُهدّدة من جرّاء هذا النزاع، جهّز أسطولاً يشقّ البحر الأحمر ما بين مصر وبلاد الشرق البعيدة ويجلب التجارة التي تحتاج إليها بيزنطة، ويستغني بذلك عن طريق القوافل.

ويذكر المؤرخون واقعة يتفقون عليها ويختلفون في السبب الذي أدّى إليها. هذه الواقعة هي هجرة أزد اليمن إلى الشمال. فكلّهم يقول بهذه الهجرة وإنّ نسبها بعضهم إلى إقفار كثير من مدائن اليمن بسبب اضمحلال التجارة التي كانت تمرّ بها، وعزاها آخرون إلى انقطاع سدّ مأرب واضطرار كثير من القبائل إلى الهجرة مخافة الهلاك. وأينما كانت الحقيقة فهذه الهجرة هي السبب في اتصال اليمن بسائر بلاد العرب اتصال نسب واختلاط ما يزال الباحثون يحاولون حتى اليوم تحديده.

إذا كان النظام السياسي قد اضطرب في اليمن على نحو ما رأيت بسبب الظروف التي مرّت ببلاد الحميريين بهاذ والغزوات التي كانت تلك البلاد ميداناً لها، فقد كان هذا النظام السياسي غير معروف في سائر بلاد شبه الجزيرة. وكلّ نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسي على المعنى الذي نفهمه نحن اليوم أو الذي كانت الأمم المتحضرة تفهمه في تلك الأيام، كان مجهولاً وأكثر من مجهول في ربوع قهامة والحجاز ونجد وتلك المساحات الشاسعة التي منها كانت تتكوّن بلاد العرب؛ فقد كان هؤلاء الناس، كما لا يزال أكثرهم حتى اليوم، أهل بادية لا يألّفون الحضر، ولا يطيب لهم المقام ولا الاستقرار بأرض مُعينة، ولا يعرفون غير دوام الارتحال والنقلة طلباً للمرعى وإرضاء لهوى نفوسهم التي لم تعرف غير حياة البادية ولا تطبيق حياة غيرها. وأساس حياة البادية، حيث وجدت من بقاع الأرض، إنّما هي القبيلة. والقبائل الدائمة التجوال والترحال لا تعرف قانوناً كالذي نعرف، ولا تخضع لنظام كالذي نخضع له، ولا تصبر على ما دون الحرية كاملة للفرد وللأسرة وللقبيلة كلّها. وإذا كان أهل الحضر يرضون التزول باسم النظام عن جانب من حريتهم للمجموع أو للحاكم الفرد مقابل ما ينعمون به من طمأنينة ورخاء،

فرجل البادية الزاهد في الرخاء البرم^(١٠٣) بطمأنينة الاستقرار ، لا يخذعه عن شيء من حريته الكاملة رجاء فيما يفرح به أهل المدن من جاه أو مال، ولا يرضى بما دون المساواة الكاملة بينه وبين أفراد قبيلته جميعاً وبين قبيلته وغيرها من القبائل . وإنما ينتظم حياته ما ينتظم سائر الخلق من حُبِّ البقاء والحرص عليه والدفاع عنه، على أن يكون ذلك كله مُتَّفَقاً مع قواعد الشرف التي تُملئها حياة البادية الحرّة، لذلك لم يكن أهل هذه البادية يقيمون على ضيم يُراد بهم. بل كانوا يدفعونه بقوتهم، فإن لم يستطيعوا دفعه تخلّوا عن مواطنهم وارتحلوا عن شبه الجزيرة كلّها إذا لم يكن من هذا الارتحال بدٌّ . لذلك لم يكن شيء أيسر عند هذه القبائل من القتال إذا نبت خلاف لم يتيسّر في ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف تسويته.

ولذلك نجمت في هذه القبائل خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند القدرة وما إلى ذلك من خلال تقوى في النفس كلّما قاربت حياة البادية، وتضعف وتضمحل فيها كلّما أوغلت في أسباب الحضارة. ولذلك ولما قدّمنا من أسباب اقتصادية، لم تطمع بيزنطة ولا طمعت فارس فيما سوى اليمن من بلاد شبه الجزيرة التي لا يمكن أن تخضع ؛ لأنها تؤثر على الخضوع هجرة الوطن، ولأنّ أفرادها وقبائلها لا يدينون بالطاعة لنظام قائم ولا لهيئة حاكمة يكون إخضاعها إخضاعاً لهم والسلطان عليها سلطاناً عليهم.

وقد أثّرت هذه الطباع البدوية، إلى حد كبير، في البلاد القليلة التي نشأت في أنحاء شبه الجزيرة بسبب تجارة القوافل على نحو ما قدّمنا. هذه البلاد الصغيرة التي يأوي إليها التجّار يقطعون عندها متاعب رحلاتهم المضنية ويجدون بها هياكل عبادة يشكرون فيها الآلهة أن منّت عليهم بالنجاة من أخطار الفلوات، وأن جلبت تجارهم سالمة إلى حيث وصلوا. من هذه البلاد مكّة والطائف ويشرب وأشباهاها من الواحات المنثورة بين الجبال أو خلال رمال الصحراء. تأثّرت هذه البلاد بطباع البادية، فكانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة في نظام قبائلها وطوائفها وفي أخلاق أهلها وعاداته وفي شدّة نفورهم من كلّ حدّ لحريتهم، وإن اضطرتهم حياة الاستقرار إلى نوع من الحياة غير ما اعتاد أهل البادية. وسنرى شيئاً من تفصيل ذلك عند الكلام في الفصول الآتية عن مكّة وعن يشرب.

هذه البيئة الطبيعية وما ترتّب عليها من هذه الأحوال الخلقية والسياسية والاجتماعية كان لها أثر مشابه في الحال الدينية. فهل تأثّرت اليمن — بطبيعة اتصالها بمسيحية رومية ومجوسية الفرس — بمذنبين الدينين وأثّرت بهما في سائر بلاد شبه الجزيرة؟ هذا ما يتبادر إلى الذهن، وهو كذلك بنوع خاص في أمر المسيحية. فالمبشرون بدين عيسى كان لهم في ذلك العصر ما لهم اليوم

(١٠٣) البرم: الذي يُأسر القوم، ولا يدخل معهم في المسيرة، وجمعه: أبرام — العين: ٢٧٢/٨ .

من نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به. وفي طبيعة حياة البادية من تحريك المعاني الدينية في النفس ما ليس في طبيعة حياة الحضر. في حياة البادية يتصل الإنسان بالكون في كثير من صور لا نهاية له من الوجود وألوانها ، ويشعر بضرورة تنظيم ما بينه وبين الوجود في لا نهايته أكثر من شعور المقيم بالحضر، المحجوب عن لا نهاية الوجود بمشاغله وبحماية الجماعة إياه ونزوله عن جانب من حريته مقابل هذه الحماية، وبضعف روح النضال ضد العناصر المحيطة به ضعفاً يهون عليه الاذعان لسلطان الحاكم ويقصر به عن الاتصال بما وراء الحاكم من القوى الطبيعية القوية الأثر في الحياة. تُرى هل أفادت هذه الظروف كلّها المسيحية الجمّة النشاط منذ عصورها الأولى في سبيل ذبوعها وانتشارها؟! ربّما انتهى الأمر إلى ذلك لولا ظروف أخرى حالت دونه وأبقت بلاد العرب كلّها واليمن معها على الوثنية دين آبائها وأجدادها، إلّا قليلاً كان من القبائل التي لانت للدعوة المسيحية.

فقد كانت أقوى مظاهر الحضارة العالمية في ذلك العصر تحيط ، بحوضي البحر الأبيض (بحر الروم) والبحر الأحمر (بحر القلزم)، — كما رأيت — وكانت المسيحية واليهودية تتجاوران في ذلك المحيط جواراً إلّا يكن فيه عداء ظاهر فليست فيه مودة ظاهرة. وكان اليهود ما يزالون إلى يومئذ يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجه على دينهم، فكانوا يعملون في الخفية ما استطاعوا لصدّ تيار المسيحية الذي أخرجهم من أرض الميعاد، والذي استظلّ بلواء رومية في امبراطوريتها الفسيحة المترامية الأطراف، وكان لليهود في بلاد العرب جاليات كبيرة يقيم أكثرها في اليمن وفي يثرب. ثمّ كانت مجوسية الفرس تقف في وجه القوات المسيحية حتى لا تعبر الفرات إلى فارس، وتؤيد بقوتها المعنوية طقوس الوثنية حيثما وجدت الوثنية. وكان سقوط رومية في يد الفندال الهمج وانتقال عاصمة حضارة العالم إلى بيزنطة وما تلا ذلك من بوادر التحلل ، قد أكثر الشيع في المسيحية كثرة جعلتها — كما قدمنا — تتناحر وتقتتل وتهوى من عليا مراتب الإيمان إلى الجدل في الصور والألفاظ وفي مبلغ قداسة مريم وتقدّمها على ابنها المسيح أو تقدّمه عليها، جدلاً هو النذير أنّي وجد بتدهور ما يجري بشأنه وما يحتدم من أجله؛ ذلك بأنّه يذّر اللب ويأخذ بالقشور، ويظلّ يكدّس من هذه القشور فوق اللب ما يخفيه وما يجعل من المحال على الناس إدراكه أو اختراق حُجُب القشور إليه^(١٠٤).

وقد كان ما يحتدم جدل نصارى الشام حول غير ما يحتدم جدل أهل الحيرة أو أهل الحبشة حوله. ولم يكن اليهود بطبيعة صلتهم بالنصارى ليعملوا على تهدئة هذا الجدل أو التسكين من حدّته. لذلك كان طبيعياً أن يظلّ العرب الذين يتصلون في رحلي الشتاء والصيف بنصارى الشام

(١٠٤) الملل والنحل للشهرستاني: ٥٩/٢ — ٧٠ ، هامش كتاب الفصل في الملل والأهواء.

وبنصارى اليمن ومن يقدون عليهم من نصارى الحبشة بعيدين عن أن ينتصروا لفريق على فريق، مطمئنين إلى وثنيّتهم التي وُلدوا فيها وتابعوا آباءهم عليها. ولذلك ظلّت عبادة الأصنام مزدهرة عندهم، حتى امتد شيء من أثرها إلى جيرانهم نصارى نجران ويهود يثرب الذين تسامحوا في أمر هاشم احتملوها ثمّ اطمأنوا إليها، أن كانت من صلات التجارة الحسنة بينهم وبين هؤلاء العرب الذين يعبدونها لتقرّبهم إلى الله زُلّفى.

ولعلّ تناحر الفرق المسيحية لم يكن وحده السبب في إصرار العرب على وثنيّتهم؛ فقد كانت الوثنيات المختلفة ماتزال لها بقايا في الأمم التي انتشرت المسيحية فيها. كانت الوثنية المصرية والوثنية الأغريقية ما تزالان تتبدّيان من خلال المذاهب المختلفة، ومن خلال بعض المذاهب المسيحية نفسها. وكانت مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ماتزال ذات أثر، إن يكن أقل بكثير مما كان في عهد البطالسة وفي أوّل العهد المسيحي، فقد كان على كلّ حال ما يزال مُتغلغلاً في النفوس، وما يزال منطق البراق المظهر، وإن يكن سفسطائي الجوهر، يغري بهذه الوثنية المتعدّدة الآلهة القريبة بأهتها إلى سلطان الإنسان الحبية لذلك إليه. وأكبر ظني أن هذا هو ما يشتدّ بالنفوس الضعيفة إلى الحرص على الوثنية في كلّ الأزمان وفي زماننا هذا. النفوس الضعيفة أعجز من أن تسمو للاتصال بالوجود كلّه ولإدراك وحدته ممثلة فيما هو أسمى من كلّ ما في الوجود: ممثلة في الله ذي الجلال. وهي لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو كالقمر أو كالنار، ثمّ تضعف عن الارتفاع بنفسها إلى تمثّل هذا المظهر فيما يدل عليه هو أيضاً من وحدة الوجود.

هذه النفوس الضعيفة تكتفي بوثن يتمثّل لها فيه معنى مبهم وضع من الوجود ووحدته، فتتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور العبادة ما لا تزال تراه في بلاد العالم جميعاً، برغم ما يزعم هذا العالم من تقدّم في العلم وسموّ في الحضارة. وإنّ الذين زاروا كنيسة القديس بطرس في رومية ورأوا قدم تمثال القديس تبريها قبالات عبادة المؤمنين، حتى لتضطر الكنيسة إلى تغييرها كلّما انبرت، ليعذرون أولئك الذين لما لم يكن الله قد هداهم إلى الإيمان، إذ يرون تناحر جيرانهم النصارى وبقاء طقوس الوثنية بينهم بقاءً لم ينقطع حتى اليوم وما أحسبه ينقطع أبداً^(١٠٥)، وبقاءً يُفسّر هذه الوثنية التي يرتضيها المسلمون اليوم في دينهم^(١٠٦)، وهو الذي جاء حرباً على الوثنية، وهو الذي قضى على كلّ عبادة غير عبادة الله ذي الجلال.

(١٠٥) أنظر الأصول الوثنية في الديانة النصرانية، للشيخ محمّد طاهر تنبّر الشامي ط بيروت.

(١٠٦) هكذا أحم المؤلف الوثنية التي يرتضيها المسلمون اليوم في دينهم؟! وليته لم يُهم، فإن كان لا يعدو قوله سبحانه: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) شركاً خفياً بالرياء مثلاً، فذلك شرك خفي وليست الوثنية.

ولقد كانت للعرب في عبادة الأوثان أفانين شتى يصعب على باحث اليوم أن يُحيط بها؛ فقد حطم النبي الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما ثقفوها، وتناهى المسلمون عن التحدث عنها بعد أن عفوا على آثارها وأزالوا من الوجود في التاريخ وفي الأدب كل ما يتصل بها. على أن ما ورد من ذكرها في القرآن وما تناقلته الروايات في القرن الثاني للهجرة عنها بعد إذ آمن المسلمون الفتنة منها، يُنبئ عما كان لها قبل الإسلام من جليل المكانة وما كانت عليه من مختلف الصور، ويدل على أنها كانت درجات في القداسة، وأن كل قبيلة كان لها صنم تُدين له. وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثن والنصب. فالصنم ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب. والوثن ما كان على شكله^(١٠٧) من حجر. أما النصب فصخرة غير ذات صورة مُعينة تجري عليها قبيلة من القبائل طقوس القداسة لما تزعمه من أصلها السماوي أن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه. ولعل أدق الأصنام صنماً ما كان لأهل اليمن. ولا عجب، فحظهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكندة. على أن كتب الأصنام لا تُشير بالدقة إلى شيء من صور هذه الأصنام إلا ما قيل عن هُبَل من أنه كان من العقيق على صورة الإنسان، وأن ذراعاه كُسر فأبدله القرشيون منه ذراعاً من ذهب. وهُبَل كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة، يحج إليه الناس من كل فج عميق. ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم. بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نُصباً في بيته، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر. وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها وما كان في مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها، كانت تعتبر الوسيط بين عبادة وبين الإله الأكبر. وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تقترب بها إلى الله، وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام^(١٠٨).

وعلى الرغم من أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارة بسبب خصبها وحسن تنظيم انحدار المياه إلى أرضها، فإنها مع ذلك لم تكن مطمح بصر أهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ولم يكن إلى معابدها حجاجهم؛ وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مثابة الحج إليها كانت تُشد الرحال والأبصار، وفيها أكثر من كل جهة سواها كانت تُرعى الأشهر الحرم. لذلك ولمركزها الممتاز في شؤون تجارة بلاد العرب كلها، كانت تعتبر عاصمة شبه الجزيرة. ثم أراد القدر من بعد أن تكون مسقط رأس «محمد» النبي العربي، فتكون

(١٠٧) الوثن: صنم يُعبد، وجمعه: الأوثان والوثن — العين: ٢٤٢/٨ .

(١٠٨) البداية والنهاية لابن كثير: ١/١٢٢ — ١٣١، بيروت دار الفكر ١٤١٨ هـ والأصنام للكلبي: ٢٨ .

بذلك مُتَّجِهَ نَظَرِ الْعَالَمِ عَلَى تَوَالِي الْقُرُونِ، وَتَظَلَّ لِبَيْتِهَا الْعَتِيقِ قَدَاسَةٌ، وَتَبَقَى لِقَرِيشٍ فِيهَا الْمَكَانَةُ السَّامِيَّةُ، وَإِنْ ظَلَّتْ وَظَلُّوا جَمِيعاً أَدْنَى إِلَى خَشُونَةِ الْبَدَاوَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا مِنْذُ عَشْرَاتِ الْقُرُونِ.

* * *

الفصل الثاني

مكة . والكعبة . وفريش

موقع مكة، إبراهيم وإسماعيل، قصة الفداء والذبح، زمزم
زواج إسماعيل من جرهم، بناء الكعبة، ولاية جرهم، أمر
مكة، قصي وأولاده، اجتماع أمر مكة لقصي القرشي، هاشم وعبدالمطلب
وظائف مكة الزمنية والدينية، الحاج إلى
الكعبة، قصة أبرهة والفيل، عبدالله بن عبدالمطلب، قصة فداءه.

في وسط طريق القوافل الحاذي للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين، تقوم عدة سلاسل من
الجبال تبعد نحو الثمانين كيلومتراً من الشاطئ، تحيط بواد غير فسيح و تكاد تحصره لولا منافذ
ثلاثة يتصل أحدها بطريق اليمن، ويتصل الثاني بطريق قريب إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند
مرفأ جدّة ، ويتصل الثالث بالطريق المؤدي إلى فلسطين. في هذا الوادي المحصور بين الجبال تقوم
مكة. ومن العسير معرفة تاريخ إقامتها. وأغلب الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين مضت.
والثابت أن واديهما اتخذ من قبل أن تُبنى موئلاً لراحة رجال القوافل ، بسبب ما كان به من بعض
العيون، وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا يجعلون منها مضارب لخيامهم سواء منهم القادمون من
ناحية اليمن قاصدين فلسطين، والقادمون من فلسطين مُتجهين إلى اليمن. والراجح أن إسماعيل بن
إبراهيم أول من اتخذها مقاماً وسكناً ، بعد أن كانت مُجرّد محلة للقوافل وسوقاً للتجارة يقع
فيها التبادل بين الآتين من جنوب شبه الجزيرة والمنحدرين من شمالها^(١٠٩).

وإذا كان إسماعيل أول من اتخذ مكة مقاماً وسكناً فإن تاريخها فيما قبل ذلك غامض كلّ
الغموض، وإن يكن من الممكن القول بأنها اتخذت مقاماً للعبادة قبل أن يجيء إليها ويقيم بها.
وقصة مجيئه إليها تحملنا على أن نُلخّص قصة أبيه إبراهيم(عليه السلام) :

(١٠٩) تاريخ مكة المشرفة: ٤٢/١، وتاريخ الطبري: ١٥٣/١ — ١٥٤، معجم البلدان للحموي البغدادي: ١٨٥/٥ .

فقد ولد إبراهيم بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعها من قومه يعبدونها. فلما شبَّ إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ، ثم رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها، وكيف يخلعون على هذه القطع من الخشب التي مرّت بين يديه ويدي أبيه كلّ تلك القداسة، ساوره الشكّ في أمرها، وسأل أباه: كيف يعبدوها وهي من صنع يده^(١١٠)! وتحدّث إبراهيم بذلك إلى الناس؛ فاهتم أبوه لأمره مخافة ما يجرّه من بوار تجارتها. لكنَّ إبراهيم كان ممن يحترمون عقولهم، ويريدون أن يحملوا الناس بالحجّة على الاقتناع بآرائهم؛ فانتهاز غفلة من الناس فذهب إلى هذه الآلهة فكسرها إلّا كبيرها.

(١١٠) هنا المسألة تستوجب التحقيق لأجل معرفة مَنْ هو والد النبي إبراهيم (عليه السلام) فكتب التاريخ تذكر أنّ أب النبي إبراهيم تارخ وليس آزر، فتارخ هو ابن ناحور ووصيه من بعده وأحد أجداد النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وفي تاريخ اليعقوبي: وكان تارخ بن ناصور هو أبو إبراهيم (عليه السلام) عاصر نمrod : ٤٧/١.

أما آزر المعبر عنه في القرآن بأبي إبراهيم فهو ليس بأبيه الصّلي، بل كان متولّيّاً لأمره ويمكن معرفة ذلك من خلال عدة أمور منها:
١ — من الثابت في اللغة أن بين الوالد والأب فرقاً حيث لا يُطلق الوالد إلّا على مَنْ وَلَدَ الإنسان من صلبه، بينما يُطلق الأب عليه وعلى غيره ممن يتولّى الأمر كالعمّ، أو الجدّ، أو زوج الأمّ بعد الأب ونحوهم.

٢ — أطلق القرآن الكريم لفظ الأب على غير الوالد، مثل قوله تعالى: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) البقرة (٢): ١٣٣، فإبراهيم جدّ يعقوب وإسماعيل عمّه، إلّا أنّه عبّر عنهما بالأب.

٣ — ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله): «الآباء ثلاثة: أب زوجك وأب ولدك وأب علمك» وهنا أطلق الأب على غير الوالد وهو المعلم وأبو الزوج. شرح كلمات أمير المؤمنين لعبد الوهاب: ١٥ .

٤ — إنّ إبراهيم (عليه السلام) قد دعا لوالديه بقوله: (ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) إبراهيم (١٤): ٤١، فلو كان والده كافراً لما دعا له بالغفران للنهي عن الاستغفار لغير المؤمنين، قال تعالى: (ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) التوبة (٩): ١١٣.

أمّا مسألة استغفار النبي إبراهيم لأبيه آزر الوارد في القرآن فيرجع إلى كون النبي إبراهيم (عليه السلام) قد أخذ بحاجّ آزر في عبادة الأصنام ويدعوه إلى رفضها وتوحيد الله، لكنَّ آزر زير إبراهيم وطرده عن نفسه وأوعده أن يرجمه إن لم ينته عن ذكر الآلهة بسوء، ومن جهة أنّ إبراهيم كان ذا خلق مرضيّ وعده بأن يستغفر له ويعتزله وقومه وما يعبدون. طبيعي جاء الاستغفار رجاء الإيمان، ولما تبين لإبراهيم اصرار آزر على الكفر تبرّأ منه.

٥ — إنّ ليس في التاريخ الإسلامي ولا حتى في التوراة عين ولا أثر من آزر ، بل الكلّ قد نسبوا النبي إبراهيم (عليه السلام) إلى والده تارخ ، البداية والنهاية: ٢١٣/١ .

٦ — لقد ثبت عند المسلمين أنّ آباء النبي ابتداءً من عبدالله إلى نبي الله آدم كلّهم كانوا موحدين، وهذا ما أكّده النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية» ، التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٧٤/٢٤ ، والسيرة الحلبية: ٣٠/١ ، والدر المنثور : ٩٨/٥ ، وتصحيح الاعتقاد: ٦٧ ، ومجمع البيان: ٤٢٢/٤ .

وعليه فلو كان في آباءه (صلى الله عليه وآله) مَنْ هو مشرك أو كافر لما وصفهم جميعاً بالطّهارة. وملخص المسألة أنّ تارخ والد النبي إبراهيم (عليه السلام) كان وليّاً وموحداً ، وهو غير آزر المشرك وأنّ إطلاق الأب عليه غير حقيقي، وإنّما من جهة الرعاية والإشراف على أمره.

فَلَمَّا جِيءَ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ، قِيلَ لَهُ: (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَنَّا يَا إِبْرَاهِيمُ؟) * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (١١١). وَإِنَّمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمُ هَذَا بَعْدَ إِذْ فَكَّرَ فِي ضَلَالِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَفِيهِمْ تَجِبَ لَهُ الْعِبَادَةُ: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١١٢).

ولم ينجح إبراهيم في هداية قومه ، بل كان جزاؤه منهم أن ألقوه في النار . وأنجاه الله منها ففرَّ إلى فلسطين مستصحباً معه زوجته سارة، ومن فلسطين ارتحل إلى مصر، وبها يومئذ ملوك العماليق (الهكسوس) . وكانت سارة جميلة، وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات؛ فأظهر إبراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتخذها له زوجاً. وأراد الملك اتّخاذها زوجاً، فرأى في المنام أنها ذات بعل فردّها إلى إبراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تُدعى هاجر (١١٣) ، ولما كانت سارة

(١١١) الأنبياء (٢١): ٦٢ — ٦٣ .

(١١٢) الأنعام (٦): ٧٦ — ٧٩ .

(١١٣) تفسير القُصِّي: ٣٣٢/١ — ٣٣٣ لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القُصِّي من أعلام القرن الرابع الهجري، مطبعة النجف ١٣٨٧هـ — الطبعة الثانية، تاريخ الطبري: ١ / ١٤٨ — ١٤٩ دار الكتب العلمية، ط ٢، البداية والنهاية: ٢٢٤/١ — ٢٢٥ ، ط بيروت .

المصادر التقليدية على اختلافها تصوّر شخص إبراهيم (عليه السلام) ضمن عدد من الصور:

الصورة الأولى: تروي التوراة قصة مسير إبراهيم (عليه السلام) من العراق إلى فلسطين، ثمّ إلى مصر ورجوعه مرة أخرى إلى فلسطين ، وبها تتضح معالم شخصيته (عليه السلام).

والمستبعد لتفاصيلها في التوراة والأحداث التي رافقت إبراهيم سينتهي إلى ما يلي:

١ — إهمال التوراة لقضية بناء الكعبة وتركيزها على بناء المذابح كالمذبح الذي بناه بأرض شكيم والآخر الذي بناه في بيت إيل وآخر قد بناه في جبل الرب.

ثمّ نجد التوراة تصف النبي إسماعيل (عليه السلام) أنّه كان غلاماً وحشياً يضاد الناس ويضادونه ، ولم يكن ذا قيمة اجتماعية ، لأنّه المطرود من حضرة أبيه.

وتنقل التوراة أنّ شاليم أخرج للنبي إبراهيم (عليه السلام) خبزاً وخبزاً وكان كاهناً لله العليّ.

ثمّ إخباره أنّ سارة أخته حيث أوصاها بأن تصدقه على حدّ قوله ، قولي إِنْكَ أُخْتِي لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبِيلِكَ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ.

وتُصوّر التوراة أنّ إبراهيم قد عرّض زوجته سارة لأمثال فرعون وأحد الملوك المسمى بأبي مالك ليأخذها زوجة وهي ذات بعل لأجل الحصول على مكاسب دنيوية زائلة من يد فرعون واتباعه.

وحديث التوراة في قضية إبراهيم (عليه السلام) صريح بأنّ سارة كانت في ذلك الوقت وخاصة عند أخذها لأبي مالك عجوزاً قد عمّرت سبعين عاماً أو أكثر والعادة تقتضي أنّ المرأة في هذا العمر تفقد معالم جمالها.

الصورة الثانية: تحدّث القرآن الكريم في مواضع متعددة حول شخص النبي إبراهيم (عليه السلام) حيث قدم لنا صورة تخالف التصوير في الحالة الأولى.

قد سلخت^(١١٤) السنين الطوال مع إبراهيم ولم تلد فقد دفعته ليدخل بهاجر ، فدخل بها فلم تبطن أن ولدت له إسماعيل. ولما شب إسماعيل وترعرع دبّت الغيرة في نفس سارة فحملت ، ثم ولدت إسحاق^(١١٥).

لقد أثنى الله تعالى على إبراهيم(عليه السلام) إذ جعله من المصطفين في الدنيا وفي الآخرة ومن الصالحين ثم إنّه(عليه السلام)أسلم لربّ العالمين ووجه وجهه إلى ربّه حنيفاً وهو الذي اطمئن قلبه وأيقن به، حتى اتّخذ خليلاً له وجعله للناس إماماً وأراه ملكوت السماوات والأرض ووصفه بأنّه الحليم الأواه المتيب وأنه القانت والشاكر لأنعمه واجتنبى والمهتدي منه سبحانه إلى الصّراط المستقيم، ولم يكن كاذباً وإنّما وصفه بأنّه كان صديقاً نبياً وسلم عليه الله وجعله من عباده المحسنين، وجعله من أوّلي العزم من الرسل، وآتاه العلم والحكمة والكتاب والمُلْك والهداية وجعلها كلمة باقية في عقبه وجعل في ذريته النبوّة والكتاب وجعل له لسان صدق في الآخرين.

وأخيراً نسب الدين الإسلامي إليه ، حيث قال عزّ شأنه (مَلَأْنَا إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ...)وقوله تعالى: (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)وجعل الكعبة التي بناها مثابة للناس وأماناً.

الصورة الثالثة: تنقل لنا كتب الحديث الإسلامية صفات النبي إبراهيم(عليه السلام) وأخلاقه لتتضح بما أقرب إلى التصوير القرآني بطريقتين:

الطريق الأوّل: أنّه(عليه السلام) لم يكذب قط إلّا ثلاث كذبات نثنت في ذات الله: قوله (إني سقيم)وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا)وواحدة في شأن سارة فإنّه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها: إنّ هذا الجبار إن يعلم أنّك امرأتى يغلبني عليك ، فإن سألك فاحبريه إنك أختي في الإسلام فأثني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري، فلمّا دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأثاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلّا لك ، فأرسل إليها فأثني بها، فقام إبراهيم إلى الصّلاة فلمّا دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت، فعاد فقبضت أشدّ من القبضتين الأولى، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك، ففعلت فأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له: إنّك إنّما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فاحرجها من أرضي وأعطها هاجر، ثمّ أقبلت سارة — تمشي فلمّا رآها إبراهيم(عليه السلام) انصرف وقال لها: مهيم، فقالت: خيراً كف الله يد الفاجر وأحدم خادمًا ، قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السماء . صحيح البخاري: ١٧١/٤ ، كتاب بدء الخلق باب قول الله: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) صحيح مسلم: ١٨٤٠/٤ ، كتاب الفضائل باب ٤١ من فضائل إبراهيم الخليل(عليه السلام)، ح ١٥٤ .

ويرى كثير من الباحثين أنّها لم تكن كذبات، وإنّما هي من قبيل التوريات والمعاريف البديعية، كما من الثابت في محله أن الأنبياء معصومون قبل وبعد النبوّة ، وهذا ممّا لا يجوز عليهم لاستيجاب سلب الوثوق عن إخباراتهم وأحاديثهم من أصلها.

الطريق الثاني: يُصوّر قصة إبراهيم(عليه السلام) بسياق آخر ينسجم مع ما يصوّره القرآن الكريم، حيث ترفض تلك الروايات استسلام إبراهيم(عليه السلام) لأمر الملك، وتصوّره ذلك الإنسان الغيور على زوجته المتحسب لعواقب الأمور بقوله: «إني لست أفارق التابوت — الذي وضع فيه سارة للمحافظة عليها ولأجل أن لا يعلم أحد ما في داخله — حتى يفارق روحي جسدي» فأحبروا الملك بامتناع إبراهيم(عليه السلام) عن تسليم التابوت ، فقال الملك: أن احملوه والتابوت معه . فحملوا إبراهيم حتى أدخل على الملك ومعه سارة في داخل التابوت لا يعلم جند فرعون ما بداخله ولعلهم ظنّوا أن فيه أموالاً كثيرة، ولما أمر الملك بفتح التابوت قال إبراهيم(عليه السلام): أيّها الملك إنّ فيها حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع مامعي فغضب الملك إبراهيم(عليه السلام) على فتحه؛ فلمّا رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مدّ يده إليها فقال إبراهيم(عليه السلام): اللهم احبس يده عن حرمي، فلم تصل إليها يده ولم ترجع إليه، فأعرض إبراهيم(عليه السلام) وجهه عنها وعنه غيرة منه فقال له الملك: إنّ إهلك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم إلهي غيور يكره الحرام وهو الذي حال بينك وبين ما أردته من الحرام، فقال له الملك: فادع إهلك يرّد عليّ يدي ، فإن أحباك فلم أعرض لها، فقال إبراهيم(عليه السلام): إلهي ردّ إليه يده ليكفّ عن حرمي ، فردّ الله عزّ وجلّ إليه يده، قصص الأنبياء للراوندي: ١١٠ .

(١١٤) سلخت الشهر: إذا أمضيته وصرت في آخره — الصحاح: ٤٢٣/١ .

(١١٥) تاريخ الطبري: ١٥٠/١ و ١٥١ و ١٥٣ ، البداية والنهاية: ٢٢٨/١ — ٢٢٩ ، والكاظمي: ٣٧٠/٨ — ٣٧٣ ،

يختلف الرواة هاهنا على مسألة إقدام إبراهيم على ذبح إسماعيل والفداء، وهل كانت قبل ميلاد إسحاق أو بعده، وهل كانت بفلسطين أو بالحجاز. وإن مؤرخي اليهود ليذهبون إلى أن الذبيح إنما كان إسحاق ولم يكن إسماعيل. وليس هاهنا مقام تمحيص هذا الخلاف. وفي رأي الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار في كتاب قصص الأنبياء أن الذبيح هو إسماعيل. ودليله من التوراة نفسها أن الذبيح وصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد، وإلى أن قبل إسحاق كان إسماعيل هو الابن الوحيد. فلما ولدت سارة لم يبق لإبراهيم ابن وحيد أن كان له إسماعيل وإسحاق. والتسليم بهذه الرواية يقتضي أن تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين. وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق. فقد ظلَّ إسحاق مع أمه سارة بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز. فأما الرواية التي تذهب إلى أن الذبح والفداء إنما كانا فوق منى فتجعل الذبيح إسماعيل. ولم يرد في القرآن ذكر لاسم الذبيح كما جعل المؤرخين المسلمين يختلفون فيه^(١١٦).

(١١٦) تُحدِّثنا كتب التفسير والتاريخ في مسألة الذبيح من ولد النبي إبراهيم (عليه السلام) على نحو اتجاهين: فقد ذهب الاتجاه الأول — والذي تصدَّى له كبار علماء المسلمين — من أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق اعتماداً على النصوص والروايات الصحيحة الصادرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) فيما تزعم اليهود. الاتجاه الثاني: وعمِّقه المستشرقون من بعدهم بهدف إلغاء ميزة الذبيح لجدِّ نبي الإسلام الذي طالما كان يذكرها (صلى الله عليه وآله): «أنا ابن الذبيحين» وإلحاقها بالنبي إسحاق، وتوضيحاً لهذه المسألة نذكر ملخصاً للبيان الذي قدَّمه المسلمون لإثبات مسألة الذبيح للنبي إسماعيل دون أخيه إسحاق بالشكل التالي:

١ — لما استعرض القرآن الكريم قصة إبراهيم (عليه السلام) في ذبحه لولده إسماعيل (عليه السلام)، قال: (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) الصافات (٣٧): ١١٢، فجاء الإتيان بالبشرى بعد ذكر القصة وهذا يدل صريحاً بأنَّ إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه وعودة الضمير في قوله: (وفدناه بذبح عظيم) الصافات (٣٧): ١٠٧، إلى الغلام الذبيح، ثُمَّ ذكر اسم إسحاق (عليه السلام) صريحاً يقتضي التغاير بين إسحاق والذبيح.

٢ — كيف يأمر المولى النبي إبراهيم (عليه السلام) بذبحه في الوقت الذي وعده أن يكون نبياً؟!

٣ — ويؤكد أن الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق، صريح قوله تعالى: (فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) هود (١١): ٧١، فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثُمَّ يُؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يُولد له فهذا مالا يمكن لأنه يناقض البشارة المتقدمة.

٤ — قال بعض المفسرين: جاءت في القرآن بشارتان فيوقتن مختلفتين: الأولى بغير دعاء وهو إسحاق وقد جاء اسمه صريحاً في القرآن، والثانية بدعاء وقد ارتبط بقصة الذبح وهو إسماعيل، فضلاً عن أن البشارة بإسحاق إنما كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه.

روح المعاني للآلوسي: ١٣٣/٢٣، تفسير المنار: ١٢٧/١٢ — ١٣٠، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧٠/٩، ١٠٠/١٥ — ١٠٣، تفسير البيضاوي: ٢٠/٥ ط دار الفكر، وانظر السيوطي في رسالته القول الفصيح في تعيين الذبيح، فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية: ٣٣٢/٤ — ٣٣٣، تفسير الخميس: ١٠٨، والتفسير الكبير للفخر الرازي: ١٥٤/٢٦، والبداية والنهاية ٢٣٣/١ — ٢٣٧، ومروج الذهب: ٥٤/١ — ٥٥، ذكر قصة إبراهيم (عليه السلام)، الذبيح من ولد إبراهيم، ومجمع البيان: ٥٨١/٨، وتفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ١٨٨/٧، وتفسير الأمل: ٣٣٨/١٤.

٥ — في إنجيل برنابا من الحوارين أن الذبيح هو إسماعيل وأن اليهود غيروا اسم الذبيح وجعلوه إسحاق وأن المسيح كان يُريخهم على ذلك، ففي الفصل الرابع والأربعين آية (١٠) فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدِّمه ذبيحة، فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟ الكامل: ٦٢/١ الهامش رقم ١.

وقصة الذبح والفداء أنّ إبراهيم رأى في منامه أنّ الله يأمره بأن يقدم ابنه قرباناً له فيذبحه ويحرّقه ؛ فسار وابنه في الصباح (فلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ) (١١٧).

وتسيع بعض الروايات على هذه القصة خيالاً شعرياً تدعونا روعته أن نقصّه هنا وإن لم يقتض الحديث عن مكّة قصصه: ذلك أنّ إبراهيم لما رأى في المنام أنّه يذبح ابنه وتحقق أنّ ذلك أمر ربّه، قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمديّة وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنحتطب لأهلنا. وفعل الغلام وتبع والده. فتمثّل الشيطان رجلاً فجاء أمّ الغلام فقال لها: أتدريين أين يذهب إبراهيم بابنك؟

قالت: ذهب به يحتطب لنا من هذا الشعب. قال الشيطان: والله ما ذهب به إلا ليدبحه. قالت الأم: كلا! هو أشفق به وأشد حبا له. قال الشيطان: إنه يزعم أن الله أمره بذلك. فأجابت الأم: إن كان الله قد أمره بذلك فليطع أمر ربه. فانصرف الشيطان خاسئا، ثم لحق بالابن وهو يتبع أباه وألقى إبليس عليه ما ألقى على أمه، وأجاب الابن بما أجابت هي به. فأقبل الشيطان على إبراهيم يذكر له أن المنام الذي رأى خدعة من الشيطان ليدبح ابنه ثم يندم ولات ساعة مندم. فصرفه إبراهيم ولعنه، فنكص إبليس على عقبيه خزيان محنقا أن لم ينل من إبراهيم ولا من زوجته ولا ابنه ما أراد أن يبلغ منهم.

ثم إن إبراهيم أفضى إلى ابنه برؤياه وسأله رأيَه في الأمر. قال: يا أبتِ افعل ما تؤمر. ثم قال في رواية القصة الشعرية: يا أبتاه إذا أردت ذبحي فاشدد وثاقي لئلا يصيبك شيء من دمي فينقص أجري. وإن الموت لشديد ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه، فاشحذ شفرتك حتى تجهز عليّ، فإذا أنت أضجعتني لتذبحني فاكبني على وجهي ولا تضجعني لجنبي، فأني أخشى إن أنت نظرت إلى وجهي أن تدركك الرقة، فتحول بينك وبين أمر ربك في. وإن رأيت أن ترد قميصي إلى أُمي عسى أن يكون أسلى لها فافعل. قال إبراهيم: نعم العون يا بني أنت على أمر الله. ثم إنه همّ بالتنفيذ فأوثق كتاف الغلام وتله^(١١٨) للجين وأراد أن يقتله، ففودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. وافندی الغلام بكبش عظيم، وجده إبراهيم على مقربة منه فذبحه وحرّقه^(١١٩). هذه قصّة الذبح والفداء. وهي قصة الإسلام لأمر الله غاية الإسلام والتسليم لقضائه كل التسليم.

وشبّ إسحاق إلى جانب إسماعيل، وتساوى عطف الأب على الإثنين فأغضب ذلك سارة أن رأت هذه التسوية بين ابنها وابن هاجر أمّتها غير لائقة بها، وأقسمت: لا تساكن هاجر ولا ابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه. وأحسّ إبراهيم بأنّ العيش لن يطيب وهاتان المرأتان في مكان واحد. عند ذاك ذهب بهاجر وبابنها ميمّمًا الجنوب حتى وصل إلى الوادي الذي تقوم مكّة اليوم به. وكان هذا الوادي، كما قدّمنا، مضرب خيام القوافل في الأوقات التي تفصل فيها القوافل من الشام إلى اليمن أو من اليمن إلى الشام، ولكنّه كان فيما خلا ذلك من أوقات السنة خلاء أو يكاد. وترك إبراهيم إسماعيل وأمه وترك لهما بعض ما يتبلّغان به. واتخذت هاجر عريشاً أوت إليه مع ابنها. وعاد إبراهيم أدراجه من حيث أتى. فلما نفذ الماء والزاد جعلت هاجر تحيل

(١١٨) تله: أي صرعه على التل، وتله للجين: أي كبّه على وجهه، أو ألقيه على تليله: أي عنقه. تاج العروس: ج ١٤ ص ٧٧.

(١١٩) لم يرد في أخبارنا تحريق الضحية — وإنما هي في أخبار غبرنا — وهي أخبار معتبرة وليست شعرية كما يصفها المؤلف، ولعلّه يريد بكونها

شعرية ألها عاطفية للغاية ونموذجية ومثالية، تفسير القمّي: ٢٢٤/٢ — ٢٢٦.

طَرَفَهَا فِيمَا حَوْلَهَا فَلَا تَرَى شَيْئاً، فَجَعَلَتْ تَهْرُولُ حَتَّى نَزَلَتْ الْوَادِي تَلْتَمِسُ مَاءً، وَهِيَ — فِيمَا يَقُولُونَ — لَا تَنْفَكُ فِي هَرُولِهَا بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةِ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّتَ السَّعْيَ سَبْعاً عَادَتْ إِلَى وَلَدِهَا وَقَدْ مَلَكَهَا الْيَأْسُ، فَأَلْفَتْهُ قَدْ فَحَصَ الْأَرْضَ بِقَدَمِهِ^(١٢٠) فَنَبَعَ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، فَارْتَوَتْ وَأَرَوَتْ إِسْمَاعِيلَ مَعَهَا وَجَسَتْ الْمَاءُ عَنِ السَّيْلِ حَتَّى لَا يَضِيعَ فِي الرَّمَالِ^(١٢١).

وَأَقَامَ الْغُلَامُ وَأُمُّهُ تَرُدُّ عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ أَثْنَاءَ رِحَالِهِمْ، فَيَنَالَانِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَكْفِيهِمُ أَسْبَابُ الْعِيشِ إِلَى أَنْ تَمُرَّ بِهِمْ قَوَافِلُ أُخْرَى. عَلَى أَنَّ زَمْزَمَ الَّتِي تَفْجَرُ مَائُهَا قَدْ اسْتَهْوَتْ بَعْضَ الْقَبَائِلِ لِلْمَقَامِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهَا. وَجُرُّهُمْ أَوَّلَى الْقَبَائِلِ الَّتِي أَقَامَتْ وَالَّتِي يَقُولُ بَعْضُ الرِّوَاةِ^(١٢٢): إِنَّهَا كَانَتْ هُنَاكَ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ هَاجِرُ وَابْنِهَا، عَلَى حِينِ تَذْهَبُ رَوَايَاتُ أُخْرَى إِلَى أَنَّهَا لَمْ تَقُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَفْجَرَتْ زَمْزَمُ وَجَعَلَتْ الْعِيشَ فِي هَذَا الْوَادِي الْأَجْرَدِ مُسْتَطَاعاً^(١٢٣). وَشَبَّ إِسْمَاعِيلُ وَتَزَوَّجَ فَتَاةٌ مِنْ جُرُّهُمْ، وَأَقَامَ وَإِيَّاهَا مَعَ الْجُرُّمِيِّينَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي شَيَّدَ بِهِ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَقَامَتْ مَكَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ حَوْلِهِ. وَيَذْكُرُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ اسْتَأْذَنَ سَارَةَ يَوْمًا فِي زِيَارَةِ إِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ فَأَذْنَتْ لَهُ فَذَهَبَ؛ فَلَمَّا سَأَلَ عَنْ بَيْتِ إِسْمَاعِيلَ وَعَرَفَهُ قَالَ لَامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ يَتَصِيدُ مَا نَعِيشُ بِهِ. فَسَأَلَهَا أَعْنَدَهَا ضِيَاةً مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ؟ فَأَجَابَتْ بِأَنْ لَيْسَ عِنْدَهَا شَيْءٌ. فَانْصَرَفَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ إِذْ قَالَ لَهَا: إِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرِئِيهِ مِنِّي السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ غَيْرَ عَتَبَةٍ بَيْنَكَ. فَلَمَّا أَخْبَرَتْ إِسْمَاعِيلَ بِمَا ذَكَرَ أَبُوهُ سَرَّحَهَا، وَتَزَوَّجَ جُرُّمِيَّةً أُخْرَى بِنْتُ مُضَاضَ بْنِ عَمْرٍو. وَقَدْ أَكْرَمَتْ هَذِهِ وَفَادَةَ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ بَزْمَنٍ. فَلَمَّا انْصَرَفَ طَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَقْرَأَ زَوْجَهَا السَّلَامَ وَتَقُولَ لَهُ: الْآنَ اسْتَقَامَتْ عَتَبَةُ بَيْتِكَ. وَوُلِدَ لِإِسْمَاعِيلَ مِنْ هَذَا الزَّوْجِ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا هُمُ آبَاءُ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ. هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ الَّذِينَ يَنْتَمُونَ مِنْ نَاحِيَةِ خَوْوَلَتِهِمْ فِي جُرُّهُمْ إِلَى الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ أَبْنَاءُ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أَبَوْتِهِمْ لِإِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي يَمُتُّ مِنْ نَاحِيَةِ أُمُومَتِهِ إِلَى مِصْرَ بِأَوْتَقِ نَسَبٍ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أَبَوْتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ وَإِلَى فِلَسْطِينَ وَإِلَى حَيْثُ نَزَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ^(١٢٤).

هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْ قِصَصِ التَّارِيخِ يَكَادُ يَنْعَقِدُ الْإِجْمَاعُ عَلَى جَمَلَتِهَا مِنْ ذَهَابِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِلَى مَكَّةَ، وَإِنْ وَقَعَ خِلَافٌ عَلَى التَّفَاصِيلِ. وَالَّذِينَ يَعْرِضُونَ لَتَفَاصِيلِ حَوَادِثِهَا بِالنَّقْدِ يَرَوُونَهَا عَلَى

(١٢٠) إِذْ كَانَ رَضِيْعاً طَرِيحاً يَفْحَصُ بِرِجْلَيْهِ وَلَيْسَ — كَمَا مَرَّ — يَضْرِبُ أَخَاهُ إِسْحَاقَ فِي فِلَسْطِينَ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ بَلْ هُوَ خَيْرٌ مَعْتَبَرٌ، انْظُرْ

مَوْسُوعَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ: ٨٧، ٨٦/١.

(١٢١) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ١٥٣/١ — ١٥٥، تَفْسِيرُ الْقُمِّيِّ: ٦٠/١ — ٦١.

(١٢٢) مَرْوَجُ الذَّهَبِ: ١٩/٢ — ٢١ و ١٢١ — ١٢٢.

(١٢٣) تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ: ٢٦٩/١، وَتَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ١٥٤/١، وَالْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٥٩/١، وَتَفْسِيرُ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْقُمِّيِّ: ٦٠/١ وَتَفْسِيرُ مَجْمَعِ

الْبَيَانِ: ٣٨٨/١.

(١٢٤) الطَّبْرِيُّ: ١٥٥/١ و ١٨٩، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ: ٥٩/١ و ٧١، الْيَعْقُوبِيُّ: ١٥/١ و ٢٦٩، الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٢٣١/١ و ٢٧٥، تَفْسِيرُ مَجْمَعِ

الْبَيَانِ: ٣٨١/١.

أنّ هاجر ذهب يسماعيل إلى الوادي الذي به مكّة اليوم، وكانت به عيون أقامت جرهم عندها، فزلت هاجر منهم أهلاً وسهلاً لما جاء إبراهيم بها وبابنها . فلما شبّ إسماعيل تزوّج جرهمية ولدت له أولاده. وكان لهذا التلاقح بين إسماعيل العبري المصري وبين هؤلاء العرب ما جعل ذريته على جانب من العزم وقوّة البأس والجمع بين فضائل العرب والعبريين والمصريين. وإذا فما ورد عن حيرة هاجر لما نصب الماء منها، وعن سعيها سبعاً بين الصفا والمروة، وعن زمزم وكيف نبع الماء منها، موضع شكّ عندهم. لكنّ سير ولیم مویر^(١٢٥) يرتاب في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وينفي القصة من أساسها، ويذكر أنّها بعض الإسرائيليات ابتدعتها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب الاشتراك في أبوة إبراهيم لهم أجمعين أن كان إسحاق أباً لليهود، فإذا كان أخوه إسماعيل أباً العرب فهم إذاً أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملته النازلين بينهم من اليهود وتيسّر لتجارة اليهود في شبه الجزيرة. ويستند المؤرخ الانجليزي في رأيه هذا إلى أنّ طقوس العبادة في بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم، لأنّها وثنية مغرقة في الوثنية وكان إبراهيم حنيفاً مسلماً. ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافياً لنفي واقعة تاريخية. فوثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بما يزيد عن تسعمائة سنة لا تدل على أنّهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز وحين اشترك إسماعيل في بناء الكعبة . ولو أنّها كانت وثنية يومئذ لما أيد ذلك رأي سيرموير. فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم فلم ينجح. فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه قومه فلم ينجح وبقي العرب على عبادة الأوثان لم يطعن ذلك في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكّة. بل إنّ المنطق ليؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم الذي خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين وإلى مصر، رجل ألف الارتحال ، وألف اجتياز الصحارى. والطريق ما بين فلسطين ومكّة كان من أقدم العصور مطروقاً من القوافل. فلا محل إذاً للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها.

والسير ولیم مویر والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه^(١٢٦) يقولون بإمكان انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب واتصالهم وإياهم بصلة النسب، وما ندري وهذا الإمكان جائز عندهم في شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل كيف لا يكون جائزاً في شأن

(١٢٥) حياة محمد Sir William muir The Life of Mohamad , Edin barch , 1923.

(١٢٦) هم سينلجر وستوك هجروتيه: ٢٧/١ — ٢٨، مادة إبراهيم، دائرة المعارف الإسلامية.

الرجلين بالذات! وكيف لا يكون ثابتاً قطعاً ورواية التاريخ تؤكد أنه ! وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب وقد ذكره القرآن وتحدثت به بعض الكتب المقدسة الأخرى^(١٢٧)!

ورفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت الحرام^(١٢٨): (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)^(١٢٩). ويقول تعالى : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(١٣٠).

كيف رفع إبراهيم البيت مثابة للناس وأمناً، ليتوجه الناس فيه إلى الله مؤمنين به وحده، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام وعبادتها؟ وكيف كانت طقوس العبادة تؤدي فيه بعد إبراهيم وإسماعيل وعلى أي صورة كانت تؤدي ومتى تغيرت هذه الطقوس وتغلبت عليها الوثنية؟ هذا ما لا يُحدثنا التاريخ المعروف عنه؛ وكل ما هنالك فروض يحسبها أصحابها تصف ما كان واقعاً. فالصائبون من عبّاد النجوم كان لهم سلطان كبير في بلاد العرب. وقد كان هؤلاء — فيما يقولون — لا يعبدون النجوم لذاها وإنما كانوا في بداية أمرهم ، يعبدون الله وحده ويُعظمون النجوم على أنّها مظاهر خلقه وقدرته. ولما كانت كثرة الناس الكبرى أقصر من أن يحيط ذهنها بمعنى الألوهية السامي فقد اتخذوا من النجوم آلهة. ولما كانت بعض الأحجار البركانية يخال الناس أنّها ساقطة من السماء منحدره لذلك من بعض النجوم، فقد اتخذت أول أمرها مظاهر لهذه الآلهة

(١٢٧) تاريخ يعقوبي: ٤٩/١، تاريخ الطبري: ١٥٢/١، الكامل في التاريخ: ٥٩/١، البداية والنهاية: ٢٣٠/١، والثاقب في المناقب للطوسي: ١٤٥، بيروت، دار الزهراء، ط ١، ١٤١١ هـ .

(١٢٨) البيت الحرام كان موجوداً من لدن آدم أبي البشر (عليه السلام) ، أمّا إبراهيم فهو واضع قواعده ومشيد بنيانه وأركانته ويؤيد ذلك ما جاء عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، حيث قال: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختير الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه وإلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام (الذي جعله للناس قياماً) ثُمَّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نفاق الدنيا مدراً وأضيق بطون الأودية قُطراً، بين جبال خشنة ، ورمال دمتة، وعيون وشلة، منقطعة لا يترك بها خفّ، ولا حافر ولا ظلف، ثُمَّ أمر آدم وولده، أن يشنوا أعطافهم فهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لِمَلَقَى رحالهم، تقوي إليه ثمارُ الأفئدة من مفاوز قيفار سحيقة». نَحَج البلاغة شرح محمد عبده، الخطبة القاصعة: ١٩٢ .

وظاهر القرآن لا يمنع من هذا التفسير ، فقد عبّر تعالى عن تجديد بناء إبراهيم للبيت بقوله: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) وهذه إشارة إلى أن تكون الأسس والقواعد قد وضعت قبل ذلك وإبراهيم هو الذي رفع هذه القواعد وشيّد تلکم الأسس(*)

(*) نور الثقلين : ١٢٦/١ ، الصحيح من السيرة: ٢٢/٢، تاريخ الطبري: ١٩٩/١، الدر المنثور: ١١٢/١ — ١٣٨، البداية والنهاية ابن كثير:

الرفيعة وقدّست بهذه الصفة، ثمّ قدّست لذاقها، ثمّ كانت عبادة الأحجار، حتى كان العربي لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة، بل كان يأخذ معه في أسفاره أي حجر من أحجار مكّة يصلّي إليه ويستأذنه في الإقامة والسفر، ويؤدي إليه كلّ ما يؤدي للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة؛ ومن ثمّ استقرت الوثنية وقدّست التماثيل وقُرّبت لها القرابين^(١٣١).

هذه صورة يصوّرها بعض المؤرخين لتطور الأمر في بلاد العرب من بناء إبراهيم البيت لعبادة الله وما آل إليه أمره بعد ذلك ليكون مستقر الأصنام. وقد ذكر هيرودوت أبو التاريخ المكتوب^(١٣٢)، عبادة اللات في بلاد العرب، وذكر ديودور الصقلي^(١٣٣) بيت مكّة الذي تُعظّمه العرب؛ فدلّ ذلك على قدم الوثنية في بلاد العرب وعلى أنّ دين إبراهيم لم يستقر فيها طويلاً.

ولقد قام في هذه القرون أنبياء دعوا قبائلهم في بلاد العرب إلى عبادة الله وحده فرفضوا وأصرّوا على وثنيّتهم، قام هود فدعا عاداً التي كانت تقيم في شمال حضرموت إلى عبادة الله وحده فما آمن به إلا قليل. فأما كثرة قومه فاستكبروا، وقالوا له: (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)^(١٣٤). وأقام هود يدعوهم السنين فلا تزيدهم دعوته إلاّ عتوّاً في الأرض واستكباراً. وقام صالح يدعو للإيمان ثمود، وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام، إلى وادي القرى في الجنوب الشرقي من أرض مَدْيَن القريبة من خليج العقبة؛ ولم تُثمر دعوة صالح ثمود أكثر ممّا أثّرت دعوة هود عاداً. وقام شعيب في شعب مَدْيَن وكانوا بالحجاز، يدعوهم إلى الله فلم يسمعوا له، فهلكوا ونزل بهم ما نزل بعاد وثمود. وغير هؤلاء

من الأنبياء
قصّ القرآن قصصهم ودعوتهم قومهم لعبادة الله وحده، واستكبار قومهم وإقامتهم على عبادة الأوثان، وعلى التوجّه بقلوبهم لأصنام الكعبة وحجّهم إليها كلّ عام من كلّ صوب في بلاد العرب وحَدَب. وفي ذلك نزل قوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)^(١٣٥).

(١٣١) الأصنام للكلي: ٣٣، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٢٥، وعلل الشرائع: ١٣/١، ومجمع البيان: ٥٤٧/٢ .

(١٣٢) هيرودوت Herodotos (٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م) : مؤرخ ورخالة يوناني لُقّب بـ «أبي التاريخ» زار العالم المعروف آنذاك ولا سيّما العراق وفينيقيّا ومصر. له «تاريخ» هو من أهم المراجع المعروفة، أخبار الأمم القديمة وأساطيرها. المنجد في الأعلام: ٧٣٦، بيروت دار المشرق: ١٩٨٢ م.

(١٣٣) ديودور الصقلي: مؤرخ يوناني في عصر اغوستس له «المكتبة التاريخية» وهي تاريخ عام يبدأ بالخلقة، وينتهي بموت يوليوس قيصر ٤٤ ق . م ، المنجد في الأعلام: ٢٩٧ .

(١٣٤) هود (١١): ٥٣ .

(١٣٥) الإسراء (١٧): ١٥ .

أفكانت تحيط بالكعبة منذ إنشائها مناصب كالتى تولّاها قُصيّ بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي حين اجتمع له مُلك مَكّة على ما سنذكر من بعد؟ قد اجتمعت لقُصيّ الحجابة والسقاية والرّفادة والتّدوة واللواء والقيادة. والحجابة: سدانة البيت أي تولّى مفاتيحه. والسقاية: إسقاء الحجيج الماء العذب الذي كان عزيزاً بمَكّة، وإسقاؤهم كذلك نبيذ التمر^(١٣٦). والرّفادة: إطعام الحاج جميعاً. والندوة: رئاسة الاجتماع كل أيام العام. واللواء: راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى عدو. والقيادة: إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب. وكانت هذه المناصب كلّها معتبرة في مَكّة وكأنّها تُحيط بالكعبة مُتّجه أنظار العرب جميعاً في عباداتهم. وأحسبها لم تنبت كلّها دفعة واحدة منذ أُقيم البيت، بل نشأت واحدة تلو أخرى، مستقلاً بعضها عن الكعبة ومكانتها الدينية، متصلاً بعضها بالكعبة من طبعه، فمكة لم تكن حين بناء الكعبة، على خير ما يمكن أن يصوّره خيالنا، لتزيد على قبائل من العماليق ومن جرهم. فلمّا استقر بها إسماعيل ورفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم اقتضى تطوّر مَكّة لتصير حضراً، أو ما يشبه الحضر زماناً طويلاً. ونقول: ما يشبه الحضر، أن ظلّت مَكّة وماتزال في طباع أهلها بقايا متخلفة من معاني البداوة الأولى. ويريد بعض المؤرخين أن يذكر أنّها ظلّت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقُصيّ في منتصف القرن الخامس للميلاد. وعسير أن نتصور بقاء بلد له ما لمَكّة وبيتها العتيق من القداسة في حالة البادية مع ما يثبت التاريخ من أن أمر البيت بقي بعد إسماعيل في يد جرهم أحوال بنيه أجيالاً متعاقبة أقاموها حوله، ومع أن مَكّة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام وإلى نجد، كما كانت تتصل من طريق البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم من غير أن تتعرض لغزو الغزاة من آية مملكة من ممالك العالم. فمن الحقّ لذلك أن نُقدّر أن مَكّة وقد دعاها إبراهيم بلداً، ودعا الله له أن يكون آمناً مطمئناً، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالاً طويلة قبل قُصيّ^(١٣٧).

وظلّ أمر مَكّة لجرهم بعد أن غلبوا العماليق عليها إلى عهد مُضاض بن عمرو بن الحارث. ولقد راجت تجارة مَكّة خلال هذه الأجيال رواجاً أمر مُتّرفيها، وجعلهم ينسون أنّهم بواد غير ذي زرع وأنّهم لذلك بحاجة إلى الدأب المتصل واليقظة الدائمة. وبلغ من نسيانهم أن نصب ماء زمزم وأن قامت بنفس عرب خُزاعة الرغبة في الوثوب إلى مناصب الأمر في البلد الحرام.

(١٣٦) والنبيذ أعمّ من كونه مُسكرًا: يقال نبذت التمر والعنب إذا تركت عليه الماء ليصير نبيذاً، فُصِرَ من مفعول إلى فعل، وانتبذت: اتخذته نبيذاً، وسواء كان مُسكرًا أو غير مُسكر فإنّه يقال له نبيذ، ويُقال للخمر المعتصر من العنب: نبيذ. كما يقال للنبيذ خمر. مجمع البحرين:

ولم يُجدِ تحذير مُضاض قومه عاقبة ما انغمسوا فيه من ترفهم، وأيقن أن الأمر زائل عنه وعنهم. فعمد إلى زمزم فأعَمَّق حفرها وإلى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفة من الأموال بالكعبة، أن كانت تُهدى لها، فدفنها بقاع البئر وأهال الرمال عليها، رجاء أن يعود له الأمر يوماً فيفيد من الكشف عنها. وخرج ومعه بنو إسماعيل من مكة، ووليت خِزاعة أمرها وظلت تتوارثه حتى آلَ إلى قُصَيِّ بن كلاب الجد الخامس للنبي^(١٣٨).

وكانت أم قُصَيِّ فاطمة بنت سعد بن سَيْلٍ قد تزوجت من كلاب فولدت له زهرة وقُصَيًّا. ثم هلك كلاب، وقُصَيٌّ طفل في المهد. وتزوجت فاطمة من ربيعة بن حزام، فرحل بها إلى الشام وهناك ولدت له دراجا. وكبر قُصَيٌّ وهو لا يعرف لنفسه أباً غير ربيعة. ووقع بينه وبين آل ربيعة شرٌّ، فعيّروه بأنّه في جوارهم وأنّه ليس منهم. وشكا قُصَيٌّ إلى أمه ما عُيِّرَ به. قالت: يا بُني إنك والله لأكرم منهم أباً، أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام. وقدم قُصَيٌّ مكة وأقام بها وعُرف عنه فيها من الجد وحسن الرأي ما جعله موضع احترام أهلها فيها. وكانت سدانة البيت في خِزاعة لَحْلِيل ابن حُبشية وكان رجلاً ثاقب النظر حسن التقدير؛ فما لبث أن خطب قُصَيٌّ إليه ابنته حُبَيّ حتى رَحَّبَ به وزوّجه منها. واستمر دأب قُصَيٍّ في السعي والتجارة، فكثرت أمواله كما كثر أولاده وعُظُمَ بين قومه شرفه. ومات حُلَيْل بعد أن أوصى بمفتاح البيت الحرام لحُبَيّ زوج قُصَيٍّ. واعتذرت حُبَيّ عن ذلك وجعلت المفتاح لأبي غُبشان الخزاعي. وكان أبو غُبشان سَكَّيراً، فأعوزهُ الشراب يوماً فباع مفتاح البيت قُصَيًّا بزقٍّ من خمر. وقدرت خِزاعة ما يصيب مكانتها بمكة إذا بقيت سدانة الكعبة لقُصَيٍّ، بعد أن كثر ماله وبعد أن بدأت قُرَيْش تجتمع حوله، فأذكروا أن يكون لغيرهم منصب من المناصب المتصلة بالبيت الحرام. واستنفر قُصَيٌّ قُرَيْشاً، ورأت بعض القبائل أنّه أحكم المقيمين بمكة وأعظمهم قدراً، فانضموا له وأجلوا خِزاعة عن مكة، واجتمعت مناصب البيت كلّها لقُصَيٍّ وأقرّ القوم له بالملك عليهم^(١٣٩).

ويذهب البعض، كما قدّمنا، إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولّى قُصَيٌّ أمرها. ويُعلّلون ذلك بأنّ خِزاعة وجُرحماً قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره، وأنّهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون إلى الحلّ. ويضيف هذا البعض، أن قُصَيًّا لما تمّ له أمر مكة جمع قُرَيْشاً وأمرهم أن يبنوا بها، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا في أمور بلدهم، ولم يكن يتمّ أمر إلاّ بموافقتهم، فلم تكن تُنكح امرأة ولا

(١٣٨) تاريخ الطبري: ٥٥٥/١، والبداية والنهاية: ١٢٠/٢ — ١٢٣، وراجع: الكافي للكليني: ٢١١/٤، ح ١٨.

(١٣٩) تاريخ يعقوبي: ١٨٩/١ و ٢٨٩، تاريخ الطبري: ٥٠٦/١، والبداية والنهاية: ١٤٨/٢.

يتزوج رجل إلا في هذه الدار. وَبَنَتْ قُرَيْشُ بِأَمْرِ قُصَيٍّ حَوْلَ الْكَعْبَةِ دُورَهَا، وَتَرَكَوا مَكَانًا كَافِيًا لِلطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَتَرَكَوا بَيْنَ كُلِّ بَيْتَيْنِ طَرِيقًا يَنْفِذُ مِنْهُ إِلَى الْمَطَافِ^(١٤٠).

وكان عبدالدار أكبر أبناء قُصَيٍّ، لكنَّ أخاه عبدمناف كان قد تقدَّم عليه أمام الناس وقد شرف فيهم. فلَمَّا كَبُرَ قُصَيٌّ وَضَعُفَ بَدَنُهُ وَلَمْ يَبْقَ قَادِرًا عَلَى تَوَلِّيِّ أُمُورِ مَكَّةَ جَعَلَ الْحِجَابَةَ لِعَبْدِ الدَّارِ وَسَلَّمْ إِلَيْهِ مِفْتَاحَ الْبَيْتِ، كَمَا أَعْطَاهُ السَّقَايَةَ وَاللَّوَاءَ وَالرَّفَادَةَ، وَكَانَتِ الرَّفَادَةُ قِسْطًا تَخْرُجُهُ قُرَيْشُ كُلَّ عَامٍ مِنْ أَمْوَالِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى قُصَيٍّ يَصْنَعُ مِنْهُ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ طَعَامًا يَنَالُ مِنْهُ مِنَ الْحَاجِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا سَعَةٍ وَلَا زَادٍ. وَكَانَ قُصَيٌّ أَوَّلَ مَنْ فَرَضَ الرَّفَادَةَ عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ جَمَعَهُمْ وَاعْتَزَّ بِهَمْ وَأَخْرَجَ وَإِيَّاهُمْ خِزَاعَةً مِنْ مَكَّةَ. فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّكُمْ جِيرَانُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَهْلُ حَرَمِهِ، وَإِنَّ الْحَاجَّ ضَيْفُ اللَّهِ وَزَوَّارُ بَيْتِهِ، وَهُمْ أَحَقُّ الْأَضْيَافِ بِالْكَرَامَةِ، فَاجْعَلُوا لَهُمْ طَعَامًا وَشَرَابًا أَيَّامَ الْحَجِّ حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْكُمْ»^(١٤١).

وتولَّى عبدالدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولَّاهَا أَبْنَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ^(١٤٢). لكنَّ أَبْنَاءَ عَبْدِ مَنْفَافٍ كَانُوا أَشْرَفَ فِي قَوْمِهِمْ وَأَعْظَمَ مَكَانَةً. لِذَلِكَ أَجْمَعَ هَاشِمٌ وَعَبْدُ شَمْسٍ وَالْمَطْلَبُ وَنُوفَلُ بَنُو عَبْدِ مَنْفَافٍ عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مَا بِأَيْدِي أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِمْ. وَتَفَرَّقَ رَأْيُ قُرَيْشٍ: تَنْصُرُ طَائِفَةٌ هَؤُلَاءَ وَأُخْرَى أُوْلَئِكَ. وَعَقَدَ بَنُو عَبْدِ مَنْفَافٍ حِلْفَ الْمُطَيِّينَ لِأَنَّهُمْ غَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِي طَيْبٍ جَاءُوا بِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ وَأَقْسَمُوا لَا يَنْقُضُونَ حِلْفَهُمْ. وَعَقَدَ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ حِلْفَ الْأَحْلَافِ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ وَأُوْلَئِكَ يَوْشِكُونَ أَنْ يَقْتَتِلُوا فِي حَرْبٍ تَذِيبُ قُرَيْشًا؛ إِذْ تَدَاعَى النَّاسُ إِلَى الصَّلْحِ عَلَى أَنْ يُعْطُوا بَنِي عَبْدِ مَنْفَافٍ السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ، وَأَنْ تَبْقَى الْحِجَابَةُ وَاللَّوَاءُ وَالنَّدْوَةُ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ. وَرَضِيَ الْفَرِيقَانِ بِذَلِكَ، وَظَلَّ الْأَمْرُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ^(١٤٣).

وكان هاشم كبير قومه، وكان ذا يسار، فولَّى السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ قُصَيُّ جَدُّهُ، دَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجَ كُلُّ مَنْهُمْ مِنْ مَالِهِ مَا يَنْفِقُهُ هُوَ فِي إِطْعَامِ الْحَاجِّ أَثْنَاءَ الْمَوْسَمِ. فَزَوَّارَ اللَّهُ وَحِجَاجَ بَيْتِهِ هُمْ ضَيْفُ اللَّهِ، وَأَحَقُّ الضُّيُفِ بِالْكَرَامَةِ ضَيْفُ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ كَانَ يُطْعَمُ الْحَاجُّ جَمِيعًا حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْ مَكَّةَ. وَلَمْ يَقِفْ أَمْرُ هَاشِمٍ عِنْدَ هَذَا، بَلْ اتَّصَلَ بِرَّهِ وَكَرَمِهِ بِأَهْلِ مَكَّةَ أَنْفُسَهُمْ. أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ بِجَدَبٍ، فَجَاءَ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَثَرْدٌ لَهُمُ الشَّرِيدُ بِمَا جَعَلَهُمْ يَنْظُرُونَ مِنْ

(١٤٠) تاريخ الطبري: ٥٠٨/١، والبدية والنهاية: ١٤٩/٢.

(١٤١) تاريخ الطبري: ٥٠٨/١، والبدية والنهاية: ١٤٩/٢ و ١٥١.

(١٤٢) المصادر السابقة.

(١٤٣) تاريخ الطبري: ٥٠٨/١، والبدية والنهاية: ١٥١/٢ — ١٥٢.

جديد إلى الحياة بوجه باسم. وهاشم هو كذلك الذي سنّ رحلتي الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام^(١٤٤).

وبهذه المظاهر كلّها ازدهرت مكّة وسَمَت مكانتها في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً، واعتبرت العاصمة المعترف بها. وطوّع هذا الازدهار لأبناء عبدمناف أن يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام: عقد هاشم بنفسه مع الأمبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حُسن جوار ومودّة، وحصل من الأمبراطور على الإذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة. وعقد عبدشمس معاهدة تجارية مع النجاشي، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحَمِيرين في اليمن^(١٤٥). وكذلك ازدادت مكّة مَنعة جاه ، كما ازدادت يساراً. وبلغ أهلها من المهارة في التجارة حتى أصبحوا لا يدانيهم فيها مُدان من أهل عصرهم: كانت القوافل تجيء إليها من كلّ صوب وتصدر عنها في رحلتي الشتاء والصيف، وكانت الأسواق تنصبّ فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها، أو لتصريفها عنها؛ ولذلك مهر أهلها في النسيئة والربا، وفي كلّ ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات .

وظلّ هاشم تتقدم به السن وهو في مكانته على رئاسة مكّة لا يفكر أحد في منافسته، حتّى خيّل لابن أخيه أُمَيّة بن عبدشمس أنّه قد بلغ مكاناً يسوّل له هذه المنافسة. لكنّه لم يقدرْ وغُلِب على أمره، وبقي الأمر لهاشم، وترك أُمَيّة مكّة إلى الشام عشر سنوات كاملة^(١٤٦). وإنّ هاشماً لفي

(١٤٤) تاريخ يعقوبي: ٢٤٢/١، وجمع البيان للطبرسي: ٥٤٥/٥، وبحار الأنوار: ٣٦/١٥ — ٣٩ و ٤١، سمط النجوم: ٢٠٨/١، تاريخ الطبري: ٢٥٢/٢ .

(١٤٥) تاريخ الطبري: ٥٠٤/١، والتفسير الكبير للفرّازي: ١٠٤/٢ .

(١٤٦) بعد وفاة عبدشمس أخي هاشم أسفر أُمَيّة الترقّ الطائش بالحقّد على هاشم، وصعد الصراع وشن حرباً باردة ضده، وحاول أن يستقطب قريشاً من أجل إزاحة هاشم عن موقعه، فكلف نفسه أن يفعل كما يفعل هاشم من إطعام قُريش، فعجز من أن يرقى إلى أخلاق هاشم لسوء طويّته، فشمت به الناس وعابوه على هذه المزايدة، فلم يتردّد وغضب لهذا الاحتجاج. (الطبقات لابن سعد : ٧٦/١، ترجمة هاشم بن عبد مناف والسيرة الحلبية: ٦٤ باب نسب الشريف(صلى الله عليه وآله)).

وفي ليلة من الليالي دعا هاشم أُمَيّة فقال له: إنّ لي سناً وإنّ لي حقّاً عليك، وقد بلغني ما أحبّ أن تدفعه عنك فاتق الله في قالتك عني، فأجاب أُمَيّة بحماقة وطيش: ما تكلمت إلّا حقّاً . فابتسم سيّد قُريش وأجابه: إنّ شرفي شرفك وإنّ تمسه لا تعرّ.

وأخيراً راهن أُمَيّة هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق تُنحر بمكّة وعلى جلّائه عشر سنين، ظلّاً منه في أن يتخلّص من هاشم، ويتولى الرئاسة بدله، وجعلوا حكماً بينهما الكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحمق، وكانت النتيجة لصالح هاشم، وخسر أُمَيّة الجولة أمام سيّد قُريش.

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أُمَيّة إلى الشام، فأقام بها عشر سنين. (النزاع والتخاصم : ٤١، باب في أصل المفاخرة بين بني هاشم وبني أُمَيّة، ترجمة هاشم).

وكان أُمَيّة صاحب عمار، وكان يعرض لامرأة من بني زُهرة، فضربه رجل منهم بالسيف، وأراد بنو أُمَيّة ومن تابعهم إخراج بني زُهرة من مكّة، فلم يستطيعوا.

وصنع أُمَيّة في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد قبله من العرب، حيث زوّج ابنه أبا عمرو بن أُمَيّة امرأته في حياته منها. (النزاع والتخاصم : ٤٢، باب في أصل المفاخرة بين بني هاشم وبني أُمَيّة، ترجمة أُمَيّة).

رحلته يوماً عائداً من الشام ماراً بيثرب إذ رأى امرأة ذات شرف وحسب تطلُّ على قوم يتجرون لها. تلك سلمى بنت عمرو الخزرجية. وقد أعجب هاشم بها وسأل أهي في عصمة رجل؟ فلمّا عرف أنّها مُطلّقة وأنّها لا ترضى زوجاً إلّا أن تكون عصمتها بيدها خطبها إلى نفسها فرضيت لعلمها بمكانته من قومه، وأقامت معه بمكّة زمناً عادت بعده إلى المدينة حيث ولدت له ولداً دعتة شبيهة ظلّ معها بيثرب^(١٤٧).

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغزّة أثناء إحدى رحلات الصيف، فخلفه أخوه المطلب في مناصبه. وكان المطلب أصغر من أخيه عبدشمس، ولكنّه كان ذا شرف في القوم وفضل، وكانت قُريش إنّما تُسمّيه الفيض لسماحته وفضله. وطبيعي وذلك مكان المطلب من قومه أن تبقى الأمور تسير سيرتها مطمئنة هائلة.

وفكر المطلب يوماً في ابن أخيه هاشم. فذهب إلى يثرب وطلب إلى سلمى أن تدفع إليه الفتى وقد بلغ أشده. وأردف المطلب الفتى على بعيره ودخل به مكّة، فظنّته قُريش عبداً له جاء به فتصايحت: عبدالمطلب. قال المطلب: ويحكم! إنّما هو ابن أخي هاشم قدمت به من يثرب. على أنّ هذا اللقب غلب على الفتى فدعي به، ونسي الناس اسم شبيهة الذي دُعي به منذ وُلد^(١٤٨).

وأراد المطلب أن يرد على ابن أخيه أموال هاشم. لكنّ نوفلاً أبى ووضع يده عليها. فلمّا اشتدّ ساعد عبدالمطلب استعدى أخواله بيثرب على عمّه كي يردّوا عليه حقّه. وأقبل ثمانون

وبعد وفاة هاشم، وتولي الرئاسة والرفادة والسقاية ابنه عبدالمطلب بعد وفاة عمّه المطلب، انتقل أُمّية بالصراع مع عبدالمطلب، واستمرت الخصومة بينهما طويلاً، إلى أن تمكّن عبدالمطلب من هزيمة أُمّية والتخلّص من شرّه عندما راهنه في سباق بين فرسين، ووضع لهذا الرهان شيئاً ثقيلاً ولم يقصد عبدالمطلب الخسارة لأُمّية فقط؛ بل أراد فوق ذلك التحقير القضاء على الفتنة التي طالما كان يؤجّجها أُمّية، (المصدر السابق، والطبقات لابن سعد: ٧٦/١).

وقد فرض هذا الرهان مئة من الإبل وعشرة من العبيد وعشرة من الإماء واستعباد سنة كاملة، ويضاف إلى ذلك جزّ ناصية المغلوب. ونزل الفرسان في الميدان، وتجمّع الناس ليشهدوا هذا المشهد، وعبدالمطلب هادئ مطمئن واثق من نفسه راض بما يكون، ولم تفارق الابتسامة شفتيه حتى رأى الناس فرس عبدالمطلب بلغ الغاية قبل فرس أُمّية، وهذا ربح عبدالمطلب الشرط. (الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧٨/١ والسيرة الحلبية: ٤/١، ترجمة عبدالمطلب).

ويدل على صحة هذه الواقعة التاريخية ما افتخر به عبدالله بن جعفر على يزيد في حضور معاوية في حديث جاء فيه: إن عبدالله قال ليزيد: بأيّ آباتك تفاخري؟ بحرب الذي أحرناه؟ أم بأُمّية الذي ملكناه؟ أم بعبد شمس الذي كفلناه؟ قال ذلك على مسمع من معاوية، فأقرّ معاوية فخره، وأمر يزيد أن لا يفخر الهاشميين: لأنّهم قوم لا يجهلون ما علموا. (تاريخ اليعقوبي: ٢٩٧/١، باب ولد إسماعيل بن إبراهيم). راجع سلسلة في رحاب أهل البيت العدد ٢٣ أبوطالب كافل رسول الله وناصره الصادر عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام).

(١٤٧) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٦/٢، وتاريخ الطبري: ٨/٢ — ٩، والسيرة الحلبية: ٦/١، وبحار الأنوار: ٣٩/١٥ و ٥٠ — ٥١.

(١٤٨) تاريخ الطبري: ٥٠/١، والكامل في التاريخ: ٦/٢، بحار الأنوار: ٥٨/١٥ و ٦٤.

فارساً من خزرج يثرب لنصرته، فاضطر نوفل إلى ردّ ماله إليه^(١٤٩). وقام عبدالمطلب في مناصب هاشم، له السقاية والرفادة من بعد عمّه المطلب. وقد لقي في القيام بهذين المنصبين وبالسقاية بنوع خاص، شيئاً غير قليل من المشقة. فقد كان إلى يومئذ وليس له من الأبناء إلاّ ولده الحارث. وكانت سقاية الحاجّ يؤتى بها، منذ نضبت زمزم، من آبار عدة مبعثرة حول مكّة، فتوضع في أحواض إلى جوار الكعبة. وقد كانت كثرة الولد عوناً على تيسير هذا العمل والإشراف عليه. فأما ولم يكن لعبدالمطلب من ولد حين وُلّي السقاية والرفادة إلاّ الحارث، فقد عناه الأمر وطال فيه تفكيره^(١٥٠).

وكانت العرب ماتفتاً تذكر زمزم منذ طمّها مُضاض بن عمرو الجُرهمي لثلاثمائة من السنين خلت، وتتمنى لو أنّها كانت باقية ما تزال. وكان عبدالمطلب بطبيعة مركزه أكثرهم تفكيراً في هذا الأمر وأشدّهم قنّياً أن يكون. ولقد ألحّ الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف أثناء نومه يحضّنه على أن يحفر البئر التي تفجرت تحت أقدام جدّه إسماعيل. وألحّ الهاتف يدّله على مظانّ وجودها، وألحّ هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى إليها بين الوثنيين أساف ونائلة. وجعل يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مُضاض الجُرهمي. وأرادت قُريش أن تشارك عبدالمطلب في البئر وفيما وجد فيها، فقال لهم: لا، ولكنّ هَلُمَّ إلى أمر نَصَف بيني وبينكم. نضرب عليها بالقِداح نجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين. فَمَنْ خرج قدحاه على شيء كان له. وَمَنْ تخلف قدحاه فلا شيء له. فارتضوا رأيه، ثُمَّ أعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هُبُل في جوف الكعبة. فتخلف قدحاً قُريش وخرجت الأسياف لعبدالمطلب والغزالتان للكعبة، فضرب عبدالمطلب الأسياف باباً للكعبة وضرب في الباب غزالتا الذهب حُلّية للبيت الحرام. وأقام عبدالمطلب في سقاية الحاج بعد أن يسرّهما زمزم له^(١٥١).

وأحسن عبدالمطلب قلة حوله في قومه لقلّة أولاده، فنذر إن ولد له عشرة بنين ثُمَّ بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم لينحرنّ أحدهم لله عند الكعبة. وتوافى بنوه عشرة أنس فيهم المقدرة على أن يمنعوه، فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا. وفي سبيل هذا الوفاء كتب كلّ واحد من الأبناء اسمه على قدح، وأخذها عبدالمطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل

(١٤٩) تاريخ الطبري: ٥٠٣/١، والكمال في التاريخ: ٧/٢.

(١٥٠) السيرة النبوية لابن هشام: ١٤٣/١ — ١٤٤ والطبقات الكبرى: ٨٣/١ وجمار الأنوار: ٧٥/١٥ — ٧٦.

(١٥١) تاريخ الطبري: ٥٠٣/١، والكمال في التاريخ: ٧/٢ — ٨، والبدية والنهاية: ١٩٦/٢ — ١٩٨، وجمار الأنوار: ١٧٣/٥، اليعقوبي:

٢٤٦/١ — ٢٤٧، فروع الكافي: ٢٢٥/٣.

في جوف الكعبة. وكانت العرب كلما اشتدت بها الحيرة في أمر لجأت إلى صاحب القداح، كي يستفتي لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح. وكان عبدالله بن عبدالمطلب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه. فلما ضرب صاحب القداح القداح التي عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها من ينحره أبوه خرج القدح على عبدالله؛ فأخذ عبدالمطلب الفتى بيده وذهب به ينحره، حيث كانت تنحدر العرب عند زمزم بين إساف ونائلة، إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تقيب به ألا يفعل، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عُذراً. وتردد عبدالمطلب لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة؟^(١٥٢) قال المغيرة بن عبدالله المخزومي: إن كان فداؤه بأموالنا فديناه. وشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرّافة يثرب، لها في مثل هذه الأمور رأي. وجاءوا العرّافة فاستمهلتهن إلى الغد، ثم قالت لهم: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم تقربوا وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. وفعلوا وجعلت

(١٥٢) لما عزم عبدالمطلب على حفر زمزم ولقي من قريش ما لقي عند ذاك نذر الله لئن ولد له عشرة أولاد بلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم الله عند الكعبة، فلما توافى له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك. فلما سمع منه الأولاد ذلك أطاعوه، وقالوا:

كيف نصنع؟ قال: يأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم اتوني به ففعلوا، ثم أتوا به فدخل بهم جوف الكعبة وأخبر كفيل القرعة بنذره وأمره أن يقتصر على بنيه بالقداح، فقام هو يدعو الله ويطلب رضاه. ثم ضرب صاحب القداح على بني عبدالمطلب فخرج القدح على عبدالله فأخذه عبدالمطلب وجاء به إلى المذبح قرب زمزم وبيده الشفرة، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبدالمطلب؟

قال الذبح. تاريخ الطبري: ٢/٢٤٠ — ٢٤١.

ولاشك في أن عبدالمطلب كان حنيفاً على ملة أبيه إبراهيم، فلم يعبد صنماً قط، كما لم يتقرب إلى الله بواسطة صنم فهو الذي أراه الله مكان زمزم عندما دفنت جُرمهم ذخائر البيت من الذهب. والذي كان يُجهل مكانه حتى زمان عبدالمطلب، تاريخ الطبري: ١٥١/٢. وهو الذي تدفق الماء من تحت خفّ راحلته في الصحراء حين ذهب هو وقريش إلى كاهنة بني سعد في مشارف الشام لغرض فكّ التّراع حول بئر زمزم. الكامل في التاريخ: ١٣/٢، وسمط النجوم قريب منه: ٢٢٤/١. ومضمونه يعقوبي: ١٤٨/١. وكانت قريش إذا أصابها جَدْب تأخذه فتخرج به إلى جبل ثبير فيتقربون به إلى الله ويسألونه أن يسقيهم الغيث. الكامل في التاريخ: ٤٤٤/١.

وفي حادثة الفيل نجده حين بلغه عزم أبرهة على هدم الكعبة — يقول: يا معشر قريش إنهم لا يقدرّون على هدم البيت، لأنّ للبيت ربّاً يحميه. الكامل في التاريخ: ٤٤٢/١.

وقال في المناسبة شعراً:

يا ربّ لا أرجو لهم سواك *** يا ربّ فامنع منهم حماكا
إنّ عدوّ البيت من عداك *** امنعهم أن يخربوا قراكا

الطبري: ١٣٤/٢.

القداح تخرج على عبدالله فيزيدون في الإبل حتى بلغت مئة؛ عند ذلك خرجت القداح على الإبل. فقالت قُريش لعبدالمطلب وكان أثناء ذلك كله واقفاً يدعو ربّه: قد رضي ربك يا عبدالمطلب. قال عبدالمطلب: لا والله، حتى أضرب عليها ثلاث مرات. وفي المرات الثلاث خرجت القداح على الإبل؛ فاطمأنّ عبدالمطلب إلى رضي ربّه ونُحرت الإبل، ثمّ تركت لا يصدّ عنها إنسان ولا يمنع^(١٥٣).

بذلك تجري كتب السيرة فتصف طرفاً من عادات العرب وعقائدها وطقوس هذه العقائد، وتدل في نفس الوقت على ما بلغت مكّة في بلاد العرب من مقام كريم بيئتها الحرام. على أنّ الطبري يروي قصة الفداء وخروج القداح على عبدالله وافتدائه بالمئة من الإبل، ثمّ يذكر أن مروان أمير المدينة لما عرف ذلك أنكره، وقال: لا نذر في معصية، فلم تنحر الإبل. واعتبرت مقالته هذه سنّة متّبعة عند العرب^(١٥٤).

أدّت مكانة مكّة ومقام بيئتها الحرام، إلى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد فيها، لعلّها تصرف الناس عن مكّة وعن بيئتها. فأقام الغساسنة بيتاً بالحيرة، وأقام أبرهة الأشرم بيتاً باليمن، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكّة ولا هو صرفهم عنها. وقد عُني أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر الأثاث ما خيّل إليه معه أنّه صارف العرب وصارف أهل مكّة أنفسهم إليه. فلمّا رأى العرب لا تتجه إلّا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن يدعون البيت الذي بُني ولا يعتبرون حجّهم مقبولاً إلّا بمكّة، لم يجد عامل النجاشي وسيلة إلّا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل. وتهيأ للحرب في جيش من الحبشة تقدّمه هو على فيل عظيم ركبه. فلمّا سمعت العرب ذلك خافت العاقبة وعظم عليها أن يُقدم رجل حبشي على هدم بيت حجّهم ومقام أصنامهم. وهبّ رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكها يُدعى ذانقر فاستنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصدّه عمّا يريد من هدم بيت الله. لكنّه لم يستطع أن يصمد لأبرهة بل هُزم وأُخذ أسيراً، وهُزم كذلك نُفيل بن حبيب الخثعمي حين جمع قومه من قبيلتي شهران وناهس وأُخذ هو أسيراً، فأقام نفسه دليلاً لأبرهة وجيشه. فلمّا نزل أبرهة الطائف كلّمه أهلها بأنّ بيتهم ليس هو البيت الذي يريد، إنّما هو بيت اللات. وبعثوا معه بمن يدلّه على مكّة. فلمّا اقترب أبرهة من مكّة بعث رجلاً من الجيش على فرسان له، فساق إليه أموال أهل قحافة من قُريش

(١٥٣) القصة بالتفصيل في تاريخ يعقوبي: ٢٥١/١.

(١٥٤) تاريخ الطبري: ٤٩٧/١، وسائل الشيعة: ٣١٧/٢٣، باب أنّه لا ينعقد النذر في معصية ولا مرجوح، وفيه ١٢ حديثاً، ح ٢ عن التهذيب

عن الباقر(عليه السلام) عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: «لا نذر في معصية».

وغيرهم، وبينها مئة بعير لعبدالمطلب بن هاشم. وهَمَّت قُريش ومن معهم من أهل مكّة بقتاله، فرأوا أن لا طاقة لهم به.

وبعث أبرهة رجلاً من رجاله يُدعى حُناطة الحِميري سأل عن سيّد مكّة فذهبوا به إلى عبدالمطلب بن هاشم، فأبلغه رسالة أبرهة إليه أنّه لم يأت لحرب وإنّما جاء لهدم البيت، فإن لم تحاربه مكّة فلا حاجة له بدماء أهلها. فلمّا ذكر له عبدالمطلب أنّهم لا يريدون حرباً سار به حناطة ومع عبدالمطلب بعض أبنائه وبعض كبراء مكّة حتى بلغوا معسكر الجيش. وأكرم أبرهة وفادة عبدالمطلب وأجابه إلى ردّ إبله إليه. لكنّه رفض رفضاً باتّاً كل حديث في أمر الكعبة ورجوعه عن هدمه، برغم ما عرض عليه وفد مكّة من التزول له عن ثلث ثروة قهامة. وعاد عبدالمطلب وقومه إلى مكّة، فنصح إلى الناس بما أن يخرجوا منها إلى شعاب الجبل من خيفة أبرهة وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق. وكانت ليلة ليلاء تلك التي فكّر فيها القوم في هجر بلدهم وماهو نازل بها وبهم. ذهب عبدالمطلب ومعه نفر من قُريش فأخذ حلقة باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آهتهم على هذا المعتدي على بيت الله. فلمّا انصرفوا وخلت مكّة منهم وآن لأبرهة أن يوجّه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن، كان وباء الجدري قد تفشّى في الجيش وبدأ يفتك به، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قطّ. ولعلّ جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر. وأصاب العدوى أبرهة نفسه، فأخذه الروع وأمره قومه بالعودة إلى اليمن. وفرّ الذين كانوا يدلّون على الطريق ومات منهم من مات. وكان الوباء يزداد كلّ يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كلّ يوم بغير حساب. وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض. فلم يقم إلّا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه^(١٥٥). وبذلك أرّخ أهل مكّة بعام الفيل، هذا وقدّسه القرآن بذكره: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)^{(١٥٦)(١٥٧)}.

(١٥٥) مجالس الشيخ المفيد: ١٣٠/١٥ — ١٣٢، ٣١٢ ب ٣٧ ح ٥، وأمالى الشيخ الطوسي: ٧٨/٣ .

(١٥٦) الفيل (١٠٥): ١ — ٥ .

(١٥٧) لم تخل كتب التفسير والتاريخ من ذكر حادثة الفيل المشهورة وقول عبدالمطلب سيّد البطحاء (لبيت ربّ يحمي) بتلك المناسبة، وأن هزيمة جيش أبرهة قد تمّت بتدخل يد القدرة الإلهية بإرسال الطير التي تحمل الحجر القاتل ، وقد أرّخ لها القرآن الكريم في سورة الفيل لكنّ الأستاذ هيكل يختار لكتابه رواية انتشار الجدري في صفوف جيش أبرهة بدل المعجزة الإلهية المقطوع بصحّتها. والأغرب تبعيّة الشّيخ عبده له والأعجب عدم انصياح طه حسين لمثل هذا التأويل بلا دليل، انظر موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢٠٧/١ .

زاد هذا الحادث الفذّ العجيب في مكانة مكّة الدينية، وزاد تبعاً لذلك في مكانتها التجارية، وزاد أهلها انصرافاً عن التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة؛ ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها^(١٥٨).

وزاد المكّيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصوّرها للترف في هذه الجهة الصحراوية البلقع^(١٥٩) الجرداء. فكان لأهلها غرام بالنبيذ أيّ غرام ، وكانوا يجدون في النشوة به نعيماً أي نعيم؛ نعيماً يسرّ لهم أن يطلقوا لشهواتهم أعتنتها، وأن يجدوا في الجوّاري والعبيد الذين يتّجرون فيهم والذين يشترون مُتّعاً تغريهم بالمزيد منها، وتغريهم كذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم، وباليقظة للذود عن هذه الحرية ودفع كلّ معتد أثيم تُحدّثه نفسه بالجناية عليها .

ولم يكن شيء أشهى لهم من أن يجعلوا سمرهم وشراهم في سرّة المدينة حول بناء الكعبة^(١٦٠). هناك إلى جانب ثلاثمائة صنم أو تزيد، لكلّ قبيلة من قبائل العرب بينها صنم أو أكثر، كان أكابر قريش والمقدّمون من أهل مكّة يجلسون، يقصّ كلّ منهم أمر ما اتصل به من أخبار البادية واليمن وجماعة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام، ممّا تردّ به القوافل أو يتناقله سكان البادية، يصل إليهم على سبيل الرواية تتناقلها قبيلة عن قبيلة، وكأنّ كلّ قبيلة لها مُذيع ومُلتقط لاسلكي يتلقّى الأنباء ويذيعها . يقصّ كلّ ما اتصل به من أخبار البادية ويروي روايات جيرانه وأصحابه ويشرب نبيذه ويعدّ نفسه بعد سمر الكعبة لسمر أشبع لأهوائه وأمتع لشهواته، وتطل هذه الأصنام بعيونها الحجرية على مجالس السمر هذه، وللسامرين فيها من الحماية أن جعلت الكعبة بيتاً حراماً ومكّة بلداً آمناً، وللأصنام على السامرين ألاّ يدخل مكّة كتابي إلاّ أن يكون أجيراً لا يتحدث بشيء من أمر دينه ومن أمر كتابه. ولذلك لم تكن ثمة جاليات من اليهود كما كانت بيثرب، ولا من النصارى كما كانت بنجران. وإنّما كانت كعبتها قدس أقداس الوثنية تحميها من كلّ مجدّف في أمرها، وتحتمي بها من العدوان عليها، وتستقل بنفسها، كما كانت تستقل كلّ قبيلة من قبائل العرب بنفسها، لا ترضى لغيرها عليها سلطاناً، ولا ترضى باستقلالها بديلاً، ولا تُعنى من الحياة بغير هذا الاستقلال في حمى أوثانها؛ لا تضار قبيلة قبيلة أخرى ولا تفكّر

(١٥٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٣/١، الكامل في التاريخ: ٢٦٠/١، والبداية والنهاية: ١٠١/٢.

(١٥٩) البلقع والبلقعة: الأرض القفر التي لا شيء بها — صحاح الجوهري: ١١٨٨/٣.

(١٦٠) لا يمكن الأخذ بهذا التعليل على وجه الإطلاق وقد تحدّث المؤلف قبل قليل عن هجوم أبرهة والموقف السلبي لقريش إزاء هذا الحدث.

طائفة من القبائل في الارتباط لتكون جماعة قوية، لها ما للروم أو للفرس من مطامع في السيادة والغزو، أو لها كيان غير كيان البداوة تنتجع في ظلاله المرعى، وتعيش في كنفه عيشاً خشناً يجبه إليها ما فيه من استقلال وحرية وأنفة وفروسية.

وكانت منازل أهل مكّة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من جلال خطر وجليل مقام؛ فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالاً، كما كانت لهم سدانها وسقاية زمزم وكلّ ألقاب التشريف الوثنية التي قامت في سبيلها حروب، وانعقدت من أجلها أحلاف، ووضعت من أجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تُحفظ في الكعبة

تسجلاً لها واشهاداً للآلهة — الأصنام — على ما فيها حتى يترل غضبها بمن يُخلّ بتعهداتها. وفيما وراء منازل قُريش كانت تحيء منازل القبائل التي تليها في الخطر، ثمّ تلي هذه منازل من دونهم، حتى تكون منازل العبيد والخلعاء المستهترين. وكان النصارى واليهود بمكّة عبيداً، كما قدّمنا، فكان مقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء؛ ولذلك كان ما يتحدثون به من قصص دينية عن النصرانية واليهودية بعيداً عن أن يتصل بسمع أجداد قُريش وأشرف أهل البلد الحرام. على أن بعده، كما أتاح لهم أن يصمّوا دونه آذانهم، قد جعله بحيث لا يشغل بالهم، وهم قد كانوا يسمعون مثله أثناء رحلاتهم كلّما مروا بدير من الأديرة أو صومعة من الصوامع، وإن كان ما بدأ يتحدث به الناس عن نبيّ يظهر بين العرب قد أخذ يقلق بعض المضاجع، حتى لقد عتب أبو سفيان يوماً على أميّة بن أبي الصّلّ كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر. وربّما كان من حقّ أبي سفيان يومئذ أن يقول لصاحبه: إنّ هؤلاء الرهبان إنّما يتحدثون عن ذلك بما يتحدثون لأنهم في

عبدشمس

نوفل

هاشم

(ولد سنة ٤٦٤)

المطلب

عبدالمطلب
(ولد سنة ٤٩٧ م)

أُمَيَّة
حرب
أبوسفيان
معاوية

اسد
خويلد

خديجة العوام

الزبير

الحارث أبوطالب أبوهب عبدالله العباس حمزة
(ولد سنة ٥٤٥ م)
محمد
(ولد سنة ٥٧٠ م)

جعفر عليّ عقيل
الحسن الحسين
مسلم

عبدالدار عبدمناف (ولد سنة ٤٣٠ م) عبدالعزيز

جهل من أمر دينهم ، فهم بحاجة إلى نبيّ يدلّهم عليه؛ أمّا نحن الذين يتخذون الأصنام ليقربوهم إلى الله زُلّفى فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا، ويجب علينا أن نحارب كلّ حديث من مثله. كان من حقّه أن يقول هذا؛ لأنه في تعصّبه لمكّة ووثنيّتها لم يكن يقدر أن ساعة الهدى بالباب، وأنّ نبوّة محمّد(عليه السلام) اقتربت، وأنّ من بلاد العرب الوثنية المتدابرة سيُضيء العالم كلّهُ نور التوحيد وكلمة الحقّ. وكان عبدالله بن عبدالمطلب فتىً وسيماً جميل الطلعة. وكانت أوانس مكّة ونساؤها مُعجبات لذلك به. وزادهنّ اعجاباً حديث الفداء والمائة من الإبل التي لم يرض هُبَل بما دونها فداءً له. لكنّ القدر كان قد أعدّ عبدالله لأكرم أبوة عرف التاريخ، وقد أعدّ آمنة بنت وهب لتكون أمّاً لابن عبدالله؛ لذلك تزوّجها. ولم تك إلّا أشهر بعد زواجه منها حتى مات، لم ينجه من الموت فداءً أيّاً كان نوعه. وبقيت آمنة من بعده لتلد محمّداً ولتموت ومحمّد ما يزال طفلاً^(١٦١).

* * *

(١٦١) وهذه شجرة النسب ومعها أهم تواريخ ميلاد أصحابها على وجه التقريب:

قُصيّ (ولد سنة ٤٠٠ م)

الفصل الثالث

محمّد : من ميلاده إلى زواجه

زواج عبدالله من آمنة، وفاة عبدالله، مولد محمّد، رضاعه في بني سعد، قصة الملكين، مقامه خمس سنوات بالبادية، موت آمنة، كفالة عبدالمطلب إيّاه، موت عبدالمطلب كفالة أبي طالب إيّاه، خروجه إلى الشام في الثانية عشرة من عمره، حرب الفجار، يرعى الغنم، خروجه في تجارة خديجة إلى الشام، زواجه من خديجة .

كان عبدالمطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة مهاجمة مكّة وهدم البيت العتيق. و كان ابنه عبدالله في الرابعة والعشرين من سنّه، فرأى أن يزوّجه ، فاختار له آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة سيّد بني زهرة إذ ذاك سنّاً وشرفاً. وخرج به حتى أتى منازل بني زهرة، ودخل وإيّاه عند وهب وخطب إليه ابنته، ويذهب بعض المؤرخين^(١٦٢) إلى أنّه إنّما ذهب إلى أهيب عمّ آمنة، لأنّ أباهما كان هلك وكانت هي في كفالة عمّها. وفي اليوم الذي تزوّج عبدالله فيه من آمنة، تزوج عبدالمطلب من ابنة عمّها هالة فأولدها حمزة عمّ النبيّ وضريبه^(١٦٣) في سنّه^(١٦٤).

وأقام عبدالله مع آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب، حين يتم الزواج في بيت العروس. فلمّا انتقل وإيّاهما إلى منازل بني عبدالمطلب لم يقيم معها طويلاً ، إذ خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملاً. وتختلف الروايات في أمر عبدالله وهل تزوّج غير آمنة، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن ؟ والوقوف لتقصّي أمثال هذه الروايات لا غناء فيه^(١٦٥). وكلّ ما يمكن

(١٦٢) السيرة الحلبية: ٣٩/١ ، وأنساب الأشراف للبلاذري: ٨٧/١ .

(١٦٣) الضريب: المثل والنظير كما قال ابن الأثير: وفي حديث ابن عبدالعزیز: إذا ذهبت هذا وضرباؤه! «هم الأمثال والنظراء»، واحدهم:

ضريب. النهاية في غريب الحديث: ٨٠/٣ .

(١٦٤) تاريخ الطبري: ٥٠٠/١، والسيرة الحلبية: ٤٤/١ .

(١٦٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ١٥٥/١ — ١٥٧ ، وتاريخ الطبري: ٤٩٩/١، والكامل في التاريخ: ٤/٢ .

الاطمئنان إليه أنَّ عبدالله كان شاباً وسيماً قوياً؛ فلم يكن عجيباً أن تطمع غير آمنة في الزواج منه. فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين. ومن يدري! لعلهنَّ قد انتظرن أوبته^(١٦٦) من رحلته إلى الشام ليكن زوجات له مع آمنة. على أنه بعد أن مكث في رحلته هذه الأشهر التي يقتضيها الذهاب إلى غزّة والعود منها عرّج على أخواله بالمدينة يستريح عندهم من عناء السفر، ليقوم بعد ذلك في قافلة إلى مكّة؛ لكنّه مرض عند أخواله فتركه رفاقه؛ حتى إذا بلغوا مكّة أخبروا أباه بمرضه. ولم يلبث عبدالمطلب أن سمع منهم حتى أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة ليعود مع أخيه بعد إبلاله^(١٦٧). وعلم الحارث حين بلغ المدينة أن عبدالله مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكّة، فرجع أدراجه ينعي أخاه إلى أهله ويُشير من قلب عبدالمطلب ومن قلب آمنة همّاً وشجناً لفقد زوج كانت آمنة ترجو في حياته هناء وسعادة، وكان عبدالمطلب عليه حريصاً حتى افتداه من آلهته^(١٦٨) فدأء لم تسمع العرب من قبل بمثله^(١٦٩).

وترك عبدالله من بعده خمسة من الإبل وقطيعة من الغنم وجارية هي أم أيمن حاضنة النبي من بعد. وقد لا تكون هذه الثروة مظهر ثراء وسعة؛ لكنها كذلك لم تكن تدل على فقر ومثربة^(١٧٠). وقد كان عبدالله وما يزال في مقتبل عمره قديراً على الكسب والعمل والبلوغ إلى السعة في المال، كما أن أباه كان ما يزال حياً فلم يؤول إليه شيء من ميراثه^(١٧١).

وتقدّمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى. فلما تم لها الوضع بعثت إلى عبدالمطلب عند الكعبة تخبره أنّه ولد له غلام. وفاض بالشيخ السرور حين بلغه الخبر، وذكر ابنه عبدالله وقلبه مفعم بالغبطة لخلفه، وأسرع إلى زوج ابنه وأخذ طفلها بين يديه، وسار حتى دخل به الكعبة وسماه محمّداً. وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب، ولكنّه كان معروفاً. وردّ الجدّ الصبيّ إلى أمّه وجعل وإياها ينتظر المراضع من بني سعد لتدفع الأمّ بوليدها إلى إحداهن، على عادة أشرف العرب من أهل مكّة^(١٧٢).

(١٦٦) يُقال: أب فلان إلى سيفه، أي: ردّ يده إلى سيفه، وآب الغائب يؤوب أوباً، أي: رجع — العين: ٤١٦/٨.

(١٦٧) إبلال: بُرء، المعجم الوسيط: ٧٠.

(١٦٨) هذا التعبير لا ينسجم مع ما مرّ من كون عبدالمطلب حنيفاً موحداً.

(١٦٩) تاريخ الطبري: ٥٠٠/١ — ٥٠١، والكامل في التاريخ: ٥/٢، والسيرة الحلبية: ٥٠/١.

(١٧٠) مترية: المسكنة والفاقة — صحاح الجوهري: ٩١/١.

(١٧١) السيرة الحلبية: ٥٢/١، الطبقات الكبرى: ١٠٠/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ٥٠/١، بحار الأنوار: ١٢٥/١٥ عن المنتقى في مولود

المصطفى: الفصل الخامس من الباب الثامن من القسم الأوّل.

(١٧٢) الطبقات الكبرى: ١٠٣/١، سيرة ابن هشام: ١٥٩/١ — ١٦٠، دلائل النبوة: ١١٢/١، بحار الأنوار: ٢٥٦/١٥ عن الأمالي للشيخ

الصدوق: ٣٣٦، تيسير المطالب في أمالي الإمام أبي طالب: ٤٠.

وقد اختلف المؤرخون في العام الذي وُلد محمد فيه؛ فأكثرهم على أنه عام الفيل^(١٧٣) (٥٧٠ ميلادية)، ويقول ابن عباس: إنه وُلد يوم الفيل^(١٧٤). ويقول آخرون: إنه ولد قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة^(١٧٥)، ويذهب غير هؤلاء إلى أنه وُلد بعد الفيل بأيام، وبأشهر^(١٧٦) و بسنين يقدرها قوم بثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين^(١٧٧). واختلف المؤرخون كذلك في الشهر الذي وُلد فيه، وإن كانت أكثرهم على أنه ولد في شهر ربيع الأول^(١٧٨). وقيل: ولد في المحرم^(١٧٩)، وقيل: ولد في صفر^(١٨٠). والبعض يرجح رجبا^(١٨١) على حين يرجح آخرون شهر رمضان^(١٨٢).

كذلك اختلف في تاريخ اليوم من الشهر الذي وُلد فيه؛ فقليل: ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول^(١٨٣). وقيل لثمان ليال^(١٨٤)، وقيل لتسع. والجمهور على أنه ولد في ثاني عشر شهر ربيع الأول^(١٨٥)، وهو قول ابن إسحاق^(١٨٦) وغيره^(١٨٧).

وكذلك اختلف في الوقت الذي وُلد فيه أكان نهاراً أم ليلاً^(١٨٨)، كما اختلف في مكان ولادته بمكة^(١٨٩). ويرجح كوسان دبرسفال في كتابه عن العرب أن محمداً ولد في ٢٠ أغسطس سنة (٥٧٠ م) — أي عام الفيل — وأنه ولد بمكة بدار جدّه عبدالمطلب.

(١٧٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١٥٨/١، تاريخ يعقوبي: ٣٢٧/١، وتاريخ الطبري: ٤٥٣/١، والكامل في التاريخ: ٢٦٩/١، إعلام الوري:

٤٢/١، وكشف الغمة: ١٤/١، والكافي للكليني: ٤٣٩/١.

(١٧٤) سيرة ابن هشام: ١٥٨/١، الطبقات الكبرى: ١٠٠/١، السيرة الحلبية: ٥٨/١.

(١٧٥) البداية والنهاية: ٢١٧/٢، السيرة الحلبية: ٥٩/١.

(١٧٦) البداية والنهاية: ٢١٧/٢، والسيرة الحلبية: ٥٨ / ١.

(١٧٧) السيرة الحلبية: ٥٩/١.

(١٧٨) سيرة ابن هشام: ١٥٨/١، البداية والنهاية: ٢١٥/٢، والسيرة الحلبية: ٥٨/١، وإعلام الوري: ٤٢/١، وكشف الغمة: ١٤/١، كمال

الدين: ١٩٦ وروضة الواعظين: ٧٠، بحار الأنوار: ٢٤٨/١٥، منتهى الآمال: ٥٧/١.

(١٧٩) البداية والنهاية: ٢١٦/٢، السيرة الحلبية: ٥٧/١.

(١٨٠) السيرة الحلبية: ٥٧/١.

(١٨١) السيرة الحلبية: ٥٧/١.

(١٨٢) السيرة الحلبية: ٥٧/١.

(١٨٣) البداية والنهاية: ٢١٥/٢.

(١٨٤) البداية والنهاية: ٢١٥/٢.

(١٨٥) البداية والنهاية: ٢١٥/٢.

(١٨٦) البداية والنهاية: ٢١٥/٢.

(١٨٧) أما الروايات الصادرة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فتحدده في يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر وهو

المشهور بين الإمامية، كشف الغمة: ١٤/١، إعلام الوري: ٤٢/١، روضة الواعظين: ٧٠، بحار الأنوار: ٢٧٩/١٥، امتاع الاسماع: ٣،

السيرة الحلبية: ٥٧/١، السيرة النبوية: ١٩٩/١.

(١٨٨) السيرة الحلبية: ٥٧/١، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: ٣٦٨/١.

(١٨٩) السيرة الحلبية: ٦٢/١.

وفي سابع يوم لمولده أمر عبدالمطلب بجزور فنحرت، ودعا رجالاً من قُريش فحضروا وطعموا. فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمّداً سألوهُ: لم رغب عن أسماء آبائه؟ فقال: أردت أن يكون محمّداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه^(١٩٠).

انتظرت آمنة مجيء المراضع من بني سعد لتدفع به إلى إحداهنّ كعادة أشراف العرب من أهل مكة. ولا تزال هذه العادة متبعة عند أشراف مكة إذ يبعثون أبناءهم للبادية في اليوم الثامن من مولدهم، ثم لا يعودون إلى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة. ومن قبائل البادية من لها في المراضع شهرة ومن بينها قبيلة بني سعد^(١٩١). على أنّ آمنة دفعت بالغلام إلى ثوية جارية عمّه أبي لهب فأرضعته زمناً كما أرضعت من بعد عمّه حمزة؛ فكانا أخوين في الرضاع^(١٩٢). ومع أنّ ثوية لم تُرضعه إلاّ أياماً فقد ظلّ يحفظ لها خير الودّ ويصلها ما عاشت ، ولما ماتت في السنة السابعة من هجرته إلى المدينة سأل عن ابنها الذي كان أخاً له في الرضاع ليصله مكانها فعلم أنّه مات قبلها^(١٩٣).

وجاءت مراضع بني سعد إلى مكة يلتمسن الأطفال لإرضاعهنّ. وكن يُعرضن عن اليتامى، لأنهنّ كنّ يرتجئن البرّ من الآباء. أمّا الأيامي فكان الرجاء فيهنّ قليلاً؛ لذلك لم تُقبل واحدة من أولئك المراضع على محمّد، وذهبت كلّ بمنّ ترجو من أهله وافر الخير^(١٩٤). على أنّ حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية التي أعرضت عن محمّد أوّل الأمر^(١٩٥)، هي أيضاً، لم تجد من يدفع إليها طفلها؛ ذلك أنّها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمّهات عنها. فلما أجمع القوم على الانطلاق عن مكة قالت حليلة لزوجها الحارث بن عبدالعزّي: والله إنّني لأكره أن أرجع مع صواحي ولم آخذ رضيعاً. والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم ولأخذنه. وأجابها زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. وأخذت حليلة محمّداً وانطلقت به مع قومها إلى البادية. وكانت تُحدّث أنّها وجدت فيه منذ أخذته أي بركة: سمت غنمها وزاد لبنها وبارك الله لها في كلّ ما عندها^(١٩٦).

(١٩٠) السيرة الحلبية: ٧٨/١، وعيون الأثر: ٣٨/١، وتيسير المطالب: ٤٠.

(١٩١) السيرة الحلبية: ٨٩/١.

(١٩٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦١/١، وتاريخ يعقوبي: ٣٣٠/١.

(١٩٣) السيرة الحلبية: ٨٧/١.

(١٩٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٢/١، البداية والنهاية: ٢٣١/٢.

(١٩٥) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٢/١، ٣٣١/١٥، والخرائج والجرائح: ٨٢/١ — ٨٣.

(١٩٦) ويردّ هذا الزعم مكانة البيت الهاشمي الرفيعة وشخصية جدّه الذي عُرف بالجلود والإحسان ومساعدة الخرومين والمحتاجين.

وأقام محمد في الصحراء سنتين تُرضعه حليلة وتحضنه ابنتها الشيماء، ويجد هو في هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد في وسامة خلقه وحسن تكوينه. فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به حليلة إلى أمه، ثم عادت به إلى البادية، رغبة من أمه في رواية^(١٩٧) ، ورغبة من حليلة في رواية أخرى^(١٩٨). عادت به حتى يغلظ وخوفاً عليه من وباء مكة. وأقام الطفل بالصحراء سنتين آخرين يمرح في جو باديتها الصحو الطليق ، لا يعرف قيوداً من قيود الروح، ولا من قيود المادة.

في هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة تقع الرواية التي يقصونها من أنه كان مع أخيه الطفل من سنه في بهم^(١٩٩) لأهله خلف بيوتهم، إذ عاد أخوه الطفل السعديّ يعدو ويقول لأبيه وأمه: ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعا فشقا بطنه، فهما يسوطانه^(٢٠٠) . ويُروى عن حليلة أنها قالت عن نفسها وزوجها: «فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعا^(٢٠١) وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ماهو». ورجعت حليلة ورجع أبوه إلى خبائهما. وخشي الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن فاحتملاه إلى أمه بمكة. ويروي ابن اسحاق^(٢٠٢) في هذه الواقعة حديثاً عن النبي بعد بعثه. لكن ابن إسحاق يحتاط بعد أن يقص هذه القصة ويذكر أن السبب في رده إلى أمه لم يكن حكاية الملكين وإنما كان، على ما روته حليلة لآمنة، أن نفرًا من نصارى الحبشة رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه، ثم قالوا: لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى ملكنا وبلدنا؛ فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، ولم تكده حليلة تنفلت به منهم^(٢٠٣). وكذلك يرويها الطبري^(٢٠٤)، لكنه يحيطها

بالإضافة إلى أن أباه (صلى الله عليه وآله) — كما في بعض المصادر — قد توفي بعد ولادته بعدة أشهر، وتشير المصادر التاريخية إلى أنه (صلى الله عليه وآله) لم يقبل إلا ثدي (حليلة)، بحار الأنوار: ٣٤١/١٥ — ٣٤٢، فضائل ابن شاذان: ٢٤ .
ويؤكد بطلان هذا الادعاء أيضاً قول حليلة: استقبلي عبدالمطلب فقال: من أنت؟ فقلت: أنا امرأة من بني سعد ، قال : ما اسمك؟ قلت: حليلة فتبسم عبدالمطلب قال: بخ بخ سعدٌ وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعزّ الأبد. وبه تكون المبادرة من عبدالمطلب لا من حليلة.
راجع المناقب لابن شهر آشوب: ٢٤/١، بحار الأنوار للمجلسي: ٣٤٢/١٥، السيرة الحلبية: ٨٩/١ .

(١٩٧) السيرة الحلبية: ٩٢/١ .

(١٩٨) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦١/١، وتاريخ يعقوبي: ٣٣٠/١ .

(١٩٩) بهم: البهيمه: اسم للذكر والأنثى من أولاد بقر الوحش وضروب الغنم والجمع: البهم والبهام — العين: ٦٢/٤ .

(٢٠٠) يسوطانه: السوط: خلطك الشيء بالشيء، قال: مسوط لحمها بدمي ولحمي — العين: ٢٧٨/٧ .

(٢٠١) منتقعا وجهه: أي متغيراً ، السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٥/١ .

(٢٠٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٥/١ .

(٢٠٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٧/١ .

(٢٠٤) تاريخ الطبري: ٤٥٧/١ .

بالريية إذ يذكرها في هذه السنة من حياة محمد، ثم يعود فيذكر أنها وقعت قبيل البعث وسنه أربعون سنة(٢٠٥).

لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند. فالذي رأى الرجلين في رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلاً، وكانت كذلك سن محمد يومئذ. والروايات تجمع على أن محمداً أقام ببني سعد إلى الخامسة من عمره(٢٠٦). فلو كان هذا الحادث قد وقع وعمره سنتان ونصف سنة، ورجعت حليلة وزوجها إذ ذاك به إلى أمه، لكان في الروايتين تناقض غير مقبول، ولذلك يرى بعض الكتاب أنه عاد مع حليلة مرة ثالثة(٢٠٧). ولا يرضى المستشرق «وليم موير» أن يشير إلى قصة الرجلين في ثيابهما البيضاء، ويذكر أنه إن كانت حليلة وزوجها قد نبها إلى شيء أصاب الطفل فعلها نوبة عصبية أصابته، ولم يكن لها أن تؤذي صحته لحسن تكوينه. ولعل آخرين يقولون(٢٠٨): إنه لم يكن بحاجة إلى من يشق بطنه أو صدره ما دام الله قد أعدّه من يوم خلقه لتلقي رسالته. ويرى «درمنجم» أن هذه القصة لا تستند إلى شيء غير المعنى الحرفي للآية القرآنية: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) (٢٠٩) وأن ما يشير القرآن إليه إنما هي عملية روحية بحتة، الفكرة منها تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصاً ويؤديها مخلصاً تمام الاخلاص محتملاً عبء الرسالة المضني(٢١٠).

وإن ما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث، أن حياة «محمد» كانت كلها حياة إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارج. وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر في خلق الله، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلاً. غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها(٢١١).

(٢٠٥) لم نجد هذا المقطع في تاريخ الطبري، ووجدناه في السيرة الحلبية: ٩٦/١.

(٢٠٦) تاريخ يعقوبي: ٣٣١/١، والكامل في التاريخ: ٢٧٢/١.

(٢٠٧) السير وليم موير في كتابه حياة محمد.

(٢٠٨) راجع تفسير غرائب القرآن للنيسابوري: ٥٢٢/٦.

(٢٠٩) الانشراح (٩٤): ١ — ٣.

(٢١٠) Lavie de Mahomet par Emile Dermenghem

(٢١١) قصة شق الصدر: وإن رواها ابن هشام في السيرة النبوية: ١٧١/١، ورواها الطبري في تاريخه: ١٥٨/٢.

إلا أن الملاحظ في رواية الطبري، كونها تختلف عن رواية ابن اسحاق التي نقلها ابن هشام، من حيث المكان الذي وقعت فيه القصة أولاً. وفي عدد الأشخاص الذين جاؤوه ثانياً، والكيفية التي وقع عليها ثالثاً. مع كون الروايتين تمران بثور بن يزيد الكلاعي الشامي المتوفى (١٥٥)

وأقام «محمد» في بني سعد إلى الخامسة من عمره، ينهل من جوّ الصحراء الطليق روح الحرية والاستقلال النفسي، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن التصفية، حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه: أنا أعربكم، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر^(٢١٢). وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه أجمل الأثر وأبقاه، كما بقيت حليلة وبقي أهلها موضع محبته وإكرامه طوال حياته. أصابت الناس سنة جذب بعد زواج محمد من خديجة، فجاءته حليلة فعادت من عنده ومعها من مال خديجة بغير يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم^(٢١٣). وكانت كلما أقبلت عليه مدّ لها طرف ردائه لتجلس عليه سيمًا الاحترام، وكانت الشيماء ابنتها بين من أسر مع بني هوازن بعد حصار الطائف، فلما جيء بها إلى «محمد» وعرفها أكرمها وردّها إلى أهلها كرجبتها.

وعاد إلى أمّه بعد هذه السنوات الخمس. ويقال: إنّ حليلة التمسّته وهي مقبلة به على أهله فلم تجده؛ فأتت عبدالمطلب فأخبرته أنّه ضلّ منها بأعلى مكة. فبعث من يبحث عنه حتى رده عليه ورقة بن نوفل فيما يروون. وكفل عبدالمطلب حفيده وأغدق عليه كلّ حبه وأسبغ عليه جمّ رعايته. كان يوضع لهذا الشيخ، سيّد قريش وسيّد مكة كلّها، فراش في ظلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالاً لأبيهم؛ فإذا جاء «محمد» أدناه عبدالمطلب منه وأجلسه على الفراش معه ومسح ظهره بيده، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمام «محمد» من تأخيرهِ إلى حيث يجلسون^(٢١٤).

وزاد في إعزاز الجدّ لحفيده أن آمنة خرجت بابنها إلى المدينة لتُري الغلام فيها أحوال أبيه من بني النّجار، وأخذت معها أمّ أيمن الجارية التي خلف عبد الله من بعده. فلما كانوا بها أرت

هـ) رابعاً. حيث نجد أرباب التراجم قد جرحوا ثور بن يزيد بكونه ممن يعتقد بالقدرية، التي تقول: بأنّ أعمال العباد تجري بقدر مقدّر قد قضى به الله، لا القدر بمعنى جمع إرادة الإنسان مع قدره سبحانه، وبهذا تكون الرواية منسجمة مع معتقده، وكان النبي (صلى الله عليه وآله) معصوماً بلا دخل لإرادته، أو أنّه تلقى العصمة بلا مقدمات منه ولا استحقاق، وإنّما بتقدير جبري من قبل المولى عزّ وجلّ. ولهذا ناقش الشيخ أبو ريّة هذه الأسطورة من وجه آخر فقال:

المُحقّق عندنا أنّه ليس للشّيطان سلطان على عباد الله المُخلّصين، وخيرهم الأنبياء والمرسلون، أمّا ما ورد في حديث إزالة خط الشّيطان من قلبه (صلى الله عليه وآله)، فهو من الأخبار الظنّية. لأنّه من رواية الآحاد، ولمّا كان موضوعها عالم الغيب، والإيمان بالغيب في قسم العقائد وهي لا يؤخذ فيها بالظن، لقوله تعالى: (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) كنا غير مُكلّفين بالإيمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا، تفسير القرآن الحكيم: ٢٩١/٣، ٢٩٢، أضواء على السّنّة المحمّدية الشيخ أبو ريّة: ١٨٨.

(٢١٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٧/١.

(٢١٣) أنساب الأشراف للبلاذري: ١٠٤/١، السيرة الحلبية: ١٠٣/١.

(٢١٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٧/١، والطبقات الكبرى: ١١٨/١، وعيون الأثر: ٤٧/١، وبحار الأنوار:

١٥ — ١٤٢/١٥ — ١٤٤ عن كمال الدين: ١٧١.

الغلام البيت الذي مات أبوه فيه والمكان الذي دُفن به، فكان ذلك أوّل معنى لليتم انطبع في نفس الصبي. ولعلّ أمّه حدّثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة ليحييه بين أخواله أجله. فقد كان النبيّ بعد هجرته إلى المدينة يقصّ لأصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمّه، حديث محبّ للمدينة، محزون لمن تحوي القبور من أهله بها. ولما تمّ مكثهم بيشرب شهراً اعتزمت آمنة العودة فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكّة. فلما كانوا في منتصف الطريق بين البلدين مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودُفنت بها؛ وعادت أمّ أيمن بالطفل إلى مكّة منتحياً وحيداً^(٢١٥)، يشعر بيئته ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدةً وألماً. لقد كان منذ أيام يسمع من أمّه أنّات الألم لفقد أبيه وهو جنين ما يزال، وها هو ذا قد رأى بعينه أمّه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل همّ اليتيم كاملاً.

زاد ذلك في إعزاز عبدالمطلب إياه. ومع ذلك بقيت ذكرى اليتيم أليمة عميقة في نفسه، حتى وردت في القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) ^(٢١٦). ولعلّ عمق هذه الذكرى كان يهدأ بعض الشيء لو أنّ عبدالمطلب عمّر أكثر ممّا عمّر؛ لكنه مات في الثمانين من عمره و«محمد» في الثامنة ما يزال. وحزن «محمد» لموت جدّه بما لا يقل عن حزنه لموت أمّه. حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه إلى مقرّه الأخير، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له^(٢١٧)، مع ما لقي بعد ذلك في كفالة عمّه أبي طالب من عناية ورعاية. ومن حماية امتدت إلى ما بعد بعثته ورسالته، ودامت بعد ذلك إلى أن مات عمّه. والحقّ أنّ موت عبدالمطلب كان لبني هاشم جميعاً ضربة قاسية. لم يكن من أبنائه من كان في مثل مكانته عزماً وقوّة أيد وأصالة رأي وكرماً وأثراً في العرب جميعاً. ألم يكن يطعم الحاجّ ويسقيهم ويرّ أهل مكّة جميعاً إذا أصابهم شرٌّ أو أذى! وهاهم أولاء أبنائوه لم يصل أحد منهم إلى مكانته، أن كان فقيرهم عاجزاً عن مثل عمله، وكان غنيهم حريصاً على ماله. لذلك ما لبث بنو أميّة أن قهقروا ليأخذوا المكانة التي طمعوا فيها من قبل دون أن يخشوا من بني هاشم مزاحمة تخيفهم^(٢١٨).

(٢١٥) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٨/١، وتاريخ الطبري: ٤٥٨/١، والسيرة النبوية لابن كثير: ٢٣٥/١، ومناقب آل أبي طالب: ١٤٩/١، كمال الدين: ١٧٢.

(٢١٦) الضحى (٩٣): ٦ — ٧.

(٢١٧) الطبقات الكبرى: ١١٩/١، ودلائل النبوة للبيهقي: ١٨٨/١.

(٢١٨) ولهذا نجد المقرئ في كتابه (الزراع والتخاصم) يتعجب من همّور واصل بني أميّة وكيفهم لبني هاشم وسيدهم الرسول (صلى الله عليه وآله) في آخر الأمر، قائلاً: (فإني كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بني أميّة إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله وقرب بني هاشم، وأقول كيف حدثهم أنفسهم بذلك؟ وأين بنو أميّة وبنو مروان ابن الحكم طريد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بني أميّة وبني هاشم في أيام جاهليتها ثمّ شدّة عداوة بني أميّة من رسول الله ومبالغتهم في آذاه وتماديهم في تكذيبه فيما جاء به عندما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحقّ إلى أن فتح الله مكّة شرفها الله تعالى فدخل من دخل منهم في الإسلام كما هو معروف ومشهور).

وآلت كفالة «محمد» لأبي طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنّاً فقد كان الحارث أسّتهم ، وإن لم يكن أكثرهم يساراً. وكان العباس أكثرهم مالاً؛ لكنّه كان على ماله حريصاً^(٢١٩)؛ لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرفادة. فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم في فُريش مكانة واحتراماً، ولا عجب أن عهد إليه عبدالمطلب بكفالة محمد من بعده^(٢٢٠). وقد أحبّ أبوطالب ابن أخيه كحبّ عبدالمطلب له. أحبّه حتى كان يقدّمه على أبنائه، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ما يزيده به تعلّقاً. ولقد أراد أن يخرج يوماً في تجارة له إلى الشام حين كان «محمد» في الثانية عشرة من عمره ولم يفكر في استصحابه خوفاً عليه من وعثاء^(٢٢١) السفر واجتياز الصحراء. لكنّ محمدًا أبدى من صادق الرغبة في مصاحبة عمّه ما قضى على كلّ تردّد في نفس أبي طالب. وصحب الغلام القافلة حتى بلغ بُصرى في جنوب الشام. وتروي كتب السيرة أنّه التقى في هذه الرحلة بالراهب بحيرا وأنّ الراهب رأى فيه أمارات النبوة، على ما تدلّه عليه أنباء كتب النصرانية. وتذهب بعض الروايات إلى أنّ الراهب نصّح إلى أهله ألا يؤغّلوا به في بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود يعرفون منه هذه الأمارات فينالونه بالأذى^(٢٢٢).

في هذه الرحلة وقعت عينا «محمد» الجميلتان على فسحة الصحراء وتعلّقت بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة، وجعل يمرّ بمدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نبئها. وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغناء اليبانة التي أنستّه حدائق الطائف وما يُروى عنها، والتي تعتبر جنات إلى جانب جذب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة. وفي الشام كذلك رأى «محمد» أحبار الروم ونصرانيّتهم ، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عبّاد النار لهم وانتظارهم الواقعة بهم. ولئن كان بعدُ في الثانية عشرة من سنّه، فقد

وقوله : فلعمري لا يُبعد أبعد ممّا كان بين بني أميّة وهذا الأمر إذ ليس لبني أميّة سبب إلى الخلافة، ولا بينهم وبينها نسب، إلّا أن يقولوا: أنا من فُريش فيساوون في هذا الاسم فُريش الظواهر، لأنّ قوله(صلى الله عليه وآله) : «الأئمة من فُريش» واقع على كلّ قرشي ، ومع ذلك فإنّ أسباب الخلافة معروفة. النزاع والتخاصم ، المقريري: ٢٥ — ٢٦.

وذكر البخاري من طريق سعيد بن المسيب أن جُبَيْر بن مُطعم أخبره. قال: أتيت أنا وعثمان إلى النبي(صلى الله عليه وآله) فقلنا: أعطيت بني عبدالمطلب خمس (خير) وتركتنا ونحن وهم بمخزلة واحدة منك. فقال: بنوهاشم وبنو عبدالمطلب شيء واحد: «قال جُبَيْر» ولم يُقسم النبي(صلى الله عليه وآله) لبني عبدشمس وبني نوفل شيئاً. صحيح البخاري: ٣٣/٣.

(٢١٩) لم يحدّثنا التاريخ أنّ العباس كان حريصاً على ماله ، بل يُحدّثنا أنّه كان أكثر إخوته مالاً وأنّه تصدّى لمسؤولية السقاية التي تستوجب الانفاق. لمزيد من التفصيل راجع قاموس الأعلام للزركلي: ٢٦٢/٣، ترجمة العباس .

(٢٢٠) السيرة النبوية لابن هشام: ١٧٨/١، وتاريخ يعقوبي: ٣٣٥/١.

(٢٢١) الوعثاء: الوعث من الرّمل. ما غابت فيه القوائم. ومنه اشتق وعثاء السفر، يعني: المشقّة — العين: ٣٣١/٢.

(٢٢٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨١/١.

كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما إلى ذلك من صفات حباهُ القدر بها، تمهيداً للرسالة العظيمة التي أعدها لها، كان له من ذلك كله ما جعله ينظر إلى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى، فيرجع إلى نفسه يسألها : أين الحق من ذلك كله؟

والراجح أن أبا طالب لم يفد مالا كثيراً من رحلته تلك، فلم يعد من بعد إلى رحلة مثلها، بل قنع بحظه وأقام بمكة يكفل في حدود ماله القليل أولاده الكثيرين. وأقام «محمد» مع عمه قانعاً بنصيبه، يقوم من الأمر بما يقوم به من هم في مثل سنّه. فإذا جاءت الأشهر الحرم ظل بمكة مع أهله، أو خرج وإياهم إلى الأسواق المجاورة لها بعكاظ ومجنة وذو المجاز، يستمع لانشاد أصحاب المذاهبات والمعلقات، وتلتهم أذناه بلاغتهم في غزلهم وفخرهم وذكرهم أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم، ثمّ يعرض ذلك على بصيرته تلفظ منه ما لا تُسيع وتُعجب بما تراه جديراً بالاعجاب، ويستمع إلى خطب الخطباء، ومن بينهم اليهود والنصارى، الذين كانوا يأخذون على إخوانهم من العرب وثبتهم ويحدثونهم عن كتب عيسى وموسى، ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق، ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله^(٢٢٣)، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينة إليه. وكذلك جعل القدر يوجّه نفسه منذ نعومة أظفاره الوجهة التي تمهّته لذلك اليوم العظيم. يوم الوحي الأوّل، حين دعاه ربّه لتبليغ رسالته، رسالة الهدى والحقّ للناس كافة.

وكما عرف «محمد» طرق القوافل في الصحراء مع عمّه أبي طالب، وكما استمع إلى الشعراء والخطباء مع ذويه في الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرم، فقد عرف كذلك حمل السلاح، إذ وقف إلى جانب أعمامه في حرب الفجار. وحرب الفجار تلك كانت بعض ما يثور ويتصل بين قبائل العرب من الحروب^(٢٢٤). وقد سمّيت الفجار لأنّها وقعت في الأشهر الحرم إذ تمتنع قبائل العرب عن القتال، ويعقدون أسواق تجارتهم بعكاظ بين الطائف ونخلة ومجنة وذو المجاز على مقربة من عرقات، لتبادل التجارة وللتفاخر والجدل وللحجّ بعد ذلك عند أصنامهم بالكعبة. وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة، فيها أنشد أصحاب المعلقات معلقاتهم،

(٢٢٣) لعلّ المقصود أهله هم قريش وليس سلالة الأظهار، كعمّه أبي طالب وجدّه عبدالمطلب. ثمّ يقول: ولكنه لا يطمئن إليه. إلى ماذا؟ إلى فضل

النصرانية واليهودية على الوثنية؟! نعوذ بالله.

(٢٢٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٤/١ — ١٨٧.

وفيها خُطب قيسٌ، وفيها كان اليهود والنصارى وعباد الأصنام، يحدث كلٌّ عن رأيه وعقيدته آمناً، لأنه في الشهر الحرام^(٢٢٥).

على أن البرّاض بن قيس الكناني لم يحترم هذه الحرمة حين غافل أثناءها عروة الرّحال بن عُتبة الهوازي وقتله^(٢٢٦). وسبب ذلك أن النعمان بن المنذر كان يبعث كل سنة قافلة من الحيرة إلى عكاظ تحمل المسك وتجيء بديلاً منه بالجلود والحبال وأقمشة اليمن المزركشة. فعرض البرّاض الكناني نفسه عليه ليقود القافلة في حماية قبيلته كنانة؛ وعرض عروة الهوازي نفسه كذلك على أن يتخطى إلى الحجاز طريق نجد. واختار النعمان عروة فأحفظ ذلك البرّاض فتبعه وغاله وأخذ قافلته، ثم أخبر بشر القرشي أن هوازن ستأخذ بثأرها من قُريش . ولحقت هوازن بقريش قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا وتراجعت قُريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم ، فأندرتهم هوازن الحرب بعكاظ للعام المقبل. وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات تباعاً انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية؛ ذلك بأن يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائد على قتلهم من الفريق الآخر. ودفعت قُريش دية عشرين رجلاً من هوازن، وذهب البرّاض مثلاً للشقاوة^(٢٢٧).

لم يحقق التاريخ سن «محمد» أيام حرب الفجار ؛ فقليل: كان ابن خمس عشرة سنة؛ وقيل: كان ابن عشرين . ولعل سبب الخلاف أن هذه الحرب استطالت أربع سنوات تجعل حاضر أولها وهو في الخامسة عشرة يلحق آخرها في جوار العشرين.

وقد اختلف فيما قام به «محمد» من عمل في هذه الحرب ، فقال أناس: إنّه كان يجمع السهام التي تقع من هوازن ويدفعها إلى أعمامه ليردّوها في صدور خصومهم، وقال آخرون: بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه. ومادامت الحرب المذكورة قد امتدت فتراتهما في سنوات أربع، فليس ما يمنع صحة الروايتين؛ فيكون قد جمع السهام لأعمامه أول الأمر، ثم رمى من بعد ذلك. وقد ذكر رسول الله الفجار بعد سنوات من رسالته فقال: قد حضرته مع عمومي ورميت فيه بأسهم وما أحبّ أني لم أكن فعلت^(٢٢٨).

(٢٢٥) معجم البلدان للحموي: ١٤٢/٤ ، مادة عكاظ، ودائرة معارف القرن العشرين: مادة عكظ .

(٢٢٦) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٦/١ .

(٢٢٧) المنتظم لابن الجوزي: ٢٩٨/٢ ، والسيرة الحلبية: ١٢٩/١ .

(٢٢٨) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٦/١ ، والأغاني: ١٩ / ٧٤ — ٨٠ ، السيرة الحلبية: ١٢٧/١ .

شكك بعض المحققين في مشاركة النبي (صلى الله عليه وآله) في هذه الحرب لأسباب منها:

أولاً: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كلّما تقدم في العمر كانت شخصيته تزداد تألقاً، وقد عُرف بشجاعته الفائقة كسائر بني هاشم، ولكن هذا لا يعني أنّهم شاركوا في حرب فيها ظلم وفساد. فقد روي أنّ أحداً من بني هاشم لم يحضر هذه الحروب فإنّ أبا طالب كان قد

وقد شعرت قريش بعد الفجار بأنّ ما أصابها وما أصاب مكة جميعاً بعد موت هاشم وموت عبدالمطلب من تفرق الكلمة وحرص كلّ فريق على أن يكون صاحب الأمر، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمتنع من أن يطمع فيها طامع. إذ ذاك دعا الزبير بن عبدالمطلب ، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وتيم، في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله القاتل^(٢٢٩) لنكوننّ مع المظلوم، حتى يُؤدّى إليه حقّه ما بلّ بحر صوفة. وقد حضر محمّد هذا الحلف الذي سمّته العرب حلف الفضول؛ وكان يقول: «ما أحبُّ أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ولو دُعيت بها لأجبت»^(٢٣٠).

لم تكن حرب الفجار، كما رأيت، تستغرق إلاّ أياماً من كلّ عام. أمّا سائر العام، فكان العرب يرجعون فيه إلى أعمالهم المعروفة، يزاولونها دون أن تترك الحرب في نفوسهم من المارّة ما يحول بينهم وبين التجارة والربا والشراب والتسرّي^(٢٣١) والأخذ من مختلف ألوان اللّهُو بأوفر نصيب. أفكان «محمّد» يشاركهم في هذا؟ أم أنّ رقة حاله وضيق ذات يده وكفالة عمّه إيّاه جعلته بمنأى عنها ينظر إلى الترف نظرة المحروم المشتهي؟ أمّا أنّه نأى عنها فذلك ما يشهد به التاريخ. لكنّه لم يئأ عنها عجزاً عن النيل منها، فقد كان الخلعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون من أسباب الرزق إلاّ الضنك والإملاق يجدون الوسيلة إليها، بل كان بعضهم أشدّ من أمجاد مكة وأشرف قريش إمعاناً وإدماًناً لها. إنّما كانت نفس «محمّد» مشغوفة بأن ترى وأن

منع أن يكون فيها أحد منهم حين قال: هذا ظلم وعدوان، وقطيعة رحم، واستحلال للشهر الحرام، ولا أحضره ولا أحد من أهلي. (تاريخ اليعقوبي: ١٥/٢).

وانسحب عبدالله بن جدعان وحرب بن أميّة — وهو قائد قريش وكنانة حينذاك — وقال: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم. (تاريخ اليعقوبي: ١٥/٢).

ثانياً: اختلفت الروايات حول الدور الذي أدّاه النبي (صلى الله عليه وآله) في هذه الحرب، فبعضهم روى: أنّ عمله (صلى الله عليه وآله) كان يقتصر على مناولة النبل لأعمامه والردّ على نبل عدوهم وحفظ متاعهم . (راجع موسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي: ٣٠٤/١).

وروى آخر: أنّه قد رمى فيها برميات. (السيرة النبويّة لزيني دحلان: ٢٥١/١، السيرة الحلبية: ١٢٧/١). وروى ثالث أنّه طعن أبا البراء ملاعب الأسدّة فصرعه مع أنّه كان غلاماً. (السيرة النبويّة لزيني دحلان: ٢٥١/١، السيرة الحلبية: ١٢٧/١، تاريخ اليعقوبي: ١٦/٢).

ولا ندري هل كانت العرب تسمح للغلام بخوض المعارك والحروب؟ راجع الصحيح في السيرة: ٩٥/١.

(٢٢٩) جاء في البداية والنهاية: فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلاّ كانوا معه، وكانوا على من ظلمه حتى يردّ عليه مظلمته، ٢٥٤/٢ . ولم يذكر فيه عبارة: «بالله القاتل» .

(٢٣٠) تاريخ اليعقوبي: ٣٣٨/١، السيرة الحلبية: ١٣٢/١، والبداية والنهاية: ٢٩١/٢ . (٢٣١) الاستسرار: التسري. وكان القياس أن تقول: الاستسراء، من تسريت، إلاّ أنّها ردّت الحرف إلى أصله، قال الأصمعي: وأصله تسررت من السرّ، وهو النكاح — غريب الحديث: ١٧٢/٢ .

تسمع وأن تعرف. وكأنّ حرمانه من التعلّم الذي يتعلمه أنداده جعله أشدّ للمعرفة شوقاً وبها تعلّقاً. كما أنّ النفس العظيمة التي تجلّت من بعد آثارها ومايزال يغمر العالم ضياؤها، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللّهُو الذي يصبو إليه أهل مكّة، إلى نور الحياة المتجلّي في كلّ مظاهر الحياة لمن هداه الحقّ إليها، ولاستكناه ما تدلّ هذه المظاهر عليه وما تحدّث الموهوبين به. ولذلك ظهر منذ الصبا الأوّل في مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس، حتى لدعاه أهل مكّة جميعاً بالأمين.

ومّا زاد انصرافاً إلى التفكير والتأمّل اشتغاله برعي الغنم سني صباه تلك^(٢٣٢)، فقد كان يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكّة^(٢٣٣)، وكان يذكر رعيه إيّاه مغتبطاً. وكان يقول: «ما بعث الله نبياً إلّا رعى الغنم»^(٢٣٤)، ويقول: «بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت أنا أرعى غنم أهلي بأجياد»^(٢٣٥). وراعي الغنم الذكي القلب والفؤاد يجد في فسحة الجو الطليق أثناء النهار وفي تلالو النجوم إذا جنّ الليل موضعاً لتفكيره وتأمّله يسبّح منه في هذه العوالم حتى يرى فيما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه. وهو يرى نفسه، مادام ذكي الفؤاد عليم القلب، بعض هذا الكون غير منفصل عنه. أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضي؟ أليست تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً؟ هذه الأفلاك والعوالم التي يرى في فسحة الكون أمامه، متصلاً بعضها ببعض في نظام محكم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام «محمّد» يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية، فأى انتباه وآية قوة تحفظ على نظام العالم كلّ أحكامه؟ وهذا التفكير والتأمّل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الإنسان الدنيا، والسّمو به عنها إذا تبدّى له كاذب زخرفها. لذلك ارتفع «محمّد» في أعماله وتصرفاته عن كلّ ما يمس هذا الاسم الذي أطلق عليه بمكّة وبقي له: «الأمين».

يدلّ على ذلك كلّ ما حدّث هو عنه، من أنّه كان يرعى الغنم مع زميل له، فحدّثته نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الشباب، فأفضى إلى زميله هذا ذات مساء أنّه يود أن يهبط إلى مكّة،

(٢٣٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٧/١.

(٢٣٣) على فرض صحّة تلك الروايات فلا إشكال من أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قد رعى الغنم في صباه لحكمة إلهية لما لهذه المهمة من آثار تربوية على صاحبها، إلّا أنّ الإشكال يقع في كونه لم يكن أجيراً عند أحد فقد روي أنّه (صلى الله عليه وآله) (ما كان أجيراً لأحد قط).

تاريخ البعقوبي: ٢١/٢، والبداية والنهاية: ٢٩٦/٢.

(٢٣٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١٦٧/١، وتاريخ الإسلام للذهبي: ٥٤/١.

(٢٣٥) السيرة الحلبية: ١٢٦/١.

يلهو بها ويعبث عبث الشباب في جنح الليل، وطلب لذلك إليه أن يقوم على حراسة أغنامه. لكنّه ما إن بلغ أعلى مكّة حتى استرعى انتباهه عرس زواج وقف عنده، ثمّ ما لبث أن نام. ونزل مكّة ليلة أخرى للغاية ذاتها. فامتلات آذانه بأصوات موسيقية بارعة، كأنّها هي موسيقى السماء، فجلس يستمع ثمّ نام حتى أصبح. وماذا عسى أن تفعل مغريات مكّة بقلب مهذب ونفس كلّها التفكير والتأمّل؟ ماذا عسى أن تكون هذه المغريات التي وصفنا والتي لا يستريح إليها من يكون دون «محمد» سمواً بمراحل كثيرة! لذلك أقام بعيداً عن النقص لا يجد لذة يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمّل (٢٣٦) (٢٣٧).

وحياة التفكير والتأمّل وما تستريح إليه من عمل بسيط كرعي الغنم، ليست بالحياة التي تدبّر على صاحبها أخلاف الرزق أو تفتح أمامه أبواب اليسار. وما كان «محمد» يهتمّ لذلك أو يعنى به، وقد ظلّ طول حياته أشدّ الناس زهداً في المادة ورغبة عنها، وما إقباله عليها! وكان الزهد بعض طبعه، وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر ممّا يقيم صلبه؟! أليس هو القائل: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» (٢٣٨)، أليس هو الذي عُرف عنه كلّ حياته حرصه على شطّف العيش، ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة؟ والذين يتوقون إلى المال ويلهثون في طلبه إنّما يبتغونه لإرضاء شهوات لم يعرف «محمد» طوال حياته شيئاً منها. واللذة النفسية الكبرى، لذة الاستمتاع بما في الكون من جمال ومن دعوة إلى التأمّل، هذه اللذة العظيمة التي لا يعرفها إلاّ الأقلّون، والتي كانت لذة «محمد» منذ نشأته ومنذ أرتته الحياة في نعومة أظفاره ذكريات بقيت مطبوعة في نفسه داعية إلى الزهد في الحياة، وأولاها موت أبيه وما يزال هو جنيماً، ثمّ موت أمّه ثمّ موت جدّه، هذه اللذة ليست بحاجة إلى ثروة من المال وإن تكن بحاجة إلى ثروة نفسية هائلة يعرف الإنسان معها كيف يعكّف على نفسه ويعيش بها وفي دخيلتها. ولو أنّ محمداً ترك وشأنه يومئذ، لما نازعته نفسه إلى شيء من المال ولظلّ سعيداً بهذا الحال، حال الرعاة المُفكرين الذين ينتظمون الكون في أنفسهم، والذين يحتويهم الكون في حبة قلبه.

لكنّ عمّه أبا طالب كان — كما قدّمنا — حليف فقر كثير عيال. لذلك رأى أن يجد لابن أخيه يوماً سبباً للرزق أوسع ممّا يجيئه من أصحاب الغنم التي يرمى. فبلغه يوماً أنّ

(٢٣٦) السيرة الحلبية: ١٢٢/١.

(٢٣٧) لم يتّضح القصد من إيراد هيكّل هذه القصّة وتوظيفها في هذا السياق التي تصوّر النبي (صلى الله عليه وآله) وكأنّه وليد مرحلته، وأنّ الظروف قد ساهمت في إعداده وتربيته، لئيشكّل تطلّعه نحو الرسالة مظهرًا من مظاهر التاريخ الطارئة على المسيرة البشرية. بدل النظر إليه كمظهر إلهي أعدّته يد الله ضمن المخطط الطويل للأنبياء، وهو الخاتم لما جاءت به الرسالات.

(٢٣٨) في جوابه (صلى الله عليه وآله) على مقوقس عظيم قبط — حينما أهدى إليه هدايا وكان ضمنها طبيباً يداوي مرضى المسلمين — : «راجع إلى أهلِكَ، فإنّا قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». راجع السيرة الحلبية: ٢٥١/٣.

خديجة بنت خويلد تستأجر رجلاً من قُريش في تجارتها. وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم^(٢٣٩). ولقد زاد في ثروتها أنها كانت من بني أسد، قد تزوجت مرتين من بني مخزوم بما جعلها من أوفر أهل مكة غنى^(٢٤٠)، وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خويلد وبعض ذوي ثقتها^(٢٤١). وقد ردت يد الذين طلبوا يدها من كبار قُريش^(٢٤٢)، لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها. وإذ علم أبوطالب بأنها تُجهّز لخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة نادى إليه ابن أخيه، وكان يومئذ في الخامسة والعشرين من سنّه، وقال له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا، وقد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته^(٢٤٣). فهل لك أن أكلمها؟ قال «محمد»: ما أحببت. فخرج أبو طالب إليها فقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري «محمدًا»؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة بكار. وكان جواب خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب؟! وعاد العمّ إلى ابن أخيه يذكر له الأمر ويقول له: هذا رزق ساقه الله إليك^(٢٤٤).

خرج «محمد» مع ميسرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به. وانطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام مارةً بوادي القرى ومدين وديار ثمود وبتلك البقاع التي مرّ بها «محمد» مع عمّه أبي طالب وهو في الثانية عشرة من عمره^(٢٤٥). وأحيت هذه الرحلة في نفسه ذكريات الرحلة الأولى، كما زادته تأملاً وتفكيراً في كلّ ما رأى وسمع من قبل سفره، بالشام أو بالأسواق

(٢٣٩) السيرة النبوية لابن كثير: ٦٢/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ١٨٨/١ والسيرة الحلبية: ١٣٢/١، وورد عن الإمام الحسن العسكري(عليه السلام)، عن أبيه الإمام الهادي(عليه السلام)، ما يؤيد كون النبي(صلى الله عليه وآله) كان مضارباً بمال خديجة، لا أجيراً عندها. قال(عليه السلام): «إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان يسافر إلى الشام مضارباً لخديجة بنت خويلد». بحار الأنوار للمجلسي: ٢٠٨/٧

(٢٤٠) لا يمكن ترجيح الرواية التي تنقل أنّ خديجة قد تزوجت مرتين قبل الرسول، وذلك للتضارب الحاصل في روايات الزواج، فقد روي أنها تزوجت برجلين قبل النبي(صلى الله عليه وآله) وكان لها منهما بعض الأولاد وهما: عتيق بن عائد المخزومي وأبو هالة التميمي، الإصابة: ٦١١/٣، وأسد الغابة: ٧١/٥، في حين تروي مصادر أخرى: أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) حين تزوج بها كانت بكرًا، وحينئذ تكون زينب ورقية ابنتي هالة أخت خديجة قد تبنتهما خديجة بعد فقدهما لأُمّهما. راجع الصحيح من السيرة: ١٢١/١ — ١٢٦. ويُضاف أنّ المؤرخين قد اختلفوا في مسألة تحديد عُمر خديجة حين زواجها مع النبي(صلى الله عليه وآله)، فهناك من يروي أنّ عُمرها كان (٢٥) عاماً وآخر (٢٨) عاماً وثالث (٣٠) عاماً، ورابع (٣٥) عاماً وخامس (٤٠) عاماً، راجع السيرة الحلبية: ١٤٠/١، والبداية والنهاية: ٢٩٥/٢، وبحار الأنوار: ١٢/١٦.

(٢٤١) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٨/١، والسيرة الحلبية: ١٣٧/١.

(٢٤٢) كان من قديم عليها من عظماء قُريش وبذلوا لها الأموال: عقبة بن أبي معيط، والصلّت بن أبي يهاب، وأبو جهل وأبو سفيان، فرفضتهم جميعاً واختارت النبي(صلى الله عليه وآله)، بحار الأنوار: ٢٢/١٦ عن ابن أبي الحسن البكري في كتابه «الأنوار».

(٢٤٣) السيرة الحلبية: ١٣٦/١.

(٢٤٤) السيرة الحلبية: ١٣٢/١، ١٣٦.

(٢٤٥) السيرة الحلبية: ١٣٢.

المحيطه بمكة. فلما بلغ بصرى^(٢٤٦) اتصل بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأخبارها وتحدث إليه الراهب نسطور وسمع منه^(٢٤٧). ولعله أو لعل غيره من الرهبان قد جادل «محمدًا» في دين «عيسى»، هذا الدين الذي كان قد انقسم يومئذ شيعاً وأحزاباً ، كما بسطنا من قبل. واستطاع «محمد» بأمانته ومقدرته أن يتجر بأموال خديجة تجارة أوفر ربحاً مما فعل غيره من قبل. واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبة ميسرة وإجلاله. فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتيها به^(٢٤٨).

فلما بلغت القافلة مَرَّ الظَّهران^(٢٤٩) في طريق عودتها. قال ميسرة: يا محمد أسرع إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك، وانطلق «محمد» حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة، فرأته خديجة وكانت في عليّة^(٢٥٠) لها، وهو على بعيره، ونزلت حين دخل دارها واستقبلته ، واستمعت إليه يقصّ بعبارة البليغة الساحرة خبر رحلته وربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام، وخديجة تنصت مغتبطة مأخوذة. وأقبل ميسرة من بعد فروى لها عن «محمد» ورقة شمائله وجمال نفسه مازادها علماً به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة^(٢٥١). ولم يك إلا رد الطرف حتى انقلبت غبطتها حباً جعلها وهي في الأربعين من سنّها، وهي التي ردت من قبل أيدي أعظم قريش شرفاً ونسباً، تود أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظراته^(٢٥٢) ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها. وتحدثت في ذلك إلى أختها على قول^(٢٥٣) ، وإلى صديقتها نفيسة بنت منية على قول آخر^(٢٥٤). وذهبت نفيسة دسيساً إلى «محمد» فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإن كفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ أجابت نفيسة بكلمة واحدة: خديجة. قال محمد: كيف لي بذلك؟! وكان هو أيضاً قد أنس إلى خديجة وإن لم تُحدثه نفسه في زواج منها، أن كان يعلم ردها أشرف قريش وأغنياءها . فلما قالت له نفيسة جواباً على سؤاله: عليّ ذلك. سارع إلى إعلان قبوله. ولم

(٢٤٦) بصرى: مدينة في سورية الراجعة الآن إلى محافظة حوران كانت مركزاً للقوافل ، المنجد في الأعلام: ١٣٤. السيرة الحلبية: ٣٣/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ١٨٨/١ .

(٢٤٧) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٨/١ .

(٢٤٨) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٨/١ .

(٢٤٩) والظهران : واد قرب مكة وعنده قرية يُقال لها: «مَرَّ» تضاف إلى هذا الوادي، فيقال: «مَرَّ الظهران». راجع معجم البلدان: ٦٣/٤ .

(٢٥٠) العلية الغرفة على بناء حرية — العين: ٢٤٦/٢ .

(٢٥١) أنساب الأشراف: ١٠٦/١ .

(٢٥٢) إذا كان المقصود منها هي النظرات الجنسية فهذا يخالف أخلاق النبي(صلى الله عليه وآله) وعصمته.

(٢٥٣) تاريخ يعقوبي: ٣٤٠/١ .

(٢٥٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٩/١، وأنساب الأشراف: ١٠٧/١ .

تبطئ خديجة أن حدّدت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج. وزوجها عمّها عمر بن أسد أن كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار، ممّا يكذب ما يروى من أنّه كان حاضراً ولم يكن راضياً هذا الزواج؛ فسقته خديجة خمرّاً حتى أخذت فيه؛ وحتى زوجها محمّداً (٢٥٥).

وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة «محمّد»، تبدأ حياة الزوجية والأبوة، الزوجية الموفقة الهنية من جانبه وجانب خديجة جميعاً، والأبوة التي تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف «محمّد» في طفولته لفقد الآباء...

* * *

(٢٥٥) السيرة الحلبية: ١٣٧/١، فيه وفي كتب السير: عمرو بن أسد.

نستبعد أن خديجة قد قامت بمثل تلك الخديعة، التي تُخالف القيم التي اشتهرت بها خديجة من حيث سموّ أخلاقها ومروءتها، فضلاً عن أنّ كتب السير تقصّ لنا وقوع الخطبة والزواج من النّيّ بدون التعرض إلى مسألة إسكرار عمّها لإنتزاع موافقته للزواج. راجع شرح النهج: ٧٠/١٤، والوفاء بأحوال المصطفى: ٢٣٨/١، وتاريخ ابن خلدون: ٧١٢/٢، وتاريخ يعقوبي: ٢٤١/١، والأخير تعرّض إلى ذكر خطبة أبي طالب بهذه المناسبة أمام عمّها.

الفصل الرابع

من الزواج إلى البعث

صفة محمد، بناء المكّين الكعبة، حكم «محمد» بينهم في الحجر الأسود، حكماء قريش والوثنية، أبناء محمد وبناته، موت أبنائه، زواج بناته، ميل محمد للعزلة، تحنّته في حراء، الرؤيا الصادقة، أوّل الوحي .

تزوّج «محمد» من «خديجة» بعد أن أصدقها عشرين بكرة^(٢٥٦) ، وانتقل إلى بيتها ليبدأ وإياها صفحة جديدة من حياته؛ ليبدأ حياة الزوجية والأبوة، وليبادلها من جانبه حبّ شاب في الخامسة والعشرين^(٢٥٧) لم يعرف نزوات الشباب ولا طيشه، ولا هو عرف هذا الحبّ الأهوج يبدأ كأنه الشعلة المتوهّجة لينطفئ من بعد ذلك سراج، وليرزق منها البنين والبنات، فيحتسب أبناءه القاسم والطاهر والطيب^(٢٥٨) بما يثير في نفسه لآعج الحزن والألم، وتبقى له بناته وهو بمنّ البرّ والشفقة، وهنّ له الإكرام والاعزاز الخالص^(٢٥٩).

وكان «محمد» وسيم الطلعة ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردّد، ضخّم الرأس، ذا شعر رجل شديد سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين، واسع العينين أدعجهما، تشوب بياضهما في الجوانب حمرة خفيفة، وتزيد في قوّة جاذبيتهما وذكاء نظرهما أهداب طوال حوالك، مستوى الأنف دقيقه، مفلّج الأسنان، يرسل ذقناً كثة، عالي العنق جميله، عريض الصدر، رحب الساحتين، أزهر اللون، ششّ الكفين والقدمين (أي غليظها) ، يسير

(٢٥٦) بكرة: الفتي من الإبل.

(٢٥٧) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٧/١، تاريخ يعقوبي : ٣٤٠/١، وتاريخ الطبري: ٥٢١/١، وإعلام الوري: ٥٣/١.

(٢٥٨) قال الإمام الصادق جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب(عليهم السلام): «وُلِدَ لِرَسُولِ اللَّهِ(صلى الله عليه وآله)من خديجة : القاسم والطاهر — وهو عبدالله — وأمّ كلثوم، ورقية، وزينب، وفاطمة» الخصال للشيخ الصدوق: ٣٧/٢، وبحار الأنوار: ١٥١/٢٢ .

(٢٥٩) تاريخ الطبري: ٥٢١/١، والبداية والنهاية: ٢٥٦/٢ .

مُلْقِيًا جسمه إلى الأمام مُسرّع الخطو ثابتة، على ملامحه سيماء التفكير والتأمل ، وفي نظرته سلطان الأمر الذي يخضع الناس لأمره^(٢٦٠)، فلا عجب وتلك صفته أن تجمع خديجة حبه والاذعان له. ولا عجب أن تعفيه من تدبير ما لها لتقوم هي على هذا التدبير، كما كان دأبها من قبل، وأن تدع له ما شاء من فسحة الوقت لِيُفَكِّرَ وليتأمل.

وأقام «محمّد» وقد أغناه الله بزواج خديجة في ذروة من النسب وسعة من المال، وأهل مكة جميعاً ينظرون له نظرة غبطة وإكبار ، وهو في شغل عن نظرهم بما أسبغه الله عليه من فضله، وبما يبشّره به خصب خديجة من عقب صالح. لكنّ ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة على ما كان يفعل من قبل، بل لقد زاده جاهاً بينهم ومكانة فيهم، وزاده لذلك تواضعاً على جمّ تواضعه؛ فلقد كان على عظيم ذكائه وظاهر تفوّقه حسن الاصغاء إلى محدّثه، لا يلوي عن أحد وجهه ولا يكتفي بإلقاء السمع إلى مَنْ يُحدّثه، بل يلتفت إليه بكلّ جسمه. وكان قليل الكلام ، كثير الانصات، ميّالاً للجدّ من القول، وإن كان لا يأبى أن يشارك في مفاكهة وأن يهزل ثمّ لا يقول إلّا حقّاً. وكان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه. فإذا غضب لم يظهر لذلك من أثر الغضب إلّا نفرة عرق بين حاجبيه، أن كان يكظم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه ، لما جُبِلَ عليه من سعة الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس، ومن البرّ والجود وكرم العشرة، وما كان عليه إلى جانب ذلك من ثبات العزيمة وقوّة الإرادة وشدة البأس، ومضاء التصميم مضاء لا يعرف التردّد. وهذه الصفات مجتمعة فيه كانت تجعل من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبّه. فما كان أعظم أثرها إذاً فيما اتّسق بينه وبين خديجة الزوج الوفيّة من مودّة صادقة ووفاء كامل^(٢٦١).

لم ينقطع «محمّد» عن مخالطة أهل مكة والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة. وكانوا يومئذ في شغل بما أصاب الكعبة، فقد طغى عليها سيل عظيم انحدر من الجبال فصدّع جدرانها بعد توهينها. وكانت قُريش من قبل ذلك تفكّر في أمرها، أن كانت، ولا سقف لها، عرضةً لانتهاك السارقين ما تحتوي من نفائس. لكنّها كانت تخشى، إن هي شدّت بنيانها ورفعت بابها وسقفتها ، أن يصيبها من ربّ الكعبة المقدّسة شرٌّ وأذى. فقد كانت تحيط بها في مختلف عهود الجاهلية أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شيء من أمرها، وتجعلهم يعتبرون ذلك بدعاً محرّماً.

(٢٦٠) الطبقات الكبرى: ٤١٠/١ — ٢١٨، والأخبار الموقيات: ٣٥٤ ح ٢١١، وعيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٥٥٨/١.

(٢٦١) الطبقات الكبرى: ٣٦٤/١ — ٣٧٣، والسيرة الحلبية: ٣٣٥/٣ — ٣٤٣، والوفا: ٤١٩ — ٤٥٢ وقد أشار إلى بعض مكارم أخلاقه

الشيخ الطبرسي في مكارم الأخلاق .

فلما طغى عليها السيل لم يكن بدّ من الإقدام ولو في شيء من الخوف والتردد. وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومي اسمه باقوم فحطّمها. وكان باقوم هذا بناءً على شيء من العلم بالنجارة. فلما سمعت قريش بخبرها خرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى جدّة، فابتاعوا السفينة من الرومي، وكلموه في أن يقدم معهم إلى مكّة ليعاونهم في بناء الكعبة، وقيل باقوم. وكان بمكّة قبطي يعرف نجر الخشب وتسويته، فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه باقوم. ثم إن قريشاً اقتسمت جوانب البيت أربعة، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه. على أنّهم تردّدوا قبل هدمها مخافة أن يصيبهم أذى. ثم إن الوليد بن المغيرة أقدم في شيء من الخوف، فدعا آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليماني. وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد. فلما أصبح ولم يصبه شيء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة، و«محمد» ينقل معهم، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر ضربوا عليها بالمعول فارتدّ عنها، فاتخذوها أساساً للبناء فوقه ونقلت قريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاورة للبدء في البناء وبدأت فيه. فلما ارتفع إلى قامّة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدّس في مكانه في الجانب الشرقي. اختلفت قريش أيّهم يكون له فخار وضع الحجر في هذا المكان. واستحرّ الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه. تحالف بنو عبدالدار وبنو عدي أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم، وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم، حتى قرّب بنو عبدالدار جفنة^(٢٦٢) مملوءة دماً، وأدخلوا أيديهم فيه توكيداً لأيمانهم، ولذلك سموا: «لَعَقَةُ الدّم» فلما رأى أبو أميّة بن المغيرة المخزومي ما صار إليه أمر القوم، وكان أسّتهم وكان فيهم شريفاً مطاعاً، قال لهم: اجعلوا الحكم فيما بينكم أوّل من يدخل من باب الصّفا. فلما رأوا «محمدًا» أوّل من دخل قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه، وقصّوا عليه قصّتهم. وسمع هو لهم، ورأى العداوة تبدو في عيونهم، ففكر قليلاً، ثم قال: هلّم إليّ ثوباً، فأتي به، فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه، ثم قال: ليأخذ كبير كلّ قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب؛ فحملوه جميعاً إلى ما يُحاذي موضع الحجر من البناء، ثم تناوله «محمد» من الثوب ووضعه في موضعه. وبذلك انحسم الخلاف وانفضّ الشرّ. وأتمّت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانين ذراعاً، ورفعوا بها عن الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين، وجعلوا في ركنها الشاميّ من داخلها درجاً يصعد به إلى سطحها، ووضع هُبْل داخل الكعبة، كما وضعت النفائس التي تعرّضت من قبل بنائها وسقفها لمطامع اللصوص.

(٢٦٢) العرب تدعو السيّد المطعام جفنة لأنّه يضعها ويطعم الناس فيها فسمّي باسمها — النهاية في غريب الحديث: ٢٧١/١ .

أُختلف في سنّ «محمّد» حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قُريش في أمر الحجر، فقيل: كان ابن خمس وعشرين، وقال ابن اسحاق: كان ابن خمس وثلاثين . وسواء أصحت الواحدة أم الأُخرى من هاتين الروايتين، فإنّ اسراع قُريش إلى الرضا بحكمه أوّل ما دخل من باب الصفا، وتصرفه هو في أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة، يدلّ على ما كان له من مكانة سامية في نفوس أهل مكّة ومن احترام جمّ لما عُرف عنه من سموّ النفس ونزاهة القصد^(٢٦٣).

وهذا الخلاف بين القبائل ، وهذا التحالف بين لعقة الدم، وهذا الاحتكام لأوّل مُقبل من باب الصفا، يدلّ على أنّ السلطة في مكّة كانت انحلت فلم يبق لرجل منها ما كان لقُصي ولا هاشم ولا لعبد المطلب من سلطان. ولقد كان لتنازع بني هاشم وبني أميّة السلطان بعد وفاة عبدالمطلب أثره في ذلك لا ريب^(٢٦٤). وكان هذا الانحلال في السلطة جديراً بأن يجرّ على مكّة الأذى، لولا ما كان لبيتها العتيق في نفوس العرب جميعاً من قداسة. على أنّ انحلال السلطان قد أدّى إلى نتيجته الطبيعية: أدّى إلى مزيد من حرية الناس في التفكير والجهل بالرأي، وإلى إقدام اليهود والنصارى، ثمّ كانوا يخافون صاحب السلطان، على تعيير العرب بعبادة الأوثان. وانتهى ذلك بكثير من أهل مكّة ومن القرشيين أنفسهم، إلى أن زالت من نفوسهم قداسة الأصنام، وإن ظلّ أمجاد مكّة وسادتها يظهرون لها التقديس والعبادة. وهؤلاء من العذر ما للذين يرون في الدين القائم وسيلة من وسائل ضبط النظام وعدم تبليل الأفكار، وفي عبادة الأصنام بالكعبة ما يحفظ على مكّة مكانتها الدينية والتجارية . ولقد ظلت مكّة بالفعل تنعم من وراء هذه المكانة بالرخاء واتصال التجارة. لكنّ ذلك لم يغيّر من انحلال قداسة الأصنام في نفوس المكّين أنفسهم.

ذكروا أنّ قريشاً اجتمعت يوماً بنخلة تُحيي عيد العزّى، فخلص منهم أربعة نجياً هم: زيد بن عمرو و عثمان بن الحُوَيرث وعبيدالله بن جحش وورقة بن نوفل، فقال بعضهم لبعض: «تعلّموا، والله ما قومكم على شيء وإنّهم لفي ضلال. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضّرّ ولا ينفع، ومن فوقه يجري دم النحور. يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذي

(٢٦٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١٩٣ — ١٩٧، والطبقات الكبرى: ١٤٥/١ — ١٤٧، والسيرة الحلبية: ١٤١/١ — ١٤٤، والوفا: ١٤٣ — ١٤٤، الكافي للكليني: ٢١٨/٤ .

(٢٦٤) لم يحدّثنا التاريخ عن وقائع أو أحداث تاريخية بعد وفاة عبدالمطلب يعول عليها، لتكون سبباً مباشراً في تحويل الحياة السياسية لتشكّل منعطفاً من شأنه أن يفصل بين زعامة عبدالمطلب وزعامة بنيه من بعده، ومن المعروف أنّ السلطة الدينية بقيت في بني هاشم، كما كانت عليه رغم توزيع المهام بين أبي طالب وأخيه العباس ، كما لا يعني وجود بعض المهام الرئاسية الأخرى بيد قُريش، كبنّي مخزوم ممّا يفقد هبة بني هاشم في بطون قُريش من جهة، إنّنا لم نسمع بتلك الأحداث المفترضة على أنّها زعزعت سلطان البطون على باقي العرب، بل كانت التشكيلة السياسية القائمة على الروح القبلية، هي الحاكمة على الحياة في مكّة حتى مجيء النبي (صلى الله عليه وآله) .

أنتم عليه». أما ورقة فدخل النصرانية، وقيل: إنه نقل إلى العربية بعضاً مما في الأناجيل. وأما عبيد الله بن جحش فظلّ فيما هو فيه من الإلتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، وهناك اعتنق النصرانية ومات عليها، وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبي وأمّهات المؤمنين. وأما زيد بن عمرو ففرّ من زوجه ومن عمّه الخطاب. وطوّف في الشام وفي العراق، ثم عاد ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان، وكان يقول وهو مستند إلى الكعبة: «اللهم لو أتى أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبادتك به، ولكّني لا أعلمه». وأما عثمان بن الحويرث، وكان من ذوي قرابة خديجة، فذهب إلى بيزنطة وتنصّر وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم. ويقال: إنه أراد أن يخضع مكّة إلى حماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها، فطرده المكيون فاحتوى بالغساسنة في الشام، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكّة، فوصلت الغساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً (٢٦٥).

تعاقت السنون و«محمد» يشارك أهل مكّة في حياتها العامة، ويجد في خديجة خير النساء حقاً، الدودود الولود التي وهبت كلّ نفسها له، والتي أنجبت له من الأبناء: القاسم والطاهر والطيب، ومن البنات: زينب ورقية وأمّ كلثوم وفاطمة. أما القاسم والطاهر والطيب فلم يُعرف عنهم إلا أنّهم ماتوا أطفالاً في الجاهلية لم يتركوا على الحياة أثراً يبقى أو يذكر. لكنهم من غير شكّ قد ترك موقم في نفس أبويهم ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موقم من غير شكّ في نفس خديجة ما جرح أمومتها ثلاث جراحات دامية (٢٦٦). وهي لاريب قد اتجهت عند موت كلّ واحد منهم في الجاهلية إلى آلهتها الأصنام تسألها، ما بالها لم تشملها برحمتها وبرّها، وما بالها لم ترحم

قلبها من أن يهوى به الشكل ليتحطّم على قرارة الحزن مرّة فمرة فمرة (٢٦٧)! وقد شعر زوجها لا ريب معها بالألم لوفاة بنيه، كما حزّ في قلبه هذا الألم الحيّ ممثلة

(٢٦٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٢٢/١ — ٢٢٥، والسيرة النبوية لابن كثير: ١٥٣/١ — ١٦٤.

(٢٦٦) السيرة النبوية لابن هشام: ١٩٠/١، وراجع التعليقة (رواية الإمام الصادق (عليه السلام) في أولاد النبي (صلى الله عليه وآله) وعددهم).

(٢٦٧) لم يكن معروفاً عن خديجة بنت خويلد على أنّها كانت تمّن عبد الأصنام، بل يشهد لها التاريخ من أنّها كانت تنهى ابن أخيها حكيم بن مزاحم عن عبادة الأوثان، ويضاف أنّها كانت ترفض طلبات الأقرين من ذويها في أن تضع داخل بيتها تمثالاً من التماثيل أو صنماً من الأصنام التي يقدّسها أهل مكّة، وكانت تقابل تلك الطلبات بابتسامة التهكم والسخرية، فهذا حالها قبل الزواج من النبي (صلى الله عليه وآله)، فكيف بما بعد الزواج منه، وهي التي اختارته لتجلى التوحيد في سلوكه، ثم لم يكن دورها خافياً على أحد وهي تحمل الزاد والماء إلى أعلى غار حراء مع معاناة الصعود لتضعه بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله) الذي كان يتعبّد في تلك البقعة لله وحده، رافضاً لعبادة الأصنام.

صورته في زوجه يراه كلّما عاد إلى بيته وجلس إليها. وليس يتعدّر علينا أن نقدّر عمق هذا الحزن السحيق في عصر كان البنات يُوأذنّ فيه وكان الحرص على العقب الذكر يوازي الحرص على الحياة بل يزيد عليه. وبحسبك مظهراً لهذا الألم أن لم يطق «محمد» على الحرمان صبراً، حتّى إذا جيء بزيد بن حارثة يُشترى، طلب إلى خديجة أن تبتاعه ففعلت، ثمّ أعتقه وتبنّاه ، فكان يدعى زيد بن محمد، واستبقاه ليكون من بعد من خيرة أتباعه وصحبه^(٢٦٨). ولقد حزن «محمد» بعد حين مات ابنه إبراهيم أشدّ الحزن بعد أن حرّم الإسلام وأد البنات، وبعد أن جعل الجنّة تحت أقدام الأمّهات. فلا ريب إذاً قد كان لما أصاب «محمدًا» في بنيه ماهو جدير بأن يترك في حياته وتفكيره أثره. ولا ريب في أنّه استوقف تفكيره ولفت نظره في كلّ واحدة من هذه الفواجم ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة، وما كانت تنحر لُبل وللات والعزى ولمناة الثالثة الأخرى، تريد أن تفتدي ما ألمّ بها من ألم الشكّل، فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور .

وأما البنات فقد غني «محمد» بتزويجهنّ من أكفّاء هنّ. فزوّج زينب كبراهنّ من أبي العاص بن الربيع بن عبدشمس، وكانت أمّه أختاً لخديجة، وكان فتىً مقدّراً من قومه لاستقامته ونجاح تجارته. وكان هذا الزواج موفقاً برغم ما كان بعد الإسلام، وحين أرادت زينب الهجرة من مكّة إلى المدينة، من شوائب شبابه سنرى من بعد تفصيلها. وزوّج رُقِيّة وأمّ كلثوم من عُتبة وعُتيبة ابني عمّه أبي لُهب. ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام، أن أمر أبو لُهب ابنه بتسريحهما، فتزوّجهما عثمان واحدة بعد الأخرى^(٢٦٩). وكانت فاطمة طفلة ماتزال فلم تزوّج من عليّ إلّا بعد الإسلام.

ثمّ لا نعرف معنيّ لسكوت النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن خديجة المطيعة له والمستجيبة لدعوته في عدم نفيه لها وهي تمارس طقوس الشرك والوثنية في نحرها الإبل لُبل واللات والعزى !!؟

(٢٦٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٤٧/١ — ٢٤٨ .

(٢٦٩) يرى البعض من المحقّقين أنّ عثمان لم يتزوج من بنات النبيّ (صلى الله عليه وآله) وفق البيان التالي: —

١ — «قال المقدسي: إنّ خديجة ولدت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) عبدمناف في الجاهلية وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات: القاسم وعبدالله وأمّ كلثوم وزينب ورُقِيّة وفاطمة»، البدء والتاريخ: ١٦/٥.

٢ — قال القسطلاني: «وقيل: وُلد له ولد قبل المبعث يقال له: عبدمناف، فيكونون على هذا اثني عشر، وكلّهم — سوى هذا — ولدوا في الإسلام بعد المبعث»، المواهب اللدنية: ١٩٦/١.

٣ — وينصّ صاحب الإصابة: «أنّ رُقِيّة كانت أصغر من الكلّ حتّى من فاطمة (عليها السلام)»، الإصابة: ٣٠٤/٤.

٤ — فعليه لا يمكن التصديق بأنّهما تزوّجتا في الجاهلية من ابني أبي لُهب ، ثمّ جاء الإسلام ففارقهما.

٥ — ثمّ يقول المقدسي: «فزوّج رسول الله رقية عثمان بن عفان ، وهاجرت معه في المجرتين إلى الحبشة، وأسقطت في الهجرة الأولى علقه في السفينة»، البدء والتاريخ: ١٧/٥.

وهذا لا يمكن التصديق به أيضاً وذلك أنّنا نعلم: أنّ الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت بعد البعثة بخمس سنين، فكيف تكون رُقِيّة قد تزوّجت قبل البعثة بابن أبي لُهب، ثمّ فارقتها ليتزوّجها عثمان، وتحمل منه قبل الهجرة إلى الحبشة، وهي إنّما ولدت بعد البعثة.

حياة طمأنينة ودعة إذاً كانت «حياة محمد» في هذه السنين من عمره. ولولا احتسابه بنيه لكانت حياة نعمة بمودة خديجة ووفائها، وبهذه الأبوة السعيدة الراضية. طبعي مع ذلك أن يترك «محمد» نفسه لسجيّتها، سجيّة التفكير والتأمل، وأن يستمع إلى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم، وأن يفكر ويتدبر، وأن يكون أشد من كل قومه تدبراً وتفكيراً. فهذا الروح القوي الملهم، هذا الروح الذي أعدت الأقدار ليبلغ الناس من بعد رسالات ربّه، ويوجّه حياة العالم الروحية الاتجاه الحقّ، لا يمكن أن يظلّ مطمئناً إلى ما غرق الناس فيه إلى الأذقان من ضلال، ولا بدّ أن يلتمس في الكون أسباب الهدى حتى يعده الله ليلقي عليه ما قدّر في الغيب من رسالته. ومع عظيم توجّهه لهذه الناحية الروحية وشديد تعلّقه بها، فإنّه لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهّان، ولا أراد أن ينصب نفسه حكيماً على نحو ما كان ورقة بن نوفل وأمثاله. هو إنّما كان يريد الحقّ لنفسه. فكان لذلك كثير التفكير، طويل التأمل، قليل الإفضاء لغيره بما يجيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله.

وقد كان من عادة العرب — إذ ذاك — أن ينقطع مفكّروهم للعبادة زمناً في كل عام يقضونه بعيداً عن الناس في خلوة، يتقرّبون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء، ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمة. وكانوا يُسمّون هذا الانقطاع للعبادة «التحنّث» أو «التحنّث»^(٢٧٠). وقد وجد محمد فيه خير ما يُمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يلتبس أثناءها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتدّ إليه من نشدان المعرفة واستلهاهم ما في الكون من أسرارها. وكان بأعلى جبل حراء — على فرسخين من شمال مكة — غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنّث، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه، ممعناً في التأمل والعبادة، بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة، ملتصقاً بالحقّ، والحقّ وحده. ولقد كان يشتدّ

ولكن يمكن القول إنّ هذه الحقائق تؤيد أنّ رُقِيّة التي تزوّجها عثمان هي غير رُقِيّة التي يدعى أنّها بنت الرسول (صلى الله عليه وآله) والتي يقال إنّها وُلِدَت بعد البعثة، وأنّ التي تزوّجها عثمان هي ربيعة النبي (صلى الله عليه وآله) لا ابنته.. وقد كانت العرب تطلق على ربيعة الرجل أنّها ابنته وكذلك يقال بالنسبة لأُم كلثوم، لأنّ الفرض أنّها قد وُلِدَت بعد البعثة، راجع الصحيح في سيرة النبي. جعفر مرتضى العاملي: ١/١٢٣. وهناك تحقيق آخر في مسألة زينب فيما إذا كانت ابنة الرسول أم ربيّته، يقول الشيخ محمد حسن آل ياسين عن زينب: «أنّ بعض المصادر تقول: إنّها وُلِدَت وعمره (صلى الله عليه وآله) ثلاثين سنة» — أسد الغاية: ٥/٤٦٧، ونهاية الإرب: ١٨/٢١١، والاستيعاب بهامش الإصابة: ٤/٣١١ — وتزوّجها أبو العاص بن الربيع قبل البعثة، ولَدَت له عليّاً مات صغيراً، وأمّامة أسلمت حينما أسلمت أمّها أوّل البعثة النبويّة، وذلك غير معقول، فإنّه لا يمكن لبنت في العاشرة أن تتزوج ويولدها بنت وتكبر تلك البنت حتى تسلم مع أمّها في أوّل البعثة.. هذا.. وحيث لا تزال أمّها في العاشرة من عمرها»، التّوبة للشيخ محمد حسن آل ياسين: ٦٥.

(٢٧٠) التحنّث: تعبّد واعتزل الأصنام «مادة حنث» الصحاح: ١/٢٨٠.

به التأمل ابتغاء الحقيقة، حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما في الحياة؛ لأن هذا الذي يرى في الحياة التي حوله ليس حقاً. وهناك كان يقلّب في صحف ذهنه كل ما وعى، فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظنّ رغبة وازوراراً^(٢٧١). وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأخبار وفي كتب الرهبان الحقّ الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به، في السماء ونجومها وقمرها وشمسها، وفي الصحراء ساعات لهيها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه، وفي كل ما وراء ذلك ممّا يتّصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود. في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا، وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سرّه، ولم يكن بحاجة إلى كثير من التأمل ليرى أنّ ما يباشر قومه من شؤون الحياة وما يتقرّبون به إلى آلهتهم ليس حقاً. فما هذه الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن أحد غائلة شرّ يصيبه! وهُبْل واللات والعزى، وكلّ هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها، لم تخلق يوماً ذُباباً ولا جادت مكة بخير! ولكن! أين الحقّ إذا؟ أين الحقّ في هذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه؟ أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء، ومن عندها ينحدر ماء المطر، فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق، حياة بالماء والنور والدفء؟ كلا، فما هذه الكواكب إلّا أفلاكاً، كالأرض سواء. أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثر لا حدّ ولا نهاية له؟ ولكنّ ما الأثير؟! وهذه الحياة التي نحيا اليوم فتتقضي غداً، ما أصلها وما مصدرها؟! أهى مصادفة تلك التي أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها؟ لكنّ للأرض وللحياة سنناً ثابتة لا تبدل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها. وما يأتي الناس من خير أو شرّ، أفيأتونه طوعية واختياراً، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه؟ في هذه الأمور النفسية والروحية كان «محمّد» يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء. وكان يريد أن يرى الحقّ فيها وفي الحياة جميعاً. وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره وكلّ ما في وجوده، ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصحبها ومسائها. فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسأله تريد أن تطمئن إلى أنّه بخير وعافية. وإذا استدار العام وجاء شهر رمضان كرّة أخرى ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره، ينضجه شيئاً

(٢٧١) الإزورار عن الشيء: العدول عنه. وقد ازوّر عنه ازوراراً، وازوار عنه ازويراراً، وتزاور عنه تزاوراً، كلّ بمعنى عدل عنه وانحرف. الصحاح:

فشيئاً وتزداد به نفسه امتلاء. وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه، صار يرى في نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التي ينشد، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها. إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلّوا سبيل الهدى، وأنّ حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام، وما إليها من عقائد متصلة بما ليست دونها ضلالاً. وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما ينقذ قومه من ضلالهم. ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حق. لكنّ فيه كذلك ألواناً من الوهم، وصوراً من الوثنية، لا يمكن أن تتفق والحق المجرد البسيط الذي لا يعرف كلّ هذه المضاربات الجدلية العقيمة، ممّا يُمعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب. وهذا الحق هو الله خالق الكون لا إله إلا هو، وهذا الحق هو أنّ الله ربّ العالمين، هو الرّحمن الرّحيم، وهذا الحق هو أنّ الناس مجزّيون بأعمالهم. (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٢٧٢)). وإنّ الجنة حقّ والنار حقّ، وأنّ الذين يعبدون من دون الله إلهاً آخر لهم جهنّم، وساءت مستقراً ومقاماً.

وشارف «محمد» الأربعين، وذهب إلى حراء يتحنّث وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة (٢٧٣)، وقد خلصت نفسه من الباطل كلّ، وقد أدّبه ربّه فأحسن تأديبه، وقد اتّجه بقلبه إلى الصّراط المستقيم، وإلى الحقيقة الخالدة، وقد اتّجه إلى الله بكلّ روحه أن يهدي قومه بعد أن ضربوا في تيهاء الضلال. وهو في توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه، ويطيل الصوم وتثور به تأملاته، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء، ثمّ يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبيّن له في رؤاه. ولقد طالت به الحال ستة أشهر حتى خشي على نفسه عاقبة أمره، فأسرّ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى، وأنّه يخاف عبث الجنّ به، فطمأنته الزوج المخلصة الوفية وجعلت تحدّثه بأنّه الأمين، وبأنّ الجنّ لا يمكن أن تقترب منه (٢٧٤).

وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفي يده صحيفة، فقال له: اقرأ، فأجاب مأخوذاً: ما أقرأ؟ فأحسنّ كأنّ الملك يخنقه ثمّ يرسله ويقول له: اقرأ، قال «محمد» — وقد خاف أن يخنق كرّة أخرى — : ماذا أقرأ؟ قال الملك: (اقرأ باسم ربّك الذي خلّق * خلّق الإنسان من علق * اقرأ وربّك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم) (٢٧٥) (٢٧٦). فقرأها وانصرف الملك عنه

(٢٧٢) الزلزلة (٩٩): ٧ — ٨ .

(٢٧٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٣/١ — ٢٣٥، والطبقات الكبرى: ١٩٠/١ و ١٩٤ وامتاع الأسماع: ٢٠/١ — ٢١، وعبون الأثر:

١٠٠/١ و ١٠٢، وإعلام الوري: ٤٦/١ .

(٢٧٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٤ — ٢٣٥، والطبقات الكبرى: ١٩٤ / ١ — ١٩٥، والوفا: ١٥٥ و ١٥٧ .

(٢٧٥) العلق (٩٦): ١ — ٥ .

وقد نقشت في قلبه. لكنّه ما لبث أن استيقظ فزعاً، يسأل نفسه: أي شيء رأى؟! (٢٧٧) أترأه أصابه ما كان يخشى من جنة؟ وتلفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً. ومكث برهة أصابته فيها رعدة الخوف وتولاه أشدّ الوجل، وخاف ما قد يكون بالغار ففرّ منه وكلّه الحيرة لا يستطيع تفسير ما رأى، وانطلق هائماً في شعاب الجبل يُسائل نفسه عمّن دفعه ليقراً. لقد كان إلى يومئذ يرى وهو في تحنّته الرؤيا الصادقة تنبلج من خلال تأمله فتماً صدره فتضيء أمامه وتدلّه على الحقّ أين هو؟ وتثير له أكّداً الظلمات التي زجت قريشاً في وثنيّتهم إلى عبادة أصنامهم. وهذا النور الذي أضاء أمامه وهذا الحقّ الذي هداه سبيله هو الواحد الأحد. فمن هذا المذكّر به وبأنّه الذي خلق الإنسان وبأنّه الأكرم الذي علّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم؟ وتوسط الجبل وهو في هذه الحال من فزع وخشية وتساؤل، فسمع صوتاً يناديه، فأخذ الرّوع ورفع رأسه إلى السماء، فإذا المَلَك في صورة رجل هو المنادي. وزاد به الفزع ووقفه الرعب مكانه، وجعل يصرف وجهه عمّا يرى، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً، ويتقدّم ويتأخر فلا تنصرف صورة المَلَك الجميل من أمامه.

(٢٧٦) نقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عروة عن عائشة أنّها قالت: (أول ما بُدِيَ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه... ثم يرجع إلى حديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء).

وليس في بداية هذا النصّ ما يدعو للاستغراب سوى أنّ عائشة لم تكن حين بدأ الوحي، والنصّ لا يفصح عمّن أخذت هذه المعلومات، وهي لم تروه عن رسول الله مباشرة.

ثمّ قالت: (ثمّ انطلقت به حديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل... وهو ابن عمّ حديجة... فقالت له حديجة: أي ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ياليتني كنت فيها جذعاً، أكون حين يخرجك قومك، فقال رسول الله: «أو مخرجي هم؟» فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قطّ بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثمّ لم ينشب ورقة أن توفي. مسند أحمد الحديث ٢٤٦٨١.

والغريب في هذا الحديث والذي اعتمده هيكلاً أيضاً أنّ ورقة الذي لم يسلم بعد هو عارف بما سيجري على النبيّ فضلاً عن علمه بنبوته، بينما نجد صاحب الدعوة الذي اختاره الله لا يعرف مصيره ولم تتضح له الأمور. وإنّ ورقة هو الذي يفيض عليه الطمأنينة، والقرآن قد صرح في أكثر من آية بأنّه (صلى الله عليه وآله) على بيّنة من ربّه.

(٢٧٧) «وهبت من نومي وكأنيما كتب في قلبي كتاباً قال: ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إليّ من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت إن الأبعد — يعني نفسه — لشاعر أو مجنون! لا تحدث بما عني قريش أبداً لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلا طرحنّ نفسي منه، فلا قتلنها فلا سترحين. قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل». تاريخ الطبري: ٢٠١/٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. دار سويدان — بيروت.

إنّ اضطراب النبيّ (صلى الله عليه وآله) وخوفه يبلغ به حدّاً يريد الانتحار في الوقت الذي يريد الله اختياره للنبوّة وهداية الناس ودعوتهم إلى الحقّ! فهل هذا يتناسب مع ما ينقله الدكتور هيكل، فإذا عرضنا هذا النصّ والذي قبله على مُحكمات القرآن والعقل والسنة لانتبهنا إلى نتائج معاكسة، بلّ ولجاز لنا أن نطمئن إلى تسرّب الإسرائيليات لكتبتنا التاريخية.

أمّا إذا رجعنا إلى الروايات الصادرة عن أئمة أهل البيت فيما يخصّ إرهابات الوحي الرسالي وما تبعه من نتائج لوحظت على نفس الرسول وشخصيته وسلوكه (كبحار الأنوار: ٢٠٧/١٨) لوجدناها تحكي عن قوّة شخصيته وأنّه أعقل خلق الله وأكرمهم وأكثرهم يقيناً برّبّه فلا حاجة لأنّ يطمنه ورقة أو زوجه حديجة، أو هو شاكّ بنفسه لا يعرف قدرها وقربها من الله تعالى، لنخرج من هذه الكلمات غير اللاتقة بسموّ ذاته وطهارتها.

وهذه الأسطورة التي تُسوّى إلى النبيّ قد أخذها الكاتب من تاريخ الطبري ولم يشر إلى أنّها أسطورة مزيفة.

وأقام على ذلك زمناً كانت خديجة قد بعثت أثناءه بمن يلتمسه في الغار فلا يجده. فلما انصرفت صورة الملك رجع «محمد» ممتلئاً بما أوحى إليه، وفؤاده يرجف وقلبه يضطرب خوفاً وهلعاً. ودخل على خديجة وهو يقول: «زملوني»، فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى. فلما ذهب عنه الروح نظر إلى زوجه نظرة العائد المستجد، وقال: «يا خديجة! مالي؟» وحدثها بالذي رأى. وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهناً. وكانت خديجة — كما كانت أيام تحنّته في الغار ومخاوفه أن تكون به جنة — ملاك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوجل. لم تبد له أي خوف أو ريبة، بل ركت إليه بنظرة الإكبار وقالت: أبشر يا ابن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، وإنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(٢٧٨).

واطمأنّ روع «محمد» وألقى إلى خديجة بنظرة شكر ومودة، ثمّ أحس بجسمه مُتعباً في حاجة إلى النوم، فنام، نام ليستيقظ من بعد إلى حياة روحية قوية غاية القوة، حياة تأخذ بالأبصار والألباب، ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والإنسانية. تلك رسالة ربّه يبلغها ويدعو الناس إليها بالتي هي أحسن، حتى يتمّ الله نوره ولو كره الكافرون^(٢٧٩).

(٢٧٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٦/١ — ٢٣٨، وعيون الأثر: ٩٩/١ — ١٠٦، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣٨٠/١ — ٣٨٨.

(٢٧٩) هذه النصوص التي اعتمدها الأستاذ هيكل في فهمه لحدث البعثة والارهاصات التي رافقتها لا يمكن الاعتماد عليها، وذلك لمخالفتها المسلّمات القرآنية حين تصوّر لنا المرسل وصفاته في الوقت الذي توجد روايات أخرى تتحدث عن البعثة وكيفية تلقي النبي (صلى الله عليه وآله) للوحي الأقرب في دلالتها من منطق الوحي فتكون الأجدد بالأخذ دون غيرها وسننقل نص بعضها في هامش آخر.

ثمّ إنّ القرآن يُمثّل أقدم النصوص التاريخية وأكثرها دقة ومعاصرة لأحداث الرسالة، فمن الأولى عرض تلك النصوص على محكمات القرآن، لأنّ كتب التاريخ — كما هو معلوم — قد دوّنت في وقت متأخر وقد طالها التزوير والتحريف والنسيان، وهذا هو المنهج العلمي الذي طالما أكدّه الأستاذ هيكل في بحثه. فمن الأمور التي تحدّث عنها القرآن الكريم مسألة صفات الأنبياء والرسل قبل وبعد البعثة، حيث ينقل لنا أنّهم كانوا على هداية وترقّب واستيعاب واستعداد لقبول الرسالة، قال تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا غَابِطِينَ) الأنبياء: ٧٣، وقال: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) الأنعام: ٥٧، وقال: (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) النجم: ٢ — ٥. وقال: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) يوسف: ١٠٨، وقوله تعالى: (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) النمل: ١٠، فالقرآن هنا يصرّح لنا النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه على وعي ودراية وفهم دقيق للوحي بينما الروايات المعتمدة عند الكاتب تصوّره ذلك الشخص المضطرب الخائف الذي لا يثق بنفسه، ولا يعرف مستقبله، فيدفع فيه حدث الوحي لأن يفكر بالانتحار كما في بعض الروايات في الوقت الذي ينتخبه الله لمهمة النبوة وهداية الناس ودعوتهم للحقّ، وقد أعدّه قبل ذلك حيث كانت رؤاه صادقة، لتأتي خديجة وكأنّها الأعملم بإرادة السماء والأعرف بطرق اللقاء بالوحي لتطمئن عليه وتهدّته وهو نبيّ قبل أن يكون رسولاً حين التقاه الوحي في غار جراء.

الفصل الخامس

من البعث إلى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل، فتور الوحي، إسلام أبي بكر، المسلمون الأولون، دعوة محمد أهله للإسلام، إغراء قريش شعراءها بمحمد، ذكر محمد آلهة قريش بالسوء، سفارة قريش إلى أبي طالب، موقف محمد من عمه، تعذيب قريش للمسلمين، هجرة المسلمين إلى الحبشة، إسلام عمر.

نام «محمد» وحذقت به خديجة وقد امتلأ قلبها اشفاقاً وأملأ لهذا الذي سمعت منه. فلما رآته استغرق في نوم مطمئن هادئ تركته وخرجت تقلب في نفسها هذا الذي ملأ قلبها وأثار هواجسها، وتفكر في الغد ترجوه خيراً، وترجو أن يكون زوجها فيه نبي هذه الأمة العربية التي أغرقت في الضلال؛ يهديها دين الحق ويدلها على الصراط المستقيم. وتحشاه، مع ذلك، أشد الحشية على هذا الزوج البار الوفي الحميم. وطفقت تعرض أمام بصيرتها ما قص عليها، وتتخيل هذا الملك الجميل الذي تعرض له في السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربه، والذي ملأ عليه الوجود كله زمناً كان يراه أثناءه أينما صرف وجهه، وتستعيد الكلمات التي تلا محمد بعد أن نقشت في صدره. جعلت تعرض ذلك كله أمام بصيرتها فتفتّر شفتها طوراً عن ابتسامة الأمل، وتنكمش أساريرها طوراً آخر خيفة ما قد يكون أصاب الأمين. ولم تطق البقاء في وحدتها طويلاً، تنتقل من الأمل الحلو الباسم إلى الريبة والاشفاق المخوف، ففكرت في أن تفضي بما في نفسها إلى من تعرف فيه الحكمة وحسن النصيحة.

لذلك انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان — كما قدّمنا — قد تنصّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية. فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع، وقصّت عليه كل ما حدثها به، وذكرت له إشفاقها وأملها، أطرق ملياً ثم قال: «قدّوس قدّوس! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة،

فَقُولِي لَهُ فليثبت»^(٢٨٠) . وعادت خديجة فألفت محمداً نائماً ما يزال، فحدّثت به وكلّها الحبّ والاخلاص وكلّها الاشفاق والأمل. وفيما هو في هدأة نومه إذا به اهتزّ وثقل تنفّسه وبّلّ العرق جبينه يقوم ليستمع إلى الملك يوحى إليه^(٢٨١): (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ * وَتَيَّابُكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)^(٢٨٢) . ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقاً وتقدّمت إليه في رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح . فكان جوابه، أو كما قال: انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبرئيل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته. فَمَنْ ذا أدعو وَمَنْ ذا يستجيب إليّ؟ فجهدت خديجة قهوّن عليه الأمر وتشبّته، وسارعت فقصّت عليه نبأ ورقة وما حدّثها به، ثمّ أعلنت إليه في شوق ولهف إسلامها له وإيمانها بنبوّته^(٢٨٣).

(٢٨٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٨/١.

(٢٨١) الكامل في التاريخ: ٣٢/٢.

(٢٨٢) المدثر (٧٤) : ١ — ٧ .

(٢٨٣) تاريخ الطبري: ٥٣٥/١ .

هذه الروايات التي أسس عليها الأستاذ هيكل تصويره للبعثة لا يمكن الاطمئنان إليها، فمن جهة سندها هي ترجع إلى رواية الزهري عن عروة بن الزبير، فالزهري كان من أعوان الظلمة، راجع الغارات للنقفي: ٥٥٨/٢، أمّا عروة فيكفي عدم الاطمئنان إلى روايته صريح اعترافه على نفسه حيث يقول: كنّا نجلس إلى أئمتنا فيتكلمون بالكلام نعلم أنّ الحقّ غيره فنصلّفهم ويقضون بالجور فنقويهم ونحسّنه لهم، راجع سنن البيهقي: ١٦٥/٨، وكان عروة من السبّابين للإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، شرح نهج البلاغة: ٦٤/٤.

أمّا من جهة دلالة تلك الروايات التي نقلت في كتب التاريخ فهي لم تتفق حول نصّ واحد وإنّما أضيف إلى بعضها قول ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى (عليه السلام) ياليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قطّ بما جئت به إلّا عودي وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزّراً ، ثمّ لم ينشب ورقة أن توفي. راجع مسند أحمد: ٢٤٦٨١ ، الاستفهام الذي يردّ على تلك الروايات التي تصوّر مسألة المبعث وبروز شخصية ورقة كأحد أبطال القصة الذي لم يُسلم رغم علمه بأنّ دين الله هو الإسلام بأنّه كان عارفاً بما سيجري على النبي (صلى الله عليه وآله) بشكل تفصيلي والغريب أنّ صاحب الرسالة نفسه لم يتّضح له الأمر ولا يعرف أبعاد رسالته، وورقة هو الذي يفيض عليه بالطمأنينة والاستقرار بينما نجد القرآن يصرّح أنّ النبيّ على بينة من ربه وهو الذي يهدي الناس لا الناس تهدي، وورقة هو الذي يفيض عليه بالطمأنينة والاستقرار بينما نجد النبي (صلى الله عليه وآله): «وَهَبْتُ مِنْ نَوْمِي وَكَأْتَمًا فِي قَلْبِي كِتَابًا . قال: ولم يكن في خلق الله أحدٌ أبغض إليّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر اليهما، قال: قلت: إنّ الأبعد — يعني نفسه — لشاعر أو مجنون! لا تحدّث بما قُرِيش أبدًا! لأعمدنّ إلى حالق الجبل فلاطرحنّ نفسي منه فلاقتلنها فلاستريحنّ ، قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل، راجع تاريخ الطبري: ٢٠١/٢.

لاحظ هنا اضطراب النبي (صلى الله عليه وآله) وخوفه الذي يبلغ به النهاية حتى يريد الانتحار في الوقت الذي يريد الله للنبوة، وهذا الاضطراب في الروايات يجعلنا في ريب منها وعدم قبولها، ويدعوننا من جهة أن نراجع النصوص الروائية الأخرى المنسجمة مع المنطق القرآني، والعقل والتاريخ بخصوص المبعث وشخص النبي (صلى الله عليه وآله) منها:

فإن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) : أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما ترك تجارة الشام وتصدّق بكلّ ما رزقه الله تعالى من تلك التجارات كان يغدو كل يوم إلى حراء وحده وينظر من قلّله إلى آثار رحمة الله، وإلى أنواع عجائب رحمته وبدائع حكمته وينظر أكناف السماء وأقطار الأرض والبحار والمفاوز والفيافي ، فيعتبر بتلك الآثار، ويتذكّر تلك الآيات ، ويعبد الله حقّ عبادته.

وكان طبيعياً أن تسارع إلى الإيمان به، وقد جرّبت عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البرّ والرّحمة، وقد رآته في سنوات تحنّته كيف شغلت نفسه بالحقّ دائماً، يطلبه مرتفعاً بقلبه وبروحه وب عقله فوق أو هام هؤلاء الناس من يعبدون الأصنام ويقربون لها النحور، ويرون فيها آلهة يزعمونها تضرّ وتنفع، ويتوهمونها خليقة بالعبادة والإجلال. رآته في سنوات تحنّته ورأت كيف كان حاله أوّل عودته من حراء بعد البعث وهو في أشدّ الحيرة من أمره؛ ورأت إذ طلبت هي إليه متى جاءه الملك أن يخبرها، فلمّا رآه أجلسه على فخذه اليسرى ثمّ على فخذه اليمنى ثمّ في حجرها وهو ما يزال يراه، فتحسّرت وألقت حمارها فإذا هو لا يراه؛ فلم يبق ريب عندها في أنّه ملك وليس بشيطان^(٢٨٤).

وخرج «محمّد» من بعد ذلك يوماً للطواف بالكعبة فلقبه ورقة بن نوفل. فلمّا قصّ عليه «محمّد» أمره قال ورقة: «والذي نفسي بيده إنك لنبيّ هذه الأمّة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى. وتكذّبن، وتؤذنين، وتخرجن وتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه». ثمّ أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه. وشعر «محمّد» بصدق ورقة في قوله وبثقل ما ألقي عليه، وطفق يفكر كيف يدعو قريشاً إلى ما آمن هو به وهم أحرص ما يكونون على باطلهم، وهم في سبيله يقتلون ويقتلون. وهم أهله وعشيرته الأقربون^(٢٨٥).

فلما استكمل أربعين سنة ونظر الله عزّ وجلّ إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها وأذن لأبواب السماء ففتحت ومحمّد ينظر إليها، وأذن للملائكة فترّلوا ومحمّد ينظر إليهم، وأمر بالرحمة فأنزلت عليه من لدن ساق العرش إلى رأس محمّد وغرّته، ونظر إلى جبرئيل الروح الأمين المطوّق بالنور طاووس الملائكة هبط إليه وأخذ بضبعه وهزّه وقال: يا محمّد اقرأ، قال: وما اقرأ؟ قال يا محمّد: (اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم* الذي علّم بالقلم* علّم الإنسان ما لم يعلم).

ثمّ أوحى إليه ما أوحى إليه ربّه عزّ وجلّ ثمّ صعد إلى العلو.

ونزل محمّد (صلى الله عليه وآله) من الجبل وقد غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركبته الحمى والنافض... وقد اشتدّ عليه ما يخافه من تكذيب قريش في خبره ونسبتهم إياه إلى الجنون، وإنّه يعتريه شياطين، وكان من أوّل أمره أعقل خلق الله، وأكرم برأيه، وأبغض الأشياء إليه الشيطان وأفعال الجانين وأقوالهم، فأراد الله عزّ وجلّ أن يشرح صدره ويشجّع قلبه، فأنطق الله الجبال والصخور والمدّر، وكلّما وصل إلى شيء منها ناداه: السلام عليك يا محمّد، السلام عليك يا وليّ الله، السلام عليك يا رسول الله أبشر، فإنّ الله عزّ وجلّ قد فضلك وجعلك وزينك وأكرمك فوق الخلاق أجمعين من الأوّلين والآخرين، لا يحزنك أن تقول قريش إنك مجنون، وعن الدين مفتون، فإنّ الفاضل من فضله ربّ العالمين، والكرّم من كرمه خالق الخلق أجمعين، فلا يضيّق صدرك من تكذيب قريش وعنة العرب لك، فسوف يبلغك ربك أقصى منتهى الكرامات، ويرفعك إلى أرفع الدرجات، وسوف ينعم ويفرح أوليائك بوصيك عليّ بن أبي طالب، وسوف يبتّ علومك في العباد والبلاد بمفتاحك وباب مدينة حكمتك: عليّ بن أبي طالب، وسوف يقرّ عينك ببنتك فاطمة، وسوف يخرج منها ومن عليّ: الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنّة، وسوف ينشر في البلاد دينك وسوف يعظم أجور الحين لك ولأخيك، وسوف يضع في يدك لواء الحمد فتضعه في يد أخيك عليّ، فيكون تحتك كلّ نبيّ وصديق وشهيد، يكون قائدهم أجمعين إلى جنّات النعيم. بحار الأنوار: ٢٠٧/١ — ٢٠٨.

(٢٨٤) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٣٩/١.

(٢٨٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٣٨/١.

إنَّهم في ضلال وإنَّ ما يدعُوهم إليه هو الحقُّ، أليس يدعُوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذي خلقهم وخلق من قبل آبائهم، ليعبدوه مخلصين له الدين طاهرة نفوسهم، وليتقربوا إليه بالعمل الصالح وإيتاء ذي القربى حقَّه وابن السبيل، بدل أن يعبدوا هذه الأحجار التي اتخذوا منها أصنامهم فتجعل عبادتها نفوسهم أشدَّ منها تحجراً وقسوة، ثمَّ يزعمون أنَّها تغفر لهم ما يمعنون فيه من هو وفسوق، ومن أكل الربا ومال اليتيم! أليس يطلب إليهم أن ينظروا إلى ما في السَّمَاوَات والأَرْض من خلق الله، وأن تتمثَّل نفوسهم ذلك كله وما له من خطر وجلال. ثمَّ ترى ذلك كله من خلق الله الذي تعبدوه وحده لا شريك له فتكبر بما يخلق ثمَّ في السماوات والأرض، وتكبر بعبادتها خالق الوجود كله، وتسمو عن كلِّ وضع وتعالى عن كلِّ دون وتأخذها الرحمة بكلِّ مَنْ لم يهده الله وتعمل لهدايته، وتكون البرَّ بكلِّ يتييم وبكلِّ بئس أو ضعيف. نعم إلى هذا أمره الله أن يدعُوهم، لكنَّ هذه القلوب القاسية وهذه الأرواح الغلاظ قد ييست على عبادة ما كان يعبد آباؤها، ووجدت فيه تجارة تجعل مكَّة مركز حجيج عبدة الأصنام! أفيتركون دين آبائهم ويُعرِّضون مكانة مدينتهم إلى ما قد تتعرَّض له إذا لم يبق على عبادة الأصنام أحد؟! ثمَّ كيف تُطهَّر هذه القلوب وتُخلَّص من أدران شهواتها والشهوة تمبُّط بما إلى إرضاء بهيميتها، في حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم . وإذا هم لم يؤمنوا به فماذا عساه يفعل؟ هذه هي المسألة الكبرى!!

وانتظر هداية الوحي إياه في أمره وإنارة سبيله، فإذا الوحي يفتر (٢٨٦) وإذا جبريل لا يترل عليه، وإذا ما حوله سكينه صامته، وإذا هو في وحدة من الناس ومن نفسه، وحدة جعلته يعود إلى مثل مخاوفه قبل نزول الوحي، وإذا خديجة تقول له : ما أرى ربك إلاَّ قد قلاك (٢٨٧)، وإذا الخوف والوجل يبتعثانه من جديد يطوي الجبال وينقطع في حراء ويرتفع بكلِّ نفسه ابتغاء وجه ربِّه يسأله: لِمَ قلاه (٢٨٨) بعد أن اصطفاه؟ ولم تكن خديجة أقل منه إشفافاً ووجلاً. ويتمنى الموت صادقاً لولا أنَّه كان يشعر بما أمر به فيرجع إلى نفسه ثمَّ إلى ربِّه. وفكَّر في أن يلقي بنفسه من أعلى حراء أو أبي قبيس (٢٨٩). وأي خير في الحياة وهذا أكبر أملها فيها يدوي وينقضي. وإنَّه كذلك تساوره

(٢٨٦) فتر فتوراً: سكن عن حدِّته، ولأنَّ بعد شدِّته. العين: ١١٤/٨ .

(٢٨٧) الطبري: ٥٣٢/١ . وهل تجتمع هذه الكلمة — لو كانت قد صدرت من خديجة — مع ما مرَّ عنها من تثبيتها للنبي (صلى الله عليه وآله)

في بداية الوحي إليه؟!

(٢٨٨) قلاه: أبغضه. ومن يعتقد أن النبي (صلى الله عليه وآله) حين بُعث كان في كمال العقل والاثزان والمعرفة، برَّبِّه الرحيم الذي بعثه رحمة

للعالمين وهل يصدق بذلك؟!

(٢٨٩) تاريخ الطبري: ٥٣٥/١ . وهل هذه الصورة التي يُقدِّمها هؤلاء المؤرِّخون عن أعظم إنسان على وجه الأرض تتناسب مع ما يعتقد جميع

المسلمين من حيث عصمته وكمال (صلى الله عليه وآله) حين بعثه بالرسالة؟!

هذه المخاوف، إذ جاءه الوحي بعد طول فتوره^(٢٩٠)، وإذ نزل عليه بقوله تعالى: (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)^(٢٩١).

يا لجلال الله! آية سكية للنفس وغبطة للقلب وبهجة للفؤاد!! انجابت مخاوف محمد وزال كل روعه وطوقت ثغره ابتسامة الرضا وافترت شفتاه عن معاني الحمد وآي التقديس والعبادة، لم يبق لما كانت خديجة تقول له من أن الله قلاه ولم يبق لفزعه وهلعه موضع، بل تولاه الله وتولاهها برحمته، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه. لا انتحار إذاً ولكن حياة ودعوة إلى الله، وإلى الله وحده، إلى الله العليّ الكبير تعنو له الجباه ويسجد له من في السماوات والأرض جميعاً. هو وحده الحق وكل ما يدعون من دونه، الباطل. إليه وحده يتوجه القلب، وبه وحده يجب أن تتعلق النفس، وفيه وحده يجب أن تغنى الروح. (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى). الآخرة التي تحيط فيها النفس بكل الوجود في كمال وحدته، والتي يتلاشى فيها المكان والزمن وتنسى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى؛ الآخرة التي يصير فيها الضحى ولألاء شمس الباهر، والليل ودجاء الساجي، والسماوات والكواكب والأرض والجبال كلاً واحداً تتصل به الروح الراضية المرضية.

هذه هي الحياة التي يجب أن تكون إليها الغاية من سفر هذه الحياة! هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه لا تغني عنه! هذا هو الحق الذي أضاء بنوره روح «محمد» والذي ابتعثه من جديد ليفكر في الدعوة إلى ربه. وللدعوة إلى ربه يجب أن يطهر ثيابه، وأن يهجر المنكر، وألاّ يمين على أحد بدعوة إلى الحق، وأن ينير للناس سبل العلم بما لم يكونوا يعلمون، وألاّ ينهر من أجل ذلك سائلاً، وألاّ يقهر يتيماً. حسبه نعمة اختيار الله إياه لكلمته فليتحدث عنها. وحسبه أن الله وجده يتيماً فأواه في كفالة جدّه عبدالمطلب وعمّه أبي طالب؛ وآته وجده فقيراً فأغناه بأمانته ويسر له خديجة شريكة صباه^(٢٩٢)، شريكة تحنّته، شريكة بعثه، شريكة المحبة الناصحة الرؤوف؛ وآته وجده ضالاً فهداه برسالته، حسبه هذا وليدع الناس من غير من عليهم. ذلك أمر الله إلى نبيه الذي اصطفاه، ما ودّعه وما قلاه.

(٢٩٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤١/١. أليس من الأولى أن تكون هذه الآيات ردّاً على استهزاء وتهكم أعدائه الذين كانوا يموتون حسداً

وغيضاً وكمداً لما حياه الله به من نعمة النبوة والرسالة دونهم؟!

(٢٩١) الضحى (٩٣): ١ — ١١.

(٢٩٢) متى كانت خديجة شريكة صباه ولم تقترب به إلا وهو في ريعان الشباب وفي الخامسة والعشرين من عمره؟!

وعلم الله نبيه الصلاة فصللي وصلت خديجة معه^(٢٩٣) وكان يقيم معهما غير بناقهما علي بن أبي طالب، الذي كان صبيّاً لما يبلغ الحلم. ذلك أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة؛ وكان أبو طالب كثير العيال، فقال محمد لعمه العباس وكان من أكثر بني هاشم يساراً: «إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه». وكفل العباس جعفرًا وكفل «محمد» عليًا، فلم يزل معه حتى بعثه الله^(٢٩٤). وفيما «محمد» وخديجة يصلّيان يوماً دخل عليهما عليّ مفاجأة فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسرّ لما أوحاه الله يومئذ من القرآن، فوقف الشاب دهشاً حتى أتاهما صلاحتهما، ثمّ سأل: لمن تسجدان؟ فأجابه «محمد» أو كما قال: «إنّما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني أن أدعو الناس إليه»^(٢٩٥). ودعا «محمد» ابن عمّه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى دينه الذي بعث به نبيه، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى. وتلا «محمد» ما تيسر من القرآن، فأخذ عليّ عن نفسه وسحره جمال الآيات وإعجازها، واستمهل ابن عمّه حتى يشاور أباه^(٢٩٦). ثمّ قضى ليله مضطرباً^(٢٩٧) حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنّه اتبعهما من غير حاجة لرأي

(٢٩٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤٤/١.

(٢٩٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤٦/١، والكامل في التاريخ: ٣٧/٢، وتاريخ الطبري: ٥٣٨/١، تاريخ ابن خلدون: ٤١٠/٢.

(٢٩٥) هذا النصّ المذكور لا وجود له في المصادر التي اعتمدها الكاتب في بحثه والجواب بل وحتى في غيرها ليأتي على لسان أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وضوح عمق العلاقة مع النبي (صلى الله عليه وآله) قبل البعثة والتي تنفي المفاجأة المدّعاة في النصّ بل قد قال (عليه السلام) عن هذه المرحلة من حياته وعن عمق علاقته بابن عمّه (صلى الله عليه وآله): «ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمّه يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاعتداء به، ولقد كان يجاور في كلّ سنة بجراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رثة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله) فقلت: يا رسول الله ما هذه الرثة؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلّا أنّك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلّ خير»/ شرح نهج البلاغة للفيض: ٨٠٢ الخطبة ٢٣٤.

فإذا كانت علاقة الإمام بالنبي (صلى الله عليه وآله) بهذا المستوى فما وجه السؤال: لمن تسجدان؟ ليحييه النبي (صلى الله عليه وآله): إنّما نسجد لله...! وهل يقدّم كلامه هو حيث لم يكن معهم رابع؟ أم يقدم كلام غيره بعد افتراض أنّ بيت خديجة لم يكن فيه رابع غيرهم؟! أرايت كيف يتلاعب البعض بمحادث التاريخ؟! وعلى اللبيب أن يتساءل: لماذا كل هذا التلاعب بالتاريخ الناصع لآل البيت (عليهم السلام) بما فيهم شخص الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)؟!

(٢٩٦) السيرة الحلبية: ٢٦٩/١.

(٢٩٧) لم يضطرب الإمام عليّ (عليه السلام) ولم يتردّد في إسلامه فحياته قبل الإسلام لم تخالف حياته حين أسلم بسبب كونه عاش وتربّى تحت رعاية النبي (صلى الله عليه وآله) وإرشاداته سواء قبل البعثة أو بعدها، فلا وجه للتردّد والقلق أو الاضطراب في أن يقبل الإسلام أو لا يقبله. ومن المشهور عن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أنّه لم يكن لتدفعه المعادلات لأن يلاحظ ذاته ومستقبلها مع الجاهلية كغيره من الصحابة الذين خضعوا لبعض المؤثرات التي حالت دون الإسراع بدخولهم إلى الإسلام وتسرب القلق والاضطراب إلى نفوسهم حيث نرى أنّ البعض منهم دخل الإسلام بالسيف والبعض الآخر دخله بعد أن أمن بطش أسياده وصنف ثالث لاحظ دنياه قبل إسلامه، أما عليّ فلا تنجّه فيه تلك الدواعي فقد بزغ الإسلام في بيت أبيه وأمّه فاطمة الصحابية المعروفة التي هي أمّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي تولّت تربيته فلم يفاجأ بالإسلام وبدعوة النبي (صلى الله عليه وآله) إليه، وهو الموحد قبل أن يعلن إسلامه، فلماذا يعيش قلقاً واضطرباً؟! ولكن نجيب للكاتب وجرأته الظالمة لعلّ (عليه السلام) حيث لا يعتمد أيّ دليل يؤيد مدّعا.

أبي طالب وقال: «لقد خلقي الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله»^(٢٩٨). وكذلك كان عليّ أول رجل أسلم. ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبي^(٢٩٩). وبذلك بقي الإسلام محصوراً في بيت «محمد» فيه وفي زوجته وابن عمّه ومولاه. وظلّ هو يفكر كيف يدعو قريشاً إليه، وهو يعلم ماهي عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادات آبائهم وأصنامهم.

وكان أبو بكر بن أبي قحافة التيمي صديقاً حميماً لـ «محمد» يستريح إليه ويعرف فيه التزاهة والأمانة والصدق. لذلك كان هو أول من دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى إليه^(٣٠٠). ولم يتردد أبو بكر في إجابة «محمد» إلى دعوته وفي الإيمان بها^(٣٠١). وأي نفس مفتوحة للحق تتردد في ترك

(٢٩٨) لم يُذكر هذا الحديث في المصادر المعتبرة، وهل يتبع عليّ محمداً أم محمداً وخديجة؟! بينما النبي (صلى الله عليه وآله) هو محمد دون خديجة.

(٢٩٩) إنّ أول من أسلم وأتبع وصدق وآزر هو الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، صرح بذلك كبار الصحابة والتابعين وغيرهم من الأعلام، ومن جملة ما ورد عنه (صلى الله عليه وآله)، بسند صحيح قوله: «أولكم وروداً عليّ الخوض أولكم إسلاماً عليّ بن أبي طالب». وعنه (صلى الله عليه وآله): «إنّه لأوّل أصحابي إسلاماً، أقدم أمتي سلماً». وعنه (صلى الله عليه وآله) حيث أخذ بيد عليّ (عليه السلام) فقال: «هذا أول من آمن بي، من يضافني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر وهذا فاروق هذه الأمة يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الظالمين». تجد هذه الروايات وغيرها في عشرات الكتب الحديثية والتفسيرية والتاريخية بألفاظ متقاربة تتحدث عن نفس المضمون. راجع السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤٥/١ — ٢٤٦ ، مجمع الزوائد: ١٠١/٩ ، وشرح النهج: ٢٨٣/١ و ٤٠٤ و ٥٠٣ و ١٠٢/٩ ، وفرادئ السمطين : ٣٩/١ ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم: ص ١٠٠ ، ١٣٢ ، ٣٥٥ ، و ٣٦٠ ، وجمهرة الخطب: ١٧٨/١ و ٥٤٢ ، وجمهرة الرسائل: ٥٤٢/١ ، ومروج الذهب: ٥٩/٢ ، وتذكرة سبط ابن الجوزي: ١١٥ ، ومطالب السؤل: ١١ ، والخاصن والمساوي: ٣٦/١ ، وتاريخ القرمانى هامش الكامل: ٢١٨/١ ، ومسند أحمد: ٢٦/٥ ، والاستيعاب: ٣٦/٣ ، ومستدرک الحاكم: ٣ ، وتاريخ بغداد للخطيب: ٢٢٤/٤ ، وبحار الأنوار: ٢/١٦ ، وإعلام الوری: ١٠٢/١ .

(٣٠٠) وهذا يتناقض مع ما ذكره المؤلف قبل أسطر في الصفحة السابقة من أن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) هو أول من أسلم ممن يشير الى أنّه أول من أفضى إليه بما أوحى إليه.

(٣٠١) ذكر المؤلف في الصفحة السابقة (وتلا «محمد» ما تيسر من القرآن، فأخذ عليّ على نفسه وسحره وجمال الآيات واعجازها، واستمهل ابن عمّه حتى يشاور أباه، ثمّ قضى ليله مضطرباً). وهذا قد اعترف بسبق دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي ومن هنا يكون ثالث من أسلم. بينما تنفي بعض المصادر ذلك، انظر للتفصيل (الصحيح من سيرة النبي الأعظم وموسوعة التاريخ الإسلامي) فيما يخصّ إسلام أبي بكر. معاذ الله أن يكون منهجنا هو التقصي لعيوب الصحابة والمنقصة منهم، بقدر ما نريد أن نقول إنّ الكاتب أسقط ذوقه على التاريخ، فإذا أراد أن يُملي بعض الفراغات في التاريخ بواسطة بعض القرائن ليقول إنّ فلاناً من الصحابة كان شجاعاً وذاك كان متردداً مضطرباً عبر استفادته من سيرة الصحابي السابقة وتجاربته الحياتية، فنقول: إنّ سيرة الإمام عليّ وتاريخه السابق يخالف سيرة أبي بكر قبل الإسلام، فمواقف عليّ قبل البعثة كانت مع رسول الله منذ نعومة أظفاره فهو موحد قبل أن يسلم ولم يسجد لصنم قطّ وهو وليد الكعبة وبهذا تميّز عن غيره ولا محلّ للمشاراة التي يقوها الكاتب فأبو طالب كان يحث أولاده على اللحاق بالنبي (صلى الله عليه وآله) فأمر الدعوة لم يكن غريباً على عليّ وعلى أبي طالب معاً.

أمّا حياة أبي بكر قبل الإسلام فكانت مشوبة بالشرك الظاهر كما هو ثابت، فلماذا يقال إنّ هذا التردد قد أصاب عليّاً ولم يصب أبابكر؟ وأمّا إذا كان استناد الكاتب وجرمه بالتردد والاضطراب لعليّ وعدمه لأبي بكر في التاريخ اللاحق لهما مع الآية كقرينة لهذا الاستنتاج، فنقول: إنّ مواقف عليّ مع رسول الله لم يتخللها التردد لا في بدر ولا في أحد ولا في خيبر ولا غيرها بخلاف مواقف أبي بكر فيها .

عبادة الأوثان لعبادة الله وحده! وأي نفس فيها شيء من السموّ ترضى عن عبادة الله عبادة حَجَر
 آيًّا كانت صورته! وأي نفس تتردّد في طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبرّ باليتيم!
 وأذاع أبوبكر بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله. وكان أبو بكر رجلاً وسماً «مألفاً مُحَبِّباً سهلاً»
 وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما وبما كان فيها من خير وشرّ وكان رجلاً تاجراً ذا
 خلق ومعروف، وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن
 مجالسته^(٣٠٢). وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فتابعه على الإسلام
 عثمان بن عفّان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوّام.
 ثمّ أسلم من بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكّة. وكان أحدهم إذا أسلم
 ذهب إلى النبيّ فأعلن إليه إسلامه وتلقّى عنه تعاليمه^(٣٠٣). وكان المسلمون الأوّلون يستخفّون
 لعلمهم بما تُضمّر قريش من عداوة لكلّ خارج على أوثانها. فكانوا إذا أرادوا الصّلاة انطلقوا إلى
 شعاب مكّة
 وصلّوا فيها. وظلّوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشاراً
 بين أهل مكّة ونزل على «محمّد» فيها من الوحي مازاد المسلمين إيماناً وتشبّثاً^(٣٠٤). وكان مثله^(٣٠٥)

لقد روى الحاكم بسنده عن أبي ليلي عن عليّ (عليه السلام) أنّه قال: يا أبا ليلي أما كنت معنا بخير؟ قال: بلى والله كنت معكم فإنّ رسول
 الله (صلى الله عليه وآله) بعث أبا بكر إلى خير فسار بالناس وانهمز ورجع. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد انظر: المستدرک على الصحيحين
 ٣٧/٣.

وزاد المتقي الهندي في كتر العمّال: (وبعث عمر فانهمز بالناس حتّى انتهى إليه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لأعطينّ الراية غداً رجلاً
 يحبّ الله ورسوله يفتح الله له ليس بقوّار). كفى بهذه الكلمة تعريضاً لغير عليّ (عليه السلام).
 وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد بن حنبل، وابن ماجة، والبخاري، وابن جرير وصححه، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في
 الدلائل، وألف باء المقدسي: كتر العمّال ٣٩٤/٦ طبعة حيدر آباد — الهند.
 وعن رجوعه يوم أحد أيضاً روى المتقي الهندي عن عائشة أنّها قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد بكى إلى أن قالت: (ثمّ أنشأ — تعني
 أبا بكر — يحدث قال: كنت أوّل من فاء يوم أحد)، كتر العمال: ٢٨٤/٥ ط. الهند، وتاريخ الأمم والملوك للطبري: ٣٠٠/٢، والرياض
 النضرة: ١٨٧/٢ ط ١.

والفيء الرجوع ولا رجوع إلّا بفرار وحكم الفرار معروف عند الفريقين.
 وأخيراً وهو المهم في المسألة: من أين استفاد الكاتب هذا التردّد الذي أصاب عليّاً وعدم إصابة التردّد لأبي بكر؟ أهو من التاريخ أم من
 اجتهادات الكاتب؟! وهذا أحد الأسباب التي تدعو إلى التريث فيما تنقله كتب التاريخ، وما يقدّمه المؤرخون من تحليل يتناسب مع ثقافتهم
 الموروثة وعقليّتهم التي صنعتها الإسرائيليات، أو الروايات التي وردت في كتب التاريخ. انظر كتابي: (خمسون ومئة صحابي مختلف)
 و(الأسطورة السبائية) للباحث الحقّق السيد مرتضى العسكري و(الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم) للسيد جعفر مرتضى العاملي لتعرف عمق
 المسألة هذه.

(٣٠٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ١ / ٢٤٩ — ٢٥٢ .

(٣٠٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ١ / ٢٥٠ — ٢٦١ .

(٣٠٤) السيرة النبويّة لابن هشام: ١ / ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٣٠٥) الضمير في كلمة (مثله) عائد للنبي (صلى الله عليه وآله) .

هو خير ما يزيد الدعوة انتشاراً . كان برّاً رحيماً جمّ التواضع كامل الرجولية عذب الحديث محباً للعدل يعطي كلّ ذي حقّ حقّه، وينظر إلى الضعيف واليتيم وإلى البائس والمسكين نظرة كلّها الأبوة والحنان والعطف والمودة. وكان في قهجده وسهره اللّيل وترتيله ما أنزل عليه ودوام نظره في السماوات والأرض والتماس العبرة من الوجود كلّه وكلّ ما فيه، وفي توجهه الدائم لله وحده والتماسه حياة الكون كلّه في أطواء نفسه ودخيلة حياته، مثلاً جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشدّ يقيناً بإيمانهم ، على ما في ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرّضهم لأذى المشركين ثمّ لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم. آمن به — «محمد» من تجار مكة وأشرفها من عرفت نفوسهم الطهر والتزاهة والمغفرة والرحمة، وآمن به كلّ ضعيف وكلّ بائس وكلّ محروم. وانتشر أمر «محمد» بمكة، ودخل الناس في الإسلام أرسالاً رجالاً ونساءً.

وتحدّث الناس عن «محمد» وعن دعوته. على أنّ أهل مكة من قساة الأكباد ومن على قلوبهم أقفالها لم يعبّؤوا به أوّل أمره، وظنّوا أنّ حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء، أمثال قس وأمّية وورقة وغيرهم، وأنّ الناس عائدون لا محالة إلى دين آباؤهم وأجدادهم. وأنّ هبل واللات والعزى وإساف ونائلة اللذين كان يُنحر عندهما ستكون آخر الأمر صاحبة الغلب، ناسين أنّ الإيمان الصادق لا يغلبه غالب، وأنّ الحقّ قد كُتب له الفوز أبداً.

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفي من أمره وأن يصدع بما جاءه منه، ونزل الوحي^(٣٠٦): (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣٠٧) ؛ (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)^(٣٠٨) (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)^(٣٠٩).

ودعا «محمد» عشيرته إلى طعام في بيته وحاول أن يحدثهم داعياً إليهم إلى الله، فقطع عمّه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا. ودعاهم «محمد» في الغداة كرهة أخرى؛ فلما طعموا قال لهم: ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربّي أن أدعوكم إليه. فأياكم يؤازرني على هذا الأمر وأن يكون أخي ووصيّ وخليفتي فيكم؟ فأعرضوا عنه وهموا بتركه. لكنّ عليّاً نهض وما يزال صبيّاً دون الحلم وقال: «أنا يا رسول الله

(٣٠٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤٩/١ — ٢٥٠، مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٤٣/١.

(٣٠٧) الشعراء (٢٦): ٢١٤ — ٢١٥.

(٣٠٨) الحجر (١٥): ٨٩.

(٣٠٩) الحجر (١٥): ٩٤. وانظر المناقشة في مواقع نزول الآيات في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٤٠١/١ فما بعدها.

عونك، أنا حرب على من حاربت». فابتسم بنوهاشم وقهقهه بعضهم، وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه، ثم انصرفوا مستهزئين^(٣١٠).

(٣١٠) يبدو أن الأستاذ هيكل في نقله لحديث الإنذار الشهير وخطاب النبي (صلى الله عليه وآله) لعشيرته الأقربين بقوله: «فأيكم يؤازري على هذا الأمر وأن يكون أخي ووصي وخليفة فيكم» قد اعتمد المصادر المعتبرة التالية:

تاريخ الطبري: ٥٤٢/١ — ٥٤٣، وتاريخ ابن الأثير: ٦٢/٢، والسيرة الحلبية: ٣١١/١، وشواهد التنزيل للحسكاني: ٣٧١/١، وكثر العمال: ١٥/١٥، وتاريخ ابن عساکر: ٨٥/١، وتفسير الخازن لعلاء الدين الشافعي: ٣٧١/٣، وشرح النهج: ٢١٢/٣، وذكر ذلك العلامة الشيخ علاء الدين بن محمد البغدادي الشهير بالخازن في تفسيره: ١٠٥/٥، والحافظ البغوي في معالم التنزيل: ١٠٥/٥، والعلامة الشيخ عبيدالله الحنفي الأمر تسري في أرجح المطالب: ٤٣٠ ط لاهور، والعلامة النقشبندی في مناقب العشرة: ١٥ مخطوط، والنسائي في الخصائص: ١٨ ط مصر، والعلامة الشيخ محمد يوسف الحنفي في حياة الصحابة: ٨١/١ ط حيدر آباد.

وإلى هذا الحد كان الأستاذ أميناً ودقيقاً في نقله العبارة من المصادر المذكورة أعلاه أو كان متطابقاً معها. لكن الذي نأسف له هو الحذف الذي طرأ على الطباعات الأخرى للكتاب التي لحقت طبعته الأولى التي تجدها محققة بين يديك، والحذف منها قول النبي (صلى الله عليه وآله): «وصي وخليفة فيكم» ومعرفة سبب الحذف ليس فيه مزيد من العناية بعد ربط المسألة بقضية الخلافة وما تحمله تلك الكلمة من دلالة وأبعاد، ولهذا لعبت السياسة في السابق أدواراً في قلب الحقائق ومارست صيغ وأساليب متعددة لأغراض تتقاطع مع الإرادة الإلهية وما جاءت به الرسالة وتأتي اليوم لتمارس نفس الأسلوب، فالأستاذ هيكل الذي طالما أكد الموضوعية في نقل الحقائق وألزم نفسه فيها بنجده في هذه المرة قد مارس أسلوب وعاط السلاطين.

لكن الإمام علي بن أبي طالب ليس بحاجة إلى شهادة هيكل وأمثاله بعد أن شهد له القرآن وصاحب الرسالة بأنه الخليفة المنصوص عليه. راجع كتاب المراجعات للسيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، ستجد فيه الأدلة الكافية لاثبات هذه المسألة. وكذا نهج الحق، ومنهاج الكرامة للعلامة الحلبي والغدير للأميني، ومختصر تاريخ أبي الفداء: ١٤/١ ط . دار الفكر بيروت، ومسند أحمد: ١١١/١ و ١٥٩، وكفاية الطالب: ٢٠٥ عن الثعلبي، ومنهاج السنة: ٨٠/٤، وفرائد السمطين: ٨٦/١، وإثبات الوصية للسعودي: ١١٥ — ١١٦، وانباء نجباء الأبناء: ٤٦ — ٤٧، وشرح الخفاجي: ٣٧/٣، والدر المنثور: ٩٧/٥، ومجمع الفوائد: ٣٠٢/١، ونبائع المودة: ١٠٥، وغاية المرام: ٣٢٠، وابن بطريق في العمدة وتفسير الثعالبي، وتفسير الطبري: ٧٥/١٩، والبداية والنهاية: ٤٠/٣، وتفسير ابن كثير: ٣٥٠/٣ — ٣٥١.

ولا يفوتنا أن نذكر ما قاله الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه الشيعة في الميزان: ص ١٧ و ١٨ جمعاً بين المتن والهامش حيث يقول:

«ونقل الشيخ محمد حسن المظفر في كتاب دلائل الصدق: ٢٣٣/٢ عن كتاب كثر العمال: ٣٩٧/٦ أن النبي قال لعشيرته: قد جئكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأأيكم يؤازري على أمري هذا؟ قال علي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ النبي برقبته، وقال: إن هذا أخي، ووصي، وخليفة فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لولدك علي».

وذكر هذا الحديث محمد حسين هيكل في كتاب «حياة محمد» الطبعة الأولى، ثم حذفه في الثانية لقاء (٥٠٠٠) حنيه، ودليلنا المقابلة بين الطبعتين. انظر التعليق ص ١١٤ من «أعيان الشيعة» ج ١ قسم ١ طبعة ١٩٦٠. انتهى كلام الشيخ مغنية وفيما يلي نذكر ما قاله السيد الأمين في كتابه أعيان الشيعة: ٣٣١/١ و ٣٣٢ جمعاً بين المتن والهامش.

ورواه الطبري في تفسيره مثله سنداً ومتناً (حديث الدار) إلا أن الطابعين — جرياً على الشنينة

الأخزمية — حذّوه فأبدلوا قوله: على أن يكون أخي ووصي وخليفة فيكم بلفظ: على أن يكون أخي وكذا وكذا وأبدلوا قوله: إن هذا أخي ووصي وخليفة فيكم بلفظ: إن هذا أخي وكذا وكذا وأبقوا قوله: فاسمعوا له وأطيعوا وفيه كفاية . وما حذفوه وأبدلوه هو إشارة إلى ما صرح به في التاريخ يقيناً لاتحاد السند والمتن فيهما إلا في كلمتي (كذا وكذا). وعلمت أن الدكتور محمد حسين هيكل المصري أثبت في كتابه حياة محمد في الطبعة الأولى وحذفه في الطبعة الثانية نزولاً عند إرادة من ضغط عليه فانظر واعجب(*)).

ولما كان تصحيح هذا الحديث من الأهمية بمكان فلا بأس بالإشارة إلى جملة ممن رواه من أحناء علماء المسلمين ليعلم بذلك اشتهاؤه واستفاضته بينهم فرواه من مشاهير علماء أهل السنة محمد بن جرير الطبري في تاريخه وتفسيره كما سمعت ورواه منهم البغوي كما ستسمع (**).

ورواه منهم الثعلبي في تفسيره، قال: أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين حدثنا موسى بن محمد حدثنا الحسن بن علي بن شعيب العمري حدثنا عبد الله بن يعقوب حدثنا علي بن هاشم عن صباح بن يحيى المزني عن زكريا بن ميسرة عن أبي إسحاق عن البراء قال: لما نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بني عبدالمطلب وهم أربعون رجلاً فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال اشربوا باسم الله فشربوا حتى رروا فبدرهم أبولهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل فسكت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم فقال: يا بني عبدالمطلب إني أنا النذير إليكم من الله عز وجل والبشر فاسلموا وأطيعوني فهدوا ثم قال من يؤاخيني ويؤازري ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني فسكت القوم فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي (عليه السلام): أنا، فقال في المرة الثالثة، أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطلع ابنك فقد أمر عليك... الخ.

والطبري في تاريخه: فقد جاء في آخره قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «يا بني عبدالمطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به، جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازري على أمري هذا؟ فقال علي — وكان أحدثهم سناً: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ رسول الله يرقبته وقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لأبنك وتطيع. هذا ما ذكره الطبري ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢١ ط. المعارف بمصر. والتي يتبين فيها زيف الرواية التي جاءت في تفسير الطبري ج ١٩ ص ١٢١ ط ٢ مصطفى الحلبي والتي حرّفت آخر الحديث فحذف قول النبي (صلى الله عليه وآله): «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم» وذكر بدله: «أن هذا أخي وكذا وكذا» ولزيد من المصادر التي ذكرت الحديث يمكنك مراجعة: شرح ابن أبي الحديد: ١٣، ٢١٠، ٢٤٤ ط. مصر محمد أبوالفضل، ومسند أحمد بن حنبل: ٤١/٥ و ٤٢ ط الميمنية بمصر، وشواهد التنزيل للحسكاني: ٣٧١/١ ص ٤٢٠ ح ٥١٤ و ٥٨٠ ط. بيروت، وأرسله ابن الأثير ارسال المسلمات في الكامل: ٦١٦/٢. ونقله الإمام أبو جعفر الإسكافي المعتزلي في كتابه (نقض العنمانية) مصرحاً بصحته كما في ص ٢٦٣ من المجلد ٣ من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد آخر الخطبة الصاعقة، وفي مسند أحمد: ١١١/١ ح ٨٨ بسند حسن و ١٥٩/١ ح ١٣٧٥ بسند صحيح ط. دار المعارف بمصر.

وجاء الحديث بألفاظ أخرى زيادة على الحديث، حيث كان الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول: «والله إني لأخوه ووليه ووارث علمه فمن أحقّ به مني» أخرجه الحاكم في صفحة ١٢٦ من الجزء ٣ من المستدرك بالسند الصحيح على شرط البخاري ومسلم. واعترف الذهبي في تلخيصه بذلك، وفي خصائص أمير المؤمنين للنسائي الشافعي ص ١٨ ط. مصر وص ٨٦ ط. الحيدرية. وص ٢٩ ط بيروت، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ٩٧، وجمع الزوائد للهيثمي الشافعي: ١٣٤/٩ وصححه في ذخائر العقبى للمحب الطبري الشافعي ص ١٠٠، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٢٨/١٣ ط. مصر بتحقيق محمد أبوالفضل، والحديث ثابت ومستفيض أخرجه ضياء المقدسي في المختارة وابن جرير في تهذيب الآثار وهو الحديث ٦١٥٥ في صفحة ٤٠٨ من الجزء ٦ من كثر العمال، وأخرجه النسائي في ص ١٨ في الخصائص العلوية، ونقله في شرح الخطبة القاصعة ص ٢٥٥ من المجلد ٣ من شرح النهج. ولكن رغم نقل الحديث في المصادر المعتمدة عند أهل السنة والتي ذكرناها يبقى المعاندون وأصحاب الأغراض والنفوس المريضة لا يريدون سماع الحقيقة لأنها تنسف عقائدهم المتدعة التي نسجوها من خيالهم.

(*) نشر الدكتور كتابه أول ما نشره فصولاً في جريدته السياسية الأسبوعية ونشر هذا الحديث كاملاً كما هو. ولما اعترض عليه معترض أحاب: بأنني لست أنا الذي أقول هذا القول ولكنه التاريخ. ثم ذكر الحديث في الطبعة الأولى من الكتاب، ولكن شوّهه وأفسده في الطبعة الثانية وما جاء بعدها من طبعات. ولما بحث الباحثون عن السبب عُرف أنّ الدكتور هيكّل طلب من جهة من الجهات أن تساهم بشراء ألف نسخة من كتابه فأبت أن تفعل إلا إذا شوّه الحديث فزل عند رغبتها وبتره وأفسده.

(**) انظر الفارق بين الشكلين رقم (١) ورقم (٢) في ص ١٩٦ و ١٩٧.

شكل رقم (١) الطبعة الأولى

شكل رقم (٢) الطبعة الثالثة

انتقل «محمد» بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً. صعد يوماً على الصفا ونادى: يا معشر قريش . قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألون ما له؟! قال: رأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقوني؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متّهم وما جربنا عليك كذباً قطّ. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبدمناف، يا بني زهرة، يا بني تيم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله . أو كما قال. فنهض أبوهب — وكان رجلاً بديناً سريع الغضب — فصاح: تبا لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا!»^(٣١١).

وأرتج على «محمد» فنظر إلى عمّه، ثم ما لبث أن جاءه الوحي بقوله تعالى^(٣١٢): (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ)^(٣١٣).

لم يحل غضب أبي لهب ولا خصومة أبي سفيان دون انتشار الدعوة إلى الإسلام بين أهل مكة. فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضهم لله وجهه. وكان الزاهدون في الدنيا أشدّ على الإسلام إقبالا. أولئك لا تلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعي إليه. وهم قد رأوا «محمدًا» في غنى بمال خديجة وماله، وهاهو ذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال والمزيد عليه والاكتثار منه، ويدعو إلى الحب والعطف والمودة والتسامح. بل هاهو ذا يجيئه الوحي بأن في الإكثار من الثروة لعنة للروح. أليس يقول: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ)^(٣١٤). وأي شيء خير مما يدعو إليه «محمد!» أليس هو يدعو إلى الحرية، إلى الحرية المطلقة التي لا حدود لها؟! إلى الحرية العزيزة على نفس العربي إعزازه حياته! نعم، أليس يطلق الناس من التقيد بأية عبادة غير عبادة الله وحده! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال، لا هبل ولا اللات ولا العزى، ولا نار الجوس، ولا شمس المصريين ولا نجوم عبّاد النجوم، ولا الحواريون، ولا أحد من الإنس أو من الملائكة أو من الجان يحجب بين الله والإنسان. وأما الله، أمامه وحده لا شريك له، يسأل الإنسان عما قدم من خير أو شرّ. وأعمال الإنسان هي

(٣١١) تاريخ الطبري: ٥٤٢/١، والكامل في التاريخ: ٤١/٢ — ٤٢، وبحار الأنوار: ١٦٣/١٨ — ١٦٤ وتفسير مجمع البيان: ٣٥٧/٧ .

(٣١٢) الطبقات الكبرى: ٢٠٠/١، والوفا: ١٨٣، والسيرة النبوية لابن كثير: ٤٥٦/١ وتفسير مجمع البيان: ٣٥٧/٧ وج ١٠ / ٤٧٥ .

(٣١٣) المسد (١١١): ١ — ٣ .

(٣١٤) التكاثر (١٠٢): ١ — ٨. بل الراجح نزولها في تفاخر بني عبدمناف وبني سهم بأموالهم، انظر التبيان: ٤٠٢/١، مجمع البيان: ٨١/١٠ عن

الكلبي ومقاتل.

وحدها شفيعة^(٣١٥). وضميره هو الذي يزن أعماله، وهو وحده صاحب السلطان عليه ليتقدم يوم تُجزى كل نفس بما كسبت. آية حرية أوسع مدى من هذه الحرية التي يدعو «محمد» إليها؟! وهل يدعو أبولهب أو أبوسفيان إلى شيء من مثلها؟! أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم في رقّ وعبودية بما تكدّس عليها من خرافات حجبت عنها نور الحقّ وضياء الهدى !

على أنّ أبا لهب وأبا سفيان وأشراف قريش وأمجادها ، أشراف المال وأمجاد اللهو، بدؤوا يشعرون بما في دعوة «محمد» من خطر على مكانتهم ، فأروا بادية الرأي أن يحاربوه بالخطّ من شأنه وبتكذيبه فيما يزعم من نبوته، وكان أوّل ما صنعوا من هذا أن أغروا به شعراءهم أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبدالله بن الزبيري ، يهجونه ويقارعونه^(٣١٦). وتولّت طائفة من شعراء المسلمين الردّ على هؤلاء من غير أن يكون بـ «محمد» حاجة لمناقشتهم^(٣١٧). هنالك تقدم غير الشعراء يسألون «محمدًا» عن معجزاته التي يثبت بها رسالته، معجزات كمعجزات «موسى» و«عيسى». فما باله لا يحيل الصفا والمروة ذهباً، ولا يتزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطاً من السماء! ولم لا يبدو لهم جبريل الذي يطول حديث «محمد» عنه ! ولم لا يحيي الموتى ولا يُسيّر الجبال حتى لا تظلّ مكة حبيسة بينها! ولم لا يفجر ينبوعاً أعذب من زمزم ماءً وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء! ولم يقف أمر المشركين عند التهكم بالمسألة في هذه المعجزات، بل كانوا يزدادون تهكماً ويسألونه: لم لا يُوحى إليه ربّه أثمان السلع حتى يضاربون على المستقبل. وطال بهم اللّجاج، فردّ الوحي لجاههم بما أنزل على «محمد» من قوله تعالى^(٣١٨): (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ)^(٣١٩).

نعم، ما «محمد» إلّا نذير. وفيهم يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلّا ما يقبله العقل، بل ما يُمليه ويحتّمه! . وفيهم يطلبون إليه ما تأنف منه النفس الفاضلة، وهو لا يطالبهم إلّا أن يستجيبوا لوحي النفس الفاضلة! وفيهم يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذي يوحى إليه،

(٣١٥) كان المسلمون يتشفعون بالنبي(صلى الله عليه وآله) تقرّباً لله سبحانه، راجع التوسل ضمن سلسلة في رحاب أهل البيت، المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) .

(٣١٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٨٩/١ — ٢٩١، وإعلام الوري: ١١٠/١ .

(٣١٧) بل كان ذلك في المدينة بعد الهجرة لا قبلها.

(٣١٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٠١/١ — ٣١٢، والسيرة النبويّة لابن كثير: ٤٧٧/١ — ٤٨٣.

(٣١٩) الأعراف (٧): ١٨٨ .

والذي يهدي إلى الحق، معجزة المعجزات! وما هم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليرتدّوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه؟ وهذه التي يزعمونها آلهتهم ليست إلا حجارة أو خشباً مُسندة أو أنصاباً قائمة في عرض الفلاة لا تملك لنفسها أو لهم نفعاً ولا ضرراً، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا إليها ما يثبت ألوهيتها؟! ولو أنّهم طلبوه لظلت خشباً أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها، لا تستطيع لنفسها ضرراً ولا نفعاً، ولا تستطيع إذا حطّمها محطّم عن نفسها دفْعاً. وبأداهم «محمد» بذكر آلهتهم وكان من قبل لا يذكرها، وعابها وكان من قبل لا يعيها؛ فعظم ذلك على قريش وحزّ في صدورهم؛ وبدؤوا التفكير الجدّ في أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه. لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون من قوله، وكانوا إذا جلسوا في دار الندوة أو حول الكعبة وأصنامها فجرى ذكره على لسانهم لم يشر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم. أمّا وقد حقّر من شأن آلهتهم وسخر بما يعبدون وما كان يعبد آبائهم، ونال من هُبل ومن اللات والعزّى ومن الأصنام جميعاً، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية، بل أصبح موضع جدّ وتدبير. أولو أُتيح لهذا الرجل أن يؤلّب عليهم أهل مكّة وأن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تقول إليه تجارة مكّة؟ وماذا يكون مقامها الديني؟

ولم يكن عمّه أبوطالب قد دخل في دين الله^(٣٢٠)، لكنّه ظلّ حامياً لابن أخيه قائماً دونه، معلناً استعدادة للدفاع عنه. لذلك مشى رجال من أشراف قريش عند أبي طالب وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: «يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضللّ آبائنا، فإمّا أن تكفّه عنا وإمّا أن تخلي بيننا وبينه، فإنّك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه»، فردّهم أبوطالب ردّاً جميلاً^(٣٢١). ومضى «محمد» يشتدّ في الدعوة إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعواناً. واثمرت قريش بـ «محمد» ومشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أهد فتى في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتّخذه ولداً ويسلمهم «محمدًا» فأبى^(٣٢٢). ومضى «محمد» في دعوته ومضت قريش في ائتمارها، ثمّ ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة وقالوا له: «يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك

(٣٢٠) كتب الحديث والتاريخ تنقل لنا جهاد أبي طالب وحمائه للنبي وكفالاته له وما عاناه في سبيل نصرته الرسالة حتّى آخر حياته وإن لم يتظاهر

بإسلامه؛ ممّا يؤكد إسلامه وبطلان إصرار خصوم عليّ (عليه السلام) من أنّ أباه قد مات كافراً رغم وجود أدلة كافية تثبت للباحث أنّه كان

من السابقين إلى الإيمان بدين محمد (صلى الله عليه وآله). وسيأتي التفصيل في هذه المسألة في هوامش الفصل الثامن .

(٣٢١) سيرة ابن هشام: ٢٦٥/١، سيرة ابن كثير: ٤٧٣/١، والوفا: ١٩١، والسيرة الحلبية: ٢٨٦/١ .

(٣٢٢) سيرة ابن هشام: ٢٦٦/١، سيرة ابن كثير: ٤٧٥/١، السيرة الحلبية: ٢٨٧/١ .

فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين». وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه. ماذا تراه يصنع؟ بعث إلى «محمد» فقصّ عليه رسالة قُريش، ثمّ قال له: «فأبقِ عليّ وعلى نفسك و لا تحمّلي من الأمر ما لا أُطيق» (٣٢٣).

وأطرق «محمد» إطرقةً وقف إزاءها تاريخ الوجود كلّ برهة باهتاً لا يدري أيّان يكون اتجاهه. في الكلمة التي تفتّر عنها شفتنا هذا الرجل حكم على العالم أهو يظل في الضلال يمدّ له فيه، فتطغى الجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية وباطلها رأسها الخرف الآفن؛ أم هو يضيء أمامه نور الحقّ، وتعلن فيه كلمة التوحيد، وتحرر فيه العقول من رقّ العبودية والقلوب من أسر الأوهام، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى. وهذا عمّه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فهو خاذله ومُسلّمه. وهؤلاء المسلمون مايزالون ضعافاً لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قُريش ذات السلطان والمال والعدّة والعدد. إذاً لم يبق له دون الحقّ الذي ينادي الناس باسمه نصير. ولم يبق له سوى إيمانه بالحقّ عدّة. ليكن!! إنّ الآخرة خير له من الأولى. وليؤد رسالته وليدع إلى ما أمر ربّه. ولخير له أن يموت مؤمناً بالحقّ الذي أوحى إليه على أن يخذله أو يتردّد فيه. لذلك إلثفت إلى عمّه مُمتلئ النفس بقوة إرادته وقال له: «يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» (٣٢٤).

يا لعظمة الحقّ وجلال الإيمان به ! اهتزّ الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف هو أيضاً باهتاً أمام هذه القوة القدسية والإرادة السامية فوق الحياة وكلّ ما في الحياة. وقام «محمد» وقد

(٣٢٣) لما أدرك أبوطالب إصرار قُريش حين التقاهم لم يضعف عن نصرته، فقد نصره بكلّ ما يملك من جاه وقُدرة وعدد وعدّة، ولكنّه أراد أن تطلّع قُريش على عزم الرسول واصراره في طريقه الذي يدعمه فيه الوحي ولعلّه أراد أن يطلع ابن أخيه على تفانيه في طريقه ورسالته ولهذا نرى عمّه يرافقه ويتبنّى موقفه حيث قال له: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. وحينما شعر بأنّ قريشاً تريد قتل النبيّ أو ظنّ هو ذلك منهم قال لهم: والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى تتفان نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدّهم انكساراً أبوجهل. الطبقات لابن سعد: ٢٠٢/١.

وصمّ أبوطالب مع ابن أخيه على مواجهة قرارات المقاطعة التي نفذها قُريش وكان لأبي طالب دوره الرسالي البارز مع النبيّ أثناء الحصار في شُعب أبي طالب.

وفي آخر لحظات عمره الشريف يلتفت إلى المحيطين به قبل أن يرحل إلى ربّه فيوصيهم بالنبيّ (صلى الله عليه وآله) قائلاً: «أوصيكم بمحمد خيراً فإنّه الأمين في قُريش والصادق في العرب لكلّ ما أوصيكم به... والله لا يملك أحد سبيله إلّا رشد ولا يهتدي بهدي إلاّ سعد ولو كان في العمر بقية لكففت عنه الهزائر، ورفعت عنه الدواهي. إنّ محمداً هو الصادق فأجيبوا دعوته، وأقيموا على نصرته فإنّه الشرف الباقي لكم على الدهر». وتكفي هذه التصريحات للكشف عن إيمانه بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله) وانظر السيرة الحلبية: ٣٥١/١ — ٣٥٢ باب ذكر وفاة عمّه أبي طالب وزوجته خديجة. راجع للتوسّع: سيّد البطحاء أبوطالب: ٥٢ — ٥٩ ط. المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) .

(٣٢٤) موسوعة التاريخ الإسلامي : ٥٠٢/١ و ٥٢٠ .

خنقته العبرة لما فاجأه به عمه وإن لم تدر بنفسه خلجة ريب في السبيل الذي يسلك. ولم تك إلا لحظة اهتز فيها وجود أبي طالب متحيراً بين غضبة قومه وموقف ابن أخيه حتى نادى «محمداً»: أن أقبل. فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(٣٢٥).

وأفضى أبو طالب إلى بني هاشم وبني المطلب بقول ابن أخيه وموقفه، وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد، وجلال ما شعر به، وطلب إليهم أن يمنعوا «محمداً» من قُريش؛ فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فإنه صارحهم العداوة وانضم إلى خصومهم عليهم^(٣٢٦). وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بالعصبية القومية وبالخصومة القديمة بين بني هاشم وبني أمية. لكننا نعتقد أن العصبية لم تكن وحدها التي حفزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قُريش كلها في أمر له من جلال الخطر ما للدعوة إلى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم. واعتقادنا أن موقف «محمداً» منهم وشدة إيمانه برأيه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد، وما كان شائعاً يومئذ بين قبائل العرب جميعاً من أن الله ديناً غير دينهم الذي هم عليه، جعلهم يرون حقاً لابن أخيه «محمداً» أن يعالين الناس برأيه كما كان يفعل أمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل وغيرهما، فإن يكن «محمداً» على الحق — وذلك ما لا ثقة لهم به — فسيظهر الحق من بعد وسيكون لهم من مجده نصيب، وإلا يكن على الحق فسينصرف الناس عنه، كما انصرفوا من قبل عن غيره، ثم لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يسلموه لخصومه كي يقتلوه.

اعتصم «محمداً» بقومه من أذى قُريش، كما اعتصم في داره بخديجة من هم نفسه. فقد كانت له — بصدق إيمانها وعظيم حبها — وزير صدق تسري عنه كل هم وتقوي فيه كل عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم في مناوئته وإيصال الأذى لأتباعه. والحق أن قريشاً لم تنم ولم تعد لما عرفت من قبل من دعة النعيم، بل وثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، حتى ألقى أحدهم عبده الحبشي بلالاً على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت، لغير شيء إلا أنه أصر على الإسلام. ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر كلمة: «أحد. أحد» محتملاً هذا العذاب في سبيل دينه^(٣٢٧). وقد رآه أبو بكر يوماً يعاني هذا العذاب فاشتراه وأعتقه. واشترى أبو بكر كثيراً من الموالى الذين

(٣٢٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٦٦/١، السيرة الحلبية: ٢٨٧/١، سيرة ابن كثير: ٤٧٤/١ — ٤٧٥، بحار الأنوار: ١٨٢/١٨ عن تفسير القمي: ٢٢٨/٢.

(٣٢٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٦٩/١.

(٣٢٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٧/١، السيرة لابن كثير: ٤٩٢/١، السيرة الحلبية: ٢٩٧/١، وتنقيح المقال في علم الرجال: ١٨٢/١.

كانوا يعذبون، ومن بينهم جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه^(٣٢٨). وعذبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها^(٣٢٩). وكان المسلمون من غير الموالي يضربون وتوجه إليهم أشد صور المهانة. ولم يسلم «محمد»، برغم منع بني هاشم وبني المطلب له، من هذه الإساءات. كانت أم جميل زوج أبي لهب تلقي النجس أمام بيته فيكتفي «محمد» بأن يزيله. وكان أبو جهل يلقي عليه أثناء صلواته رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام، فيتحمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته^(٣٣٠). هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهجر الكلام حيثما ذهبوا. واستمر الأمر على ذلك طويلاً فلم يزددهم إلا حرصاً على دينهم وابتهاجاً بالأذى وبالتضحية في سبيل عقيدتهم وإيمانهم.

والحق أن هذه الفترة من فترات حياة «محمد(عليه السلام)» هي من أروع ما عرف التاريخ الإنساني في العصور جميعاً. فما كان «محمد» والذين اتبعوه طلاب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان، إنما كانوا طلاب حق وإيمان به. وكان «محمد» طالب هدى للذين يصيونه بالأذى، وتحرير لهم من ربة الوثنية الوضيعة التي تنحدر بالنفس الإنسانية إلى خزي المذلة والهوان. في سبيل هذه الغاية الروحية السامية، لا في سبيل شيء آخر، كان الأذى يصله وكان الشعراء يسبونه، وكانت قريش تأتمر به، حتى حاول رجل قتله عند الكعبة^(٣٣١). وكان منزله يرحم، وكان أهله وأتباعه يهددون، فلا يزيده ذلك إلا صبراً وإمعاناً في الدعوة. وامتألت نفوس المؤمنين الذين اتبعوه بقوله: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى

(٣٢٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٧/١ — ٣١٩.

هذا وقد روى الإسكافي في نقض العثمانية عن ابن إسحاق والواقدي أن عامر بن فهيرة وبلا لا اعتقهما رسول الله (صلى الله عليه وآله)، كما في شرح النهج للمعتزلي: ٢٧٣/١٣. ولذلك عد ابن شهر آشوب بلا لا من موالي النبي (صلى الله عليه وآله): ١٧١/١. وقال ابن هشام في عامر بن فهيرة: أنه كان أسود من موالي الأسد: ٢٧٧/١. ومعنى ما رواه ابن إسحاق هو أن أبابكر لم يكن من المستضعفين فلم يعذب في الله، بل اطلق واعتق عدداً منهم. ولكن ابن هشام ذكر أن نوفل بن حويلد بن أسد كان من شياطين قريش، قرن بين أبي بكر وطلحة بن عبيد الله في جبل، فبذلك كانا يسميان: القرنين، انظر سيرة ابن هشام: ٣٠١/١. وأضاف الجاحظ في العثمانية قال: ضربه نوفل بن حويلد مرتين حتى أدماه، وشده مع طلحة بن عبيد الله في قرن. وجعلهما في الهاجرة عمر بن عثمان، ولذلك كانا يُدعيان القرنين، كما في العثمانية: ٢٨. وعن ابن هشام في شرح النهج للمعتزلي: ٢٥٣/١٣. ورد عليه الإسكافي في نقض العثمانية فقال: أنتم في أبي بكر بين أمرين: تارة تجعلونه رئيساً متبعاً وكبيراً مطاعاً، وتارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً وهجيناً رذيلاً مستضعفاً ذليلاً؛ فإننا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا بعد أو عسيف (الأخير) أو لمن لا عشيرة له تمنعه. كما في شرح النهج للمعتزلي: ٢٥٥/١٣.

(٣٢٩) لعلها سمية والدة عمار بن ياسر لأنها أول شهيدة في الإسلام هي وزوجها ياسر.

راجع: السيرة لابن هشام: ٣٢٠/١، تاريخ يعقوبي: ٣٤٧/١، الكامل في التاريخ: ٤٥/١، سيرة ابن كثير: ٤٩٥/١، السيرة الحلبية: ٣٠٠/١، بحار الأنوار: ٢١٠/١٨، اختيار معرفة الرجال: ١٢٧/١، تنقيح المقال: ٣٢٠/٢.

(٣٣٠) تاريخ يعقوبي: ٣٤٤/١، تاريخ الطبري: ٥٥٣/١، الكامل في التاريخ: ٤٧/١، السيرة الحلبية: ٢٩١/١ — ٢٩٢، تاريخ الإسلام للذهبي:

٢١٦/١ — ٢١٧، إعلام الوري بأعلام الهدى، للشيخ الطبرسي: ١٢٠/١، بحار الأنوار: ١٨٧/١٨ — ١٨٨.

(٣٣١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٨/١، السيرة الحلبية: ٢٨٨/١، عيون الأثر: ١٢٧/١.

يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(٣٣٢). وهانت عليهم جميعاً التضحيات الجسام وهان عليهم الموت في سبيل الحقّ وهداية قُريش له. وقد تعجّب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك المكّيين ولما يكن الدين قد كمل ولما يكن قد نزل من القرآن إلّا القليل. وقد تحسب أن شخصية «محمّد» ودمائة طبعه وجهيل خلقه وما عرف من صدقه وما بدا من صلابة عوده وقوّة عزمه وثبات إرادته ، كان السبب في كلّ هذا ولا ريب قد كان لهذا كلّ حظه ونصيبه.

لكنّ عوامل أخرى جديرة بالتقدير والاعتبار كان لها هي أيضاً في ذلك نصيب غير قليل، فقد كان «محمّد» في بلاد حرّة هي بالجمهورية أشبه. وكان في الذروة والسنام منها حساباً ونسباً. وكان قد وصل من المال إلى ما يشاء، وكان إلى ذلك من بني هاشم. اجتمعت لهم سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وما شاءوا من مجد الألقاب الدينية. فلم يكن لذلك في حاجة إلى المال أو الجاه أو المكانة السياسية أو الدينية. وكان في ذلك على خلاف من سبقه من الرسل والأنبياء. فقد ولد موسى بمصر وفيها فرعون يُدين له أهلها بالألوهية وينادي هو فيهم: (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)^(٣٣٣) وتعاونته طائفة رجال الدين على سوم الناس ألوان الظلم والاستغلال والعسف؛ فكانت الثورة التي قام بها موسى بأمر ربّه ثورة على نظام سياسي وديني معاً، أليس يريد أن يكون فرعون والرجل الذي يرفع الماء بالشادوف^(٣٣٤) من النيل أمام الله سيّين^(٣٣٥)؟ إذاً فما ألوهية فرعون وما هذا النظام القائم؟ يجب أن يحطم ذلك كلّ، ويجب أن تكون الثورة سياسية أولاً. لهذا لقيت الدعوة الموسوية منذ بدايتها حرباً من فرعون شعواء. ولذلك آزرت المعجزات موسى ليؤمن الناس بدعوته، ألقي عصاه فإذا هي حيّة تسعى تلقف ما صنع سحرة فرعون. ولم يُجد ذلك موسى شيئاً فاضطرّ إلى مغادرة وطنه مصر، وقد آزرته في هجرته معجزة انفلاق الطريق في البحر عبر الماء . وقد وُلد عيسى في الناصرة^(٣٣٦) من أعمال فلسطين، وهي يومئذ ولاية رومانية خاضعة لحكم القياصرة ولظلم المستعمرين بها ولآلهة رومية، فدعا الناس إلى الصبر على الظلم وإلى المغفرة للتائب المتوب وإلى ألوان من الرحمة اعتبرها القائمون بالأمر ثورة على تجبرهم؛ فأزرت عيسى

(٣٣٢) تاريخ الطبري: ٦٧/٢ والبداية والنهاية: ٦٣/٣.

(٣٣٣) النزاعات (٧٩): ٢٤ .

(٣٣٤) الشّادوف: أداة لريّ الأرض، وهي كلمة مصرية قديمة.

(٣٣٥) السيان: المثان، قال: قال ابن سيّده: وهما سواعان وسيان مثّان، والواحد سيّ. لسان العرب لابن منظور: ٤١١/١٤، مادة سوا.

(٣٣٦) الناصرة: مدينة في شمالي فلسطين (الجليل) وهي بلدة العذراء مريم، قضى فيها المسيح حياته المحتجة فدعى ناصرياً وأتباعه نصارى.

معجزات إحياء الموتى وإبراء المرضى وسائر ما أيده به روح القدس من عنده. صحيح أن تعاليمهم تنتهي في جوهرها إلى ما تنتهي إليه تعاليم «محمد» في جوهرها ، مع خلاف في التفاصيل ليس

هنا موضع إيضاحه. لكنّ هذه العوامل المختلفة والعامل السياسي في مقدماتها وجّهت دعوتهما اتجاهها. أمّا «محمد»، — وكانت ما قدمنا ظروفه — فكانت رسالته عقلية روحية أساسها الدعوة للحقّ والخير والجمال دعوة مجرّدة في بدئها وفي غايتها. ولبعدها عن كلّ خصومة سياسية لم ترزعج النظام الجمهوري الذي كان قائماً بمكّة بأية صورة من صور الازعاج.

وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة «محمد» والطريقة العلمية الحديثة من شبه قويّ. فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كلّ رأي وكلّ عقيدة سابقة لك في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثمّ بالموازنة والترتيب، ثمّ بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظلّ علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر. وهامي ذي مع ذلك طريقة «محمد» وأساس دعوته. فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدؤوا يفكّرون فيما أمامهم. لقد كان لكلّ قبيلة من قبائل العرب صنم؛ فأَي صنم هو الحقّ وأي صنم هو الباطل؟ وكان في العرب وفي البلاد التي تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار، والذين يعبدون الشمس، فأَي هؤلاء على الحقّ ، وأَيّهم على الباطل؟ لنذر هذا كلّه إذاً جانباً ولنمخ أثره من نفوسنا ولنتجرّد من كلّ رأي ومن كلّ عقيدة سابقة، ولننظر . والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيّان. فما لا شبهة فيه أنّ لكلّ موجود بسائر الموجودات اتصالاً. فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأمه بعضها ببعض. والإنسان يتصل بالحيوان والجماد، وأرضنا تتصل بالشمس والقمر وبسائر الأفلاك. وذلك كلّه يتصل في سنن مطردة لا تحويل لها ولا تبديل، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. ولو أنّ إحدى موجودات الكون تحوّلت أو تبدّلت لتبدّل ما في الكون. فلو أنّ الشّمس لم تسعد الأرض بالنور والحرارة على السّنة التي تجري عليها منذ ملايين السنين، لتبدلت الأرض غير الأرض والسماء، وما دام ذلك لم يحدث، فلا بدّ لهذا الكلّ من روح يمسه؛ منه نشأ وعنه تطوّر وإليه يعود. هذا الروح وحده هو الذي يجب أن يخضع له الإنسان. أمّا سائر ما في الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء. والإنسان والكون والزمان والمكان وحدة ، هذا الروح جوهرها ومصدرها. إذاً

فلتكن لهذا الروح وحده العبادة، ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة. وفي الكون كله يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمل سننه الخالدة. وإذا فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكاً وفراعين وناراً وشمساً إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الإنسانية، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كُرم به من القدرة على استنباط سنة الله من طريق النظر في خلقه.

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأوّلون. وقد أبلغهم الوحي إياها على لسان «محمد» في آي من البلاغة كانت وماتزال معجزة، فجمع لهم بذلك بين الحقّ وتصويره في كمال جماله. هنالك ارتقت نفوسهم وارتفعت قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم؛ فهداهم «محمد» إلى أنّ الخير هو طريق الوصول، وأنّهم مجزيون عن هذا الخير يوم يتمّون واجبه في الحياة بالتقوى، ويوم تجزى كلّ نفس بما كسبت (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (٣٣٧).

أيّ سموّ بالعقل الإنساني أعظم من هذا السموّ؟ وأيّ تحطيم لقيوده أشدّ من هذا التحطيم؟ حسب الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليلبغ الذروة من مراتب الإنسان. وفي سبيل هذه المكانة تمون كلّ تضحية على من يؤمن بها.

وقد كان من جلال موقف «محمد» ومن اتبعه أن ازداد بنوهاشم وبنوعبدالمطلب منعاً له ودفعاً للأذى عنه؛ حتى لقد مرّ أبوجهل بـ «محمد» يوماً فأذاه وشمته ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فأعرض «محمد» عنه وانصرف ولم يكلمه. وكان حمزة — عمّه وأخوه في الرضاع — مايزال على دين قريش، وكان رجلاً قوياً مخوفاً، وكان ذا ولع بالصيد، فإذا رجع منه طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره. فلما جاء في ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبي جهل ملأه الغضب؛ وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلماً على أحد ثمّ كان عندها كعادته؛ ودخل المسجد فألقى أبا جهل فقصد إليه، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجة منكورة، وأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسماً للشرّ ومخافة استفحاله، معترفاً أنّه سبّ «محمد» سباً قبيحاً. ثمّ أعلن حمزة إسلامه وعاهد محمداً على نصرته والتضحية في سبيل الله حتى النهاية (٣٣٨).

ضاقت قريش ذرعاً بـ «محمد» وأصحابه أن رأهم يزدادون كلّ يوم قوة، ثمّ لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به، وعن صلواتهم وأداء فرضها، فخيّل إليهم أن

(٣٣٧) الزلزلة (٩٩): ٧ — ٨ .

(٣٣٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩١/١، دلائل النبوة: ٢١٣/١، السيرة الحلبية: ٢٩٧/١، سيرة ابن كثير:

١/٤٤٥ — ٤٤٦، تاريخ الإسلام للذهبي: ١٧٠/١ — ١٧١، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٢٣/١، بحار الأنوار: ٢١٠/١٨ — ٢١١.

يتخلصوا من «محمد» بما توهّموا من إرضاء مطامعه، ناسين عظمة الدعوة الإسلامية ونزاهة جوهرها الروحي السامي عن الخصومة السياسية. فقد رغب عتبة بن ربيعة — وكان من سادات العرب — إلى قريش وهم في ناديهم أن يكلم «محمدًا» وأن يعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فيعطونه أيّها شاء وكيف عنهم. وكلم عتبة «محمدًا» فقال: «يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب؛ وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم؛ فاسمع منّي أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها؛ إن كنت إنّما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد تشريفاً سوّدناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رتيّاً^(٣٣٩) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ». فلمّا فرغ من قوله تلا «محمد» عليه سورة السجدة، وعتبة منصت يستمع إلى أحسن القول ويرى أمامه رجلاً لا مطمع له في مال ولا في شرف ولا في ملك ولا هو بالمرضى، وإنّما يدلي بالحقّ والدعوة إلى الخير والدفع بالتي هي أحسن والاعجاز في العبارة، فلمّا انتهى «محمد» انصرف عتبة إلى قريش مأخوذاً بجمال ما رأى وسمع؛ مأخوذاً بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه^(٣٤٠). ولم يرق قريشاً أمر عتبة ولا راقها رأيّه أن تترك العرب «محمدًا»، فإن تغلبت عليه استراحت قريش وإن اتبعته فلها فخاره، وعادت تناوئه وتناوئ أصحابه وتصيهم من البلاء بما كان هو في منجاة منه بمكانته من قومه ومنعته بأبي طالب وبني هاشم وبني المطلب. وزاد ما يتزل بالمسلمين من الأذى، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل^(٣٤١) هناك أشار عليهم «محمد» أن يتفرقوا في الأرض. فلمّا سألوه أين نذهب؟ نصح إليهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحية «فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه»^(٣٤٢). فخرج فريق من المسلمين عند ذلك إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم. وخرجوا في هجرتين. كانوا في الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نساء تسلّلوا من مكّة لواداً، ثمّ أقاموا في خير جوار من النجاشي، حتى ترامى إليهم أن المسلمين بمكّة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فعادوا، كما سنقصّه من بعد^(٣٤٣). فلمّا لقوا عنت قريش وأذاهم أبلغ ممّا كان عادوا إلى

(٣٣٩) يقال للتابع من الجن رتي بوزن: كمي، وهو فعل، أو مفعول، سُمّي به لأنّه يتراءى لمتبوعه... النهاية في غريب الحديث: ١٧٨/٢.

(٣٤٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٣/١ — ٢٩٤، سيرة ابن كثير: ٤٩٨/١ — ٥٠٥، عيون الأثر: ١٢٤/١ — ١٢٥، بحار الأنوار: ١٦٧/١٨.

— ١٦٨ ومجمع البيان: ١٧٩/١٠.

(٣٤١) سيرة ابن هشام: ٢٩٤/١ — ٢٩٥، عيون الأثر: ١٣٠/١.

(٣٤٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٢١/١ — ٣٢٢، سيرة ابن كثير: ٤/٢.

(٣٤٣) سيرة ابن هشام: ٣٢٢/١، الطبقات الكبرى: ٢٠٤/١، تاريخ ابن خلدون: ٤١٢/٢ — ٤١٣.

الحبشة في ثمانين رجلاً غير نسائهم وأطفالهم ، وأقاموا بها إلى ما بعد هجرة النبي إلى يثرب. وهذه الهجرة إلى الحبشة كانت أول هجرة في الإسلام^(٣٤٤).

مِنْ حَقٍّ مَنْ يُؤَرِّخُ لـ «محمّد» أن يتساءل: أكان كلّ القصد من هذه الهجرة التي قام بها المسلمون بأمره ورأيه، الفرار من كفّار مكّة وما يلحقون بهم من الأذى؟ أم أنّها كان لها كذلك غرض سياسي إسلامي رمى «محمّد» من ورائه إلى غاية غلياً؟ من حقّ مؤرخ «محمّد» أن يتساءل عن هذا بعد الذي ثبت من تاريخ هذا النبي العربي في أدوار حياته جميعاً أنّه كان سياسياً بعيد الغور، كما كان صاحب رسالة وأدب نفس لا يدانيهما في السموّ والجلال والعظمة مدان. ويدعوننا إلى هذا التساؤل ما تجري به الرواية من أنّ أهل مكّة لم يستريحوا إلى خروج من خرج من المسلمين إلى الحبشة، بل بعثوا رجلين إلى النجاشي ومعهما الهدايا القيّمة ليقنعوه كي يردّ المسلمين من مواطنهم إليهم. والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى، فليس تخشى قُريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا «محمّداً». فهل تراهم عُتُوا بالأمر وبعثوا يستردّون المسلمين إلّا لأنّهم رأوا أنّ حماية النجاشي إيّاهم بعد سماعه أقوالهم قد تكون ذات أثر في إقبال أهل جزيرة العرب على دين «محمّد» واتّباعهم إيّاه؟ أو أنّهم خافوا، إن بقي هؤلاء في الحبشة، أن تشتد شوكتهم، فإذا عادوا بعد ذلك لمعونة «محمّد» عادوا أقوياء بالمال والرجال.

كان الرسولان عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، ولقد دفعا إلى النجاشي وإلى بطارقتهم بالهدايا كي يردّوا المهاجرين من أهل مكّة إليها، ثمّ قالوا: «أيّها الملك إنّك قد ضوى إلى بلدك ممّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوا فيه». وكان السفيران قد اتّفقا مع بطارقة النجاشي بعد أن اتّخفاهم بمدايا أهل مكّة أن يعاونوهما على ردّ المسلمين إلى قُريش دون أن يسمع النجاشي كلامهم. فأبى النجاشي أن يفعل حتّى يسمع ما يقولون وبعث في طلبهم. فلمّا جاءوا سألهم^(٣٤٥).

ما هذا الدين الذي فارقتهم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه

الملل؟

«فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب» قال: أيّها الملك، كنّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منّا الضعيف.

(٣٤٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٧/١، عيون الأثر: ١٣٥/١، الوفا: ١٩٥، مجمع البيان: ٤٠٠/٣، بحار الأنوار: ٤١٤/١٨.

(٣٤٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٣٤/١ — ٣٣٥، بحار الأنوار: ٤١٤/١٨.

فكُنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مَنَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآبائُنَا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرَّحْمِ وحسن الجوار والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف الخصاصات، وأمرنا أن نعبدا الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة^(٣٤٦) والصيام — وعدَّد عليه أمور الإسلام — فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنَّا نستحل من الخبائث ؛ فلمَّا قهرُّونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاَّ نظلم عندك.

فقال النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيء تقرُّوه عليّ؟

قال جعفر: نعم، وتلا من سورة مريم إلى قوله تعالى:

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)^(٣٤٧).

فلَمَّا سمع البطارقة هذا القول مصدقاً لما في الإنجيل أخذوا وقالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيِّدنا يسوع المسيح. وقال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، والله لا أسلِّمهم إليكما. فلَمَّا كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشي فقال له: إنَّ المسلمين ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسألهم عمَّا يقولون فيه. فلَمَّا دخلوا عليه قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، يقول هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشي عوداً وخطَّ به على الأرض — وقد بلغت منه المسرة أكبر مبلغ — : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخطِّ. وكذلك تبين للنجاشي بعد سماع الفريقين أنَّ هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرُّون النصرانية ويعبدون الله^(٣٤٨). ووجد المسلمون في جوار النجاشي أمناً ودعة، حتى رجعوا إلى مكة للمرَّة الأولى و«محمد» ما يزال بها، وحين تراءى لهم أنَّ خصومة قُريش هدأت. فلَمَّا رأوا المكِّيَّين

(٣٤٦) الزكاة المفروضة شرَّعت في المدينة وليس في مكة قبل هجرة المسلمين إلى الحبشة ولا يمنع من كونها الزكاة المستحبة أو بمعنى الإنفاق بشكل عام. انظر موسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ محمد هادي اليوسفي : ٥٧٨/١ .

(٣٤٧) مريم (١٩): ٢٩ — ٣٣ .

(٣٤٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٣٢/١ — ٣٣٨، والسيرة الحلبية: ٣٣٨/١ — ٣٤١، سيرة ابن كثير: ١٠/٢، عيون الأثر: ١٣٨/١ —

١٣٩، تفسير القمِّي: ١٧٦/١ — ١٧٨، بحار الأنوار: ٤١٥/١٨ .

ومايزالون يُترلون به وبأعوانه الأذى، عادوا إلى الحبشة في ثمانين رجلاً غير نسائهم وأطفالهم^(٣٤٩). أفكانت هجرتهم هاتان لجُرد الفرار من الأذى، أم كان لهما، ولو في تدبير «محمد» وحده، غاية سياسية يجمل بالمؤرخ أن يجلوها؟

ومن حق مؤرخ «محمد» أن يتساءل: كيف أمن «محمد» على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا إلى أرض الحبشة والنصرانية دين أهلها دين كتاب، ورسولها «عيسى» يقر «محمد» رسالته، ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش وإن تكن من نوع آخر؟ وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة فهي أشد من قريش فتنة؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشة^(٣٥٠)، فدلّ تنصّره على أن خوف هذه الفتنة كان جديراً بأن يساور «محمدًا» وهو مايزال ضعيفاً، ومايزال الذين اتبعوه في أشدّ الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوّهم! وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر «محمد» أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدلاً لسمو روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته. ولقد كان من هذه الناحية مطمئناً تمام الطمأنينة. فقد كان الإسلام يومئذ، وإلى يوم مات صاحب الرسالة، في صفاء جوهره لم تشب نقاءه ولا سموه شائبة. وكانت نصرانية الحبشة كنصرانية نجران والحيرة والشام قد اندس إليها من شوائب الخلاف بين مؤلّهي مريم ومؤلّهي «عيسى» والمخالفين هؤلاء وأولئك بما لا يخشى معه على أولئك المسلمين، الذين كانوا ينهلون من نبع الرسالة المصفى.

والحق أن أكثر الأديان ما كانت تتخطى على الزمان أجيالاً معدودة حتى يندس إليها نوع من الوثنية، إن لم يكن من هذا الطراز الوضع الشائع يومئذ في بلاد العرب فإنّه وثنية على كلّ حال. والإسلام نزل عدو الوثنية اللدود في جميع صورها وأوضاعها. ثم إن النصرانية تعترف من ذلك التاريخ لطائفة رجال الدين بمكانة خاصة لم يعرفها الإسلام قطّ، وكان يومئذ أشدّ ما يكون عليها سموً ومنها براءة. ثم إنّه كان يومئذ وبقي في جوهره دين السموّ بالنفس الإنسانية إلى غاية الذروة من السموّ. حطّم كلّ صلة بين المرء وربّه غير العمل الصالح والتقوى^(٣٥١)، وأن يجب الإنسان لأخيه ما يجب لنفسه. لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ولم يبق عرافون ولم يبق شيء يحول دون أن ترتفع الروح الإنسانية لتتصل بالوجود كلّ صلة خير ومعروف، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافاً مضاعفة. والروح! الروح الذي هو من أمر الله! الروح المتصل بأزل الزمن وأبدّه! هذا الروح ماعمل صالحاً فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله عليه. يستطيع

(٣٤٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٦٩/١.

(٣٥٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٢٣/١.

(٣٥١) كان المسلمون يتوسلون إلى الله برسوله، راجع التوسل ضمن سلسلة في رحاب أهل البيت، طبع المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام).

الأغنياء والأقوياء والشرّيون أن يعدّبو الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذّه وشهواته وأن يهلكوه، لكنّهم لن يصلوا إلى الروح مادام صاحبه يريد به سمْوًّا، فوق سلطان المادّة وفوق سلطان الزمن واتصالاً بالوجود كلّه. إنّما يُجزى الإنسان عن أعماله يوم تُجزى كل نفس بما كسبت. يومئذ لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، ويومئذ لا ينفع الأغنياء ما لهم ، ولا الأقوياء قوتهم، ولا المتكلمين كلامهم. إنّما هي الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه. ويومئذ يقف هذا الوجود جميعاً متسقاً وحدته مجتمعاً أزله وأمدّه، لا يظلم ربّك أحداً، ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون.

كيف يخاف «محمّد» الفتنة على من علّمهم هذه المعاني ومن بثّها في نفوسهم فحلّت منهم في سويداء القلب ومكان العقيدة والإيمان! ثمّ كيف يخاف عليهم الفتنة ومثله حاضر أمامهم بشخصه الخبّوب، حتى ليحبّه أحدهم أكثر من حبّه نفسه وبنيه وأهله. شخصه الذي يضع هذه العقيدة فوق ملك الأرض والسماء والشمس والقمر، ويقول لعمّه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته»^(٣٥٢) شخصه الذي يضيء بنور الإيمان والحكمة والعدل والخير والحقّ والجمال، الممتلئ إلى جانب ذلك تواضعاً وبراً ومودّة ورحمة. لذلك كان مطمئناً إلى هجرة أصحابه هؤلاء إلى الحبشة كلّ الاطمئنان. وكان أمنهم عند النجاشي وسكينتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أواصر عطف أو قُربى، ممّا جعل قريشاً تشعر بما في إيذاها للمسلمين، وهم منهم وهم أهلهم وأنسابهم، من ظلم ومن عنت ومن إمعان في الفجور، ومن تحميل كلّ ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى، فأصبح لا ينامهم سوء وأصبحوا يرون في الصبر على البأساء قُربى إلى الله ومغفرة منه.

وكان عمر بن الخطاب يومئذ رجلاً في فتوة الرجولية بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. وكان مفتول العضل قويّ الشكيمة حادّ الطبع سريع الغضب محبّاً للهو والخمر، وفيه إلى ذلك برّ بأهله ورقة لهم. وكان من أشدّ قُريش أذى للمسلمين ووقية فيهم. فلما رأهم هاجروا إلى الحبشة ورأى النجاشي حماهم شعر لفراقهم بوحشة، وبما لفراق وطنهم من ألم يحزّ في الكبد ويفري المهجة. وكان «محمّد» يوماً مجتمعاً مع أصحابه الذين لم يهاجروا في بيت عند الصفا، ومن بينهم عمّه حمزة وابن عمّه عليّ بن أبي طالب وأبوبكر بن أبي قحافة وغيرهم من سائر المسلمين. وعرف عمر اجتماعهم ، فقصد إليهم يريد أن يقتل «محمّداً» كي تستريح قُريش وتعود إليها وحدتها بعد أن فرّق أمرها وسفّه أحلامها وعاب آهتها. ولقيه نعيم بن عبد الله في الطريق وعرف

(٣٥٢) عيون الأثر لابن سيّد الناس: ١٣٣/١، السيرة النبويّة لابن كثير: ٤٧٤/١، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي: ٣٢٧/٢، موسوعة

أمره فقال له: «والله لقد غشيتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبدمناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمدًا؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم». وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما. فلما عرف عمر من نعيم أمرهما كرّ راجعاً إليهما ودخل البيت عليهم، فإذا عندهما من يقرأ عليهما القرآن. فلما أحسوا دنوّ داخل عليهم اختفى القارئ وأخفت فاطمة الصحيفة. وسأل عمر: ما هذه الهيمنة التي سمعت؟ فلما أنكرا صاح بهما: لقد علمت أنّكما تابعتما «محمدًا» على دينه؛ وبطش بسعيد؛ فقامت فاطمة تحمي زوجها فضرّ بها فشجّها، فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به: نعم أسلمنا، فاقض ما أنت قاض. واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم، وغلبه برّه وعطفه فارعوى وسأل أخته أن تُعطيه الصحيفة التي كانوا يقرأون، فلما قرأها تغيّر وجهه وأحس بالندم لصنيعه، ثمّ اهتزّ لما قرأ في الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسموّ الدعوة التي تدعو إليها، فراد جانب البرّ غلبةً عليه. وخرج وقد لاق قلبه واطمأنت نفسه، فقصّد إلى مجلس «محمد» وأصحابه عند الصفا، فاستأذن وأعلن إسلامه ، فوجد المسلمون فيه وفي حمزة للإسلام منعةً وللمسلمين حمى (٣٥٣).

وفتّ إسلام عمر في عضد قريش ، فأثمرت مرة أخرى ما تصنع؟ والحق أنّ هذا الحادث عزّز المسلمين بعنصر جديد قويّ غاية القوة، جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان؛ واستتبع بين الطرفين سياسة جديدة مليئة بأحداث وتضحيات وقوى جديدة أدّت إلى الهجرة، وإلى ظهور «محمد» السياسي إلى جانب «محمد» الرسول.

* * *

الفصلُ السادس

قصة الغرانيق

عود مهاجري الحبشة، الغرانيق العلا، تمسك المستشرقين بقصتها، أسانيدهم في ذلك، ضعف هذه الأسانيد، القصة ظاهرة، الكذب ينفىها التمهيص العلمي .

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر ابن الخطاب، فعاد كثير منهم — في رواية^(٣٥٤) — وعادوا كلهم — في رواية أخرى^(٣٥٥) — إلى مكة أن علموا برجوع قريش عن أذاها «لحمّد» ومن اتبعه. فلمّا بلغوها رأوا قريشاً عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى إمعان في عداوتهم أشد من كلّ ما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل. فعاد منهم إلى الحبشة من عاد، ودخل مكة من دخل مستخفياً أو بجواز. ويقال إنّ الذين عادوا استصحبوا وإياهم عدداً آخر من المسلمين، أقام بالحبشة إلى ما بعد الهجرة وإلى حين استتباب الأمر للمسلمين بالمدينة^(٣٥٦).

أيّ داع حفز مسلمي الحبشة إلى العودة بعد ثلاثة أشهر من مقامهم؟ هنا يرد حديث الغرانيق، الذي أورده ابن سعد في طبقاته الكبرى^(٣٥٧)، والطبري في تاريخ الرسل والملوك^(٣٥٨)، وأورده كثيرون من المفسرين المسلمين^(٣٥٩)، وكتاب السيرة^(٣٦٠)، وأخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلاً^(٣٦١). وحديث الغرانيق^(٣٦٢)، أنّ «محمّداً» لما رأى من تجنب قريش إيّاه

(٣٥٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٦٩/١ .

(٣٥٥) المنتظم: ٣٧٤/٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي: ١٨٦/١ .

(٣٥٦) المنتظم: ٣٧٥/٢ .

(٣٥٧) الطبقات الكبرى: ٢٠٥/١ .

(٣٥٨) تاريخ الطبري: ٥٥١/١ .

(٣٥٩) التفسير الكبير للفخر الرازي: ٤٩/٢٣ .

(٣٦٠) السيرة النبوية لابن كثير: ٥٦/٢ .

(٣٦١) كتاب التوحيد، الإسلام والغرب، إشكالية التعايش والصراع ، الدكتور سمير سلمان: ٤٠ .

وأذا هم أصحابه تمنى فقال: ليت لا يزل عليّ شيء ينفرهم عني. وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه. فجلس يوماً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم، حتى بلغ قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) (٣٦٣)، فقرأ بعد ذلك: «تلك الغرائيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى». ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد في آخرها وسجد القوم جميعاً لم يتخلف منهم أحد. وأعلنت قُريش رضاها عما تلا النبي وقالوا: قد عرفنا أن الله يجيبي ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده. أما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك. وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم. وفشا أمر ذلك في الناس حتى بلغ أرض الحبشة، فقال المسلمون بها: عشائرتنا أحب إلينا، وخرجوا راجعين، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركباً من كنانة، فسألوهم فقالوا: ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملاء، ثم ارتد عنها فعاد لشتهم آلهتهم وعادوا له بالشر. وأتمر المسلمون ما يصنعون فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبراً فدخلوا مكة.

وإنما ارتد «محمد» عن ذكر آلهة قُريش بالخير في مختلف الروايات التي أثبتت هذا الخبر، لأنه كبر عليه قول قُريش: «أما إذا جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك»، وأنه جلس في بيته حتى إذا أمسى أتاه جبرئيل فعرض النبي عليه سورة النجم فقال جبرئيل: أوجئتكم بماتين الكلمتين؟! مشيراً إلى تلك الغرائيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. قال «محمد»: قلت على الله ما لم يقل. ثم أوحى الله إليه: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَأَتَّخَذُوكَ حُلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ تَبَسُّتْنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (٣٦٤) وبذلك عاد يذكر آلهة قُريش بالشر ويسبهم، وعادت قُريش لمناوئته وإيذاء أصحابه (٣٦٥).

هذا حديث الغرائيق، رواه غير واحد من كتب السيرة، وأشار إليه غير واحد من المفسرين، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلاً. وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص. وهو بعد حديث ينقض ما لكل نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربه. فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين (٣٦٦). ولذلك لم يتردد ابن

(٣٦٢) الغرائيق: طائر مائي من فصيلة الكركيات، عريض الجناح طويل الساق. أو جنس زهر من فصيلة الغرنوقيات، مهدد الأصلي أفريقيا الجنوبية، مستحب في جميع البلدان أزهاره جميلة ومختلفة الألوان. المنحد في اللغة: ٥٤٩.

(٣٦٣) النجم (٥٣): ١٩ — ٢٠.

(٣٦٤) الإسراء (١٧): ٧٣ — ٧٥.

(٣٦٥) تاريخ الطبري: ٥٥١/١ — ٥٥٢.

(٣٦٦) وصنف محمد بن إسحاق في تفنيدها كتاباً، راجع البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/٦.

وقال القاضي عبد الجبار عن هذا الخبر: «لا أصل له، ومثل ذلك لا يكون إلا من دسائس الملحدة» تنزيه القرآن عن المطاعن: ٢٤٣.

وقال أبو حيان: أنه نزه كتابه عن ذكر هذه القصة فيه. عن تفسير المحيط: ٣٨١/٦.

إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنه من وضع الرنادقة^(٣٦٧). لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا فاستندوا إلى الآيات: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) وإلى قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)^(٣٦٨). ويفسر بعضهم كلمة «تَمَنَّى» في الآية بمعنى قرأ، ويفسرها آخرون بمعنى الأمنية المعروفة^(٣٦٩). ويذهب هؤلاء وأولئك، ويتابعهم المستشرقون، إلى أن النبي لما بلغ منه أذى المشركين، حتى كانوا يقتلون بعض أصحابه ويلقون بعضهم في الصحراء يلفحهم لظى الشمس المحرقة، وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا ببلال، وحتى اضطر النبي للاذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، ولما رأى من جفاء قومه إيّاه وإعراضهم عنه، ولأنه كان حريصاً على إسلامهم ونجاتهم من عبادة الأصنام، تقرب إليهم وتلا سورة النجم وأضاف إليها حكاية الغرائق، فلما سجد سجدوا وإيّاه وأظهروا له الميل لاتباعه مادام قد جعل لآلهم نصيباً مع الله.

وانكرها البيضاوي طاعناً في أسانيدها وكذا البيهقي، والنووي والنسفي، وابن العربي، والسيد المرتضى، وفي تفسير الخازن، قال: أهل العلم وهنوا هذه القصة. والسيرة الحلبية: ١١/١، والهدى إلى دين المصطفى: ١٣٠/١، والرحلة المدرسية: ٣٨، وفتح الباري: ٣٣٣/٨، وتفسير الرازي: ٥٠/٢٣.

وقال عياض: «إنّ هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وقال القاضي بكر بن العلاء المالكي: لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلّق بذلك الملحدون. مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع أسناده واختلاف كلماته»، الشفاء: ١٢٦/٢.

ثم إنّ هذا الحديث يجب ردّه والقطع بكذبه حتى على فرض اتصاله، لأنّه مصادم لحكم العقل ولعصمة النبي (صلى الله عليه وآله) عن الخطأ والسهو، وعلى الأخص في أمر التبليغ وهو ما قام عليه اجماع الأمة والأدلة القطعية، كما يثبت الارتداد للنبي (صلى الله عليه وآله). ويضاف أنّ الرواية تنافي قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) الحجر: ٤٢ وقوله: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) النحل: ٩٩.

ينص الكلاعي على أنّ المشركين والمسلمين قد سجدوا جميعاً لما بلغ النبي (صلى الله عليه وآله) آخر السورة، وأنّ المسلمين قد عجبوا لسجود المشركين، مع أنّه يصرّح قبل ذلك بأسطر أنّ الشيطان قد ألقى تلك الكلمات على لسان النبي، الاكتفاء للكلاعي: ٣٥٢/١ — ٣٥٣ : وهنا يرد سؤال كيف سمع المشركون ما ألقاه الشيطان على لسانه (صلى الله عليه وآله) ولم يسمعه المسلمون وهم معهم ولا بدّ وأنهم كانوا أقرب إليه (صلى الله عليه وآله) منهم؟!.

وكيف يسجد المشركون عند نهاية السورة لقوله تعالى: (فاسجدوا لله واعبدوا) النجم: ٦٢ مع أنّهم كانوا يرفضون السجود لله؟! قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) الفرقان: ٦٠ ثمّ كيف.. لا يرتدّ أحد من المسلمين أو يتزلزل إيمانه حينما يعلم أنّ رسول الله قد مدح الأصنام وجعل لها شفاعاً؟! الاكتفاء للكلاعي: ٣٥٣/١، راجع الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) لجعفر مرتضى العاملي: ٦٤/٢.

(٣٦٧) السيرة الحلبية: ٣٢٦/١.

(٣٦٨) الحجّ (٢٢): ٥٢ — ٥٣.

(٣٦٩) تفسير الكشاف: ١٦٥/٣.

ويضيف (سير وليم موير) إلى هذه الرواية التي تروي كتب السيرة والمفسرون حجة يراها قاطعة في نظره بصحة حديث الغرائق. ذلك أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم إليها غير ثلاثة أشهر أجارهم النجاشي أثناءها وأحسن جوارهم. فلو لم يكن قد ترامى إليهم خبر الصلح بين «محمد» وقُريش لما دفعهم دافع إلى العود حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائرتهم. وأتى يكون صلح بين «محمد» وقُريش إذا لم يسع «محمد» إليه، وقد كان في مكة أقل نفراً وأضعف قوة، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قُريش ومن تعذيبهم إياهم.

هذه هي الحجج التي يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرائق. وهي حجج واهية لا تقوم أمام التمهيص. ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير. فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم إلى العود لمكة سببان: أولهما أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل. وقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها. لم يخف إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ويقاتلهم في سبيله، ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسليهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قُريش، بل دأب هو على نضال قُريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه^(٣٧٠). هنالك أيقنت قُريش أن ما تنال به «محمدًا» وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا من تدور عليه دائرتها. فقد أسلم من مختلف قبائل قُريش وبيوتاتها رجال تشور لقتل أي واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه. فلا مفر إذاً من الالتجاء في محاربة «محمد» إلى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر. وإلى أن تتفق قُريش على هذه الوسيلة هادنت المسلمين فلم تنل أحداً منهم بأذى. وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين إلى الحبشة ودعاهم إلى التفكير في العود لمكة.

وربما تردّدوا في هذا العود لو لم يكن السبب الثاني الذي ثبتّ عزمهم. ذلك أن الحبشة شبتّ بها يومئذ ثورة على النجاشي، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من قهم وجّهت إليه^(٣٧١). ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر الله النجاشي على خصومه. لكنهم لم يكونوا ليشاركوا في هذه الثورة وهم أجانب، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل. أما وقد ترامت إليهم أخبار الهدنة بين «محمد» وقُريش هدنة أنجبت

(٣٧٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٤٢/١.

(٣٧١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٤٠/١.

المسلمين لما كان يصيبهم من الأذى، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهلهم . وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم.

على أنهم ما لبثوا أن بلغوا مكة، حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع بـ «محمد» وأصحابه، واتفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة، فلا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً. وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين ورجع الذين عادوا من الحبشة وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم. وقد وجدوا هذه المرة عناءً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة^(٣٧٢).

ليس الصلح الذي يشير إليه المستشرق موير هو إذاً الذي دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحبشة . إنما هي هذه الهدنة التي حدثت على إثر إسلام عمر وحماسته في تأييد دين الله. فتأييد حديث الغرائيق بحجة الصلح تأييد إذاً غير ناهض.

أما احتجاج المحتجين من كتاب السير والمفسرين بالآيات (إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ...) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...) فهو احتجاج أشدّ تمهاتاً من قصة السير موير. ويكفي أن نذكر في الآيات الأولى قوله تعالى: (وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)^(٣٧٣) لدرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى في أمانة الرسول حتى لقد كاد يركن إليهم شيئاً قليلاً فقد ثبتته الله فلم يفعل، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات. وإذاً فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب. فقصة الغرائيق تجري بأن «محمدًا» ركن إلى قريش بالفعل وأن قريشاً فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل. والآيات هنا أن الله ثبتته فلم يفعل، فإذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب التزل جعلت لهذه الآيات موضعاً غير مسألة الغرائيق رأيت أن الاحتجاج بها في مسألة تتنافى مع عصمة الرسل في تبليغ رسالاتهم، وتتنافى مع تاريخ «محمد» كله، احتجاج متهافت، بل احتجاج سقيم.

أما الآيات: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ) فلا صلة لها بحديث الغرائيق البتة؛ فضلاً عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويجعله فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، ويحكم الله آياته والله عليم حكيم.

وندع هذا إلى تمحيص القصة التمهيص العلمي الذي يثبت عدم صحتها. وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها. فقد رُويت — كما سبق القول — على أنها : «تلك الغرائيق

(٣٧٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٥٠/١.

(٣٧٣) الإسراء (١٧): ٧٤.

العلا وإن شفاعتهن لترتجى»^(٣٧٤). ورواها بعضهم: [«الغرانقة العلا، إن شفاعتهن ترتجى»]^(٣٧٥). وروى آخرون [«إن شفاعتهن ترتجى»]^(٣٧٦) دون ذكر الغرانقة أو الغرائق. وفي رواية رابعة: «وإنها هي الغرائق العلا»^(٣٧٧). وفي رواية خامسة: «وإنهن هن الغرائق العلا. وإن شفاعتهن هي التي ترتجى»^(٣٧٨). وهذا التعدد في الروايات يدل على أن الحديث موضوع، وأنه من وضع الزنادقة، كما قال ابن اسحاق، وأن الغرض منه التشكيك في صدق تبليغ «محمد» رسالات ربه.

ودليل آخر أقوى وأقطع سياق سورة النجم وعدم احتمال له مسألة الغرائق. فالسياق يجري بقوله تعالى: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)^(٣٧٩). وهذا السياق صريح في أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. فكيف يحتمل أن يجري السياق بما يأتي: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» تلك الغرائق العلا. إن شفاعتهن لترتجى. ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان». إن في هذا السياق من الفساد ومن الاضطراب والتناقض، ومن مدح اللات والعزى وذمها في أربع آيات متعاقبة ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان، وما لا تبقى معه شبهة في أن حديث الغرائق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم، وصدقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل.

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حين كتب يفند الغرائق: تلك أن وصف العرب لأهتهم بأنها الغرائق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغريق على أنها لطائر مائي أسود أو أبيض، والغريق الشاب الأبيض الجميل. ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب.

بقيت حجة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرائق هذه من حياة «محمد» نفسه. فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط حتى سمي «الأمين» ولما يبلغ الخامسة

(٣٧٤) تاريخ الطبري: ٥٥٢/١.

(٣٧٥) الدر المنثور: ٣٦٧/٤.

(٣٧٦) جامع البيان: ٢٤٨/١٧، تفسير الطبري: ١٣١/١٧.

(٣٧٧) الدر المنثور: ٣٦٨/٤.

(٣٧٨) تاريخ الإسلام للذهبي: ١٨٦/١.

(٣٧٩) النجم (٥٣): ١٨ — ٢٣.

والعشرين من عمره. وكان صدقه أمراً مسلماً به من الناس جميعاً، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعثته: «أرأيتم لو أخبرتمكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقونني». فكان جوابهم: نعم، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط^(٣٨٠). فالرجل الذي عُرف بالصدق في صلّاته بالناس منذ نعومة أظفاره إلى كهولته كيف يصدّق إنسان أنّه يقول على ربّه ما لم يقل، ويخشى الناس والله أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القوية الممتازة التي تعرف الصلابة في الحقّ، ولا تداجي فيه لأي اعتبار. وكيف ترى يقول «محمّد» لو وضعت قُريش الشمس في يمينه والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل^(٣٨١)، ثمّ يقول على الله ما لم يوح إليه، ويقول له لينقض به أساس الدين الذي بعثه الله به هدى وبشرى للعالمين!

ومتى يرجع إلى قُريش ليمدح آلهتهم! بعد عشر سنوات أو نحوها من بعثته، وبعد أن احتمل هو وأصحابه في سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل، وبعد أن أعزّ الله الإسلام بحمزة وعمر، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوة بمكّة، ويمتد خبرهم إلى بلاد العرب كلّها وإلى الحبشة وإلى مختلف نواحي العالم. إنّ القول بذلك حديث خرافة وأكذوبة ممجوجة. ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاها فأرادوا سترها بقولهم: إنّ «محمّداً» ما كاد يسمع كلام قُريش، إذ جعل لآلهتهم نصيباً في الشفاعة حتى كبر ذلك عليه، وحتى رجع إلى الله تائباً أوّل ما أمسى بيته وجاءه جبرئيل فيه. لكنّ هذا الستر أخرى بأن يفضحها. فما دام الأمر قد كان كبر على «محمّد» منذ سمع مقالة قُريش، فما كان أحراره أن يراجع الوحي لساعته. وما كان أحراره أن يُجري الوحي الصواب على لسانه! وإذاً فلا أصل لمسألة الغرائيق إلّا الوضع والاختراع قامت بهما طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للإسلام، بعد انقضاء الصدر الأوّل من الإسلام.

وأعجب ما في جرأة هؤلاء المفترين! أنّهم عرضوا للافتراء في أم مسائل الإسلام جميعاً: في التوحيد؛ في المسألة التي بعث محمّد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى، والتي لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة ولا أماله عنها ما عرض عليه قُريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكاً عليهم. وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتّبعه من أهل مكّة إلّا عدد يسير. وما كان أذى قُريش لأصحابه ليحمله يرجع عن دعوة أمره ربّه أن يبلغها للناس. فاختيار المفترين لهذه المسألة التي كانت صلابة «محمّد» فيها غاية ما عرف عنه من الصلابة، تدل على جرأة غير معقولة، وتدل في نفس الوقت على أنّ الذين مالوا إلى تصديقهم قد خُدعوا فيما لا يجوز أن يُخدع فيه أحد.

(٣٨٠) تاريخ الطبري: ٥٤٢/١، والمناقب لابن شهر آشوب: ٤٦/١ — ٤٧.

(٣٨١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٦٦/١.

لا أصل إذاً لمسألة الغرائيق على الإطلاق، ولا صلة البتة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة. إنما عادوا — كما قدّمنا — بعد أن أسلم عمر^(٣٨٢) ونصر الإسلام بمثل الحميّة التي كان يحاربه من قبل بها، حتى اضطرت قُريش لمهادنة المسلمين. وعادوا حين شَبَّت الثورة في بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبتها . فلما علمت قُريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظم أمر «محمد» بهم، فأتّمرت ما تصنع. وقد انتهت بوضع الصحيفة التي قرّروا فيها فيما قرّروا ألاّ يناكحوا بني هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ؛ كما أجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا «محمدًا» إن استطاعوا.

* * *

(٣٨٢) لم يُشر أحد من المؤرّخين إلى وجود علاقة بين رجوع المهاجرين من الحبشة وإسلام عمر فإذا رجع المهاجرون بعد إسلامه فهذا لا يعني أنّهم قد رجعوا بسبب إسلام عمر، ولماذا لا نقول إنّهم رجعوا بسبب إسلام حمزة عمّ النبيّ أو غيره من المسلمين؟ وهذا ما لا دخل له بالأحداث التي كان يسيطرها المسلمون جميعاً بقيادة الرسول(صلى الله عليه وآله)، وإذا صحّ ما يقوله الكاتب فلماذا لا تتوقف قُريش عن عدائها للمسلمين بعد إسلام عمر بل نرى العكس إذ قرّرت قُريش مقاطعة بني هاشم فكتبت صحيفة المقاطعة وبعد ذلك تحقّق قرارها الجماعي بقتل النبيّ(صلى الله عليه وآله) ممّا اضطرّه للهجرة؟! فهذا القول ممّا لا دليل عليه ولكن ساقه المؤلف حسبما أملى عليه ذوقه وعواطفه.

الفصل السابع

مساءات قُريش

إعلان عمر إسلامه وصلاة المسلمين عند الكعبة، صحيفة المقاطعة ، جهود قُريش في محاربة محمد، سلاح الدعاية، سحر البيان، جبر النصراني، تأثير قُريش بالدعوة الجديدة، الطفيل الدوسي، وفد النصاري، ما منع قُريش أن تتابع محمدًا ! ، المنافسة ، الخوف على مكانة مكة، الفرع من البعث .

فتَّ إسلام عمر في عضد قُريش أن دخل ابن الخطاب في دين الله بالحمية والحماسة التي كان يحاربه من قبل بها. لم يخف إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤوس الملاء ويقاتلهم في سبيله. ولم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قُريش، بل دأب هو على نضال قُريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه^(٣٨٣). وأيقنت قُريش أن ما تنال به «محمدًا» وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال الناس على دين الله ، ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم، فأتمرت من جديد ماذا تصنع. واتفقوا فيما بينهم وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب مقاطعة تامة، فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. وعلّقوا صحيفة هذا العقد في جوف الكعبة توكيداً لها وتسجيلاً. وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة السلبية، سياسة التجويع والمقاطعة، ستكون أفعلاً أثراً من سياسة الأذى والإعنات، وإن لم ينقطعوا عن الإعنات ولا عن الأذى. وأقامت قُريش على حصار المسلمين وحصار بني هاشم وبني عبدالمطلب

(٣٨٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٢/١ و ٣٤٢ والصحيح إن ذلك كان بإسلام حمزة، كما جاء: «فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنع، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه». (سيرة ابن هشام: ٣١١/١، ٣١٢) وكذلك: «عزّ به النبي (صلى الله عليه وآله) — بإسلام حمزة — وأهل الإسلام، فشقّ ذلك على المشركين فعدلوا عن المنايذة الى المعاتبة وأقبلوا يرغبونه في المال والأنعام ويعرضون عليه الأزواج». (البدء والتاريخ: ١٤٨/٤ و ١٤٩، ٩٨/٥).

سنتين أو ثلاثاً ، كانت ترجو خلاصها أن تصل من «محمد» إلى اعتزال قومه إياه، فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر^(٣٨٤).

فأما «محمد» فلم يزد ذلك إلاّ اعتصاماً بحبل الله، ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلاّ ذوداً عنه وعن دين الله، ولم يحل دون انتشار الدعوة إلى الإسلام انتشاراً خرج بها من حدود مكة. وذاع أمر الدعوة بين العرب وقبائلها، بما جعل الدين الجديد يفشو ذكره في شبه الجزيرة بعد أن كان حبيساً بين جبال مكة، وما جعل قريشاً تزيد إمعاناً في تفكيرها كيف تحارب هذا الخارج عليها والذي يسب آلهتها، وكيف تقف دون انتشار دعوته بين قبائل العرب، ولا غنى لمكة عن هذه القبائل ولا غنى للقبائل عن مكة في التجارة المتصلة، التي تصدر عن أم القرى وترد إليها.

والحق، أنّ ما بذلته قريش من مجهود في محاربة هذا الخارج عليها وعلى دينها وآبائها، وما تابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء على هذه الدعوة الجديدة يعدو ما يتصوره العقل، هددت «محمدًا» وهددت أهله وأعمامه! تهكّمت به وبدعوته وسخرت منه وضمن اتبعه! أرسلت شعراءها قهجوه وتفري أدبمه^(٣٨٥) ! نالته بالأذى ونالت من اتّبعه بالسوء والعذاب! عرضت عليه الرشوة وعرضت عليه الملك وعرضت عليه كلّ ما يطمع الناس فيه عادة ! شرّدت أنصاره عن أوطانهم وأصابتهم في تجارتهم وفي أرزاقهم! أنذرتهم وأنذرهم الحرب وأهوالها وما تجني وما تدمر! وهاهي ذي تحاصرهم أخيراً لتميتهم جوعاً إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ومع ذلك ظلّ «محمد» يشتد في دعوة الناس بالحسنى إلى الحقّ الذي بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً . أفلم يأنّ لقريش أن تلقي سلاحها وأن تصدّق الأمين الذي عرفته منذ طفوليته وكل صباه وشبابه أميناً؟ أم أنّها لجأت إلى سلاح غير ما قدمنا من أسلحة النضال، وخيّل إليها أنّها مستطيعه به أن تكسب الموقعة، وأن تستبقي لأصنامها مكانة الألوهية التي تزعمها، وأن تستبقي بمكة متحف هذه الأصنام ومكان قداستها وكلّ ما ينالها بسبب هذه الأصنام من قداسة؟!

كلا! لم يأنّ لقريش أن تدعن وأن تسلم. وهي الآن أشدّ ما تكون خوفاً من انتشار دعوة «محمد» بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة؛ وقد بقي لديها سلاح لجأت إليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها في قوته وفي مضائه مطمع. ذلك سلاح الدّعاية، الدّعاية بكل ما تنطوي عليه من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج اشاعات وتضعيف لحجة الخصم واستعلاء بالدليل على دليله،

(٣٨٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٩/١، وأنساب الأشراف: ٢٧٠/١، وعيون الأثر: ١٤٧/١، وروضة الواعظين: ٥٣، ومنتهى الآمال:

١١٦/١.

(٣٨٥) تفري أدبمه: تقطع جلده، كناية عن كرامته.

الدعاية ضد الفكرة وضد صاحب الفكرة واتهامه فيها واتهامها لذاتها. الدعاية التي لا تقف عند حدود مكة والتي لم تكن مكة بحاجة إليها، كحاجة البادية وقبائلها وشبه الجزيرة وسائر أهلها. كان التهديد والاغراء والارهاب والتعذيب بعض ما يغني عن الدعاية في مكة، لكنها لم تكن لتغني عنها شيئاً عن الألوف الذين يفدون إلى مكة كل عام في التجارة والحج، والذين يجتمعون في أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز ليحجّوا إلى الكعبة بعد ذلك مقربين إلى أصنامهم ناحرين عندها ملتسمين منها البركة والمغفرة. لذلك فكرت قريش منذ استحرّت الخصومة بينها وبين «محمد» في تنظيم الدعاية ضده. وكانت في تفكيرها هذا أشدّ إمعاناً منذ فكر هو في مبادأة الحاج بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وهو قد فكر في هذا بعد السنين الأولى من بعثه. فهو قد بدأ نبياً منذ بعثه إلى أن جاءه الوحي أن ينذر عشيرته الأقرين. فلما أنذر قريشاً وأسلم منها من أسلم وألح في الكفر والعناد من ألح، ألقى عليه أن يدعو قومه العرب جميعاً، ليلقى عليه من بعد ذلك أن يدعو الناس كافة.

لما فكر في مبادأة الحاج من مختلف قبائل العرب بالدعوة إلى الله اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون ماذا عسى أن يقولوا في شأن «محمد» للعرب القادمين إلى موسم الحج، حتى لا يختلف بعضهم مع بعض ويكذب بعضهم بعضاً. واقترح بعضهم أن يقولوا: إن «محمدًا» كاهن؛ فردّ الوليد هذا الرأي أن ليس ما يقول «محمد» بزمزة^(٣٨٦) الكاهن ولا بسجعه. واقترح آخرون أن يزعموا أن «محمدًا» مجنون؛ فردّ الوليد هذا الرأي بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة. واقترح غيرهم أن يتهموا «محمدًا» بالسحر؛ فردّ الوليد بأن «محمدًا» لا ينفث في العقد ولا يأتي من عمل السحرة شيئاً. وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج من العرب: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإنّ ما يقوله سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته^(٣٨٧). وكان لهم عند العرب من الحجّة على قولهم، هذا ما أصابهم في مكة من فرقة وتحاذل وتناحر، بعد أن كانت مكة مضرب المثل في العصبية وفي قوة الرابطة. وانطلقت قريش في الموسم تحذّر الحاج من الاستماع إلى هذا الرجل وسحر بيانه حتى لا يصيبها ما أصاب مكة، فتكون فتنة تصلّي حرّها جزيرة العرب جميعاً^(٣٨٨).

(٣٨٦) الزمزة: الكلام الخفي المسموع .

(٣٨٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٧٠/١ — ٢٧١، وأنساب الأشراف: ١٥٠/١، مجمع البيان: ١٧٨/١٠.

(٣٨٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٧١/١ — ٢٧٢، السيرة النبوية لابن كثير: ٧٢/٢.

لكنّ دعاية كهذه لا يمكن أن تقوم وحدها أو تقاوم سحر هذا البيان الذي يؤمنون إليه. فإذا جاء الحقّ في هذا البيان الساحر فما يمنع الناس أن يؤمنوا به؟! وهل كان الاعتراف بالعجز وبتفوق الخصم دعاية ناجعة في يوم من الأيام؟! فلتكن لقريش إلى جانب هذه الدعاية دعاية أخرى. ولتلتمس قُريش هذه الدعاية عند النضر بن الحارث. وقد كان هذا النضر من شياطين قُريش، وكان قد قدّم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وعبادتها وأقوالها في الخير والشرّ وفي عناصر الكون. فأخذ نفسه، كلّما جلس «محمّد» مجلساً يدعو فيه قومه إلى الله ويحذّرهم عاقبة ما أصاب من قبلهم من الأمم التي أعرضت عن عبادة الله، بأن يخلف «محمّداً» في مجلسه وأن يقصّ على قُريش حديث فارس ودينها ثمّ يقول: بماذا يكون «محمّد» أحسن حديثاً مني؟ أليس «محمّد» يتلو من أساطير الأولين ما أتلو؟ وكانت قُريش تذيب أحاديث النضر من طريق الرواية دعاية ضدّ ما ينذر «محمّد» الناس به وما يدعوهم إليه^(٣٨٩).

وكان «محمّد» يكثر من الجلوس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، فكانت قُريش تزعم أن جبراً النصراني هذا هو الذي يعلم «محمّداً» أكثر ما يأتي به، فإذا كان لأحد أن يخرج على دين آباءه فالنصرانية أولى. وروّجت قُريش لزعمها هذا، فترل^(٣٩٠) في ذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)^(٣٩١).

بهذه الضروب وأمثالها من الدعاية جعلت قُريش تحارب «محمّداً» ترجو أن تبلغ بها منه أكثر ممّا يبلغ منه الأذى وممن اتبعه العذاب. على أنّ قوّة الحقّ في الصورة الواضحة البسيطة التي صوّر فيها على لسان «محمّد» كانت تعلو على ما يقولون، وما تفتأ لذلك تزداد كلّ يوم بين العرب انتشاراً.

قدم الطفيل بن عمر الدّوسي مكّة، وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فمشت إليه قُريش تحذّره من «محمّد» وأنّ قوله كالسحر يفرّق بين المرء وأهله، بل بين المرء ونفسه، وأنّهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكّة، وأنّ الخير في ألاّ يكلمه ولا يستمع إليه. وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبة وكان «محمّد» هناك، فسمع بعض قوله فإذا هو كلام حسن، فقال في نفسه: «وأنكل أمّي، والله إنّي لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من

(٣٨٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٥٨/١، السيرة النبويّة لابن كثير: ٥٠/٢ — ٥١، مجمع البيان: ٢٨/٤ — ٢٩.

(٣٩٠) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١١٧/٢٠، السيرة النبويّة لابن كثير: ٨٤/٢، مجمع البيان: ٢٠٠/١٤.

(٣٩١) النحل (١٦): ١٠٣.

هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته». واتبع «محمدًا» إلى بيته وأظهره على أمره ومادار بنفسه، فعرض «محمد» عليه الإسلام وتلا عليه القرآن، فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فلباه بعضهم وأبطأ بعض، وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم وانضموا إلى النبي بعد فتح مكة^(٣٩٢) وبعد أن بدأ النظام السياسي يأخذ في الإسلام صورة معينة.

وليس الطفيل الدوسي إلا مثلاً من كثير. ولم يكن عبّاد الأصنام وحدهم هم الذين يستجيبون إلى دعوة «محمد». قدم عليه وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره، فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له فاستجابوا وآمنوا به وصدّقوه، ثم غاظ قريشاً حتى سبّوهم وقالوا لهم: «خيّبكم الله من ركب، بعثكم من ورائكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال». ولم تكن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة «محمد» ولم تردّه عن الإسلام، بل زادهم بالله إيماناً على إيمانهم إذ كانوا نصارى وإذا كانوا من قبل أن يستمعوا إلى «محمد» لله مسلمين^(٣٩٣).

بل لقد بلغ من أمر «محمد» ما هو أعظم من هذا. بدأ أشد قريش خصومة يسألون أنفسهم: أحقاً أنه يدعو إلى الدين القيم، وأن ما يعدهم وما ينذرهم هو الصحيح؟ خرج أبو سفيان بن حرب وأبوجهل بن هشام والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا إلى «محمد» وهو في بيته، فأخذ كلّ منهم مجلساً يستمع فيه وكلّ منهم لا يعلم مكان صاحبه. وكان «محمد» يقوم الليل إلا قليلاً يُرّتل القرآن في هدوء وسكينة، ويردّد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه وفؤاده. فلما كان الفجر تفرّق المستمعون عائدين إلى منازلهم، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر «محمدًا» عليكم. فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأنّ رجله تحمّلانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى «محمد» يتلو كتاب ربّه. وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة. فلما أدركوا ما بهم لدعوة «محمد» من ضعف تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم وإن ترك ما سمعوا من «محمد» في نفوسهم من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم،

(٣٩٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٨٢/١، السيرة الحلبية: ٣٦٤/١ — ٣٦٥.

(٣٩٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٩١/١، عيون الأثر: ١٥٠/١.

وكلّهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعف وهو سيّد قومه فيضعف قومه ويتابعوا «محمّداً» معه (٣٩٤).

ما منعهم من أن يتابعوا «محمّداً؟» إنّه لا يريد منهم مالاً ولا فيهم سيادة ولا عليهم ملكاً أو سلطاناً. وهو بعد رجل جمّ التواضع شديد الحبّ لقومه والبرّ بهم والحرص على هدايتهم، شديد حساب النفس، حتى ليخشى إساءة المسكين والضعيف، ويرى المغفرة عن أذى يحتمله طمأنينة لقلبه وراحة لضميره. ألم يقف مع الوليد بن المغيرة يوماً وقد طمع في إسلامه، والوليد سيّد من سادات قُريش، فمرّ به ابن أمّ مكتوم الأعمى وجعل يستقرئه القرآن وألحّ في ذلك حتى شقّ على «محمّد» إلحاحه، لما شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد، فتولّى عنه وانصرف عابساً، فلمّا خلا إلى نفسه جعل يحاسبها عن صنيعها ويسألها أهو أخطأ (٣٩٥) حتى أنزل (٣٩٦) عليه الوحي بهذه الآيات: (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزَكَّى * أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَعْنى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ * فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي

(٣٩٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٥/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ١٦٠/١ — ١٦١.

(٣٩٥) الآيات لا تدلّ على أنّ المراد بها هو النبي (صلى الله عليه وآله) والظاهر أنّ المعنى بها غيره، لأنّ العبوس ليس من صفات النبي (صلى الله عليه وآله) حتى مع الكافرين السافرين بالعداء له فكيف بالمؤمنين الذين يطلبون الهداية منه.

ثمّ إنّ الآية تصف هذا الشخص العبوس بأنّه يتصدى للأغنياء وينجذب نحوهم وإن كفروا ويعرض عن الفقراء ولا يميل إليهم وإن أرادوا الهداية، هذه الصفات تعارض مع أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله) وصفاته الكريمة التي ينقلها القرآن فقد وصفه في سورة القلم (وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وهذه الآية نازلة قبل سورة عبس وبعد سورة العلق (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...) فكيف يعقل أنّ الله يعظم خلقه في أوّل بعثته ثمّ يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية ويذمّه.

وهناك آيات أخرى تحدّثت بنفس السياق وقد نزلت في أوائل الدعوة، مثل قوله تعالى: (وانذر عشيرتک الاقربين) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين الشعراء: ٢١٤ — ٢١٥، وقوله تعالى: (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) الحجر: ٨٨.

كلّ ذلك يؤكّد عدم تعقّل العبوس والإعراض عن المؤمنين، وقد أمر باحترامهم وخفض الجناح لهم وأن لا يمدّن عيناه إلى دنيا أهل الدنيا. نعم، روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) أنّها نزلت في رجل من بني أميّة كان عند النبي (صلى الله عليه وآله) فجاء ابن أمّ مكتوم، فلمّا رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

ويقول العلامة الطباطبائي في تفسيره: (غرض السورة عتاب من يقدّم الأغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين، فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة) تفسير الميزان: ٣٠٣/٢٠.

وأما ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً، من أنّه قال: «كان رسول الله إذا رأى عبد الله ابن أمّ مكتوم قال: مرحباً، مرحباً والله لا يعاتبني الله فيك أبداً. وكان يصنع به من اللطف، حتى يكف عن النبي (صلى الله عليه وآله) ثمّ كان يفعل به» تفسير البرهان: ٤٢٨/٤ وجميع البيان: ٤٣٧/١٠.

وفي هذا تعريض بذلك الرجل الذي ارتكب في حقّ أمّ مكتوم تلك المخالفة، ونفي قاطع حتى لإمكان صدور مثل ذلك عنه (صلى الله عليه وآله) بحيث يستحقّ العتاب والتوبيخ، إذ لا معنى لهذا النفي لو كان الله تعالى قد عاتبه فيه فعلاً. راجع الصحيح من السيرة: ٨٣/٢ وتفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي: ٣٠٣/٢٠.

(٣٩٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٦٣/١.

سَفَرَة * كِرَام بَرَرَة^(٣٩٧). فما دام ذلك أمره فما منع قريشاً أن يتابعوه؛ وأن يعينوه على دعوته؟! وبخاصة بعد إذ لانت قلوبهم، وإذ أنستهم السنون ما تدفع إليه المحافظة على القديم البالي من جمود النفس، وإذا رأوا في دعوة «محمد» جلالاً وكمالاً !

ولكن ! أحقاً تُنسى السنون النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالي؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ومن في قلوبهم نزوع دائم إلى الكمال. هؤلاء ما يزالون حياتهم كلها يقبلون الحقائق التي آمنوا من قبل بها لينفوا ما يعلق بها من زيف بالغة ما بلغت تفاهته. وهؤلاء قلوبهم وأفئدتهم وعقولهم كأنها بوتقة دائمة الاتقاد؛ تتقبل كل جديد من الرأي يلقي إليها، فتصهره وتطهره وتنفي خبثه وتستبقي ما فيه من خير وحق وجمال. وهؤلاء يلتمسون الحق في كل شيء وفي كل مكان وعلى كل لسان. لكن هؤلاء في كل أمة وعصر هم الصفوة المختارة وهم لذلك قلة أبداً. وهم يجدون الخصومة دائماً ناشبة على أشدها بينهم وبين ذوي المال والجاه والسلطان؛ لأن هؤلاء يخافون من كل جديد أن يجني على ما لهم أو جاههم أو سلطانهم، وهم لا يعرفون غير هذه في الحياة حقائق ملموسة. كل ما سوى هذه حق إذا هو أدى إلى مزيد منها، باطل إذا بعث إلى أصحابها أيسر ظل من الريبة إزاءها. رب المال عنده أن الفضيلة حق إذا زادت في ماله، باطل إذا حرمت منه، وأن الدين حق إذا عرف كيف يستخره لشهواته، باطل إذا وقف في وجه هذه الشهوات وحطمها. ورب الجاه ورب السلطان في ذلك كرب المال سواء. وهؤلاء في خصومتهم لكل جديد يخافون منه يستعدون السواد الذي يفيد منهم رزقه على المنادي بهذا الرأي الجديد. وهم يستعدون السواد بتقديس الصروح القديمة، التي نخر السوس فيها بعد أن فر الروح منها. وهم يقيمون هذه الصروح هياكل من الحجر ليزعموا للسواد البريء أن الروح المقدس، الذي لفوه هم في أكفانه، ما يزال في جلاله بين محبس هذه الهياكل. والسواد ينصرهم أكثر الأمور؛ لأنه ينظر قبل كل شيء إلى رزقه، ولا يسهل عليه أن يدرك أن أية حقيقة لا تطيق أن تبقى حبيسة بين جدران معبد من المعابد بالغاً ما بلغ جماله وجلاله، وأن في طبع الحقيقة أن تكون حرة طليقة تغزو النفوس وتغذوها، لا تفرق فيها بين نفس سيّد ونفس عبد، ولا يقف

نظام من النظام

في سبيلها بالغة ما بلغت قسوته وبطش أصحابه في حمايته. فكيف تريد هؤلاء الذين كانوا يتسلّلون لواذاً^(٣٩٨) يستمعون إلى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم في كثير مما يرتكبون، هو لا يفرّق بين الأعمى ومن استغنى إلا بطهارة النفس لا بكثرة المال، وهو ينادي الناس جميعاً: (إن

(٣٩٧) عيس (٨٠): ١ — ١٦ .

(٣٩٨) لاذ به لواذاً وليذاً؛ أي لجأ إليه وعاذ به — الصحاح، الجوهري: ٥٧٠/٢ .

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ^(٣٩٩). فإذا ظلَّ أبوسفیان ومن معه على دين آبائهم، فليس ذلك إيمان منهم به بحقّ محتويه ، بل هو حرص على نظام قديم أقامه ثمَّ أفاء الخطّ عليهم في ظلّ هذا النظام من بسطة المال والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلّها دونه.

وإلى جانب هذا الحرص كان يقوم الحسد والتنافس والتنازع مانعاً من إقبال قُريش على متابعة النبيّ. كان أميّة بن أبي الصلت من حدّثوا عن نبيّ يقوم في العرب قبل ظهور «محمد» حتى طمع في النبوة؛ وأكلت قلبه الغيرة حين لم يتزل الوحي عليه، فلم يرض أن يتابع من ظنّه منافسه مع غلبة الحكمة على شعره، حتى قال (عليه السلام) يوماً وهذا الشعر يروى أمامه: «أميّة آمن شعره وكفر قلبه»^(٤٠٠). وكان الوليد بن المغيرة يقول: «أيتزل على محمد وأترك أنا كبير قُريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيّد ثقيف نحن عظيمي القريتين؟!»^(٤٠١). وإلى هذا أشار قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ* أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)^(٤٠٢). ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابة في القصة التي رويها ذهب الأخنس إلى أبي جهل في بيته فسأله: يا أبا الحكم، ما رأيت فيما سمعنا من «محمد؟!» فكان جواب أبي جهل: «ماذا سمعت؟ : تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تخاذلنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه»^(٤٠٣). وللحسد والتنافس والتنازع في هذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يُخطئ الإنسان إذا هو حاول الاغضاء عنه أو لم يقدره حقّ قدره. ويكفي أن تذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعاً من سلطان، لتقدّر أن التخلص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب طويل يُصقل الفؤاد، ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى، ويسموّ بالعاطفة وبالروح إلى مرقى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك، بل عدوك هي الحقيقة على لسان حميمك ووليّك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الاسكندر ومُلك قيصر. هذه مكانة قلّ من يصل إليها إلا من هدى الله قلبه للحق. أمّا سائر الناس فتعميهم العاجلة من مال ونشب^(٤٠٤)، ويعميهم الاستمتاع باللحظة التي يعيشون فيها، عن الارتفاع إلى

(٣٩٩) الحجرات (٤٩): ١٣ .

(٤٠٠) البداية والنهاية: ٢٨٧/٢، السيرة النبويّة لابن كثير: ١٣٨/١ .

(٤٠١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٦١/١، السيرة النبويّة لابن كثير: ٥٤/٢، مجمع البيان: ٧٨/٩ — ٧٩ .

(٤٠٢) الزخرف (٤٣): ٣١ — ٣٢ .

(٤٠٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٦/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ١٦١/١ .

(٤٠٤) النشب : المال الأصيل كتاب العين: ٢٦٩/٦ .

هذه المعاني. وهم في سبيل هذه العاجلة واقتناص تلك اللحظة يحاربون ويقاتلون، لا يحول شيء دون أن ينشب أحدهم أظفاره وأنيابه في عنق الحق والخير والفضيلة، وأن يدوس تحت أقدام دنسة أظهر معاني الكمال. ما بالك بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون «محمداً» يزداد أنصاره كل يوم عدداً، ويخشون يوماً يكون للحق الذي يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة، ويمتد من وراء ذلك إلى العرب في مختلف أنحاء الجزيرة! دون هذا قطّ الرقاب إذا استطاعوا قطعها. ودون هذا الدعاية والمقاطعة والحصار والتعذيب والتنكيل يصبّونه على هام خصومهم صباً.

وسبب ثالث منع قريشاً من متابعة محمد. ذلك فزعهم من البعث ومن عذاب جهنم يوم الحساب^(٤٠٥). فقد رأيتهم قوماً مكبين على اللهو مسرفين فيه يتخذون من التجارة ومن الربا إليه الوسيلة، ولا يرى الغنيّ منهم في شيء من الأشياء رذيلة يتجافى عنها. ثمّ كان لهم من التقرب إلى أصنامهم ما يزعمون أنّه يكفر عن سيئاتهم وذنوبهم. بحسب الرجل أن يضرب القداح عند هبل قبل أن يقدم على أمر ليكون ما تشير به عليه القداح أمر هبل^(٤٠٦). وبحسبه أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه! هو في حلّ من أن يقتل وينهب ويرتكب الفحشاء ولا يعفّ عن الخنا^(٤٠٧) ما دام قديراً على رشوة هذه الآلهة بالقرابين والنحور! وهذا «محمد» يعلن إليهم في آيات مرعبة تنخلع من هولها القلوب وتضطرب الأفئدة أن ربهم لهم بالمرصاد، وأنهم مبعوثون في اليوم الآخر خلقاً جديداً، وأن أعمالهم هي وحدها الشفيعة^(٤٠٨) لهم : (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ)^(٤٠٩). والصاخة تحي: (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنِيبِهِ * وصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى)^(٤١٠) (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ * فَهُوَ فِي

(٤٠٥) السورة النبوية لابن هشام: ٣١٦/١ .

(٤٠٦) تفسير الرازي: ١٣٥/١١، تفسير الطبري: ٤١٥/٤، جمع البيان: ٢٧٢/٣ .

(٤٠٧) الخنا من الكلام: أفحشه — كتاب العين: ٣١٠/٤ .

(٤٠٨) حصر الشفاعة في الأعمال ونفيها عمّا سواها، ينافي كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والثابتة وكثيراً من أخبار أئمة أهل

البيت (عليهم السلام)، بل وإشارات من القرآن الكريم قبل ذلك، راجع سلسلة في رحاب أهل البيت العدد (٩) الصادر عن المجمع العالمي

لأهل البيت (عليهم السلام) .

(٤٠٩) عيس (٨٠): ٣٣ — ٤٢ .

(٤١٠) المعارج (٧٠): ٨ — ١٨ .

عَيْشَةً رَاضِيَةً * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيهِ *
يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ * خُدُوهُ فَعُلُّوهُ * ثُمَّ
الْحَجِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا
يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ * لَا
يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ^(٤١١). أَتَلُوتَ هَذَا؟! أَسَمِعْتَهُ؟ أَلَمْ يَأْخُذْكَ الْهَوْلُ وَيَتَوَلَّكَ الْفَزَعُ؟ وَلَيْسَ هَذَا
إِلَّا قَلِيلًا لِّمَا كَانَ يَنْذِرُ مُحَمَّدٌ بِهِ قَوْمَهُ. وَأَنْتَ تَتْلُوهُ الْيَوْمَ وَقَدْ تَلَوْتَهُ وَسَمِعْتَهُ مِنْ قَبْلِ مَرَاتٍ. وَأَنْتَ
تَعِيدُ إِلَى ذَهْنِكَ إِذْ تَتْلُوهُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَصْوِيرِ جَهَنَّمَ: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ
وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)^(٤١٢) (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)^(٤١٣).
يَسِيرُ عَلَيْكَ إِذْ تَرَى رُوحَ نَفْسِكَ أَنْ تَقْدَّرَ مَا كَانَ يَتَوَلَّى قَرِيشًا وَالمُتَرَفِينَ مِنْهَا خَاصَّةً، إِذْ كَانُوا
يَسْتَمْعُونَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ بَعْدَ إِذْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ مَا يَنْذِرُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ بِنَجْوَةٍ فِي حِمَى آلِهِمْ
وَأَوْثَانِهِمْ. وَيَسِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَقْدَّرَ مَبْلَغُ حِمَايَتِهِمْ فِي تَكْذِيبِ «مُحَمَّدٍ» وَالدَّعَايَةِ ضِدَّهُ وَمَنَاوَاتِهِ
وَالْتَّالِبِ عَلَيْهِ. فَهَمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ الْبَعْثَ وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَرِفُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ عَنْهُ. لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ
لِيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ مَجْزِيٌّ عَنْ عَمَلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ الْحَيَاةَ، إِنَّمَا كَانَ خَوْفُهُمْ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ. كَانَ خَوْفُهُمْ مِنَ الْمَرَضِ وَمِنَ الْإِصَابَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ وَفِي الْمَكَانَةِ وَالْجَاهِ. كَانَتِ الْحَيَاةُ
عِنْدَهُمْ غَايَةَ الْحَيَاةِ، فَكَانَ كُلُّ هِمِّهِمْ مَنْصَرَفًا لِمَجْمَعِ كُلِّ أَسْبَابِ الْإِسْتِمْتَاعِ فِيهَا وَدَفْعِ كُلِّ مَا
يَخْشَوْنَهُ مِنْهَا. وَإِذَا كَانَ الْمُسْتَقْبَلُ غَيْبًا مَحْجُوبًا أَمَامَهُمْ، وَكَانَتِ نَفُوسُهُمْ تَحْسُ أَنْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَرًّا
قَدْ يَصِيبُهُمُ الْغَيْبُ مِنْ أَجَلِهِ بِأَذَى، فَقَدْ كَانُوا يَتَفَاءَلُونَ وَيَتَطَيَّرُونَ، وَكَانُوا يَضْرِبُونَ الْقَدَاحَ،
وَكَانَ عِنْدَهُمُ السَّانِحُ وَالْبَارِحُ، وَكَانُوا يَنْحَرُونَ لِلْأَوْثَانِ، كُلٌّ ذَلِكَ يَدَّرِعُونَ بِهِ ضِدَّ مَا يَخَافُونَ مِنْ
هَذَا الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ فِي الْحَيَاةِ. أَمَّا الْجَزَاءُ بَعْدَ الْمَوْتِ! أَمَّا الْبَعْثُ وَالنَّشُورُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ! أَمَّا
الْجَنَّةُ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ وَجَهَنَّمَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلظَّالِمِينَ! أَمَّا ذَلِكَ كُلُّهُ فَلَمْ يَكُنْ يَدُورُ بِخَاطِرِهِمْ،
وَذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ سَمِعُوا بِهِ فِي دِينِ الْيَهُودِ وَفِي دِينِ النَّصَارَى، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا عَنْهُ تَصْوِيرًا قَوِيًّا
رَهِيْبًا كَالَّذِي يَسْمَعُهُمُ الْوَحْيُ عَلَى لِسَانِ «مُحَمَّدٍ»، وَالَّذِي يُنْذِرُهُمْ، إِنْ هُمْ ظَلُّوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
هُوَ الْحَيَاةِ، أَوْ الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْمَالِ بِظُلْمِ الضَّعِيفِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَإِهْمَالِ الْمُسْكِينِ وَالْغُلُوِّ فِي الرِّبَا،
بِعَذَابِ خَالِدٍ فِي دَرْكِ سَقَرِ تَصْطِيقِ الْقُلُوبِ فِرْعَاً مِنْ هَوْلِهِ لِحُجُودِ سَمَاعِ صَوْرَتِهِ، مَا بِالْكَ بِه مُحَقَّقًا

(٤١١) الحاقة (٦٩): ١٨ — ٣٧ .

(٤١٢) سورة ق (٥٠): ٣٠ .

(٤١٣) النساء (٤): ٥٦ .

تراه البصيرة جاثماً وراء الخطوة الضيقة التي يتخطى الإنسان من جانب الحياة إلى ناحية الموت، بعده البعث والنشور والرضا أو الشور.

أما ما وعد الله المتقين جنة عرضها السموات والأرض، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلاً سلاماً سلاماً، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، فكانت قُريش في ريب منها، وكان يزيدُها ريباً تعلّقها بالعاجلة وحرصها على أن ترى هذا النعيم محققاً لها في حياة هذا العالم، وضيقها بالانتظار إلى يوم الجزاء على حين لم تكن هي تؤمن بيوم الجزاء.

ولقد يأخذ الإنسان العجب كيف أقفلت قلوب العرب دون تصوّر الحياة الأخرى والجزاء فيها في حين لا تزال معركة بين الخير والشر قائمة أمام هذا العالم الإنساني منذ الأزل لم تعرف يوماً هوادة ولا هي اطمأنت يوماً إلى سكينه. كان المصريون القدماء قبل أُلوف السنين من بعث محمد يزودون الميت بزاد الدار الآخرة ويضعون معه في أكفانه كتاب الموتى وأغنياته ونذره، ويصورون على معابدهم صور الميزان والحساب والتوبة والعقاب. وكان الهنود يصوِّرون رضا النفس الراضية في «النرفانا» وتناسخ روح المسيء في صور من الخلق تتعذب أثناءها أُلوف السنين وملايينها حتى تُلهِم الحق فتطهر وتعود كَرّةً أُخرى إلى الخير طمعاً في بلوغ «النرفانا»^(٤١). ولم يكن مجوس فارس لينكروا معركة الخير والشر وآلهة الظلمة والنور. والموسوية والعيسوية تصفان حياة الخلد ورضا الله وغضبه. أفلم يبلغ هؤلاء العرب شيء من ذلك كلّ وقد كانوا أهل تجارة يتصلون في رحلاتهم وأسفارهم بأهل هذه النحل جميعاً؟! وكيف لا يبلغهم وكيف لا تكون لهم صورة خاصة منه وهم أهل بادية أشدّ اتصالاً باللاهية وأقرب لتصور ما يشتمل عليه هذا الوجود من أرواح تتبدى في لهب الظهيرة وفي غسق الليل؟! أرواح خيرة وأخرى شريرة! أرواح هي التي يحسبونها تسكن جوف الأصنام التي تقربهم إلى الله زلفى. لا ريب أنّه كانت عندهم فكرة من هذا الغيب المحيط بهم. لكنهم كأهل تجارة، كانت نفوسهم أكثر للواقع المحسوس قدراً؛ وكأهل هو وخر أشدّ لجزاء الآخرة إنكاراً. فكانوا يحسبون ما يلقيه الإنسان في هذه الحياة من خير أو شرّ جزء عمله ولا جزء عنه بعد الحياة. ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحي نذيراً وبشيراً قد نزل بمكة في أوّل الرسالة، حرصاً على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بعث «محمد» بينهم. ولقد كان جديراً بأن ينبههم إلى ما هم فيه من غي وضلالة؛ جديراً بأن يرتفع بهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار.

(٤١٤) الفناء في الذات العليا أو الإتحاد بها، وتلمس بأن يسلك المرء طريقاً ذا ثماني مراحل يُعرف بـ (الطريق الثماني النبيل) حتّى إذا تمّ له ذلك

تحرّر من الألم ونعم بالطمأنينة والسعادة القصوى ولفظة «نرفانا» سنسكريتيّة الأصل ومعناها الفناء.

عن موسوعة المورد لمثير البعلبكي: ١٣٥/٧ مادة «نرفاتا».

وفي سبيل هذا الخلاص الروحي لأهله وللناس كافة احتمل «محمد» من آمن به من ألوان الأذى وصور التضحية ، ومن آلام النفس والجسد، ومن الارتحال عن الوطن، ومن عداوة الأهل والولد، ما مرّ بك شيء منه. وكأنما كان «محمد» يزداد لأهله حباً وعلى خلاصهم حرصاً كلما ازدادوا إيذاء ومساءة. ويوم البعث والحساب كان آية الآيات التي يجب أن يتنبّهوا لها، لتتقذهم من شرّ وثنيّتهم ومن التورّط في آثامهم. ولذلك لم يكن الوحي في السنوات الأولى يفتقر عن إنذارهم بها وتفتيح عيونهم عليها، برغم إمعانهم في إنكارها وفي الازورار عنها، ثمّ دعاهم إلى إشعال هذه الحرب الضروس التي لم تهدأ بينهم وبين «محمد» ثائرتها، حتى تمّ للإسلام النصر، وحتى أظهر الله دينه على الدين كلّه.

* * *

الفصل الثامن: من نقض الصحيفة إلى الإسراء

الفصلُ الثامنُ

من نقض الصحيفة إلى الإسراء

فرار المسلمين من مكة إلى شعاب الجبل، عدم
اختلاطهم بالناس إلّا في الأشهر الحرم، قيام زهير وأصحابه
في نقض الصحيفة، وفاة أبي طالب وخديجة، إيذاء
قُريش محمّداً، ذهاب محمّد إلى الطائف وردّ ثقيف إيّاه، الإسراء والمعراج

ظَلَّت الصحيفة التي تعاقدت قُريش فيها على مقاطعة «محمّد» وحصار المسلمين نافذة ثلاث
سنوات متتابة، احتُمى «محمّد» وأهله وأصحابه خلالها في شعب من شعاب الجبل خارج مكة،
يعانون الحرمان ألواناً، ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم. ولم يكن
يتاح لـ «محمّد» ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدث إليهم إلّا في الأشهر الحرم، حين يفد
العرب إلى مكة حاجّين، وحين تضع الخصومات أوزارها، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا
انتقام. في هذه الأشهر كان «محمّد» يتزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشّرهم بثوابه
ويُنذرهم عذابه. وكان ما أصاب «محمّداً» من الأذى في سبيل دعوته شفيعة عند كثيرين؛ كانوا
يسمعون من ذلك ما يزيدهم عليه عطفاً وعلى دعوته إقبالاً. وهذا الحصار الذي أوقعته قُريش
واحتماله إيّاه صابراً في سبيل رسالته، كسب له كثيراً من القلوب التي لم تبلغ منها القسوة ما
بلغت من قلب أبي جهل وأبي لهب وأمثالها^(٤١٥).

على أنّ طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قُريش، وهُم منهم وإخوانهم
وأصهارهم وأبناء عمومتهم، جعل كثيرين يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة؛ فلولا أن
كان من أهل مكة رجال لهم على المسلمين عطف يحملون إليهم الطعام في الشعب الذي احتُموا
به لهلكوا جوعاً. وكان هشام بن عمرو من أحسن قُريش في هذا الظرف عطفاً على المسلمين.

(٤١٥) تاريخ الطبري: ٥٥٠/١ — ٥٥٥، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٨/١ — ٢٠٩، وإعلام الوري: ١٢٥/١.

كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً أو برّاً فيسير به جوف الليل، حتى إذا استقبل فم الشعب خلع خطامه ثمّ ضرب على جنبه فدخل البعير الشعب عليهم^(٤١٦). ولما ضاق بما يحتمل «محمد» وأصحابه من الأذى صدرًا، مشى إلى زهير بن أبي أمية، وكانت أمّه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال: يا زهير، أقدر رضىت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأحوالك حيث قد علمنا، لا يتاعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم! أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أحوال أبي الحكم بن هشام ثمّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سرّاً. واتفق معهما المطعم بن عدي وأبوالبخترى بن هشام وزمعة ابن الأسود. وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها. وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعا ثمّ نادى في الناس: يا أهل مكة، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم هلكى لا يتاعون ولا يبتاع منهم. والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وما كان أبو جهل يسمعه حتى صاح به: كذبت والله لا تنشق! فتجاوبت أصوات زمعة وأبي البخترى والمطعم وهشام بن عمرو كلّهم يكذبون أباجهل ويؤيدون زهيراً. وأدرك أبو جهل أن الأمر قضي بليل، وأن القوم اتفقوا عليه، وأن مخالفتهم قد تثير شرّاً، فأوجس خيفة وتراجع. وقام المطعم ليشق الصحيفة فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها «باسمك اللهم»^(٤١٧)^(٤١٨). وبذلك أتيح لـ «محمد» وأصحابه أن يعودوا من

(٤١٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٤/١. بل هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، تاريخ الطبري: ٥٥٠/١.

(٤١٧) سيرة ابن هشام: ٣٧٥/١ — ٣٧٦، إعلام الوری: ١٢٧/١.

(٤١٨) وهناك تصوير آخر لمسألة الصحيفة: لقد عزم أبو طالب مع ابن أخيه (محمد صلى الله عليه وآله) على مواجهة قرارات المقاطعة، وتلقاها

بقوة وصبر عظيمين، ولم يستجب لضغوطات قُريش، وكان لأبي طالب دور رسالي بارز أثناء حضور المسلمين في الشَّعب.

فقد كان يراقب فراش الرسول في كلّ ليلة لئلا يتعرض النبي (صلى الله عليه وآله) لسوء من قبل قُريش.

وتراه عند نيام المسلمين في الليل كان يأمر أبناءه وإخوانه أو بني عمّه أن يضطجعوا على فراش الرسول، ويريد من الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يرقد على بعض فرشهم، وابتغى أبو طالب من هذا الأسلوب أن يحافظ على حياة الرسول من الخطر. كما روى ابن اسحاق ونقله الأُميني في الغدير: ٤٠٤/٧.

وبعد أن مضى زمن طويل على المحاصرة في داخل الشَّعب؛ جاء النبي يوماً إلى أبي طالب باعتباره القطب الذي تدور حوله فعاليات الشَّعب وقال له: بأنّ الله قد أخبره بأنّ الأرضة قد أكلت الصحيفة — أي وثيقة قرارات المقاطعة — ولم تدع شيئاً منها إلا اسم الله.

وكان أبو طالب يدرك هذا المعنى، كما أنّه كان يثق بقول رسول الله ويصدّقه مطلقاً، لذا تحرّك أبو طالب نحو قُريش من أجل استثمار هذا الحدث الإلهي العظيم، ليكون دالّةً وعوناً له في فكّ الحصار لينطلق الرسول بدعوته.

فانطلق أبو طالب لقريش كمحاوّر يُمثّل الرسول، لعلّ قريشاً تقبل بطرحه الجديد وتراجع عن حصارها.

فأخبر أبو طالب قريشاً بهذا الحدث وقال لهم: إذا صدق «محمد (صلى الله عليه وآله)» بهذه الدعوى لا نسلّمه حتى نموت عند آخرنا، وإذا كان الخير باطلاً؛ سلّمناه إليكم، ومن الثابت أنّ أباطالب كان يعلم بأنّ رسول الله صادق في قوله، ونتيجة حوار أبي طالب قبلت قُريش هذا العرض.

الشَّعب إلى مكّة وأن يبيعوا قريشاً ويبتاعوا منها، وإن بقيت صلات الفريقين كما كانت وبقي كل منهم متحفّزاً ليوم يستعلي فيه على صاحبه^(٤١٩).

ذهب بعض كتاب السير: إلى أنّ الذين قاموا في نقض الصحيفة ثمّ كانوا لا يزالون على عبادة الأوثان، ذهبوا إلى «محمد» يسألونه، منعاً للشرّ، أن يتصالح وقريشاً على شيء، كأنّ يسلم بآلهم ولو يطوف بأصابعه؛ فمالت نفسه إلى شيء من هذا تقديراً لجميلهم، وقال فيما بينه وبين نفسه: «وما عليّ لو فعلت والله يعلم أنّي بارٌّ»^(٤٢٠) أو إلى أن هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة وجماعة معهم خلوا بـ «محمد» ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ويسودّونه ويقاربونه ويقولون له: أنت سيّدنا، يا سيّدنا، وأنّهم مازالوا به حتى كان يقاربهم في بعض ما يريدون^(٤٢١). وهاتان

وعند التفتيش في محتوى الصحيفة، وجدوا فعلاً أن الأرض قد أكلت الصحيفة وتركت اسم الله، وانتصر الرسول وأبو طالب بفعل التسديد الإلهي، وثبت صدق دعوى الرسول، واتضح للناس عامة أنّ قريشاً ظالمة في مواجهتها للنبي (صلى الله عليه وآله).

وبعد فكّ الحصار ذهب أبو طالب إلى الكعبة، ليدعو الله فيها وقد لحّص موقفه، فقال — بعد أن وجدوا الأمر كما أخبر به النبي (صلى الله عليه وآله) — علام نخضر ونخبس وقد بان الأمر وتبين أنّكم أولى بالظلم والقطيعة؟ ودخل هو ومن معه بين أستار الكعبة، وقال: اللهم انصرونا على من ظلمنا، واستحلّ ما يحرم عليه منا. الغدير للأميني: ٣٦٣/٧.

واستمرت مناصرة أبي طالب للنبي (صلى الله عليه وآله) منذ بعثه الله تعالى، لا ملّ فيها ولا وهن ولا تخلّياً بحال من الأحوال، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وذلك في السنة الثالثة قبل الهجرة. (زاد المعاد لابن القيم: ٤٦/٢).

(٤١٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٥/١ — ٣٧٦، وإعلام الوري: ١٢٩/١.

(٤٢٠) ما هو موجود في المصادر: «وما عليّ لو فعلت والله يعلم أنّي لكار» تفسير الفخر الرازي: ٢١/٢٠، وتفسير الطبري: ١١٨/٨، أو «ما عليّ لو فعلت والله يعلم مني خلافة» تفسير الدر المنثور: ٣٥٢/٤.

(٤٢١) وهذا الكلام مردود من عدّة وجوه:

أولاً: لم يذكر أحد من المؤرخين ولا من المفسرين بأنّ هؤلاء الذين نقضوا مقررات الصحيفة قد ذهبوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) كهينة مساعي تُصلح بينه وبين قريش والنبي تعاطف مع نواياهم فمالت نفسه لطلبهم تقديراً لرّد جميلهم المتمثّل بنقض الصحيفة.

ثانياً: العبارات التي ساقها المؤلف ينقلها المفسرون وأصحاب التواريخ في جماعة من ثقيف حين لمس النبي (صلى الله عليه وآله) الحجر الأسود فمنعته قريش وقالوا: لا ندعه حتى يلم بآلهم فحدّث نفسه. تاريخ الطبري: ١٨/٨.

وهذه الجماعة لا صلة لها بمسألة النفر الذين اخترقوا مقررات الصحيفة من هنا ينبغي التفريق بين النفر الذين هم من ثقيف وبين النفر الذين اخترقوا مقررات الصحيفة.

ثالثاً: لم نجد من المصادر التفسيرية أو التاريخية المعتبرة ما يشير إلى علاقة أسطورة الغرائق التي سبقت الإشارة إليها وهي من الخرافات في نظر المؤلف مع العرض القريشي الجديد وميل النبي (صلى الله عليه وآله) إليه.

رابعاً: تناول المفسرون ميل النبي (صلى الله عليه وآله) لمقترح المشركين تحت تفسير قوله تعالى: (لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً...) مستقلاً عن أي حدث سوى الطرح الذي تقدّم به النفر من ثقيف سابق الذكر فلا ينبغي الخلط بين هؤلاء الذين من ثقيف مع مسائل أخرى لا صلة لها بالحادث.

خامساً: وحتى الطبري في تاريخه لم يُصرّح بهذا الربط وحسب الظنّ أنّ المؤلف قد اعتمده لأنّه الأقرب لهذا التصوير علماً أنّ نقل الطبري قد ساد الاضطراب والخلخلة فقد يوحى للقارئ من خلال تسلسله لذكر الأحداث ابتداءً من مبادرة حكيم بن حزام الذي اخترق مقررات الصحيفة فعلاً بنقله الطعام إلى خديجة التي كانت داخل الشيعب سرّاً عن طريق غلامه وذكر الطبري بعدها مباشرة فكرة الدمج بين الوثنية والتوحيد التي اقترحتها البعض من قريش ونزول قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...) إلى أنّ ذكر فيما بعد قصة الغرائق، وهذا التشويش من قبل الطبري أملى على هيكل هذا الربط بين الأحداث لينتهي بأنّ هذا الحدّث دفع بالنبي (صلى الله عليه وآله) أن يتعاطف معهم ومن الواضح أنّه لا ربط بين الأحداث وإن وجد فلا أحد يقول بأنّ النبي قد حدّث نفسه بالميل إلى المشركين.

الروايتان هما بعض ما حدث به سعيد ابن جبير في الأولى وقتادة في الثانية. ويذكرون أن الله عصم محمداً بعد ذلك وأنزل عليه قوله: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَتَفَتَّرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً* إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) (٢٢). وهذه الآيات قد نزلت في رأي أصحاب قصة الغرائيق في تلك القصة المكذوبة كما قد رأيت (٢٣). وهذان المحدثان يردّانها إلى قصة نقض الصحيفة. وقد نزلت هذه الآيات في حديث عطاء، عن ابن عباس فيوفد ثقيف، إذ طلبوا إلى «محمد» أن يجرّم واديهم كما حرّمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فتردّد النبي (عليه السلام) حتى نزلت (٢٤). ومهما تكن الحقيقة الثابتة التي لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التي نزلت الآيات فيها، فإنّها تصوّر ناحية من نواحي العظمة النفسية لـ «محمد» كما تصوّر صدق إخلاصه تصويراً قوياً. وهذه الناحية تصوّرها كذلك الآيات التي نقلنا من سورة «عبس»؛ ويشهد بها تاريخ «محمد» كلّ. تلك أنّه كان يصارح الناس بأنه بشر مثلهم يوحي ربّه إليه هدايتهم، وأنّه وهو بشر مثلهم معرض للخطأ لولا عصمة الله إيّاه. فهو قد أخطأ حين عبس لابن أمّ مكتوم وتولّى عنه (٢٥)، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت آيات الإسراء بشأنه، وكاد يفتن عن الذي أوحى إليه ليفتري غيره. فإذا نزل عليه الوحي ينبّهه إلى ما صنع في

ساسداً: لا معنى لتوجيه النصوص والأحداث التاريخية وترقيعها بهذه الطريقة لأجل أن تلائم الأدواق كما لا مصلحة سوى التهاون وعدم التدقيق بالنصوص، نعم تعميق هذه الأفكار بمهّد ذهن القارئ لأن يقلل نصوص أخرى تُسيء لنبّي الرحمة أو تتناوله (صلى الله عليه وآله) كشخص عادي.

سابعاً: النبي (صلى الله عليه وآله) أرفع من أن تميل نفسه فيتنازل عن شعار التوحيد الذي طالما قاتل من أجله وحارب الأقرين وهو قبل فترة وجيزة على مبنى المؤلف في ذكره الأحداث قد أجاب عمّه أبا طالب — حول الطرح الذي تقدمت به قريش قبل تنفيذ مقرّرات الصحيفة: «والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري...».

(٤٢٢) الإسراء (١٧): ٧٣ — ٧٥ .

(٤٢٣) راجع الفصل السادس قصة الغرائيق : ٢١٧ .

(٤٢٤) ويضاف هنا في الردّ على مزعومة الغرائيق الخرافية حين يستدل مروّجوها بقوله تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَتَفَتَّرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ...) حيث يقولون إنّها نزلت في هذه المناسبة.. فإنّ هذه الآيات تناقض وتنافي هذه القضية؛ فكيف تكون قد نزلت من أجلها؟! إذ إنّها تقول: إنّ لم يركن إليهم، بل لم يقرب إلى الركون إليهم، وأنّ الله قد ثبّته، وأنّه لو ركن لعوقب.. وقضية الغرائيق تقول: إنّّه قد زاد على الركون، فاستجاب، وافترى، وأدخل في القرآن ما ليس فيه.

ومعنى الآية : أن المشركين قد أصرّوا على أن يتركهم وشأنهم، وتفاوضوا معه ومع أبي طالب كثيراً، فلربّما يكون النبي (صلى الله عليه وآله) قد فكّر في أن يمهّلهم قليلاً، لعلّهم يفكّرون ويرجعون؛ فجاءت الآية لتقول له: إنّ الصلاح في عدم الامهال، بل في الشدّة... سوى هذا كلّ... فإنّهم يقولون: إنّ آيات سورة الإسراء قد نزلت في ثقيف، حينما اشترطوا لإسلامهم شروطاً تزيد في شرفهم. وقيل: نزلت في قريش حينما منعه من استلام الحجر، تفسير البيضاوي: ٤٦٠/٣ وقيل: نزلت في يهود المدينة، عندما طلبوا منه أن يلحق بالشام. وقد اقتصر القاضي البيضاوي على هذه الوجوه...

(٤٢٥) كيف يجتمع هذا الكلام من المؤلف مع قول المؤلف نفسه: معرض للخطأ لولا عصمة الله إيّاه؟! انظر الهامش (١) من الصفحة (٢٤٣) الذي ناقشنا فيه زعم خطأ النبي (صلى الله عليه وآله) في تعامله مع ابن أمّ مكتوم.

أمر الأعمى. وفي أمر هذه الفتنة التي كادت قُريش تدفعه إليها، صدق في تبليغ هذا الوحي إلى الناس صدقه في تبليغ رسالات ربّه، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء ولا وقف اعتبار إنساني، حتى ثَمَّا يسيع الفضلاء، دون إعلان هذا الحقّ في أمر نفسه. فالحقّ إذاً، والحقّ وحده كان رسالته. وإذا كان احتمال أذى الغير في سبيل ما نؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيرة، فإنّ إقرار العظيم بأنه كاد يُفتن ليس ثَمَّا ألف الناس حتى من العظماء؛ إنّما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمر ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حساباً عسيراً. فهو شيء إذاً أكبر من العظمة وأعظم من كلّ عظيم، ذلك الذي يتيح للنفس هذا السموّ فتكشف عن الحقّ كلّ. ذلك الشيء الأكبر من العظمة والأعظم من كلّ عظيم هو صدق الاخلاص في إبلاغ رسالة الحقّ جلّ شأنه.

عاد «محمّد» ومن معه من الشّعْب بعد تمزيق الصحيفة، وجعل من جديد يذيع دعوته في مكّة وفي القبائل التي تجيء إليها في الأشهر الحرم. ومع ما ذاع من أمر «محمّد» بين قبائل العرب جميعاً وما كان من كثرة الذين اتبعوه، فإنّه ظلّ لا يسلم أصحابه من أذى قُريش، ولا يستطيع هو لهم منعاً. ولم تمض إلاّ شهور على نقض الصحيفة، حتى فجأت «محمّدًا» في عام واحد فاجعتان اهتزّت لهما نفسه، هما موت أبي طالب وخديجة معاً^(٤٢٦). وكان أبوطالب يومئذ قد نيّف على الثمانين. فلما اشتكى وبلغ قريشاً أنّه موف على ختام حياته خشيت ما يكون بينها وبين محمّد وأصحابه من بعد، وفيهم حمزة وعمر المعروفان بشدّتهما وبطشهما؛ فمشى أشرفها إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب، أنت مِنّا حيث ما قد علمت، وحضرك ما ترى وتخوفنا عليك. وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له مِنّا وخذ لنا منه، ليكفّ عنا ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه. وجاء «محمّد» والقوم في حضرة عمّه. فلما عرف ما جاءوا فيه: قال: نعم كلمة واحدة تعطونهاها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم!! قال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات. قال: تقولون: لا إله إلاّ الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال بعضهم: أتريد يا «محمّد» أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ثمّ قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً ثَمَّا تريدون^(٤٢٧). وانطلقوا، وتوفي أبوطالب والأمر بين «محمّد» وقُريش أشدّ ثَمَّا كان^(٤٢٨).

(٤٢٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤١٦/١، وعيون الأثر: ١٥١/١، وإعلام الوری: ١٢٩/١.

(٤٢٧) وهنا تدعو الحاجة لأنّ نوحى حياة أبي طالب وعلاقته بالرسالة وصاحبها دحضاً للمزاعم التي تحاول الوقیعة بعليّ بن أبي طالب عن طريق

الطعن بأبيّه من كونه مات كافراً ضمن عدد من النقاط:

١ — أبو طالب يدعو الله بسقوط المطر:

أصاب مكّة قحطٌ شديد في سنة من السنين، فطلبت قُريش من أبي طالب أن يستسقي لها، فخرج ومعه غلام — وهو رسول الله (صلی الله عليه وآله) — كأنّه شمس دجّن تجلّت عنها سحابة قماء وحوله أغيلمة، فأخذ أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بإصبعه (أي أشار بها إلى السّماء وما في السّماء قزعة)، فأقبل السّحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، واغرورق وانفجر له الوادي وأخصب البادي

والثادي(مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: ١١٩/١، بحار الأنوار: ٣/١٨، باب معجزاته(صلى الله عليه وآله) واستجابة دعائه، الغدير: ٣٤٦/٧، سبل الهدى والرشاد، الصالحى الشامي: ١٣٧/٢، عن ابن عساكر).

وفي ذلك يقول أبو طالب في مدح رسول الله(صلى الله عليه وآله):

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه *** ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهالك من آل هاشم *** فهم عنده في نعمة وفواضل

وميزانٌ عدل لا يخسُ شعيرة *** وأوزان صدق وزنه غير هائل

(إرشاد الساري في شرح البخاري للقسطلاني: ٢٢٧/٢، المواهب اللدنية: ٤٨/١، السيرة الحلبية: ١١٦/١، باب وفاة عبدالمطلب وكفالة عمه أبي طالب، السيرة النبوية لابن هشام: ٢٧٢/١ — ٢٨٠، باب تحيّر الوليد ابن المغيرة فيما يصف القرآن، البداية والنهاية لابن كثير: ٥٢/٣ — ٥٧).

٢ — جواب أبي طالب لعلي(عليهما السلام) عندما قال له ذات ليلة وهو في الشعب يفدي نفسه رسول الله: يا أبتاه! إني مقتول ذات ليلة. فأجابه أبو طالب:

اصبرن يا بُني فالصبر أحجى *** كُلَّ حَيٍّ مصيره لشُعوب

قد بلوناك والبلاء شديد *** لفداء النجيب وابن النجيب

فأجابه علي(عليه السلام) بكلام أكثر عذوبة قائلاً:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد *** والله ما قُلتُ الذي قلت جازعاً

ولكنني أحبت أن تر نصرتي *** وتعلم أنني لم أزل لك طائعاً

(مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: ٥٩/١ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٤/١٤، بحار الأنوار: ٤/١٩)

٣ — قول أبي طالب(عليه السلام) لجعفر (رضي الله عنه): «صل جناح ابن عمك وصل عن يساره»(أسد الغابة: ٣٤١/١، ترجمة جعفر بن أبي طالب رقم ٧٥٩، الإصابة: ١١٦/٤، ترجمة أبي طالب رقم ٦٨٥، السيرة الحلبية: ٢٦٩/١، باب ذكر أول الناس، إيماناً به(صلى الله عليه وآله)، أسنى المطالب: ٦).

٤ — لما علم أن قريشاً عملت على الدس لدى النحاشي ضد مهاجري المسلمين لها؛ كتب إليه كتابين من الشعر، نبّهه في أحدهما إلى هذا الدس، وأغراه بأن يكون على الأمل في شهامته ويسط جواره على كل من يلجأ إلى حماه، وذلك إذ يقول كما مر:

تَعْلَمُ — أبيت اللعن — أنك ماجد *** كريم فلا يشقى لديك الجحائب

(سيرة ابن هشام: ٣٣٣/١ — ٣٣٤، باب إرسال قُريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها).

٥ — قوله: يا معشر قُريش كونوا له — أي لحمد(صلى الله عليه وآله) — ولاةً ولجزبه حماةً، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رَشَدًا، ولا يأخذ أحد بمهديه إلا سَعَدًا. (تاريخ الخميس: ٣٣٩/١، الروض الآنف: ٢٥٩/١، المواهب: ٧٢/١، بلوغ الإرب: ٣٢٧/١، السيرة الحلبية: ٣٥٢/١، باب ذكر وفاة عمه أبي طالب، السيرة لزيني دحلان هامش الحلبية: ٣٥١/١، أسنى المطالب: ٥).

٦ — تهديده لرؤساء قُريش بالقتل إن لم يعد محمدٌ سالمًا. (الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٣/١، ذكر ممشى قُريش إلى أبي طالب، والطرائف: ٨٥).

٧ — ولما حضرته الوفاة؛ دعا بني عبدالمطلب وقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد، وما أتبعتم أمره، فأتبعوه وأعينوهُ ترشدوا. (تذكرة السبط: ٥، الخصائص الكبرى: ٨٧/١، السيرة الحلبية: ٣٥٢/١، باب ذكر وفاة عمه أبي طالب، سيرة زيني دحلان: ٩٢/١).

٨ — شجّع أبو طالب الهاشميين والمطلبين على الحضور في أول اجتماع سياسي في دار النبي(صلى الله عليه وآله)، وسُمي الحديث النبوي الذي صدر منه(صلى الله عليه وآله) في هذا الاجتماع بحديث الدار. (الكامل لابن الأثير: ٢٤/٢).

٩ — حذّر أبو طالب البطون، قائلاً: «والله لو قتلتموه؛ لا يبقى فيكم أحد حتى نتفان نحن وأتم». (الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٣/١، ذكر ممشى قُريش إلى أبي طالب).

١٠ — وقال للنبي(صلى الله عليه وآله) متحدثاً كبرياء البطون: «يا ابن أخي! إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا حتى نخرج بالسلاح». (تاريخ يعقوبي: ٣٤٧/١، باب النذارة).

١١ — قول رسول الله(صلى الله عليه وآله) فيه: «ما نالت مني قُريش حتى مات أبو طالب». (الكامل لابن الأثير: ٢١/٢).

١٢ — سُمي رسول الله(صلى الله عليه وآله) العام الذي مات فيه أبو طالب وخديجة بعام الحزن. (تاريخ يعقوبي: ٣٥٤/١، وفاة خديجة وأبي طالب).

١٣ — عبّر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بموت أبي طالب وخديجة بالمصيبتين، فقال: «اجتمعت على الأمة هذه الأيام مصيبتان، لا أدري بأيّهما أنا أشدّ جزعاً». (المصدر السابق: ١ / ٣٥٥، وفاة خديجة وأبي طالب).

١٤ — قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أبي طالب لما مات: «وصلتك رحم ياعم، وجزيت خيراً فلقد ربّيت وكفّلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً» وبعد أن تبعه إلى حفرته وقف عليه فقال (صلى الله عليه وآله):

«أما والله لأستغفرنّ لك ولأشفعنّ فيك شفاععة يعجب لها الثقلان». (شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٤/٧٦ كتاب ٩، من كتاب له (عليه السلام) إلى معاوية).

١٥ — ورد عن أبي طالب شعر كثير يكشف عن إسلامه واعتقاده، بأنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) نبيّ كباقي الأنبياء، منه قوله:

ولقد علمت بأنّ دين محمد *** من خير أديان البرية ديناً

(شرح نهج البلاغة: ١٤/٧٢)

وقوله:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً *** نبياً كموسى خطّ في أول الكتب

(شرح نهج البلاغة: ١٤/٥٥ وما بعدها كتاب ٩، من كتاب له (عليه السلام) إلى معاوية، نقلاً عن ديوانه: ١٧٦، ١٧٧).

وقوله:

ويا شاهد الخلق عليّ فاشهد *** إني على دين النبيّ أحمد

من ضل في الدين فإني مهتدي

(غاية المطالب: ٧٥)

١٦ — إنّ أبا طالب كان يرى بطلان عقيدة قومه من حين مبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالإسلام، وقد ثبت أنّه كان يدين بالحنيفية، والحنفاء لم يهتموا بصنم قطّ، ولم يسجدوا لوثن أبداً، كما كان على ذلك أبوه عبدالمطلب تماماً. (القاضي عياض في كتابه الشفاء: ١٨٣/١، إكمال الدّين للصدوق: ١٠٤).

١٧ — حبّ النبيّ ورّقته على أبي طالب، حين أصابت قريشاً أزمة مهلكة وسنة مجذبة، وأصاب أبا طالب ما أصاب قريشاً من الفقر والفاقة، فبادر رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأجل معالجة الأزمة التي مرّ بها عمّه أبو طالب، ففاتح عمّه العباس فقال له: يا أبا الفضل! إنّ أحراك كثير العيال مختل الحال ضعيف النهضة والعزمة، وقد نزل به ما نزل من هذه الأزمة، وذوو الأرحام أحقّ بالرّفد وأولى بالحمل الكلّ في ساعة الجهد فانطلق بنا لنُعنّه على ما هو عليه.

فأخذنا عنه أولاده تخفيفاً من ضيق العيش، أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً وأخذ العباس جعفرأ. (راجع سيرة ابن هشام:

١/٢٤٥ — ٢٤٦ ذكر أنّ عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أوّل من أسلم، وهذه القصة متفق عليها في كتب السيرة).

انظر إلى هذه الرقّة العميقة من النبيّ (صلى الله عليه وآله) على أبي طالب والحبّ له والشفقة عليه وقد وصف الله المؤمنين بالشدة على الكافرين، حيث يقول: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ). (الفتح: ٢٩). وقوله تعالى: (أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) المائدة: ٥٤).

والنبيّ أفضل المؤمنين فكيف يجوز لمسلم أن يصف أبا طالب بالكفر وقد اشتهر عن النبيّ حبّه البالغ له والميل إليه؟

١٨ — قال العباس لرسول الله (صلى الله عليه وآله): أترجو لأبي طالب؟ قال: «كلّ خير أرجو من ربّي». (الطبقات لابن سعد: ١/١٠٦،

الخصائص الكبرى: ١/٨٧).

ومن بعد أبي طالب توفيت خديجة^(٤٢٩) ، خديجة التي كانت سند «محمد» بما توليه من حبها وبرها ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها. خديجة التي كانت تهوّن عليه كل شدة وتزِيل من نفسه كل خشية، والتي كانت ملك رحمة يرى في عينيها وعلى ثغرها من معاني الإيمان به ما يزيد إيماناً بنفسه. وتوفي أبو طالب الذي كان لـ «محمد» حمى وملاذاً من خصومه وأعدائه. أي أثر تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان في نفس محمد (عليه السلام)!! إنهما لجديرتان بأن تتركاً أقوى النفوس كلمة^(٤٣٠) مضعضة يدسّ إليها سموم الضعف، ويدفع إليها الأسى والحزن من لواذع الهم المبرح ما يجعلها تنهداً أمامها ولا تفكر في شيء سواهما.

ما لبث «محمد» بعد أن فقد هذين النصيرين حتى رأى قريشاً تزيد في إيذائه، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهاء قريش فرمى على رأسه تراباً. أفتدري ما صنع «محمد»؟ دخل إلى بيته والتراب على رأسه؛ فقامت إليه «فاطمة» ابنته وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي. وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا. كل دمة ألم تسيل من مآقي البنت قطرة حم يهوي على قلبنا فينقبض انزعاجاً، حتى لنكاد من شدة انزعاجه نصيح ألماً؛ وكل أنة حزن تثير في الحشا وفي الكبد آثات ما أقساها، تختنق لها حلوقنا وتكاد تهمي بالدمع من وقعها عيوننا. وقد كان محمد أبرّ أبّ بناته وأحناء عليهن. فماذا تراه صنع لبكاء هذه البنت التي فقدت منذ قريب أمها، ولبكائها هي من أجل ما أصاب أباهما؟! لم

قال الشيخ المفيد: فلولاً أنه (رحمه الله) مات على الإيمان؛ لما جاز من رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجاء الخير له من الله عزّ وجلّ مع ما قطع له تعالى في القرآن من خلود الكفار في النار وحرمان الله لهم سائر الخيرات وتأبيدهم في العذاب على وجه الاستحقاق والهوّن . (الشيخ المفيد في إيمان أبي طالب، ضمن مجموعة مصنفاته: ١/ ٢٧).

١٩ — تصريحات أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عليّ والحسين وعليّ بن الحسين والباقر والصادق والرّضا (عليهم السلام).

٢٠ — تصريحات جمع من الصحابة كما مرّ بيانه.

٢١ — لا يشكّ أحد بأنّ فاطمة بنت أسد (رض) من المؤمنات السابقات، فعندما توفيت كفنها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقميصه ودعا لها بقوله: «اللّهم اغفر لأمي...» وإثنا بقيت زوجة لأبي طالب حتى ماتت فإذا مات أبو طالب على الكفر فهذا يتعارض مع الخطاب الإلهي القاضي بأن لا يقرن مؤمنة مع كافر وأن يفرّق بينهما، وهذا الاجراء لم يتّخذ في أبي طالب . (التفسير الكبير للفخر الرازي : ٦١/٣، وصحيح البخاري: ١٧٢/٦ باب إذا أسلمت المشركة. ولزيد من التفصيل راجع بالتفصيل: أبو طالب كافل رسول الله وناصره، الصادر عن

الجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)).

(٤٢٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٤١٧/١، وعيون الأثر: ١٥٢/١، ومناقب آل أبي طالب: ٥٨/١.

(٤٢٩) السيرة الحلبية: ٣٤٦/١، امتاع الأسماع: ٤٥/١، ومناقب آل أبي طالب: ٦٨/١.

(٤٣٠) الكلم: الجرح، والجمع: الكلوم — كتاب العين: ٣٧٨/٥.

يزده ذلك كله إلاّ توجهاً بقلبه لله وإيماناً بنصره إياه. قال لابنته وعينها تمل بالدمع: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أبك. ثمّ كان يردد: والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب (٤٣١).

وكثرت مساوات قريش من بعد ذلك لـ «محمد» حتى ضاق بهم ذرعاً، فخرج إلى الطائف وحيداً منفرداً لا يعرف بأمره أحد يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه ويرجو إسلامهم. لكنّه رجع منهم بشرّ جواب فرجهم ألا يذكروا من استنصاره بهم شيئاً حتى لا يشمت به قومه. أمّا هم فلم يسمعوا له بل أغروا به سفهاءهم يسبونهم ويصيحون به، ففر منهم إلى حائط لعبية وشيبة ابني ربيعة فاحتسبوا به، فرجع السفهاء عنه. وجلس إلى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ماهو فيه من شدّة الكرب. فلما اطمأنّ رفع (عليه السلام) رأسه إلى السماء ضارِعاً في شكاية وألم وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي. إلى من تكلي؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدوّ ملكته أمري. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك. لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك.»

وطال تحديق ابني ربيعة به، فتحركت نفساهما شفقةً عليه. وإشفاقاً من سوء مآلقي، فبعثا غلامهما النصراني عدّاساً إليه بقطف من عنب الحائط؛ فلما وضع «محمد» يده فيه، قال: باسم الله، ثمّ أكل، ونظر عدّاس دهشاً وقال: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد! فسأله «محمد» عن بلده ودينه؛ فلما علم أنّه نصرانيّ نينويّ، قال له: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متيّ؟ فسأله عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متيّ؟ قال «محمد»: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيّ. فأكبّ عدّاس على «محمد» يقبل رأسه ويديه وقدميه. وعجب ابنا ربيعة لما رأيا وإن لم يصرفهما ذلك عن دينهما، ولم يمنعهما من التحدّث إلى عدّاس حين عاد إليهما يقولان: يا عدّاس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه (٤٣٢).

وكأنّ ما رأيا خفف من سخط ثقيف وإن لم يغيّر من جهودهم عن متابعة النبيّ، وعرفت قريش الأمر فازدادت لـ «محمد» إيذاءً، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة إلى دين الله. وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحقّ ويخبرهم أنّه نبيّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه.

(٤٣١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤١٦/١، والطبري: ٥٥٤/١ والبداية والنهاية: ٥٠٥/٢ — ٥٠٦، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب:

٦١/١ وحلية الأبرار: ٦٦/١.

(٤٣٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤١٩/١ — ٤٢١، والسيرة النبوية لابن كثير: ١٤٩/٢ — ١٥١، وإعلام الوري: ١٣٤/١ — ١٣٥، وحلية

الأبرار: ٨٠/١.

غير أن عمّه عبدالعزيز بن عبدالمطلب أبا لهب لم يكن يدعه؛ بل كان يتبعه آيان ذهب ويحرّض الناس على ألاّ يستمعوا له^(٤٣٣). ولم يكتف بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج بمكة، بل أتى كندة في منازلها وأتى كلباً في منازلهم وأتى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة فلم يسمع له منهم أحد، وردّوه جميعاً ردّاً غير جميل. بل ردّوه بنوحنيفة ردّاً قبيحاً. أما بنو عامر فطمعوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده؛ فلما قال لهم: إنّ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، لوّوا عنه وجوههم وردّوه كما ردّوه غيرهم^(٤٣٤).

هل أصرت هذه القبائل على عناد «محمد» لمثل الأسباب التي أصرت قريش من أجلها على عناده؟ لقد رأيت بني عامر وكيف كانوا يطمعون في الملك إذا هم انتصروا وإياه. أمّا ثقيف فكان لها رأي آخر؛ فهي فضلاً على أنّها كانت مصيف أهل مكة لجمال طقسها وحلو أعنائها، قد كانت مستقر عبادة اللات وكان لها هناك صنم يعبد ويحجّ إليه^(٤٣٥). فلو أنّ ثقيفاً تابعت «محمدًا» لفقدت اللات التي عندها مكانتها، ولقامت بينها وبين قريش خصومة تترك لا ريب أثرها الاقتصادي في موسم الاصطياف. وكذلك كانت لكل قبيلة علة محلية اقتصادية كانت أقوى أثراً في إعراضها عن الإسلام من تعلقها بدين آبائها وعبادة أصنامها.

زاد عناد هذه القبائل «محمدًا» عزلة، كما زاد إمعان قريش في أذى أصحابه ألماً وهماً. وانقضى زمن الحداد على خديجة، ففكر في أن يتزوج لعله يجد في زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به جراحه. على أنه رأى أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الإسلام متانة وقرب، فخطب إلى أبي بكر ابنته عائشة. ولما كانت ماتزال طفلة في السابعة من عمرها عقد عليها ولم ين بها إلاّ بعد سنتين حين بلغت التاسعة. وفي هذه الأثناء تزوّج من سودة أرملة أحد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا إلى مكة وماتوا بها^(٤٣٦). وأحسب القارئ يلمح مافي هاتين الصلتين من معنى يزداد وضوحاً من بعد في صلات زواج «محمد» ومصاهرتة.

في هذه الفترة كان الإسراء والمعراج. وكان «محمد» ليلة الإسراء في بيت ابنة عمّه هند ابنة أبي طالب، وكنيتها أمّ هانئ. وقد كانت هند تقول: (إنّ رسول الله نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلّى العشاء الآخرة ثمّ نام ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهبّنا رسول الله؛ فلما صلّى الصبح وصلينا معه، قال: يا أمّ هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثمّ جئت

(٤٣٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٢٣/١، والسيرة النبوية لابن كثير: ١٥٦/٢.

(٤٣٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٢٢/١، والسيرة النبوية لابن كثير: ١٥٧/٢ — ١٥٨.

(٤٣٥) السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٨٥ — ٢٢٦.

(٤٣٦) الإصابة: ٣٣٨/٤ و ٣٥٩.

بيت المقدس فصليت فيه، ثُمَّ قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين. فقلت له : يا نبي الله لا تحدث بما الناس فيكذبوك ويؤذوك؛ قال: والله لأحدثنهموه» (٤٣٧).

ويضيف أصحاب الرأي: بأنَّ الإسراء والمعراج إنما كانا بروح «محمّد (عليه السلام)» إلى حديث أمّ هانئ هذا ما كانت تقول عائشة: ما فقد جسد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن الله أسرى بروحه (٤٣٨)، وأنّ معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى الرسول قال: كانت رؤيا من الله صادقة (٤٣٩). وهم يستشهدون إلى جانب ذلك كلّ بقوله تعالى في سورة الإسراء : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) (٤٤٠).

وفي رأي آخرين أنّ الإسراء من مكّة إلى بيت المقدس كان بالجسد، مستدلّين على ذلك بما ذكر «محمّد» أن شاهده في البادية أثناء مسراه ممّا سيأتي خبره، وأنّ المعراج إلى السماء كان بالروح (٤٤١). ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أنّ الإسراء والمعراج كانا جميعاً بالجسد (٤٤٢). وقد كثرت مناقشات الفقهاء والمتكلمين في هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف. ولنا في حكمة الإسراء رأي بُديهي، ولسنا ندري لعلّه قد سبقنا إليه أحد. لكنّا قبل أن نبدي هذا الرأي، بل لكي نبديه، يجب أن نروي قصة الإسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة.

سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة في عبارة طليعة شائعة هذه ترجمتها: «في منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله وصمتت فيها طيور الليل نفسها وسكنت الضواري وانقطع الغدران وصفير الرياح استيقظ «محمّد» على صوت يصيح به: أيها النائم قم. وقام فإذا أمامه الملك جبريل وضّاء الجبين أبيض الوجه كيباض الثلج مرسل شعره الأشقر، واقفاً في ثيابه المزركشة بالدرّ والذهب ومن حوله أجنحة من كلّ الألوان ترعش، وفي يده دابة عجيبة هي البراق، لها أجنحة كأجنحة النسر، إنحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكّة، ورمال الصحراء متّجهة إلى الشمال... وصحبهم الملك في هذه الرحلة، ثُمَّ وقف بهم عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى، ثُمَّ وقف بهم مرّة أخرى في بيت لحم حيث وُلد عيسى، وانطلقوا بعد ذلك في الهواء في حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبي، الذي رأى في اخلاصه لرسالته أن ليس

(٤٣٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٢/١، السيرة النبوية لابن كثير: ٩٦/٢ — ٩٧.

(٤٣٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٩٩/١.

(٤٣٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٠/١.

(٤٤٠) الإسراء (١٧): ٦٠.

(٤٤١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٤٧/٢٠.

(٤٤٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٤٧/٢٠، والإسراء والمعراج بهذا المعنى من متبنيات مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

لغير الله أن يستوقف حيث شاء دابته. وبلغوا بيت المقدس ، فقيّد «محمّد» دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى. ثمّ أقي بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد «محمّد» سراعاً إلى السماوات. وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علّقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب، وقد قام على كلّ منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى علو عليها، أو يستمع الجنّ منها إلى أسرار السماء. في هذه السماء ألقى «محمّد» التحية على آدم، وفيها كانت صور الخلق جميعاً تسبح بحمد ربّها. والتقى «محمّد» في السماوات الست الأخرى بنوح وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى، ورأى ملك الموت عزرائيل؛ بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم، ومن سلطانه أن كانت تحت إمرته مائة ألف فرقة، وكان يسجّل في كتاب ضخّم أسماء من يولدون ومَن يموتون. ورأى ملك الدمع يبكي خطايا الناس، وملك النعمة ذا الوجه النحاسي المتصرف في عنصر النار والجالس على عرش من هب. وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ونصفه من ثلج، وحوله من الملائكة فرقة لا تفتر عن ذكر الله قائلة: اللّهمّ قد جمعت الثلج والنار وجمعت كلّ عبادك في طاعة سنّتك. وكان في السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلّها له سبعون ألف رأس، في كلّ رأس سبعون ألف فم، في كلّ فم سبعون ألف لسان، يتكلّم كل لسان سبعين ألف لغة، من كل لغة سبعين ألف لهجة، كلّها تسبح بحمد الله وتقُدّس له.

وفيما هو يتأمّل هذا الخلق الغريب إذا به ارتفع إلى قمة سدرة المنتهى، تقوم إلى يمين العرش وتُظَلّ ملايين ملايين من الأرواح الملائكية. وبعد أن تخطّى في أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة، ومناطق ضياء يعشى وظلمة قائمة وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء يفصل بين كلّ واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام، تخطّى حجب الجمال والكمال والسرّ والجلال والوحدة، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سجّداً لا يتحركون ولا يؤذّن لهم فينطلقون. ثمّ أحسّ بنفسه يرتفع إلى حيث المولى جلّ شأنه، فأخذه الدهش. وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما ، وكأنّما ابتلعهما الفناء فلم ير منهما إلّا حجم سمسة في مزرعة واسعة. وكذلك يجب أن يكون الإنسان في حضرة ملك العالم.

ثمّ كان في حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى، يشهد الله بعين بصيرته، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها، وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان. ومدّ العليّ العظيم يداً

على صدر «محمد» والأخرى على كتفه. فأحسّ النبيّ كأنه أثلج إلى فقاره، ثمّ بسكينة راضية وفناء في الله مستطاب^(٤٤٣).

وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المدققة قداسته، أمر الله عبده أن يصلي كل مسلم خمسين صلاة في كل يوم. فلمّا عاد «محمد» يهبط من السماء التقى بموسى، فقال ابن عمران له: كيف ترجو أن يقوم أتباعك بخمسين صلاة في كل يوم؟ لقد جرّبت الناس قبلك وحاولت مع أبناء إسرائيل كل ما يدخل في الطوق محاولته، فصدّقني وعُدّ إلى ربّنا واطلب إليه أن ينقص الصلوات.

وعاد «محمد» فنقص عدد الصلوات إلى أربعين، وجدها موسى فوق الطاقة، وجعل يرد خليفته في النبوة إلى الله مرّات عدة، حتى انتهت الصلوات إلى خمس.

وذهب جبرئيل بالنبيّ فزار الجنة التي أعدّت للمتقين بعد البعث؛ ثمّ عاد «محمد» على المعراج إلى الأرض، ففك البراق وامتطاه وعاد من بيت المقدس إلى مكّة على الدابة المجنّحة^(٤٤٤). هذه رواية المستشرق درمنجم عن قصة الاسراء والمعراج. وأنت تقع على ما قصّه منشوراً في كثير من كتب السيرة جميعاً، وإن كنت تجد فيها جميعاً خلافاً بزيادة ونقص في بعض نواحيها. من ذلك مثلاً ما روى ابن هشام على لسان النبيّ (عليه السلام) بعد أن لقي آدم في السماء الأولى، أنّه قال: «ثمّ رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة مال اليتامى ظلماً. ثمّ رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلاً قطّ بسبيل آل فرعون يمرّون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار، يطعنونهم لا يقدرّون على أن يتحوّلوا من مكّاهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. ثمّ رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جانبه لحم غثّ منتن، يأكلون من الغثّ المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله من النساء، ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهن. ثمّ رأيت نساء معلّقات بثديهنّ، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم.. ثمّ دخل بي الجنة

(٤٤٣) للعلماء المسلمين ثلاث اتجاهات في هذه المسألة: الأول: قال بالتجسيم والرؤية، والثاني: قال بالرؤية بلا كيفية، والثالث: قال بالتزيه واستحالة الرؤية، واستدلّ الأخير على عدم الرؤية من كونها تستلزم التجسيم والتشبيه ويردّ في القول على أنّ إضافة نفي الكيفية أمر صوري لا يمكن الالتزام به لعدم حلّ الاشكال، فيما يعلل الأدلة التي يُفهم منها الرؤية أنّها تحمل على الرؤية القلبية. وهذا هو ما عليه الإمامية.

نعم، اليهود يذهبون إلى القول بالتجسيم ولعلّ هذا القول تسرّب منهم إلى الفكر الإسلامي.

فرأيت فيها جارية لعساء، فسألتها لمن أنت؟ — وقد أعجبتني حين رأيتها — فقالت: لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) زيد بن حارثة» (٤٤٥).

وأنت واجد في غير ابن هشام من كتب السيرة (٤٤٦) وفي كتب التفسير (٤٤٧) أموراً أخرى غير هذه. ومن حق المؤرخ أن يتساءل عن مبلغ التدقيق والتمحيص في أمر ذلك كله، وما يمكن أن يسند منه إلى النبي بسند صحيح، وما يمكن أن يكون من خيال المتصوفة (٤٤٨) وغيرهم. ولئن لم يكن ها هنا مجال للحكم في ذلك أو لاستقصائه ، كما أنه ليس ها هنا مجال القول في المعراج والإسراء بالجسم، أو المعراج بالروح والإسراء بالجسم، أو المعراج والإسراء جميعاً بالروح، فمما لا شك فيه أن لكل رأي من هذه الآراء سنداً عند الفقهاء والمتكلمين، وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء. فمن شاء أن يرى الإسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدمنا وما تكرر في القرآن وعلى لسان الرسول: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (٤٤٩) وإن كتاب الله هو وحده معجزة «محمد» (٤٥٠)، و (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (٤٥١). ولصاحب هذا الرأي أكثر من غيره أن يسأل عن حكمة الإسراء والمعراج ماهي. وهنا موضع الرأي الذي نريد أن نبديه ولا ندري لعله قد سبقنا إليه أحد.

ففي الإسراء والمعراج في حياة «محمد» الروحية معنى سام غاية السمو، معنى أكبر من هذا الذي يصورون والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلم المخلص حظاً غير قليل. فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها. لم يقف أمام ذهن «محمد» وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياة نسبياً محدوداً بمحدود قوانا المُحَسَّ والمُدَبَّرَة والعاقلة. تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة «محمد» واجتمع الكون كله في روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده وصوره في تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشرّ والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة.

(٤٤٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٧/١. ولكنه خير مرسل عن أبي سعيد الخدري .

(٤٤٦) السيرة الحلبية: ٣٦٥/١ .

(٤٤٧) تفسير الطبري: ٥/٨ .

(٤٤٨) مرّ التعليق على هذه المسألة وكان رأي مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في الإسراء والمعراج من أنه كان بالجسم والروح .

(٤٤٩) الكهف (١٨) : ١١٠ .

(٤٥٠) بل كانت له (صلى الله عليه وآله) معاجز أخرى كثيرة ثابتة وصحيحة من غير القرآن الكريم.

(٤٥١) النساء (٤) : ٤٨ .

وليس يستطيع هذا السموّ إلاّ قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية. فإذا جاء بعد ذلك فمن اتبعوا «محمّداً» من عجز عن متابعتة في سموّ فكرته وقوة إحاطته بوحدة الكون في كماله وفي جهاده لبلوغ هذا الكمال، فلا عجب في ذلك ولا عيب فيه. والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات. وبلوغنا الحقيقة معرّض دائماً لهذه الحدود التي تعجز قوانا عن تحطّيتها. وإذا كان من القياس مع الفارق أن نذكر ، لمناسبة ما نحن الآن بصددّه، قصة أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرفوا الفيل ماهو؛ فقال أحدهم: إنّه حبل طويل لأنّه صادف ذنبه، وقال الآخر: إنّه غليظ كالشجرة لأنّه صادف رجله، وقال ثالث: إنّه مدبّب كالرمح لأنّه صادف سنّه، وقال الرابع: إنّه مستدير ملتو كثير الحركة لأنّه صادف خرطومّه، فإنّ هذا المثل مقروناً إلى الصورة التي تتكوّن لدى المبصر من الفيل لأوّل ما يراه، يسمح لنا بموازنة ما بين إدراك «محمّد» كنه وحدة الكون والوجود وتصويره في الإسراء والمعراج حيث يتصل بأوّل الزمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث، حيث تنعدم نهائية المكان، إذ يُطلّ بعين البصيرة من لدن سدرة المنتهى إلى هذا الكون يصبح أمامه سديماً^(٤٥٢)، وبين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمة هذا الإسراء والمعراج، إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحدة الكون وحياته إلاّ كذرات الجسم، بل كالذرات العالقة به من غير أن يتأثر بها نظامه. أين الواحد من هذه الذرات من حياة هذا الجسم ومن نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلائه بالحياة التي لا تعرف حدّاً، لأنّها تتصل من الوجود بكل حياة الوجود.

والإسراء بالروح هو في معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعاً سموّاً وجمالاً وجلالاً. فهو تصوير قويّ للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده. فهذا التعرّيج على جبل سيناء، حيث كلم الله موسى تكليماً، وعلى بيت لحم، حيث ولد عيسى؛ وهذا الاجتماع الروحي ضمت الصلّاة فيه «محمّداً» وعيسى وموسى وإبراهيم ، مظهر قويّ لوحدة الحياة الدينية على أنّها من قوام وحدة الكون في موره^(٤٥٣) الدائم إلى الكمال.

والعلم في عصرنا الحاضر يُقرّ هذا الإسراء بالروح ويقرّ المعراج بالروح؛ فحيث تتقابل القوى السليمة يشعّ ضياء الحقيقة، كما أنّ تقابل قوى الكون في صورة معينة قد طوّع «لماركوني» إذ سلّط تياراً كهربائياً خاصّاً من سفينته التي كانت راسية بالبندقية أن يضئ بقوة

(٤٥٢) السلم جمع سُدُم: الضباب أو الرقيق منه. المنجد في اللغة: ٣٢٧ .

(٤٥٣) مَوْر: مار الشيء بمور موراً: ترهياً، أي تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدان — الصحاح، الجوهري: ٨٢٠/٢ .

موجات الأثير مدينة سديني في استراليا^(٤٥٤). وفي عصرنا هذا يقرّ العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوي عليه، كما يقرّ انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات، كذلك ثمة كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال. وما تزال القوى الكمينية في الكون تتكشف لعلّنا كل يوم عن جديد. فإذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس «محمد» فأسرى به الله ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته، كان ذلك ثمة يقرّ العلم، وكانت حكمة ذلك هذه المعاني القوية السامية في جمالها وجلالها، والتي تصوّر الوحدة الروحية ووحدة الكون في نفس «محمد» تصويراً صريحاً، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه، إذ هو حاول السموّ بنفسه عن أوهام العاجلة في الحياة، وحاول الوصول إلى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه، ومكان العالم كلّ منها.

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعاني. لذلك ما لبث «محمد» أن حدثهم بأمر إسرائه حتى وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الإسراء وإمكانه وعدم إمكانه، وحتى ساور أتباعه والذين صدّقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله. وقال كثيرون: هذا والله الأمر البين. والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أيذهب «محمد» ذلك في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟! وارتدّ كثير من أسلم. وذهب من أخذهم الريبة في الأمر إلى أبي بكر وحدثوه حديث «محمد»؛ فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. قالوا: بلى، هاهو ذاك في المسجد يحدث الناس. قال أبو بكر: والله لئن كان قد قاله لقد صدق، إنّه ليخبرني أنّ الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه، فهذا أبعد ثمة تعجبون منه. وجاء أبو بكر إلى النبي واستمع إليه يصف بيت المسجد، وكان أبو بكر قد جاءه. فلما أتمّ النبي صفة المسجد، قال له أبو بكر: صدقت يا رسول الله. ومن يومئذ دعا «محمد» أبا بكر بالصدّيق^(٤٥٥).

ويدلّل الذين يقولون: إنّ الإسراء بالجسد على رأيهم، بأنّ قريشاً لما سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله بعض الذين آمنوا به عن آية ذلك، فأنهم لم يسمعوا بشيء من مثله. فوصف لهم عيراً مرّ بها في الطريق فضلّت دابة من العير فدللهم عليها، وأنّه شرب من عير أخرى وغطى الاناء بعد أن شرب منه.

(٤٥٤) موسوعة المورد: ١٩٤/٦، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨١.

(٤٥٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٩٨/١. ولكنّه خير مرسل عن الحسن البصري التابعي: وحُدّث عن الحسن.. وهو بلا إسناد. أما في أخبار

أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فإنّما لقب بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً (عليه السلام).

فسألت قُريش في ذلك فصَدَّقت العِيران ما روى «مُحمَّد» عنهما^(٤٥٦). وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسي التحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية. ما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية في الكون كلّه ويستطيع بما وهبه الله من قوة أن يتصل بصورة الحياة من أزل الكون إلى أبده.

* * *

(٤٥٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠١/١، السيرة الحلبية: ٣٨٠/١ .

ويرى البعض: أن الإسراء كان بالروح فقط في عالم الرؤيا، ويحتجّون بما عن عائشة: ما فقدت جسد رسول الله (صلى الله عليه وآله) . تاريخ الخميس : ٣٠٨/١، والمواهب اللدنية : ٢/٢، وبحار الأنوار: ٢٩١/١٨، وفي المناقب لابن شهر آشوب : ١٧٧/١: أن الجهمية قالت بهذا. وعن معاوية: إنَّها رؤيا صالحة ، وحكي مثل ذلك عن الحسن البصري.. بحار الأنوار: ٢٩١/١٨، عن : المقاصد وشرحه، وراجع تاريخ الخميس: ٣٠٨/١ .

ولكنّ الصحيح هو ماذهب إليه الإمامية ومعظم المسلمين من أن الإسراء إنّما كان بالروح والجسد معاً.. أمّا المعراج فذهب الأكثر إلى أنّه كان بالروح والجسد أيضاً.. ونحن نشير هنا إلى ما يلي:
أولاً: قال القسطلاني: «وأجيب: بأنّ عائشة لم تحدّث به عن مشاهدة؛ لأنّها لم تكن إذا ذاك زوجاً، ولا في سن من يضبط ، أو لم تكن ولدت بعده، على الخلاف في الإسراء متى كان (المواهب اللدنية: ٢/٢).
وأما معاوية فحالُه معلوم.

ثانياً: لقد قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) (الإسراء: ١).
وقال في سورة النجم — إذا كانت الآيات ناظرة إلى المعراج ، ويرجع الضمير فيها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) لا إلى جبرئيل: — (فكان قاب قوسين أو أدنى* فأوحى إلى عبده ما أوحى) (النجم : ٩ — ١٠)
فإنّ لفظ العبد إنّما يطلق على الروح والجسد معاً، ولو كان مناماً، لكان قال: بروح عبده، وإلى روح عبده.. كما أنّ قوله تعالى: (ما زاغ البصر وما طغى) ظاهر في البصر الحقيقي أيضاً . (راجع هذا الاستدلال في بحار الأنوار: ٢٨٦/١٨ عن الرازي، والمواهب اللدنية : ٤/٢، تاريخ الخميس: ٣٠٨/١).

أضف إلى ذلك: أنّ آية سورة الإسراء، وآيات سورة النجم واردة في مقام الامتنان. وفيها ثناء على الله، وعجيب قدرته، ولذلك لا يحسن، ولا يتم مجرد رؤيا رآها النبي (صلى الله عليه وآله) ؛ إذ ربّما يرى غير النبي، وحتى الفاسق الفاجر رؤيا أعظم من ذلك...
أضف إلى ذلك: أنّ الرؤيا عند عامة الناس لا تدل على عظيم قدرته تعالى، إذ ربّما تُفسّر على أنّها نوع من الأوهام والخيالات، فيفوت الغرض المقصود من الإسراء والمعراج، كما هو ظاهر . (راجع: تفسير الميزان : ٢٤/١٣).
وقالوا: إنّهُ لو كان الإسراء مجرد رؤيا صالحة؛ فلا يبقى فيه إعجاز؛ ولما أنكره المشركون والمعادنون، ولما ارتدّ ناس ثَمَن كان أسلم، كما سنشير إليه...

ورابعاً: كما أنّه لو كان مجرد رؤيا، لم يخرج أبوطالب والهاشميون في طلبه... وكان العباس يناديه حتى أجابه من بعض النواحي... حسبما ورد في بعض الروايات...

وأما لماذا ينكرون أن يكون ذلك بالروح والجسد معاً؟ فهو إمّا لعدم قدرتهم على تعقّل ذلك، أو لأجل الخطّ من كرامة النبي (صلى الله عليه وآله) ، أو لعدم قدرتهم على اقناع الناس بأمر مبهم كهذا. راجع (الصحيح من سيرة النبي: ٢٧٥/١).

الفصل التاسع: بيعنا العقبة

الفصل التاسع

بيعتا العقبة

ردّ القبائل لـ «محمد» ردّاً غير جميل، بشائر الفوز من ناحية يثرب، صلات اليهود بالأوس والخزرج، إسلام بعض اليثريين وقعة بعاث، بيعة العقبة الصغرى، مصعب بن عمير، عودته مع الحاجّ إلى مكّة بعد عام، المسلمون في يثرب، بيعة العقبة الكبرى، أنباؤها عند قُريش، ائتمارها بـ «محمد» كي تقتله، إذنه لمسلمي مكّة بالهجرة إلى يثرب.

لم تدرك قُريش معنى الإسراء، ولم يدرك كثير من أسلموا معناه الذي قدّمنا. لذلك انصرف جماعة من هؤلاء عن متابعة «محمد» بعد أن اتبعوه زمناً طويلاً^(٤٥٧). ولذلك ازدادت مساءات قُريش لـ «محمد» وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعاً. ولم يبق لـ «محمد» رجاء في نصرة القبائل إيّاه بعد إذ ردّته ثقيف من الطائف بشرّ جواب، وبعد إذ ردّته كندة وكتب وبنو عامر وبنو حنيفة لما عرض نفسه عليها في موسم الحجّ. وشعر «محمد» بعد ذلك كلّهُ بأنّه لم يبق له مطمع في أن يهدي إلى الحقّ من قُريش أحداً، كما أن غير قُريش من القبائل التي تجاورها، والتي تجيء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجّة إليها، قد رأت ما وصل «محمد» إليه من عزلة، وما أحاطته به قُريش من عداوة تجعل كل نصير له عدوّاً لها وعوناً عليها. ومع اعتزاز «محمد» بحمزة وعمر، ومع طمأنينته إلى أن قريشاً لن تنال منه أكثر ممّا نالت لمنعته بقومه من بني هاشم وبني عبدالمطلب، فإنّه رأى رسالة ربّه تقف في دائرة من اتّبعه إلى يومئذ، ممّن يشكون لقلّتهم ولضعفهم أن يبيدوا أو أن يُفتنوا عن دينهم، إذا لم يأثمّ نصر الله والفتح. وتناولت الأيام بـ «محمد» وهو يزداد بين

(٤٥٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٩٨/١ — ٣٩٩، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: ٣٧٩/١، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى،

١٤١٩ هـ، وتاريخ الإسلام للذهبي: ٢٥١/١، وإمتاع الأسماع: ٤٨/١، والسيرة الحلبية: ٣٧٨/١.

نعم، تشير بعض المصادر إلى ارتداد البعض من المسلمين حينما سمعوا بأنّ النبيّ قد أُسري به وأُحجّت عن ذكر أسماء هؤلاء الذين ارتدّوا. وتذكر لنا كتب تاريخية أخرى بأنّ المشركين قد كذبوا دعوى النبيّ (صلى الله عليه وآله) على أنّه أُسري به وسألوا عن أمارات تثبت صدق ما ادّعاه وقد جاءهم بما طلبوا منه وكذبوه على الرغم ممّا بيّن لهم من أمارات الصدق. ولم تذكر تلك المصادر بأنّ المسلمين قد ارتدّوا. انظر إعلام الوری: ١٢٥/١، ومنقب ابن شهر آشوب: ١٨٠/١.

قومه عزلة وتزداد قُريش عليه حقداً. فهل ضعفت هذه العزلة من نفسه، أو أوهنت له عزماً؟! كلا! بل زاده الإيمان بالحق الذي جاءه من ربه سموّاً على هذه الاعتبارات التي تفتّ في عضد ذوي النفوس العادية، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازة إلا سموّاً وإيماناً. وظلّ «محمد» وأصحابه من حوله وهو أشدّ ما يكون في عزلته ثقة بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كلّ. لم ترزعزع منه أعاصير الحقد، بل جعل يقيم بمكة طوال عامه لا يعنيه أن ذهب مال خديجة وماله، ولا يضعضع من نفسه ضيق ذات يده، ولا يتطلع بروحه إلى شيء غير هذا النصر الذي لا ريب عنده في أن الله مؤتيه إيّاه. فإذا جاء موسم الحجّ واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة، بادأ القبائل فدعائها

إلى الحقّ الذي جاء به، غير آبه أن تبدي هذه القبائل الرغبة عن دعوته والاعراض عنه، أو ترده ردّاً غير جميل. ويتحرّش به بعض سفهاء قُريش حين إبلاغه الناس رسالته وينالونه بالسوء. فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه وطمأنينته إلى غده. إنّ الله ذا الجلال قد بعثه بالحقّ، فهو لا ريب ناصر هذا الحقّ ومؤيده. وهو قد أوحى إليه أن يجادل الناس بالتي هي أحسن: (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (٤٥٨). وأن يقول لهم قولاً لئنا نعلمهم يذكرّون أو يخشون. فليصبر على أذاهم، إنّ الله مع الصابرين.

ولم يطل بـ «محمد» الانتظار أكثر من بعض سنين حتى بدت له في الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من ناحية يشرب. ولـ «محمد» يشرب علاقة غير علاقة التجارة، له بها علاقة قربي، وله فيها قبر كانت أمّه تحجّ إليه قبل موتهما في كلّ عام مرّة. أمّا ذوو قرباه بها فأولئك بنو النجّار أحوال جدّه عبدالمطلب. وأمّا ذلك القبر فقبر أبيه عبدالله بن عبدالمطلب. إلى هذا القبر كانت تحجّ آمنة الزوج الوفية، وكان يحجّ عبدالمطلب الأب الذي فقد ابنه وهو في شرح شبابه وريعان قوته. وقد صحب «محمد» أمه إلى يشرب في السادسة من عمره فزار معها قبر أبيه ثمّ قفلاً عائدين، فمرضت آمنة في الطريق وماتت ودفنت بالأبواء في منتصف الطريق بين يشرب ومكة. فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز لـ «محمد» من ناحية بلد له به هذه الصلة، وإلى ناحيته كان يتّجه حين يصليّ جاعلاً قبلته المسجد الأقصى بيت المقدس، مقام سلفيه موسى وعيسى. ولا عجب أن تُهيئ المقادير ليشرب هذا الحظّ، ليم لـ «محمد» بها النصر، وللإسلام بها الفوز والانتشار.

هيأت المقادير ليشرب هذا الحظّ بما لم تهَيّه لبلد آخر. فقد كان الأوس والخزرج من عبّاد الأوثان يشرب يتجاورون مع يهودها جواراً كثيراً ما شابته البغضاء وما تعدّى البغضاء إلى القتال

. وإنَّ التاريخ ليروي أنَّ المسيحيين في الشام مَن كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية، وكانوا يُمقنون اليهود أشدَّ المقت لاعتقادهم أنَّهم هم الذين صلبوا المسيح ونكّلوا به، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها، فلمّا لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج لاستدراجهم، ثُمَّ قتلوا عدداً منهم غير قليل ممّا أنزل اليهود عن مكان السيادة الذي كان لهم، ورفع عرب الأوس والخزرج إلى مكانة غير مكانة العمال التي كانوا مقصورين من قبلُ عليها^(٤٥٩). وقد حاول العرب من بعد ذلك أن يوقعوا باليهود مرّة أخرى ليزدادوا في المدينة العامرة بالزراعة وبالماء سلطاناً، فنجحوا في غدرهم بعض النجاح، ثُمَّ فطن اليهود لوقيعتهم بهم. بذلك تمكّنت العداوة والبغضاء في نفوس يهود يثرب لأوسها والخزرج، وفي نفوس الأوس والخزرج لليهود. ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تمّوي بهم إلى الفناء، أن قد يجد الأوس والخزرج حلفاً من بني دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء. لذلك سلكوا في سياستهم خطة غير خطة الغلب في المعارك، فلدجأوا إلى سياسة الوقعة والتفريق؛ إذ دسّوا بين الأوس والخزرج وملأوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظة بعضهم على بعض، ممّا جعل هؤلاء وأولئك على أهبة مستمرة للقتل والقتال، وجعل اليهود بمأمن منهم ومن عدوانهم، يزيدون في تجارتهم وفي ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سيادة، ويستردّون ما أضاعوا من دار ومن عقار.

كان لجوار اليهود والعرب يثرب فيما خلا هذا التزاع على السيادة والسلطان، أثر آخر أعمق عند الأوس والخزرج ممّا كان عند سائر أهل جزيرة العرب، ذلك هو الأثر الروحي. فقد كان اليهود، كأهل كتاب ودعاة وحدانية، يأخذون على جيرانهم الوثنيين اتّخاذهم الأوثان زُلفى إلى الله وينذروهم بعث نبيٍّ يقضي عليهم ويشايح اليهود^(٤٦٠). ولم تصل هذه الدعوة إلى تهويد العرب لسبيين:

أولهما: أنَّ ما كان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطمعون في أكثر من السلامة التي تمّيت لهم سعة التجارة.

الثاني: أنَّ اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة، فلا يدعون لذلك لدينهم ولا يرضونه يخرج من بني إسرائيل. برغم هذين السبيين كان اتصال الجوار والتجارة في يثرب بين اليهود والعرب من شأنه أن يجعل أوس يثرب وخزرجها

(٤٥٩) دائرة المعارف: ٣٧٤/٧ — ٣٧٥ راجع مادة (خزرج).

(٤٦٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٢٨/١ — ٤٢٩، وامتاع الأسماع: ٤٩/١، وعيون الأثر: ١٨١/١، إعلام الوری: ١٣٧/١.

أكثر استماعاً للحديث في الشؤون الروحية وفي سائر شؤون الدين من غيرهم من العرب. يدلّك على ذلك أنّ العرب لم تستجب لدعوة «محمد» الروحية مثلما استجابت يثرب.

كان سويد بن الصامت من كبار أشراف يثرب ، حتى كان قومه يسمّونه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه. وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها قدم سويد مكّة حاجاً، فتصدّى له «محمد» فدعاه إلى الله وإلى الإسلام . فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. قال «محمد»: وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان. فطلب إليه «محمد» أن يعرضها عليه فعرضها؛ فقال له «محمد»: إنّ هذا الكلام حسن والذي معي أفضل. هو قرآن أنزله الله عليّ هدى ونوراً. تلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام؛ فطاب سويد نفساً بما سمع وقال: هذا حسن، وانصرف يفكر فيه. وإن قوماً يقولون حين قتلته الخزرج: إنّّه مات مسلماً^(٤٦١).

وليس سويد بن الصامت هو المثل الوحيد الذي يدل على أثر تجاوز اليهود والعرب بيثرب من الناحية الروحية. فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التي بثّ اليهود ما علمت. وكان كلّ منهم يلتزم الحلف من قبائل العرب ليقا تل الآخر. وكان من ذلك أن أبا الحيسر أنس بن رافع أتى مكّة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج. وسمع بهم «محمد» فأتاهم فجلس إليهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ — وكان غلاماً حدثاً — : أي قوم، هذا والله خير مما جئتم فيه. وعاد القوم إلى يثرب لم يسلم منهم غير إياس؛ لأنّهم كانوا في شغل بالتماس الحلف استعداداً لواقعة بُعث التي اصطلّى الأوس والخزرج جميعاً بنارها بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه من مكّة. لكنّ كلام «محمد(صلى الله عليه وآله)» ترك في نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا في «محمد» نبياً ورسولاً وحليفاً وإماماً^(٤٦٢).

كانت وقعة بعث بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه إلى يثرب؛ اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالاً شديداً أملتته عداوة متأصلة، حتّى لكان كلّ قوم يسائل بعضهم بعضاً إذا هم انتصروا؛ أييقون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم. وكان أبو أسيد حُضير الكتائب على رأس الأوس، وكان في نفسه من الحقد على الخزرج أشدّه. فلمّا بدأ القتال دارت على الأوس دائرة فولّوا فراراً نحو نجد، فعيرتهم الخزرج . فلمّا سمع حُضير تعييرهم طعن بسنان رحمه

(٤٦١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٢٥/١، وسيرة ابن كثير: ١٧٣/٢ — ١٧٤ .

(٤٦٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٢٧/١ — ٤٢٨، سيرة ابن كثير: ١٧٤/٢ — ١٧٥، إعلام الوري: ١٣٧/١ .

فخذه ونزل وصاح: واعقراها! و الله لا أريم حتى أقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تُسلموني فافعلوا . فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم لما أصابهم ما جعلهم يستبسلون مستيئسين ، حتى انهزمت الخزرج شرّ هزيمة. وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها، حتى أجارها سعد بن معاذ الأشهلي. وأراد حُضير أن يأتي الخزرج قصراً قصراً وداراً داراً يقتل ويهدم حتى لا يبقى منهم على أحد ، لولا أن منعه أبو قيس بن الأسلت إبقاء على بني دينهم: «فجوارهم خير من جوار الثعالب»^(٤٦٣).

واستعادت اليهود بعد هذا اليوم مكانتها يثرب، حتى رأى المنتصر والمهزوم من الأوس والخزرج جميعاً سوء ما صنعوا، وفكروا في عاقبة أمرهم. وتطلّعوا إلى إقامة ملك عليهم، واختاروا لذلك عبدالله بن محمد من الخزرج المهزومة لمكانته وحسن رأيه. لكنّ تطور الأحوال تطوراً سريعاً حال دون ما أرادوا^(٤٦٤). ذلك أنّ نفراً من الخزرج خرجوا إلى مكّة في موسم الحجّ، فلقّاهم «محمد» فسألهم عن شأنهم وعرف أنّهم من موالي يهود. وقد كان اليهود يثرب يقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم: إنّ نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم النبي أولئك نفر ودعاهم إلى الله، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا: والله إنّ للنبيّ الذي تواعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. وأجابوا «محمدًا» إلى دعوته وأسلموا وقالوا له: «إنّا قد تركنا قومنا — أي الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعزّ منك. وعاد هؤلاء نفر إلى المدينة ومن بينهم اثنان من بني النّجار أخوال عبدالمطلب جدّ «محمد» الذي كفله منذ مولده. عادوا فذكروا لقومهم إسلامهم؛ فألفوا قلوباً مفتوحة ونفوساً متلهفة لدين يجعلهم موحدّين كاليهود ، بل يجعلهم خيراً منهم. فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلّا وفيها ذكرٌ من «محمد(عليه السلام)». فلما استدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحجّ لمكّة. أتى الموسم اثنا عشر رجل من أهل يثرب، فالتقوا بالنبيّ بالعقبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى. بايعوه على ألاّ يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزني ولا يقتل أولاده ولا يأتي ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف، فإن وفي ذلك فله الجنة، وإن غشّى من ذلك شيئاً فأمره إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر. وأنفذ «محمد» مُصعب بن عُمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين^(٤٦٥).

(٤٦٣) دائرة المعارف: ٤٩٢/٥، راجع مادة بُعِثَ، إعلام الوري: ١٣٧/١.

(٤٦٤) دائرة المعارف: ٣٧٦/٧ راجع مادة (خزرج)، وإعلام الوري: ١٣٩/١.

(٤٦٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٢٩/١ — ٤٣١، وسيرة ابن كثير: ١٧٦/٢ — ١٧٨، إعلام الوري: ١٣٩/١.

ازداد الإسلام بعد هذه البيعة يشرب انتشاراً. وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم دينهم ويلاحظ مغتبطاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق . فلما آذنت الأشهر الحرم أن تعود، لحق بمكة وقصّ على «محمد» خبر المسلمين بالمدينة وماهم عليه من منعة قوة، وأنهم سيجيئون إلى مكة موسم حجّ هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيماناً^(٤٦٦).

ودعت أخبار مصعب «محمدًا» ليفكر في الأمر طويلاً. هاهم أولاء أتباعه يشرب يزددون كل يوم عدداً وسلطاناً، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين ما يجده زملاؤهم بمكة من أذى قريش! وهاهي ذي يثرب بها من الرخاء أكثر مما بمكة: بها زروع ونخيل وأعناب! أوليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيون إلى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمناً وليسلموا من فتنة قريش إياهم عن دينهم؟ وذكر «محمد» أثناء تفكيره أولئك نفر من يشرب الذين كانوا أول من أسلم، والذين ذكروا له ما بين الأوس والخزرج من عداوة، وأنهم إذا جمعهم الله به فلا رجل أعزّ منه. أوليس من الخير، وقد جمعهم الله به، أن يهاجر هو أيضاً؟ إنه لا يجب أن يردّ على قريش مساءهما وهو يعلم أنه أضعف منها، وأنّ بني هاشم وبني المطلب إن منعه من الاعتداء عليه فلن ينصروه معتدياً، ولن يمنعوا الذين اتبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن إصابتها إياهم بأنواع المساءة. وإذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستهن بكلّ شيء ونضحّي عن طيب خاطر في سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة، وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان استعاراً، فإن استمرار الأذى والتضحية يشغل المؤمن بما عن دقة التأمل التي تزيد في أفق المؤمن سعة، وفي إدراكه للحقّ قوة وعمقاً. وقد أمر «محمد» الذين اتبعوه من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية أن كانت بلاد صدق، وكان بها ملك لا يُظلم عنده أحد. فأولى بالمسلمين ثمّ أولى أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقوّوا بأصحابهم المسلمين فيها، وأن يتآزروا لذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شرّ، ليكون لهم بذلك من الحرية في تأمل دينهم والجهرب به ما يكفل إعلاء كلمته، كما يكفل نجاح الدعوة إليه، دعوة لا تعرف الإكراه ، بل أساسها الرفق والاقناع والمجادلة بالتي هي أحسن.

وكان الحاجّ من يشرب في هذه السنة — سنة ٦٢٢ ميلادية — كثيراً بالفعل. وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلماً منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . فلما عرف «محمد» مقدمهم فكّر في بيعة لا تقف عند الدعوة إلى الإسلام على نحو ما ظلّ هو يدعو إليه ثلاث عشرة سنة متتابعة في رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعاً؛ بل تمتد إلى ما وراء ذلك وتكون حلفاً يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان. واتّصل «محمد»

(٤٦٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٣٨/١، وسيرة ابن كثير: ١٩٢/٢، وإعلام الوري: ١٤١/١.

سراً بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جوف الليل في أوسط أيام التشريق. وكنتم مسلمو يثرب من معهم من المشركين أمرهم وانتظروا حتى إذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبي خرجوا من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين مخافة أن ينكشف سرهم. فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعاً وتسلقت المراتان معهم ينتظرون مقدم صاحب الرسالة.

وأقبل «محمد» ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب^(٤٦٧)، وكان ما يزال على دين قومه. لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن في الأمر حلفاً، وأن الأمر قد يجرّ إلى حرب، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بني المطلب وبني هاشم أن يمنعوا «محمدًا». فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يُصلى بنوهاشم وبنو المطلب بناها، ثم لا يجدون من هؤلاء الشرييين نصيراً. لذلك كان هو أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج، إن «محمدًا» منا حيث قد علمتم. وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. وهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده. وقد أبي إلا الانحياز إليكم والحق بكم. فإن كنتم ترون أنّكم وافون له فيما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك؛ وإن كنتم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه.

قال الشرييون — وقد سمعوا كلام العباس — :

سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فأجاب «محمد» — بعد أن تلا القرآن ورغب في الإسلام — :

أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وكان البراء بن معرور سيّد قومه وكبيرهم. وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكلّ ما يفرض الإسلام. إلا أنّه جعل قبلة صلاته الكعبة. وكان «محمد» والمسلمون جميعاً يومئذ ما تزال قبلتهم المسجد الأقصى. ولما اختلف قومه معه واحتكموا إلى النبيّ أولّ وصولهم مكة ردّ «محمد» البراء عن اتخاذ الكعبة قبلته. فلما طلب «محمد» إلى مسلمي يثرب أن يمنعوه ممّا يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، مدّ البراء يده يبايعه على ذلك وقال:

بايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

ولما يتم البراء كلامه إذ اعترض أبو الهيثم بن التيهان، قائلاً:

(٤٦٧) ذكر ذلك اليعقوبي في تاريخه، وهو من موالى بني العباس، بل هو العباس بن فضلة بن عبادة الأوسي كما يأتي في الصفحة التالية بقول

مشابه. مسند أحمد: ٤٦١/٣ .

يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين الرجال — أي اليهود — حبلاً نحن قاطعوها. فهل عسيت إن
نحن فعلنا ذلك ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟
فتبسّم «محمّد» وقال:

بل الدّم الدّم والهدم الهدم. أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم.
وهمّ القوم للبيعة، فاعترضهم العباس بن عباد، قائلاً:
يا معشر الخزرج: أتعلمون علّامَ تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر
والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه
فمن الآن فدعوه، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما
دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.
فأجاب القوم: إنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا يا رسول الله إن نحن
وفينا بذلك؟

وردّ عليهم «محمّد» مطمئن النفس، قائلاً: الجنة.
ومدّوا إليه أيديهم، فبسط يده فبايعوه. فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبي: أخرجوا لي
منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم. فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من
الأوس. فقال النبي لهؤلاء النقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن
مريم، وأنا كفيل على قومي. وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا: بايعنا على السمع والطاعة في
عُسْرنا ويُسْرنا وَمَنْشَطْنا وَمَكْرَهْنا وأن نقول الحقّ أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم.
تمّ ذلك كلّهُ جوف الليل في شعب العقبة في عزلة من الناس والقوم على ثقة من أنّه لا
تطلّع عليهم عين إلّا الله. لكنّهم ما كادوا يتمّونه حتى سمعوا صوتاً يصيح بقريش: إنّ «محمّداً»
والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم. ذلك رجل خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم قليلاً
اتصل بسمعه، فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم وأن يدخل في روعهم أن ما بيّتوا بليل افتضح. لكنّ
الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم، حتى لقال العباس بن عباد لـ «محمّد» بعد أن سمع هذا
المتجنّس: والله الذي بعثك بالحقّ إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيفنا. فكان جواب
«محمّد» أن قال: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رجالكم»، فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى
أيقظهم الصبح.

على أنّ الصبح ما كاد يتنفّس حتى علمت قُريش نبأ هذه البيعة. فانزعجت فغدت جلّتها
على الخزرج في منازلهم يعاتبونهم ويقولون لهم: إنهم لا يريدون حربهم فما بالهم يحالفون «محمّداً»

لقتالهم! وانبعث المشركون من الخزرج يخلفون بالله ما كان من هذا شيء. أما المسلمون فاعتصموا بالصمت أن رأوا قريشاً مالت لتصديق شركائها في الدين. وعادت قُريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه وجعلت تنتطّسه^(٤٦٨) علّها تقف على جليّة الأمر فيه. واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين بلدهم قبل أن تثق قُريش بشيء مما حصل. فلما عرفت أن الخبر حق، خرجت تطلب أهل يثرب، فلم تلحق منهم إلاّ بسعد بن عُبادة، أدركوه وردّوه إلى مكة وعذبوه حتى أجاره جُبير بن مطعم بن عدي والحرث بن أمية، أن كان يجير لهما من يخرجون في تجارتهما إلى الشام حين مرورهم بيثرب^(٤٦٩).

لم تبالغ قُريش قطّ في فزعها ولا في تتبعها الذين بايعوا «محمّداً» على قتالها. فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوّته، ووقفت من الجهود للحرب السلبيّة التي أعلنت عليه ما أجهدتها وأجهدته، ونال منها ونال منه. عرفت ذلك القويّ بالله المستمسك برسالة الحقّ لا يلين فيها ولا يداجي ولا يخاف فيها أذى ولا مساءة ولا قتلاً. ولقد خيّل إلى قُريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الأذى وبعد أن حاصرته في الشّعب وبعد أن أدخلت إلى نفس أهل مكة جميعاً من الروع ما صدّهم عن اتباعه، أنّها توشك أن تظفر به، وأن تحصر نشاطه في الدائرة الضيّقة من الأتباع الذين ظلّوا على دينه؛ وآته ومن معه لا يلبثون إلاّ قليلاً حتى تضنيهم العزلة فيعودون إلى حكمها طائعين. أمّا اليوم وإزاء هذا الحلف الجديد فقد انفتح أمام «محمّد» والذين معه باب الرجاء في الغلب، أو على الأقلّ باب الرجاء في حرية الدعوة إلى عقيدتهم والطعن على الأصنام وعبادها. ومن يدري ما يكون أمر القوم من بعد ذلك في شبه جزيرة العرب كلّها وقد نصرّتهم يثرب بأوسها وخزرجها. وقد جعلتهم بمأمن من العدوان وفسحت لهم حرية القيام بفروض دينهم ودعوة غيرهم للانضمام إليهم. فإذا لم تقض قُريش على هذه الحركة وما تزال في مهدها، فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها وفوز «محمّد» عليها لن يزال يُقضى مضجعها.

لذلك أمعنت تفكّر فيما تفعل لتحبط ما قام به «محمّد» ولتقضي على هذه الحركة الجديدة. ولم يكن هو من ناحيته أقلّ من قُريش تفكيراً. إنّ هذا الباب الذي فتح الله أمامه هو باب العزّة لدين الله والسموّ لكلمة الحقّ. فالمعركة الناشئة اليوم بينه وبين قُريش هي أشدّ ما وقع منذ يوم بعثته، وهي معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها. والغلب لا ريب للصادقين. فليجمع أمره

(٤٦٨) التنطس: المبالغة في التطهّر. وكل من أدق النظر في الأمور واستقصى علمها فهو متنطس — الصحاح، الجوهري: ٩٨٣/٣.

(٤٦٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٤٨/١ — ٤٥٠ وإعلام الوری: ١٤١/١ — ١٤٣.

وليستعن بالله وليكن لما تكيد قريش أشدّ ازدراء مما كان في كلّ ما سلف، وليُقدم ولكن في حكمة وأناة ودقة؛ فالموقف موقف حنكة السياسي والقائد الدقيق المناورة.

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار يثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم. وبدأ المسلمون يهاجرون فرادى أو في نفر قليل. لكن قريشاً فطنت للأمر فحاولت أن تردّ كلّ من استطاعت ردّه إلى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذّبه وتكّل به. وبلغت من ذلك أنّها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه، وأنّها كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه. لكنّها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف قبائلها إذا هي همت بقتل واحد من أهل هذه القبائل. وتتابع هجرة المسلمين إلى يثرب و«محمد» مقيم حيث هو، لا يعرف أحد: أهو قد اعتزم الإقامة أم قرر الهجرة؟ وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة من قبل، وظلّ هو بمكة يدعو سائر أهلها إلى الإسلام. وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه في الهجرة إلى يثرب، فقال له: لا تعجل لعلّ الله يجعل لك صاحباً. ولم يزد على ذلك^(٤٧٠).

على أن قريشاً كانت تحسب هجرة النبيّ إلى يثرب ألف حساب. لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا. وهامهم أولاء المهاجرون من مكة ينضمّون إليهم فيزيدونهم قوّة، فإذا لحق «محمد» بهم وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأي وبُعد نظر، خشوا على أنفسهم أن يذهبهم اليثريون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام، وأن يجيعوها، كما حاولوا هم أن يجيعوا «محمدًا» وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكروههم على أن يلزموا الشّعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً.

وإذا بقي «محمد» بمكة وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرّضون إلى مثل هذا الأذى من جانب اليثريين دفاعاً عن نبيّهم ورسولهم. فلم يبق إلاّ أن يقتلوه ليستريحوا من كلّ هذا الهمّ الواصب. لكنّهم إن قتلوه طالب بنوهاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحرب الأهلية أن تفسو في مكة فتكون شرّاً عليها ممّا يخشونه من ناحية يثرب. واجتمع القوم بدار الندوة يفكّرون في هذا كلّ وفي وسيلة اتقائه. قال قائل منهم: احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ثمّ تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والنابغة ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم. لكنّ هذا الرأي لم يلق سميحاً. وقال قائل: نخرجه من بين أظهرنا ونففيه من بلادنا ثمّ لا نبالي بعد ذلك من أمره شيئاً. لكنّهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرّقون منه. وانتهوا

(٤٧٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٦٨/١. ولكنّه فيه خير مرسل بلا إسناد.

على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً وأن يعطوا كل فتى سيفاً صارماً بتاراً فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، ولا تقدر بنوعبدمناف على قتالهم جميعاً، فيرضون فيه بالدية وتستريح قُريش من هذا الذي بدّد ثملها وفرّق قبائلها شيعاً. وأعجبهم هذا الرأي فاطمأنوا إليه واختاروا فتيانهم وباتوا يحسبون أن أمر «محمد» قد فرغ منه، وأنه بعد أيام سيوارى وتوارى دعوته في التراب، وسيعود الذين هاجروا إلى يشرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم، وتعود بذلك لقريش وبلاد العرب وحدتها التي تمزقت ، ومكانتها التي تضعضعت أو كادت^(٤٧١).

* * *

الفصلُ العاشرُ

هجرة الرسول

الأمر بالهجرة، عليّ في فراش النبيّ، في غار ثور، الخروج إلى يثرب ، قصة سراقه بن جعشم، مسلمو يثرب في انتظار الرسول، الإسلام ييثرب، دخول محمّد المدينة.

اتّصل بـ «محمّد» نبأ ما بيّنت قريش لقتله مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه بها، وما قد يجزّ ذلك على مكّة من أذى وعلى تجارتها مع الشام من بوار. ولم يكن أحد يشك في أنّ «محمّداً» سيتنهر الفرصة فيها جرداً على أنّ ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد إلى سرّه سبيلاً. حتى أبو بكر، الذي أعدّ راحلتين منذ استأذن النبيّ في الهجرة فاستمهله^(٤٧٢)، قد بقي لا يعرف من الأمر إلاّ قليلاً. ولقد ظلّ «محمّد» بمكّة حتى علم من أمر قريش ما علم وحتى لم يبق من المسلمين بها إلاّ القليل. وإنه لينتظر أمر ربّه إذ أوحى إليه أن يهاجر^(٤٧٣). هنالك ذهب إلى بيت أبي بكر وأخبره بأنّ الله أذن له في الهجرة، وطلب الصديق أن يصحبه في هجرته فأجاب إلى ما طلب^(٤٧٤). هنا تبدأ قصة من أروع ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحقّ والعقيدة والإيمان. كان أبو بكر قد أعدّ راحتيه ودفعهما إلى عبدالله بن أريقط يرعاها لميعادهما^(٤٧٥). فلمّا اعتزم الرجلان مغادرة مكّة لم يكن لديهما ظلّ من ريب في أنّ قريشاً ستتبعهما. لذلك اعتزم «محمّد» أن يسلك طرقاً غير مألوفة وأن يخرج إلى سفره في موعد كذلك غير مألوف. وكان هؤلاء الشبان الذين أعدت قريش لقتله يحاصرون داره في الليل مخافة أن يفرّ. ففي ليلة الهجرة أسرّ «محمّد» إلى عليّ

(٤٧٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٨٠/١ .

(٤٧٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٨٢/١ .

(٤٧٤) ابن إسحاق في السيرة: ١٢٨/٢ ولكنّه خبر مرسل عن عروة عن عائشة، ولم ينقل عن غير هذا الطريق. ثمّ الخير يقول: أتانا رسول الله

بالمهاجرة، وليس فيه خبر عن عودته إلى بيته ثمّ رجوعه إليه ليلاً، بينما من المسلم به المفروغ عنه أنّ خروجه من داره كان ليلاً. فكيف

التوفيق؟!

(٤٧٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٨٤/١ — ٤٨٥ .

بن أبي طالب أن يتسجى بُرده الحضرمي الأخضر وأن ينام في فراشه^(٤٧٦)، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس^(٤٧٧). وجعل هؤلاء الفتية من قُريش ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفر^(٤٧٨). فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج في غفلة منهم إلى دار أبي بكر^(٤٧٩) وخرج الرجلان من خوخة في ظهرها وانطلقا جنوباً إلى غار ثور، أن كان اتجاهاهما نحو اليمن مما لا يرد بالبال. لم يعلم بمخبئهما في الغار غير عبدالله بن أبي بكر وأختيه عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فهيرة. أما عبدالله فكان يقضي فواره بين قُريش يستمع ما يأترون «بمحمّد» ليقصّه ليلاً على النبي وعلى أبيه. وأمّا عامر فكان يرعى غنم أبي بكر، وكان إذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا، وإذا عاد عبدالله بن أبي بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم فعفّى على أثره. وأقاما بالغار ثلاثة أيام كانت قُريش أثناءها تجدد في طلبهما أيّ جدّ. وكيف لا تفعل وهي ترى الخطر محققاً بما إن هي لم تدرك «محمّداً» ولم تحل بينه وبين يشرب^(٤٨٠). أمّا الرجلان فأقاما بالغار و«محمّد» لا يفتر عن ذكر الله، إليه أسلم أمره وإليه تصير الأمور؛ وأبو بكر يُرهف أذنه يريد أن يعرف هل الذين يقفون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحاً. وأقبل فتیان قُريش، من كلّ بطن رجل، بأسيا فهم وعصيهم وهراواتهم يدورون باحثين في كلّ الأنحاء، حتى إذا التقوا براع سألوه فكان جوابه: وقد يكون بالغار وإن كنت لم أرَ أحداً أمّه.

(٤٧٦) حيث إنّ لبطلولة مبيت الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في فراش الرسول (صلى الله عليه وآله) من الحوادث التي أرّخ لها القرآن ونزلت بحقّها آية وذكرها الصحاح والتفاسير والسير، لكنّ الكاتب غضّ النظر عنها وتمرّ عليها مرور الكرام.

(٤٧٧) ويُضاف أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال لعليّ (عليه السلام): «يا عليّ إنّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي وآله أوحى إليّ عن ربّي أن أهجّر دار قومي، فثمّ على فراشي والتحف ببردي الحضرمي لتخفي بمبيتك عليهم أثري فما أنت قاتل وصانع؟ فقال (عليه السلام): أو تسلمن بميتي هناك يا نبيّ الله؟ فقال: نعم، فتبسّم عليّ (عليه السلام) ضاحكاً مسروراً وهوى إلى الأرض ساجداً شاكراً لله تعالى لما أنبأه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سلامته وقال (عليه السلام): امضِ لما أمرت فذاك سمعي وبصري وسويّداء قلبي. (راجع مسند أحمد: ١/٣٣١ ط ١، وتفسير الطبري: ١٤٠/٩، ومستدرك الحاكم: ٤/٣ طبعة حيدرآباد الدكن.

وهذه المناسبة نزلت الآية الكريمة: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) البقرة: ٢٠٧ في حقّ عليّ (عليه السلام) حيث أحاط المشركون بالدار فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل: إنّني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة فأوحى الله إليهما: ألا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب، آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه، يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ إهبطا إلى الأرض، فاحفظاه من عدوه، فترلا فكان جبرئيل عند رحليه فقال جبرئيل: بخ بخ من مثلك يابن أبي طالب يُباهي الله بك الملائكة. (راجع أسد الغابة: ٢٥/٤، وشواهد التنزيل: ٩٨/١، ومستدرك الحاكم: ١٣٢/٣، ونور الأبصار: ٨٦، ونبائع المودة: ٩٢، والتفسير الكبير: ٢٠٤/٥، ومسند أحمد: ٣٣/١، وتفسير الطبري: ١٤٠/٩.

(٤٧٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٨٢/١ — ٤٨٣.

(٤٧٩) مرّ التعليق عليه.

(٤٨٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٨٥/١ — ٤٨٦.

وتصيّب أبو بكر عرقاً حين سمع جواب الراعي، وخاف أن يقتحم الباحثون الغار عليهما، فأمسك أنفاسه وبقي لا حراك به وأسلم لله أمره. وأقبل بعض القرشيين يتسلّقون إلى الغار ثم عاد أحدهم أدراجه ، فسأله أصحابه: مالك لم تنظر في الغار؟ فقال: إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد «محمد» ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بغم الغار، فعرفت أن ليس أحد فيه. ويزداد «محمد» إمعاناً في الصّلاة، ويزداد أبو بكر خوفاً، فيقترب من صاحبه ويلصق نفسه به، فيهمس «محمد» في أذنه: لا تحزن إنّ الله معنا.

وفي رواية كتب الحديث: أن أبا بكر لما شعر بدنوّ الباحثين، قال هامساً:

لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا.

فأجابه النبي: يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وزاد القرشيين اقتناعاً بأنّ الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلّت فروعها إلى فوهته، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع. إذ ذاك انصرفوا، وسمع اللاجئان تناديهما للأوبة من حيث أتوا، فازداد أبو بكر إيماناً بالله ورسوله، ونادى «محمد»: الحمد لله ، الله أكبر.

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة، تلك هي المعجزة التي تقص كتب السيرة في أمر الاختفاء بغار ثور. ووجه المعجزة فيها أنّ هذه الأشياء لم تكن موجودة، حتى إذا لجأ النبي وصاحبه إلى الغار أسرع العنكبوت إلى نسيج بيتها تستر به من بالغار عن الأعين، وجاءت الحمامتان فباضتا

بابه، ونمت الشجرة ولم تكن نامية^(٤٨١). وفي هذه المعجزة يقول المستشرق درمنجم:

«هذه الأمور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يقصّ التاريخ الإسلامي الجدل: نسيج عنكبوت وهوى حمامة ونماء شجيرة.. وهي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في أرض الله نظائر...»^(٤٨٢).

على أن هذه المعجزة لم ترد في سيرة ابن هشام، بل كل ما أورد هذا المؤرخ في سياق قصة الغار ما يأتي: «عمدا إلى غار بثور — جبل أسفل مكّة — فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما فماره، ثمّ يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر. وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه فماره، ثمّ يريحها إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.. فأقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الغار ثلاثاً. وجعلت فريش فيه حين فقدوه مئة ناقة لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في

قريش فماره ومعهم، يسمع ما يأترون وما يقولون في شأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرمى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذي استأجرا ببيعيريهما وبعير له... الخ» هذا ما ذكر ابن هشام عن قصة الغار نقلناه إلى حين خروج «محمد» وصاحبه منه^(٤٨٣).

وفي مطاردة قريش «محمدًا» لقتله، وفي قصة الغار هذه^(٤٨٤)، نزل قوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)^(٤٨٥)، وقوله في سورة التوبة: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٤٨٦).

وفي اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما ببيعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بطعامهما. فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في رحالهما فشقت

(٤٨٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٨٥/١ — ٤٨٦. والخبر هو الخبر المرسل: حدثني من لا أتهم عن عروة عن عائشة، ولم ينقل عن طريق آخر. وكأن المؤلف إذ قال: هذه المعجزة لم ترد في سيرة ابن هشام، يقوله مستبعداً لها على مقالته المتكررة في الكتاب عن القرآن الكريم: أنها معجزته الوحيدة! فهل هذه أكبر من الطير الأبايل، ولكنه لم يجد بداً من التصديق بما للتصديق بالقرآن الكريم.

(٤٨٤) الآية تقصّ الحالة التي عليها النبي (صلى الله عليه وآله) وهو في الغار من جهة النصر الإلهي الخاص له وكذا إنزال السكينة عليه خاصة. لكن النصّ قد وُظف لأغراض مذهبية خلافاً لظاهره، ونحن لا نريد أن نطعن بالخليفة بقدر ما نريد أن نقول إن الاستدلال به كفضيلة ليس بصحيح.

لا تتأولوا قوله تعالى: (ثَانِي اثْنَيْنِ) فهذا مجرد إخبار أن النبي (صلى الله عليه وآله) خرج ومعه غيره وهكذا قوله تعالى: (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) خبر عن كونهما فيه (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) لا مدح فيه ولا فضيلة أيضاً، لأن كلمة الصاحب تدل على الجليس والملازم للمسافر بغض النظر عن إيمانه وكفره، ألا ترى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ...) وقد يقول الرجل المسلم أرسلت إليك صاحبي اليهودي ولا يدل ذلك على الفضل.

وقوله تعالى: (لَا تَحْزَنْ) إن لم يكن في هذا القول ذم فليس فيه مدح بل هو نهي محض عن الخوف والاضطراب ثم لا يكون قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) كفضيلة أيضاً لأنه يمكن أن يكون ذلك قد جاء على وجه التهديد كما يقول القاتل لغيره إذا رآه يفعل فعلاً لا يليق: لا تفعل إن الله معنا يريد أن يقول له إن الله مطلع علينا عالم بالنا.

وقوله تعالى: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) أي على النبي لا على أبي بكر ولا عليهما لأنها في مورد بيان نصر الله تعالى الخاص للنبي في ظرف لم يكن له ناصر إلا الله (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) من هنا جاءت السكينة عليه من قبله سبحانه خاصة كتقويته بالجنود وهي الدعم والنصر الإلهي الخاص له، ثم إن رجوع الضمير في قوله تعالى: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) لا يعود لأبي بكر لأن الضمائر التي قبل هذا الضمير كلها عائدة للنبي (إِلَّا تَنْصُرُوهُ) و(نصره) و(أخرجه) و(يقول) و(لصاحبه) و(أيدته) فلا سبيل إلى رجوع الضمير في (عليه) من بين كل تلك الضمائر إلى غير رسول الله من دون قرينة قاطعة تدل على هذا الإرجاع.

(٤٨٥) الأنفال (٨): ٣٠.

(٤٨٦) التوبة (٩): ٤٠.

نطاقها وعلقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر، فسميت لذلك «ذات النطاقين». وامتنطى كل رجل بعيره، ومعهما طعامهما ومع أبي بكر خمسة آلاف درهم هي كل ماله. وزادهما اختفاؤهما بالغار وعلمهما بامعان قريش في تتبعهما حرصاً وحذراً، فأتخذا إلى يشرب طريقاً غير الطريق الذي ألف الناس. سلك بهما دليلهما عبدالله بن أريقط أحد بني الدؤل ممعناً إلى الجنوب بأسفل مكة، ثم متجهاً إلى قمامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر. فلما كانا في غير الطريق الذي ألف الناس اتجه بهما شمالاً محاذياً الشاطئ مع الابتعاد عنه، متخذاً من السبل ما قل أن يطرقة أحد. وأمضى الرجلان ودليلهما طيلة الليل وصدر النهار على رواحلهما، لا يعبان بمشقة ولا يضيئهما تعب^(٤٨٧). وأية مشقة أخوف مما يخافان من قريش لصدّهما عن الغاية التي يبتغيان بلوغها في سبيل الله والحق! صحيح أن «محمداً» لا تساوره ريبة في أن الله ناصرهم. ولكن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. والله في عون العبد مادام العبد في عون نفسه، وفي عون أخيه. ولئن كانا قد تخطيا في أمان أيام الغار، فإن ما جعلته قريش لمن يردّهما أو يدل عليهما جدير بأن يستهوي نفوساً يغريها الكسب المادي ولو جاء من طريق الجريمة. ما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون «محمداً» عدواً لهم، وفي نفوسهم من خلق الغيلة ما لا يأنف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعاً. فليكونا إذأ على أشد الحذر وليكونا كليهما أعيناً ترى وآذاناً تسمع وقلوباً تشعر وتعي.

ولم يجنهما حدسهما فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى ركة ثلاثة مرّوا عليه يعتقدهم «محمداً» وبعض أصحابه. وكان سراقاً بن مالك حاضراً، فقال: إنّما هم بنو فلان، ليضلّ الرجل وليفوز بمغنم النوق المنة. ومكث مع القوم قليلاً ثم عاد إلى بيته فتدجج بسلاحه، وأمر بفرسه فأرسل إلى بطن الوادي حتى لا يراه أحد ساعة خروجه، وامتطاه ودفعه إلى الناحية التي ذكر ذلك الرجل. وكان «محمداً» وصاحبه قد أناخوا في ظلّ صخرة ليقبلا وليرفهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وصب، ولينالوا من الطعام والشراب قليلاً علّهم يستعيدون قوتهم وصبرهم. وبدأت الشمس تنحدر، وبدأ «محمداً» وأبو بكر يفكران في امتطاء جهلهم إذ كانوا من سراقاً قيد البصر. وكان جواد سراقاً قد كبا به قبل ذلك مرتين لشدة ما جهده. فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه مدرك الرجلين فإدّهما إلى مكة أو قاتلهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً، نسي كبوتي جواده ولزّه ليمسك بيده ساعة الظفر. لكنّ الجواد في قومته كبا كبوة عيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه. وتطير سراقاً وألقي في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالّته، وأنه معرض نفسه

(٤٨٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٨٦/١. إن الذي هيأ للنبي الزاد والراحلة عليّ بن أبي طالب، إعلام الوري: ١٤٩/١.

خطر داهم إذا هو همّ مرّة رابعة لإنفاذ محاولته. هنالك وقف ونادى القوم: أنا سُراقَة بن جعشم. أنظروني أكلّمكم. فوالله لا أريكم ولا يأتيكم متّي شيء تكرهونه. فلمّا وقفّا ينظرانه طلب إلى «محمّد» أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه. وكتب أبو بكر بأمر النبيّ كتاباً على عظم أو خزف ألّقه إلى سُراقَة، فأخذه وعاد أدراجه وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده^(٤٨٨).

وانطلق «محمّد» وصاحبه يقطعان بطون قحاة في قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان آكاماً ووهاداً ولا يجدان أكثر الأمر ما يتّقيان به شواظ الهاجرة، ولا يجدان إلّا في صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحقّ الذي أنزل على رسوله، ملجأ من قسوة ما يحيط بهما، وأمناً لما يتخوّفان أن يفجأهما. وظلّاً كذلك سبعة أيام متتابعة ينيخان^(٤٨٩) في حمارة القيظ ويسريان على سفينة الصحراء الليل كلّ، يجدان في سكنته وفي ضوء النجوم اللامعة في ظلمته ما يطمئنّ له قلباهما وتستريح له نفساهما. فلمّا بلغا مقام قبيلة بني أسلم وجاء إليهما شيخها بُريدة يُحييها زالت مخاوفهما واطمأنت لنصر الله قلوبهما وقد صاروا من يشرب قاب قوسين أو أدنى^(٤٩٠).

في فترة رحلتها هذه المضنية كانت الأخبار قد ترامت إلى يشرب بهجرة النبيّ وصاحبه ليلحقا أصحابهما فيها، وكانت قد عرفت ما لقيا من عنت قُريش ومن تتبّعها إيّاهما. لذلك ظلّ المسلمون جميعاً بها وهم ينتظرون مقدم صاحب الرسالة بنفوس مُمتلئة شوقاً لرؤيته والاستماع له. وكان الكثيرون منهم لما يروه وإن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن قوة عزمه ماجلهم للقياء أشدّ اشتياقاً، وفي انتظاره أشدّ تطلّعاً. وإتّك لتقدّر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يشرب من لم يروا قطّ «محمّداً». ومن اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه ثمّ كانوا أشدّ المسلمين لدين الله دعوة ولرسول الله حبّاً. جلس سعد بن زُرارة ومُصعب بن عُمير في حائط من حوائط بني ظفر واجتمع إليهما رجال ثمّ أسلم؛ فبلغ نأهما سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير، وكانا يومئذ سيديّ قومهما. فقال سعد لحضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما وانهماهما، فإنّ سعد بن زُرارة ابن خالتي ولا أصبر عليه. فذهب أُسيد إليهما يزجرهما؛ فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإنّ رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال أُسيد: أنصفت. وركّز حربته وجلس إليهما، وسمع إلى مصعب فقام مسلماً وعاد

(٤٨٨) السيرة الحلبية: ٤٢/٢ — ٤٤، وإعلام الوري: ٧٨/١.

(٤٨٩) أناخ الرجل الجمل: أبركه — مجمع البحرين: ٤٤٧/٢.

(٤٩٠) السيرة الحلبية: ٥١/٢. هو بريدة بن الحُصيب الأسلمي التميمي حامل راية النبيّ (صلى الله عليه وآله) في مواقع منها لأسامة بن زيد، ثمّ

كان مع عليّ (عليه السلام) وحضر جنازة فاطمة (عليها السلام)، وليس من بني سهم من قُريش.

إلى سعد بوجه غير الوجه الذي تركه به؛ فغاظ ذلك سعداً وقام هو إلى الرجلين فكان أمره كأمر صاحبه، وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد إلى قومه فقال:

يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيّدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيّة.

قال: فإنّ كلام نسائكم ورجالكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فأسلم بنو عبدالأشهل جميعاً رجالاً ونساءً^(٤٩١).

وبلغ من انتشار الإسلام بيثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبي إليها ما لم يحلم به مسلمو مكّة، وما طوّع لبعض الشبّان من المسلمين أن يعيشوا بأصنام المشركين من أهلهم. كان لعمر بن الجموح صنم من خشب يدعوه مناة، قد اتّخذ في داره، كما كان الأشراف يصنعون. وكان عمرو سيّداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم. فلما أسلم فتیان قومه كانوا يريجون بالليل على صنمه يحملونه فيطرحونه على رأسه في إحدى الحفر التي يخرج أهل يثرب لقضاء حاجاتهم بها. فإذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسّه حتى يعثر به ثمّ غسله وطهره وردّه مكانه وهو يبرق ويرعد ويتهدّد ويتوعّد. وكرّر فتیان بني سلمة عبثهم بمناة ابن الجموح، وهو كلّ يوم يغسله ويطهره. فلما ضاق بهم ذرعاً علّق على الصنم سيفه وقال له: إن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. وأصبح فالتمسّه فوجده في بئر مقروناً إلى كلب ميت والسيف ليس معه. فلما كلّمه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينه ما في الشرك والوثنية من ضلال يهوي بنفس صاحبه إلى درك لا يجمل بإنسان^(٤٩٢).

يسيراً عليك أن تقدّر، مع ما بلغ الإسلام من علوّ الشأن بيثرب، تحرق أهلها في انتظارهم مقدم «محمّد» عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكّة. كانوا يخرجون كلّ يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلمسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال في هذه الأيام الحارّة من شهر يولييه. وبلغ هو قباء على فرسخين من المدينة فأقام بها أربعة أيام ومعه أبوبكر. وفي هذه الأيام الأربعة أسس مسجدها. وبينما هم بها وصلها عليّ بن أبي طالب الذي ردّ الودائع التي كانت عند «محمّد» لأصحابها من أهل مكّة ثمّ غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه، يسير الليل ويستخفي بالنهار، ويحتمل هذا الجهد المضني أسبوعين كاملين، ليلحق باخوانه في الدين^(٤٩٣).

(٤٩١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٣٥/١ — ٤٣٨.

(٤٩٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٥٢/١ — ٤٥٣.

(٤٩٣) وترث النبي (صلى الله عليه وآله) في (قباء) أيّاماً كان انتظارك منه لقدم ابن عمّه الإمام عليّ بن أبي طالب والفواطم عليه ليدخلوا جميعاً يثرب في حين دخل صاحب النبي في سفره إلى يثرب تاركاً الرسول في قباء، وما أن وصل الإمام منهمكاً من تعب الطريق ومخاطره اعتنقه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبكى رحمة لما به. راجع الكامل في التاريخ: ١٠٦/٢. وأضافت مصادر مدرسة أهل البيت: أن رسول

وإن مسلمي يثرب لينتظرون يوماً كعادتهم إذ صاح بهم يهوديٌّ كان قد رأى ما يصنعون: «يا بني قَيْلَة، هذا صاحبكم قد جاء». وكان هذا اليوم يوم الجمعة فصلاًها «محمّد» بالمدينة. وهناك في المسجد الذي بطن وادي راثونا أقبل عليه مسلمو يثرب وكلّ يحاول أن يراه وأن يقترب منه، وأن يملأ عينيه من هذا الرجل الذي لم ير من قبل، والذي امتلأت مع ذلك نفسه بحبه وبالإيمان برسائلته، والذي يذكره كل يوم أثناء صلاته مرّات. وعرض عليه رجال من سادة المدينة أن يقيم عندهم في العدد والعُدّة والمنعة، فاعتذر لهم وامتنى ناقته وألقى لها خطابها فانطلقت في طريق يثرب والمسلمون من حولها في حفل حافل يخلون لها طريقها. وسائر أهل يثرب من اليهود والمشركين ينظرون إلى هذه الحياة الجديدة التي دبّت إلى مدينتهم، وإلى هذا القادم العظيم الذي اجتمع عليه من الأوس والخزرج من كانوا من قبل أعداء متقاتلين، ولا يجول بخاطر أحدهم في هاته البرهة التي اعتدل فيها ميزان التاريخ إلى وجهته الجديدة ما أعدّ القدر لمدينتهم من جلال وعظمة يبقيان على الزمن ما بقي الزمن. وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مريد لغلّامين يتيمين من بني النجّار، هنالك بركت^(٤٩٤)، ونزل الرسول عنها، وسأل لِمَن المريد؟ فأجابه معاذ بن عفراء: إنّه لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان له وسيرضيهما، ورجا «محمّداً» أن يتّخذه مسجداً، وقيل «محمّد» وأمر أن يُبنى في هذا المكان مسجد وأن تُبنى داره^(٤٩٥).

* * *

الله (صلى الله عليه وآله) بعث بكتابه إلى عليّ (عليه السلام) يأمره فيه بالمسير إليه والإسراع في اللحاق به، وكان قد أرسل إليه أبا واقد الليثي... أمالي الطوسي: ٨٤/٢ وعنه بحار الأنوار: ٦٤/١٩ .

(٤٩٤) الصحيح أنّ الناقة بركت عند مريد يعود لغلّامين يتيمين من بني النجّار أمام دار أبي أيوب الأنصاري فأسرعت زوجته فأدخلت رجل رسول الله في دارها فترل عندهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أن تمّ بناء المسجد النبويّ وبيته. راجع السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٩٢/١ — ٤٩٥ .

(٤٩٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٩٢/١ — ٤٩٥ .

حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

الفصل الحادي عشر: أول العهد ببيترب

الفصل الحادي عشر

أول العهد بيثرب

استقبال يثرب للمهاجر العظيم، بناء المسجد ومزل النبي، تفكير «محمد» في حرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً، يهود المدينة، مؤاخاة «محمد» بين المهاجرين والأنصار، معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد، زواج «محمد» من عائشة، الأذان للصلاة، مُثل «محمد» وتعاليمه، قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها، تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وفد نصارى نجران إلى المدينة، التقاء الأديان الثلاثة بيثرب ، تفكير المسلمين في موقفهم من قريش.

خرج أهل يثرب لاستقبال «محمد» زرافات ووحدانا، رجالاً ونساء، بعد الذي ترامى إليهم من أخبار هجرته ومن ائتمار قريش به، ومن احتماله في أشد القيظ هذه الرحلة المضنية بين كثران قحاة وصخورها التي تردّ ضوء الشمس لظى وسعيراً. وخرجوا يثربهم تطلّعهم ، لما انتشر من خبر دعوته في أنحاء شبه الجزيرة وما تقضي عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم كانت عندهم موضع التقديس. لكنّ خروجهم لم يكن راجعاً إلى هذين السبين وكفى، بل كان راجعاً أكثر من ذلك إلى أنّه هاجر من مكّة إلى يثرب ليقم بها. فكلّ طائفة وكلّ قبيلة من أهل يثرب كانت ترتّب على هذا المقام، من الناحية السياسية والاجتماعية ، آثاراً شتى، هي التي استخففتهم أكثر ممّا استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا إلى هذا الرجل وليروا هل تؤيد سيماه حدسهم أو هي تدعوهم إلى تعديله. لذلك لم يكن المشركون ولا كان اليهود أقلّ إقبالاً من المسلمين، مهاجريهم والأنصار، على استقبال النبي. ولذلك أحاطوا به جميعاً وكلّ يخفق قلبه خفقاً مختلفاً عن صاحبه باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم. وقد اتبعوه إذ ألقى بخطام ناقته على غاربها في شيء من عدم النظام أدّى إليه حرص كلّ على أن يجتلي محياه، وأن يحيط من نواحيه جميعاً بنظرة ترسم في نفسه صورة من هذا الذي عقد بيعة العقبة الكبرى مع من بايعه من أهل هذه المدينة لحرب الأسود والأحمر من الناس، والذي هجر وطنه وفارق أهله واحتمل عدوانهم وأذاهم ثلاث عشرة

سنة متتابعة في سبيل توحيد الله توحيداً أساسه النظر في الكون، واجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر.

وبركت ناقة النبي (عليه السلام) على مربد سهل وسهيل ابني عمرو ، فابتاعه لبيته مسجداً له. وأقام أثناء بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري. وعمل «محمد» في بناء المسجد بيديه، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته في بنائه حتى أتموه وأقاموا من حوله مساكن الرسول. وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليرهق أحداً وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم «محمد». كان المسجد فناءً فسيحاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب، وسقف جزء منه بسعف النخل وترك الجزء الآخر مكشوفاً، وخصّص إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً^(٤٩٦). ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها. وكذلك ظل تسع سنوات متتابعة شدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التي كان يعتمد سقفه عليها. ولم تكن مساكن النبي أكثر من المسجد ترفاً، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استنارة.

بنى «محمد» مسجده ومساكنه وأوى من بيت أبي أيوب إليها^(٤٩٧). ثم جعل يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتح والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة. فقد ألقى هذه المدينة وبين عشائرها من التناثر ما لم تعرف مكة، لكنه ألقى قبائلها وبطونها تصبو إلى حياة فيها من السكينة ما يجنبها الخلاف والحزازات التي مزقتها في الماضي شراً ممزقاً، وما يهيب لها في المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروة وأعظم جاهاً. وما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أول ما يعني «محمد» وإن كان بعض ما يعنيه^(٤٩٨)؛ إنما كان همّه الأول والآخر هذه الرسالة التي ألقى الله عليه تبليغها والدعوة إليها والانداز بها. لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهول الحرب، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل الأنفس إيماناً بها من خوف أذى قريش وعنتها. والأذى والعنت يحولان بين الإيمان والقلوب التي لما يدخل الإيمان إليها. فيجب أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل في دين الله بمأمن أن يصيبه الأذى، ليزداد المؤمنون إيماناً، ولتقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف. في هذا كان يفكر «محمد» أول طمأنينته إلى مسكنه يثرب، وإلى هذا كانت تتجه سياسته. وفي هذا الاتجاه يجب أن يترجم حياته. هو لم يكن يفكر في ملك ولا في مال ولا في تجارة. إنما كان كل همّه توفير

(٤٩٦) بل كان ذلك بعد حرب خيبر في السنة السابعة للهجرة.

(٤٩٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٩٦/١، امتاع الأسماع: ٦٧/١، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ١٨٥/١.

(٤٩٨) كان النبي يسعى لقيام حكومة إسلامية يتولّى فيها (صلى الله عليه وآله) القيادة، كنيّ مبلغ عن الله رسالته وشريعته من جهة، وكحاكم يدير الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية وغيرها في البلاد من جهة ثانية.

الطمأنينة لمن يتبعون رسالته، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم. يجب أن يكون المسلم واليهودي والنصرانيّ سواء في حرية العقيدة، وفي حرية الرأي وحرية الدعوة إليه^(٤٩٩). فالحرية وحدها هي الكفيلة بانتصار الحقّ وبتقدّم العالم نحو الكمال فيوحدته العليا. وكل حرب للحرية تمكّن للباطل ونشر لجيوش الظلام، لتقضي على جذوة النور المضيئة في النفس الإنسانية، والتي تصل بينها وبين الكون كلّ من أزلّه إلى أبده، صلة اتساق ومحبة ووحدة، لا صلة نفور وحرب وفناء.

هذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على «محمد» منذ الهجرة، وهي التي جعلته جنوحاً للسلام، راغباً عن القتال، مقتصدًا طول حياته أشدّ القصد فيه، غير لاجئ إليه إلاّ لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية، دفاعاً عن الدين وعن العقيدة. ألم يقل له أهل يثرب ثمن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش يُنبهها لأمرهم: «والله الذي بعثك بالحقّ إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيا فنا». فكان جوابه: «لم نؤمر بذلك»^(٥٠٠). ألم تكن أوّل آية في القتال^(٥٠١): (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)^(٥٠٢) ألم تكن الآية التي تلت هذه في أمر القتال قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)^(٥٠٣). فتفكير «محمد» إذاً إنّما كان متجهاً لغاية واحدة عليا هي كفالة حرية العقيدة والرأي كفالة في سبيلها وحدها أحلّ القتال، ودفاعاً عنها أبيع دفع المعتدي حتّى لا يُفتن أحد عن دينه، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه.

بينما كانت هذه وجهة «محمد» في التفكير في أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها، كان أهل هذه المدينة ثمن استقبلوه يفكر، وإن كان فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره. فقد كان يثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت، ثمّ كان بها اليهود يقيم منهم بنو قينقاع داخلها ويقيم بنو

(٤٩٩) لم يكن من بنود المعاهدة التي عقدها النبيّ (صلى الله عليه وآله) مع أهل الذمة في أن يكون لهم حرية الدعوة إلى دينهم، بل عمل النبيّ (صلى الله عليه وآله) لايجاد معاهدة صلح وتعاون بين المسلمين واليهود لبناء دولة تعود بمركزيتها إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) وارجاع قرار الفصل في الخصومات إليه، ويتمتع فيها الجميع بالحقوق الإنسانية على السواء بلا تعدّد للقيادة وصياغة القرارات، وكانت المعاهدة تتضمن بأنّ لليهود الحقّ في البقاء على دينهم بشرط عدم ممارسة أعمال تتقاطع مع تعاليم الدين الجديد وتضرّ بمصالح الأمة وسيادتها الإسلامية، مثل التعاون أو التحالف مع مشركي قريش ضد المسلمين.

وسياقي مزيد من التفصيل في بنود صحيفة المعاهدة أو قلّ دستور المدينة الجديد بصياغة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٥٠٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٤٨/١، والطبقات الكبرى: ٢٢٣/١.

(٥٠١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ٣٩/٢٣.

(٥٠٢) الحج (٢٢): ٣٩.

(٥٠٣) البقرة (٢): ١٩٣.

قريظة في فذك وبنو النضير على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خير. أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط ، وإن بقيت في نفس «محمد» بعض المخاوف أن تنور البغضاء القديمة بينهم يوماً، مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له من بعد أثره. وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج، فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً هكتهم الحروب الماضية، فاتجه همهم للوقعة بين هؤلاء وأولئك. وأما اليهود فبادروا بادئ الرأي إلى حسن استقبال «محمد» ظناً منهم أن في مقدورهم إستمالة إليهم وإدخاله في دينهم، والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أجلت اليهود، شعب الله المختار، عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومي. وانطلق كل على أساس تفكيره يمهّد أسباب النجاح لبلوغ غايته.

هنا يبدأ دور جديد من أدوار حياة «محمد» لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسول. هنا يبدأ الدور السياسي الذي أبدى «محمد» فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً، ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً. كان أكبر همه أن يصل بيشرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز، وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن. فتشاور هو ووزيره أبو بكر وعمر، فكدلك كان يسميهما^(٥٠٤). وقد كان أول ما انصرف إليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم ، للقضاء على كل شبهة في أن تنور العداوة القديمة بينهم. ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتأخوا في الله أخوين أخوين. فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين^(٥٠٥). وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين.

(٥٠٤) كتب التاريخ حين تذكر المواخاة لم تذكر بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد إستشار أحداً في شأنها كطبقات ابن سعد والسيرة النبوية لابن هشام وأنساب الأشراف وامتاع الاستماع وعيون الأثر وسيرة ابن كثير وغيرها.

نعم جاء عن ابن عمر عن رسول الله أنه قال للإمام علي: «أنت أخي ووزيري تقضي ديني وتجز موعدي» مجمع الزوائد: ١٢/٩، وكتر العمال: ١٥٥/٦ عن الطبراني.

وفي نهج البلاغة الخطبة (١٩٠) أن رسول الله قال للإمام علي: «ولكنك وزيري» .

وجاء في ما نظم على لسان الأشعث في جوابه لكتاب الإمام علي أنه (وزير النبي وذو صهره).

وروت أسماء بنت عميس فقالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «اللهم إني أقول كما قال أخي موسى: اللهم اجعل لي وزيراً من أهلي أخي علياً أشد به أزرى» الرياض النضرة: ١٦٣/٢ عن مناقب أحمد بن حنبل.

هذا ما نفهمه من الروايات بأن وزيره الإمام علي لا غير فحين الرجوع للمصادر التي ذكرناها يتبين لنا بأن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يشاور أحداً في مسألة المواخاة كما لم تذكر بأن أبا بكر وعمر وزيرا. فما هو المصدر الذي اعتمده الكاتب ليقول تشاور هو ووزيره بعد أن ثبت أن وزيره أمير المؤمنين (عليه السلام) لا غير؟ كما يأتي في الهامش اللاحق ولكن الكاتب عودنا بكثرة اجتهاداته وفرضها على التاريخ.

(٥٠٥) قد مرّ عليك في حديث الانذار الذي قد تضمن نصب الوزارة للإمام علي بن أبي طالب بصريح قوله (صلى الله عليه وآله): «فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر»، وكذا الروايات سابقة الذكر وتأتي مسألة المواخاة بين النبي والإمام المذكورة هنا والمؤكد في كتب الحديث والسير مما يؤيد بأن الوزارة قد جعلها النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام).

وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين. وكان عمر بن الخطاب وعثمان ابن مالك الخزرجي أخوين. وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيشرب، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة في أعقاب هجرة الرسول إليها، مع واحد من الأنصار إخواناً جعل له الرسول حكم إخوان الدم والنسب سواء. وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيداً^(٥٠٦).

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة إزاء إخوانهم المهاجرين ما تقبله هؤلاء أول الأمر مغتبطين. ذلك بأنهم تركوا مكة وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من مال ومتاع ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم. ولم يكن منهم على جانب من الشراء والنعمة غير عثمان بن عفان. أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئاً ينفعه. وقد ذهب حمزة عم الرسول يوماً يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به. وكان عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، ولم يكن عبدالرحمن يملك بيشرب شيئاً. فعرض سعد عليه أن يشاطره ماله. فأبى عبدالرحمن وطلب إليه أن يدلّه على السوق، وفيها بدأ ببيع الزبدة والجبن، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة في زمن قصير، وأن يمهر إحدى نساء المدينة وأن تكون له قوافل تذهب في التجارة وتجيء. وصنع غير عبدالرحمن من بعض المهاجرين صنيعه، أن كان هؤلاء المكّيين من الدراية في شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم: إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً^(٥٠٧).

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وغيرهم، فقد عملت أسرهم في الزراعة في أراضي الأنصار مزارعة مع مَلَأكها^(٥٠٨). وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدة وبأساء. لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلاً على غيرهم؛ فكانوا يجهدون أنفسهم في العمل أشدّ الاجتهاد، ويجدون في ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم مالم

وجاءت في شأن المؤاخاة نصوص عديدة تؤكد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لما آخى بين أصحابه، آخى بين أبي بكر وعمر، وآخى بين عثمان وعبدالرحمن بن عوف، ولكنّه لم يؤاخِ بين علي بن أبي طالب وبين أحد منهم .

فقال علي (عليه السلام): «يا رسول الله! لقد ذهبت روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت بغيري، فإن كان هذا سخطاً عليّ، فلك العُتي والكرامة».

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «والذي بعثني بالحق ما أخرتك إلّا لنفسي، وأنت متي بمزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي».

فقال علي (عليه السلام): «ما أرث منك؟»

قال (صلى الله عليه وآله): «ما ورث الأنبياء من قبلي، كتاب ربهم وسنة نبّيهم وأنت معي في قصري في الجنة». وأمّا المؤاخاة الثانية فقد كانت في المدينة بعد أشهر قليلة من الهجرة. والمصادر التالية ذكرت المؤاخاة الأولى والثانية: صحيح الترمذي: ٣٠٠/٥ ح ٣٨٠٤، كفاية الطالب،

المراجعات ٢٨٦ المراجعة ٣٤ تمة الهامش ٢ .

(٥٠٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٠٤/١ — ٥٠٦، وإعلام الوري: ٣٦٣/١، وآمال الطوسي: ٥٨٧ ح ١٢١٥ .

(٥٠٧) السيرة النبوية لابن كثير: ٣٢٨/٢ .

(٥٠٨) السيرة النبوية لابن كثير: ٣٢٨/٢ — ٣٢٩ .

يكونوا يجدون بمكة. على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا، كانوا في حال من العوز والتمترية، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه. هؤلاء أفراد «محمد» لهم صفة المسجد — وهي المكان المسقوف منه — يبيتون بها ويأوون إليها، ولذلك سموا أهل الصفة، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً^(٥٠٩).

اطمأن «محمد» إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة. وهي لا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر، نتبين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الواقعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم. لكن العمل السياسي الجليل حقاً والذي يدل على أعظم الاقتدار، فذلك ما وصل به «محمد» إلى تحقيق وحدة يشرب وإلى وضع نظامها السياسي بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف. وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملاً في استدراجه إلى دينهم. وقد بادروا إلى ردّ تحيتهم بمثلها، وإلى توثيق صلاته بهم، فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبارؤهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة كأهل كتاب موحدين. وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبله أنظارهم ومثابة بني إسرائيل جميعاً. وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى. كما أن سيرته وعظيم تواضعه وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض برّه بالفقير والبائس والمحروم وما أورثه ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب، كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة^(٥١٠) صداقة وتقرير لحرية الاعتقاد وتحالف؛ هي، في اعتقادنا، من الوثائق السياسية الجديرة بالاعجاب على ممر التاريخ. وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول. فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلّغونها للناس من طريق الجدل، ومن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية إيمان الناس بها، ولو دفاعاً مسلحاً، فيه الحرب والقتل والقتال. انتشرت المسيحية على يد الحواريين من بعد عيسى، فظّلوا ومن تبعهم يعذبون، حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهذا الدين فأواه ونشره. وكذلك كان أمر سائر الأديان في شرق العالم وغربه. فأما «محمد» فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح،

(٥٠٩) السيرة الحلبية: ٨١/٢. بل كان ذلك بعد حرب خيبر في السنة السابعة للهجرة.

(٥١٠) سيرة ابن هشام: ٥٠١/١، وعيون الأثر: ٢٢٧/١.

كلّ ذلك في سبيل الله وفي سبيل كلمة الحقّ التي بُعث بها. وهو قد كان في ذلك كلّ عظيمًا، وكان مثل الكمال الإنساني على ما يجب أن يكون.

كتب «محمّد» بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم. وهذا الكتاب يقرّر أنّ: «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرحاً بينهم — والمفرح المثل بالدين والعيال^(٥١١) — أن يُعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وألّا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأنّ المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة — أي طبيعة — ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأنّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأنّ ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدانهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.. وأنّ من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأنّ اليهود ينفقون مع المسلمين ماداموا محاربين، وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ويهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جُشم وبني ثعلبة وبني الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء، وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وبينهم النصح والصيحة والبرّ دون الإثم، واليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنّ الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، ولا تُجار حرمة إلّا باذن أهلها، ولا تُجار قريش ولا من نصرها. وأنّ بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنّهم يصالحونه ويلبسونه، وأنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمّد رسول الله»^(٥١٢).

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها «محمّد» منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة، والتي تُقرّر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة. وهي فتح جديد في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذٍ هذا العالم الذي كانت تعبت به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فساداً. ولئن لم يشترك في توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنوقريظة وبنو النضير وبنو قينقاع فإنّهم مالبثوا بعد قليل أن وقّعوا بينهم وبين النبيّ صحفاً مثلها. وكذلك

(٥١١) نقله عن ابن هشام في السيرة: ١٤٨/٢. والأولى أن يكون مفدوحاً من الفداحة، راجع مجمع البحرين: ٣٩٧/٢.

(٥١٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٠١ — ٥٠٤، وعيون الأثر: ٢٢٧/١، وإعلام الوري: ١٥٨/١.

أصبحت المدينة وما وراءها حرمًا لأهلها، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كلَّ عادية عليها، ويتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قرّرت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية.

طاب «محمد» نفساً بهذه النتيجة ، وسكن المسلمون إلى دينهم وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين وقيمونها فرادى لا يخافون أذى ولا يخشون فتنةً. إذ ذاك بنى «محمد» بعائشة بنت أبي بكر، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها. وكانت فتاة رقيقة حلوة القسّات محبّبة العشرة ، وكانت تخطو دراكاً من الطفولة إلى الصبا، وكانت ذات ولع باللعب والمرح. لكنّها كانت نامية غمّواً حسناً، ووجدت في «محمد» أوّل انتقالها إليه بمسكنها إلى جانب مسكن سودة في جوار المسجد أباً بارّاً عطوفاً، وزوجاً مشفقاً رقيقاً، لا يأبى عليها أن تعبت وتلهو بالألعاب. وتسليّه بذلك عن دائم تفكيره في العبء العظيم الذي ألقي عليه. وفي سياسة يشرب التي بدأ بتوجيهها إلى خير وجهة^(٥١٣).

في هذه الفترة التي سكن فيها المسلمون إلى دينهم فرضت الزكاة وفرض الصيام وقامت الحدود، وتمكّنت يشرب شوكة الإسلام^(٥١٤). وكان «محمد» حين قدم المدينة إنّما يجتمع إليه الناس للصلاة حين موافقتها بغير دعوة، ففكر في أن يدعو للصلاة ببوق، كالبوق الذي يدعو به اليهود لصلاتهم. لكنّه كره البوق فأمر بالناقوس ، فنُحت ليضرب به للصلاة، كما تفعل النصارى. على أنّه بعد مشورة عمر وطائفة من المسلمين على رواية^(٥١٥)، وبأمر الله على لسان

(٥١٣) أسد الغابة: ٥٠١/٥ .

(٥١٤) تاريخ يعقوبي: ٣٦١/١ ، والسير النبوية لابن هشام: ٥٠٨/١ . بل إنّما فرضت الزكاة في مفتتح السنة التاسعة للهجرة .

(٥١٥) الأذان عبادة والعبادات توقيفية لا يجوز الاختراع فيها، والخروج عمّا رسمه الشارع بخصوصها يُعد تشريعاً باطلاً، وهذه المسألة موضع اتفاق عند جميع المسلمين. راجع المغني لابن قدامة: ٥٠٦/١ ، والفوائد الحاثريّة: ٤٧٨ .

ثمّ إنّ تشريع الأحكام — كما هو معروف — لا يتم عبر المناومات أو عن طريق التشاور مع المسلمين ليتسنى للنبي أن يؤيد هذا الحلم أو ذاك الرأي، لتصاغ بعد ذلك كيفية هذا التشريع وفق هذه الطريقة أو تلك. كما هي الروايات التي تحدّثت عن كيفية تشريع الأذان . ولهذا وردت على هذه الروايات عدة ملاحظات، منها: التعارض في دلالاتها ، فنجد البخاري ينقلها بكيفية غير ما تنقلها المصادر الأخرى، راجع صحيح البخاري: ٣٠٦/١ ، وتهذيب التهذيب: ١٨٨/١٢ ، وفتح الباري لابن حجر: ٨١/٢ ، وسنن البيهقي: ٦٠٨/١ ، والسير الحلبية : ٩٥/٢ .

ولكنّ القوشجي ينهي النزاع حين ينقل لنا قول الخليفة الثاني: (ثلاث كنّ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنا أنهي عنهنّ وأحرمهنّ وأعاقب عليهنّ: متعة النساء، ومتعة الحجّ، وحيّ على خير العمل). شرح التجريد للقوشجي: ٤٨٤ . ويؤكد هذه المسألة من جهة أخرى الروض النضير فقد جاء فيه: قال الزركشي : كان ابن عمر وهو عميد أهل المدينة يرى إفراط الأذان والقول فيه (حيّ على خير العمل): ٥٤٢/١ .

وفي الروض النضير أيضاً، قال: كثير من علماء المالكية وغيرهم من الحنفية والشافعية: أنّه كان (حيّ على خير العمل) من ألفاظ الأذان. ٥٤٢/١ .

وقال الشوكاني نقلاً من كتاب الأحكام : وقد صحّ لنا أن (حيّ على خير العمل) كانت على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) يؤذن بها، ولم تطرح إلّا في زمن عمر . نيل الأوطار: ٣٢/٢ .

الوحي في رواية أخرى، عدل عن الناقوس أيضاً إلى خريطة بلاد العرب

أما لو لاحظنا الروايات المخالفة لهذه الكيفية لوجدناها تتحدث أن الأذان في زمن رسول الله كان خالياً من التشويب (الصلاة خير من النوم) وله كيفية أخرى، وقد أضيف التشويب بعد عصر التشريع وبالتحديد في زمن الخليفة الثاني. راجع شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: ٢٤٣/١ ح ٤٠، وكتر العمال: ٣٥٥/٨، ووسائل الشيعة للحرّ العاملي: ١٤٦/٥ .

وبهذا يمكن القول بأنّ الأذان في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان متضمناً لذكر (حيّ على خير العمل) وخالياً من (الصلاة خير من النوم). راجع سلسلة في رحاب أهل البيت رقم ١٩ و ٢٤ الصادرة عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) قُم المقدّسة شبكة

الأذان، وقال لعبدالله بن زيد بن ثعلبة: «قُم مع بلال فألقها عليه — أي صيغة الأذان — فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك». وكان لامرأة من بني النجار منزل إلى جانب المسجد أعلى منه، فكان بلال يرقاه فيؤذن عليه. وكذلك صار أهل يثرب جميعاً يسمعون منذ الفجر من كل يوم دعوة إلى الإسلام مرتلة ترتيلاً حسناً بصوت رطب جميل يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحي ويلقي في أذن الحياة نداءه: «الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله»^(٥١٦). وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمناً، وأصبحت يثرب مدينة الرسول، وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوة المسلمين، قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية في سبيل الإيمان وذات الأذى بسببه ألواناً، وهاهي ذي اليوم تحصد ثمرة الصبر وتستمتع من حرية العقيدة بما قرّر الإسلام من أن ليس لإنسان على إنسان سيادة، ومن أن الدين لله وحده والعبودية له وحده، والناس أمام وجهه الأكرم سواسية لا يُجزون إلا بأعمالهم وبالنية التي تصدر هذه الأعمال عنها.

وانفسح المجال أمام «محمد» ليعلمن تعاليمه، وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم، وليضع بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنساني إزاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه^(٥١٧)، وحتى يصل به هذا الإخاء إلى غاية البرّ والرحمة من غير ضعف ولا استكانة. سأل رجل «محمدًا»: أي الإسلام خير؟ فقال: «تُطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٥١٨). وفي أول خطبة ألقاها بالمدينة، قال: «من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّة من تمر فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنّ بها تجزى الحسنة عشر أمثالها»^(٥١٩). وفي خطبته الثانية، قال: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حقّ تقاته وأصدقوا الله صالح ما تقولون، وتحابوا بروح الله بينكم، إنّ الله يغضب أن يُنكث عهده»^(٥٢٠). بهذا وبمثله كان يحدث أصحابه وكان يخاطب الناس في مسجده، مستنداً إلى جذع من جذوع النخل التي يعتمد عليها سقفه، حتى أمر فصنع له منبر من ثلاث درجات كان يقوم على درجته الأولى خطيباً، وكان يجلس على درجته الثانية^(٥٢١).

(٥١٦) مرّ التعليق بخصوص حكم الأذان وكيفية من حيث حذف جملة (حيّ على خير العمل) في زمن الخليفة الثاني، متجاوزاً بذلك الصيغة التي عرفت منذ عهد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) في هامش الصفحة السابقة فراجع.

(٥١٧) صحيح مسلم: ١٦/٢ .

(٥١٨) صحيح مسلم: ٩/٢ .

(٥١٩) سيرة ابن هشام: ٥٠١/١، إمتاع الأسماع: ٦٦/١ .

(٥٢٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٠١ / ١ .

(٥٢١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٤٩/١ . بل إنّما كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة .

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة إلى هذا الإخاء الذي جعل منه حجر الزاوية في حضارة الإسلام، بل كانت أعماله وكان مثله هو هذا الإخاء في أسمى صور كماله كان رسول الله. لكنّه كان يأبى أن يظهر في أيّ من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية. كان يقول لأصحابه: «لا تُطْرُونِي كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنّما أنا عبدالله، فقولوا عبدالله ورسوله»^(٥٢٢). وخرج على جماعة من أصحابه متوكلين على عصا، فقاموا له فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً»^(٥٢٣)، وكان إذا بلغ في مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ويحب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلاّ خفف صلاته وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته. وكان أكثر الناس تبسّماً وأطيبهم نفساً ما لم يزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب. وكان في بيته في مهنة أهله يفلي ثوبه ويرقع ويحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه، ويعقل البعير ويأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين. وكان إذا رأى أحداً في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة. وكان لذلك لا يدخر شيئاً لغده، حتّى لقد توفّي ودرعه مرهونة عند يهودي في قوت عياله. وكان جمّ التواضع، شديد الوفاء، حتّى لقد وفد للنجاشي وفد فقام يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنّي أحب أن أكافئهم. وبلغ من وفائه أنّه ما ذكرت خديجة إلاّ ذكرها أطيب الذكر؛ حتّى كانت عائشة تقول: ما غرتُ على امرأة ما غرتُ على خديجة، لما كنت أسمعها يذكرها. ودخلت عليه امرأة فهشّ لها وأحسن السؤال عنها؛ فلما خرجت قال: إنّها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنّ حسن العهد من الإيمان^(٥٢٤). وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنّه كان يدع بني بناته يداعبونه أثناء صلاته. بل لقد صلّى بأمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها^(٥٢٥).

ولم يقف بالبرّ والرّحمة اللذين جعلهما دعامة الإخاء الذي قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الإنسان، بل عدّاهما إلى الحيوان كذلك. كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ، وكان يقوم بنفسه على تمرّض ديك مريض، وكان يمسح لجواده بكمّ قميصه. وركبت

(٥٢٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٣/١، خلاصة عبقات الأنوار: ٣٠٥/٣.

(٥٢٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٥٣/٥، منية المريد للشهيد الثاني: ٢٠٩.

(٥٢٤) عيون الأثر: ٢/٤٠٠ — ٤٠٤، وكحل البصر: ٥٧ — ٥٨ و٧٢.

(٥٢٥) الإصابة: ٢٤/٨ / رقم ١٠٨٢٨.

عائشة بعيراً فيه صعوبة فجعلت تردده؛ فقال لها: عليك بالرفق. وكذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها، وأظلت كل من كان بحاجة إلى فيء ظلها^(٥٢٦).

وهي لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة، ولم تشبها شائبة من ولا استعلاء؛ إنما كانت إخاء في الله بين «محمد» والذين اتصلوا به جميعاً. ومن ثم يفترق أساس حضارة الإسلام عن كثير من سائر الحضارات. الإسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء ويرى أن الإخاء لا يكون إخاء إلا به. (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)^(٥٢٧) (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)^(٥٢٨). يجب أن يكون الدافع النفساني وحده والإرادة الحرة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أي اعتبار آخر، مصدر الإخاء وما يدعو إليه من برّ ورحمة، ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاماً ولا تضعف ولا تنهالك باسم الورع أو التقوى، ولا يتسرب إليها خوف أو وهن إلا عن معصية تجترحها أو إثم تقتتره. ولا تكون النفس قوية إذا كانت في حكم غيرها، ولا تكون قوية إذا خضعت لحكم أهوائها وشهواتها. وقد هاجر «محمد» وأصحابه من مكة حتى لا يكونوا في حكم قريش ولا يضعف أذاها نفس أحد منهم. والنفس إنما تخضع لحكم الأهواء والشهوات إذا تحكّم الجسد في الروح وغلبت الشهوة العقل، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنا سلطاناً على حياتنا نحن، على حين أنا في غنى عنها وأنا أصحاب السلطان عليها.

وكان «محمد» المثل الأعلى في القوة على الحياة، قوة جعلته لا يأبى أن يعطي غيره كل ما عنده، حتى قال أحدهم: إنَّ «محمدًا» يعطي عطاء من لا يخشى فاقة^(٥٢٩). ولكي لا يكون لشيء مما في الحياة سلطان عليه، وليكون له هو كل السلطان عليها، كان شديد الزهد في مآذنها، على شدة رغبته في الإحاطة بها وفي معرفة أسرارها، وتوقه إلى غاية الحقيقة من أمرها. بلغ من زهده فيها، أن كان فراشه الذي ينام عليه أداماً حشوه ليف^(٥٣٠)، وأنه لم يشبع قطّ ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين^(٥٣١). وكان السوق طعام أكلته الكبرى^(٥٣٢)، وكان التمر طعام سائر يومه^(٥٣٣). وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله^(٥٣٤). ولقد عانى الجوع غير مرة، حتى كان

(٥٢٦) الأدب المفرد للبخاري: ١٠٥، السنن الكبرى، للبيهقي: ١٩٣/١٠، صحيح مسلم: ٢٣/٨، مسند أحمد: ١٢٥/٦، وكحل البصر: ٧٠.

(٥٢٧) البقرة (٢): ١٩٤.

(٥٢٨) البقرة (٢): ١٧٩.

(٥٢٩) عيون الأثر: ٣٩٨/٢، والوفا: ٤٤٦، بحار الأنوار: ١١٨/١٦، وحلية الأبرار: ٢٩٣/١، وكحل البصر: ٦٢.

(٥٣٠) دلائل النبوة للبيهقي: ٣٤٤/١، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ١٤٧/١، وحلية الأبرار: ١١٨/١.

(٥٣١) دلائل النبوة: ٣٤٣/١، مكارم الأخلاق للطبرسي: ٢٨، وحلية الأبرار: ١٢٠/١ — ١٢١.

(٥٣٢) الوفا: ٦٣٧.

(٥٣٣) الوفا: ٦٢٥ — ٦٢٦، حلية الأبرار: ١٢٢/١.

يربط على بطنه حجراً يكظم به على صيحات معدته^(٥٣٥). ذلك كان معروف أمره في طعامه، وإن لم يمنعه ذلك عن أن ينال في بعض الأحيان من أطايب الرزق، وأن يُعرف عنه حبه زند الخروف والقرع والعسل والخلوى^(٥٣٦).

وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام، أعطته امرأة يوماً ثوباً كان بحاجة إليه، فطلب إليه أحدهم ما يصلح كفنًا لميت فأعطاه الثوب^(٥٣٧). وكان معروف ثيابه القميص والكساء، وكان من صوف أو قطن أو تيل^(٥٣٨). على أنه في بعض الظروف لم يكن يأبى أن يلبس من أقمشة اليمن لباساً فخيماً يناسب الظرف^(٥٣٩). وكان يحتذي حذاء بسيطاً، ولم يلبس خفاً إلا حين أهدها النجاشي خفين وسراويل^(٥٤٠).

ولم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفاً للتقشف، ولا كانا من فرائض الدين. فقد جاء في القرآن: (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)^(٥٤١)، وفي الأثر: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»^(٥٤٢). لكن «محمدًا» أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوة على الحياة، قوة لا يتطرق إليها ضعف، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان، أو أيّ مما يجعل لغير الله عليه سيادة. والإخاء الذي يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب «محمدًا» له المثل الأعلى فيما رأيت، إخاء محض بالغ غاية الاخلاص والسمو. إخاء لا تشوبه شائبة؛ لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة، ولأن صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلا إرادته الحرة المطلقة. لكن الإسلام إذ يضع العدل إلى جانب الرحمة يضع العفو إلى جانب العدل، على أن يكون عفواً عن مقدرة، ليكون مظهر الرحمة صريحاً صحيحاً، وليكون القصد منه إلى الإصلاح صادقاً.

هذا الأساس الذي وضعه «محمدًا» للحضارة الجديدة التي يقيمها يتلخص خير تلخيص فيما روي عن علي بن أبي طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل

(٥٣٤) الوفا: ٦٢٠.

(٥٣٥) الوفا: ٤٨٠، الكافي للكليني: ٢١٧/٨، حلية الأبرار: ١٣٣/١.

(٥٣٦) الوفا: ٦١٩ و ٦٢٢ و ٦٢٥ وحلية الأبرار: ١٢٨/١.

(٥٣٧) صحيح البخاري: ٩٨/٢، ٨٠/٣، ١٨٩/٧، ومسنند أحمد: ٤٥٦/٦، ح ٢٢٣١٨.

(٥٣٨) الوفا: ٥٧٥ و ٥٧٧ و ٥٨٣.

(٥٣٩) الوفا: ٥٧٩.

(٥٤٠) الوفا: ٥٨٥.

(٥٤١) البقرة (٢): ٥٧.

(٥٤٢) مأثور عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تنبيه الخواطر: ٢٣٤/٢، وعن سبطه الإمام الحسن في مستدرك وسائل الشيعة: ٥٨/١٣.

ديني، والحبّ أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كثري، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقُرة عيني في الصلاة» (٥٤٣).

تركت تعاليم «محمد» هذه وترك مثله وقدوته في النفوس أعمق الأثر، حتّى لقد أقبل كثيرون على الإسلام، وزاد المسلمون بالمدينة شوكة وقوة. هنالك بدأ اليهود يفكّرون من جديد في موقفهم من «محمد» وأصحابه. لقد عقدوا معه عهداً، وكانوا يطمعون في أن يضمّوه إلى دينهم وفي أن يزدادوا به على النصارى منّة وقوة. وهذا هو أقوى من هؤلاء وأولئك جميعاً، وهذه كلمته تزداد ثباتاً. بل هذا هو يفكّر في أمر قريش وإخراجها إياه وإخراجها المهاجرين من مكّة، وفنتتها من استطاعت فنتته من المسلمين عن دينه. أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر وسلطانة الروحي يمتد، مكتفين بالأمن في جواره أمناً يزيد تجارهم سعة وثروتهم ربحاً؟ لعلهم كانوا يسيغون هذا لو أنّهم آمنوا ألاّ تمتد دعوته إلى اليهود وألاّ تفسو في عامّتهم، على حين تقتضيهم تعاليمهم ألاّ يعترفوا بنبيّ من غير بني إسرائيل. لكنّ حبراً عالماً من كبار أحبارهم وعلمائهم هو عبدالله بن سلام لم يلبث أن اتّصل بالنبيّ حتّى أسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه. وخشى عبدالله أن يقول اليهود فيه، إذا علموا بإسلامه، غير ما اعتادوا. فطلب إلى النبيّ أن يسأله عنه ما شأنه؟ قبل أن يعرف أحد منهم إسلامه. قالوا: سيّدنا وابن سيّدنا وحرنا وعالمنا. فلمّا خرج عبدالله إليهم وتبيّنوا ما صنع، ودعاهم هو إلى الإسلام، خافوا عاقبة أمره فوقعوا به وأذاعوا عنه قالة السوء في أحياء اليهود كلّها؛ وأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا لـ «محمد» وينكروا نبوّته (٥٤٤). ولم يكن بأسرع من أن اجتمع إليهم من بقي على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهما نفاقاً جرياً وراء مغنم أو إرضاء لذي عُصبة وبأس.

وهنا بدأت حرب جدل بين «محمد» واليهود أشدّ لخدّاً وأكبر مكرّاً من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكّة. في هذه الحرب الیثرية تعاونت الدسیسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين، أقامتھا اليهود جميعاً صفوفاً متراسّة يهاجمون بها «محمدًا» ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار. دسّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى، ثمّ ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدي من الشكوك والريب ويلقي على «محمد» من الأسئلة ما يحسبه يززع في نفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحقّ التي يدعو

(٥٤٣) تذكرة الموضوعات، للفتني: ٨٦، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ١/١٤٧.

(٥٤٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٥١٦ — ٥١٧.

إليها. وانضمَّ إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا هم أيضاً نفاقاً ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين^(٥٤٥). وبلغ من تعنتهم أنَّ اليهود منهم كانوا ينكرون ما في التوراة، وأنَّهم جميعاً، وكلَّهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل والمشركون الذين يتخذون أصنامهم إلى الله زلفى، كانوا يسألون «محمّداً»: إذا كان الله قد خلق الخلق فمَن خلق الله؟! وكان «محمّد» يجيبهم بقوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)^(٥٤٦). وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم، ورأوهم يوماً في المسجد يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم «محمّد» فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً^(٥٤٧). ولم يشنهم ذلك عن دسائسهم وسعيهم في الواقعة بين المسلمين. مرَّ أحدهم: شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم، فغاظه صلاح ذات بينهم وقال في نفسه: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد؛ وما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار. وأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بُعث وما كان من ظفر الأوس فيه على الخزرج. وتكلّم الغلام، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا، وقال بعضهم لبعض: إن شتتم غدنا إلى مثلها. وبلغ «محمّداً» الأمر، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه فذكرهم بما ألّف الإسلام بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً متحابين، وما زال بهم حتّى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً^(٥٤٨).

بلغ الجدل بين «محمّد» واليهود مبلغاً من الشدّة يشهد به ما نزل من القرآن فيه، فقد نزل صدر سورة البقرة إلى الآية الحادية والثمانين منها ونزل قسم عظيم من سورة النساء، وكلّه يذكر هؤلاء الكتّابين وإنكارهم ما في كتابهم، ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشدّ اللعنة: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٥٤٩).

وبلغ الجدل بين اليهود والمسلمين حدّاً كان يصل أحياناً، برغم ما بينهم من عهد، إلى الاعتداء بالأيدي، وحسبك لتقدّر هذا أن تعلم أن أبا بكر، على ما كان عليه من دماثة الخلق

(٥٤٥) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٥١٥.

(٥٤٦) الإخلاص (١١٢): ١ — ٤.

(٥٤٧) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٥٢٨.

(٥٤٨) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٥٥٥ — ٥٥٦.

(٥٤٩) البقرة (٢): ٨٧ — ٨٩.

وطول الأناة ولين الطبع، تحدّث إلى يهودي يدعى فنحاص يدعوه إلى الإسلام؛ فردّ فنحاص بقوله: (والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقر، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا. وإنّا عنه أغنياء وما هو عتّا بغنيّ. ولو كان غنيّاً عتّا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عتّا غنيّاً ما أعطانا). وفنحاص يشير هنا إلى قوله تعالى: (إِنَّ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ) (٥٥٠) لكنّ أبابكر لم يطق على هذا الجواب صبراً، فغضب وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوّ الله. وشكا فنحاص أمره إلى النبيّ وأنكر ما قاله لأبي بكر في الله (٥٥١)؛ فترّل قوله تعالى: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (٥٥٢).

لم يكتف اليهود بالوقعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج من هؤلاء، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردّهم إلى الشرك دون محاولة تهويدهم، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة «محمّد» نفسه. ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وساداتهم ذهبوا إليه وقالوا له: (إنّك قد عرفت أمرنا ومزلتنا، وإنّا إن اتّبعناك اتّبعتك اليهود ولم يخالفونا، وإنّ بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضي لنا فنتبعك ونؤمن بك). فترّل فيهم (٥٥٣) قوله تعالى: (وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ

(٥٥٠) التغابن (٦٤): ١٧ .

(٥٥١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٥٨/١ .

(٥٥٢) آل عمران (٣): ١٨١ .

إذا كانت دعوة أبي بكر لليهود بخصوص الزكاة الواجبة بعد فرض إسلامهم فالزكاة قد فرضت في السنة التاسعة للهجرة بينما نرى سورة آل عمران نزلت قبل السنة الثالثة للهجرة ولم يفرض فيها الزكاة، نعم قد يكون جواب القرآن لليهود في هذه الآية لأنهم عرّضوا بذلك (*) بقوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) بلا دعوة من أحد. بعد نزول قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) قالت اليهود: إنّ الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وقائله حبي بن أحطب، هذا قول.

وفي رواية ابن هشام في السيرة: ٥٥٨/١ أن رسول الله كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فدعاهم إلى الإسلام والصلاة والزكاة. ويؤخذ على الرواية الثانية أنّ الزكاة المفروضة كانت في السنة التاسعة والآية إذا استفيد منها الزكاة المفروضة كان معناه أنّها فرضت قبل السنة الثالثة للهجرة ولم تفرض الزكاة بعد كما هو المعروف؟ فهل كان أبوبكر دعاهم إلى الزكاة المستحبة أم إلى الواجبة؟ فإذا كانت الواجبة فهذه قد فرضت بعد حين والآية نزلت قبل السنة الثالثة للهجرة فكيف التوفيق؟ أم أنّ دعوته لهم للزكاة المستحبة؟ نعم قد يكون جواب القرآن للعمل بالإيعاز لهم لأنهم قد عرّضوا بقوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) دعوى من أحد.

(*) راجع التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي: ٢٨٧/٢ و٦٥/٣، تفسير مجمع البيان للطبرسي: ٤٦٠/٢، تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني: ١٤١/١،

جامع البيان للطبري: ٢٥٩/٤ — ٢٦٠، معاني القرآن للتحاسن: ٥١٦/١ .

(٥٥٣) سيرة ابن هشام: ٥٦٧/١، تفسير القرطبي: ٢١٣/٦، تفسير الأمل: ٣٠/٤ .

تَوَلَّوْا فَاَعْلَمَ اَنْمَا يُرِيدُ اللّٰهُ اَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوْبِهِمْ وَاِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُوْنَ * اَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُوْنَ وَمَنْ اَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ(٥٥٤).

ضاق اليهود ذرعاً بـ «محمد» ففكروا في أن يمكروا به وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة، كما أجلاه أذى قريش إياه وأصحابه عن مكة. فذكروا له من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم ، وأنه إن يكن رسولاً حقاً فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى. لكن «محمدًا» لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به. وأوحى إليه الله يومئذ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل(٥٥٥)، فزلت الآية: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)(٥٥٦). وأنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم: إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته(٥٥٧)؛ فزل قوله تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ(٥٥٨).

في هذا الظرف وفد على المدينة وفدٌ من نصارى نجران عدتهم ستون راکباً، من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات(٥٥٩). ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى مدينة النبي حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعاً في أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ به العداوة، فيريح النصرانية المتأخرة في الشام وفي اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب. واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابية بمجيء هذا الوفد وبجداله النبي وبقيام ملحمة كلامية

(٥٥٤) المائدة (٥): ٤٩ — ٥٠. هذا بينما المائدة نزلت بحسب حجة الوداع كاملة أي في آخر العاشرة للهجرة والقصة من أوائل ما بعد الهجرة،

فكيف التوفيق؟! بناءً على ما يذهب إليه صاحب التمهيد، الشيخ محمد هادي معرفة: ١٠٧/١.

(٥٥٥) تفسير القرطبي: ١٥٨/٢.

(٥٥٦) البقرة (٢): ١٤٤.

(٥٥٧) تفسير الطبري: ١٤٢/٢.

(٥٥٨) البقرة (٢): ١٤٢ — ١٤٣.

(٥٥٩) سيرة ابن هشام: ٥٧٣/١، وإقبال الأعمال لابن طاووس: ٤٩٦ — ٥١٣.

عنفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام. فأما اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى و «محمد» إنكاراً فيه من العنت ما رأيت، ويزعمون أن عُزيراً ابن الله^(٥٦٠). وأما النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وألوهية عيسى^(٥٦١). وأما «محمد» فكان يدعو إلى توحيد الله، وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالم من أزلته إلى أبده. كان اليهود والنصارى يسألونه عمّن يؤمن بهم من الرسل^(٥٦٢)، فيقول: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)^(٥٦٣). وكان ينكر عليهم أشدّ الإنكار كلّ ما يلقي آية شبهة على وحدة الله، ويذكر لهم أنّهم حرّفوا الكلم ممّا في كتبهم عن مواضعه، وأنّهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيون والرسل الذين يُقرّون لهم بالنبوة، وأنّ ما جاء به عيسى وموسى ومن سبقهم لا يختلف في شيء عما جاء هو به؛ لأنّ ما جاءوا به إنّما هو الحقيقة الأزلية الخالدة، التي تتكشف في جلال وضوحها وعظمة بساطتها لكلّ من نزّه نفسه عن الخضوع لغير الله في عظمة وحدته، ونظر في الكون على أنّه وحدة متصلة نظرة سامية فوق أهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادّة، مجرّدة عن الخضوع الأعمى لأوهام العامة ولما وجد عليه آباءه وأجداده.

أيّ مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذي شهدت يشرب تلتقي فيه الأديان الثلاثة التي ماتزال حتّى اليوم تتجاذب مصاير العالم، وتلتقي فيه لأسمى فكرة وأجل غاية؟ لم يكن مؤتمراً اقتصادياً ولا كان مرماه أيّ غرض من هذه الأغراض المادية التي ينطح عالمنا اليوم عبثاً صخرتها؛ إنّما كانت غاية روحية تقف من ورائها في أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوي الملك والسلطان، ويقف فيه «محمد» لغاية روحية إنسانية بحثة، يملّي عليه الله في سبيلها الصيغة التي يُلقي بها إلى اليهود وإلى النصارى وإلى الناس كافة^(٥٦٤)، يقول لهم فيها: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)^(٥٦٥).

(٥٦٠) سيرة ابن هشام: ٥٧٠/١، تفسير مجمع البيان: ٤٠٣/١ و ٤٠٦ .

(٥٦١) سيرة ابن هشام: ٥٧٥/١، تفسير مجمع البيان: ٤٠٣/١ و ٤٠٦ .

(٥٦٢) سيرة ابن هشام: ٥٦٧/١، تفسير مجمع البيان: ٤٠٥/١ .

(٥٦٣) البقرة (٢): ١٣٦ .

(٥٦٤) تفسير القرطبي: ١٠٥/٤، وتفسير مجمع البيان: ٣١٤/٢ .

(٥٦٥) آل عمران (٣): ٦٤ .

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا في هذه الدعوة: ألاّ يعبدوا إلاّ الله ولا يشركوا به شيئاً، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله؟ فأما الروح المخلصة الصادقة ، فأما النفس الإنسانية التي كُرِّمت بالعقل والعاطفة، فلا تستطيع إلاّ أن تؤمن بهذا دون غيره. لكنّ في الحياة الإنسانية إلى الجانب النفساني جانبها المادي. فيها هذا الضعف الذي يجعلنا نقبل لغيرنا علينا سلطاناً بثمن يشتري به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا. فيها هذا الغرور القتال للكرامة وللعاطفة ولنور النفس العاقلة. هذا الجانب المادي المصور في المال وفي الجاه، وفي كاذب الألقاب، والرتب هو الذي جعل أبا حارثة أكثر نصارى نجران علماً ومعرفة يُدلي إلى فريق له باقناعه بما يقول «محمد»؛ فلما سأله رفيقه: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ كان جوابه: يعني ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلاّ خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كلّ ما ترى^(٥٦٦).

دعا «محمد» اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يُلاعن النصارى. فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد المودعة. إذ ذاك تشاور النصارى ثمّ أعلنوا إليه أنّهم رأوا ألاّ يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم^(٥٦٧). لكنّهم رأوا حرص «محمد» على العدل حرصاً احتذى

(٥٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ٥٧٣/١، وإعلام الوري: ٢٥٤/١ .

(٥٦٧) ويجدر بالأستاذ هيكّل أن لا يتجاوز حادثة المباهلة بهذه الطريقة، وذلك لما لها من قيمة في حياة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته، واهتمام الوحي فيها، ودخوله المباشر في ترتيب المسألة وكيفية اختيار أشخاصها، حيث نزل قوله تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَنَدْعَاكُمْ وَنَدْعَاكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) آل عمران : ٦١ .

ليبين ما جرى في هذه الواقعة البالغة الأهمية، وما جرى بين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين وفد ديني من نصارى نجران. فقد قدموا إلى يثرب لينظروا الرسول (صلى الله عليه وآله) في أمر الإسلام، وبعد حديث دار بينهما اتفقوا على الابتهاال أن يجعل الله تعالى لعنته، ويترل عذابه على الكاذبين والخائدين عن الحق، وعينوا للمباهلة وقتاً خاصاً، ولما حان الوقت خرج النبي (صلى الله عليه وآله) للمباهلة، وقد صحب معه أفضل المسلمين وأكرمهم عند الله تعالى، وهم باب مدينة علمه وأبو سبطيه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وبضعته الطاهرة سيّدة العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام) ، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة.

وأقبل وفد النصارى وفي طليعتهم السيد والعاقب يصحيان ولديهما وعليهما الحلي والخلل، ومعهم فرسان الحرب، وهم على أحسن هيئة واستعداد، ولما رأوا هيئة الرسول (صلى الله عليه وآله) مع أهل بيته امتلأت نفوسهم رعباً وهلعاً، وجثا النبي (صلى الله عليه وآله) للمباهلة، فتقدم إليه السيّد والعاقب، وقد أخذتهما هيبتة فقال له:

— يا أبا القاسم من تباهلنا؟...

فأجابهم النبي (صلى الله عليه وآله) قائلاً:

«أباهلكم بخير أهل الأرض، وأكرمهم إلى الله» وأشار إلى الإمام عليّ وفاطمة والحسنين (عليهم السلام) .

وظفقا قاتلين:

— ولمّ لا تباهلنا بأهل الكرامة والكبر، وأهل الشارة ممن آمن بك وأتبعك؟.

فأكّد لهم النبي (صلى الله عليه وآله) أنّ أهل بيته هم أفضل الخلق وأكرمهم عند الله تعالى قائلاً:

«أجل أباهلكم هؤلاء خير أهل الأرض وأفضل الخلق...».

فذهلوا ، وعرفوا أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) على حقّ، فسارعوا إلى زعيمهم الأسقف قاتلين له:

أصحابه فيه مثاله، فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من

— يا أبا حارثة ماذا ترى في الأمر؟... —

وساد الارتباك على الأسقف، وقد غمرته هيبة الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته، فراح يقول: «أرى وجوهاً لو سأل الله بها أحد أن يزيل جبالاً من مكانه لأزاله أفلاً تنظرون محمداً رافعاً يديه، ينظر ما تحيثن به، وحق المسيح إن نطق فوه بكلمة لا نرجع إلى أهل، ولا إلى مال...». وأخذ يحذرهم من المباهلة قائلاً:

ألا ترون الشمس قد تغير لونها، والأفق تنجع فيه السحب الداكنة، والريح تهب هائجة، سوداء حمراء، وهذه الجبال يتصاعد منها الدخان. لقد أطل علينا العذاب، أنظروا إلى الطير، وهي تقيء حواصلها وإلى الشجر كيف تتساقط أوراقها، وإلى هذه الأرض كيف ترج تحت أقدامنا. لقد غمرتهم تلك الوجوه العظيمة العزيزة على الله تعالى، وقفل المسيحيون مسرعين إلى النبي (صلى الله عليه وآله) قائلين: يا أبا القاسم، أقلنا أقال الله عثرتك...

وخضعوا لطلبات الرسول (صلى الله عليه وآله)، وأخبرهم أنهم لو استجابوا للمباهلة هلكت النصارى، قائلاً: «والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران، ولو لاعتوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله، حتى الطير على الشجر، وما حال الحول على النصارى كلهم...» نور الأبصار: ١٠٠.

وأوضحت قصة المباهلة مدى أهمية آل البيت (عليهم السلام)، وأنهم نسخة لا ثاني لهم في الإسلام في إيمانهم وورعهم ولو أن النبي (صلى الله عليه وآله) وجد من هم خير منهم لاختارهم للمباهلة بل لو كان هناك من يساويهم في الفضل لامتنع أن يقدم أهل بيته عليهم، وذلك لقبح الترجيح بلا مرجح — كما يقول علماء الأصول —.

ولم يتدب الرسول (صلى الله عليه وآله) للمباهلة أحداً من أسرته، فلم يدع صنو أبيه عمه العباس، ولا أحداً من أبناء الهاشمين، وكذلك لم يدع واحدة من عقائل الشرف، وخفرات الرسالة من نسائه، ولا واحدة من نساء الخلفاء، وغيرهن من نساء المهاجرين والأنصار وجميعهن كن يبرأ منه ومسمع، وقد دل ذلك على فضل أهل البيت، وعظيم شأنهم عند الله تعالى: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) الحديد: ٢١.

يقول الإمام شرف الدين: «وأنت تعلم أن مباهلتهم (صلى الله عليه وآله) بهم، والتماسه منهم التأمين على دعائه بمجرده لفضل عظيم، وانتخابه إياهم لهذه المهمة العظيمة واختصاصهم بهذا الشأن الكبير، وإيثارهم فيه على من سواهم من أهل السوابق فضل على فضل لم يسبقهم إليه سابق ولن يلحقهم فيه لاحق، ونزول القرآن العزيز أمراً بالمباهلة بهم بالخصوص فضل ثالث، يزيد فضل المباهلة ظهوراً، ويضيف إلى شرف اختصاصهم بها شرفاً، وإلى نورهم نوراً...» الكلمة الغراء: ١٨٤.

كما دلّت الآية الكريمة على أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) هو نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنه المعني بقوله تعالى: (وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ) فإذا كان علي (عليه السلام) هو نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) فهو أولى بالخلافة وأحق بها من غيره، لأنه امتداد ذاتي لشخصية الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، كما دلّت الآية على أن الإمام (عليه السلام) أفضل جميع خلق الله، لأنه نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي هو أفضل الموجودات. وقد أدل بذلك الفخر الرازي قال: «كان في الري رجل يقال له محمود بن الحسن الحمصي، وكان معلم الإثني عشرية، وكان يزعم أن علياً أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد (صلى الله عليه وآله)، واستدل على ذلك بقوله تعالى: (وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ) إذ ليس المراد نفس محمد (صلى الله عليه وآله)، لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد غيرها، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) فدلت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد، ولا يمكن أن يكون المراد أن هذه النفس هي عين تلك، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضي المساواة بينهما في جميع الوجوه تركنا العمل بهذا العموم في حق النبوة، وفي حق الفضل بقيام الدلائل على أن محمد (صلى الله عليه وآله) كان نبياً، وما كان علي كذلك، ولاعتقد الإجماع على أن محمد (صلى الله عليه وآله) كان أفضل من سائر الأنبياء (عليهم السلام) فيلزم أن يكون علي (عليه السلام) أفضل من سائر الناس، تفسير الرازي: ٤٨٨/٢، والقرطبي: ١٠٤/٤، وزاد المسير: ٣٩٩/١، والدّر المنثور: ٦٨/٢. ولكن لا يكفي ما احتمله المؤلف دافعاً لحيء النصارى من نجران في حدود اليمن إلى المدينة (أكثر من ألف كيلومتر) لتلقيح الفتنة بينه وبين اليهود كما قال. بل حضور الحسين (عليهما السلام) غير محمولين بل بمشيان كما في أخبار المباهلة يدل على أن ذلك لم يكن أوائل ما بعد الهجرة بل أواخرها.

أقوالهم. وبعث «محمد» معهم أبا عبيدة بن الجراح ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه^(٥٦٨).

وجعل «محمد» يمكن للحضارة التي وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه ومثله، وجعل يفكر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفهم التفكير لحظة فيه منذ هجرتهم من مكة، فيما يجب أن يكون موقفهم من قريش وأمرهم معهم. ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير أكثر من دافع. ففي مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجيجهم وحجيج العرب جميعاً. أتراهم ينقطعون عن هذا الواجب الديني المقدس عندهم اليوم أكثر مما كان مقدساً عندهم في الجاهلية! وفيها ما يزال لهم أهل قهوى إليهم نفوسهم وتشفق لبقائهم على الشرك أفئدتهم وقلوبهم. وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارهم مما منعتهم قريش منه حين هجرتهم. ثم إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمى فأصابهم منها عنت شديد، وبلغت منهم حتى جاهدوا مرضاً وكانوا يصلون قعوداً^(٥٦٩)، فراد ذلك في تخانهم إلى مكة. وهم قد أخرجوا من مكة كارهين، فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم. وليس في طبع هؤلاء القرشيين أن يصبروا على الضيم أو يذعنوا للغلب دون تفكير في الثأر لأنفسهم منه. وإلى جانب هذه الدوافع جميعاً الدافع الطبيعي، دافع الحنين إلى الوطن. الحنين إلى المكان الذي منه نبأنا وفيه نشأنا وإلى أرضه وسهله وجبله ومائه، كان أول حديثنا وأول صداقتنا وأول ودنا. هذه البقعة من الأرض نمتنا صغاراً فإليها مَثَوْنَا كباراً. بها تتعلق قلوبنا وعواطفنا وأفئدتنا، وعننا نذود بقوتنا وبمالنا ونضحّي بمجهودنا وبحياتنا، وفيها نود أن ندفن بعد موتنا لنعود إلى ترابها الذي خرجنا منه. هذا الدافع الطبيعي أذكى في نفس المهاجرين سائر الدوافع وجعلهم لا ينفكّون يفكّرون في قريش وفيما يجب أن يكون موقفهم منها. لن يكون هذا الموقف موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذى ثلاثة عشر عاماً سوياً. والدين الذي احتملوا فيه هذا الأذى والذي هاجروا في سبيله لا يقرّ الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة. وإذا كان يمقت الاعتداء وينكره ويقرّر الإخاء ويدعو إليه، فإنه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة وعن حرية العقيدة وعن الوطن. ولهذا الدفاع أتم «محمد» مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى. فكيف يؤدّي المهاجرون هذا الفرض عليهم لله ولبيتهم الحرام ولوطنهم مكة الحبيب إلى

(٥٦٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٨٣/١ — ٥٨٤ .

(٥٦٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٨٨/١ .

قلوبهم؟! هذا ما ستتجه إليه سياسة «محمد» والمسلمين معه حتّى يتم له فتح مكّة ، وحتّى يعلو
دين الله وتعلو كلمة الحقّ فيها.

* * *

الفصل الثاني عشر

السرايا والمناوشات الأولى

تفكير «محمد» في أمر قريش، إيفاده السرايا لتخويف قوافلهم، غزوة عبدالله بن جحش في الشهر الحرام، الإسلام والقتال.

استقرّ للمسلمين المقام بالمدينة بعد أشهر من الهجرة، فبدأ تحنّان المهاجرين لمكة يزداد، وبدأوا يفكّرون فيمن تركوا وما تركوا بها، وما أنزلت قريش بهم من الأذى، فماذا عساهم يصنعون؟ تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنّهم فكّروا وفكّر «محمد» على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأتهم بالعداوة والحرب^(٥٧٠). بل إنّ بعضهم ليذهب إلى أنّهم فكّروا في هذه الحرب منذ مقدّمهم إلى المدينة، وإنّما منعهم من إشعال نارها أنّهم كانوا ما يزالون في شغل بأعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم. ويستدل على ذلك بأنّ «محمدًا» إنّما عقد بيعة العقبة الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس. وطبيعيّ أن تكون قريش أوّل من يتّجه إليهم نظره ونظر أصحابه، ممّا فطنت له قريش بكرة العقبة، فخرجت في فزع تسأل الأوس والخزرج عنه.

ويؤيّد هذا البعض قوله بما وقع بعد ثمانية أشهر من مقام الرسول والمهاجرين بالمدينة، إذ بعث «محمد» عمّه حمزة بن عبدالمطلب في ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطئ البحر من ناحية العيص حيث لقي أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، وبأنّ حمزة كان على أهبة مقاتلة قريش لولا أن حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً الفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال^(٥٧١)؛ وإذ بعث «محمد» عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين دون الأنصار فساروا إلى ماء بالحجاز بوادي رابغ، فلقيهم به جمع من قريش يزيد على مئتين على رأسهم أبوسفیان، فانسحبوا من غير قتال، إلّا ما روي من أنّ سعد

(٥٧٠) سيرة ابن هشام: ١ / ٥٩٠، وعيون الأثر: ٢٥٧/١.

(٥٧١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٩٥/١، والطبقات الكبرى: ٦/٢، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٦٣/١، بحار الأنوار: ١٨٦/١٩.

ابن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم «فكان أول سهم رُمي به في الإسلام»^(٥٧٢)؛ وإذ بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية من المهاجرين على رواية، وفي عشرين منهم على رواية أخرى، فخرجوا إلى أرض الحجاز ثم عادوا أن لم يصيبوا ما أرسلوا فيه .

ويزيد هذا البعض دليلاً تأييداً بأن النبي خرج بنفسه على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة، واستعمل عليها سعد بن عباد ، وسار إلى غزوة الأبواء حتى بلغ ودان يريد قريشاً وبني ضمرة؛ فلم يلق قريشاً وحالفته بنو ضمرة^(٥٧٣)؛ وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس

مئتين من الأنصار إلى بواط، يريد قافلة يقودها أمية بن خلف عدتها ألفان وخمسمائة بعير ويحميها مئة محارب فلم يدركها، أن اتخذت طريقاً غير طريق القوافل المعبد^(٥٧٤)؛ وأنه بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بواط من ناحية رضى استعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وخرج في أكثر من مئتين من المسلمين حتى نزل العُشيرة من بطن ينبع، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الثانية من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣ م) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان وفاتته، وكسب من رحلته هذه أن وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة^(٥٧٥)؛ وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال، حتى أغار كُرز بن جابر الفهري من المتصلين بمكة وبقریش على إبل المدينة وأغنامها، فخرج النبي في طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وتابع مسيره حتى بلغ وادياً يقال له «سَفَوَان» من ناحية بدر وفاته كُرز فلم يدركه. وهذه هي التي يطلق عليها كتاب السيرة اسم غزوة بدر الأولى^(٥٧٦).

أفلا يقوم هذا كله دليلاً على أن المهاجرين فكروا وفكر «محمد» على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأهم بالعداوة والحرب؟ وهو على أقل تقدير — في رأي هؤلاء المؤرخين — يشهد بأنهم قصدوا من غزواتهم المبادئة هذه — والمؤرخون يسمون هذه الرحلات سرّايا وغزوات^(٥٧٧) — إلى غايتين:

الأولى: الوقوع على قوافل قريش في ذهابها إلى الشام أو عودتها منها حين رحلة الصيف، واحتمال ما يمكن احتماله من الأموال التي تذهب هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها.

(٥٧٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٩٥/١، والطبقات الكبرى: ٦/٢، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٦٤/١، بحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

(٥٧٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٩٠/١ — ٥٩١، وإمتاع الأسماع: ٧٣/١، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٦٦/١، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩ .

(٥٧٤) الطبقات الكبرى: ٨/٢، الوفا: ٦٩٧/١، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٦٤/١، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

(٥٧٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٩٨/١ — ٥٩٩، والوفا: ٦٩٨/١، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٦٥/١، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩ .

(٥٧٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٠١/١، والطبقات الكبرى: ٩/٢، إعلام الوری بأعلام الهدى: ١٦٥/١، وبحار الأنوار: ١٨٨/١٩ .

(٥٧٧) بل المؤرخون وأصحاب السيرة اصطلاحوا عليها بالسرايا وليست غزوات إلا إذا كان النبي فيها.

والثانية: أخذ الطريق على قريش في رحلتها إلى الشام بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر، بما يستهلّ على المهاجرين مهاجمة هذه القوافل دون أن تلقى في جوار هاته القبائل ما يحميها من «محمد» وأصحابه، حماية تمنع أخذ المسلمين رجالها ومالها أخذ عزيز مقتدر. وهذه السرايا التي عقد النبي (عليه السلام) ألويتها لحمزة ولعبيدة بن الحارث ولسعد بن أبي وقاص، وهذه المخالفات التي عقدها مع بني ضمرة وبني مُدَلج وغيرهم، تؤيد الغاية الثانية ويشهد بأن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ما قصد المسلمون إليه. فأما أنّهم بهذه السرايا التي بدأت بعد ستة أشهر من مقامهم بالمدينة، والتي اشترك فيها المهاجرون وحدهم، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها، فذلك ما يقف الإنسان منه موقف التردد والتفكير. فلم تكن سرية حمزة لتزيد على ثلاثين رجلاً من المهاجرين، ولم ترد سرية عبدة على ستين، وكانت سرية سعد لا تتجاوز ثمانية نفر على قول، وعشرين على قول آخر. وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد. وقد زادتهم قريش عدداً وعدة منذ أقام «محمد» بالمدينة وبدأ يحالف القبائل التي بها والقرية منها. ومهما يكن من بأس حمزة وأبي عبدة وسعد فمن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين، فإنّ عدّة من معهم لم تكن لتشجعهم على الحرب، فما جعلهم يعودون من هذه السرايا كلّها دون قتال إلاّ ما قيل عن السهم الذي أطلقه سعد.

ثم إنّ قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من تصلهم بالكثيرين من المهاجرين أواصر القربى وصلات الدم، فلم يكن يسيراً عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وأن يتعرض هؤلاء وأولئك لطلب الثأر، وأن يعرضوا مكة والمدينة جميعاً لحرب أهلية استطاع المسلمون والوثنيون جميعاً اتّقاءها بمكة ثلاث عشرة سنة متتابة من يوم بعث «محمد» إلى يوم هجرته. والمسلمون كانوا يعلمون أنّ بيعة العقبة كانت بيعة دفاعية تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية «محمد»، ولم يعاهدوه ولا عاهدوا أحداً فمن معه على العدوان؛ فليس من اليسير مع هذا كلّ التسليم مع المؤرخين، الذين لم يبدأوا بكتابة تاريخ النبي إلاّ بعد قرنين من وفاته، بأنّ هذه السرايا والرحلات الأولى كان يقصد بها إلى القتال بالفعل. فلا بدّ لها إذاً من تأويل أقرب إلى العقل وأكثر اتفاقاً مع سياسة المسلمين في هذه الفترة الأولى من مقامهم بالمدينة، وأدقّ تمثيلاً مع سياسة الرسول التي كانت قائمة يومئذ على قواعد التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل، لكفالة حرية الدعوة الدينية من ناحية، وكفالة حسن المعاملة والجوار من الناحية الأخرى.

والراجح عندي أن هذه السرايا الأولى إنما قُصِدَ بها إلى إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد، تفاهماً يقي الطرفين ثمرات العداوة والبغضاء، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين، ولأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها إلى الشام. وقد كانت هذه التجارة التي تبث بها مكة والطائف جميعاً، والتي كانت تجيء إلى مكة من بلاد الجنوب، تجارة واسعة النطاق، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير في ألفي بعير، حمولتها تزيد على خمسين ألف ديناراً وكانت صادرات مكة السنوية، على ما قدرها المستشرق سبرنجر، توازي مئتين وخمسين ألفاً من الدينانير، أي نحو مئة وستين ألف جنيه ذهباً. فإذا أيقنت قريش تعرض هذه التجارة للخطر آتياً من ناحية أبنائها الذين هاجروا إلى المدينة. دعاها ذلك إلى التفكير في التفاهم معهم، تفاهماً طمع المسلمون في أن يكفل لهم ما كانوا يطعمون فيه من حرية الدعوة إلى دينهم، ومن حرية الدخول إلى مكة لأداء فرائض حجّهم. ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكناً ما لم تقدّر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها، وإيصاد طريق التجارة في وجهها. وهذا هو ما يفسّر عندي رجوع حمزة ومن معه من المهاجرين الذين لقوا أبا جهل بن هشام عند ساحل الجزيرة لأوّل ما حجز مجدي بن عمرو الجهني بينهما، كما يفسّر كثرة اتجاه المسلمين بسراياهم إلى طريق تجارة مكة في عدد لا يسهل معه تصورهم مُقدمين على الحرب. وهذا كذلك هو الذي يفسّر حرص النبيّ، بعد ما بدا من صلف قريش وعدم اعتدادها بقوة المهاجرين، على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة، والتحالف معها تحالفاً غمّي خبره إلى قريش لعلّها ترعوي وتعود إلى التفكير في التفاهم والاتفاق.

يدعم هذا الرأي بأقوى سند أن النبيّ (عليه السلام) لما خرج إلى بواط وإلى العُشيرة كان من بين الذين صحبوه عدد غير قليل من الأنصار أهل المدينة. والأنصار إنما بايعوه ليدفعوا عنه، لا ليهاجموا معه. وسنرى ذلك صريحاً حين غزوة بدر الكبرى إذ يتردد «محمّد» دون القتال حتى يوافق أهل المدينة عليه. وإذا كان الأنصار لا يرون مخالفة لبيعته في أن يعاهد «محمّد» غيرهم من الناس، فليس معنى هذا أن يخرجوا معه لحرب أهل مكة وليس بين الفريقين من أسباب الحرب ما تجيزه أخلاق العرب، أو يجيزه نظام صلاتهم بعضهم ببعض. ومهما يكن في هذه الموادعات التي يعقد «محمّد» من تقوية المدينة ومن إضعاف ما تطمع تجارة قريش فيه من أسباب الحماية، فشتان ما بين ذلك وبين إعلان الحرب أو السعي إليها. فالقول إذاً بأن حمزة أو عبيدة بن الحارث أو سعد بن أبي وقاص إنما خرجوا لحرب قريش، وتسمية سراياهم غزوات^(٥٧٨) مرجوح عندنا فلا نكاد

نُسيغه. والقول كذلك بأنَّ «محمّداً» إنّما خرج إلى الألباء ونباط والعُشيرة غازياً، فيه تجوز كبير تردّد عليه الاعتراضات التي قدّمنا. ولا يفسّر أخذ مؤرّخي «محمّد» به إلّا أنّهم لم يترجموا لـ «محمّد» إلّا في أواخر القرن الثاني للهجرة، وأنّهم كانوا متأثرين بالمغازي التي حدثت بعد ذلك منذ بدر الكبرى، فاعتبروا ما سبقها من مناقشات يقصد بها إلى غير الحرب سرايا ومغازي تضاف أيضاً إلى حروب المسلمين أيام النبيّ.

والظاهر أنّ كثيرين من المستشرقين قد فطنوا لهذا الاعتراض وإن لم يشيروا بشيء في كتبهم إليه. وإنّما يدعوننا إلى الظنّ بفطنتهم له أنّهم، مع مجاراتهم مؤرّخي المسلمين في قصد المهاجرين و «محمّد» على رأسهم إلى حرب أهل مكّة منذ الساعة الأولى من مقامهم بالمدينة، قد أشاروا إلى أنّ هذه السرايا الأولى إنّما كان يُقصد بها إلى نهب تجارة القوافل، وأنّ النهب كان بعض طباع أهل البادية، وأنّ أهل المدينة إنّما أغرقهم الغنيمة والسلب باتباع «محمّد» على خلاف عهدهم في العقبة. وهذا كلام مردود، لأنّ أهل المدينة كأهل مكّة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب، وأنّهم أكثر من أهل مكّة كان في طبعمهم ما في طبع من يعيشون على الزراعة مثلهم من حبّ الاستقرار، ممّا يجعلهم لا يتحركون إلى قتال إلّا لدافع قويّ. أمّا المهاجرون فكان من حقّهم أن يستخلصوا من أيدي قريش ما أخذت من أموالهم، وإن لم يستعجلوا ذلك قبل بدر، ولا هو كان الدافع للسرايا والغزوات الأولى. ثمّ إنّ القتال لم يُشرع في الإسلام ولم يقدّم به «محمّد» وأصحابه لهذه الغاية البدوية التي يتوهم المستشرقون، وإنّما شرّع وقام به «محمّد» وأصحابه حتّى لا يفتنهم عن دينهم أحد، وحتّى يكون لهم من حرية الدعوة له ما يشاءون. وسنرى من بعد تفصيل هذا والدليل عليه. وعندئذ يزداد أماننا وضوحاً أنّ «محمّداً» إنّما كان يرمي من المعاهدات التي عقدت إلى تعزيز المدينة، حتّى لا يتطرق إلى قريش فيها مطمع، فلا يحاولوا إعانت المسلمين فيها، كما حاولوا من قبل إعادتهم من بلاد الحبشة؛ وأنّه كان لا يأبى في نفس الوقت أن يعاهد قريشاً على أن تترك حرية الدعوة لدين الله طليقة، حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّهُ لله.

ولعلّ «محمّداً» رمى من وراء هذه السرايا والرحلات المسلّحة إلى غرض آخر. لعلّه رمى إلى إرهاب اليهود المقيمين في المدينة وعلى مقربة منها، فقد رأيت أنّ هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أوّل وصول «محمّد» إلى المدينة في ضمّه إليهم، وبعد أن وادعوه وعاهدوه على حرية الدعوة للدين، وعلى إقامة المسلمين شعائره وفرائضه، لم يلبثوا أن رأوا أمر «محمّد» يستقرّ ولواء الإسلام يسمو ويرتفع حتّى بدأوا يقلّبون للنبيّ ظهر الحنّ ويعملون على الوقعة به. ولئن قعدوا عن مصارحته العدواة خشية أن تتعرض مصالحهم التجارية للارتباك إذا نشبت بين أهل المدينة حرب أهلية، أو محافظة على عهد موادعتهم، فإنّهم لجأوا إلى كلّ وسيلة للدسّ بين المسلمين، ولإثارة

البغضاء بين المهاجرين والأنصار، ولا يفاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم بُعث وباعادة ما قيل من الشعر فيه^(٥٧٩).

وقد فطن المسلمون لدسهم ولبالغتهم فيه، وبلغوا من ذلك حتى حشروهم في زمرة المنافقين، بل اعتبروهم شرّاً منهم، فأخرجوهم من المسجد إخراجاً عنيفاً، وأبوا عليهم أن يجلسوا إليهم أو أن يتحدثوا معهم، وانتهى النبيّ (عليه السلام) إلى الإعراض عنهم، بعد إذ حال إقناعهم بالحجة والدليل. وطبيعيّ أن لو تُرك حبل يهود المدينة هؤلاء على غاربهم أن يستفحل أمرهم، وأن يثيروا الفتنة التي يسعون لإثارتها. وليس يكفي في عرف الدقة السياسية التحذير منهم والتنبيه لكيدهم؛ بل لابدّ من إشعارهم أنّ للمسلمين من القوّة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة تقوم، ومن القضاء على أسبابها واجتثاث أصولها. وخير وسيلة لهذا الإشعار إرسال السرايا والقيام بالمناورات الحربية في مختلف الأنحاء، على ألاّ تتعرض قوّة المسلمين إلى هزيمة تُطمع اليهود كما تُطمع قريشاً فيهم. وهذه المناورة هي ما وقع، ووقع من رجال كحمزة سريعين إلى الغضب لا تكفي لصدّهم عن القتال وساطة موادع يدعو إلى السلم، ما لم تكن المناوشة الحربية، ثمّ الامسك عن القتال في عزّة وكرامة، سياسة مرسومة، وخُطة مبيّنة يقصد بها إلى درك غايات معينة، هي ما ذكرنا من تخويف اليهود من ناحية والاتفاق مع قريش من الناحية الأخرى، على ترك الدعوة للدين وإقامة شعائره حرّة مطلقة من غير حاجة إلى حرب أو قتال.

وليس معنى هذا أنّ الإسلام كان يومئذ يُنكر القتال دفاعاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة، ودفعاً لمن يريد فتنة صاحبها عنها. كلا! بل إنّ الإسلام ليفرض هذا الدفاع. وإثما معناه أن الإسلام كان يومئذ، كما هو اليوم وكما كان دائماً، ينكر حرب الاعتداء (وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)^(٥٨٠). وإذا كان لدى المهاجرين يومئذ ما يبيح لهم اقتضاء ما حجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم، فإنّ دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله، وكان الغاية الأولى التي شرع من أجلها القتال.

والحجّة على ذلك ما نزل من الآيات في سرية عبدالله بن جحش الأسديّ؛ فقد بعثه رسول الله في رجب من تلك السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً وأمره ألاّ ينظر فيه إلّا بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً. وفتح عبدالله الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتّى تنزل نخلة بين مكّة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلّم لنا من أخبارهم». وعلم أصحابه بالأمر وبأنّه لا يستكره أحداً منهم،

(٥٧٩) السيرة النبويّة لابن هشام : ١ / ٥٥٥ .

(٥٨٠) البقرة (٢): ١٩٠ .

فمضوا معه جميعاً خلا سعد بن أبي وقاص الزهري وعتبة بن غزوان اللذين ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضلّ فأسرقهما قريش. وسار عبدالله ومن معه حتّى نزلوا نخلة . هناك مرّت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمر بن الحضرمي، وكان يومئذ آخر رجب. وذكر عبدالله بن جحش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا، وقال بعضهم لبعض: «والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فلميتعنّ منكم به. ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام». وتردّدوا وهابوا الإقدام، ثمّ شجّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. ورمى أحدهم عمر بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش.

وأقبل عبدالله بن جحش بالعين والأسيرين حتّى قدموا المدينة على الرسول. وحجز القوم لـ «محمّد» من مغنمهم الخمس. فلمّا رآهم قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. وأسقط في يد عبدالله بن جحش وأصحابه وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا. وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية ونادت في كلّ مكان: إنّ «محمّداً» وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال. وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم في الدين من المهاجرين إلى المدينة، إنّما أصابوا ما أصابوا في شعبان. ودخلت يهود تريد إشعال نار الفتنة. إذ ذاك نزل (٥٨١) قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) (٥٨٢). وسُرّي عن المسلمين بتزول القرآن بهذا الأمر وقبض النبيّ العير والأسيرين فافتداهما منه قريش؛ فقال: «لا نفديكموهما حتّى يقدم صاحبانا — يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان — فإنّا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم». وقدم سعد وعتبة وأفداهما النبيّ من الأسيرين . فأما أحدهما الحكم بن كيثان فأسلم وأقام بالمدينة. وأمّا الآخر فرجع إلى مكة وظلّ بها حتّى مات على دينه ودين آبائه (٥٨٣).

جديرٌ بنا أن نقف عند سرية عبدالله بن جحش هذه والآيات الكريمة التي نزلت فيها. فهي في رأينا مفترق طرق في سياسة الإسلام، وحادث جديد في نوعه يدل على روح قويّ في سموّه، إنساني في قوّته، ينتظم نواحي الحياة الماديّة والمعنويّة والروحية كأشد ما يكون النظام قوة ورفعة

(٥٨١) تفسير الطبري: ٣٦١/٢.

(٥٨٢) البقرة (٢): ٢١٧ .

(٥٨٣) السيرة النبويّة لابن هشام: م ١ / ٦٠١ — ٦٠٤، ومغازي الواقدي: ١٦/١ — ١٧ .

وتوجهاً إلى الكمال. فالقرآن يجيب المشركين على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام وإن كان من الكبائر، ويُقرهم على أنه كذلك أمر كبير. لكنّ هناك ما هو أكبر من هذا الأمر. فالصدّ عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام. والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام والقتل فيه. وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والاغراء والتعذيب أكبر من القتال في الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام. وقريش والمشركون الذين ينعون على المسلمين ما قتلوا في الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتّى يردّوهم عن دينهم إن استطاعوا. فإذا كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعاً، فيصدّون عن سبيل الله ويكفرون به ويخرجون أهل المسجد الحرام منه ويفتنوهم عن دينهم، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم في الشهر الحرام، وإنّما الكبيرة أن يقاتل في الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزراً.

الفتنة أكبر من القتل. وحقّ بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصدّ عن سبيل الله أن يقاتل في سبيل الله، حتّى لا يُفتن وحتّى ينصر دين الله. هنا يرفع المستشرقون والمبشرون عقائرتهم صائحين: أرايتم! هذا «محمّد» يدعو دينه إلى الحرب وإلى الجهاد في سبيل الله، أي إلى إكراه الناس بالسيف على اعتناق الإسلام. أليس هذا هو التعصب بعينه؟ وهذا في حين تنكر المسيحية القتال وتمقت الحرب وتدعو إلى السلام وتنادي بالتسامح وتربط بين الناس برابطة الإخاء في الله وفي السيد المسيح. ولست أريد، لكي أناقش هؤلاء أن أذكر كلمة الإنجيل: «ما جئت لألقي على الأرض سلاماً بل سيفاً... الخ»^(٥٨٤) ولا ما تنطوي عليه هذه الكلمة من المعاني، فالمسلمون يُقرّون دين عيسى كما نزل به القرآن. وإنّما أريد بادئ الرأي أن أردّ قولهم: إنّ «محمّداً» دعا دينه إلى القتال لإكراه الناس بالسيف على اعتناق الإسلام. فهذه فرية ينكرها القرآن في قوله تعالى: (لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) ^(٥٨٥). وفي قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ^(٥٨٦). وفي كثير غير هاتين الآيتين الكريميتين.

والجهاد في سبيل الله معناه الصريح، على نحو ما ورد في الآيات التي ذكرناها، والتي نزلت في سرية عبدالله بن جحش، قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدّون عن سبيل الله. وهذا هو

(٥٨٤) العهد الجديد، إنجيل متى، يسوع والعالم: ١٥/١٠.

(٥٨٥) البقرة (٢): ٢٥٦.

(٥٨٦) البقرة (٢): ١٩٠.

القتال في سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه، وبعبارة تتمشى مع أسلوب عصرنا الحاضر: الدفاع عن الرأي بالوسائل التي يُقاتل بها أصحاب الرأي. فإذا أراد أحد أن يفتن رجلاً عن رأيه بالدعابة والمنطق، دون أن يحمله على ترك هذا الرأي بالقوة وبغير القوة من وسائل الرشوة والتعذيب، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلاّ بدحض حجّته وتفنيد منطقته. لكنّه إذا حاول بالقوة المسلّحة أن يصدّ صاحب رأي عن رأيه وجب دفع القوة المسلّحة بالقوة المسلّحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً. ذلك بأنّ كرامة الإنسان تتلخص في كلمة واحدة: عقيدته. العقيدة أثمن، عند من يقدر معنى الإنسانية، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن الحياة نفسها، من هذه الحياة المادية التي يشترك الإنسان والحيوان فيها، يأكلون ويشربون وتنمو أجسامهم وتقوى عضلاتهم. والعقيدة هي هذه الصلة المعنوية بين الإنسان والإنسان، والصلة الروحية بين المرء وربّه؛ هي هذا الحظ الذي يمتاز به الإنسان على سائر الحيوان كما في الحياة، والذي يجعله يجب لأخيه ما يجب لنفسه، ويؤثر البائس والفقير والمسكين على أهله ولو كان به وبهم خصاصة، ويتّصل بالكون كلّه ليعمل دائماً كي يبلغ الكون ما قدّر الله له من كمال.

إذا ملكت هذه العقيدة إنساناً من الناس فحاول غيره فتنته عنها، ولم يستطع دفاعاً عن نفسه، فعل ما فعل المسلمون قبل هجرتهم إلى المدينة، فاحتل المساء والأذى وصبر على الهوان والضميم ولم يصدّه جوع ولا حرمان أياً كان نوعه عن التمسك بعقيدته. وهذا الذي فعل المسلمون الأوّلون هو الذي فعل المسيحيون الأوّلون. لكنّ الصابرين لعقيدتهم ليسوا هم سواد الناس ولا جماعتهم، وإنّما هم الصفوة والمختارون ومن وهبهم الله من قوة الإيمان ما يصغر معه كلّ أذى وكلّ ضيم، وما يدكّ الرواسي، وما تقول معه للجبل انتقل من مكانك ينتقل، على حدّ تعبير الإنجيل^(٥٨٧). لكنك إذا استطعت أن تدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة وأن تقف في وجه من يصدّ عن سبيل الله بوسائله، وجب عليك أن تفعل، وإلاّ كنت مزعزع العقيدة ضعيف الإيمان. وهذا ما فعل «محمّد» وأصحابه بعد أن استقرّ لهم الأمر بالمدينة؛ وهذا ما فعل المسيحيون بعد أن استقرّ لهم السلطان في رومية وبعد أن لان قلب بعض عواهل رومية لدين المسيح^(٥٨٨).

يقول المبشرون: لكنّ روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه. ولست أقف لأبحث صحة هذا القول. لكنّ تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل، وتاريخ الإسلام أمامنا شاهد عدل. فمنذ

(٥٨٧) العهد الجديد: إنجيل متى/ يسوع يشفي صبياً فيه شيطان: ٢٧/١٧.

(٥٨٨) العهد الجديد، الرسالة الثانية بي مؤمني كورنثوس، الردّ على التهم الموجهة إليهم: ٢٧٧/١٠، ودائرة معارف القرن العشرين: ٤٥٥/٤

راجع مادة رومية.

فجر المسيحية إلى يومنا هذا خُضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح. خضبتها رومية وخضبتها أمم أوروبا كلها. والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون ولم يُذكِ المسلمون لهيها؛ وظلّت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية، تقاتل وتحارب وتُهرق الدماء^(٥٨٩). وفي كلّ مرّة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة. أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة وكانت مسيحياتهم زائفة؟ أم كانوا أدعياء جهالاً لا يعرفون أنّ المسيحية تنكر القتال على إطلاقه؟ أم يقولون: تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتجّ على المسيحية بما؟! إن يكن ذلك بعض ما قد يقولون، فإنّ هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه والذي يسمّونه عصر الحضارة الإنسانية العليا، قد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمة؛ فقد وقف لورد اللبني مثل الحلفاء، انجلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا، يقول في بيت المقدس في سنة (١٩١٨ م) حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى: اليوم انتهت الحروب الصليبية.

وإذا كان من بين المسيحيين قديسون أنكروا القتال في مختلف العصور وسمّوا بذواتهم إلى الذروة من معنى الإخاء الإنساني، بل من معنى الإخاء بين عناصر الكون كلّ، فمن بين المسلمين كذلك قديسون سمّوا نفوسهم هذا السموّ واتصلوا بكلّ الوجود اتصال إخاء ومحبة وإشراق ملاً منهم النفوس بوحدة الوجود. لكنّ هؤلاء القديسين من النصارى والمسلمين، وإن صوّروا المثل الأعلى، فإنّهم لا يمثّلون حياة الإنسانية أثناء تطوّرها الدائم وفي دأب جهادها إلى الكمال؛ إلى هذا الكمال الذي نحاول تصوّره ثمّ يقعد بنا العلم ويقعد بنا الفن ويقعد بنا الخيال دون شيء من الدقة في إدراكه، وإن نحن جازفنا بتصويره تمهيداً لما يحاول من جهود في سبيله. وهذه أربع وخمسون وثلاثمئة وألف سنة قد انقضت منذ هجرة النبيّ العربيّ من مكّة إلى يثرب والناس في مختلف العصور يزدادون في القتال افتناناً وفي صنع آلاته الجهنمية المدمّرة دقّة وإتقاناً. وما تزال كلمات نبذ الحرب وإلغاء التسلّح والتحكيم لا تزيد على أنّها كلمات تقال في أعقاب كلّ حرب تنهك الأمم، أو على أنّها دعاوات تُلقى في جوّ الحياة من أناس لم يستطيعوا حتّى اليوم — ومن يدري فلعلّهم لا يستطيعون يوماً — أن يحققوا منها شيئاً، وأنّ يحلّوا السلام الصحيح سلام الإخاء والعدل محلّ السلام المسلّح نذير الحرب وطليلة ويلاتهما.

والإسلام ليس دين وهم وخيال، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده إلى الكمال. إنّما الإسلام دين الفطرة التي فطر الناس جميعاً عليها أفراداً وجماعات؛ وهو دين الحقّ والحرية

(٥٨٩) تاريخ الحروب الصليبية لوليم رئيس أساقفة صور: ١١٣٠ — ١١٨٥، ترجمه للعربية د. سهيل زكار، دار الفكر بيروت. ط ١ ١٩٩٠ م.

والنظام. ومادامت الحرب في فطرة الناس، فتهذيب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود الإنسانية هي غاية ما تحتل فطرة البشر وما يحقق للإنسانية اتصال تطورها في سبيل الخير والكمال. وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي والدعوة إليه، وأن ترعى فيها الحُرُمات الإنسانية تمام الرعاية. وهذا ما قرّر الإسلام على ما رأينا و ما سنرى من بعدُ. وهذا ما نزل به القرآن، وضعناه وسنضعه تحت نظر القارئ، في الظروف والمناسبات التي نزل فيها.

* * *

الفصل الثالث عشر: غزوة بدر الكبرى

الفصل الثالث عشر

غزوة بدر الكبرى

خروج أبي سفيان إلى الشام، محاولة المسلمين قطع الطريق عليه، نجاته في الذهاب، انتظارهم إياه في أوبته، علم قريش بتجهيز المسلمين، خروجهم إلى بدر، نجاة أبي سفيان بتجارته، تردد قريش والمسلمين في القتال، زوال التردد، موقف الفريقين في بدر، حماسة المسلمين وانتصارهم.

كانت سرية عبدالله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، أن رمى فيها واقد بن عبدالله التميمي عمر بن الحضرمي بسهم فقتله؛ فكان أول دم أراق المسلمون؛ وأن نزلت فيها الآيات التي قدمنا؛ وأن شرع على إثرها قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدونهم عن سبيل الله. وكانت هذه السرية مفترق طرق كذلك في سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين يتناظران بأساً وقوة، وأن جعلت المسلمين يفكرون تفكيراً جدياً في استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على «محمد» وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقن «محمد» أن لم يبق في مصانعتهم أو في الاتفاق معهم رجاء. وقد خرج أبو سفيان في أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة يقصد الشام، وهي التجارة التي أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبي (عليه السلام) إلى العشرة^(٥٩٠). لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبي سفيان قد مرت بها ليومين قبل وصولهم إليها. إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها في عودتها. ولما تحين «محمد» انصرافها من الشام بعث طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد ينتظران خبرهما، فسارا حتى نزلا على كئبد الجهني بالخوراء وأقاما عنده في خباء حتى مرت العير فأسرعا إلى «محمد» ليُفصيا إليه بأمرها وما رأيا منها^(٥٩١).

على أن «محمد» لم ينتظر رسوله إلى الخوراء وما يأتيان به من خبر العير، فقد ترامي إليه أنها عير عظيمة، وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها، لم يبق منهم رجل ولا بقيت امرأة استطاعت

(٥٩٠) المغازي للواقدي: ١٢/١، والطبقات الكبرى: ١٠/٢، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

(٥٩١) المغازي للواقدي: ٢٠/١، والطبقات الكبرى: ١١/٢ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤ — ٨٤ — ٨٥. وبحار الأنوار: ٣٢٨/١٩.

أن تساهم بحظ إلاّ فعلت وفعل، حتّى قُوم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير. ولقد خشي إن هو انتظرهما أن تفوته العير في عودتهما إلى مكة كما فاتته في ذهابها إلى الشام. لذلك ندب المسلمين وقال لهم: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها. وخفّ بعض الناس وثقل بعض، وأراد جماعة لم يُسلموا أن ينضموا طمعاً في الغنيمة، فأبى «محمد» عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله^(٥٩٢).

أمّا أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج «محمد» لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن ربح تجارتها، وجعل ينتظر أخبارهم. وكان الجُهنّي الذي نزل عليه رسولا «محمد» بالخوراء بعض من سأل. ومع أنّ الجُهنّي لم يصدّقه الخبر فقد بلغه من أمر «محمد» والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامى إلى «محمد» من خبره، فخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش في حراسة العير إلاّ ثلاثون أو أربعون رجلاً. عند ذلك استأجر ضَمَضَم بن عمرو الغفاري فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرهم أن «محمدًا» قد عرض لها في أصحابه. ووصل ضَمَضَم من مكة إلى بطن الوادي فقطع أذني بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف هو عليه، وقد شقّ قميصه من قُبَل ومن دُبُر وجعل يصيح: يا معشر قريش! اللّطيمة اللّطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها «محمد» في أصحابه لا أرى أن تدركوها. العوّث العوّث! (واللّطيمة: المال والتجارة)^(٥٩٣). وما لبث أبوجهل أن سمعه حتّى صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم. وكان أبوجهل على ما بلغ السبعين، رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر^(٥٩٤). ولم تكن قريش بحاجة إلى من يستنفرها، أن كان لكلّ منها في هذه العير نصيب.

على أنّ طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها، حتّى اضطرتهم إلى الهجرة إلى الحبشة، ثمّ الهجرة إلى المدينة، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقيود رجاء ألاّ يصيب العير مكروه. وهؤلاء كانوا يذكرون أنّ قريشاً وكنانة بينهما ثار في دماء تبادل الفريقان إراقتها. فإذا هي خفّت إلى لقاء «محمد» لمنع عيرها منه خافت بني بكر أن تهاجها من خلفها. وكادت هذه الحجّة ترجح وتؤيد رأي القائلين بالقيود لولا أن جاء مالك بن جُعشم المدلجيّ وكان من أشراف بني كنانة فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم

(٥٩٢) المغازي للواقدي: ٢٧/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٠٧/١ ومجمع البيان: ٤٣١/٤، وبحار الأنوار: ٢١٥/١٩.

(٥٩٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٠٧/١ و٦٠٩، والطبقات الكبرى: ١٣/٢، والمغازي للواقدي: ٢٨/١، ومجمع البيان: ٤٣١/٤، وبحار الأنوار:

٢١٥/١٩ — ٢١٦.

(٥٩٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٨٥/٢، والمغازي للواقدي: ٣١/١.

بشيء^(٥٩٥) تكرهونه. إذ ذاك رجحت كفة أبي جهل وعامر الحضرمي والدعاة إلى الخروج لدفع «محمد» والذين معه؛ ولم يبق لكلّ قادر على القتال عذر في التخلف أو يرسل مكانه رجلاً. ولم يتخلف من أشراف قريش إلاّ أبا لهب الذي بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، أن كان مديناً له في أربعة آلاف درهم وأفلس بها. وكان أمية بن خلف قد أجمع على القعود. وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً. فأتاه بالمسجد عُقبة بن أبي مُعيط وأبوجهل، ومع عقبة محمرة فيها بخور ومع أبي جهل مكحلة ومِرود، فوضع عقبة المحمرة بين يديه وقال: يا أبا عليّ استجمر فإنما أنت من النساء، وقال أبوجهل: اكتحل أبا عليّ فإنما أنت امرأة. فقال أمية: ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي؛ وخرج معهم، فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال^(٥٩٦).

أمّا النبيّ (عليه السلام) فقد خرج في أصحابه من المدينة لثمان ليال^(٥٩٧) خلون من شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرو بن أمّ مكتوم فيها على الصلاة بالناس، وردّ أبا لُبابة من الرّوحاء واستعمله على المدينة. وكانت أمام المسلمين في مسيرتهم رايتان سوداوان، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها، كلّ اثنين منهم وكلّ ثلاثة وكلّ أربعة يعتقبون بعيراً. وكان حظ «محمد» في هذا كحظ سائر أصحابه. فكان هو وعليّ بن أبي طالب ومرثد ابن مرثد الغنويّ يعتقبون بعيراً^(٥٩٨). وكان أبوبكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً. وكانت عدّة من خرج مع «محمد» إلى هذه الغزوة خمسة وثلاثمئة رجل، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقيون من الخزرج. وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبوسفیان منهم، وهم يحاولون حيثما مروا أن يقفوا على أخباره. فلمّا كانوا بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً. وانطلقوا حتّى أتوا وادياً يقال له ذفران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأنّ قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيهم^(٥٩٩). هنالك تغيّر وجه الأمر. لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبي سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلاً معه، لا يملكون مقاومة «محمد» وأصحابه؛ بل هذه مكة خرجت كلّها وعلى رأسها أشرافها

(٥٩٥) السيرة لابن هشام: ٦١٢/١، السيرة الحلبية: ١٤٦/٢ تذكران سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وليس مالك بن جعشم المدلجي، بينما

يذكر الواقدي في مغازيه: ٣٨/١ سراقه بن جعشم المدلجي.

(٥٩٦) المغازي للواقدي: ٣٦/٢ — ٣٩، تاريخ الطبري: ٢٤/٢ — ٢٥.

(٥٩٧) ذكر الواقدي في مغازيه: ٢٣/١ — ٢٥ أنّ خروج النبيّ كان لاثني عشر خلون من شهر رمضان، وفي الطبقات: ١٢/٢، والإمام فتح

الدين الشافعي: ٢٨٦/١، والمقرئ في إمتاع الأسماع: ٨١/١.

(٥٩٨) بحار الأنوار: ٣٢٩/١٩، الملفت للنظر هنا: أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) والإمام عليّ (عليه السلام) لم يفترقا، فنجدهما قد اشتركا في بعير

واحد، كما هو شأن المواخاة وغيرها، ولم يغلب على فعل الرسول (صلى الله عليه وآله) في هذا الاختيار العفوية وعدم القصد.

(٥٩٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٦١٢/١ — ٦١٤، وبحار الأنوار: ٣٢٩/١٩.

للدفاع عن تجارتها^(٦٠٠). فهب^(٦٠١) المسلمون أدركوا أباسفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبله وما عليها، فلن تلبث قريش أن تدرّكهم يحفزها حرصها على مالها والدفاع عنه وتوازرها كثرة عديدها وعددها، وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها. ولكن إذا عاد «محمد» من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه، واضطرّ إلى موقف المصانعة واضطرّ أصحابه إلى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة. وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلق كلمة الحق وأن ينصر الله دينه.

استشار الناس وأخبرهم عما بلغه من أمر قريش؛ فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما^(٦٠٢)، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: (... فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)^(٦٠٣)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. وسكت الناس؛ فقال الرسول: أشيروا علي أيها الناس. وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوهم عما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم. فلما أحسّ الأنصار بأنه يريدهم، وكان سعد بن معاذ صاحب رأيهم، التفت إلى «محمد» وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموathيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب،

(٦٠٠) تكشف لنا معركة بدر عمق الصراع، وخلفيته حيث لا يمكن حصره بمسألة التجارة، ولهذا لم يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعيناً، ولهذا مشى قريش إلى أبي لهب فقالوا: إنك سيد من سادات قريش، وإنك إن تخلفت عن النفي يعتبر بك غيرك من قومك، فخرج أو أبعث أحداً، فقال: واللوات والغزى لا أخرج ولا أبعث أحداً، فجاءه أبوجهل فقال: قم أبا عتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك. الواقدي: ٢٤/١، فيما يذكر المؤلف بعد سطور أن اصرار قريش على الحرب كان بعد نجاة بحارهم.

(٦٠١) هب: احسب بمعنى احتمل، لسان العرب: ٨٠٤/١.

(٦٠٢) كان رأي أبي بكر الذي أدلى به لرسول الله (صلى الله عليه وآله) حين سأل (صلى الله عليه وآله) المسلمين حول قدوم المشركين من مكة وعزمه لغزوة بدر (الغير أحب اليكم أم النفي؟).

قال يا رسول الله: أيتها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، ولا دلت منذ عزت، ولم نخرج على هيئة الحرب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إجلس، فجلس.

أما رأي عمر: فقال مثل مقالة أبي بكر فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): إجلس. جاء ذلك في دلائل النبوة: ٤٧/٣، وابن كثير: ٢٦٣/٣، عن أنس بن مالك. والسيرة لدحلان: ١٩٣/١، وفي بحار الأنوار: ٢٤٧ — ٢٤٨ عن تفسير القمي: ٢٨٥/١.

(٦٠٣) المائدة(٥): ٢٤. وهي قد نزلت كلها بمعنى في حجة الوداع في آخر العاشرة للهجرة، فكيف قالها المقداد اليوم؟

وعلق العلامة الطباطبائي على الموضع فقال: في بعض الأخبار ما يُشعر بأن هذه الآيات نزلت قبل غزوة بدر في أوائل الهجرة على ما ستحيء الإشارة إليها في البحث الروائي التالي. الميزان: ٢٨٦/٥ ولكنه في البحث الروائي التالي لم يعد على الموضوع بشيء.

وقال القمي بعد الآية ٢١: إن ذلك نزل بعد قوله: (إنا لن نصبر على طعام واحد...) فنصف الآية في سورة البقرة ونصفها في سورة المائدة — تفسير القمي في المقدمة ١٢ و ١٦٤.

صُدِّقَ في اللقاء. لعلَّ الله يريك منا ما تقرَّ به عينك . فسر بنا على بركة الله. ولم يكد سعد يتم كلامه حتَّى أشرق وجه «محمَّد» بالمسرة وبدا عليه كلَّ النشاط وقال: سيروا وأبشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين؛ والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم^(٦٠٤). وارتحلوا جميعاً، حتَّى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق «محمَّد» على بعيره، حتَّى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن «محمَّد» وأصحابه، ومنه عرف أنَّ غير قريش منه قريب.

إذ ذاك عاد إلى قومه فبعث عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه. وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف «محمَّد» منهما أنَّ قريشاً وراء الكتيب الذي بالعدوة القصوى. ولما أن أجابا: إنَّهما لا يعرفان عدَّة قريش، سألهما «محمَّد»: كم ينحرون كلَّ يوم؟ وأجابا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فاستنبط النبيَّ من ذلك أنَّهم بين التسعمائة والألف، وعرف من الغلامين كذلك أنَّ أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعهُ؛ فقال لقومه: (هذه مكَّة قد أَلقت إليكم أفلاذ كبدها)^(٦٠٥). إذا فلا بدَّ له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم في العدد ثلاثة أضعاف أن يشحذوا عزائمهم وأنَّ يوطِّنوا على الشدَّة أفئدتهم ونفوسهم، وأنَّ ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلَّا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه. وكما عاد عليٌّ ومن معه بالغلामين وبخبر قريش معهما، فقد ذهب اثنان من المسلمين حتَّى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تلٍّ قريب من الماء وأخذوا وعاءً لهما يستقيان فيه. وإنَّهما لعلی الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبها بدين عليها والثانية تحييها: إنَّما تأتِي العير غداً أو بعد غد، فأعمل لهم ثمَّ أفضيك الذي لك. وعاد الرجلان فأخبرا «محمَّدًا» بما سمعا^(٦٠٦). فأما أبوسفیان فسبق العير يتنطَّسُ الأخبار حذر أن يكون «محمَّد» قد سبقه إلى الطريق. فلمَّا ورد الماء وجد عليه مجديَّ بن عمرو فسأله: هل رأى أحداً؟ وأجاب مجديُّ بأنَّه لم ير إلَّا راكبين أناخا إلى هذا التل، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين. فأتى أبوسفیان مناخهما فوجد في روث بعيرهما نوىَّ عرفه من علائف يشرب، فأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مساحلاً البحر مسرعاً في مسيره، حتَّى بُعد ما بينه وبين «محمَّد» ونجا^(٦٠٧).

(٦٠٤) المغازي للواقدي: ٤٨/١ — ٤٩، والطبقات الكبرى: ١٤/٢، والسيرة النبويَّة لابن هشام: ٦١٥/١، تفسير التبيان: ٨١/٥ — ٨٢، وبحار الأنوار: ٢١٧/١٩ — ٢١٨.

(٦٠٥) المغازي للواقدي: ٥٠/١ — ٥٣، والطبقات الكبرى: ١٥/٢، والسيرة النبويَّة لابن هشام: ٦١٦/١ — ٦١٧، تفسير القمِّي: ٢٦٠/١، ومجمع البيان: ٤٣٣/٤، وبحار الأنوار: ٢١٨/١٩ — ٢١٩.

(٦٠٦) المغازي للواقدي: ٤٠/١، والسيرة النبويَّة لابن هشام: ٦١٧/١، وتفسير القمِّي: ٢٥٧/١ — ٢٥٨، وبحار الأنوار: ٢٤٦/١٩.

(٦٠٧) راجع المغازي للواقدي: ٤١/١، والسيرة النبويَّة لابن هشام: ٦١٨/١، وتفسير القمِّي: ٢٥٨/١، وبحار الأنوار: ٢٤٦/١٩ — ٢٤٧.

وأصبح الغد والمسلمون في انتظار مروره بهم، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مقاتلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم، فيذوي^(٦٠٨) في نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل في الغنيمة ، ويجادل بعضهم النبي كي يعودوا إلى المدينة ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم . وفي ذلك نزل^(٦٠٩) قوله تعالى في سورة الأنفال: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)^(٦١٠).

وقريش ، هي أيضاً، ما حاجتها إلى القتال وقد نجت تجارتهم؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخفي حنين؟ كذلك فكر أبو سفيان ، وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم: إنكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا . ورأى من قريش رأيه عدد غير قليل. لكن أباجهل ما لبث أن سمع هذا الكلام حتى صاح: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم عليه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابونا أبداً بعدها. ذلك أن بدرأ كانت موسماً من مواسم العرب، فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب، فيما رأى أبوجهل، بخوفهم من «محمد» وأصحابه. ثما يزيد «محمدًا» شوكة ويزيد دعوته انتشاراً وقوة، وبخاصة بعد الذي كان من سرية عبدالله بن جحش وقتل الحضرمي وأخذ الأسرى والغنائم من قريش.

وتردد القوم بين اتباع أبي جهل مخافة أن يتهموا بالجن، وبين الرجوع بعد أن نجت غيرهم، فلم يرجع إلا بنو زهرة الذين اتبعوا مشورة الأخنس بن شريق وكان فيهم مطاعاً. واتبعت سائر قريش أباجهل حتى يزلوا متزلاً يتهيئون فيه للحرب، ثم يتشاورون بعدها. ونزلوا بالعدوة القصوى خلف كتيب من الرمل يحتمون به^(٦١١). أما المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة، فقد أجمعوا أن يصمدوا للعدو إذا أجمع محاربتهم. لذلك بادروا إلى ماء بدر، ويسر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتهم إليها. فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل «محمد» به. وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليماً بالمكان. فلما رأى حيث نزل النبي قال: يا رسول الله، أرايت هذا المتزل أمترلاً أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال «محمد»: بل هو الرأي

(٦٠٨) ذوى يذوي ذيا، وهو أن لا يصيب النبات والحشيش ريه، أو يضربه الحر فيذبل ويضعف — كتاب العين: ٢٠٦/٨ .

(٦٠٩) تفسير الطبري: ١٨٤/٦ — ١٨٧، وزاد المسير: ٣٢٢/٣، وجمع البيان: ٤٣١/٤، وبحار الأنوار: ٢١٤/١٩ .

(٦١٠) الأنفال (٨): ٧ .

(٦١١) المغازي للواقدي: ٤٣/١ — ٤٥، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦١٨/١ — ٦٢٠، وبحار الأنوار: ٢١٩/١٩ — ٢٢٠ .

والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله ، فإنّ هذا ليس بمثل: فأنهض بالناس حتّى نأتي أدنى ماء من القوم فنزل ثمّ نُعَوِّرُ^(٦١٢) ما وراءه من القلب^(٦١٣)، ثمّ نبني عليه حوضاً فتملأه ماء، ثمّ نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. ولم يلبث «محمّد» أن رأى صواب ما أشار الحُباب به حتّى قام ومن معه واتّبع رأي صاحبه^(٦١٤)، معلناً إلى قومه أنّه بشرٌ مثلهم وأنّ الرأي شورى بينهم، وأنّه لا يقطع برأي دوّهم، وأنّه بحاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم.

ولما بنوا الحوض أشار سعد بن مُعَاذ، قائلاً: «يا نبيّ الله، نبني لك عريشاً^(٦١٥) تكون فيه ونُعدّ عندك ركائبك ثمّ نلقى عدوّنا؛ فإنّ أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشدّ لك حبّاً منهم. ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك». وأثنى «محمّد» على سعد ودعا له بخير^(٦١٦)، وبُني العريش للنبيّ حتّى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه لم يقع في يد عدوّه واستطاع اللحاق بأصحابه ببشر.

هنا موضع لوقفه إعجاب بصدق إيمان المسلمين وعظيم محبتهم لـ «محمّد» وإيمانهم برسالته. فهاهم أولاء يعلمون أنّ قريشاً تفوقهم في العدد وأنها ثلاثة أمثالهم، وهم مع ذلك قد اعتمروا الوقوف في وجهها وقتالها. وهاهم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم، فلم يصبح الطمع الماديّ هو الذي يحفزهم للقتال، وهم مع ذلك يقفون إلى جانب النبيّ يؤيّدونه ويعزّزونه . وهاهم أولاء تتردّد نفوسهم بين الطمع في النصر وخوف الهزيمة، وهم مع ذلك يفكّرون في حماية النبيّ وتوقيته

(٦١٢) عور عيون المياه: إذا دفنها وسلّها.

(٦١٣) القلب: الآبار، واحداً قليلاً وهي البئر. غريب الحديث: ٣٥/١ .

(٦١٤) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٢٠/١، والمغازي للواقدي: ٥٣/١ — ٥٤. ولا يخفى الفرق بينهما، فرواية المؤلف على رواية ابن إسحاق بدون استشارة من النبيّ (صلى الله عليه وآله)، بينما زاد الواقدي استشارته، وذلك لا ينسجم مع سؤال الحُباب: أنزلكم الله؟ إذ لو أنزله الله فهل هو يستشير في أمر الله؟! فالراجح ما رواه ابن إسحاق، ولعلّهم زادوا استشارته (صلى الله عليه وآله) لكي يخرجوا مقال الحُباب عن صورة الاعتراض.

(٦١٥) لم يكن معروفاً من سلوك النبيّ (صلى الله عليه وآله) ولا من سيرته في الحروب أن يميّز نفسه، فيجلس تحت ما يسمّى بالعريش، بل كان يدخل المعركة كأحد الجنود ويصيبه ما يصيبهم ومعركة أحد تشهد له بذلك، والأكثر من هذا أنّ المسلمين في الحروب حيث يشتدّ أوارها، وقد تضيق بهم المخارج كانوا يلوذون برسول الله مستجيرين به وسط المعركة.

قال ابن أبي الحديد: لا عجب من أمر العريش، من أين كان لهم، أو معهم من سعف النخل ما يبنون به عريشاً، وليس تلك الأرض — أعني أرض بدر — أرض نخل والذي كان معهم سعف النخل يجري مجرى السلاح كان يسيراً جداً... والصحيح ما خلا أحد منهم عن سلاح... فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجهاً. (شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١١٨/١٤ .

(٦١٦) المغازي للواقدي: ٤٩/١ .

أن يظفر به عدوّه ويمهّدون له سبيل الاتصال بمن ترك المدينة. فأَيّ موقف أدعى للاعجاب من هذا الموقف، وأي إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان!

ونزلت قريش منازل القتال، ثمّ بعثوا من يقصّ لهم خبر المسلمين، فجاءهم بأنهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً أو ينقصونه، ولا كمين لهم ولا مورد؛ ولكنهم مع ذلك قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله. ولما كانت صفوة قريش قد خرجوا في هذا الجيش خشي بعض ذوي الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانتها. لكنهم مع ذلك خافوا حدّة أبي جهل ورميه إياهم بالجبن والخوف. على أنّ ذلك لم يمنع عتبة بن ربيعة من أن يقف بينهم، قائلاً: (يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا «محمّداً» وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته. فارجعوا وخلّوا بين «محمّد» وسائر العرب. فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون). فلما بلغت أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظاً وبعث إلى عامر بن الحضرمي يقول له: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد مقتل أخيك». وقام عامر فصرخ: «واعمّراه». ولم يبق بعد ذلك من الحرب مفر^(٦١٧). وأعجل القتال أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوا، فعاجله حمزة بن عبدالمطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دماً، ثمّ أتبعه حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض^(٦١٨). ولا شيء أرهف لظبا^(٦١٩) السيوف من منظر الدم. ولا شيء أشدّ إثارة في الإنسان لعواطف القتال والحرب كمرأى رجل مات بيد العدو وقومه إياه وقوف ينظرون.

وما أن سقط الأسود حتّى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة. وخرج إليه فتية من أبناء المدينة. فلما عرفهم، قال لهم: ما لنا بكم من حاجة، إنّما نريد قومنا. ونادى مناديتهم: يا «محمّد» أخرج إلينا أكفأنا من قومنا. وخرج إليهم حمزة بن عبدالمطلب وعليّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث. ولم يُمهّل حمزة شيبة ولا أمهل عليّ الوليد أن قتلاهما^(٦٢٠)، ثمّ أعانا عبيدة وقد ثبت له عتبة^(٦٢١). فلما رأت قريش من ذلك ما رأت تراحف

(٦١٧) المغازي للواقدي: ٦٣/١ — ٦٥، والطبقات الكبرى: ١٦/٢، وسيرة ابن هشام: ٦٢٢/١ — ٦٢٣، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

١٢٥/١٤، وبحار الأنوار: ٢٤٩/١٩ — ٢٥٠.

(٦١٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٤/١ — ٦٢٥، والمغازي للواقدي: ٦٨/١، وتاريخ الطبري: ٣١/٢ — ٣٢، ذخائر العقبى: ١٧٥.

(٦١٩) ظبا: الظبية: حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما أشبه ذلك — لسان العرب: ٢٢/١٥.

(٦٢٠) يُذكر أنّ في هذه المعركة المهمة كان عليّ بن أبي طالب صاحب راية رسول الله (صلى الله عليه وآله). الاستيعاب لابن عبد البر بهامش

الإصابة: ٢٣/٣، وتاريخ دمشق لابن عساكر: ١٤٢/١.

(٦٢١) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٥/١، والمغازي للواقدي: ٦٩/١، مناقب آل أبي طالب: ٣١١/٢، وبحار الأنوار: ٢٩٠/١٩ و٢٩٦.

الناس والنقي الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر يوماً خلت من شهر رمضان، و «محمد» على رأس المسلمين يعدل صفوفهم. فلما (رأى كثرة قريش وقلة رجاله وضعف عدتهم إلى جانب عدة المشركين) عاد إلى العريش ومعه أبوبكر، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير ذلك اليوم، وأشد ما يكون إشفاقاً لما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر، واستقبل «محمد» القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشده ما وعده ويهتف به أن يتم له النصر. وبالغ في التوبة والدعاء والابتهال، وجعل يقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك»، اللهم فنصرك الذي وعدتني؛ اللهم فنصرك الذي وعدتني؛ اللهم إن قتلك هذه العصابة اليوم لا تعبد. وما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه؛ وجعل أبوبكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويهيب به: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك. لكن «محمد» ظل فيما هو فيه أشد ما يكون توجهاً لله، وأشد ما يكون تضرعاً وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذي لم يتوقع المسلمون فلم يتخذوا له عدته، حتى خفق خفقة من نعاس رأى خلالها نصر الله، وانتبه بعدها مستبشراً، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم: والذي نفس «محمد» بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً متحسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة^(٦٢٢).

وسرت من نفسه القوية، أمدّها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسائله، قوة ضاعفت عزمهم، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال. ويسير عليك أن تقدّر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس، متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها. فدافع الوطنية يزيدها، وهذا الجندي الذي يقف مدافعاً عن وطنه المهّد بالخطر ويحسّ بحبّ الوطن إحساساً صادقاً، تتضاعف قوّته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به، وبمقدار تخوّفه من الخطر الذي يتهدد العدو الوطن به. ولهذا تغرس الأمم في نفس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حبّ الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله. والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعاني الإنسانية السامية يزيد القوة المعنوية في النفس بما يضاعف القوة المادية فيها. والذين يذكرون ما قام به الحلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان أساسها أنّهم يدافعون عن قضية الحرية والحق، ويحاربون في ألمانيا الجندية المسلحة ويمجدون لعهد

(٦٢٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٦/١ — ٦٢٧، وبحار الأنوار: ٢٢١/١٩.

ومن الثابت أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) هو الهادي ولا يهتدي بغيره وهو يعلم بأنّ الله منجز له وعده حيث يقول: «لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً متحسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، إلا أنّ النصّ الذي يصوغه الكاتب يظهر منه كأنّ الصحابي أبابكر حين يقول: يا نبي الله ناشدتك ربك، أكثر تعقلاً وادراكاً واحاطة من النبي بمصائر الأمور وحين تشتد الحن.

سلام نور، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر أمم العالم. وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان «محمد» يدعو إليه! إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالاً يندمج به فيه، ويصبح معه قوة من قوى الكون الموجهة له سبيل الخير والنعمة والكمال. نعم، ما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب الوقوف في جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه، والذين يصدّون عن سبيله، والذين يتزلون بالإنسان إلى درك الوثنية والاشراك! إذا كانت النفس يزيد بها حب الوطن قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة، ويزيدها حب السلام للإنسانية قوة بمقدار ما في الإنسانية كلها من قوة، فما أكثر ما يزيد بها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة!! إنه ليجعلها قديرة على أن تُسير الجبال وتحرك العوالم وتقيم بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيماناً. وهذا السلطان المعنوي يزيد في قوتها المادية أضعافاً مضاعفة. فإذا لم يصل هذا السلطان المعنوي إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة، لم تبلغ القوة المادية كل ما تطمح إلى بلوغه؛ وإن هي زادت بفعل هذا الإيمان الذي ازداد قوة بتحريض «محمد» أصحابه فعوضهم بذلك عن قلة عددهم وعدتهم. وفي حال النبي وأصحابه هذه، نزلت الآية: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (٦٢٣).

ازداد المسلمون قوة بتحريض «محمد» إياهم ووقوفه بينهم ودفعهم لمقاتلة العدو والصيحة بهم أن اللجنة لمن أحسن البلاء منهم ومن غمس يده في العدو حاسراً. ووجه المسلمون أكبر همهم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم، جزاءً وفاقاً لما عذبوهم بمكة، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله. رأى بلال أمية بن خلف وابنه ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله، وكان أمية هو الذي عذب بلالاً، إذ كان يخرجهم إلى رمضاء مكة فيضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتنه عن الإسلام، فيقول بلال: أحدٌ أحدٌ. رأى بلال أمية فصاح به: أمية رأس الكفر، لا نجوت إن نجا! وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيراً، فصرخ بلال بأعلى صوته في الناس: يا أنصار الله، رأس

الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا. واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قتل أمية^(٦٢٤). وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أباجهل بن هشام^(٦٢٥). وخاض حمزة وعليّ وأبطال المسلمين وطيّس المعركة وقد نسي كلّ منهم نفسه ونسى قلة أصحابه وكثرة عدوّه، فثار النقع وامتلاً الجو بالغبار وجعلت هام قريش تطير من أجسادها. والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون مهلّلين: أحد^(٦٢٦)، وقد انهارت أمامهم حجب الزمان والمكان وأمدّهم الله بالملائكة يُبشروهم ويزيدونهم تشبيهاً وإيماناً، حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوي به على عنق عدوّه إنّما تحرّك قوة الله يده^(٦٢٧). ووقف «محمّد» وسط هذه الممعنة، يتمشى خلالها ملك الموت يَقُطُّ رقبة الكفر، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال: شأهت الوجوه ! ثمّ نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شدّوا^(٦٢٨)، وشدّ المسلمون، ومايزالون أقلّ من قريش عدداً. لكنّ كلّ واحد منهم امتلأت بنفحة من أمر الله نفسه، فلم يكن هو الذي يقتل العدو ولا كان هو الذي يأسر من يأسر لولا هذه النفحة التي ضاعفت قوته المعنوية، بما ضاعف قوته الماديّة. وفي ذلك نزل^(٦٢٩) قوله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)^(٦٣٠)، وقوله تعالى^(٦٣١): (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)^(٦٣٢). ولما آنس الرسول أن الله أنجزه وعده وأتمّ على المسلمين النصر عاد إلى العريش. وفرت قريش فطاردهم المسلمون يأسرون منهم من لم يُقتل ولم يساعفه حسن فراره بالنجاة^(٦٣٣).

هذه غزوة بدر التي استقرّ بها الأمر للمسلمين من بعد في بلاد العرب جميعاً، والتي كانت مقدمة وحدة شبه الجزيرة في ظلال الإسلام، ومقدمة الامبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، والتي أقّرت في العالم حضارة ما تزال ولن تزال ذات أثر عميق في حياته. ولقد تعجب إذ تعلم أنّ «محمّداً»، على ما كان من تحريضه أصحابه و ما كان يرجو من استئصال عدوّ الله وعدوّه، قد

(٦٢٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣١/١ — ٦٣٢، والمغازي للواقدي: ٨٣/١.

(٦٢٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣٤/١ — ٦٣٥، والمغازي للواقدي: ٨٧/١.

(٦٢٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣٤/١.

(٦٢٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣٣/١، والمغازي للواقدي: ٧٠/١ — ٧١.

(٦٢٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٨/١، والمغازي للواقدي: ٨١/١، وإعلام الوری: ١٦٩/١.

(٦٢٩) تفسير الطبري: ١٩٦/٦، وتفسير زاد المسیر: ٣٢٩/٣، وجمع البيان: ٤٣٩/٩.

(٦٣٠) الأنفال (٨): ١٢.

(٦٣١) تفسير الطبري: ٢٠٢/٦.

(٦٣٢) الأنفال (٨): ١٧.

(٦٣٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٨/١، والمغازي للواقدي: ٧٩/١.

طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بني هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش، مع أنهم اشتركوا في قتال المسلمين، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله. ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يحايي أهله أو أحداً ممن يمتون له بصلة القرى، فنفس «محمد» أسمى من أن تتأثر بمثل هذا، وإنما ذكر لبني هاشم منعهم إياه مدى ثلاثة عشر عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة^(٦٣٤) وذكر لغير بني هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التي اضطرتهم بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة. فهذا المعروف الذي تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره «محمد» حسنة يُجزى من قدمها بمثلها بل يُجزى بعشر أمثالها، ولذلك كان شفيحاً هؤلاء وأولئك عند المسلمين ساعة القتال، وإن أبي بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البختري أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة، فقد أبي وقتل^(٦٣٥).

ولّى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم خُشعاً من الذل أبصارهم، ما يكاد أحدهم يلتقي نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلاً من سوء ما حلّ بهم جميعاً. أما المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار، ثمّ جمعوا الذين قتلوا من قريش فحفروا لهم قليلاً فدفنوههم فيه . وقضى «محمد» وأصحابه تلك الليلة في الميدان في شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى. وإذا جنّ الليل جعل «محمد» يفكر في نصر الله المسلمين على قلة عددهم ، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوة الإيمان عضد تعزز به كثرتهم. جعل يفكر في هذا حتى سمعه أصحابه في جوف الليل وهو يقول: «يا أهل القلب . يا عتبة بن ربيعة ويا شيبه بن ربيعة. ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام؛ واستمر يذكر من في القلب واحداً بعد واحداً! يا أهل القلب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً! فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوماً جفّوا؟ قال (عليه السلام): «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»^(٦٣٦). ونظر رسول الله في وجه أبي حذيفة بن عتبة فألفاه كثيراً قد تغيّر لونه؛ فقال له: لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أهلك شيء؟ قال أبو حذيفة: «لا والله يا رسول الله. ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام. فلما رأيت

(٦٣٤) مرّت المناقشة في ذلك في محلها، فراجع.

(٦٣٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٨/١ — ٦٢٩، والمغازي للواقدي: ٨٠/١ — ٨١، وتاريخ الطبري: ٣٤/٢، وبحار الأنوار: ٣٠٣/١٩.

الكافي للكليني: ٢٠٣/٨ .

(٦٣٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣٨/١ — ٦٣٩، والمغازي للواقدي: ١١٢/١، وتاريخ الطبري: ٣٧/٢، وبحار الأنوار: ٣٤٦/١٩ .

ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزني أمره». فطمأنه رسول الله ودعا له بخير^(٦٣٧).

ولما أصبح الصبح وآن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة، بدءوا يتساءلون في الغنيمة لمن تكون؟ قال الذين جمعوها: نحن جمعناها فهي لنا. وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته: نحن والله أحقّ بها، فلولانا لما أصبتموها. وقال الذين كانوا يجرسون «محمّداً» مخافة أن يرتد إليه العدو: ما أنتم ولا هم أحقّ بها منّا، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنّا خفنا على رسول الله كره العدو فقمنّا دونه. فأمر «محمّد» الناس أن يردّوا كلّ ما في أيديهم من الغنائم، وأمر بها أن تُحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضي الله فيها بقضائه.

وبعث «محمّد» إلى المدينة عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر. وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله بن كعب، وسار القوم، حتى إذا تخطّوا مضيق الصفراء نزل «محمّد» على كتيب فقسم هناك النفل الذي أفاء الله على المسلمين، بين المسلمين على سواء^(٦٣٨). يقول بعض المؤرخين^(٦٣٩): إنّه قسمه بينهم بعد إذ أخذ منه الخمس، لقوله تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٦٤٠). ويذهب الأكثرون^(٦٤١) من كتاب السيرة، والمتقدمون منهم خاصة، إلى أنّ هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قسم فيئها. وأنّ «محمّداً» جعل القسمة بين المسلمين على سواء، وأنّه جعل للفارس مثل الفارس، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر، وجعل حصة لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدرًا ما كان قائماً فيها بعمل للمسلمين، ومن حرّضهم حين الخروج إلى بدر وتخلف هو لعذر قبله الرسول. وكذلك قسم الفياء بالقسط. فليس المقاتل وحده هو الذي اشترك في الحرب والنصر، بل اشترك في الحرب والنصر كلّ من كان لعمله في الفوز حظّاً أيّاً كان هذا العمل؛ وسواء أكان في ميدان القتال أم كان بعيداً عنه^(٦٤٢).

(٦٣٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٨/١ — ٦٣٠، والمغازي للواقدي: ١١٢/١، وتاريخ الطبري: ٣٧/٢.

(٦٣٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٤١/١ — ٦٤٢، وتاريخ الطبري: ٣٧/٢ — ٣٨.

(٦٣٩) السيرة النبوية لابن كثير: ٤٦٧/٢، والسيرة الحلبية: ١٨٤/٢.

(٦٤٠) الأنفال (٨): ٤١.

(٦٤١) المغازي للواقدي: ٩٩/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ١٠٦ / ١٠٦ — ١٠٦.

(٦٤٢) السيرة الحلبية: ١٨/٢، وإمتاع الأسماع: ١١٢/١.

وفيما المسلمون في طريقهم إلى مكة قُتل من الأسرى رجلاً ؛ أحدهما النضر بن الحارث والآخر عقبة بن أبي معيط. ولم يكن «محمد» ولا كان أصحابه إلى هاته اللحظة قد وضعوا للأسرى نظاماً يكون على مقتضاه قتلهم أو افتدائهم أو استرقاقهم. لكنّ النضر وعقبة كانا على المسلمين أيام مقامهم بمكة شراً مستطيراً، وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كلّ ما يستطيعان. قتل النضر حين عرض الأسرى على النبيّ (عليه السلام) عند بلوغهم الأثيل. فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير، وقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي، لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت. قال الذي إلى جنبه: ما هذا والله منك إلاّ رعب . وقال النضر لمصعب بن عمير وكان أقرب من هناك به رحماً: كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل. فكان جواب مصعب: إنّك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيّه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه . قال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حيّ. قال مصعب: والله إني لا أراك صادقاً، ثمّ إنّي لست مثلك فقد قطع الإسلام العهود. وكان النضر أسير المقداد وكان يطمع أن ينال في افتدائه أهله إيّاه مالاً كثيراً. فلما رأى الحديث حول قتله صاح: النضر أسير . قال النبيّ (عليه السلام) : إضرب عنقه، واللهم اغن المقداد من فضلك. فقتله عليّ بن أبي طالب ضرباً بالسيف.

ولما كانوا من طريقهم بعرق الطّبية أمر النبيّ بقتل عقبة بن أبي معيط فصاح عقبة: فمن للصبيّة يا «محمد»؟ . قال: النار. وقتله عليّ بن أبي طالب أو قتله عاصم بن ثابت، على اختلاف في الرواية^(٦٤٣).

وقبل أن يصل النبيّ والمسلمون المدينة بيوم، وصلها رسوله زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة، ودخل كلّ واحد من ناحية منها؛ فجعل عبدالله ينادي على راحلته يبشّر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه ويذكر لهم من قتل المشركين. وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعه وهو ممّط القصوى ناقة النبيّ. وسرّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم في داره وانطلقوا يهلّلون لهذا النصر العظيم. أمّا الذين بقوا على الشرك، وأمّا اليهود فقد كُتبتوا لهذا النبأ وحاولوا أن يقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا الذين أقاموا في المدينة من المسلمين بعدم صحته، فصاحوا: إنّ محمّداً قتل وأصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعاً، ولو أنّه انتصر لبقيت عنده، وإنّما يقول زيد ما يقول هذياناً من الفرع والرعب. لكنّ المسلمين مالبثوا أن تثبتوا من الرسولين، وأن اطمأنوا إلى صحة الخبر حتّى زاد بهم السرور لولا حادث طراً خفّف من سرورهم. ذلك الحادث هو موت رُقبة

(٦٤٣) سيرة ابن هشام: ٦٤٤/١، والمغازي للواقدي: ١ / ١٠٦ — ١٠٧، وتاريخ الطبري: ٣٨/٢، وإمتاع الأسماع: ١٠٩/١، ١١٤، وتفسير

بنت النبي، وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة وترك معها زوجها عثمان بن عفان يمرّضها. ولما أيقن المشركون والمنافقون بنصر «محمد» أسقط في أيديهم ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلة، حتّى قال أحد زعماء اليهود: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها، بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن^(٦٤٤).

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم. فلما جيء بهم ورجعت سودة بنت زمعة زوج النبي من مناة ابني عفراء وكانت بها، رأت أبا يزيد سهيل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يده إلى عنقه بجبل، فلم تملك نفسها أن توجه إليه الكلام قائلة: أي أبا يزيد! أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم. ألا متّم كراماً! فناداها «محمد» من البيت: يا سودة! أعلى الله عزّ وجلّ وعلى رسوله تحرّضين! فأجابت: يا رسول الله! والله الذي بعثك بالحقّ ما ملكت نفسي حين رأيت ما رأيت أن قلت ما قلت^(٦٤٥). وفرّق «محمد» الأسارى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيراً. وطلق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم. أفقتلهم أم يأخذ منهم الفداء؟! إنّ منهم لأشدّاء في الحرب أقوياء في النضال، ومن امتلأت بالحقّ والضغينة نفوسهم بعد الذي كان من هزيمتهم ببدر وما لحقهم من عار الأسر، فإن هو قبل الفداء كانوا عليه حرباً وألباً، وإن هو قتلهم أثار في نفوس أهليهم من قريش ما ربّما هدأ لو أنّهم افتدوهم.

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخيار. وكان المسلمون قد أنسوا من الأسرى طمعاً في الحياة واستعداداً لفدية عظيمة. فقال هؤلاء: لو بعثنا إلى أبي بكر فإنّه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعطفاً. ولا نعلم أحداً آثر عند «محمد» منه. وبعثوا إلى أبي بكر فقالوا له: يا أبا بكر إنّ فينا الآباء والإخوان والعمومة وبني العم، وأبعدنا قريب. كلّ صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا. فوعدهم خيراً. وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبي بكر، فنظر إليهم شزراً. وذهب وزيراً «محمد» إليه فجعل أبو بكر يُلينه ويفثوه^(٦٤٦) ويقول: يا رسول الله، بأيّ أنت وأمي، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبني العم والإخوان، وأبعدهم منك قريب. فامنن عليهم منّ الله عليك أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعلّ الله أن يقبل بقلوبهم. وسكت «محمد» فلم يجبه، فقام فتنحّى. وجاء عمر فجلس مجلسه وقال: يا رسول الله، هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك

(٦٤٤) سيرة ابن هشام: ٦٤٢/١، والمغازي للواقدي: ١٢١/١، وتاريخ الطبري: ٣٨/٢، والسيرة الحلبية: ١٨٢/٢ — ١٨٣.

(٦٤٥) سيرة ابن هشام: ١ / ٦٤٥، وتاريخ الطبري: ٣٩/٢.

(٦٤٦) فتأت عنك فلاناً: كسرتة عنك (بقول وغيره) — كتاب العين: ٢٤٦/٨.

وأخرجوك، إضرب رقابهم: هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة يُوطئ الله بهم الإسلام ويُذل بهم أهل الشرك، ولم يجب «محمد». فعاد أبوبكر إلى مقعده الأول وجعل يتلطف ويستعطف ويذكر القرابة والرحم ويرجو هؤلاء الأسرى الهدى إن هم أُبقيَ على حياتهم. وعاد عمر مثال العدل الصارم لا تأخذه فيه هوادة ولا رحمة. ولما فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما قام «محمد» فدخل قبتة فمكث فيها ساعة، ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم، يقف بعضهم في صف أبي بكر، ويقف آخرون في صف عمر. فشاورهم فيما يصنع، وضرب لهم في أبي بكر وعمر مثلاً. فأما أبو بكر فمثله كمثل ميكال يتزل برضاء الله وعفوه عن عبادته، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل. قدّمه قومه إلى النار وطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: (أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (٦٤٧)، وأن قال: (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٦٤٨)، ومثله في الأنبياء كمثل عيسى، إذ يقول: (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٦٤٩). ومثل عمر في الملائكة كمثل جبرئيل يتزل بالسخط من الله والنعمة على أعداء الله، ومثله في الأنبياء كمثل نوح، إذ يقول: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا) (٦٥٠)، وكمثل موسى، إذ يقول: (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (٦٥١). ثم قال: وإن بكم عيلة فلا يفوتكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق. وتشاور القوم فيما بينهم. وكان من بين الأسرى شاعر، هو أبو عزة عمرو بن عبدالله بن عُمير الجُمحيّ، رأى خلاف القوم واستعجل النجاة، فقال: لي خمس بنات ليس هنّ شيء فتصدّق بي عليهنّ يا «محمد»، وإني لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً. فأمنه النبي وأرسله من غير فداء، وكان هو وحده الأسير الذي ظفر بهذا الأمان. على أنّه ما لبث أن نكث بعهده وأن عاد فقاتل بعد عام في أحد فأُسر وقُتل. وظلّ المسلمون في تشاورهم زمناً انتهوا بعده إلى قبول الفداء (٦٥٢). وفي قبولهم نزلت (٦٥٣) هذه الآية: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٦٥٤).

(٦٤٧) الأنبياء (٢١): ٦٧ .

(٦٤٨) إبراهيم (١٤): ٣٦ .

(٦٤٩) المائدة (٥): ١١٨ .

(٦٥٠) نوح (٧١): ٢٦ .

(٦٥١) يونس (١٠): ٨٨ .

(٦٥٢) المغازي للواقدي : ١ / ١١١ .

(٦٥٣) تفسير الطبري: ٢٨٦/٦، وتفسير مجمع البيان: ١٧٨/١ — ١٧٩، وتفسير زاد المسير: ٣٧٩/٣ .

(٦٥٤) الأنفال (٨): ٦٧ .

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النضر وعقبة، ويتساءلون: أليس في ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد للدم، ظمأ لولاه لما قُتل الرجال، ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالشيء الذي غنموا؟ وذلك تساؤل الذي يريد أن يثير في النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع، ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزو وسيلة للنيل من الدين ومن صاحب الدين. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنا مقتل النضر وعقبة بما يجري اليوم وما سيجري دائماً ما دامت الحضارة الغربية، التي تتشعق بوشاح المسيحية، متحكمة في الأرض. فهل تراه يوازي شيئاً إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات في بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها وبالرغم منهم؟ وهل تراه يوازي شيئاً إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى؟ ثم هل هو يوازي شيئاً لما حدث أثناء الثورة الفرنسية الكبرى، وأثناء الثورات المختلفة التي وقعت وتقع في أمم أوروبا المختلفة؟

وليس ريب في أن الأمر بين «محمد» وأصحابه كان ثورة قويّة من «محمد» بعثه الله ليقوم بها فيوجه الوثنية والمشركين من عبّادها، ثورة قامت أوّل أمرها بمكّة واحتمل «محمد» وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عاماً سوياً. ثمّ انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جمعهم وقوّاتهم بها، وما تزال مبادئ الثورة قائمة على أشدها في نفوسهم وفي نفوس قريش جميعاً. وانتقال المسلمين إلى المدينة وموادعتهم اليهود من أهلها وما قاموا به من مناوشات سبقت بدراناً، وغزوة بدر هذه، ذلك كلّ كان سياسة الثورة ولم يكن مبادئها، كان السياسة التي قرّر القائم بهذه الثورة وأصحابه أن يتبعوا لإقرار أسمى المبادئ التي جاء الرسول بها. وسياسة الثورة شيء ومبادئها شيء آخر، والخطة التي تتبع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من هذه الخطة. وإذا كان الإسلام يقصد إلى إعلان الأخوة في الأرض كمبدأ، فيجب أن يسلك لذلك سبيله وإن اقتضى ذلك من العنف والشدّة ما لا مفرّ منه.

وهذا الذي صنع المسلمون بأسرى بدر آية في الرحمة وفي الحسنى إلى جانب ما يقع في الثورات التي يتغنى أهلها بمعاني العدل والرحمة، وهو لا شيء إلى جانب المجازر الكثيرة التي قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارتلمي. هذه المجزرة التي تعتبر سبّة في تاريخ المسيحية لا شيء من مثلها قطّ في تاريخ الإسلام. هذه المجزرة التي دُبرّت بلبيل وقام فيها الكاثوليك بذبح البروتستنتيين في باريس وفي فرنسا غدرًا وغيلة في أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة. فاذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قساة على المسلمين مدى الأعوام الثلاثة

عشر التي احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة، فقد كان في ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائدة العاجلة مانزلت معه الآية: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٦٥٥).

بينما كان المسلمون في فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغام كان الحيسمان بن عبدالله الخزاعي يحث الطريق إلى مكة، حتى كان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها في كبرائها وأشرفها وسادتها. وقد ذهلت مكة أول الأمر فلم تصدق الخبر. وكيف لا تذهل وهي تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة والأشرف منها! لكن الحيسمان لم يكن يهدي، وكان يؤكد ما يقول وهو أشد من قريش جزعاً لما أصابهم. فلما استوثقوا من روايته خروا صعقين، حتى لقد حم أبو لب ومات بعد سبعة أيام. وتشاورت قريش ما تصنع، فأجمعت على ألا تنوح على قتلاها مخافة أن يبلغ «محمد» وأصحابه فيشمتوا بهم، وألا تبعث في أسراها حتى لا يارب عليها «محمد» وأصحابه ويغلوا في الفداء (٦٥٦). وانقضى زمن وقريش صابرة على محنتها حتى سنحت فرصة افتدائها أسراها. إذ ذاك قدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو. وكأما عز على عمر بن الخطاب أن يفتدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه، فقال: يا رسول الله، دعني أنزع ثيبي سهيل بن عمرو ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً. فكان جواب النبي هذا الجواب البالغ غاية السمو: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً (٦٥٧).

وبعثت زينب ابنة النبي تفتدي زوجها العاصي بن الربيع، وكان فيما بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاصي حين بنى عليها؛ فلما رآها النبي رق لها رقة شديدة، فقال (صلى الله عليه وآله): إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا (٦٥٨). ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبي العاصي على أن يفارق زينب وقد فرق الإسلام بينه وبينها. وبعث «محمد» زيد بن حارثة وصاحباً معه فجاء بها إلى المدينة على أن أبا العاصي ما لبث بعد مدة إسارة أن خرج إلى الشام في مال لقريش؛ حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سرية لـ «محمد» فأصابوا ما معه، فأنحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته. ورد المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكة. فلما ردّه لأصحابه من قريش قال: يا معشر قريش! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا! جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيّاً كريماً. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله

(٦٥٥) الأنفال (٨): ٦٧ .

(٦٥٦) السيرة النبوية لابن هشام : ١ / ٦٤٨ .

(٦٥٧) تاريخ الطبري: ٤١/٢ .

(٦٥٨) إمتاع الأسماع : ١١٨/١ — ١١٩ .

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَاللَّهُ مَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا خَافَةَ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَكُلَ أَمْوَالَكُمْ، فَلَمَّا أَذَاهَا اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَفَرَّغْتَ مِنْهَا أَسْلَمْتُ^(٦٥٩). وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَرَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ زَيْنَبَ

قُرَيْشٍ تَفْتَدِي أَسْرَاهَا، وَكَانَ الْفِدَاءُ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، دَرَاهِمٌ لِلرَّجُلِ إِلَى أَلْفٍ إِلَّا مِنْ لَا شَيْءَ عِنْدَهُ، فَقَدْ مَنَّ عَلَيْهِ «مُحَمَّدٌ» بِحَرِيَّتِهِ^(٦٦٠).

لَمْ يَهْوَنَ ذَلِكَ عَلَى قُرَيْشٍ مَصَابِهَا، وَلَا هُوَ دَعَاها إِلَى أَنْ تَهَادَنَ «مُحَمَّدًا»، أَوْ أَنْ تَنْسَى هَزِيمَتَهَا؛ بَلْ نَاحَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ عَلَى قَتْلِهَا شَهْرًا كَامِلًا، فَجَزَزْنَ شَعْرَ رُؤُوسِهِنَّ، وَكَانَ يَأْتِي بِرَاحِلَةِ الرَّجُلِ أَوْ بِفَرَسِهِ فَيُنْحَنُ حَوْلَهَا. وَلَمْ يَخَالِفْهُنَّ فِي هَذَا إِلَّا هِنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ زَوْجَ أَبِي سَفْيَانَ. وَلَقَدْ مَشَى نِسَاءُ مِنْهُنَّ يَوْمًا إِلَيْهَا فَقُلْنَ: أَلَا تَبْكِينَ عَلَى أَبِيكَ وَأَخِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ! فَقَالَتْ: أَنَا أَبْكِيهِمْ فَيَبْلُغُ «مُحَمَّدًا» وَأَصْحَابَهُ فَيَشْمَتُوا بِنَا وَيَشْمَتُ بِنَا نِسَاءُ بَنِي الْخَزْرَجِ! لَا وَاللَّهِ حَتَّى أَثَارَ مِنْ «مُحَمَّدٍ» وَأَصْحَابِهِ! وَالذُّهْنُ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى نَغْزُو «مُحَمَّدًا». وَاللَّهُ لَوْ أَعْلَمَ أَنَّ الْحَزْنَ يَذْهَبُ مِنْ قَلْبِي لَبَكَيْتُ؛ الْفَصْلُ الرَّابِعُ عَشَرَ: بَيْنَ بَدْرٍ وَوَاحِدٍ

وَلَكِنْ لَا يَذْهَبُ إِلَّا أَنْ أَرَى ثَأْرِي بَعِينِي مِنْ قِتْلَةِ الْأَحِبَّةِ. وَمَكَّثْتُ لَا تَقْرُبُ الدَّهْنَ وَلَا تَقْرُبُ فَرَّاشَ أَبِي سَفْيَانَ وَتَحَرَّضَ النَّاسُ حَتَّى كَانَتْ وَاقِعَةُ أَحَدًا. أَمَّا أَبُو سَفْيَانَ فَنَذَرَ بَعْدَ بَدْرٍ إِلَّا يَمَسُّ رَأْسَهُ مَاءٌ مِنْ جَنَابَةِ حَتَّى يَغْزُو «مُحَمَّدًا»^(٦٦١).

* * *

(٦٥٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٥٨/١ — ٦٥٩، وتاريخ الطبري: ٤٤/٢ .

(٦٦٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٦٠/١، وإمتاع الأسماع: ١١٨/١ .

(٦٦١) المغازي للواقدي: ١٢١/١ و ١٢٤ .

الفصل الرابع عشر

بين بدر وأحد

المسلمون واليهود، غزوة بني قينقاع، جلاء اليهود عن المدينة، قريش تتحرك، غزوة السويق، القبائل تتحرك فتفرّ، هزيمة صفوان بن أمية.

تركت بدرٌ بمكة من عميق الأثر ما رأيت، تركت الحرص على الثأر من «محمد» والمسلمين يوم تنهياً فرصة الثأر. لكنّ أثرها بالمدينة كان أوضح وأكثر اتصالاً بحياة «محمد» والمسلمين معه. فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيدة قوّة المسلمين. ورأوا هذا الرجل الأجنبي الذي وفد عليهم من أقل من عامين فاراً مهاجراً من مكة يزداد سلطاناً وبأساً، ويكاد يكون صاحب الكلمة في أهل المدينة جميعاً لا في أصحابه وحدهم. وكان اليهود، على ما رأيت، قد بدأ تدمرهم من قبل بدر وبدأت مناوشاتهم المسلمين، حتّى كان ما بين الفريقين من عهد المودعة هو الذي حال في أكثر من ظرف دون الانفجار. لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر معتزّين بالنصر، حتّى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتأتّمز، وحتّى بدأت تُغري بهم وترسل الأشعار في التحريض عليهم. بذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة، وانتقل من الدين إلى السياسة. فلم تبق دعوة «محمد» إلى الله هي وحدها التي تُحارب، ولكنّ سلطانه ونفوذ أمره وكلمته هو الذي كان موضع الرهبة والخوف، وسبب الائتمار به والتفكير في اغتياله. ولم يكن «محمد» لتخفى عليه من ذلك كلّ خافية: بل كان يقع على أخباره جميعاً ويتصل بعلمه كلّ ما يدبر ضده. وجعلت النفوس من جانبي المسلمين واليهود تمتلئ بالغلّ والضغينة شيئاً فشيئاً، رويداً رويداً، وجعل هؤلاء وأولئك يتربّص كلّ بصاحبه الدوائر.

وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله ببدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة؛ فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدي على مسلم منهم. فلمّا عادوا منتصرين أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على أبي عَفْكَ أحد بني عمرو بن عوف؛ لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على

«محمد» وعلى المسلمين، ويحرض بها قومه على الخروج عليهم؛ وظلّ كذلك بعد بدر يُغري بهم الناس. فذهب إليه سالم في ليلة صائفة كان أبو عفك نائماً فيها بفناء داره، فوضع سالم السيف على كبده حتّى خش^(٦٦٢) في الفراش^(٦٦٣). وكانت عصماء بنت مروان من بني أميّة بن زيد تعيب الإسلام وتؤذي النبيّ وتحرض عليه؛ وظلّت كذلك إلى ما بعد بدر. فجاءها يوماً عمير بن عوف في جوف الليل حتّى دخل عليها بيتها وحوّلها نفر من ولدها نيام ومنهم من ترضعه؛ وكان عمير ضعيف البصر، فجسّها بيده فوجد الصبي ترضعه، فنحّاه عنها، ثمّ وضع سيفه في صدرها حتّى أنفذه من ظهرها. ورجع عمير من عند النبيّ بعد أن أخبره الخبر، فوجد بنيها في جماعة يدفنونها؛ فأقبلوا عليه فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: «نعم! فكيدوني جميعاً ثمّ لا تنظرون. فوالذي نفسي بيده لو قتلتم بأجمعكم ما قالت لضربكم بسيفي حتّى أموت أو أقتلكم». وقد كان من أثر جرأة عمير هذه أن ظهر الإسلام في بني خُطْمة، وكانت عصماء زوج رجل منهم، فأظهر منهم من كان يفي إسلامه وانضمّ إلى صف المسلمين وسار معهم^(٦٦٤).

ويكفي أن نضيف إلى هذين المثليْن أنّ كعب بن الأشرف هو الذي قال حين علم بمقتل سادات مكّة: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان «محمد» أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، وأنّه لما تيقّن الخبر ذهب إلى مكّة يحرض على «محمد» ويُشدد الأشعار ويكي أصحاب القليب، وأنّه رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يُشَبِّب^(٦٦٥) بنساء المسلمين. وأنّت تعرف طبائع العرب وأخلاقها وتعرف مبلغ تقديرهم للعرض وثورتهم من أجله. وقد بلغ من غيظ المسلمين أنّهم أجمعوا على قتل كعب، واجتمع في ذلك عدّة منهم، وذهب إليه أحدهم يستدرجه بالطعن على «محمد» إذ يقول له: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتّى ضاع العيال وجهدت الأنفس. ولما أنس إلى كعب وأنس إليه كعب طلبه إليه مالاّ لنفسه ولجماعة من أصحابه على أن يرهنوه دروعهم. ورضي كعب على أن يجيئوه من بعد. وإنّه لفي داره على بعد من المدينة إذ ناداه صدر الليل أبونائلة أحد المؤتمرين به، فتزل إليه رغم تحذير عروسه إياه التزل في مثل هذه الساعة من الليل. وسار الرجلان حتّى التقيا بأصحاب أبي نائلة وكعب آمنّ لا يخافهم. وخرج القوم يتماشون حتّى مشوا ساعة بعدوا بها عن دار كعب وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويذكرون من

(٦٦٢) خش: نفذ، لسان العرب: ٢٩٥/٦.

(٦٦٣) المغازي للواقدي: ١٧٤/١ — ١٧٥، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٨/٢، وعيون الأثر: ٣٤١/١.

(٦٦٤) المغازي للواقدي: ١٧٢/١ — ١٧٤، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٧/٢ — ٢٨، وإمتاع الأسماع: ١٢٠/١ — ١٢١.

(٦٦٥) شبب بالمرأة: قال فيها الغزل والنسيب — لسان العرب: ٤٨١/١.

حالمهم وما وصلوا إليه من شدة ما يزيد في طمأنينة كعب. وفي هذه الأثناء كان أبو نائلة يضع يده في رأس كعب ويشمها ويقول: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قطّ. ولما لم تبق لدى كعب شبهة فيهم، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم أخذ بفؤد^(٦٦٦) رأسه وقال: اضربوا عدو الله، فضربوه بأسيا فمهم حتى مات.

زاد هذا الحادث في مخاوف اليهود، فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه^(٦٦٧). على أن ذلك لم يُسكتهم عن «محمد» ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أي فيض. قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأتي، فجاء يهودي من خلفها في سرّ منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سواها فضحكوا بها؛ فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله؛ وشدت اليهود على المسلم فقتلوه؛ فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع. وطلب «محمد» إلى هؤلاء أن يكفّوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودعة أو يترّل بهم ما نزل بقريش، فاستخفّوا بوعيده وأجابوه: «لا يغرتك يا «محمد» أتلك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصببت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس» فلم يبق بعد ذلك من سبيل لعدم مقاتلتهم إلا أن يتعرض المسلمون ويتعرض سلطانهم بمكة للتداعي ويصبحوا أحدوثة قريش وقد جعلوا قريشاً بالأمس أحدوثة العرب.

وخرج المسلمون فحاصروا بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد، حتى لم يبق لهم إلا التزول على حكم «محمد» والتسليم بقضائه. فلما سلّموا قرّر «محمد»، بعد مشورة كبار المسلمين، قتلهم جميعاً. فقام إليه عبدالله بن أبيّ بن سلول، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً، فقال: يا «محمد» أحسن في موالي. فأبطأ عليه النبيّ فكرّر الطلب، فأعرض النبيّ عنه فأدخل يده في جيب درع «محمد»، فتغير «محمد» وقال له: ارسلني؛ وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم أعاد وأثر الغضب في نبرات صوته: «ارسلني ويحك!» قال ابن أبيّ: لا والله لا أرسلك حتى تُحسن في موالي. أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر. وكان عبدالله ذا سلطان ما يزال في المشركين من الأوس والخزرج، وإن كان هذا

(٦٦٦) الفؤد: أحد فودي الرأس، وهما معظم شعرة اللمة مما يلي الأذنين — كتاب العين: ٧٩/٨.

(٦٦٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٥١/٢ — ٥٧، وطبقات ابن سعد: ٣١/٢ — ٣٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٥/١ — ١٢٦.

السلطان قد ضعُف بقوة المسلمين. فرأى النبيّ في إلحاحه ما جعله يعود إلى سكنته، وبخاصة بعد إذ جاءه عبادة بن الصامت يحدّثه حديث ابن أبي، وما جعله يفكر في أن يُسدي هذه اليد لعبد الله وللمشركين موالي يهود جميعاً حتّى يصبحوا مدينين لاحسانه ورحمته؛ على أن تجلو بنوقينقاع عن المدينة جزاءً لها على صنيعها، وقد حاول ابن أبي أن يتحدّث مرّة أخرى إلى «محمّد» في بقائهم ومقامهم . لكنّ أحد المسلمين حال دون ابن أبي ولقاء «محمّد»، واشتجرا حتّى شجّ عبد الله. فقالت بنوقينقاع : والله لا نقيم ببلد تُشجّ فيه يابن أبي ولا نستطيع عنك دفاعاً. وعلى ذلك سار بهم عبادة بعد الذي كان من تسليمهم وإذعائهم تاركين المدينة، تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغون، حتّى بلغوا وادي القرى. هناك أقاموا زمناً، ومن هناك احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتّى بلغوا أذرعات على حدود الشام وبها أقاموا^(٦٦٨). ولعلّهم إنّما استهوتهم إلى الشمال أرض الميعاد التي كانت وما تزال قوى إليها أفئدة اليهود.

خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بني قينقاع عنها. فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينة بعيداً عنها بخير وبأَمّ القرى . ولهذا النتيجة كان يقصد «محمّد» من إجلائهم. وهذا تصرف سياسي آية في الدلالة على الحكمة وبعْد النظر. وهو مقدمة لم يكن منها بدٌّ للآثار السياسية التي ترتبت بعد ذلك على خطة «محمّد» . فليس شيء أضرّ على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها. وإذا كان نضال هذه الطوائف لابدّ منه فهو لابدّ منته إلى تغلب طائفة على سائرها غلبةً تنتهي إلى سيادتها. وقد تحدّث بعض المؤرخين منتقداً تصرف المسلمين إزاء اليهود، زاعماً أنّ حكاية المسلمة التي ذهبت إلى الصائغ كانت من اليسير تسويتها مادام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل. وقد نستطيع دفع هذا القول بأنّ مقتل اليهودي والمسلم لم يحجّ ما لحق المسلمين من إهانة في شخص المرأة التي عبث اليهودي بها، وأنّ مثل هذه المسألة عند العرب أكثر منها عند غيرهم من الأمم جديرة أن تثور لها الثائرات، وأنّ يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة. وفي تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ. لكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتباراً آخر أقوى منه. فحادث المرأة كان من حصار بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولي عهد النمسا بسيراجيفو سنة (١٩١٤ م) من الحرب الكبرى التي اشتركت فيها أوربا جميعاً، هو إنّما كان الشرارة التي ألهبت ما تآجج به نفوس المسلمين واليهود جميعاً لهباً أدّى إلى انفجارها وإلى كلّ ما يُحدث الانفجار من الآثار. والحقّ أنّ وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين

(٦٦٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٧/٢ — ٤٩، المغازي للواقدي: ١٧٦/١ — ١٨٠، والطبقات الكبرى: ٢٨/١ — ٣٠، وإعلام الوري:

بالمدينة، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة، قد جعل المدينة من الناحية السياسية على بُركان لا مفرّ له من أن ينفجر، وقد كان حصار بني قينقاع وجملاؤهم عن المدينة أوّل مظاهر هذا الانفجار. كان طبيعياً أن ينكمش غير المسلمين من أهل المدينة بعد جلاء بني قينقاع عنها، وأن تبدو من الهدوء والسكينة في المظهر الذي يعقب كلّ عاصفة وكلّ إعصار، وعلى هذا الهدوء ظلّ الناس شهراً كاملاً كان جديراً أن يزداد إلى أشهر، لولا أنّ أباسفيان لم يُطق البقاء بمكّة قابلاً تحت خزي هزيمة بدر، دون أن يُعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيرة أنّ قريشاً ما تزال لها قوّتها وعصيّتها ومقدرتها على الغزو وعلى القتال. لذلك جمع مثنى ، وقيل: أربعين، من رجال مكّة وخرج فيهم مستخفين، حتّى إذا كانوا على مقربة من المدينة خرجوا سَحراً فأتوا ناحية يقال لها: العَرِيض ، فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وحرّقوا بيتين بالعريض ونحلاً، ثمّ رأى أبوسفيان أنّ يمينه بغزو «محمد» برّت فانكفاً هارباً، خائفاً أن يطلبه النبيّ وأصحابه. وندب «محمد» أصحابه فخرجوا في أثره وهو على رأسهم، حتّى بلغوا قرقر الكُدُر وأبوسفيان ومن معهم جادّون في الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السوق، فإذا مرّ المسلمون بها أخذوها . ولما رأى «محمد» أنّ القوم أمعنوا في الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة، وقد انقلب فرار أبي سفيان عليه، بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر. وبسبب السّويق الذي ألقت قريش، سُمّيت هذه الغزوة من غزوات «محمد» غزوة السّويق (٦٦٩).

تداولت أنباء «محمد» هذه سمع العرب جميعاً. فأما القبائل البعيدة عنه فظلت في مأمنها لا تُعنى إلاّ قليلاً بأمر هؤلاء المسلمين الذين كانوا إلى يوم بدر — أي إلى أشهر قليلة خلت — أدلة يلتمسون بالمدينة ملجأ والذين أصبحوا اليوم يقفون في وجه قريش، ويُجلون بني قينقاع، ويرسلون الرعب إلى روع عبدالله ابن أبي ويطاردون أباسفيان، ويظهرون مظهرًا لم يكن من قبل مألوفاً. فأما القبائل القريبة من المدينة فقد بدأت ترى ما يتهدّد مصيرها من قوة «محمد» وأصحابه، ومن تعادل هذه القوة مع قوّة قريش بمكّة تعادلاً تُخشى نتائجه. ذلك بأنّ طريق الشاطئ إلى الشام هي الطريق المُعبّدة المعروفة. وتجارة مكّة في مرورها بها تُفيد هذه القبائل فائدة اقتصادية تذكر. وقد عاهد «محمد» كثيراً من القبائل التي تتاخم الشاطئ، فهدّد هذا الطريق وعرض رحلة الصيف لمخاطر قد تُضطر معها قريش إلى العدول عن متاخمة الشاطئ. فماذا عسى أن يصيب هذه القبائل إذا انقطعت تجارة قريش؟ وكيف تراهم يحتملون شظف الحياة في هذه

(٦٦٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٤/٢ — ٤٥، المغازي للواقدي: ١٨١/١ — ١٨٢، وتاريخ الطبري: ٥٠/٢ — ٥١، وإعلام الوري:

البقاع الشديدة الشظف بطبعها؟ فمن حقها إذا أن تفكر في مصيرها، وفيما عساه يصيبها من أثر هذا الموقف الجديد الذي لم يُعرف قبل هجرة «محمد» وأصحابه إلى يثرب، والذي لم يصل إلى ما وصل إليه من تهديد حياة هذه القبائل قبل بدر وانتصار المسلمين فيها.

لكنّ بدرًا أدخلت الرعب إلى قلوب هذه القبائل. أفترأها تُغير على المدينة وتحارب المسلمين، أم ماذا تراها تصنع؟! بلغ «محمدًا» أنّ جمعاً من غطفان وسُليم اعتزم الاعتداء على المسلمين؛ فخرج إلى قرقرة الكدر ليأخذ عليهم الطريق. فلما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار النعم ولم يجد في الجبال أحداً، فأرسل نفراً من أصحابه في أعلى الوادي وانتظر هو في بطنه، فالتقى بغلام اسمه يسار، فسأله فعلم منه أنّ الجمع ارتفع إلى الماء؛ فجمع المسلمون ما وجدوا من نعم فاقسموه بعد أن أخذ «محمد» الخمس، لنص القرآن. قيل: وكان ما غنموا خمسمئة بعير أُخرج خمسها وقسم الباقي فأصاب كلّ رجل بعيران^(٦٧٠). وبلغ «محمدًا» أنّ جمعاً من بني ثعلبة ومُحارب بذي أمرٍ قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه. فخرج (عليه السلام) في أربعمئة وخمسين من المسلمين، فلقي رجلاً من ثعلبة فسأله عن القوم فدله الرجل على مكانهم، وقال له: إنهم يا «محمد» إن سمعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك ودالك على عورتهم. فما لبث المغيرون أن سمعوا باقتراب «محمد» منهم حتى فرّوا فوق الجبال^(٦٧١). وبلغه أنّ جمعاً كبيراً من بني سليم ببحران قتيأوا لقتاله، فخرج في ثلاثمئة رجل فأغذوا السير، حتى إذا كان دون بحران بليلة لقيهم رجل من بني سليم، فسأله «محمد» عنهم، فأخبره أنّهم تفرّقوا وعادوا أدراجهم^(٦٧٢). وكذلك كان هؤلاء الأعراب في فزع من «محمد» وفي فزع على مصيرهم، ما يكادون يفكرون في الكيد لـ «محمد» وفي السير لملاقاته حتى تنخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره للقائهم.

وفي هذه الأثناء وقع مقتل كعب بن الأشرف على نحو ما قدّمنا، فأصاب اليهود أيضاً من الفزع ما جعلهم يلزمون دورهم لا يخرج أحد منهم مخافة أن يصيبه ما أصاب كعباً. وزاد في فزعهم أن أهدر «محمد» دماءهم بعد الذي كان من أمر بني قينقاع فما أدّى إلى حصارهم. فجاءوا إلى «محمد» يشكون إليه أمرهم ويذكرون له مقتل كعب غيلةً بلا جرم ولا حدث علموه. فكان جوابه لهم: إنّه آذانا وهجانا بالشعر، ولو قرّر كما قرّر غيره ممّن هو على مثل رأيه ما أصابه شرّ. وبعد

(٦٧٠) المغازي للواقدي: ١٨١/١ — ١٨٢، والطبقات الكبرى: ٣١/٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٤/١ — ١٢٥، والمناقب: ١٩٠/١، وإعلام

الورى: ١٧٣/١.

(٦٧١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٦/٢، المغازي للواقدي: ١٩٤/١، والطبقات الكبرى: ٣٤/٢ — ٣٥، وإعلام الورى: ١٧٣/١.

(٦٧٢) المغازي للواقدي: ١٩٦/١، والطبقات الكبرى: ٣٥/٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٩/١، وإعلام الورى: ١٧٢/١.

حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتاباً يحترمونه. وخافت اليهود وذلت وإن بقي في نفسها من «محمد» ما بدا من بعد أثره^(٦٧٣).

ماذا تصنع قريش بتجارتهما إلى الشام وقد أخذ «محمد» عليها طريقها؟! إن مكة تعيش من التجارة، فإذا لم تجد الوسيلة إليها تعرضت لشر ما تتعرض له مدينة مثلها. وهذا «محمد» أراد حصارها والقضاء في نفس العرب على مكانتها. وقف صفوان بن أمية يوماً في قريش وقال لهم: إن «محمدًا» وأصحابه قد عوروا علينا متجربنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يرحون الساحل، وأهل الساحل، قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسكن. وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء. قال له الأسود بن المطلب: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق. ودله على فرات بن حيّان من بني بكر بن وائل يدلّهم على الطريق. وقال لهم فرات: طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب «محمد» فإنما هي أرض نجد وفياف. ولم يخف صفوان الفيافي أن كان الفصل شتاءً وحاجتهم إلى الماء قليلة، وتجهّز صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مئة ألف درهم. وكان بمكة حين تدبير قريش خروج تجارها، يثريّ هو نعيم بن مسعود الأشجعيّ عاد إلى المدينة، وجرى على لسانه ذكر حديث قريش وما صنعت ، لأحد المسلمين. فأسرع هذا فنقل الخبر إلى «محمد». وما لبث النبيّ أن بعث زيد بن حارثة في مئة راكب اعترضوا التجارة عند القرّة — ماء من مياه نجد — ففرّ الرجال وأصاب المسلمون العير. فكانت أول غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون. وعاد زيد ومن معه فخمّسها «محمد»، وقسم ما بقي على رجاله، وجيء بفرات بن حيّان فعرض عليه أن يسلم لينجو فأسلم ونجا^(٦٧٤).

هل اطمأن «محمد» بعد هذا كله إلى أن الأمر قد استقرّ له؟ هل خدعه يومه عن غده، وهل خيل له فرع القبائل منه وما غنم من قريش أن كلمة الله وكلمة رسوله قد اطمأنت ولم يبق للخوف عليها محل؟ وهل جعل إيمانه بنصر الله إياه يلقي حبال الأمور على غواربها علماً منه بأن الأمر كله لله!! كلاً! فالأمر كله حقاً لله. لكنك لن تجد لسنة الله تبديلاً. وما ركّب الله في النفوس من سلائق لا سبيل إلى إنكاره. وقريش لها سيادة العرب، وهي لا يمكن أن تني عن الأخذ بثأرها. وما أصاب قافلة صفوان بن أمية لن يزيدها على الثأر إلا حرصاً، وفي التهيؤ للأخذ به إلا شدة. وما كان شيء من هذا ليغيب عن «محمد»، وبُعد نظره وسلامة سياسته. فلا بدّ له إذاً من أن يزيد المسلمين به تعلقاً وارتباطاً. ومهما يكن الإسلام قد شدّ من عزائمهم وجعلهم كالبنين

(٦٧٣) المغازي للواقدي: ١/١٩٢، والطبقات الكبرى ٢/٣٤، وإمتاع الأسماع: ١/١٢٦ — ١٢٧، المناقب: ١/١٩٠.

(٦٧٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٥٠، المغازي للواقدي: ١/١٩٧ — ١٩٨، والطبقات الكبرى: ٢/٣٦، إعلام الوری: ١/١٧٤ — ١٧٥.

المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، فإنّ حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدّة وتضامنهم قوّة. ومن حسن رعايتهم أن يزيد «محمّد» رابطته بهم. لهذا تزوج من حفصة بنت عمر بن الخطاب، كما تزوّج من عائشة بنت أبي بكر من قبل. وكانت حفصة من قبله زوج خُنيس أحد السابقين إلى الإسلام. وقد مات عنها قبل زواج «محمّد» بسبعة أشهر. وكما تزوّج من حفصة فزاد ابن الخطاب به تعلّقاً^(٦٧٥)، زوج ابنته فاطمة من ابن عمّه عليّ أشدّ الناس محبة للنبيّ، وإخلاصاً له منذ طفولته. ولما كانت رقية ابنته قد اختارها الله إلى جواره ، فقد زوّج عثمان بن عفّان بعدها ابنته أمّ كلثوم^(٦٧٦)، وكذلك جمع حوله برابطة المصاهرة أبابكر وعمر وعثمان وعليّاً، وجمع بذلك أربعة من أقوى المسلمين الذين كانوا معه، بل أقواهم إن شئت. بهذا كفّل للمسلمين مزيداً من القوّة، كما كفّل لهم بما غنموا في مغازيهم إقداماً على الحرب يجمع فيها الرجل بين الجهاد في سبيل الله والمغنم من المشركين. وهو في هذه الأثناء يتتبع بدقة كلّ الدقّة أخبار قريش وما تُعدّ. فقد كانت قريش تُعدّ للثأر ولتفتح لنفسها طريق التجارة إلى الشام حتّى لا تهوي مكانة مكّة التجارية ومكانتها الدينية إلى حيث لا تقوم لها من بعد ذلك قائمة.

* * *

(٦٧٥) أسد الغابة: ٥ / ٤٢٥ — ٤٢٦. أضف إلى تأليفه قلوبهم للإسلام أنّه كان أباً للأرامل والأيتام .

(٦٧٦) السيرة النبويّة لابن كثير: ٥٤٥/٢ — ٥٤٦. ذلك أولاً: لأنّه كان قد خطب حفصة وتزوّج بها النبيّ فأراد تأليفه، وثانياً: لتكون أمّ كلثوم لعبدالله بن عثمان من رقية أختها كأُمّه. وإن كان عبدالله مات بعد ذلك صغيراً.

الفصل الخامس عشر

غزوة أحد

استعداد قريش بمكة، خروجها للغزو، كيف علم به «محمد»، تشاور المسلمين في التحصن بالمدينة أو الخروج لملاقاة العدو، انتصار المسلمين ثم هزيمتهم، خروج النبي من المدينة غداة أحد ليلحق بالمنتصرين فيغزوهم، عود أبي سفيان وقريش إلى مكة .

لم يهدأ منذ بدر لقريش بال، ولم تُغنِها غزوة السويق شيئاً، وزادتها سرية زيد بن حارثة التي أخذت تجارتها حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام حرصاً على الثأر وادّكاراً لقتلى بدر. وكيف لقريش بنسيانهم وهم أشراف مكة وساداتها وذوو النخوة والكرامة من كبارها! وكيف لها بنسيانهم

تزال نساء مكة تذكر كل منهن في القتلى لها ابناً أو أخاً أو أباً أو زوجاً أو حميماً، فهي له تتوجّع وعليه تبكي وتؤلّل . هذا ، وكانت قريش منذ قدم أبوسفيان بن حرب بالعرير التي كانت سبب بدر من الشام، وعاد الذين شهدوا بدرًا وسلموا من القتل فيها، قد وقفت العير بدار الندوة واتفق كبارؤها:

ابن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وحويطب بن عبد العزى وغيرهم على أن تباع العير وأن تعزل أرباحها وأن يجهز بها جيش لقتال «محمد» جرّار في عدده وعدّته، وأن تستنفر بها القبائل ليشاركوا قريشاً في أخذهم بالثأر^(٦٧٧) من المسلمين. وقد استنفروا معهم أبا عزة الشاعر الذي عفا عنه النبي من أسرى بدر، كما استنفروا معهم من اتبعهم من الأحابيش. وأصرّت النسوة من قريش على أن يسرن مع الغزاة فتشاور القوم؛ فمن قائل

(٦٧٧) المغازي للواقدي: ١٩٩/١ — ٢٠٠، إمتاع الأسماع: ١٣١/١، والسيرة الحلبية: ٢١٦/٢ — ٢١٧، تفسير مجمع البيان: ٤٦٤/٤، وبحار الأنوار: ٢٣١/١٩ .

بمخرجهم: «فإنه أقمن أن يحفظكم ويدرككم قتلى بدر، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه». ومن قاتل: «يا معشر قريش! هذا ليس برأي أن تعرضوا حرمكم لعدوكم، ولا آمن من أن تكون الدبرة عليكم فتفتضحوا في نساءكم». وفيما هم يتشاورون صاحبت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بمن يعترض خروج النساء: «إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نساءك. نعم! نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة — والجحفة مكان — فقتلت الأحبة يومئذ» أن لم يكن من يحرضهم وخرجت قريش ومعها نساءها وعلى رأسهن هند وهي أشدهن على الثأر حُرقة. أن قُتل يوم بدر أبوها وأخواها وأعز الناس عليها. خرجت قريش تقصد المدينة في ثلاثة ألوية عُقدت في دار التدوة، وعلى اللواء الأكبر منها طلحة بن أبي طلحة وهم ثلاثة آلاف ليس بينهم غير مئة رجل من ثقيف، وسائرهم من مكة سادتها ومواليها وأحبيشها. وقد أخذوا معهم من العدة والسلاح الشيء الكثير، وقادوا مئتي فرس وثلاثة آلاف بعير ومن بينهم سبعة دارع^(٦٧٨).

ثمّ القوم للمسير بعد أن أجمعوا عليه والعبّاس بن عبدالمطلب عم النبيّ بينهم واقف على أمرهم مطلع على كلّ دقيق وجليل من شأنهم. وكان العبّاس على حرصه على دين آبائه ودين قومه، يحسّ لـ «محمد» عليه بشعور العصبية وشعور الإعجاب، ويذكر له حسن معاملته إياه يوم بدر. ولعلّ الإعجاب والعصبية اللذين جعلاه يشهد مع «محمد» بيعة العقبة الكبرى، ويخاطب الأوس والخزرج بأنهم إن لم يكونوا مانعي ابن أخيه ثما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه زيادهم من قبل^(٦٧٩)، هما اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير في هذا العدد العظيم إلى أن يكتب كتاباً يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعدتهم وعديدهم، ويدفع به إلى رجل غفاريّ يسير به إلى النبيّ حتى يبلغ المدينة في ثلاثة أيّام فيدفعه إليه. فأما قريش فسارت حتى بلغت الأبواء ومرّت بقبر آمنة بنت وهب، فدفعت الحميّة بعض الطائشين منها إلى التفكير في نبشه. لكنّ زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة حتى لا تكون سبة عند العرب، وقالوا: لا تذكرنا من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا. وتابعت قريش مسيرها حتى بلغت العقيق ثمّ نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد على خمسة أميال من المدينة^(٦٨٠).

(٦٧٨) المغازي للواقدي: ٢٠٣/١، والطبقات الكبرى: ٣٧/١، وإمتاع الأسماع: ١٣١/١، والمناقب لابن شهر آشوب: ١٩١/١.

(٦٧٩) المغازي للواقدي: ٢٠٤/١.

(٦٨٠) المغازي للواقدي: ٢٠٦/١، والسيرة الحلبية: ٢١٨/٢.

وبلغ الغفاري الذي بعثه العباس بن عبدالمطلب بكتابه المدينة، فوجد «محمدًا» بقاءً فذهب إليه فوجده على باب المسجد هناك يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبي بن كعب، فاستكتمه «محمد» ما فيه وعاد إلى المدينة فقصده إلى سعد بن الربيع في داره، فقص عليه ما بعث العباس به إليه واستكتمه أيضاً إياه. على أن زوج سعد كانت بالمتزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سرّاً^(٦٨١). وبعث «محمد» أنساً ومونساً ابني فضالة يتنطسان خبر قريش، فألفياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب الخيطة بها^(٦٨٢). وبعث «محمد» من بعدهما الحباب بن المندر بن الجموح. فلما جاءه من خبرهم بمثل ما أخبره العباس أخذته (عليه السلام) الحيرة^(٦٨٣). وخرج سلمة بن سلامة، فإذا طليعة خيل قريش تقترب من المدينة وتكاد تدخلها، فعاد فخبّر قومه بما رأى، وخشي الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التي أعدت لها قريش خير ما أعدت في تاريخ حروبها، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبي، وحُرست المدينة كلها طيلة الليل^(٦٨٤). فلما أصبحوا جمع النبي أهل الرأي من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام — أو المنافقين على ما كانوا يدعون يومئذ وما نعتوا في القرآن — وجعلوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم؟

رأى النبي (عليه السلام) أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً خارجها، فإذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم. ورأى عبدالله بن أبي بن سلول رأي النبي وقال: «لقد كنّا يا رسول الله نقاتل فيها، ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة ونشيك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كلّ ناحية. فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقتلناه باسيافنا في السكك. إنّ مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضّت علينا قطّ وما دخل علينا عدوّ فيها إلّا أصبناه، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منّا إلّا أصاب منّا، فدعهم يا رسول الله وأطعني في هذا الأمر، فأني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم.

وكان كلام ابن أبي هذا هو رأي الأكابر من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار كما كان رأي الرسول (عليه السلام)^(٦٨٥). لكنّ فتیاناً ذوي حمية لم يشهدوا بدرّاً ورجالاً شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملاً الإيمان قلوبهم أن ليس لقوة أن تغالبهم أو تتغلب عليهم أحبوا

(٦٨١) المغازي للواقدي: ٢٠٤/١، والسيرة الحلبية: ٢١٧/٢ — ٢١٨.

(٦٨٢) المغازي للواقدي: ٢٠٦/١ — ٢٠٧، والسيرة الحلبية: ٢١٨/٢.

(٦٨٣) المغازي للواقدي: ٢٠٧/١ — ٢٠٨، والطبقات الكبرى: ٣٧/٢.

(٦٨٤) المغازي للواقدي: ٢٠٨/١، والطبقات الكبرى: ٣٧/٢.

(٦٨٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣/٢، والمغازي للواقدي: ٢٠٩/١ — ٢١٠، والسيرة الحلبية: ٢١٩/٢، وجمع البيان: ١٨٣/٤.

الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل، مخافة أن يظنّ أنّهم كرهوا الخروج وتحصّنوا بالمدينة جنباً عن لقائه. ثمّ إنّهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا ببدر لا يعرف أهلهم من أمرهم شيئاً. قال قائل منهم: «إني لا أحبّ أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا «محمّداً» في صياصي»^(٦٨٦) يشرب وآطامها^(٦٨٧) فتكون هذه مُجرّنة لقريش، وهاهم قد وطّئوا سعفنا، فإذا لم نذبّ عن عرضنا لم يزرع، وإنّ قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثمّ جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتّى نزلوا بساحتنا، أفحسونا في بيوتنا وصياصينا، ثمّ يرجعون وافرين لم يُكَلِّموا! لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشّئوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا، ثمّ لقطعوا الطريق علينا». وتعاقب الدعاة إلى الخروج يتحدث كلّ حديثه ويذكرون جميعاً أنّهم إذا ظفّروهم الله بعدوّهم فذلك الذي أردوا وذلك الذي وعد الله ورسوله بالحقّ، وإن هم انهمزوا واستشهدوا كانت لهم الجنة^(٦٨٨).

وهزّ حديث الشجاعة وحديث الاستشهاد القلوب، واستنفر روح الجماعة الأنفس لتجري كلّها في هذا التيار، ولتحدث كلّها على هذه النغمة، فلم يبق تلك اللحظة أمام الجمع الماثل في حضرة «محمّد» الممتلئ القلب بالإيمان بالله ورسوله وكتابه وحسابه، إلّا صورة الظفر بهذا العدو المعتدي تفرّقه سيوفهم أيدي سبا، ويبعثه بأسهم بدداً شذراً مدّراً، وتستولي أيديهم على مغامره ومحارمه؛ وصورة الجنة أعدت للذين قُتلوا في سبيل الله، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، يلقون فيها أحبّتهم الذين شهدوا بدراً واستشهدوا فيها، (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً* إلّا قيلاً سلاماً سلاماً)^(٦٨٩). قال خيثمة أبوسعّد بن خيثمة: «عسى الله أن يُظفّرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصاً، حتّى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو يقول: إلحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً. وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة؛ وقد كبرت سنّي ورقّ عظمي وأحببت لقاء ربّي»^(٦٩٠). فلمّا ظهرت الكثرة واضحة في جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته، قال لهم «محمّد»: «إني أخاف

(٦٨٦) صيصية القوم: قلعته التي يتحصنون فيها كقلاع اليهود من قريظة حيث أنزلهم الله من صياصيههم — كتاب العين: ١٧٦/٨ .

(٦٨٧) آطام، وهي حصون لأهل المدينة — الصحاح، الجوهري: ١٨٦٢/٥ .

(٦٨٨) المغازي للواقدي: ٢١٠/١ — ٢١١، والسيرة الحلبية: ٢١٩/٢ .

(٦٨٩) الواقعة (٥٦): ٢٥ — ٢٦ .

(٦٩٠) المغازي للواقدي: ٢١٢/١ — ٢١٣، ودلائل النبوة: ٢٤٩/٣ .

عليكم الهزيمة»^(٦٩١)؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج. فلم يكن له إلا أن يترل على رأيهم. وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى إليه من عند الله .

وكان اليوم يوم جمعة، فصلّى بالناس وأخبرهم أنّ لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم. ودخل «محمد» بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبوبكر وعمر فعمّاه وألبساه درعه وتقلّد سيفه^(٦٩٢)، والناس أثناء غيبته هذه في جدل يتحاورون. قال أسيد بن حُضير وسعد بن معاذ وكانا ثمن أشار بالتحصّن بالمدينة للذين رأوا الخروج منها: «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصّن بالمدينة، فقلتم ما قلتم واستكبرتموه على الخروج وهو له كاره. فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه. ولأنّ الداعون للخروج لما سمعوا، وحسبوا أنّهم خالفوا الرسول إلى شيء قد يكون لله فيه آية. فلما خرج لهم وعليه درعه وقد تقلّد سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكبرهك، والأمر إلى الله ثمّ إليك». قال «محمد»: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتهم. وما ينبغي لنبّي إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يحكم الله بينه وبين أعدائه. أنظروا ما آمركم به فاتبعوه، والنصر لكم ما صبرتم»^(٦٩٣). وكذلك وضع «محمد» إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام. فإذا تمّ للكثرة رأي بعد بحث، لم يكن لها أن تنقضه هوى أو لغاية، بل يجب أن ينفذ الأمر على أن يُحسن من يتولّى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه^(٦٩٤).

(٦٩١) بحار الأنوار : ١٢٥/٢٠، بشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢٢٥/١٤ .

(٦٩٢) المغازي للواقدي: ٢١٣/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٣/٢ .

(٦٩٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣/٢، المغازي للواقدي: ٢١٣/١ — ٢١٤، والسيرة الحلبية: ٢١٩/٢ .

(٦٩٤) مبدأ الشورى من المبادئ التي دعا إليها الإسلام، لكنّ مجال الشورى الذي يُلزم فيه المشاورون بالالتزام بنتيجة الشورى هو ما ينبغي تحديده. وقد عدّاه البعض الى كل مجال منصوص حتى أنه قد جعل منها نظرية للحكم والتنصيب، والحال أنّ نظرية النصّ في الإمامة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) لا تعارض مع مبدأ الشورى، كما هو ثابت في محله وإليك بياناً موجزاً لمبدأ الشورى:

تمسّك أصحاب نظرية الشورى بقوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) وزاعمين أن هذه الآية تلزم الإمام الحاكم بوجوب الشورى على رأي من يقول إنّ الآية بخطأها للرسول صريحة في الأمر بالشورى والأمر ظاهر في الوجوب، والآية تدعو لاستشارة المسلمين (وشاورهم) وحيث لا يمكن استشارة المسلمين جميعاً فلا بدّ من الأخذ بالميسور في هذه الاستشارة وهو استشارة ذوي الرأي والخبرة، تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي: ٨٣/٢ .

ولاشكّ أنّ الشورى ليست هدفاً مطلوباً في حدّ نفسها ولا هي موضوع مستقل للطلب، وإنّما الشورى طريق إلى تحقيق غايات أخرى وأهم هذه الغايات التعرف على وجهات نظر الآخرين وتصوراتهم ومناقشتهم وأفكارهم. وهذه التصورات والأفكار عندما تتوارد من منابع مختلفة وتجتمع في موضع واحد تكون لها قيمة كبيرة في توجيه سياسة الحكم والإدارة والاقتصاد والأمن والحرب وغير ذلك في البلد، وهذا الوجه يتم في غير المعصومين من أولياء الأمور.

ولو صحّ هذا الغرض من تشريع الشورى يبقى السؤال عن القيمة الشرعية التي تتمتع بها الشورى وهل تعتبر النتيجة التي تتمخض عنها الشورى بالإجماع أو بالأكثرية قراراً ملزماً لولي الأمر أم لا ؟

يتجه العلماء في الإجابة على هذا السؤال اتجاهين:

الأول: يرى بأنّ نتيجة الشورى ملزمة لولي الأمر وللنظام بشكل عام.

وتقدّم «محمد» بالمسلمين متّجهاً إلى أحد، حتّى نزل مكاناً به صنمان، اسمهما الشيخان. كان يُتحدّث في الجاهلية إليهما بشيخ أعمى وشيخة عمياء. وهناك بصُر بكثيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها فقيل: هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود، قال (عليه السلام): «لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا»، فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة. إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبي يقولون له: لقد نصحتك وأشرت عليه برأي من مضى من آباتك فكان رأيك مع رأيك، ثمّ أبي أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه. وصادف حديثهم هوى من نفس ابن أبي، فلما أصبحوا انخزل مع كتيبة من أصحابه. وبقي النبيّ ومعه المؤمنون حقاً وعدّتهم سبعمئة، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشيّ من أهل مكة كلّهم موتور من يوم بدر، وكلّهم على ثأره حريص^(٦٩٥).

ومن هؤلاء: الشيخ محمد عبده؛ يقول في تفسير (أولي الأمر) معناه أصحاب أمر الأمة في حكمها وهو الأمر المشار إليه في قوله تعالى: (وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ولا يمكن أن يكون شورى بين جميع أفراد الأمة، فتعين أن يكون شورى بين جماعة تمثل الأمة... وما هؤلاء إلّا أهل الحلّ والعقد الذين تكرر ذكرهم، ويضيف: «ويجب على الحكّام الحكم بما يقرره أولو الأمر — أصحاب الشورى — وتنفيذه» تفسير المنار: ١٨٧/٥ — ١٨٨. الثاني: يرى بأن قيمة الشورى توجيهية فقط وليس لها قيمة شرعية في إلزام ولي الأمر بالتنفيذ.

ومن هؤلاء: القرطبي، إذ يقول في تفسيره: «والشورى مبنية على اختلاف الآراء والمستشير ينظر في ذلك الاختلاف، وينظر أيّها أقرب إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه» الشورى في ظلّ نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق: ١١٣ — ١١٤.

أمّا فقهاء الإمامية فيذهبون إلى الرأي الثاني في تفسير آية الشورى، وفي غير الأمور المنصوصة في الكتاب والسنة يقول الشيخ محمد جواد البلاغي: (وَأْمُرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) واستصلحهم، واستمل قلوبهم بالمشاورة، لا لأتّهم فيفقدونه سداً وعلماً بالصالح، كيف وإنّ الله مسدده (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) فإذا عزمت على ما أمرك الله بنور النبوة وسددك فيه (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ). آلاء الرحمن: ٣٦٤، وسائر علماء الشيعة على هذا المنوال أو قريب منه كالفيض الكاشاني في تفسير الصافي: ٣١٠/١، والسيد عبد الله شير في تفسيره: ١٦٥.

فالشورى في مدرسة أهل البيت تتلخص في أنّ (رأي المسلمين ليس ملزماً لرسول الله صلى الله عليه وآله) حيث قال له تعالى: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ)، إذّا فالقيام بالعمل يكون على أساس عزم الرسول (صلى الله عليه وآله) وليس على ما يريته المؤمنون.

ثمّ إنّ مشاوراته (صلى الله عليه وآله) كانت في مقام استجلاء رأي المسلمين في كيفية تنفيذ الأحكام الإسلامية وليست في مقام استنباط الحكم الشرعي بالتشاور؛ أضف إلى كلّ ذلك أنّ الله تعالى قال: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا. (الأحراب: ٣٦).

إذا رجحان المشاورة ينحصر بمورد لم يقض الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) فيه أمراً، وأمّا في ما قضى الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) فيه أمراً تكون المشاورة حينئذ معصية لله ولرسوله (صلى الله عليه وآله) وضلالاً مبيناً. معالم المدرستين: ٥٧٦/١، وولاية الأمر للشيخ محمد مهدي الآصفي: ١٦٧.

وعليه فالشورى ذات قيمة توجيهية تغني الحاكم الشرعي في تنفيذه القرارات الإسلامية في كلّ مجالات الحياة، وهي غير ملزمة للإمام المعصوم، لأنّها لا تشرع حكماً قبال قول المعصوم وفعله وتقريره، وتنحصر في المورد الذي لم يقض الله ورسوله فيه أمراً. وأمّا من الناحية التاريخية لم تشرع الشورى كنظام سياسي شرعي للحكم، وقد جاءت تاريخياً كتبرير للأمر الواقع والسعي لجعله مصدراً رئيسياً لشرعية النظام السياسي الحاكم آنذاك، حيث إنّ الخلافة العامة للرسول (صلى الله عليه وآله) لا تتم إلّا بنصّ من النبيّ للخليفة الذي بعده. راجع سلسلة في رحاب أهل البيت العدد (١٦) الصادرة عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) ١٤٢٢ هـ.

(٦٩٥) المغازي للواقدي: ٢١٦/١ — ٢١٧، والسيرة النبوية: ٢٢٠/٢، والطبقات الكبرى: ٣٠/٢ و ٣٧.

وسار المسلمون مع الصبح حتّى بلغوا أحداً فاجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهرهم. وجعل
«محمد» يصف أصحابه وقد وضع منهم خمسين من الرماة على شعب في الجبل، وقال لهم: «احموا
لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتّى
ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإثما عليكم أن
ترشقوا خيلهم بالنبل، فإنّ الخيل لا تُقدّم على النبل». ثمّ همى غير الرماة أن يقاتل أحد حتّى يأمر هو
بالقتال (٦٩٦). (٦٩٧)

فأمّا قريش فصفت صفوفها وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن
أبي جهل (٦٩٨) ودفعت اللواء إلى عبدالعزى طلحة بن أبي طلحة (٦٩٩). وجعلت نساء قريش يمشين
خلال صفوفها يضربن بالدفوف والطبول، فيكنّ تارة في مقدمة الصفوف وتارة في مؤخرتها،
وعلى رأسهنّ هند بن عتبة زوج أبي سفيان، وهن يقلن:
ويها بني عبدالدار *** ويها حُماة الأدبار
ضرباً بكلّ بّتار (٧٠٠)

ويقُلن:

إِنَّ تُقْبِلُوا نُعَانِقُ *** وَنَفْرُسُ التَّمَارِقِ
أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقُ *** فِرَاقٌ غَيْرُ وَامِقٍ (٧٠١)

واستعدّ الفريقان للقتال وكلّ يحرض رجاله. فأمّا قريش فتذكر بدراناً وقتلاها، وأمّا
المسلمون فيذكرون الله ونصره. و«محمد» يخطب ويحضّ على القتال ويعدّ رجاله النصر ما
صبروا (٧٠٢). مدّ يده بسيف، فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم،
حتّى قام أبودجانة سِمَاكُ بن خرشة أخو بني ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب

(٦٩٦) في هذه المعركة كانت راية رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيد الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، حين ورّع الرايات على وجوه
المهاجرين والأنصار. السيرة النبوية لابن هشام: ٦٤/٣، وانساب الأشراف: ١٠٦/٢، الكامل في التاريخ: ١٥/٢، أسد الغابة: ٢٠/٤.
وجاء عن ابن عباس أنّه قال: لعلّي أربع ما هنّ لأحد هو أول عربي وأعجمي صلّى مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو صاحب
لوائه في كلّ زحف وهو الذي ثبت معه يوم المهراس وفرّ الناس وهو الذي أدخله قبره. مستدرک الحاكم: ١١١/٣، ومناقب الخوارزمي:
٢٢/٢١، وذخائر العقبى: ٧٥.

(٦٩٧) المغازي للواقدي: ٢٢٠/١ و ٢٢٤، والطبقات الكبرى: ٤٠/٢، السيرة الحلبية: ٢٢٢/٢.

(٦٩٨) المغازي للواقدي: ٢٢١/١، والطبقات الكبرى: ٣٠/٢.

(٦٩٩) المغازي للواقدي: ٢٢١/١، ودلائل النبوة للبيهقي: ٢٠٩/٣ وتفسير مجمع البيان: ٣٧٨/٢ وبحار الأنوار: ٥٠/٢٠ — ٥١.

(٧٠٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٨/٢، والمغازي للواقدي: ٢٢٧/٢، وتاريخ الطبري: ٦٢/٢.

(٧٠١) المغازي للواقدي: ٢٢٨/١، وعيون الأثر: ١٦/٢.

(٧٠٢) المغازي للواقدي: ١٩٩/١ — ٢٧٧.

به في العدو حتّى ينحني. وكان أبودجانة رجلاً شجاعاً له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنّه سيفاتل، وآته أخرج عصابة الموت. فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصّب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين على عادته إذ يختال عند الحرب. فلما رآه «محمد» يتبختر، قال: «إنّها لمشيّة يُغضها الله إلّا في مثل هذا الوطن» (٧٠٣).

وكان أول من أنشب الحرب بين الفريقين أبو عامر بن صيفي الأوسي، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يحرّض قريشاً على قتال «محمد»؛ ولم يكن شهد بدرًا، فخرج إلى أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس وفي عبيد أهل مكة. وكان يزعم أنّه إذا نادى أهله من الأوس المسلمين الذين يحاربون في صف «محمد»، استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً. فخرج فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فأجابه الأوس المسلمون: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق! ثمّ نشب القتال بينهم. وحاول عبيد قريش وحاول عكرمة بن أبي جهل، وكان على الميسرة، أن يأخذ المسلمين من جناحهم، لكنّ المسلمين رشقوهم بالحجارة حتّى ولّى أبو عامر مدبراً (٧٠٤). هنالك صاح حمزة ابن عبدالمطلب صيحة القتال يوم أحد (٧٠٥): أمّ، أمّ، واندفع إلى قلب جيش قريش. فلقى طلحة بن أبي طلحة حامل لواء أهل مكة فضربه حمزة بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى، فقطعها حمزة بسيفه؛ فضمّ طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره، فذفّف عليه حمزة بضربة أردته صريعاً (٧٠٦). واندفع أبودجانة وفي يده سيف النبيّ وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقى أحداً إلّا قتله، حتّى شقّ صفوف المشركين، فرأى إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً، فحمل عليه بالسيف فولول، فإذا هند بنت عتبة فارتدت عنها مكراً سيف الرسول أن يضرب به امرأة (٧٠٧).

واندفعت قريش إلى القتال أيضاً، يثور في عروقتها طلب الثأر لمن مات من أشرافها وساداتها منذ عام بدر. ووقفت بذلك قوتان غير متكافئتين في العدد ولا في

(٧٠٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٦/٢ — ٦٧.

(٧٠٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٧/٢، والمغازي للواقدي: ٢٢٣/١.

(٧٠٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٨/٢.

(٧٠٦) جاء في المغازي للواقدي: ٢٢٦/٢، أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، هو الذي خرج لطلحة، وكذا ابن هشام في سيرته:

٧٣/٣، فضرّب عليّ طلحة فقطع رجله وسقط على الأرض وسقطت الراية فذهب عليّ ليجهز عليه فكشف عورته وناشده الله والرحم فتركه عليّ فكبر رسول الله وكبر معه المسلمون فرحاً. وكذلك في الطبقات الكبرى: ٤٠/٢.

وحمزة قد قتل عثمان بن أبي طلحة الذي حمل الراية بعد مقتل أخيه طلحة الذي قتله الإمام عليّ (عليه السلام)، الكامل في التاريخ: ١٥٢/٢ والطبقات الكبرى: ٤١/٢.

(٧٠٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٩/٢.

العُدة . يجرّك الكثرة العظيمة ثأراً لا يهدأ منذ بدر في النفوس ثائرة، وجرّك الفئة القليلة عاملاً: الدفاع عن العقيدة وعن الإيمان وعن دين الله، والدفاع عن الوطن وعمّا يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح. فأما المطالبون بالتأثر فكانوا أعزّ نفراً وأكثر جنداً، وكان من ورائهم الظعن يجرّكنهم وقد أعدت غير واحدة منهنّ مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها من فجعتها في أب أو أخ أو زوج أو عزيز. كان حمزة بن عبدالمطلب من أعظم أبطال العرب وشجعانهم، وكان قد قتل يوم بدر عتبة أبا هند كما قتل أخاها ونكّل بكثير من الأعزة عليها. وكان يوم أحد كما كان يوم بدر أسد الله وسيفه البتار. قتل أوطاة بن عبدشرحبيل وقتل سباع بن عبدالعزى الغُبشاني، وجعل يهدّ^(٧٠٨) كلّ من لقي بسيفه فتسيل من جسده روحه. وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشياً الحبشيّ مولى جُبير خيراً كثيراً إن هو قتل حمزة، كما قال له جبير بن مطعم — مولاه وكان عمّه قد قُتل ببدر — : إن قتلتم حمزة عمّ محمد، فأنت عتيق. روى وحشيّ، قال: «فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلماً أخطى بها شيئاً. فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتّى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهدّ الناس بسيفه هذا، فهزّزت حربتي، حتّى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت في ثنّيته حتّى خرجت من بين رجله وتركته وإياها حتّى مات، ثمّ أتيت فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة، إنّما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكّة أعتقت»^(٧٠٩).

أمّا المدافعون عن الوطن فكان لهم مثلٌ في قُزمان أحد المنافقين الذين أظهروا الإسلام. تخلف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأحد، فلما أصبح غيره نساء بني ظفر فقلن: يا قُزمان ، ألا تستحي لما صنعت ! ما أنت إلّا امرأة! خرج قومك فبقيت في الدار. فدخل قُزمان بيته مغيطاً محنقاً فأخرج قوسه وجعبته وسيفه، وكان يعرف بالشجاعة، فخرج يعدو حتّى كان عند الجيش والنبيّ يسوّي صفوف المسلمين، فتخطّأها حتّى كان في الصف الأوّل منها فكان فيه. وكان أوّل من رمى بنفسه من المسلمين، وجعل يرسل نبلاً كأنّها الرماح. فلما كان آخر النهار فضّل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن أصاب من قريش سبع رجال في سويعة غير من قتل منهم بدء المعركة.

(٧٠٨) الهذّ: سرعة القطع وسرعة القراءة — كتاب العين: ٣/٣٤٩ .

(٧٠٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٧٠/٢ — ٧٢، والمغازي للواقدي: ٢٨٧/١، وإمتاع الأسماع: ١٦٦/١ وتفسير مجمع البيان: ٣٧٨/٢، بحار الأنوار: ٥٥/٢٠.

ومرّ به أبو العِداق وهو يُسلم الروح فقال له: هنيئاً لك الشهادة يا قرمان! قال قرمان: إني والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين. ما قاتلت إلا على الحِفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمانا وتطأ سعفنا. والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت^(٧١٠).

أما المؤمنون حقاً، وكان عددهم لا يزيد على سبعمائة يقاتلون ثلاثة آلاف، فقد رأيت من فعال حمزة وأبي دُجانة ما يصوّر لك صورة من قوّتهم المعنوية؛ قوة انشنت أمامها صفوف قريش وكأنها الخيزران، وتراجع أمامها أبطال قريش وكانوا بين العرب مضرب المثل في الاقدام والشجاعة. وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء حتّى أُحيط بنسائهم وحتّى وقع الصنم الذي احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذي كان يحمله ومن خلال الهودج الذي كان يحتويه. والحقّ أن ظفر المسلمين في صبيحة يوم أحد كان معجزة من معجزات الحرب، قد يفسّرها بعضهم بمهارة «محمد» في وضعه الرماة في شعب الجبل يصدّون الفرسان بالنبل فلا يتقدّمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم. وهذا حقّ. ولكنّ من الحقّ أيضاً أنّ ستّ المئة من المسلمين الذين هاجموا عدداً يوازي خمسة أمثالهم وعدّة وعديداً في مثل هذه النسبة، إنّما دفعهم إلى معجزات البطولة التي أتوا شيء أعظم من مهارة القيادة؛ ذلك هو الإيمان، الإيمان الصادق بأنّهم على الحقّ. ومن آمن بالحقّ لم ترعجه قوة مادّية مهما عظمت، ولم تضع من عزمته كلّ قوّات الباطل وإن اجتمعت. وهل رأيت مهارة القيادة وحدها كانت تُغني والرماة الذين وضعهم النبيّ في الشّعْب لم يكونوا إلاّ خمسين. فلو أنّ متّين أو ثلاثمئة رجل هاجمهم مستقّتين لما صمدوا ولا صبروا أمامهم. لكنّ القوّة الكبرى، قوّة الفكرة، قوّة العقيدة، قوّة الإيمان الصادق بالحقّ العليّ الأعلى، هذه القوّة لا غالب لها ما أراد صاحبها وجه الحقّ وحده. ولذلك تمزقت قريش في ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات ستمائة مسلم، وأوشكت نسوقها أن يؤخذن أسرى ذليلاً. وتبع المسلمون عدوّهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتّى بُعد عن معسكره، فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمة، وما أكثر ما كانت! وصرفهم ذلك عن اتّباع عدوّهم ابتغاء عرض الدنيا.

ورآهم الرماة الذين أمرهم الرسول ألاّ يروحوا الشّعْب ولو رأوه وأصحابه يقتلون، فقال بعضهم لبعض وقد سال لمرأى الغنيمة لُعابهم: «لَمْ تقيمون هاهنا في غير شيء وقد هزم الله عدوّكم وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين». قال قائل منهم: «ألم يقل لكم رسول الله لا تروحوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا؟» قال الأولون: «لم يرد

(٧١٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٨٨/٢، والمغازي للواقدي: ٢٢٣/١، وبحار الأنوار: ١٨٢/١ و ٩٨/٢٠.

رسول الله أن نبقى بعد أن أذلّ الله المشركين». واختلقوا؛ فخطبهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْر ألاّ يخالفوا أمر الرسول؛ فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلاّ نفر دون العشرة. واشترك المنطلقون في النهب وشغلوا كما شغل سائر المسلمين به. إذ ذاك اهتبل الفرصة خالد بن الوليد، وكان على فرسان مكة، فشدد برجاله على مكان الرماة فأجلاهم^(٧١١)، والمسلمون ما يزالون نسوا إيمانهم ونسوا الوطن، ولم يبق أمامهم إلاّ هذه المغامر يعبّون منها حتّى لم يبق رجل منهم وقع في يده شيء إلاّ أخذه؛ وإنّهم لكذلك وقد صاح ابن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنّه دار برجاله وراء جيش المسلمين، حتّى عاد منهم كلّ هزيم وحتّى أثخنوا في المسلمين ضرباً وقتلاً. هنالك دارت الدائرة؛ فألقى كلّ مسلم ما كان بيده ثمّا انتهب وعاد إلى سيفه يسلّه ليقاتل به^(٧١٢). ولكن هيهات هيهات! لقد تفرّقت الصفوف وتمزقت الوحدة وابتلع البحر اللّجّي من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين كانت إلى ساعة تقاتل بأمر ربّها تنضح عن إيمانها، وهي الساعة تقاتل لتنجو من براثن الموت ومحالب الدلّة. وكانت تقاتل متراصّة متضامنة، وهي الآن تقاتل مبعثرة متناكرة. وكانت تقاتل تحت قيادة قويّة حازمة حكيمة، وهي الآن تقاتل ولا قيادة لها. فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه ولا يكاد يعرفه. وصاح صائح بالناس: إنّ «محمّداً» قد قُتل، فازدادت الفوضى وعظمت البليّة، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً ولا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش. قتل المسلمون مواطنهم المسلم حُسيل بن جابر أباحذيفة وهم لا يعرفونه^(٧١٣). وكان أكبر همّ كلّ مسلم أن ينجو بنفسه إلاّ من عصم الله من أمثال عليّ بن أبي طالب^(٧١٤)^(٧١٥). وازدادت قوة المشركين المعنوية حتّى صاح حامل لوائهم أبوسعد ابن أبي طلحة: أترعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار! واللّات إنكم

(٧١١) المغازي للواقدي: ٢٢٩/١ — ٢٣٠، والطبقات الكبرى: ٤١/٢ — ٤٢، وإمتاع الأسماع: ١٤٤/١ — ١٤٥، ومجمع البيان: ١٨٤/٤ و ٤٩٨/٢.

(٧١٢) المغازي للواقدي: ٢٣١/١.

(٧١٣) المغازي للواقدي: ٢٣٣/١، وإمتاع الأسماع: ١٤٥/١.

(٧١٤) المغازي للواقدي: ٢٤٠/١، وإمتاع الأسماع: ١٤٨/١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٤١/١٤ والإرشاد للمفيد: ٨٣/١ — ٨٤. (٧١٥) وجاء أيضاً أنّه كان قريباً من رسول الله ملازماً له، حيث كان الرسول يوجهه ليردّ المهاجمين عليه وأيضاً هو الذي أخذ بيد النبيّ (صلى الله عليه وآله) لما سقط في أحد إلى الحفرة التي حفرها أبوعامر الراهب في ساحة المعركة، ليقع فيها المسلمون. السيرة النبويّة لابن هشام: ٨٠/٣.

ويضاف أنّه (عليه السلام) حمل الماء بدرقته إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) ليغسل الدم والتراب عن وجهه ورأسه.

ولما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة (عليها السلام) وقال: اغسلي عن هذا دمه يا بُنية وناولها عليّ (عليه السلام) سيفه وقد خضب الدم يده إلى كتفه، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله): خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش. أعيان الشيعة: ٣٩٠/١.

ورغم الجراحات التي تعرّض لها عليّ (عليه السلام) والجهد الذي بذله؛ فقد أرسله النبيّ (صلى الله عليه وآله) بعد انصراف قريش من المعركة ليستطلع أخبارهم، وهذا يدلّ على ثقة الرسول بقدرته عليّ (عليه السلام) وكفاءته في أداء تلك المهمّات. أعيان الشيعة: ٣٩٠/١.

لتكذبون. ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقاً فليتقدم منكم من يقاتلني ، وسمعه عليّ فضربه بسيفه ضربة فلقت هامته^(٧١٦). فتقدمت عَمْرَة بنت علقمة الحارثية فتناولت اللواء من يد طلحة ثم أخذته منها صُواب الحبشي^(٧١٧) فقتله سعد بن أبيوقاص^(٧١٨). فتناوله بعده أربعة من قريش كان نصيبهم الموت متتابعين.

على أن قريشاً ما لبثت أن سمعت بمقتل «محمد» حتى تدافعت تدافع السيل إلى الناحية التي كان فيها، وكلُّ يريد أن يكون له في قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به. هنالك أحاط المسلمون القريبون من نبيهم به يدفعون عنه ويحمونه، وقد عاد الإيمان فملاً نفوسهم وملك قلوبهم وحبب إليهم الموت وهون عليهم الحياة الدنيا. وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا الحجارة التي تقذفها قريش قد أصابت النبي فوقع لشقه فأصيبت رباعيته وشجّ في وجهه وكلمت شفته، ودخلت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجنته — وكان رامي الحجر الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص — فتمالك وسار وأصحابه من حوله، فإذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون. هناك أسرع إليه عليّ بن أبي طالب فأخذ بيده ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى وجعل يسير وأصحابه، متسلقين أحداً، ناجين من العدو وأتباعه إياهم^(٧١٩).

وفي لحظة قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا في الدفاع عن رسول الله استماتة لا يُقهر صاحبها أبداً. كانت أمّ عمارة الأنصارية قد خرجت أوّل النهار ومعها سقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تسقي منهم من استسقى. فلما انهزم المسلمون ألقت سقاءها واستلت سيفاً وقامت تباشر القتال تدبّ عن «محمد» بالسيف، وترمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليها^(٧٢٠). وترس أبوذؤجانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنبيل يقع فيه. ووقف سعد بن أبيوقاص إلى جانب «محمد» يرمي بالنبيل دونه و «محمد» يناوله النبيل ويقول له: إرم فذاك أبي وأمي. وكان «محمد» قبل ذلك يرمي بنفسه عن قوسه، حتى اندقت سيّتها^(٧٢١)^(٧٢٢). هذا، فأما الذين ظنّوا أن «محمدًا» قد مات ومن بينهم أبوبكر وعمر فانتحلوا الجبل وألقوا بأيديهم. فرآهم

(٧١٦) مستدرک الحاكم: ١١١/٣، وتفسير القمّي: ١١٢/١ — ١١٣، وبحار الأنوار: ٥٠/٢٠ — ٥١.

(٧١٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٧٤/٢.

(٧١٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٨/٢، بل قتله عليّ (عليه السلام) أيضاً، وروى المفيد في الإرشاد: ٨٥/١ — ٨٦، عن تفسير القمّي:

١١٢/١٠ — ١١٣.

(٧١٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٧٩/٢ — ٨٠، والمغازي للواقدي: ٢٤٤/٢، وإمتاع الأسماع: ١٥١/١، ومناقب آل أبي طالب: ١٦٦/١.

(٧٢٠) المغازي للواقدي: ٢٧٠/٢. وهي تُسببة بنت كعب المازنية الخزرجية، بحار الأنوار: ١٣٢/٢٠ — ١٣٤، وشرح النهج: لابن أبي الحديد:

٢٦٦/١٤.

(٧٢١) سيرة القوس وستتها: طرفها المعطوف المعرقب — كتاب العين: ٢٥٤/١.

(٧٢٢) المغازي للواقدي: ٢٤١/٢، وعيون الأثر: ٢٢/٢.

أنس بن النضر فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القوم فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاء منقطع النظر، حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضُرب سبعين ضربة، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته، عرفته من بنانه^(٧٢٣).

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت «محمد»، فراح أبو سفيان يفتقده في القتلى. ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه (عليه السلام) لم يكذب أحد منهم خبر قتله، إطاعة لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه. على أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحية أبي دجانة ومن معه فعرف «محمدًا» حين رأى عينيه تزهزان تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله. فأشار النبي إليه ليسكت. لكن المسلمين مالبثوا أن عرفوا حتى نهضوا بالنبي ونهض معهم نحو الشعب، ومن حوله أبوبكر وعمر^(٧٢٤) وعليّ ابن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط غيرهم. وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها. صحيح أن أكثرهم لم يصدقها وحسبها صيحة أريد بها شدّ عزائم المسلمين، إلا أن بعضهم اندفع وراء «محمد» والذين ساروا معه. وقد أدركهم أبي بن خلف وهو يقول: أين «محمد»؟ لا نجوت إن نجا! فطعنه الرسول بحربة الحارث بن الصمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ليموت في الطريق^(٧٢٥). فلما انتهى المسلمون إلى فم الشعب خرج عليّ فملاً درقته ماء فغسل «محمد» به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه ونزع أبو عبيدة بن الجراح حلقتي المغفر من وجه الرسول فسقطت ثنيته^(٧٢٦). وإتهم كذلك إذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل. فقاتلهم عمر بن الخطاب^(٧٢٧) ورهط من أصحاب الرسول فردّوهم. وازداد المسلمون في الجبل تصعيداً وقد نهكهم التعب وهدهم الجهد، حتى صلى النبي قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

فأما قريش فطارت بنصرها سروراً وحسبت نفسها انتقمت لبدر أشد الانتقام؛ حتى صاح أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والموعود العام المقبل. فأما هند بنت عتبة زوجة فلم يكفها النصر، ولم يكفها قتل حمزة بن عبدالمطلب، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمشن بالقتلى من المسلمين يُجدّعن الآذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطاً، ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعة ما

(٧٢٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٨٣/٢، ومناقب آل أبي طالب: ٣١٦/٢، وبحار الأنوار: ٨٧/٢٠.

(٧٢٤) هذا وقد اعترف آنفاً إتهما كانا بمن ظن أن محمداً قد مات فانتحلوا الجبل وألقوا بأيديهم، فكيف يقول الآن إنهما نهضا معه نحو الشعب؟! بل نصّ الواقدي: وتوجه النبي يريد أصحابه في الشعب.. وليس مع أصحابه فضلاً عما ذكره الدكتور المؤلف.

(٧٢٥) المغازي للواقدي: ٢٣٦/١، وعيون الأثر: ٢٣/٢، وإعلام الوري: ١٧٨/١.

(٧٢٦) المغازي للواقدي: ٢٤٧/١، وعيون الأثر: ٢٥/٢، وتفسير العياشي: ٢٠١/١، وبحار الأنوار: ٩١/٢٠.

(٧٢٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٨٦/٢. والنص: فما صلى الظهر إلا جالساً. وليس فيه صلاة أصحابه خلفه.

فعلت وما فعل النسوة ممن معها، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع، أن تبرأ أبوسفیان من تبعيتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه، بل قال يخاطب أحد المسلمين: إنه قد كان في قتالكم مثلٌ والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت^(٧٢٨).

وانصرف قريش بعد أن دفنت قتلاها وعاد المسلمون إلى الميدان لدفن قتلاهم. وخرج «محمد» يلتمس عمه حمزة. فلما رآه قد بُقِرَ بطنه ومثّل به حزن من أجله أشدّ الحزن، وقال: لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ اليّ من هذا. ثمّ قال: والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأُمثّلنّ بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب^(٧٢٩). وفي هذا نزل قوله تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ* وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)^{(٧٣٠)(٧٣١)} فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة وسجّى حمزة ببردة وصلى عليه. وجاءت أخته صفية بنت عبدالمطلب فنظرت إليه وصلت عليه واستغفرت له. ودُفن حمزة، وأمر النبي بالقتلى فدفنوا حيث لقوا مصارعهم^(٧٣٢). وانصرف المسلمون إلى المدينة و «محمد» على رأسهم، تاركين وراءهم سبعين من القتلى، يحزّ في نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة بعد نصر، ومن مذلة وهوان بعد ظفر لا ظفر مثله، وذلك كله لعصيان الرماة أمر النبي واشتغال المسلمين عن العدو بغنائمه.

ودخل النبي إلى بيته وجعل يفكر. هاهم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشرّكين يُظهرون السرور أشدّ السرور، لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه^(٧٣٣). وهذا سلطان المسلمين

(٧٢٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٩١/٢، والمغازي للواقدي: ٢٧٤/١ و٢٨٦، وإمتاع الأسماع: ١٦٣/١ — ١٦٤ و١٦٦ ومجمع البيان: ١٨٥/٤.

(٧٢٩) المثلة باليت من القيم الجاهلية التي نبذها الرسالة وحرمتها، قال النبي (صلى الله عليه وآله): «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور» نهج البلاغة: ٦٠/١٧، والمعجم الكبير للطبراني: ١٠٠/١، والنبي الكريم أرفع خلقاً وهو المتزّه عن رجس الجاهلية وآثامها أن يصدر منه هذا القول، فلطالما كان (صلى الله عليه وآله) يوصي الغزاة المسلمين: «أغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا...» المغازي للواقدي. مجمع الزوائد: ٣١٦/٥، مسند أحمد: ٣٠٠/١، الكافي: ٣٠/٥.

(٧٣٠) النحل (١٦): ١٢٦ — ١٢٧.

(٧٣١) أمّا القول بأنّ السبب في نزول الآية هو قول النبي (صلى الله عليه وآله) المذكور، قد ضعّف أصحاب التفاسير الرواية التي نقلت ذلك، منهم صاحب تفسير القرآن العظيم: ٥٧/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠١/١٠، والكشاف: ٦٤٤/٢. أمّا الفخر الرازي فقد قال: لا حاجة لنا إلى القدح في الرواية لأنّنا نقول: تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية، فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية، إنّما الذي ينازع فيه أنّه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة، لأنّ ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى، التفسير الكبير: ١٤١/١٩.

وأخيراً ينقل لنا صاحب تفسير مجمع البيان: بأنّ المسلمين قالوا: لئن أمكننا الله منهم لتمثّلنّ بالأحياء فضلاً عن الأموات، فزلت الآية المذكورة عن الشعبي وقادة وعطاء بن يسار: ٢١٠/١٤.

(٧٣٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٩٧/٢، والمغازي للواقدي: ٣١١/١، ومناقب عليّ بن أبي طالب: ١٦٧/١، وبحار الأنوار: ٦٣/٢٠.

(٧٣٣) المغازي للواقدي: ٣١٧/١، وإمتاع الأسماع: ١٧٧/١، والسيرة النبوية لابن كثير: ٩٦/٣.

بالمدينة كان قد استقرّ فلم يبق لأحد أن ينازع فيه، وهذا هو يوشك أن يضطرب ويتزعزع. وهذا عبدالله بن أبي بن سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى أن «محمدًا» لم يسمع رأيه، أو أن «محمدًا» غضب على مواليه من اليهود. فلو أن هزيمة أحد بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لكان أمر «محمد» وأصحابه على العرب من ناحية، ولتضعض سلطاهم بيثرب من ناحية أخرى، ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش بهم وارسالها دعاية السخر والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً. أضف إلى هذا ما قد يكون من اجترأ المشركين وعباد الأوثان على دين الله فتكون الطامة الكبرى. فلا بد إذاً من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد وتردّ إلى المسلمين قوتهم المعنوية، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الهيبة، وتعيد إلى «محمد» وأصحابه سلطاهم بيثرب قوياً كما كان.

فلما كان الغد من يوم أحد؛ وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن النبي في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته، على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة. وخرج المسلمون. فوقع في روع أبي سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم. وبلغ «محمد» حمراء الأسد، وكان أبوسفيان وأصحابه بالروحاء، فمرّ به معبد الحزاعي وكان قد مرّ بـ «محمد» ومن معه، فسأله عن شأنهم فأجابه معبد — وكان ما يزال على الشرك — «أنّ محمدًا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قطّ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلّهم أشدّ ما يكون عليكم حتقاً ومنكم للثأر طلباً». على أن أباسفيان فكّر من جانبه فيما يكون لفراره من «محمد» ومن عدم مواجهته إيّاه بعد انتصاره عليه بأحد من الأثر. أفلا تقول العرب في قريش ما كان يودّ هو أن تقوله في «محمد» وأصحابه! ولكن هبّ رجّع إلى «محمد» فهزمه المسلمون، إذاً ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً. فلجأ إلى الحيلة، فبعث مع ركب من عبدالقيس يقصدون المدينة أن يبلغوا «محمدًا» أنّه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم. فلما أبلغ الركب الرسالة إلى «محمد» بحمراء الأسد لم يتضعض عزمه ولم تهّن قوته، بل ظلّ في مكانه يوقد النار طيلة ثلاثة أيام متتابعة، ليدلّ قريشاً على أنّه على عزمه وأنّه منتظر رجعتهم. وأخيراً تدعذعت^(٧٣٤) همة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميمّمين مكّة. ورجع «محمد» إلى المدينة وقد استردّ كثيراً من مكانة تزعزعت على إثر أحد، وإن كان المنافقون قد بدؤوا يرفعون الفصل السادس

عشر: آثار أحد

(٧٣٤) تفرقت. بل تزعزعت أي تضعضعت وتزلزلت .

رؤوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم : إذا كانت بدر آية من الله برسالة «محمد»، فماذا عسى أن تكون آية أحد وماذا تكون دلالتها؟! (٧٣٥).

* * *

(٧٣٥) السيرة النبوية لابن هشام: ١٠١/٢، والمغازي للواقدي: ٣٣٤/١ — ٣٤٠، وعيون الأثر: ٥٣/٢ — ٥٤ وجمع البيان: ٢٨٦/٤، وبحار الأنوار: ٦٥/٢٠ .

الفصل السادس عشر

آثار أحد

ائتمار القبائل المجاورة بالمسلمين، غزوة بني أسد، أمر الهذلي، مقتل حبيب وأصحابه بالرجيع، مقتل المسلمين ببئر معونة، إجلاء بني النضير عن المدينة، غزوة بدر الآخرة، غزوة دومة الجندل.

عاد أبو سفيان من أحد إلى مكة وقد سبقته إليها أخبار النصر وهو ممتلى النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر. ولم يلبث أن بلغها حتى قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، وبها رفع إلى كبير آلهتهم هبل آي الشاء والحمد. ثم حلق لِمَتِه ورجع إلى داره موفياً نذره ألا يقرب زوجته حتى ينتصر على «محمد»^(٧٣٦). أمّا المسلمون فألفوا المدينة قد تنكر لهم الكثير من أمرها، رغم مطاردتهم عدوهم وصمودهم له ثلاثة أيام متتابة من غير أن يجترئ على الرجعة إليهم، وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم. ألفوا المدينة وقد تنكر لهم الكثير من أمرها، وإن بقي سلطان «محمد» فيها السلطان الأعلى. وشعر (عليه السلام) بدقة الموقف وخرج المركز، لا في المدينة وحدها، بل عند سائر قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها، بل ردّت أحد إليها من السكينة ما يسمح لها أن تفكر في معارضته ومناوئته. لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار العرب جميعاً، على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبته في النفوس.

وكان أول ما بلغه بعد شهرين من أحد أن بني أسد، وعلى رأسهم طليحة وسلمة ابنا خويلد قد ساروا في قومهما ومن أطاعهما يدعوفهم إلى مهاجمة المدينة والسير إلى «محمد» في عُقر داره ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من نعم المسلمين التي ترعى الزروع الخيطة بمدينتهم. إنما شجّعهم على ذلك اعتقادهم أن «محمدًا» وأصحابه ما يزالون مضعضعين من أثر أحد. فما لبث النبي أن اتصل به الخبر حتى دعا إليه أبا سلمة بن عبد الأسد وعقد له لواء

سرية تبلغ عدتها مئة وخمسين، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبيوقاص وأسيد بن حضير، وأمرهم بالسير ليلاً والاختفاء نهاراً وسلوك طريق غير مألوف حتى لا يطلع أحد على خبرهم، فيفجئوا العدو بالإغارة عليه على غرة منه. ونفذ أبو سلمة ما أمر به حتى جاء القوم ولم يستعدوا لنضال، فأحاط بهم في عماية الصبح، وحضّ رجاله وحرّضهم على الجهاد؛ فلم يستطع المشركون أن يشبّثوا لهم، فوجّه لواءين في طلبهم وطلب الغنيمة، وأقام هو ومن معه حتى عاد المطاردون بماغنموا، فتحوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل، واقتسموا الباقي ورجعوا إلى المدينة ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً لما ضيّعت أحد. على أن أبا سلمة لم يعيش بعد السرية طويلاً؛ فقد كان جرحاً بأحد ولم يكن الشّام جرحه إلاّ ظاهراً. فلمّا أجهد نفسه نَعَرَ^(٧٣٧) الجرح وظلّ به حتى قضى عليه^(٧٣٨).

واتصل بـ «محمد» من بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن بُيَاح الهذلي مقيم بنخلة، أو بعُرنَة وأنه يجمع الناس ليغزوهم، فدعا إليه عبدالله بن أنيس وبعثه يتجسّس حتى يقف على جليّة الخبر. وسار عبدالله حتى التقى بخالد وهو في ظعن يرتاد هُنّ متراً. فلمّا انتهى إليه سأله خالد: من الرجل؟ فأجابه: أنا رجل من العرب سمع بك وجمعتك لـ «محمد» فجاءك لذلك، فلم يخف خالد أنّه يجمع الجموع ليغزو المدينة. ولما رآه عبدالله في عزلة من الرجال وليس معه إلاّ أولئك النسوة استدرجه للمسير معه، حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله، ثم ترك ظعائنه منكبات عليه يبيكنه، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر. وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمناً، ثم فكّرت تحتال لتثأر له^(٧٣٩).

في هذا الظرف وفد رهط من قبيلة تجاورهم إلى «محمد» يقولون له: إنّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئونا القرآن. وكان «محمد» يبعث من أصحابه كلمة دُعي إلى ذلك ليؤدوا هذه المهمة الدينية السامية. وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق، وليكونوا لـ «محمد» وأصحابه عيوناً على خصومهم وأعدائهم، على نحو ما رأيت من ذلك كلّ فيمن بعثهم إلى المدينة على أثر العقبة الكبرى. لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع رهط وساروا معهم، حتى إذا كانوا جميعاً على ماء هذيل بالحجاز بناحية تدعى «الرّجيع» غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا. ولم يرع المسلمون الستة وهم في رحالهم إلاّ الرجال بأيديهم السيوف

(٧٣٧) نَعَرَ الجرح: علا وارتفع واحمرّ، نفرت القدر: غلت — كتاب العين: ٤/٤٠٥.

(٧٣٨) مغازي الواقدي: ١/٣٤٠ — ٣٤١، والطبقات الكبرى: ٢/٥٠، وإمتاع الأسماع: ١/١٨١.

(٧٣٩) طبقات ابن سعد: ٢/٥٠ — ٥١، وعيون الأثر: ٢/٥٦ — ٥٧.

قد غشوههم . فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا، لكنّ هُذَيْلاً قالت لهم: إنّنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم من أهل مكّة، ولكم عهد الله وميثاقه ألاّ نقتلكم. ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكّة فرادى إنّما هو المذلة والهوان وما هو شرّ من القتل. فأبوا ما وعدت هذيل وانبروا لقاتلها وهم يعلمون أنّهم في قلة عددهم لا يطيقونه. وقتلت هذيل ثلاثة منهم، ولان الثلاثة الباقون، فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى وخرجت بهم إلى مكّة تبيعهم فيها. فلمّا كانوا في بعض الطريق انتزع أحد المسلمين الثلاثة، عبدالله بن طارق، يده من غلّ الأسر، ثمّ أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم وطفقوا يرمونه بالحجارة حتّى قتلوه ، أمّا الأسيران الآخرون فقد تمت بهما هذيل مكّة وباعتهما من أهلها. باعت زيد بن الدثنة لصفوان بن أميّة الذي اشتراه ليقبله بأبيه أميّة بن خلف، فدفع به إلى مولى يقال له نسطاس ليقبله. فلما قدم سأله أبوسفیان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن «محمّداً» الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال زيد: والله ما أحب أن «محمّداً» الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي! فعجب أبوسفیان وقال: «ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يجب أصحاب «محمّد» «محمّداً». وقتل نسطاس زيدا، فذهب شهيد أمانته لدينه ولنبيّه. أمّا خبيب فحبس حتّى خرجوا به ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم تدعوني حتّى أركع ركعتين فافعلوا؛ فأجازوه ما أرادوا؛ فركع الركعتين أتمهما وأحسنهما، ثمّ أقبل على القوم وقال: أما والله لولا أن تظنّوا أنّي إنّما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. ورفعه إلى خشبة، فلمّا أوثقه إليها نظر إليهم بعين مغضبة وصاح: اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. فأخذت القوم الرجفة من صيحته واستلقوا إلى جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته ثمّ قتلوه. وكذلك استشهد خبيب كما استشهد زيد في سبيل بارئه وفي سبيل دينه ونبيّه؛ وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران، كان في استطاعة صاحبيهما أن يستنقذاهما من القتل إذا رضا الردّة عن دينهما، لكنّهما في يقينهما بالله وبالروح وبيوم البعث، يوم تُجزى نفس بما كسبت ولا تزر وازرة وزر أخرى، رأيا الموت وهو غاية كلّ حي خير ما يكون غاية للحياة في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان بالحقّ ولكنّهما آمنّا بأنّ دمهما الزكي الطهور الذي أريق على أرض مكّة سيدعو إليها إخوتهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطّمون أصنامها ويطهّرونها من رجس الوثنية والشرك، ويردّون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من قداسة وتزوّه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله.

حزن المسلمون وحزن «محمد» لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا في سبيل الله بغدر هذيل بهم، وأرسل حسان بن ثابت أشعاره يرثي فيها خُبياً وزيداً أحرَّ الرثا^(٧٤٠). وازداد «محمد» تفكيراً في أمر المسلمين وخشي إن تكررت مثل هذه الأمور أن تستخفَّ العرب بشأنهم . ولا شيء أقتل لهيبتك من استخفاف الغير بشأنك. وإنه لفي تفكيره إذ قدم عليه أبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأستة، فعرض «محمد» عليه أن يُسلم فلم يقبل، ولكنه لم يُظهر للإسلام عداوة؛ بل قال : يا «محمد» ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فخاف «محمد» على أصحابه أهل نجد وخشي أن يغدروا بهم ما غدرت هذيل بخبيب وأصحابه. ولم يقتنع ولم يجب طلب أبي براء، حتّى قال: أنا لهما جار، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك. وكان أبو براء رجلاً مسموع الكلمة في قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه. وبعث «محمد» المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين رجلاً من خيار المسلمين فساروا حتّى نزلوا بئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم. ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب «محمد». فلم ينظر عامر في الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ بني عامر كي يقتلوا المسلمين. فلما أبوا أن يخفروا ذمة أبي براء وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتّى أحاطوا بالمسلمين في رحالهم. فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتّى قتلوا عن آخرهم، لم ينج منهم إلا كعب بن زيد؛ إذ تركه ابن الطفيل وبه رمق فعاش ولحق بالمدينة، وإلا عمرو بن أمية الذي أعتقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنّها كانت على أمّه. ولقي عمرو رجلين في الطريق حين عودته بعد انطلاقه ، فخشيهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فأمهلهما حتّى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وتابع مسيرته حتّى بلغ المدينة فأخبر الرسول(عليه السلام) بما صنع، فإذا الرجلان عامريان من قوم أبي براء، وإذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدّي ديتهما.

ووجد «محمد» لقتلى بئر معونة أشدّ الوجد وحزن من أجلهم أعمق الحزن، وقال: هذا عمل أبي براء، لقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً. وشقّ على أبي براء إخفار عامر بن الطفيل إيّاه، حتّى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامراً بالرمح انتقاماً منه لأبيه. وبلغ من حزن «محمد» أنّه ظلّ شهراً

(٧٤٠) مغازي الواقدي : ٢ / ٣٥٤ — ٣٦٣، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٥٥ — ٥٦ ، وإمتاع الأسماع: ١٨٤/١ — ١٨٧، وبحار الأنوار:

كاملاً يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلهم. وتأثر المسلمون جميعاً بهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين وإن آمنوا بأنهم جميعاً استشهدوا وبأنهم جميعاً لهم الجنة^(٧٤١).

على أن أهل المدينة من المنافقين واليهود قد وجدوا فيما أصاب المسلمين بالرجيع وبتر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأحد، وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد، وما أضعف في نفوسهم من هيبة «محمد» وأصحابه. وفكر النبي (عليه السلام) في هذه الحالة تفكير سياسي دقيق النظر بعيد مرامي الرأي؛ فليس شيء أشد على المسلمين يومئذ خطراً من أن تضعف في نفوس مساكنهم بالمدينة هيبتهم، وليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلي يوشك أن يشتر حرباً أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها. ثم إنه قد رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر. فقدّر أن لا شيء خير من أن يستدرجهم لتتضح نيّاتهم. ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر ، فقد ذهب إلى محلّتهم على مقربة من قباء في عشرة من كبار المسلمين، بينهم أبوبكر وعمر وعليّ، وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتل عمرو بن أمية خطأ ومن غير أن يعلم أن «محمدًا» أجارهما. فلما ذكر لهم ما جاء فيه أظهروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لإجابته. لكنّه ما لبث أثناء تبسّط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون ويذهب أحدهم إلى ناحية ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف، ويدخل أحدهم (عمرو بن جحاش بن كعب) البيت الذي كان «محمد» مستنداً إلى جداره. إذ ذاك رابه أمرهم، وزاده ريبة ما كان يبلغه من حديثهم عنه واثمارهم به. لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنّه قام لبعض أمره. أمّا اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب «محمد» ولا ما يصنعون بهم. فان هم غدروا بهم فـ «محمد» لا ريب منتقم منهم شرّ انتقام. وإن هم تركوهم فلهلّ ائتمارهم بحياة «محمد» وأصحابه لا يكون قد افترض فيظلّ ما بينهم وبين المسلمين من عهد قائماً. وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رايهم من غير أن يشيروا إلى شيء منه. لكن أصحاب «محمد» استبطئوه فقاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن «محمدًا» دخلها وأنه قصد توّاً إلى المسجد فيها، فذهبوا إليه. فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به وتنبهوا إلى ما كانوا رأوا ، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول وما أوحى إليه. وبعث النبي يدعو إليه محمد بن مسلمة، وقال له: «إذهب إلى يهود بني النضير وقل

(٧٤١) مغازي الواقدي: ٣٤٦/١ — ٣٥٣، والطبقات الكبرى: ٥١/٢ — ٥٤، والسيرة النبوية لابن هشام: ١٨٣/٢ — ١٨٦، وتفسير مجمع

البيان: ٤٤٠/٢ — ٤٤١، وبحار الأنوار: ١٤٧/٢٠ — ١٤٩.

لهم: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ أَنْ أَخْرَجُوا مِنْ بِلَادِي. لَقَدْ نَقَضْتُمُ الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتُ لَكُمْ بِمَا هَمِمْتُمْ بِهِ مِنَ الْغَدْرِ بِي. لَقَدْ أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا، فَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَرِبَتْ عُنُقُهُ». وَأَبْلَسَتْ بَنُو النَّضِيرِ فَلَمْ يَجِدُوا لِهَذَا الْكَلَامِ دَفْعًا وَلَمْ يَحِيرُوا جَوَابًا إِلَّا أَنْ قَالُوا لابنِ مُسْلَمَةَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا كُنَّا نَرَى أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا رَجُلٌ مِنَ الْأَوْسِ. وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى تَحَالُفِهِمْ وَإِيَّاهُمْ مِنْ قَبْلِ فِي حَرْبِ الْخَزَرَجِ. فَكَانَ كُلُّ مَا أَجَابَ بِهِ ابْنُ مُسْلَمَةَ: تَغَيَّرَتِ الْقُلُوبُ.

وَمَكَثَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا يَتَجَهَّزُونَ. وَإِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَقُولَانِ: لَا تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَقِيمُوا فِي حَصُونِكُمْ، فَإِنَّ مَعِيَ أَلْفَيْنَ مِنْ قَوْمِي وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حَصْنَكُمْ وَيَمُوتُونَ عَنْ آخِرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُوَصَلَ إِلَيْكُمْ. وَتَشَاوَرَتْ بَنُو النَّضِيرِ فِي مَقَالَةِ ابْنِ أَبِي وَهُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ حِيرَةً. فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَابُنْ أَبِي آيَةً ثَقَّةً. أَلَمْ يَعِدْ بَنِي قَيْنِقَاعَ مِنْ قَبْلِ مِثْلِ مَا يَعِدُ بَنِي النَّضِيرِ الْيَوْمَ، فَلَمَّا جَدَّ الْجَدَّ تَخَلَّى عَنْهُمْ وَوَلَّى مَدِيرًا! وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَنِي قَرِيضَةَ لَا يَنْصُرُونَهُمْ لَمَّا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ «مُحَمَّدٍ» مِنْ عَهْدٍ. ثُمَّ إِنَّهُمْ إِنْ جَلَوْا عَنْ دِيَارِهِمْ إِلَى خَيْبَرَ وَإِلَى مَحَلَّةِ قَرِيْبَةِ اسْتِطَاعُوا أَنْ يَعُودُوا حِينَ يُثْمَرُ نُخَيْلُهُمْ إِلَى يَثْرِبَ يَجْنُونَ ثَمَرَهُ وَيَعُودُونَ أَدْرَاجَهُمْ فَلَا يَكُونُونَ قَدْ خَسَرُوا كَثِيرًا. قَالَ كَبِيرُهُمْ حُبَيِّ بْنُ أَخْطَبٍ: كَلَّا! بَلْ أَنَا مَرْسَلٌ إِلَى «مُحَمَّدٍ»: إِنَّا لَا نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَلْيَصْنَعْ مَا بَدَّاهُ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَرْمِيَ حَصُونَنَا، نُدْخِلَ إِلَيْهَا مَا شِئْنَا وَنَدْرِبَ أَزْقَتَنَا وَنَنْقُلَ الْحِجَارَةَ إِلَيْهَا، وَعِنْدَنَا مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينَا سَنَةً، وَمَاؤُنَا لَا يَنْقُطُ وَلَنْ يَحْصِرُنَا «مُحَمَّدٌ» سَنَةً كَامِلَةً. وَانْقَضَتْ الْأَيَّامُ الْعَشْرَةُ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ.

فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ السِّلَاحَ وَسَارُوا إِلَيْهِمْ فَقَاتَلُوهُمْ عَشْرِينَ لَيْلَةً كَانُوا أَثْنَاءَهَا إِذَا ظَهَرُوا عَلَى الدَّرْبِ أَوْ الدَّارِ تَأَخَّرَ الْيَهُودُ إِلَى الدَّارِ الَّتِي مِنْ بَعْدِهَا بَعْدَ تَخْرِيبِهِمْ إِيَّاهَا. ثُمَّ أَمَرَ «مُحَمَّدٌ» أَصْحَابَهُ أَنْ يَقْطَعُوا نَخْلَ الْيَهُودِ وَأَنْ يُحَرِّقُوهُ حَتَّى لَا تَبْقَى الْيَهُودُ فِي شِدَّةٍ تَعْلَقُهَا بِأَمْوَالِهَا تَتَحَمَّسُ لِلْقِتَالِ وَتَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ. وَجَزَعَ الْيَهُودَ وَنَادَوْا: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ وَتُعَيِّبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ، فَمَا بَالُ قِطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا! وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ: (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) (٧٤٢). وَعَبَثًا انْتَظَرَ الْيَهُودُ نَصْرَ ابْنِ أَبِي أَوْ تَقَدَّمَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ لِنَجْدَتِهِمْ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ لَدَيْهِمْ رِيْبَةٌ فِي سُوءِ مَصِيرِهِمْ إِذَا هُمْ أَصْرَوْا عَلَى مِتَابَعَةِ الْقِتَالِ. فَلَمَّا مَلَأَ الْيَأْسُ قُلُوبَهُمْ رَعْبًا، سَأَلُوا «مُحَمَّدًا» أَنْ يُؤْمِنَهُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ. فَصَالَحَهُمْ «مُحَمَّدٌ» عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا، وَلِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرٌ

يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب، ليس لهم غيره. واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُيَيَّ بن أخطب، فترل منهم من نزل خيبراً، وسار آخرون إلى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغام كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً، ثم كان ما خلّت اليهود من الأرض التي كانوا يملكون خير ما غنم المسلمون. على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، ولذلك لم تُقسّم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء. وقد قسّمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن استبقى قسماً خُصّصت غلته للفقراء والمساكين. وبذلك أصبح المهاجرون في غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثرواتهم. ولم يشرك في القسمة من الأنصار إلاّ أبادجانة وسهل بن حنيف، فقد ذكرا فقراً فأعطاهما «محمد» كما أعطى المهاجرين. ولم يُسلم من يهود بني النضير غير رجلين، أسلما على أموالهما فأحرزاهما^(٧٤٣).

ليس عسيراً أن يقدر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدّمنا من تقدير الرسول (عليه السلام) لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رؤوسهم كلما أصاب المسلمين شرّ، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء. وفي جلاء بني النضير نزلت سورة الحشر^(٧٤٤) وجاء فيها: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَا تَتَمَّ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)^(٧٤٥). وتجري السورة بعد ذلك بذكر الإيمان وسلطانه؛ الإيمان بالله وحده لا تعرف النفس الإنسانية التي تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطاناً: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٧٤٦).

(٧٤٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١٩٠/٢ — ١٩٢، المغازي للواقدي: ٣٦٣/١ — ٣٨٣، طبقات ابن سعد: ٥٧/٢ — ٥٩، وإمتاع الأسماع:

١٨٨/١ — ١٩٢، وراجع تفسير القمي: ١٨٩/٢ — ١٩٠، ومجمع البيان: ٤٢٦/٩، وبحار الأنوار: ١٦٣/٢٠ — ١٦٤ — ١٦٨ — ١٧٣.

(٧٤٤) تفسير الطبري: ٤٤/١٢، وتفسير مجمع البيان: ٤٣٥/٩.

(٧٤٥) الحشر (٥٩): ١١ — ١٣.

(٧٤٦) الحشر (٥٩): ٢٣ — ٢٤.

كان كاتب سرّ النبيّ إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، من اليهود، ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريد. فلمّا جلا اليهود خاف النبيّ أن يستعمل في أسرارهِ غير مسلم، فأمر فتعلم زيد بن ثابت من شبّان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين ، وأصبح كاتب سرّ النبيّ في كلّ شؤونه . وزيد بن ثابت هذا هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي بكر، وهو الذي عاد فراقب حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان، فوضع مصحف عثمان وأُحرقت سائر المصاحف^(٧٤٧).

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بني النضير عنها، ولم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها، واغبت المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود، واغبت الأنصار أن لم يبق عليهم عيال غيرهم، وتنفس الكلّ الصُّعداء، وكانت فترة سكون وهدوء وطمأنينة استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً. وظلّوا كذلك حتّى استدار العام منذ أحد، وذكر «محمّد عليه السلام» قوله أبي سفيان يوم بدر والموعود العام المقبل ودعوته «محمّداً» للقاءه ببدر مرّة أخرى. وكان العام عام جذب ، وكان أبو سفيان يودّ لو يؤجّل اللقاء إلى عام آخر. فبعث نعيماً إلى المدينة يقول للمسلمين: إنّ قريشاً جمعت جيشاً لا قبل لجيش في العرب بمواجهته لتحاربهم به، حتّى تقضي عليهم قضاء لا يعتبر مأثم بأحد إلى جانبه شيئاً. وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر. لكنّ «محمّداً» غضب لهذا الاستضعاف والتراجع وصاح بهم مُقسماً أنّه ذاهب إلى بدر ولو ذهب وحده.

لم يبق بعد هذه الغضبة العظيمة إلّا أن يذوب كلّ تردّد ويتلاشى كلّ خوف، وأن يحمل المسلمون سلاحهم وأن يذهبوا إلى بدر مع «محمّد» الذي استعمل على المدينة عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول. ونزل المسلمون بدرّاً ينتظرون قريشاً مستعدّين لقتالها. وخرجت قريش مع أبي سفيان من مكّة في أكثر من ألفي رجل. لكنّ أباسفيان بدّاه أن يرجع بعد مسيرة يومين، فنادى في الناس: يا معشر قريش؛ إنّّه لا يصلحكم إلّا عام خصيب وإن عامكم هذا جذب، وإني راجع فارجعوا. ورجع الناس، وأقام «محمّد» في جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيّام متتابعة، اتّجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم ثمّ عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة^(٧٤٨). وفي بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى في سورة آل عمران^(٧٤٩): (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ

(٧٤٧) أسد الغابة: ٢ / ٢٢١ — ٢٢٢. وراجع للتوسع: تلخيص التمهيد في علوم القرآن: ١٥٦/١ مؤسسة النشر الإسلامي، قم إيران، الطبعة

الثانية ١٤١٧ هـ — للعلامة معرفة، والبيان للمرحوم الخوئي: ٢٤٠، منشورات أنوار الهدى، الطبعة الثامنة، قم — إيران ١٤٠١ هـ ،

والقرآن في الإسلام للمرحوم الطباطبائي: ١١٣ دار الكتب الإسلامية، قم — إيران الطبعة الخامسة ١٣٧٠ هـ . ش .

(٧٤٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٠٩/٢ — ٢١٠، والمغازي للواقدي: ١ / ٣٨٤، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٥٩ .

(٧٤٩) تفسير الطبري: ٥٢٣/٣، وجمع البيان: ٤٤٩/٢.

أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَتْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٧٥٠).

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أحد محوًا تامًا ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عاما آخر رازحة تحت عار من جنبها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها في بدر الأولى.

وأقام «محمد» بالمدينة مستريحاً إلى نصر الله إياه مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين من هيبته، حذراً دائماً غدرة العدو، باثناً عيونه في كل النواحي. وإثته لذلك إذ اتصل به أن جماعة من غطفان بنجد يجمعون يريدون حربه. وكانت خطته أن يأخذ عدوه على غرة قبل أن يُعدَّ العدة لدفعه. لذلك خرج في أربعمئة من رجاله حتى نزل ذات الرقاع، حيث اجتمع بنو مُحارب وبنو ثعلبة من غطفان، فخافوه حين رأوه طلع عليهم في عُدّة حربه مهاجماً مساكنهم، وتفرقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم. واحتمل المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدراجهم إلى المدينة. على أنهم خافوا رجعة العدو عليهم فتناوبوا الحراسة ليل نهار، وجعل «محمد» يصلّي بهم أثناء ذلك كله صلاة الخوف. فكان جماعة منهم يظنون مستقبلين العدو مخافة لحاقه بهم في حين يصلّي الآخرون مع «محمد» ركعتين. ولم يبدُ للعدو من أثر، بل عاد النبي وأصحابه إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يوماً عنها وهم بظفرهم جدُّ فرحين (٧٥١).

وخرج النبي بعد قليل من ذلك إلى غزوة أخرى هي غزوة دومة الجندل. ودومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس. ولم يقابل «محمد» القبائل التي أراد مقاتلتها هناك، والتي كانت تغير على القوافل، لأنها ما لبثت أن سمعت باسمه حتى أخذها الفرع وولّت مدبرة وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم (٧٥٢). وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ «محمد» وأصحابه وما

(٧٥٠) آل عمران (٣): ١٦٨ — ١٧٥ .

(٧٥١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٠٣/٢ — ٢٠٤، والمغازي للواقدي: ٣٩٥/١ — ٣٩٦، وطبقات ابن سعد: ١ / ٦١، وراجع: مجمع البيان:

١٧٧/٣ — ١٧٨، وإعلام الوري: ١٨٩/١، وبحار الأنوار: ١٧٥/٢٠ — ١٧٦ .

(٧٥٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢١٣/٢، والمغازي للواقدي: ٤٠٢/١، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٦٢، بل إنما كانت غزوة دومة الجندل ضمن

غزوة تبوك في التاسعة للهجرة، لا بين أحد والخندق.

بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إياهم، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم مستهينين بالقيظ والجَدْب وقلة الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنوية: الإيمان بالله وحده لا شريك له.

آن لـ «محمد» من بعد ذلك أن يطمئن بالمدينة عدة أشهر متتابعة، ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم — سنة خمس من الهجرة — ويقوم بأمر ربّه باتمام التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية الناشئة تنظيمًا كان يتناول عدة ألوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك، ويقوم باتمام هذا التنظيم الاجتماعي في دقة وحسن سياسة، يوحى إليه ربّه منه بما يوحى، ويقر هو ما يتفق وأمر الوحي وتعاليمه، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ ، وما ظلّ من بعد ذلك قائماً على الأجيال والدهور، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* * *

الفصل السابع عشر: أزواج النبيّ

الفصل السابع عشر

أزواج النبي

زينب بنت خزيمة وأم سلمة، قصّة زينب بنت جحش وكلام المستشرقين فيها، وقائعها كما يرويها التاريخ الصحيح.

في الفترة التي وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين تزوّج «محمد» من زينب بنت خزيمة ، ثمّ من أمّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، ثمّ من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي تبّناه «محمد» وأعتقه منذ اشتراه يساراً لخديجة^(٧٥٣). هاهنا يصيح المستشرقون وبصيح المبشرون: أنظروا! لقد انقلب «محمد» الذي كان بمكّة داعية قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات هذه الحياة الدنيا، رجل شهوة يُسيل منظر المرأة لعابه، ولا يكفيه ثلاث نسوة في بيته، بل يتزوّج أولئك الثلاث اللاتي ذكرنا، ويتزوّج من بعدهن ثلاثاً أخريات غير ربحانة. وهو لا يكفيه أن يتزوج ثمن لا بُعولة لهنّ؛ بل هو يُشغف حبّاً بزينب بنت جحش وهي تحت زيد بن حارثة مولاه، لغير شيء إلاّ أنّه مرّ بيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب، وكانت في ثياب تُبدي محاسنها، فوقع منها في قلبه شيء لجمالها، فقال: سبحان مقلب القلوب، ثمّ كرّر هذه العبارة ساعة انصرافه؛ فسمعتها زينب ورأت في عينه وهج الحب، فأعجبت بنفسها وأبلغت زيداً ما سمعت. فذهب من فوره إلى النبيّ يذكر له استعداداه لتسريحها؛ فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. لكنّ زينب لم تحسن من بعد عشرته فطلّقها. وأمسك «محمد» عن زواجها وقلبه في شغل بها حتّى نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)^(٧٥٤). إذ ذاك تزوجها فأطفا بزواجها لاذع حبه ومتوهّج غرامه. فأبيّ ني

(٧٥٣) إمتاع الأسماع للمقريزي: ١ / ١٣٠ و ٢٠٢، والإصابة في تمييز الصحابة: ٣١٣/٤، ٣١٥، ٤٥٨. وعيون الأثر: ٢ / ٣٧٠ — ٣٧٢،

والمناقب لابن شهر آشوب: ١٦٠/١ و ١٧١.

(٧٥٤) الأحزاب (٣٣): ٣٧ .

هذا! وكيف به يُسبح لنفسه ما يحرمه على غيره! وكيف به لا يخضع للقانون الذي يقول إنّ الله أنزل عليه! وكيف به يخلق هذا «الحريم» الذي يثير في النفس ذكر الملوك المترفين، بدل أن يثير فيها ذكر الأنبياء الصالحين المصلحين! ثمّ كيف به يبلغ منه الخضوع لسلطان الحبّ في شأن زينب حتّى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها ثمّ يتزوجها هو، وقد كان ذلك مُحَرَّمًا في الجاهلية فأباحه نبيّ المسلمين إرضاءً لهواه، وإطفاءً لداعي حبه.

ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون من تاريخ «محمد» في هذا الموضوع، حتّى يصوّر بعضهم زينب ساعة رآها النبيّ وهي نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنّه من كلّ معاني الهوى، وليذكر آخرون أنّه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممدّدة على فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتّم ما في نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً... وأمثال هذه الصور — التي أبدع الخيال — كثير، تراه في مؤيّر وفي درمنجم وفي واشنطن إرفنج وفي لامنس، وغيرهم من المستشرقين والمبشرين^(٧٥٥). ومّا يدعو إلى أشدّ الأسف أنّ هؤلاء جميعاً اعتمدوا في روايتهم على ما ورد في بعض كتب السيرة وبعض كتب التفسير^(٧٥٦). وثمّ أقاموا على ما صوّروا قصوراً من الاستنباط في شأن «محمد» وصلته بالمرأة، واستدلّوا على ذلك بكثرة أزواجه حتّى بلغن تسعاً في القول الراجح^(٧٥٧)، وحتّى بلغن أكثر من ذلك في بعض الروايات^(٧٥٨).

كان في مقدورنا أن نجبه هذه الأقوال جميعاً بقولنا: فلتكن صحيحة، فماذا فيها ممّا يطعن على عظمة «محمد» أو على نبوّته ورسالته؟! إنّ القوانين التي تجري على الناس لا سلطان لها على العظماء، ولا سلطان لها من باب أولى على المرسلين والأنبياء. ألم ير موسى(عليه السلام) خلافاً بين رجلين (هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)^(٧٥٩). وهذا قتلٌ محرّم في غير حرب ولا شبه حرب، وهذا مخالف للقانون،

(1) Life of Mohamet Washington Irving

Life of Mohamet by Sir William,

Life of Mohamet par Emil Edermenghem,

L'Islam par Lammens,

(٧٥٦) تاريخ الطبري: ٢ / ٨٩ .

(٧٥٧) التفسير الكبير للفخر الرازي: ٣٧٤/٩ .

(٧٥٨) عيون الأثر: ٢ / ٣٦٧ — ٣٧٧ .

(٧٥٩) القصص (٢٨): ١٥ .

ومع ذلك لم يخضع موسى لقانون، ولم يطعن ذلك في نبوته ولا في رسالته، ولم يطعن في عظمته. وشأن عيسى في مخالفة القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن «محمد» ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعاً. فليس يقف أمره عند بسطة في القوة أو في الرغبة، بل خرج بمولده وبحياته على قوانين الطبيعة وسننها جميعاً. تمثل لأُمّه مريم روح الرحمن بشراً سوياً، ليهب لها غلاماً زكياً، فعجبت وقالت: (أَتَنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا!)، قال الرسول: إِنَّ اللَّهَ يريد أن يجعله آية للناس. فلَمَّا جاءها المخاض، (قَالَتْ يَالْيَتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا* فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا*... فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا). فحدثهم عيسى في مهده، قال: (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...) إلى آخر ما قال (٧٦٠). ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله ومن نسبتهم عيسى إلى يوسف النجار نسبة ما يزال بعض العلماء أمثال: رينان يأخذون اليوم بها، فقد كانت عظمة عيسى ونبوته ورسالته دليل معجزة الله فيه وخرقه لنواميس الكون وسنن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله. فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشرون إلى الإيمان بهذا الخروج على سنة الكون في أمر عيسى، وأن يأخذوا «محمدًا» بما هو دونه، وما لا يزيد على أنه سموّ عن الخضوع لقانون المجتمع يُسمح به لكلّ عظيم، ويُسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدّسهم الدساتير وتجعل ذاتهم مصونة لا تمسّ.

كان في مقدورنا أن نجبه هذه جميعاً بهذا الردّ، وكان فيه من غير شكّ ما يسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين. لكنّا في هذا كنا نجني على التاريخ ونجني على عظمة «محمد» وجلال رسالته. فهو لم يكن كما صورّه هؤلاء وأولئك رجلاً يأخذ بعقله الهوى. وهو لم يتزوَّج من تزوّج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام. وإذا كان بعض الكتاب المسلمين في بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول وأن يُقدّموا لخصوم الإسلام عن حسن نية هذه الحجة، فذلك لأنّهم انحدر بهم التقليد إلى المادية، فأرادوا أن يصوّروا «محمدًا» عظيماً في كلّ شيء، عظيماً حتّى في شهوات الدنيا، وهذا تصوّر خاطئ يُنكره تاريخ «محمد» أشدّ إنكار، وتأبى حياته كلّها أن تقرّه. فهو قد تزوّج من خديجة وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وهو في شرح الصبّا وريعان الفتوة ووسامة الطلعة وجمال القسّمات وكمال الرجولية. ومع ذلك ظلّت خديجة وحدها زوجه ثانياً وعشرين سنة حتّى تخطّى الخمسين. هذا على حين كان تعدّد الزوجات أمراً شائعاً بين العرب في ذلك الحين، وعلى حين كان لـ «محمد» مندوحة في التزوَّج على خديجة أن لم يعيش له منها ذكر، في وقت كانت تؤاد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون

خَلْفًا. وقد ظلَّ «محمَّد» مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده، وهو لا يفكر قطّ في أن يشرك معها غيرها في فراشه . ولم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنّه كان ممّن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء تتبرّج فيه ويبدن من زينتهنّ ما حرّم الإسلام من بعد. فمن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطّى الخمسين ينقلب فجأة هذا الانقلاب الذي يجعله ما يكاد يرى بنت جحش وعنده نساء خمس غيرها، من بينهنّ عائشة التي أحبّ وظلّ يحب طوال حياته، حتّى يُفتن بها وحتّى تأخذ تفكيره ليله ونهاره. ومن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطّى الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات، وفي سبع سنوات تسع زوجات ، وذلك كلّ بدافع من الرغبة في النساء رغبة صورها بعض كتاب المسلمين وحذا الافرنج حذوهم تصويراً لا يليق في ضعته برجل ماديّ، كله عظيم استطاعت رسالته أن تنقل العالم وأن تغبّر مجرى التاريخ، وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرة أخرى وتغيّر مجرى التاريخ طوراً جديداً.

وإذا كان هذا عجباً وكان غير طبيعيّ ، فمن العجيب كذلك أن نرى «محمّداً» تلد له خديجة ما ولدت من بنيه وبناته إلى ما قبل الخمسين، وأن نرى مارية تلد له إبراهيم وهو حوالي الستين، وألاّ تلد غير هاتين من نسائه، وكلهنّ بين شابة في مقتبل العمر لا يجمع مانع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن تلد، وبين امرأة كملت لها أنوثتها فتخطّت الثلاثين أو تخطت الأربعين وكان لها ولد من قبل. فكيف تُفسّر هذه الظاهرة العجيبة من ظاهرات حياة النبيّ، هذه الظاهرة التي لا تخضع للقوانين الطبيعية في تسع نسوة جميعاً! هذا وقد كانت نفس «محمّد» كإنسان تمفو من غير ريب إلى أن يكون له ولد، وإن كان مقام النبوة والرسالة قد جعله من الناحية الروحية أباً للمسلمين جميعاً.

ثمّ إنّ التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد يكذب رواية المبشرين والمستشرقين في شأن تعدّد زواج النبيّ. فهو — كما قدّمنا — لم يشرك مع خديجة أحداً مدى ثمان وعشرين سنة. فلما قبضها الله إليه تزوّج سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو بن عبدشمس . ولم يرو راو أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثراً في زواجه منها. إنّما كانت سودة زوجاً لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا في سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبيّ بالهجرة عبر البحر إليها. وقد أسلمت سودة وهاجرت معه، وعانت من المشاق ما عانى ولقيت من الأذى ما لقي. فإذا تزوّجها «محمّد» بعد

ذلك ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجل الحمد .

أما عائشة وحفصة، فكانتا ابنتي وزيريه^(٧٦١) أبي بكر وعمر. وهذا الاعتبار هو الذي دعا «محمداً» أن يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتزواج من ابنتيهما، كما دعاه أن يرتبط بعثمان^(٧٦٢) وبعلي^(٧٦٣) برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما^(٧٦٤). ولئن صحَّ القول في عائشة^(٧٦٥) وفي حبِّ إياها، فإنما ذلك حب نشأ بعد الزواج لا حينه. فهو قد خطبها إلى أبيها وما تزال في التاسعة من عمرها، وهي بقيت سنتين قبل أن يبنى بها. فليس ممَّا يقبل العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهي في هذه السن الصغيرة^(٧٦٦). يؤيد ذلك زواجه من حفصة بنت عمر في غير حبِّ بشهادة أبيها نفسه. قال عمر: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهنَّ ما أنزل وقسم لهنَّ ما قسم. فبينما أنا في أمر أأتمره إذ قالت لي امرأتي: لو صنعت كذا وكذا! فقلت لها: ومالك أنت ولما هاهنا؟ وما تكلفك في أمر أريد؟ فقالت لي: عجباً لك يابن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يظل يومه

(٧٦١) مرّ في هامش الصفحات ١٨٩ و ١٩٤ و ١٩٥ من أن وزيره الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، ولم يمنح لقب الوزارة في صدر الإسلام لغير عليّ، والوزارة تعني الخلافة بعده وهي وزارة شبيهة بوزارة هارون من بعد موسى.

من الثابت أن الوزير للنبيّ هو الإمام عليّ بن أبي طالب بلا منازع، وبالإمكان مراجعة قول النبيّ (صلى الله عليه وآله) لعليّ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى...» والذي نقله نفس المؤلف في الطبعة الأولى لكتابه وهو المسمّى بحديث الإنذار والذي جاء فيه: «فأيكم يؤازرن عليّ أمري هذا؟» فقال عليّ: «أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه...».

وفي حديث آخر حين حدّث الإمام مرّة فقال له: «أنت أخي ووزيري تقضي ديني وتنجز وعدي وتبرئ ذمتي». وهذا الحديث أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ونقله المتقي الهندي في كثره وفي منتخبه في هامش ص ٣٢ من الجزء الخامس وفي مجمع الزوائد: ١٢١/٩، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٢٨/١٣.

أما الحديث الأوّل فراجع في تاريخ الطبري: ٣١٩/٢، والكامل في التاريخ، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٢٦١/٣، و ٢٢٨/١٣، وتذكرة الخواص: ٤٣، والمناقب للخوارزمي: ٦٢ و ٢٥٠، وتاريخ دمشق: ٨٩/١، وفرائد السمطين: ٣١١/١، والسيرة الحلبية: ٢٨٦/١، وكتر العمّال بهامش مسند أحمد: ٤١/٥، وشواهد التنزيل: ٣٧١/١، والتفسير المنير: ١١٨/٢، وتفسير الخازن: ٣٧١/٣، فاصطلاح وزيريه لأبي بكر وعمر إنّما هو من ابتكارات الكاتب ولا يوجد مصدر حديثي ينصّ على هذا الوسام لهما بطريق صحيح.

(٧٦٢) سبقت إشارة إلى أسباب زواج الخليفة الثالث عثمان من بنات النبيّ (صلى الله عليه وآله).

(٧٦٣) صحيح البخاري: ٦٩/٦، وصحيح مسلم: ١٩٠/٤.

(٧٦٤) مع ما بين تزويج أمّ كلثوم ورقية بعثمان وبين تزويج الزهراء بعليّ (عليهما السلام) بإذن الله تعالى بل بأمره من البون الشاسع والفرق الواضح اللامح، وهيئات ما بين الأمرين، وإن كان بنو أميّة لقبوا عثمان لذلك بذئ النورين، ولم يلقّب عليّ (عليه السلام) لذلك بذئ النور. لم يتم إجماع أو دليل تاريخي على أنّ رقية وأمّ كلثوم هما ابنتان للنبيّ بل كانتا ربيبتين فإنّهما بنتا أخت خديجة كما ورد في بعض المصادر. راجع الصحيح من سيرة النبيّ (صلى الله عليه وآله)، للسيد جعفر مرتضى العاملي.

(٧٦٥) وهذا موضع ترديد، راجع: أمّ المؤمنين عائشة للعلامة السيّد مرتضى العسكري.

(٧٦٦) بل هو لم يخطبها وعمرها ٧ سنين، وإنّما اقترحها عليه أبوها، فما رأى الرسول إلّا القبول، كما هو المعقول.

غضبان. فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة، فقلت لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أنني أحتذرك عقوبة الله وغضب رسوله. يا بنية لا يغرنك هذه التي قد أعجبها حسننها وحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إياها. والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك» (٧٦٧). أفرأيت إذاً أن «محمدًا» لم يتزوج من عائشة ولم يتزوج من حفصة حباً أو لرغبة، وإنما تزوج منهما ليمتن أواصر هذه الجماعة الإسلامية الناشئة في شخص وزيره (٧٦٨) كما تزوج من سودة، ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم عيلة.

يقطع في ذلك زواجه من زينب بنت خزيمة ومن أم سلمة. فقد كانت زينب زوجاً لعبيدة بن الحارث بن المطلب، الذي استشهد يوم بدر، ولم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطبيعتها وإحسانها حتى لقبت أم المساكين. وكانت قد تخطت الشباب، فلم تك إلا سنة أو سنتين ثم قبضها الله، فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبي التي توفيت قبله. أما أم سلمة فكانت زوجاً لأبي سلمة وكان لها منه أبناء عدة. وقد سبق القول: إن أبا سلمة جرح في أحد ثم برأ جرحه، فعقد له النبي لحرب بني أسد، فشتتهم وعاد إلى المدينة بما غنم ثم نغر عليه جرح أحد وما زال به حتى قضى عليه. وقد حضره النبي وهو على فراش موته وظل إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه. وبعد أربعة أشهر من وفاته طلب «محمد» إلى أم سلمة يدها، فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطت الشباب، فما زال بها حتى تزوج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها (٧٦٩). أفيزعم المبشرون والمستشرقون بعد ذلك أن أم سلمة كانت ذات جمال هو الذي دعا «محمدًا» إلى التزوج منها؟ إن يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالاً وشباباً وثروة ونصرة ومن لا يبهظه عبء عيالها. لكنه إنما تزوج منها لهذا الاعتبار السامي الذي دعاه ليتزوج زينب بنت خزيمة، والذي زاد المسلمين به تعلقاً وجعلهم يرون فيه نبي الله ورسوله، ويرون فيه إلى جانب ذلك أباً لهم جميعاً أباً لكل مسكين ومحرور وضعيف وبائس وعاجز؛ أباً لكل من فقد أباه شهيداً في سبيل الله.

(٧٦٧) صحيح البخاري: ٦٩/٦.

(٧٦٨) لا ذكر لوزارتيهما في حياة النبي (صلى الله عليه وآله) في أي مصدر تاريخي، وإنما استحدث هذا العنوان لهما بعد أن وليا الخلافة إلى يومنا هذا.

(٧٦٩) عيون الأثر: ٢ / ٣٧١، والمناقب لابن شهر آشوب: ١٥٩/١.

ماذا يستنبط التمهيص التاريخي التزيه ثما تقدم؟ يستنبط أن «محمداً» نصح بالزوجة الواحدة في الحياة العادية. هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضربه في حياة خديجة، وبه نزل القرآن في قوله تعالى: (فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ حِفْظُكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً^(٧٧٠)) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ^(٧٧١) . ولقد نزلت هذه الآيات في أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعاً، ونزلت لتحديد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حد له^(٧٧٢)، ثما يسقط قول القائلين: إن «محمداً» أباح لنفسه ما حرم على الناس. ثم نزلت للتشديد بفضل الزوجة الواحدة وتأمر بما مجرد الخوف من عدم العدل، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع^(٧٧٣). على أنه رأى في ظروف حياة الجماعة الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدد إلى أربع على شرط العدل. وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضرب أيام غزوات المسلمين واستشهاد من استشده منهم. ولعمرك هل تستطيع أن تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها، خير من هذا التعدد الذي أبيع على طريق الاستثناء؟ وهل يمكن لأهل أوروبا في هذا العصر الذي عقب الحرب الكبرى أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحدة نظام نافذ بالفعل، إن استطاعوا أن يقولوا

إنه نافذ بالقانون؟ أو لا يعود سبب الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي الذي عقب الحرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاوناً قد كان من شأنه أن يعيد إلى الحال الاقتصادية شيئاً غير قليل من التوازن؟ إني لا أريد أن أقطع بالحكم. لكنني أترك الأمر لتفكير المفكر وتدبر المتدبر، مع القول دائماً بأنه متى عادت الحياة العادية فخير ما يكفل سعادة الأسرة وسعادة الأمة اقتصار الرجل على زوجة واحدة.

أما قصة زينب بنت جحش، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام وول، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر «محمد»

(٧٧٠) النساء (٤): ٣ .

(٧٧١) النساء (٤): ١٢٩ .

(٧٧٢) التفسير الكبير للرازي: ٩ / ١٧٤ — ١٧٥، ومجمع البيان: ١٤/٣ .

(٧٧٣) قد يرى البعض غموضاً والتباساً حين يريد الجمع بين قوله تعالى في الآية (٣) من سورة النساء المذكورة في المتن وبين قوله تعالى في الآية (١٢٩) في السورة نفسها. وينكشف الغموض ويرتفع الالتباس إذا علمنا أن للعدل معنيين في هذا المجال عدل غير مستطاع وهو العدل في الحب والهو الذي تحدثت عنه الآية الثانية وعدل مستطاع وهو العدل في الإنفاق وليالي المتاع وهو عدل عملي لا قلبي حين تتعدد الأزواج وهذا الذي تحدثت عنه الآية الأولى وبهذا التفريق بين العدلين يرتفع الغموض الذي اكتنف الآيتين.

، وآتة ، وهو المثل الكامل للإيمان، قد طَبَّقَ فيها حديثه الذي معناه: لا يكمل إيمان المرء حتَّى يجب لأخيه ما يجب لنفسه^(٧٧٤)، وقد جعل نفسه أوَّل من يضرب المثل لما يضع من تشريع يحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها ، ويُقرّ به النظام الجديد الذي أنزل الله هدى ورحمة للعالمين. ويكفي لهدم كلّ القصة التي قرأت عنها من أساسها، أنّ تعلم أنّ زينب بنت جحش هذه هي ابنة أُميمة بنت عبدالمطلب عمّة رسول الله (عليه السلام)، وأنّها رُبّيت بعينه وعنايته، وأنّها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، وأنّه كان يعرفها ويعرف أهي ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوَّج زيدا، وأنّه شهدها في غوّها تحبو من الطفولة إلى الصِّبا إلى الشباب، وأنّه هو الذي خطبها على زيد مولاه^(٧٧٥). إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كلّ تلك الخيالات والأقاصيص، من أنّه مرّ بيت زيد ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حسننها وقال: سبحان مقلب القلوب؛ أو أنّه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب، فألفّاها في قميصها ممددة وكأفها «مدام ركاميه»، فانقلب قلبه فجأة، ونسي سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأمّ سلمة، ونسي كذلك ذكر خديجة التي كانت عائشة تقول : إنّها لم تجد في نفسها غيرة من أحد من نساء النبيّ ما وجدت من ذكره خديجة^(٧٧٦). ولو أنّ شيئا من حبّها علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه، بدل أن يخطبها على زيد. وهذه الصلة بين زينب و «محمد» وهذا التصوير الذي صورناها به لا يدعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التي يروون أي أساس أو أيّ حقّ من البقاء.

وماذا يشبّ التاريخ أيضاً؟ يشبّ أنّ «محمدًا» خطب ابنة عمّته زينب على مولاه زيد، فأبى أخوها عبدالله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية، وهي فوق ذلك ابنة عمّة الرسول، وأن تكون تحت عبد رقّ اشتريته خديجة ثمّ أعتقه «محمد» ؛ ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً^(٧٧٧). وكان ذلك عاراً حقّاً عند العرب كبيراً. فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوَّجن من مَوَالٍ وإنّ أعتقوا. لكنّ «محمدًا» يريد أن تزول مثل هذه الاعتبار القائمة في النفوس على العصبية وحدها، وأن يدرك الناس جميعاً أن:

لا فضل لعربيّ على

(٧٧٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥/١٨، صحيح مسلم : ٤٩/١.

(٧٧٥) الإصاية: ٣١٣/٤، ومجمع البيان: ١٦٠/٨ — ١٦١ .

(٧٧٦) صحيح البخاري: ٢٣٠/٤ .

(٧٧٧) تفسير زاد المسير: ٣٨٥/٦، وتفسير مجمع البيان: ١٦١/٨.

أعجمي إلا بالتقوى. (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(٧٧٨) وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله. فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدم لعاداتها، مضحية في ذلك بما يقول الناس عنها مما تخشى سماعه. وليكن زيد مولاه الذي تبني والذي أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق في أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذي يتزوجها، فيكون مستعداً للتضحية التي أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء. وليُبد «محمد» إصراره على أن تقبل زينب، وأن يقبل أخوها عبد الله بن جحش زيدا زوجاً لها. وليتزل^(٧٧٩) في ذلك قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)^(٧٨٠).

لم يبق أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الازدعان، فقالا: رضينا يا رسول الله. وزوجت زينب من زيد، وساق النبي إليها عنه مهرها. فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس له قيادها ولا لان إياها، بل جعلت تؤذي زيدا وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رق. واشتكى زيد إلى النبي غير مرة من سوء معاملتها إياه واستأذنه غير مرة في تطليقها^(٧٨١)، فكان النبي يجيبه: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)^(٧٨٢). لكن زيدا لم يُطق معاشرته زينب وإبائها عليه طويلاً فطلقها^(٧٨٣).

وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصافهم بأنسابها، ومن إعطاء الدعي جميع حقوق الابن، ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى في الميراث وحرمة النسب، وألا تجعل للمتبنّي واللصيق إلا حق المولى والأخ في الدين، فترل^(٧٨٤) قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)^(٧٨٥). ومعنى هذا أنه يجوز للمدعي أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادّعاها. ويجوز للمتبنّي أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبناه. ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعاً؟ إن «محمدًا» نفسه على قوة عزيمته وعميق

(٧٧٨) الحجرات (٤٩): ١٣.

(٧٧٩) التفسير الكبير للرازي: ٢٥/٢١١، تفسير مجمع البيان: ١٦٠/٨.

(٧٨٠) الأحزاب (٣٣): ٣٦.

(٧٨١) تفسير زاد المسير: ٦/٣٩٠.

(٧٨٢) الأحزاب (٣٣): ٣٧.

(٧٨٣) تفسير زاد المسير: ٦/٣٨٧، تفسير مجمع البيان: ١٦٢/٨.

(٧٨٤) تفسير الطبري: ١٠/٢٥٥ — ٢٥٦، تفسير مجمع البيان: ١١٩/٨.

(٧٨٥) الأحزاب (٣٣): ٤.

إدراكه لحكمة الله في أمره، قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم، بأن يتزوج زينب بعد تطبيق زيد إياها، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب؛ وذلك ما يريده تعالى في قوله^(٧٨٦): (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)^(٧٨٧). لكن «محمدًا» كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغ رسالته؛ فليخش ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد مولاه، فذلك لا شيء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره. وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء. وفي ذلك نزل قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)^(٧٨٨).

هذه رواية التاريخ الصحيح في أمر زينب بنت جحش وزواج «محمد» منها. فهي ابنة عمته، وكان يراها ويعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوج زيداً. وهو الذي خطبها على زيد. وهو كان يراها بعد أن تزوجت زيداً أن لم يكن الحجاب معروفاً يومئذ، على أنه كان من شأنها، بحكم صلة القرابة من ناحية وأنها زوج دعيه زيد من ناحية أخرى، أن تتصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها. وقد نزلت هذه الأحكام جميعاً فأيدها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطبيقه إياها وزواج «محمد» منها بعد ذلك. هذه الأحكام التي ترفع المعتق إلى مكانة الحر الشريف، والتي تبطل حقوق الأدعياء وتقضي عليها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها. أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقيصيص التي يكررها المستشرقون والمبشرون ويرددها موير وإرفنج وسبرنجر وفيل ودرمنجم ولامنس وغيرهم ممن تناولوا كتابة حياة «محمد»! لكنّها شهوة التبشير المكشوف تارة، والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للإسلام خصومة تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية هي التي ثملي على هؤلاء جميعاً ما يكتبون، وتجعلهم في أمر أزواج النبي، وفي أمر زواجه من زينب بنت جحش، يتجنّون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه، ثمّا دسّ عليه ونسب إليه.

ولو أنّ ما ذكروا كان صحيحاً، لكان في مقدورنا أن نجبهه بأنّ العظمة لا تخضع لقانون، وبأنّ موسى وعيسى ويونس من قبل قد سمّوا في مولد بعضهم وفي حياة بعض فوق نواميس الطبيعة وسنن الاجتماع، فلم يطعن ذلك في عظمتهم. لكنّ «محمدًا» كان يضع سنن الاجتماع الصالحة بوحى ربّه وكان ينفّذها بأمر ربّه، وكان بذلك المثل الأسمى والأسوة الحسنة في تنفيذ ما

(٧٨٦) تفسير الطبري: ٣٠٣/١٠، وتفسير مجمع البيان: ١٦٢/٨.

(٧٨٧) الأحزاب (٣٣): ٣٧.

(٧٨٨) الأحزاب (٣٣): ٣٧.

أمر ربّه. أفكان أولئك المبشّرون يريدونه على أن يُطلّق أزواجه فلا يزيد على الأربع كما شرّع للمسلمين من بعد زواجه إياهنّ جميعاً؟ وهل كانوا يومئذ يعفونه من نقدهم؟! على أنّ معاملة «محمّد» لأزواجه معاملة بلغت من السموّ ما رأيت شيئاً منه في حديث عمر بن الخطاب الذي سقنا (٧٨٩) وفيما سنذكر خلال فصول هذا الكتاب، ستكون المثل الناطق على أنّه لم يحترم المرأة أحد ما احترامها «محمّد» ، ولم يسمُ بها إلى المكان اللائق ما سما بها «محمّد».

الفصل الثامن عشر: غزوات الخندق وبني قريظة

الفصل الثامن عشر

غزوتا الخندق وبني قريظة

حُيِّ بن أخطب و تأليه العرب جميعاً على المسلمين، عشرة آلاف مقاتل يقصدون المدينة، سلمان الفارسي يشير بحفر الخندق حولها، حصار قريش و غطفان إياها، نقض بني قريظة عهدهم مع المسلمين، ضياع الثقة بين العرب واليهود، انسحاب العرب عن المدينة، محاصرة بني قريظة والقضاء عليهم بالقتل.

آن للمسلمين بعد إجلائهم بني النضير عن المدينة، وبعد بدر الآخرة وبعد غزوتي غطفان ودومة الجندل، أن يركنوا إلى شيء من الطمأنينة إلى الحياة بالمدينة. وذهبوا ينظمون عيشهم، وكان من بعد أقل شظفاً بما غنموا في غزواتهم هذه، وإن كانت قد صرفتهم في كثير عن الزرع والتجارة. وكان «محمد» على طمأنينته حذراً دائماً غدره العدو، باثاً دائماً عيونه وأرصاده في أنحاء شبه الجزيرة ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأترون به، ما يمهد له دائماً فرصة الأهبة لدفاع المسلمين عن أنفسهم، ويسير عليك أن تقدر ضرورة الحذر والحيلة بعد كل الذي رأيت من غدرات قريش وغير قريش بالمسلمين، ومن أن بلاد العرب كلها كانت في ذلك الحين، وكانت من بعد ذلك في أكثر ظروف تاريخها الخاص؛ أشبه بمجموعة جمهوريات، مستقلة كل واحدة منها عن سائرهما، تتخذ كل واحدة منها نظاماً هو إلى نظام القبائل أقرب، مضطرة لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألّفها تصوّرنا في الأمم المنظمة. وكان «محمد» أشدّ ما يكون حذراً أن كان عربياً يقدر ما ركب في الغريزة العربية من الحرص على الثأر، وأن كانت قريش وكان يهود بني قينقاع ويهود بني النضير وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة للشام تتربص كل واحدة منها بـ «محمد» وبأصحابه الدوائر، وتود كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هذا الرجل الذي فرق العرب في دينها شيعاً، والذي خرج من مكة مهاجراً لا حول له ولا قوة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الإيمان، وهاهو ذا في خمس سنوات قد أصبح له من

الحول ومن القوة ما جعله مرهوب الجانب من أشدّ مدائن بلاد العرب، ومن أشدّ قبائلها حولاً وقوة.

ولقد كان اليهود أبصر خصوم «محمد» بتعاليمه وبمبصير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديراً لما يصيبهم بانتصاره. فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد، وكانوا ينافسون المسيحيين سلطاتهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم. ولعلهم كانوا على حقّ أن كانت النفس السامية أميل بطبعها إلى فكرة التوحيد، وأن كان التشليث المسيحيّ ثماً لا يسهل على هذه النفس السامية مساغته. وهذا «محمد» من صميم العرب ومن صميم الساميين يدعو إلى التوحيد بعبارات قوية حارة تأخذ بجامع الفؤاد، وتصل إلى أعماق القلب، وتسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه. وهذا هو قد بلغ من القوة حتّى أخرج بني قينقاع من المدينة وحتّى أجلى بني النضير عن ديارهم. فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام وإلى وطنهم الأوّل بيت المقدس في أرض الميعاد، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه؟!

كانت فكرة تأليب العرب هي الفكرة التي اختمرت في نفوس أكابر بني النضير. وتنفيذاً له خرج نفر منهم من بينهم حُيّي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق ومعهم من بني وائل هودّة بن قيس وأبوعمار، حتّى قدموا على قريش مكّة. فسأل أهلها حُيّيّاً عن قومه فقال: تركتهم بين خيبر والمدينة يتردّدون حتّى تأتوهم فتسيروا معهم إلى «محمد» وأصحابه، وسألوه عن قريظة فقال: أقاموا بالمدينة مكرراً بـ «محمد» حتّى تأتوهم فيميلوا معكم. وتردّدت قريش اتّقدم أم تُحجم؛ فليس بينها وبين «محمد» خلاف إلّا على الدعوة التي يدعو إلى الله. أفليس من الممكن أن يكون على حقّ وهاهو ذا تردّد كلمته كلّ يوم رفعة وسمواً! وقالت قريش لليهود: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل وأصحاب العلم ثماً أصبحنا نختلف فيه نحن و«محمد»، أفديننا خير أم دينه؟ قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه^(٧٩٠)، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً^(٧٩١)). وفي موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيّتهم على توحيد «محمد»، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب) :

(٧٩٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢١٤/٢، والمغازي للواقدي: ٤٤١/١ — ٤٤٢، وإمتاع الأسماع: ٢٢٢/١ — ٢٢٣، وجمع البيان: ١٢٥/٨،

وبحار الأنوار: ١٩٧/٢٠ و ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٧٩١) النساء (٤): ٥١ — ٥٢ .

«كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأنّ بني اسرائيل الذين كانوا مدّة قرون حاملِي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين. والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبه أن يضحّوا بحياتهم وكلّ عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا فضلاً عن أنّهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنّما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة».

لم يكف حَيّ بن أخطب واليهود الذين معه هذا الذي قالوا لقريش في تفضيل وثنيتهما على توحيد «محمد»، حتّى تنشط لخاربتة، وأن يأخذوا وإياهم لذلك بعد أشهر موعداً بل خرج أولئك اليهود إلى غطفان من قيس بن عيلان ومن بني مُرّة ومن بني فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بني سعد ومن أسد ومن كلّ من لهم عند المسلمين ثأر، وما زالوا بهم يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب «محمد»، ويحمدون لهم وثنيتهم ويعدّونهم النصر لا محالة^(٧٩٢). وخرجت الأحزاب التي جمع اليهود لحرب «محمد» وأصحابه. خرجت قريش وعلى رأسها أبوسفیان في أربعة آلاف مُجنّد وثلاثمئة جواد وخمسمئة وألف ممتط بعيره. وعقد اللواء في دار الندوة لعُثمان بن طلحة الذي قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش في أحد. وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عُيينة بن حصن بن حذيفة في رجال كثير وألف بعير. أمّا أشجع ومرة فجاء كلّ منهم في أربعمئة محارب يتزعم الحارث بن عوف مرة . ويتزعم مسعر بن رُخيلة أشجع، وجاءت سليم أصحاب بئر معونة في سبعمئة رجل، واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنوسعد وأسد، فصاروا في عشرة آلاف رجل أو نحوها، وساروا جميعاً تحت إمرة أبي سفیان قاصدين المدينة. فلمّا بلغوها تداول زعماء هاته القبائل الزعامة أثناء الحرب كلّ واحد منهم يوماً على التوالي^(٧٩٣).

واتصل نبأ هذا السير بـ «محمد» والمسلمين معه في المدينة ففرعوا. هاهي ذي العرب كلّها قد أجمعت أمرها لتسحقنهم ولتقضينّ عليهم ولتستأصلنّهم، وهاهي ذي قد جاءت في عدّة وعديد

(٧٩٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢١٥، والمغازي للواقدي: ١/٤٤٢ — ٤٤٣، والسيرة الحلبية: ٢/٣١٠، وتفسير مجمع البيان: ٨/١٢٥،

والإرشاد للمفيد: ١/٩٥، وبحار الأنوار: ٢٠/١٩٧.

(٧٩٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢١٥ و ٢١٩ — ٢١٠، والمغازي للواقدي: ١/٤٤٢ — ٤٤٣، وإمتاع الأسماع: ١/٢٢٣ — ٢٢٤،

والإرشاد: ١/٩٥، وبحار الأنوار: ٢٠/١٩٧.

ما لها في حروب العرب جميعاً من قبل مثل. وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت أقل من هاته الأحزاب عدداً أضعافاً ، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة؟! لم يكن إلى غير التحصن بيثرب العذراء، على ما وصفها عبدالله ابن أبي سبيل. لكن! أفيكفي هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة؟ وكان سلمان الفارسي يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفاً في بلاد العرب. فأشار بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها. وسارع المسلمون إلى تنفيذ نصيحته فحُفِرَ الخندق وعمل فيه النبي (عليه السلام) بيديه. فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين بذلك أعظم التشجيع، ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد. وأخذ المسلمون آلات الحفر من مساح وكرازين ومكاتل من بني قريظة اليهود الذين بقوا على ولائهم. وبهذا الدأب والجهد المتصل تم حفر الخندق في ستة أيام^(٧٩٤). وفي هذه الأثناء كذلك حُصِنَت جدران المنازل التي تواجه مأتى العدو، والتي يفصل الخندق بينه وبينها بنحو فرسخين. وعند ذلك أُخليت المساكن التي ظلت خارج الخندق وجيء بالنساء والأطفال في هذه المنازل التي حُصِنَت ، ووضعت الأحجار إلى جنب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحاً يرمى به عند الحاجة إليه^(٧٩٥).

وأقبلت قريش وأحزابها ، وهي ترجو أن تلقى «محمداً» بأحد فلم تجد عنده أحداً. فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق، فعجبت أن لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول منها، وبلغ منها الغيظ حتى زعمت الاحتماء وراءه جيناً لا عهد للعرب به^(٧٩٦). وعسكرت قريش ومن تابعها بمجتمع الأسيال من رومة وعسكرت غطفان ومن تبعها من أهل نجد بذنب نَقَمَى^(٧٩٧). أما «محمداً» فخرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى جيبيل سَلَع وجعل

(٧٩٤) المغازي للواقدي: ٤٤٤/١ — ٤٤٦ و ٤٥٤، وإمتاع الأسماع: ٢٢٥/١ — ٢٢٦، والسيرة الحلبية: ٣١١/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٢٦/٨، وبحار الأنوار: ١٩٨/٢٠.

(٧٩٥) المغازي للواقدي: ٤٥١/١، وتاريخ الطبري: ٩٣/٢، والسيرة الحلبية: ٣١٤/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٢٩/٨، بحار الأنوار: ٢٠٠/٢٠.

(٧٩٦) المغازي للواقدي: ٤٧٠/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢٢٤/٢، والسيرة الحلبية: ٣١٥/٢، ومنقب آل أبي طالب: ١٧١/١، وبحار الأنوار: ٢٠٢/٢٠.

(٧٩٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٢١٩/٢ — ٢٢٠، والمغازي للواقدي: ٤٤٤/١، والسيرة الحلبية: ٣١٦/٢.

الخنديق بينه وبين أعدائه. وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء^(٧٩٨). ورأت قريش والعرب معها أن لا سبيل إلى اجتياز الخندق فاكثفت بتبادل الترامي بالنبال عدة أيام متتابعة^(٧٩٩). وأيقن أبوسفیان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخذلها طويلاً دون أن يستطيعوا اقتحامها، وكان الوقت آنئذ شتاءً قارساً برده، عاصفة رياحه، يخشى في كل وقت مطره. وإذا كان يسيراً أن يحتمي أهل مكة وأهل غطفان من ذلك كله بمنزلهم في مكة وفي غطفان، فالخيام التي ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلاً. وهم بعد قد جاءوا يرتجون نصراً ميسوراً لا يكلفهم غير يوم كيوم أحد، ثم يعودون أدراجهم يتغنون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب. وماذا عسى أن يمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في هذه الحرب، لأن اليهود وعدتها متى تم النصر ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها^(٨٠٠). وهامي ذي ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق؛ وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما ينسيها الثمار والحدائق. فأما انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم فأمره مُدرك على الأيام مادام هذا الخندق يحول دون إمساك «محمد» بالتلابيب، ومادامت بنو قريظة تمد أهل يثرب بالموونة مدداً يطيل أمد مقاومتهم شهوراً وشهوراً. أفليس خيراً للأحزاب أن يعودوا أدراجهم؟! نعم! .. لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب «محمد» مرة أخرى ليس بالأمر الميسور. وقد استطاع اليهود وحْيي بن أخطب على رأسهم أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من «محمد» وأصحابه عما أوقع بهم وببني قينقاع من قبلهم، فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود. وإن انتصر «محمد» بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود. قدّر حْيي بن أخطب هذا كله وخاف مغبته ورأى أن لا مفر من أن يقامر بآخر سهم عنده، فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنع بني قريظة بنقض عهد موادعتهم «محمدًا»، والمسلمين وبالنضمام إليهم، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن «محمد» من ناحية، وفتح الطريق لدخول يثرب من الناحية الأخرى، وسُرّت قريش وغطفان بما ذكر حْيي. وسارع هو فذهب يريد كعب بن أسد صاحب عقد بني قريظة. وقد أغلق كعب دونه باب حصنه لأوّل ما عرف مقدمه عليه، مقدراً أن غدر قريظة بـ «محمد» ونقضها عهده وانضمامها إلى عدوّه قد يفيدها ويُفيد اليهود إذا دارت الدوائر بالهزيمة على المسلمين، لكنه جدير بأن يحورها محوّاً إذا هزمت الأحزاب

(٧٩٨) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢١٩ — ٢٢٠، والمغازي للواقدي: ١ / ٤٥٣ و ٤٥٤، وإمتاع الأسماع: ١ / ٢٢٥، وتفسير مجمع البيان: ٨ / ١٢٩،

بحار الأنوار: ٢ / ٢٠٠.

(٧٩٩) المغازي للواقدي: ١ / ٤٦٨، وإمتاع الأسماع: ١ / ٢٣٤، وعيون الأثر: ٢ / ٩٠، وتفسير مجمع البيان: ٨ / ١٢٩، وبحار الأنوار: ٢٠ / ٢٠٠.

(٨٠٠) مغازي الواقدي: ١ / ٤٤٣، والسيرة الحلبية: ٢ / ٣١٠.

وانصرف قوّاتها عن المدينة. لكنّ حُيَّاً مازال به حتّى فتح له باب الحصن، ثمّ قال له: «ويحك يا كعب! جئتكَ بعز الدهر وبيحر طام. جئتكَ بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على ألاّ يبرحوا حتّى نستأصل «محمّداً» ومن معه. وتردّد كعب وذكر وفاء «محمّد» وصدقه لعهد، وخشي مغبة ما يدعوه حُيَّ إليه. لكنّ حُيَّاً مازال به يذكر له ما أصاب اليهود من «محمّد»، وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب في القضاء عليه، ويصف له قوّة الأحزاب وعدّها وعددها، وأنّها لم يمنعها غير الخندق من أن تقضي في سويعة على المسلمين جميعاً، حتّى لان كعب له، فسأله: وماذا يكون إذا ارتدّت الأحزاب؟ هناك أعطاه حُيَّ موثقاً إن رجعت قریش وغطفان ولم يصيبوا «محمّداً» أن يدخل معه في حصنه فيشاركه حظّه. وتحركت في نفس كعب يهوديته فقبل ما طلب حُيَّ، ونقض عهده مع «محمّد» والمسلمين وخرج من حيّاه^(٨٠١).

واتصل نبأ انضمام قريظة إلى الأحزاب بـ «محمّد» وأصحابه فاهتزوا له وخافوا مغبته. وبعث «محمّد» سعد بن معاذ سيّد الأوس وسعد بن عباد سيّد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة وخوات بن جُبیر ليقفوا على جلية الأمر، على أن يخلوا به عند عودتهم إن كان حقّاً حتّى لا يفتوا في أعضاد الناس. فلمّا أتى هؤلاء الرسل ألفوا قريظة على أخبث ما بلغهم عنهم. فلمّا حاولوا ردّهم إلى عهدهم طلب سعد إليهم أن يردّوا إخوانهم يهود بني النضير إلى ديارهم. وأراد سعد بن معاذ، وكان حليفه قريظة، أن يُقنعها مخافة أن يجلّ بها ما حلّ ببني النضير أو ما هو شرّ منه، فانطلقت اليهود ووقعوا في «محمّد» (عليه السلام)، وقال كعب: من رسول الله! لا عهد بيننا وبين «محمّد» ولا عقد. وكاد الفريقان يتشاقمان.

رجع رسل «محمّد» إليه بما رأوا^(٨٠٢). هنالك عظم البلاء واشتد الخوف ورأى أهل المدينة طريق قريظة وقد فتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم. ولم يكن ذلك محض خيال ووهم؛ فهم قد رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم. ورأوا قريشاً وغطفان منذ عاد حُيَّ بن أخطب ينبتهم بانضمام قريظة إليهم، قد تغيرت نفسيّتهم وأخطوا يعدّون أنفسهم للقتال. وذلك أن قريظة استمهلت الأحزاب عشرة أيّام تعدّ فيها عدّها على أن تقاتل الأحزاب المسلمين في هذه الأيام العشرة أشدّ القتال. وذلك ما فعلوا. فقد ألفوا ثلاث كتائب لخاربة النبيّ. فأّتت كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي. وأّتت كتيبة عُيينة بن حصن من الجنب ونصب له أبوسفیان من

(٨٠١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٢٠/٢ — ٢٢١، المغازي للواقدي: ٤٥٥/١ — ٤٥٦، وإمتاع الأسماع: ٢٣١/١، وتفسير القمّي: ١٧٩/٢،

وتفسير مجمع البيان: ١٢٩/٨، وبحار الأنوار: ٢٠٠/٢٠ — ٢٠١.

(٨٠٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٢١/٢ — ٢٢٢، المغازي للواقدي: ٤٥٧/١ — ٤٥٩، وإمتاع الأسماع: ٢٣٢/١، وتفسير مجمع البيان:

١٣٠/٨، وبحار الأنوار: ٢٠١/٢٠.

قبل الخندق. وفي هذا الموقف نزلت^(٨٠٣) هذه الآيات من سورة الأحزاب: (إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا* وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)^(٨٠٤).

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفرع وزُلزلت قلوبهم، ولمن قال منهم العذر، في أن يقول: كان «محمد» يَعِدُنَا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط^(٨٠٥). وللذين زَاغَت أَبْصَارُهُمُ العذر في أن تزيع، وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر في أن تبلغها. أليس هو الموت الذي يرون آتياً تقدح بالشر عينه، مصورة في بريق هذه السيوف تلمع في أيدي قريش وفي أيدي غطفان، وتدبّ إلى القلب مخافته متسللة من منازل بني قريظة العُدرة الخائنين! ألا ويل لليهود! ما كان أجدر «محمدًا» بأن يقضي على بني النضير، وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرحلون موفورين، وأن يذر حُيَّيًا والذين معه يؤكِّبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم. ألا إنها الطامة الكبرى والفرع الأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وسمى روح الأحزاب المعنوية حتّى دفعت بعض فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ود^(٨٠٦) وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب، أن يقتحموا الخندق، فتيّموا مكاناً منه ضيقاً فضرّبوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْع. وخرج عليّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فأخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم، وتقدم عمرو بن عبد ودّ ينادي: من يبارز؟ ولما دعاه ابن أبي طالب إلى التّزال، قال في صَلَف: لم يابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. قال عليّ: لكنّي أحبّ والله أن أقتلك. فتنازلا فقتله عليّ^(٨٠٧)، وفرت خيل الأحزاب منهزمة، حتّى اقتحمت الخندق من جديد موليّة الأدبار لا تلوي على شيء. وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق، فهوى هو والفرس

(٨٠٣) تفسير مجمع البيان: ١٢٤/٨، وتفسير الطبري: ٢٦٥/١٠.

(٨٠٤) الأحزاب (٣٣): ١٠ — ١٣.

(٨٠٥) المغازي للواقدي: ٤٥٩/١ — ٤٦٠، وتفسير الطبري: ٢٦٦/١٠.

(٨٠٦) ودّ: من قوله سبحانه: (وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَا إِلَهُكُمْ وَلَا تَنْزِلُنَا دُورًا وَلَا سَوَاعًا) أسماء أصنام، وكان ودّ صنم بني عامر ومنهم عمرو بن عبد ودّ.

(٨٠٧) المغازي للواقدي: ٤٧٠/١ — ٤٧١ و ٤٧٤، وإمتاع الأسماع: ٢٣٦/١ و ٢٣٨، والسيرة الحلبية: ٣١٨/٢ — ٣٢٠، والإرشاد للمفيد:

٩٨/١، وبحار الأنوار: ٢٠٦/٢٠.

فيه فصرعاً وتحطماً. وأرسل أبوسفیان يعرض دية جثته مئة من الإبل، فرفض النبيّ (عليه السلام) وقال: خذوه فإنّه خبيث، خبيث الدية^(٨٠٨).

وأعظمت الأحزاب نيرانها مبالغة في تخويف المسلمين وإضعافاً لروحهم، وبدأ المتحمسون من قريظة يتزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم يريدون إرهاب أهلها. كانت صفية بنت عبدالمطلب في فارح حصن حسّان بن ثابت، وكان حسّان فيه مع النساء والصبيان. فمرّ بهم يهودي ضليل يُطيف بالحصن. قالت صفية مخاطبةً حسّان: إنّ هذا اليهودي يُطيف يا حسّان بالحصن كما ترى، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا، فانزل إليه فاقتله. قال حسّان: يغفر الله لك ياينة عبدالمطلب. والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فأخذت صفية عموداً ونزلت من الحصن وضربت به اليهودي حتّى قتلتته. فلما رجعت قالت: يا حسّان. إنزل إليه فاسلبه فإنّه لم يمنعني من سلبه إلّا أنّه رجل. قال حسّان: مالي ياينة عبدالمطلب بسلبه من حاجة^(٨٠٩).

وظلّ أهل المدينة في فرعهم وزلزال قلوبهم على حين جعل «محمّد» يفكر في الوسيلة للخلاص. ولم تكن الوسيلة مواجهة العدو بطبيعة الحال. فلتكن الحيلة إذاً. فبعث إلى غطفان بعدها ثلث ثمار المدينة إن هي ارتحلت. وكانت غطفان قد بدأت تملّ فأظهرت امتعاضاً من طول هذا الحصار وما لقوا من العنت أثناءه لغير شيء إلّا إجابة حيي بن أخطب واليهود الذين معه^(٨١٠). ثمّ إنّ نعيم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظة، كانت لا تعرف أنّه أسلم، وكان لها نديماً في الجاهلية، فذكّرهم بما بينه وبينهم من مودة، ثمّ ذكر لهم أنّهم ظاهروا قريشاً وغطفان على «محمّد»، وقريش وغطفان قد لا تستطيعان المقام طويلاً فتخليان ما بينهما وبين «محمّد» فينكّل بهم. ونصحهم لذلك ألاّ يقاتلوا مع القوم حتّى يأخذوا منهم رهناً يكونون بأيديهم حتّى لا تنحى قريش وغطفان عنهم. واقتنعت قريظة بما قال. ثمّ إنّّه ذهب إلى قريش فأسرّ لهم أنّ قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد «محمّد»، وأنّهم عاملون على استرضائه وكسب مودّته بأنّ يقدموا له من أشرف قريش من يضرب أعناقهم، ولذلك نصّحهم إن بعث إليهم اليهود

(٨٠٨) حين طلب النبيّ (صلى الله عليه وآله) من المسلمين مبارزة عمرو بن ود أحجم المسلمون عن الخروج إليه، وعندما تقدّم الإمام وهو شاب في سن الثامنة والعشرين قال النبيّ (صلى الله عليه وآله) مثمناً هذا الموقف الإلهي: «برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ»، السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٨١/٣، شرح النهج: ٢٨٣/١٣.

(٨٠٩) سيرة ابن هشام: ٢٨٨/٢، والمغازي: ٤٦٠/١ — ٤٦٣، الأمالي للطوسي: ٢٦١، وبحار الأنوار: ٢٤٥/٢٠.

(٨١٠) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٢٣، والمغازي: ٤٧٧/١.

يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً. وصنع نعيم مع غطفان ما صنع مع قريش وحذرهم مثلما حذرهم. ودبت الشبهة من كلام نعيم إلى نفس قريش وغطفان ، فتشاور زعماءهم ، فأرسل أبوسفیان إلى سعد سيّد بني قريظة يقول له: قد يا سعد طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل، وقد رأيت أن تعمدوا إليه في الغداة ونحن من ورائكم . فعاد رسول أبي سفيان إليه يقول زعيم قريظة: إن غداً السبت، وإنّا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت. فغضب أبوسفیان وصدّق حديث نعيم ، وأعاد الرسول يقول لقريضة: اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت، فإنّه لابدّ من قتال «محمد» غداً. ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأ من حلفكم ولنبدأ بكم قبل «محمد» . فلما سمعت قريظة كلام أبي سفيان كررت أنّها لا تتعدى السبت وقد غضب الله على قوم منهم تعدّوه فجعلهم قردة وخنازير. ثمّ أشاروا إلى الرهائن حتّى يطمئنّوا لمصيرهم. فلما سمع أبوسفیان لم يبق لديه في كلام نعيم ريبة وبات يفكر ماذا عساه يصنع؟ وتحدّث إلى غطفان فإذا هي تتردّد دون الإقدام على قتال «محمد» متأثرة بما كان قد بدأها به من وعدّها ثلث ثمار المدينة وعداً لم يتم أن اعترضه سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله^(٨١١).

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر هاتناً وقصف الرعد وخطف البرق. واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخيّل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبروا إليهم وليوقعوا فيهم فقام طليحة بن خويلد فنادى: إن «محمدًا» قد بدأكم بشر فالنجاة النجاة. وقال أبوسفیان: يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخفّ وأخلفتنا بنوقريظة وبلغنا منهم ما نكره. ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فآني مرتحل. فاستخفّ القوم ما استطاعوا حملة من متاع وانطلقوا وماتزال الريح تعصف بهم، وفرّوا هارين، وتبعتهم غطفان. حتّى إذا كان الصبح لم يجد «محمد» منهم أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله شكراً، أن رفع الضرّ عنهم وأن كفى المؤمنين شرّ القتال^(٨١٢).

عاد «محمد» بعد رحيل الأحزاب يفكر في موقفه. لقد أذهب الله عنه عدوّه الذي كان يهدّده. لكنّ اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلاً من السنة غير الشتاء

(٨١١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٢٩ — ٢٣١، والمغازي للواقدي: ٤٨٠/١ — ٤٨٥ ، والسيرة الحلبية: ٢٢٤/٢ — ٢٢٥ ، وتفسير مجمع

البيان: ١٣٤/٨ ، وبحار الأنوار: ٢٠٧/٢٠ — ٢٠٩ .

(٨١٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٢/٢ — ٢٣٣ ، والمغازي للواقدي: ٤٨٠/١ — ٤٨٦ ، وإمتاع الأسماع: ٢٤٢/١ ، والكافي للكليني:

٢٧٩/٨ — ٢٨٠ ، وتفسير مجمع البيان: ١٣٥/٨ — ١٣٦ ، وبحار الأنوار: ٢٠٩/٢٠ .

القارص، الذي كان جند الله في هزيمة عدوه. ثم إن قريظة، لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع في صفوفها من شقاق وانقسام، كانت على أهبة التزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم. لا تقطعن إذاً ذنب الأفعى وتركها. ولا بد من القضاء على بني قريظة بما فعلت. وأمر (عليه السلام) مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا بني قريظة؛ وقدم علياً برايته إليها^(٨١٣). ومع ما كان عليه المسلمون من نصّب بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم، فقد خفوا لهذا القتال الذي لم يكن لديهم أي شك في نتيجه. صحيح أن بني قريظة يقيمون في حصون محصنة كالتى كانت لبني النضير. لكن هذه الحصون إن أغنتهم في الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم في مهاجمة المسلمين، والميرة قد أصبحت في متناول يد أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها. لذلك خفّ المسلمون فرحين وراء عليّ حتى أتوا بني قريظة، فإذا يهودها ومعهم حبيّ بن أخطب النضري يقعون في «محمد» بأقبح مقالة، يكذبونه ويطعنون عليه وينالون من عرض نسائه... وكأثما شعروا بعد انخزال الأحزاب عن المدينة بما هبّئ لهم، ولما جاء الرسول لقيه عليّ وطلب إليه ألا يدنو من حصون اليهود. فسأله «محمد»: ولم أظنك سمعت منهم لي أذى! قال: نعم. قال رسول الله: لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً. فلما دنا من حصونهم ناداهم: يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً. وجعل المسلمون بقية نهارهم يتوافدون إلى بني قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها؛ فأمرهم «محمد» بحصارها.^(٨١٤)

ظلّ هذا الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض تراشق بالنبل والحجارة، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدة الحصار مرة واحدة، فلما جهدوا وأيقنوا أن لن تمنعهم حصونهم من الهلاك شيئاً، وأنهم لابد أن يقعوا في قبضة المسلمين وإن طال الزمن، بعثوا إلى الرسول أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا. وكان أبولبابة من الأوس حلفائهم. فلما رآوه قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رقّ لهم. فقالوا له: أترى يا أبا لبابة أن نترل على حكم «محمد»؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح إن لم تفعلوا^(٨١٥). وقد ندم أبولبابة على إشارته هذه فيما روت السير. فلما انصرف أبولبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن

(٨١٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢٣٤، والمغازي للواقدي: ١/٤٩٧، وإمتاع الأسماع: ١/٢٤٥، وعيون الأثر: ٢/١٠٠ — ١٠١، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣/٢٢٧، والسيرة الحلبية: ٢/٣٣٣، وبحار الأنوار: ٢٠/٢١٠.

(٨١٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢٣٤، والمغازي للواقدي: ١/٤٩٩ — ٥٠٠، وإمتاع الأسماع: ١/٢٤٥ — ٢٤٦.

(٨١٥) غريب هذا المعنى، ولو كان كذلك لما كان ذنباً بحاجة إلى التوبة، بل الصحيح العكس، فهو بلسانه أمر بالمعروف للإسلام، ويده أشار إلى رقبته قاصداً بأن لا تزلوا لحكمه فأنه ذبحكم!

يتابعوا «محمّداً» على دينه، وأن يُسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم. فرفض أصحاب سعد أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره. فعرض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى «محمّد» وأصحابه رجالاً مُصلتين بالسيوف لم يتركوا وراءهم ثقلاً حتّى يحكم الله بينهم وبين «محمّد». فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء. فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم! قال لهم سعد: لم يبق إذاً إلّا أن تنزلوا على حكم «محمّد» وقد سمعتم ما أعدّ لكم^(٨١٦). وتشاور القوم فيما بينهم وقال قاتل منهم: إنهم لن يكونوا أسوأ من بني النضير مصيراً، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشرّ، وإنهم إن عرضوا أن يرحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد «محمّد» بأساً من قبول عرضهم.

وبعثت قريظة إلى «محمّد» تعرض عليه الخروج إلى أذرعات تاركة وراءها ما تملك، فأبى ذلك عليها إلّا أن تنزل على الحكم. فأرسلت إلى الأوس تقول لهم: ألا تأخذون لآخوانكم مثلما أخذت الخزرج لآخوانهم! فمشى جماعة من الأوس إلى «محمّد» فقالوا: يا نبيّ الله، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج؟ قال محمّد: يا معشر الأوس، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجالاً منكم؟ قالوا: بلى، قال: فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا. فاختار اليهود سعد بن معاذ، وكأثما أعماهم القدر الذي كتب لهم لوح حظهم فأنسأهم مقدم سعد إليهم أول نقصهم عهدهم، وتحذيره إيّاهم، ووقعهم في «محمّد» أمامه، وسبهم المسلمين بغير حقّ. وأخذ سعد الموائيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به. فلما أعطوه الموائيق، أمر بني قريظة أن يتركوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا، فحكم سعد فيهم أن تُقتل المقاتلة، وتُقسّم الأموال وتُسبى الذرية والنساء. فلما سمع «محمّد» هذا الحكم قال: والذي نفسي بيده لقد رضي بحكمك هذا، الله والمؤمنون وبه أُمّرت. ثمّ خرج إلى سوق المدينة فأمر فحفرت بها خنادق ثمّ جيء باليهود أرسالاً فضربت أعناقهم، وفي هذه الخنادق دفنوا. ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم، بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبد الله بن أبي مع بني قينقاع. ولعلّ سعداً ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لما كان أمام المسلمين إلّا أن يستأصلوا وأن يقتلوا وأن يمثّل بهم، فجزاهم بمثل ما عرضوا المسلمين له.

(٨١٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٣٥ — ٢٣٦، والمغازي للواقدي: ٤٩٧/١ — ٥٠٧، وإمتاع الأسماع:

وقد أظهر اليهود من الجلد أمام القتل ما تراه في حديث حبيّ بن أخطب حين قدّم لتضرب عنقه، فنظر إليه النبيّ وقال: ألم يُخزك الله يا حبيّ! فأجاب حبيّ: كلّ نفس ذائقة الموت ولي أجل لا أعدوه، ولا ألوم نفسي على عداوتك. ثمّ التفت إلى الناس فقال: أيّها الناس، إنّه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثمّ إنّ الزبير بن باطا القرظي كان قد منّ على ثابت بن قيس في يوم بُعث بأن خلّى سبيله بعد أسره، فأراد ثابت أن يجزيه بعد حكم ابن مُعاذ على اليهود عن يده عنده، فذكر لرسول الله منّة الزبير عليه واستوهبه دمه، وأجاب رسول الله طلبته. فلما عرف ما فعل ثابت، قال له: شيخ كبير مثلي لا أهل له ولا ولد ماذا يصنع بالحياة! فاستوهب ثابت رسول الله دم امرأته وأولاده فوهبه إياه، ثمّ استوهبه ماله فوهبه إياه كذلك. فلما اطمأنّ الزبير إلى أهله وولده وماله سأل عن كعب بن أسد وعن حبيّ بن أخطب وعن عزّال بن سمّوّل وعن زعماء بني قريظة، فلما علم أنّهم قُتلوا، قال: إني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلاّ ألحقني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو حتّى ألقى الأحبة، وكذلك ضربت عنقه بمشيئته. وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والذراري؛ ولكنهم يومئذ قتلوا امرأة طرحت الرحا على مسلم فقتلته. وكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنّها تقتل. وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فنجوا من القتل^(٨١٧). وفي رأينا أنّ دمّ بني قريظة معلق في عنق حبيّ بن أخطب، وإن كان قد قتل معهم. فهو قد حنث بالعهد الذي عاهد قومه من بني النضير حين أجلاهم «محمد» عن المدينة، ولم يقتل منهم بعد التزول على حكمه أحداً. وهو بتأليه قريشاً وغطفان وتخزيه العرب كلّها لقتال «محمد» قد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أنّ بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلاّ باستئصال «محمد» وأصحابه. وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنّها بقيت عليه لما أصابها من الشرّ شيء. وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنّهم نزلوا على حكم «محمد» منذ اليوم الأوّل واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم. لكنّ العداوة بلغت من التأصل في نفس حبيّ وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حدّاً

(٨١٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٣٩ — ٢٤٣، والمغازي للواقدي: ١ / ٥١٠ — ٥٢١، وإمتاع الأسماع: ١ / ٢٤٨ — ٢٥٠ و ٢٥٢،

وتفسير مجمع البيان: ٨ / ١٤٨ — ١٤٩، وبحار الأنوار: ٢٠ / ٢١١ — ٢١٢.

جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بأنهم إن أُبقي على حياتهم فلن تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم. فالحكم الذي أصدره على قسوته وشدته إنما كان متأثراً فيه بالدفاع عن النفس واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين.

وقسم النبي أموال بني قريظة ونساءهم على المسلمين، بعد أن أخرج منه الخمس. قسمه بأن كان للفارس سهمان ولفرسه سهم وللراجل سهم. وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرساً. ثم بعث سعد بن زيد الأنصاري بطائفة من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادة في قوة المسلمين الحربية.

وكانت ريحانة إحدى سبايا بني قريظة قد وقعت في سهم «محمد» فعرض عليها الإسلام فأصرّت على يهوديتها، وعرض عليها أن يتزوجها، فقالت: بل تتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك. ولعلّ حرصها على اليهودية ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها، وما كان باقياً في نفسها من كراهية للمسلمين ولنبيهم. ولم يتحدث أحد عن جمال ريحانة ما تحدّثوا عن جمال زينب بنت جحش، وإن ذكر بعضهم أنّها كانت جميلة وسيمة. وقد اختلفت السير فيها: أهي قد ضُرب عليها الحجاب كما ضُرب على نساء النبي، أم أنّها ظلّت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب. وبقيت ريحانة في ملكه حتى ماتت عنده. (٨١٨)

وطّدت غزوة الأحزاب ووطّدت القضاء على بني قريظة للمسلمين في المدينة فلم يبق للمنافقين فيها صوت قطّ. وذهبت العرب كلّها تتحدّث بقوة المسلمين وسلطانهم وبمقام «محمد» وقوّته ورهبة جانبه. لكنّ الرسالة لم تكن للمدينة وحدها، بل كانت للعالم بأسره. فما يزال على النبي وأصحابه إذاً أن يمهّدوا لكلمة الله وأن يدعوا الناس لدينه الحقّ، وأن يصدّوا عنه كلّ معتد عليه، وهذا ما فعلوا.

* * *

الفصل التاسع عشر: من الغزوتين إلى الحديبية

الفصل التاسع عشر

من الغزوتين إلى الحديبية

المرأة والرجل في الإسلام، غزو بني لحيان، قتل عيينة بن الأقرع، غزو بني المصطلق، حديث الإفك.

استتب الأمر لـ «محمد» والمسلمين بعد غزوة الخندق وبعد القضاء على بني قريضة، استتباً جعل العرب تخافهم أشد الخوف، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون: أليس خيراً لقريش لو أنها هادنت «محمدًا» وصافته وهو منها وهي منه، والمهاجرون معه بينهم كبراًؤها وسادتها. واستراح المسلمون بعد الذي اطمأنوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينة قضاء لا تقوم لهم قيامة بعده. ومكثوا بالمدينة لذلك ستة أشهر يباشرون من تجارة الحياة ما يستمتعون معه بشيء من نعمة الحياة، ويزدادون برسالة «محمد» إيماناً ولتعاليمه تمثلاً، ويسيرون وإياه في طريق تنظيم الجماعة العربية، تنظيمًا لم يكن مألوفاً عندها من قبل، ولكنه لم يكن منه بد في جماعة منظمة ذات كيان ووحدة، كالجماعة التي كانت تتكون تحت سلطان الإسلام رويداً رويداً. فقد كانت العرب في الجاهلية لا تعرف لها نظاماً ثابتاً إلا ما أقرته عادتها. ولم يكن لها في أمر الأسرة ونظامها والزواج وحدوده والطلاق وقيوده وصلات الزوجين والأبناء، إلا ما تُملي به طبيعة ذلك الجو الذي يغلو في الإباحة تارة، ليصل من الجمود والتقييد إلى حدود الرق وعسفه تارة أخرى، فليُنظم الإسلام الجماعة الإسلامية الناشئة التي لما تتكون تقايلدها. ليمهدها في وقت قصير لتضع نواة حضارة تنظم من بعد ذلك حضارة الفرس والروم والمصريين، وتطبعها بطبعها الإسلامي الذي يتدرج رويداً رويداً حتى يصل إلى كماله يوم يتزل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (٨١٩).

ومهما يكن الرأي في حضارة بلاد العرب قبل الإسلام وبدواقتها، وهل كانت القرى من أمثال مكة والمدينة ذات حضارة لا تعرفها البادية، أو أنها كانت أيضاً في أوليات مراتب الحضارة، فإن صلوات الرجل والمرأة في هذه الجماعة العربية كلها لم تكن تعدو، بشهادة القرآن وبشهادة ما بقي من آثار ذلك العهد، صلوات الذكور والأنوثة، مع تفاوت قلبي به مراتب الطوائف والعشائر لا يخرجها عن هذا الوضع القريب من مراتب الإنسان الأول، ولذلك كان النسوة يتبرجن في الجاهلية الأولى ويُبدن من زينتهن ما لا يقف أمره عند بعولتهن، وكن يخرجن فرأدى ومثنى وزرافات لحاجتهن يقضينها في غوطة في الصحراء، فيلقاهن الشبان والرجال وهن يتهادين في جماعاتهن فلا يأبى هؤلاء ولا أولئك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول الحديث مما يستريح له الذكر وتطمئن له الأنثى . وبلغ من أمر هذه الصلة وما وقرت في النفوس، أن لم تأب هند زوج أبي سفيان أن تقول في أشدّ مواقف الجِدِّ والشدّة، وهي تحت قريشاً حين الحرب يوم أحد (٨٢٠) :

إن تقبلوا نعانق *** ونفرش التمارق

أو تدبروا نفارق *** فراق غير وامق

ولم يكن الزنا يومئذ بالجريمة ذات الخطر والشأن. ولقد ذكر الرواة عن هند هذه، على ما كان لأبي سفيان من مكانة وخطر، أحاديث غرام وهوى لم تغير من مكانتها في قومها ولا بين أهلها. ثم إن المرأة كانت إذا ولدت، ولم يعرف لمولودها أب، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال لينسب مولودها إلى آيهم كان أقرب إليه شبهاً. ولم يكن إلى ذلك لتعداد الزواج ولا للرق حدٌ أو قيد. كان للرجل أن يتزوج ما شاء. وأن يتسرّى ما شاء، وكان لهؤلاء ولأولئك أن يلدوا ما شاءوا. وكان الأمر في ذلك لا خطر له إلا أن يفتضح وتخشى معرفته وما قد يجر وراءه من أهاج تتبادل لا يدري أحد ما ينجم عنها من خصومة وقتال. هنالك يتبدل الأمر غير الأمر، وترى ما كانت المودة قد سترت من قبل من ملاحم الهوى ووثبات الغرام، قد هتكته الخصومة فجعلته سبباً لملاحم القتال ووثبات التزال. وإذا شئت الخصومة فلكل أن يتقول ما شاء وأن يزعم ما يريد. وخيال العربي خصب بطبيعة عيشه تحت السماء وتجوّاله الدائم في طلب الرزق، واضطراره للمغالاة والكذب أحياناً في شؤون التجارة. والعربي لكع بطبعه، حتى لقد كانت لكاعة العرب وما تزال مضرب المثل، فإذا وقف زيد في السلم يحدث هنداً حديث هوى لم يزد على شهى اللفظ تساقطه لآلى الثنايا العذاب، رأيت زيدا حين الخصومة والحرب يرفع عقيرته بهند وقد لقيها أمامه متجرّدة يقول في نحرها وصدرها ونهداها وخصرها وعجزها وما دون ذلك ما شاءت له أفانين الخصومة واهتياج الخيال الذي لا يعرف في المرأة غير الأنثى، وغير ما تفرش من التمارق. ومع ما قضى الإسلام على هذه النفسية فقد بقي من آثارها ما تقرؤه في مثل شعر عمر بن أبي ربيعة وما تأثر به شعر الغزل في العربية إلى عصور كثيرة، وما لا يزال له أثره — ولو إلى حد قليل — في شعر عصرنا الحاضر.

ربّما بدا هذا التصوير للقارئ المعجب بالعرب وحضارتهم، وللمعجب حتى بعرب الجاهلية، مشوباً بشيء من الغلو. وللقارئ العذر من ذلك، إذ يوازن بين هذه الصورة التي وضعنا أمامه، وبين ماهو واقع بالفعل في عصرنا الحاضر، وبين ما نرجو أن تصل إليه صلات الرجل والمرأة في الزواج والطلاق وصلات الزوجين والأبناء. لكن موازنة كهذه مخطنة جدية أن تجرّ إلى أفحش الضلال. إنّما يجب أن توازن الجماعة العربية التي صوّرنا إحدى نواحيها في القرن السابع المسيحي بالجماعات الإنسانية في ذلك العصر. وما أحسبنا نغالي إذا قلنا: إنّ الجماعة العربية كانت — مع ما وصفنا من أمرها — خيراً بكثير من الجماعات المعاصرة لها في آسيا وفي أوروبا.

ولسنا نقف عندما كان من ذلك في الصين أو في الهند، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا يُساعدنا. لكن أوروبا الشمالية وأوروبا الغربية كانت يومئذ في ظلمات تبيح لك أن تصوّر من نظام الأسرة فيها ماتريد كما يقرب من أوليات مراتب الإنسانية. وكانت رومية وهي صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغلب والسيادة والمنافس الوحيد القوي للفرس، تجعل المرأة من الرجل في مكانة دون مكانة المرأة العربية من الرجل حتّى في البداية. كانت المرأة في شرائع رومية يومئذ معتبرة متاعاً مملوكاً للرجل يتصرّف فيه كيف يشاء، ويملك من أمره ما يريد، ويقدر له على الحياة والموت. كانت تُعامل معاملة الرقيق سواء، لا فارق بينها وبينه في نظر الشرع الروماني. كانت مملوكة لأبيها ثمّ لزوجها ثمّ لابنها. وكان ملكهم إياها تاماً كملكهم الرقيق وكملكهم الحيوان والجماد. وكان ينظر إلى المرأة على أنّها مثار الشهوة وعلى أنّها لا سلطان لها على أنوثتها الحيوانية، حتّى لم يكن بدّ من اصطناع نطاق العفّة ومن التمسك بذلك قروناً متوالية، بعد هذا العصر الذي نصف فيه أحوال جزيرة العرب. ومع أنّ السيّد المسيح (عليه السلام) كان برّاً بالنساء عطوفاً عليهنّ، حتّى لقد قال حين أظهر بعض رجاله العجب لحسن معاملته مريم المجدلية: «مَنْ لم يكن منكم ذا خطيئة فليرمها بحجر»، مع هذا ظلّت أوروبا المسيحية، كما كانت أوروبا الوثنية من قبل، تزدرى المرأة شرّاً ازدراء. ولم تكن تنظر إلى صلاتها بالرجل على أنّها صلات الذكورة والأنوثة وكفى؛ بل على أنّها صلة عبودية ورقّ ومهانة، فما طوّع لبعض المتكلمين في عصور مختلفة أن يتساءلوا: أللّمرأة روح وأنّها ستحاسب، أم أنّها كالحیوان لا روح لها ولا تعرف عند الله حساباً وليس لها في ملكوت الله متسع.

وكان «محمّد» يقدر بما أوحى إليه أن لا صلاح للجماعة إلّا بتعاون الرجل والمرأة، على أنّهما أخوان متضامنان تضامن مودّة ورحمة، وأنّ للنساء مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة. لكنّ الأخذ في ذلك بالطّفرة لم يكن أمراً ميسوراً. ومهما يكن من إيمان العرب الذين اتّبعوه به، فإنّ أخذهم باليسير من الأمر وعدم تعريضهم للخرج، أدعى إلى مزيد إيمانهم، أدّى إلى ازدياد أنصاره. وكذلك كان الشأن في كلّ إصلاح اجتماعي فرضه الله على المسلمين، بل كذلك كان الشأن في فروض الدين ذاتها، في الصلاة والصوم والزكاة والحجّ، وكذلك كان الشأن في المحرمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما إليها من مثله. وقد بدأ «محمّد» في شأن الإصلاح الاجتماعي وتقرير صلات ما بين الرجل والمرأة بالمثل يضربه فيما بينه وبين أزواجه كما كان المسلمون جميعاً يرونه، أن لم يكن الحجاب قد فرض على نساء النبيّ إلى ما قبيل غزوة الأحزاب، كما لم يفرض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل إلى ما بعد غزوة الأحزاب، بل

إلى ما بعد غزوة خيبر بأكثر من سنة. فكيف يصل النبيّ إلى توطيد علاقات الرجل والمرأة على أساس صالح، تمهيداً لهذه المساواة التي انتهى الإسلام إليها مساواة تجعل للنساء مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درجة.

كانت صِلات الرجل والمرأة عند المسلمين كما كانت عند سائر العرب — على ما وصفنا — مقصورة على صِلات الذكورة والأنوثة. وكان التبرّج وإبداء الزينة بصورة تدعو إلى تحرّش الرجال بالنساء، كلّما وجدوا الفرصة لذلك، بعض ما يُذكي عواطف الجنس عند الرجل والمرأة على سواء، وما يحول لذلك دون التقريب بينهما تقريباً أساسه المعنى الإنساني السامي، وأساسه الاشتراك الروحي في العبودية لله وحده. وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود والمنافقين في المدينة وخصومتهم لـ «محمد» وللمسلمين أن بلغ تحرّش هذه الطوائف بالمسلمات حدّاً أدى إلى حصار بني قينقاع كما رأيت، وإلى إيصال الأذى بالمسلمات ممّا كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضرورة لها. فلو أنّ المسلمات لم يُبدن زينتهنّ أثناء خروجهنّ لكان ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذّن، ولو فرّ ذلك هذه المشاكل، ولكان بدءاً حسناً لهذه المساواة التي يريد الإسلام تحقيقها بين الجنسين، من غير أن يشعر المسلمون رجالاً ونساءً بانتقال في الفكرة لم يمهدوا له. وفي هذا الظرف نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب: (وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا أَثْمَرَ وَابْتَاعُوا مِنْهُمْ بِعَلَّةٍ وَأَكْلُوا مِنْ شَرَارِهِمْ وَاتَّقُوا رَبَّ هُذِهِ نُصْرَةُ اللَّهِ لِّلَّذِينَ هُمْ يُحِبُّونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) (الأحزاب: ٥٨). وفي الآية ٥٨ من سورة الأحزاب: (وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا أَثْمَرَ وَابْتَاعُوا مِنْهُمْ بِعَلَّةٍ وَأَكْلُوا مِنْ شَرَارِهِمْ وَاتَّقُوا رَبَّ هُذِهِ نُصْرَةُ اللَّهِ لِّلَّذِينَ هُمْ يُحِبُّونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) (الأحزاب: ٥٨). وفي الآية ٥٨ من سورة الأحزاب: (وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا أَثْمَرَ وَابْتَاعُوا مِنْهُمْ بِعَلَّةٍ وَأَكْلُوا مِنْ شَرَارِهِمْ وَاتَّقُوا رَبَّ هُذِهِ نُصْرَةُ اللَّهِ لِّلَّذِينَ هُمْ يُحِبُّونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) (الأحزاب: ٥٨).

بهذا التمهيد سهل على المسلمين أن يُقلعوا عن عادات العرب الأولى، كما أنّ ما قصد إليه شارع الإسلام من تنظيم الجماعة على أساس الأسرة، طاهرة من أدران الدخيلة ممّا جعل الزنا جريمة كبرى، قد جعل يسيراً على كلّ مسلم أن يقدر ما في تبرّج الأنثى تبدّي به للذكر من عيب ومعرّة، ما لم تكن صلة ما بين الرجل والمرأة تسمح بهذا التبرّج. وذلك قوله تعالى: (قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (قُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ

التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٨٢٢).

وكذلك عمل الإسلام، فتدرّجت صلة ما بين الرجل والمرأة إلى غير ما كانت. فلم تبق صلة ذكورة وأنوثة إلا حيث لا فتنة من مثل هذه الصلة؛ فأما في تجارة الحياة وفي علاقات الرجال والنساء جميعاً فالكلّ سواسية، والكلّ عباد الله، والكلّ متضامنون للخير ولتقوى الله. فإذا فرط من أحدهم أو من إحداهنّ ما يذكي في النفس معاني الجنس فذلك إثمٌ يجب على من فرط منه أن يتوب إلى الله إنه هو التّواب الرحيم.

لكنّ ذلك كلّه لم يكن كافياً لينقل النفس العربية في أعوام قلائل من اعتباراتها الأولى جميعاً ليغيّرها في هذا الشأن كما غيّرنا في الإيمان بالله وعدم الشرك به نفساً جديدة. وذلك طبيعيّ. فالمادة إذا تكيفت على صورة ما لم يكن يسيراً أن تحوّلها إلا رويداً رويداً. ومهما تحوّلها فلن تحوّلها إلا قليلاً. ذلك شأن حياة الإنسان المادّية. تطبعه العادات المتوارثة، وتطبعه تقاليد البيئة في تجارة حياته، فإذا أُريد به أن يتغيّر فقد وجب أن يتدرّج في انتقاله وتغيّره. ثمّ إنّّه لن يستطيع هذا التدرّج إلا إذا غيّر ما بنفسه. وقد يستطيع الإنسان أن يغيّر جانباً من جوانب نفسه بزالة ما أمامها من حوائل تعوق تمدّدها وانتشارها لتمثّل الكون كلّ، وهذا ما فعل الإسلام بالمسلمين في شأن توحيد الله والإيمان به وبرسوله وباليوم الآخر؛ لكنّ كثيراً من جوانب النفس العربية لم تُحطّم أمامه العوائق، وخاصّة في شؤون الحياة المادية، فبقي المسلمون فيه قريين ممّا كانوا قبل إسلامهم. وكذلك كان شأنهم فيما طبعتهم عليه حياة الصحراء من تلكؤ، وفيما درجوا عليه من حب التحدّث إلى النساء.

وبرغم ما أسلفنا من تعديل الدين الجديد نظرهم لصِلات ما بين الرجل والمرأة فقد ظلّوا فيما سوى ذلك كما كانوا من قبل أو على مقربة منه. وكثيراً ما كان أحدهم يجب أن يدخل إلى النبيّ بيته وأن يمكث عنده وأن يتحدّث إليه وأن يتحدّث إلى نسائه. وقد كانت مهام النبوة العظمى أكبر من أن تدع «محمّداً» يشغل نفسه بحديث هؤلاء الذين يجيئون إليه والذين يتحدّثون إلى نسائه وما ينقل نساؤه إليه من أحاديثهم. لذلك أراد الله أن يخلّي نبيّه من هذه المشاغل الصغرى، فأنزل^(٨٢٣) عليه هذه الآيات من سورة الأحزاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ

(٨٢٢) النور (٢٤): ٣٠ — ٣١. مع ما بين الحجاين آيات سورة الأحزاب وهذه الآيات من سورة النور من الفرق، إذ أنّ آيات الأحزاب

لحجاب نساء النبيّ، وآيات النور للحجاب العام، وآيات الأحزاب نزلت في السادسة وآيات النور في التاسعة.

(٨٢٣) أسباب الزول للواحد: ٢٤٢، وتفسير مجمع البيان: ١٧٣/٨.

النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا^(٨٢٤). وكما نزلت هذه الآيات حديثاً للمؤمنين وإرشاداً إليهم إلى واجبه من إزاء النبي وأزواجه فقد نزلت الآيات الآتية من سورة الأحزاب كذلك موجهة إلى أزواج النبي في هذا الشأن نفسه^(٨٢٥)؛ قال تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَقْبَشَ النَّاسِ لَفِي قُلُوبِهِ مَرْضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا* وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)^(٨٢٦).

هذا هو التوسيد الاجتماعي الجديد الذي أراد الإسلام للجماعة الإسلامية. أقام أساسه على تغيير نظرة الرجل والمرأة لما بينهما من صلات، وأراد أن يمحو من النفوس تسلط فكرة الجنس واعتبارها وحدها المتغلبة على كل اعتبار، وأراد بذلك أن يوجه الجماعة وجهتها الإنسانية العليا التي لا تُنكر على الإنسان استمتاعه بالحياة استمتاعاً لا يُضعف من حريته في أن يريد، ومن باب أولى لا يسلبه هذه الحرية في أن يريد، والتي تجعل من الإنسان صلة ما بين الكائنات جميعاً، فترتفع به من مراتب زراعة الأرض ومن الصناعة، ومن تجارة الحياة أياً كانت لتصل به إلى مجاورة القديسين والاتصال بالملائكة المقربين. وقد جعل الإسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السمو بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وبما تطهر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله، وبما تقوى من أسباب الأخوة بين المؤمنين، وبين الإنسان وسائر ما في الكون.

هذا التنظيم للحياة رويداً رويداً، تمهيداً إلى الانتقال العظيم الذي أعد الإسلام له الإنسانية . لم يمنع قريشاً والعرب من أن تتربص بـ «محمد» الدوائر، ولم يمنع «محمدًا» من أن يكون دائم الحذر من ناحية، سريعاً إلى النشاط لإلقاء الرعب في قلوب خصومه من ناحية أخرى. من ذلك أنه

سنة أشهر من القضاء على بني قريظة شعر بشيء من الحركة في ناحية مكة، ففكر في أن ينتقم حبيب بن عدي وأصحابه ممن قتل بنو لحيان عند ماء الرّجيع منذ سنتين خلتا. على أنه لم يجهر

(٨٢٤) الأحزاب (٣٣): ٥٣ .

(٨٢٥) أسباب النزول للواحدي: ٢٤٥، وتفسير القمي: ١٩٦/٢ .

(٨٢٦) الأحزاب (٣٣): ٣٢ — ٣٣ .

بقصده خيفة أن يتخذ العدو الحيلة لنفسه، فأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة فأخذ قواته ويّمْ بها شمالاً. فلما اطمأن إلى أن قريشاً وجيرانها لم يبق منهم من يفتن لمقاصده انفتل راجعاً إلى ناحية مكة وأغذ السير مسرعاً حتى بلغ منازل بني لحيان بغرّان. لكنّ قوماً رأوه أوّل انحداره إلى الجنوب فعرف منهم بنو لحيان قصده إيّاهم ، فاعتصموا برؤوس الجبال هم ومتاعهم. وفات النبي أن يصيهم؛

فبعث أبا بكر في مثنى راكب حتى بلغوا عُسفان على مقربة من مكة؛ ثمّ كرّ رسول الله قافلاً إلى المدينة في يوم قانظ بلغ من قيظه حتى كان النبي يقول: «آبُونَ تَائِبُونَ إن شاء الله لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المُنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال»^(٨٢٧).

ولم يكد «محمّد» يقيم بالمدينة ليالي بعد أوبته إليها حتى أغار عُيينة بن حصن على أطرافها. وكان بظاهرها إبل ترعى يحرسها رجل وامرأته. فقتل عيينة وأصحابه الرجل وساقوا الإبل واحتملوا المرأة وانصرفوا يحسبون أنّهم من اللّحاق بمنجاة. لكنّ سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي كان قد غدا يريد الغابة متوشّحاً قوسه ونبله. فلما مرّ على ثنية الوداع وأشرف على ناحية من سلّع بصّر بالقوم قد اقتادوا الإبل واحتملوا المرأة، فصاح: واصباحاه؛ وجعل يشد في آثار القوم حتى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل. وهو في أثناء ذلك لا ينفك يصيح. وبلغ «محمّداً» صياح سلمة، فنادى في أهل المدينة: الفزع الفزع، فترامى الفرسان إليه من مختلف النواحي، فأمرهم فانطلقوا في أثر القوم، وجهّز هو قواته وسار على رأسها يتبعهم. وكان عُيينة ومن معه قد أغدّوا السير مسرعين يريدون اللّحاق بغطفان نجاة من المسلمين، لكنّ فرسان المدينة أدركوا مؤخرتهم واستخلصوا شطر الإبل منهم، ولحق بهم «محمّد» فأعانهم، ونجت المرأة المؤمنة التي كان العرب قد احتملوها. وأراد جماعة من أصحاب النبي أخذت منهم الحماسة مأخذها أن يتأثروا عيينة. فردّهم رسول الله، أن علم أن عيينة وأصحابه قد أدركوا غطفان واحتملوا بهم. ورجع المسلمون إلى المدينة وجاءت امرأة الحارس في آثارهم على ناقة المسلمين. وكانت المرأة قد نذرت إن أنجتها الناقة لتحرّتها قرباناً إلى الله. فلما أخبرت النبي بنذرهما قال: بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثمّ تنحرينها . إنّه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين^(٨٢٨).

(٨٢٧) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٧٩ — ٢٨٠، والمغازي للواقدي: ١ / ٥٣٦ — ٥٣٧، وإمتاع الأسماع: ١ / ٢٥٨، والمناقب لابن شهر آشوب:

١٩٧/١ .

(٨٢٨) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٨١ — ٢٨٥، والمغازي للواقدي: ١ / ٥٣٧ — ٥٤٩، والسيرة النبوية لابن كثير:

٢٩٣/٣ — ٢٩٤، والمناقب: ١ / ٢٠١ .

وأقام «محمد» بالمدينة بعد ذلك قرابة الشهرين. ثم كانت غزوة بني المصطلق بالمريسيع ، هذه الغزاة التي يقف عندها كل كاتب وكل مؤرخ سيرة النبي العربي لا لأنها غزاة ذات قيمة، أو لأن المسلمين أو عدوهم أبلوا فيها بلاء خارقاً للعادة، بل لأن الشقاق كاد يفسو بعدها في صفوف المسلمين فحسمه الرسول بأحسن ما يكون عزيمة وحزماً، ولأن من أثرها أن تزوج الرسول من جويرية بنت الحارث، ولأن هذه الغزوة أثرت حديث الإفك عن عائشة حديثاً كان موقفها منه، وهي لما نزل في السادسة عشرة، موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتهما كل القوى وعنت لجلالهما كل الوجوه.

فقد بلغ «محمدًا» أن بني المصطلق ، وهم فرع من خزاعة ، يجمعون له في حيهم على مقربة من مكة، وأنهم يحرّضون عليه يريدون قتله وعلى رأسهم قائدهم الحارث بن أبي ضرار. ووقف «محمد» من أحد البدو على سرّ جمعهم فأسرع في الخروج ليأخذهم على غرة، كعادته في أخذ أعدائه، وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر^(٨٢٩) ولواء الأنصار لسعد بن عباد. ونزل المسلمون على ماء قريب من بني المصطلق يقال له المريسيع ، ثم أحاطوا ببني المصطلق ففرّ من جاءوا لنصرتهم. قتل من بني المصطلق عشرة ولم يقتل من المسلمين إلا رجل يقال له: هشام بن صبابه أصابه رجل من الأنصار وهو يحسبه خطأ من العدو. ولم يجد بنو المصطلق بعد قليل من التراشق بالنبال مفراً من التسليم تحت ضغط المسلمين القوي السريع، فأخذوا أسرى هم ونسائهم وإبلهم وماشييتهم^(٨٣٠).

وكان لعمر بن الخطاب في الجيش أجير يقود فرسه، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد الرجال الخزرج على الماء، فاقتتلا فتصايحا، يقول الخزرجي يا معشر الأنصار، ويقول أجير عمر: يا معشر المهاجرين، وسمع عبدالله بن أبي النداء، وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزاة ابتغاء الغنيمة، فثار ما في نفسه على المهاجرين وعلى «محمد» من حفيظة ، وقال لجلسائه: لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا. والله ما أعدنا وإياهم إلا كما قال الأول: سمنك كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. ثم قال لمن حضر من قومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتهم بلادكم، وقاسمتهم أموالكم. أما والله لو أمستكم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. ومشى بحديثه هذا ماش إلى رسول الله بعد فراغه من عدوه، وكان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع وقال: مُر به بلالاً فليقتله! هنا ظهر النبي كدأبه مظهر القائد المختك

(٨٢٩) بل ردّد الواقدي في المغازي: ٤٠٧/١ الراية بينه وبين عمار بن ياسر.

(٨٣٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٠/٢، والمغازي للواقدي: ٤٠٤/١ — ٤٠٧، والسيرة النبوية لابن كثير: ٢٩٧/٣، والمناقب: ٢٠١/١ .

والحكيم البعيد النظر، إذ التفت إلى عمر وقال: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس وقالوا إنّ محمّداً يقتل أصحابه^(٨٣١)!

لكنّه قدّر في نفس الوقت أنّه إن لم يتّخذ خطة حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤدّن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها. وترامى إلى ابن أبيّ ما بلغ النبيّ عنه، فاسرع إلى حضرته ينفي ما نسب إليه، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به. ولم يغير ذلك من قرار «محمّد» الرحيل شيئاً، بل انطلق بالناس طيلة يومهم حتّى أمسى، وطيلة ليلتهم حتّى أصبح، وصدّر يومهم الثاني حتّى آذهم الشمس. فلما نزل الناس لم تلبث جنوبهم أن مسّت الأرض حتّى وقعوا من فرط تعبهم نياماً، وأنسى التعب الناس حديث ابن أبيّ، وعادوا بعد ذلك إلى المدينة، ومعهم ما حملوا من غنائم بني المصطلق وأسراهم وسيبهم، ومعهم جويرية بنت الحارث قائد الحيّ الهزيم وزعيمه^(٨٣٢).

بلغ المسلمون المدينة وأقام ابن أبيّ بها ولا تهدأ له نفس حسداً لـ «محمّد» وللمسلمين، وإن تظاهر بالإسلام بل الإيمان، وإن أصرّ على إنكار ما نُقل عنه لرسول الله عند ماء المريسيع. أثناء ذلك نزلت^(٨٣٣) سورة المنافقين وفيها قوله تعالى: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(٨٣٤). هنالك حسب قوم أنّ هذه الآيات قضاء على ابن أبيّ، وأنّ «محمّداً» لا ريب أمر بقتله. فذهب عبدالله بن عبدالله بن أبيّ، وكان مسلماً حسن الإسلام فقال: «يا رسول الله إنه بلغني أنّك تريد قتل عبدالله بن أبيّ فيما بلغك عنه. فإن كنت فاعلاً فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منّي. وإني لأخشى أن تأمر به غيبي فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار». كذلك قال عبدالله بن عبدالله بن أبيّ لـ «محمّد». وما أحسب عبارة أبلغ من عبارته على إيجازها في قوة التعبير، عن حالة نفسية تضطرب فيها أقوى العوامل في النفس أثراً: تضطرب فيها عوامل البرّ بالأب وصدق

(٨٣١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٠/٢ — ٢٩١، والمغازي للواقدي: ٤١٦/١ و ٤١٨، والسيرة النبوية لابن كثير: ٢٩٩/٣، مجمع البيان: ٢٢/١٠.

(٨٣٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٢/٢ و ٢٩٤، والمغازي للواقدي: ٤١٩/١، السيرة النبوية لابن كثير: ٣٠٠/٣ و ٣٠٢، مجمع البيان: ٢٣/١٠.

(٨٣٣) أسباب النزول للواحدي: ٢٨٧، مجمع البيان: ٢١/١٠ و ٢٤.

(٨٣٤) المنافقون (٦٣): ٧ — ٨.

الإيمان والنخوة العربية، والحرص على سكينة المسلمين حتى لا تتواتر الثارات بينهم! فهذا ابن يرى أباه سيقتل فلا يطلب إلى النبي ألا يقتله، لأنه يؤمن بأن النبي إنما يصدع بأمر ربه، ويوقن بكفر أبيه. وهو، من خيفة ما يقتضيه البر بأبيه، وما تقتضيه الكرامة والنخوة أن يثار له من قتله، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه وأن يحمل بنفسه إلى النبي رأسه، وإن تقطع لذلك قلبه وإن فرى ذلك كبده! وهو يجد في إيمانه بعض العزاء

عن هذا الشطط الذي يكلف نفسه مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذي يأمر النبي بقتل أبيه، أي جلال بين الإيمان والعاطفة والخلق أشد من هذا الجلال! وأية مأساة نفسية أفتك بصاحبها من هذه المأساة! أفتدري بم أجاب النبي عبدالله بعد أن سمع قوله؟ قال له: إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا^(٨٣٥). يا لروعة العفو وجلاله! «محمد» يترفق بهذا الذي يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه، فيكون رفقه ويكون عفوه أبعد أثراً من عقوبته لو أنه أنزلها. فقد كان عبدالله بن أبي بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه يعاتبونه ويعنفونه ويشعرون أن حياته بعض هبات «محمد» إياه. وتذاكر النبي مع عمر يوماً شؤون المسلمين، وجاء ذكر ابن أبي وما يعاتبه قومه ويعنفونه، فقال «محمد»: «كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم قتله لقتلته. قال عمر: والله علمت لأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعظم بركة من أمري^(٨٣٦).

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السبي والغنائم. على أن أمراً حدث لم يترك بادئ الرأي أثراً، ثم كان له بعد ذلك حديث طويل. ذلك أن النبي كان إذا غزا، أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه. وخرج سهم عائشة عشية^(٨٣٧) غزاة بني المصطلق فخرج بها. وكانت عائشة نحيفة خفيفة، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذت الرجال به فشده إلى ظهر البعير وهم لا يكادون يشعرون بها فيه لحفة زنتها.

ولما فرغ النبي من سفره وسار هو ومن معه مسيرهم الطويلة المضنية التي ذكرنا، اتجه بعد ذلك إلى المدينة، حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل. وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة

(٨٣٥) المغازي للواقدي: ٤٢٠/١ — ٤٢١، السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٢/٢ — ٢٩٣، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣٠١/٣، وجمع البيان:

٢٣/١٠.

(٨٣٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٣/٢، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣٠١/٣.

(٨٣٧) بل الصحيح في العربية: ليلة غزاة.. فإن العشيّة تعني مساء ذلك اليوم، والذي هنا غير صحيح.

في انتظار دخولها فيه. وكان لعائشة عقد انسل من عنقها وهي في بعض حاجتها، فلما قامت عائدة إلى الرجل التمس العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه. ووجدته ورجعت إلى المعسكر لتستقل هودجها، فإذا القوم قد شدّوه إلى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه، وإذا هم قد ارتحلوا يحسبون أنّهم حملوا معهم أشدّ أمهات المؤمنين حظوة عن النبي^(٨٣٨)، ولم تجد هي في المعسكر داعياً ولا مجيباً. فلم يساورها الخوف وأيقنت أنّ القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها؛ فخير لها أن تبقى مكانها من أن تضرب في الصحراء على غير هدى فتضلّ السبيل.

لم يساورها الخوف فالتفت في جلبابها واضطجعت مكانها منتظرة عودة الباحث عنها. وإنّها لفي ضجعتها إذ مرّ بها صفوان بن المَعطّل السلمي وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته، وكان يراها قبل أن يضرب الحجاب على نساء النبي. فلما بصّر بها على هذه الحال تراجع دهشاً وقال:

لله وإنا إليه راجعون ! طعينة رسول الله (صلى الله عليه وآله). ما خلّفك رحمك الله؟ فلم تجبه، فقرّب هو لها البعير واستأخر عنه وقال: اركبي، فركبت، وانطلق بالبعير سريعاً يطلب الناس فلم يدرّكهم أن كانوا يُعجلّون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذي أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التي كادت تقوم بسبب حديث ابن أبيّ، ودخل صفوان المدينة في وضح النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره، حتّى إذا كانت عند منزلها من بين منازل نسوة الرسول نزلت فدلّفت إليه، ولا يجول بخاطر أحد أن يحدث في أمرها قولاً أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهة، ولا يدور بخاطر الرسول ظنة سوء في ابنة أبي بكر أو في صفوان المؤمن الحسن الإيمان.

وما كان لحديث أن يدور وهاهي ذي تدخل بأعين الناس المدينة في أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يمض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظنة أو يبعث إلى نفس ربية، وهاهي ذي تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه، ليس في شيء من مظهرها ما يُريب^(٨٣٩). فلتجر إذاً شؤون المدينة كما هي، وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا ثمّ أسروا من بني المصطلق، ولينعموا بهذه الحياة الرخية التي تزداد على الأيام رخاء كلّما زداهم إيمانهم على عدوّهم عزّاً، وكلّما أظفروهم به عزيمتهم الصادقة، واستهانتهم بالموت في سبيل الله وفي سبيل دينه وفي سبيل حرية العقيدة، حرية كان العرب من قبل يأبونها عليهم.

(٨٣٨) بل قبل هذا نقل المؤلف عنها ذلك بشأن حديجة وأنها كانت تغار منه!

(٨٣٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢٩٧ — ٢٩٨.

وكانت جُويرية بنت الحارث من سبايا بني المصطلق ، وكانت امرأة حُلوة مُلّاحة، وقد وقعت في سهم أحد الأنصار، فأرادت أن تفتدي نفسها منه، فأغلى الفداء علماً منه بأنها ابنة زعيم بني المصطلق، وأنّ أباهما على أداء ما طلب قدير. وخشيت جويرية أثر شططه، فذهبت إلى النبيّ وكان في دار عائشة فقالت: «أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ف وقعت في سهم فلان فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي». قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: أقضي كتابتك وأتزوجك . فلمّا بلغ الناس الخبر أطلقوا ما بأيديهم من أسرى بني المصطلق إكراماً لصهر رسول الله إياهم ، حتّى لكانت عائشة تقول عن جويرية: ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها^(٨٤٠).

هذه رواية . وتجري رواية أخرى بأنّ الحارث بن ضرار جاء إلى النبيّ بفداء ابنته، وأنّه أسلم بعد أن آمن برسالة النبيّ، وأنّه أخذ ابنته جويرية فأسلمت كما أسلم أبوها. فخطبها «محمّد» إليه فزوجه إياها وأصدقها أربعمئة درهم^(٨٤١).

وفي رواية ثالثة: أنّ أباهما لم يكن راغباً في هذا الزواج، بل لم يكن راضياً عنه، وأنّ أحد أقارب جويرية هو الذي زوجها من النبيّ على غير إرادة أبيها^(٨٤٢).

تزوج «محمّد» من جويرية، وبني لها منزلاً إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد، وأصبحت بذلك من أمّهات المسلمين. وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدءوا يتهامسون : ما بال عائشة تأخرت عن العسكر وجاءت مع صفوان على بعيره، وصفوان شاب وسيم الطلعة مكتمل فتوة الشباب! . وكان لزَيْنَب بنت جحش أخت تُدعى حَمْنَة، وكانت تعلم ما لعائشة عند «محمّد» من حظوة تقدّمها على أختها. فجعلت حَمْنَة هذه تذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشة، وكانت تجد من حسان بن ثابت عوناً^(٨٤٣)، ومن عليّ بن أبي طالب سميعاً^(٨٤٤). فأما عبدالله بن أبي فوجد في هذا الحديث مرعى خصباً لشفاء ما في نفسه من غِلٍّ، وجعل يذيعه جهد

(٨٤٠) المغازي للواقدي: ٤١١/١ .

(٨٤١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٨٤٢) سير أعلام النبلاء: ٢٦٣/٢ دار الرسالة بيروت لبنان الطبعة السابعة ١٩٩٠ .

(٨٤٣) المغازي للواقدي : ٤٣٤/١ .

(٨٤٤) هذا الاستبطان النفسي الذي اعتمده هيكل لنفوس الصحابة إزاء أمّ المؤمنين عائشة لا يناسب مقامهم وقربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، خصوصاً الإمام أمير المؤمنين أخي رسول الله ووزيره الذي يهّمه ما يهّم النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، وازواج النبيّ مُحترمات عنده ، كما لم يسجل لنا التاريخ ولو حادثة واحدة تسيء لأُمّ المؤمنين، قد صدرت من عليّ (عليه السلام) وان صدر منها ما يكشف عن حساسيتها منه في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولزّيد من التفصيل راجع أمّ المؤمنين عائشة للسيد مرتضى العسكري .

طاقته^(٨٤٥). لكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة وقد كانت مضرب المثل في الطهر وسمو النفس. وكاد الحديث يؤدي إلى فتنة في المدينة. وبلغت هذه الأخبار «محمدًا» فاضطرب لها، ماذا؟! عائشة هذه تخونه! هذا مستحيل. إنها الأنفة والإباء؛ وإن لها من حبه إيّاها وشدة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا إثماً دونه كلّ إثم. نعم! ولكن أف للنساء! من ذا يستطيع أن يسبر غورهنّ وأن يصل إلى قرارة ما في نفوسهنّ. وعائشة بعد طفلة يافعة الشباب، وأي شيء هذا العقد الذي فقدت فذهبت تلتسمه جوف الليل؟! وما بالها لم تُحدّث له وهم ما يزالون في المعسكر من أمره ذكراً؟! وتقلّب النبيّ على أشواك الحيرة، ما يدري أيصدّق أم يكذب^(٨٤٦).

أمّا عائشة فلم يجزّ أحد على أن يبلغها من كلّ هذا الذي يقول الناس شيئاً، وإن أنكرت من زوجها جفاءً لم تعرفه منه، ولا يتفق في شيء مع لطفه بها وحبه إيّاها. ثمّ إنها مرضت من بعد ذلك مرضاً شديداً، فكان إذا دخل عليها وأمّها تمرّضها لم يزد على قوله: كيف تيكمن؟! ووجدت عائشة في نفسها لما رأت من جفاء النبيّ إيّاها، وجعلت تحدّث نفسها: ألا تكون جويرية قد حلّت من قلبه محلّها! وبلغ من ضيق ذرعها بجفاء «محمد» إيّاها أن قالت له يوماً: لو أذنت لي فانتقلت إلى أمّي فمرّضتني! وانتقلت إلى أمّها وفي نفسها من الدهشة هذا التفريط في أمرها ما آذاها وآلمها. وظلّت في مرضها بضعة وعشرين يوماً حتّى نقيت، وهي لا تعرف من كلّ ما يدور حول اسمها من حديث شيئاً^(٨٤٧). أمّا «محمد» فقد بلغ من تأذيه بترامي هذه الأخبار إليه أن قام يوماً في الناس يخطبهم فقال: «أيّها الناس. ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحقّ! والله ما علمت منهم إلّا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلّا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلّا معي». فقام أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله إن يكونوا من إخواننا الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. وردّ عليه سعد بن عبادة بأنّه إنّما تقدّم بهذه المقالة لأنّه يعرف أنّهم من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها. وتشاور الناس وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول وحسن مُداخلته^(٨٤٨).

(٨٤٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٣٠٠.

(٨٤٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٢٩٨ — ٢٩٩.

(٨٤٧) لم تكن حيرة النبيّ (صلى الله عليه وآله) من قبيل عدم معرفته بأصل الحادث، ومن هو البريء ومن هو العاقد في الإثارة، وإنّما النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان بصدد تربية الأُمّة وترشيدها، لئلا تكون ضحية لمخططات الأعداء والمنافقين داخل الصفّ الإمامي والانجرار وراء أقاويلهم فالمشكلة مشكلة أُمّة، وماهي المواقف الواعية التي ينبغي العمل بها إزاء تلك الأحداث وما شاكلها. هذا هو الهمّ الذي يراود النبيّ ويشغله في هذه اللحظات الحرجة من تاريخ الرسالة. وسيأتي مزيد من التفصيل في هذه الحادثة.

(٨٤٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٣٠٠.

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة، حدثتها به امرأة من المهاجرين، فلما عرفته كاد يُغشى عليها من هوله، وانطلقت تبكي لا يجبس دمعها حابس، حتى شعرت كأن كبدها تتصدع. وذهبت إلى أمها وقد أثقل الهم كاهلها حتى كاد ينوء بها، وقالت لها والعبرة تخنقها: يغفر الله لك يا أمّاه! تحدّث الناس بما تحدّثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! ورأت أمّها الهم الذي بها، فحاولت تخفيف أثره في نفسها فقالت: أي بُنية، خفّفي عليك الشأن. فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبّها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها^(٨٤٩). ولكن عائشة لم تتعزّ بهذا القول، وزادها ألماً أن ذكرت جفاء النبيّ إياها بعد الذي كان من لطفه بها، وأن شعرت بأنّه قد وقع في نفسه من هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة. لكن! ماذا عساها تستطيع أن تفعل؟! أفتأخذه القول وتذكر له الخبر وتقسّم له أنّها بريئة؟! هي إذاً تنهم نفسها ثمّ تدفع التهمة بالإيمان والتوسلات. أفتعرض عنه كما أعرض عنها وتجنّبه كما جفاها؟ لكنّه رسول الله وهو قد اصطفاها على نساءه، وليس من ذنبه أن تحدّث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع صفوان. ربّاه! ألهمها في هذا الموقف الدقيق مخرجاً يتّضح لـ «محمد» معه الحقّ في أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبّها والعطف عليها والّلطف بها .

ولم يكن «محمد» خيراً منها مكاناً، فقد آذاه ما يتحدّث به الناس حتى اضطرّ آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خالصائه ماذا يصنع. فذهب إلى بيت أبي بكر ودعا عليّاً وأسامة بن زيد فاستشارهما. فأما أسامة فنفي كلّ ما نسب إلى عائشة على أنّه الكذب والباطل، وأنّ الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبيّ عنها إلاّ خيراً، وأمّا عليّ فقال: يا رسول الله، إنّ النساء لكثير. ثمّ أشار

باستجواب جارية عائشة لعلّها تصدّقه. ودُعيت الجارية وقام لها عليّ فصرّها ضرباً موجعاً وهو يقول: أصدّقني رسول الله، والجارية تقول: والله ما أعلم إلاّ خيراً، وتنفي عن عائشة قالة السوء^(٨٥٠)^(٨٥١). أخيراً لم يبق أمام «محمد» إلاّ أن يواجهه زوجه وأن يطلب إليها أن تعترف .

(٨٤٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٢٩٩ — ٣٠٠.

(٨٥٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٣٠١. وهل كانت الجارية معها لتشهد؟! فما لها لم تذكر؟!

(٨٥١) لم يكن معروفاً من خلق النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن ينتزع الاعتراف من المتهمين عن طريق التعذيب مع احتمال كون المُعذّب بريئاً، فضلاً عن كون الجارية هنا لم تكن متّهمة وإنّما ضرب عليّ (عليه السلام) لها لغرض إدلائها بالشهادة فأين هي عدالة محمد (صلى الله عليه وآله)؟ أين هي عدالة عليّ (عليه السلام)؟ ولماذا لا يسلك النبيّ طرقاً أخرى يتوصل بها إلى معرفة الحادث؟

ثمّ ما الحاجة للاعتراف وأخذ المعلومة من الغير وهو المسدّد بالوحي؟ أنفسه يريدّها؟ أم للناس فيما إذا كانت المشكلة بهذه الضخامة؟ ويبقى في النفس سؤال: لماذا هذا التزليل العمدي لشخص الرسول وتصويره بميعة رجل يقوده غضبه؟ وإذا كانت المسألة مسألة نصوص يتعبد بها الكاتب فأين هو المنهج العلمي في اختيار النصوص الصحيحة؟!

ودخل عليها وعندها أبواها وعندها امرأة من الأنصار، وهي تبكي المرأة تبكي معها وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعماق قرارات الحزن من هول ما ترى من ريبة «محمد» بها؛ من ريبه هذا الرجل الذي تحب وتقدس، والذي به تؤمن وفيه تفي. فلما رآته كفكفت دمعها وسمعت إليه وهو يقول: يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فأتقي الله، وإن كنت قارفت سوءاً ممّا يقولون فتوي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده. فما أن أتم حديثه حتى ثار في عروقها دمها وجفّ من عينها دمعها، وتلفتت إلى ناحية أمها وإلى ناحية أبيها تنظر بـمـ يجبان. لكنهما سكتا فلم ينبسا بكلمة. فازدادت ثورة نفسها وصاحت بهما: ألا تجبيان! قالوا: والله ما ندري بـمـ نجيب، وعادا إلى وجومهما. هنالك لم تملك نفسها دون النشيج بالبكاء؛ وساعتها دموعها لتهدئ من الثورة المضطربة بين ضلوعها تكاد تحرقها. ثم وجهت الكلام إلى النبي وهي تبكي فقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً! والله إنّي لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنّي بريئة لأقولن ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت لا تصدّقوني. ثم سكت برهة وعادت تقول: إنّما أقول كما قال أبو يوسف: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (٨٥٢).

فترة سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضروها طالت أو قصرت. على أن «محمدًا» لم يبرح مجلسه حتى تغشاه من نزول الوحي ما كان يتغشاه، فسجّي بثوبه ووضعت وسادة من آدم تحت رأسه. قالت عائشة: أمّا أنا فوالله ما فزعت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت، قد عرفت أنّي بريئة وأنّ الله غير ظالمي. وأمّا أبواي فما سرّي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى ظننت لتخرجن نفسيهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس. فلما سرّي عن «محمد» جلس يتصبّ عرقاً، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول: أبشري يا عائشة: قد أنزل الله براءتك، قالت عائشة: الحمد لله. وخرج «محمد» إلى المسجد فألقى

على المسلمين هذه الآيات التي نزلت (٨٥٣) من سورة النور: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ

(٨٥٢) يوسف (١٢): ١٨ .

(٨٥٣) أسباب النزول للواحدي: ٢١٧. المعروف أن سورة النور نزلت بعد الفتح وحادثة بني المصطلق كانت قبل الحديبية فكيف التوفيق، راجع

الاتقان: ١٠/١ .

عَذَابٌ عَظِيمٌ) إلى قوله: (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٨٥٤). وفي هذا الظرف كذلك نزلت عقوبة رمي المحصنات: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (٨٥٥) وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بمسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضرب كل منهم ثمانين جلدة (٨٥٦). وعادت عائشة إلى مثل مكانها الأول من بيت «محمد» ومن قلبه. يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته: «إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثيرت حولها» (٨٥٧).

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعد أن يعود إلى رضا «محمد» وعطفه عليه (٨٥٨)، كما طلب «محمد» إلى أبي بكر ألا يحرم مسطحاً عطفه الذي عوده إياه (٨٥٩). وكذلك انقضى هذا الحادث ولم يبق له في المدينة كلها من أثر. وأسرعت النقاهاة إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول وإلى مكانتها من قلبه وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعاً (٨٦٠). وبذلك فرغ النبي إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحديبية يفتح به الله على المسلمين فتحاً مبيناً.

(٨٥٤) النور (٢٤): ١١ — ١٩ .

(٨٥٥) النور (٢٤): ٤ .

(٨٥٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٨٥٧) Live of Mohammad by William Muir .

(٨٥٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٠٦ .

(٨٥٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٠٣ .

(٨٦٠) وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في مسألة أسباب نزول آيات الإفك في سورة النور ومن هو الشخص الذي برأته الآيات؟

الذي يستفاد من الآيات هو أن المنافقين اتهموا شخصاً بريئاً وكان وجهاً اجتماعياً محترماً بتهمة الزنا تحقيقاً لأغراضهم الشريرة، وقد ردّهم القرآن إما ردّاً وأبطل خطّتهم.

والخلاف وقع في المصداق فقال: الأكثر إن الشخص الذي دافع عنه القرآن وانتصر له هو عائشة زوجة النبي وقال آخرون: بأنها مارية أم إبراهيم زوجة النبي أيضاً.

ويستفيد أصحاب الاتجاه الأول من رواية عائشة نفسها كدليل على أنها المبرأة التي نزل بحققها القرآن. راجع الدر المنثور: ٢٤/٥ — ٣٤، حيث تقول:

كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أراد السفر أقرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه كما كان يصنع عادة فخرج سهمي عليهنّ معه، فخرج بي رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) من سفره ذلك وجّه قافلاً حتّى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثمّ أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس

وخرجتُ لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جرز ظفار (أي خرز من بلدة ظفار بعمان) فلمّا فرغت انسلّ من عنقي ولا أدري، فلمّا رجعت إلى الرَّحْل ذهبت ألتمسّه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل. فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتّى وجدتّه، وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحّلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنّي فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير ولم يشكّوا أنّي فيه، ثمّ أخذوا رأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

فتلفلت بجلبي، ثمّ اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إليّ، فوالله إنّني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان السلمي — وهو من فرسان الإسلام — وقد كان تحلّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي، فأقبل حتّى وقف، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلمّا رآني قال: إنّنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنا متلففة في ثيابي، قال: ما خلّفتك يرحمك الله؟ فما كلمته، ثمّ قرّب البعير فقال: إركبي، واستأخر عني فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدر كنا الناس، وما افتقدت حتّى أصبحت، ونزل الناس فلمّا اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا: وارتعج العسكر — أي شكّوا في — ووالله ما أعلم بشيء من ذلك. حتّى نزلت آيات «الإفك» تبرّئي ممّا اتهمني به المنافقون.

هذا القسم من شأن الزول الذي لخصناه لك من قصّة مفصّلة يمكن تطبيقها مع آيات «الإفك»، وليس فيه ما ينافي عصمة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الزوائد في هذه القصة:

روى البخاري بين ثنايا هذه القصة أموراً — نقلها عنه الآخرون في الأغلب — تعاني من إشكاليين أساسيين هما:

١ — منافاتها لمقام النبوة والعصمة (صلى الله عليه وآله)

فقد روى البخاري عن عائشة نفسها قولها: لما قدّمنا المدينة لم ألبث أن اشتكيت شكاوى شديدة — أي مرضت — ولا يبلغني من ذلك شيء وقد انتهى الحديث إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً إلّا أنّي قد أنكرت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعض لطفه بي، وكنت إذا اشتكيت رحماني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرّضني قال: كيف تيكُم، لا يزيد على ذلك، حتّى إذا نقهت من وجعي بلغني ما قاله المنافقون فيّ، فمرضت مرّة أخرى فقلت: يا رسول الله لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرّضتني، فقال: لا عليك، فانتقلت إلى أمي، فقلت لأُمّي: يغفر الله لك تحدّث الناس بما تحدّثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟! فقالت: أي بُنية هوَني عليك الشأن فوالله لقلّما كانت امرأة حسنة عند رجل لها ضرائر إلّا كثرن، وكثر الناس عليها. صحيح البخاري: ١٠٢/٦ و١٠٣، تفسير سورة النور، وكذا: ١١٨/٥، السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٩/٢ — ٣٠٠.

ثمّ إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) شاوَر أسامة بن زيد في الأمر، فأثنى عليّ خيراً وقاله، ثمّ قال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلّا خيراً، وهذا الكذب والباطل!!

وشاوَر عليّاً فقال: يا رسول الله إنّ النساء لكثير، وإنّك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنّها ستصدقك — أي جارية عائشة — فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بريرة ليسألها، فقالت: والله ما أعلم إلّا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً.

إنّ هذا القسم من الرواية يتنافى مع عصمة النبي (صلى الله عليه وآله)، لأنّه يكشف عن أنّ النبي وقع فريسة بأيدي الشائعات الكاذبة إلى درجة أنّه غيّر سلوكه مع عائشة، وشاوَر أصحابه فيها!!

إنّ مثل هذا الموقف مع شخص بريء لا يوجد على همته أي دليل ليس فقط يتنافى مع مقام العصمة النبوية، بل يتنافى حتّى مع مقام مؤمن عادي، لأنّه ليس من الجائز لهم أبداً أن تغيّر الشائعات سلوك مسلم عاديّ تجاه شخص متّهم لم تثبت عليه إدانة، وحتّى لو تركت تلك الشائعات تأثيراً في نفس المسلم، فليس من الجائز أن تحدث مثل ذلك التغيير والانقلاب في نظرتك وسلوكه.

إنّ القرآن الكريم يوتّخ في الآية ١٢ و ١٤ من سورة النور أولئك الذين وقعوا فريسة الشائعات وظنّوا الظنّ السوء، إذ يقول تعالى: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ؟!) (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (أي لماذا — عندما سمعتم بهذا الافتراء — لم تظنّوا بأنفسكم خيراً وقتلتم: هذا إفك، ولماذا — عندما سمعتم بهذا الكلام — لم تقولوا هذا بهتان لا يجوز أن نتكلم به؟!).

فإذا صحَّ هذا القسم من الرواية المذكورة في شأن التزول، لزم أن نقول: إنَّ هذا العتاب الشديد وهذا التوبيخ الصارخ كان يعمُّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أيضاً، والحال أنَّ مقام النبوة الذي يلازم العصمة لا يسمح لنا بأنَّ نقول بأنَّ هذا الخطاب والتوبيخ موجَّهان إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

إذن فلا مناص من رفض كلِّ هذه الرواية المذكورة في شأن التزول التي تتناقى مع عصمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو القبول بالقسم الذي لا يتناقى منها مع عصمة النبي (صلى الله عليه وآله) ورفض ما يتناقى معها.

٢ — سعد بن معاذ توفي قبل حادثة «الإفك»:

ويروي البخاري في صحيحه في ذيل شأن التزول عن عائشة نفسها: بعد أن سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بريرة عن أمري، فقالت فيَّ خيراً وصعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «مَنْ يَعْذِرُنِي مِمَّنْ يُؤْذِينِي فِي أَهْلِي — أَيَّ مَنْ يُؤْذِيهِ — ويقولون لرجل، والله ما علمت على ذلك الرجل إلَّا خيراً، وما كان يدخل بيتاً من بيوتي إلَّا معي ويقولون عليه غير الحقِّ». فقام سعد بن معاذ وقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إنَّ بك من الأوس آتكَ برأسه، وإنَّ بك من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرِكَ نمضي لك .

ففعل هذا الكلام على سعد بن معاذ وعُذِّب منه، فقام وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. (كان سعد بن معاذ رئيس الأوس وسعد بن عباد رئيس الخزرج، وكانت بين هاتين القبيلتين منافسة قديمة، وكان عبدالله بن أبي خزر جليلاً، فاعتبر سعد بن عباد كلام سعد بن معاذ تعريضاً بالخزرج وخطأً من شأنهم).

فقام أسيد بن حضير — وهو ابن عمِّ سعد بن معاذ — وقال: كذبت والله لنقتله وأنفك راغم. فإتكَ منافق تجادل عن المنافقين، والله لو نعلم ما يهوى رسول الله من ذلك في رهطي الأذنين ما رام رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكانه حتَّى آتيتك برأسه، ولكنِّي لا أدري ما يهوى رسول الله.

ثمَّ تغالطوا، وقام آل الخزرج من جانب، وآل الأوس من جانب آخر، وكادوا أن يشتبكوا ورسول الله (صلى الله عليه وآله) على المنبر، فأشار رسول الله إلى الحيين جميعاً أن اسكنوا، ونزل عن المنبر فهدأهم وخفضهم حتَّى انصرفوا..

هذا القسم من القصة المذكورة في رواية البخاري غير صحيح، ولا يتلاءم مع التاريخ الثابت الصحيح لأنَّ سعد بن معاذ كان قد مات بعد إصدار حكمه في بني قريظة متأثراً بجرح أصابه في معركة الأحزاب، وقد وقعت حادثة «الإفك» بعد واقعة بني قريظة، وقد صرح البخاري نفسه بهذا في صحيحه: ١٣٣/٥، في باب «معركة الأحزاب وبني قريظة» فكيف يمكن والحال هذه أن يجلس رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويجادل سعد بن عباد في قصة الإفك التي وقعت بعد واقعة بني قريظة عدة أشهر؟! انظر المصدر السابق، والجدير بالذكر أنَّ ابن هشام لم يذكر في سيرته سعد بن معاذ، ولكنَّه روى جدال أسيد مع سعد بن عباد راجع السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠٠/٢، وهكذا فعل ابن الأثير في الكامل في التاريخ: ١٣٤/٢، ولكن في المغازي جاءت القصة كاملة، وأتى باسم سعد بن معاذ. راجع: ٤٣١/٢ .

لقد ذهب المؤرخون إلى أنَّ معركة الخندق ثمَّ واقعة بني قريظة وقعتا في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، فتكون النتيجة أنَّ قضية بني قريظة انتهت في التاسع عشر من شهر ذي الحجة، وقد توفي سعد بن معاذ في أعقاب هذه الحادثة مباشرة لما انفجر جرحه. (السيرة النبوية لابن هشام: ٢٥٠/٢).

في حين وقعت غزوة بني المصطلق في شهر شوال من السنة السادسة. (السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٧/٢، ولعله فطن ابن هشام لهذه الناحية فترك ذكر سعد بن معاذ، بينما غفل عنها البخاري في صحيحه، راجع شروح البخاري منها: فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر: ٤٧١/٨ و٤٧٢ للوقوف على اضطراب الشرح في معالجة هذا التناقض.

أجل إنَّ ما هو مهمُّ في المقام أن نعرف أنَّ حزب النفاق حاول أن يزلزل النفوس، ويبلبلها ببهت امرأة محترمة . وقد فُسر قوله: (الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ) أي الذي تحمل القسط الأكبر من هذه العملية الخبيثة بعبدالله بن أبي، فهو الذي قاد هذه العملية الرخيصة والخطرة كما صرَّحت بذلك عائشة نفسها أيضاً. راجع سيّد المرسلين للشيخ السبحاني: ٣١٧/٢.

أمَّا الاتجاه الآخر فيرى أنَّ الزوجة البرية قرآنيّاً هي مارية زوجة النبي وذلك لأُمور منها:

١ — ضعف سند الروايات التي تذهب إلى أنَّها عائشة، حيث إنَّ الناقل لها إمَّا صحابي لم يكن حاضراً في تلك الواقعة كما أشرنا، أو أنَّه كان صغيراً لا يعقل حين حدوثها، أو غير ذلك من العلل المضعفة للحديث والنافية لتواتره وصحته.

٢ — الذي يؤكد بأنَّها مارية، لأنَّها المطعونة في ولدها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) إبراهيم وقالوا: بأنَّه من ابن جريح — ابن عمِّ مارية الذي أهدي معها إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) — لا من رسول الله (صلى الله عليه وآله).

٣ — تذكر الروايات بأن عائشة كانت تغار من بعض زوجات رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولا سيما مارية التي تذكر أنها ماغارت من امرأة دون ما غارت من مارية لجمالها وإنجائها ولدًا لرسول الله. أنظر طبقات ابن سعد: ١٣٧/١، ومستدرک الحاكم للذهبي: ٣٩/٤، والبداية والنهاية: ٣٠٥/٣، والدر المنثور: ٢٤٠/٦.

٤ — تذكر بعض الروايات بأن النبي أرسل الإمام علياً (عليه السلام) إلى ابن جريح المتهم مع مارية للتأكد من صحة الحادث، وحين القاء القبض عليه أظهر عجزه عن فعل القبيح لكونه ممسوحاً أو محبوباً، وليس له ما للرجال أمام الملاء.

٥ — هذه الرواية متوافقة مع نزول الآيات القرآنية المباركة في سورة النور النازلة عند دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) من فتح مكة في أواخر الثامنة أو أوائل التاسعة وهي السورة ١٠٣ نزولاً بالمدينة، فلا تناسب نزولها بعد غزوة بني المصطلق في المريسيع في السادسة للهجرة.

٦ — ثم ماذا يعني الاستفسار من زينب بنت جحش، وأمّ أئمن عن ذلك الأمر طالما أنه حدث بعيداً عن الجميع، وفي عمق الصحراء، أليس في ذلك تناقض صريح مع واقع الحال، وظرف الواقعة؟ ثم أليس هو أقرب للصواب إذا سلّمنا بالرأي القائل بأنه مختص بمارية التي هي أمام ناظري الجميع، وبينهم؟

٧ — يضاف إلى ذلك ما تقرأه من تسلسل الآيات المباركة المتحدثة عن أبعاد هذا الإفك، وكيف أنها انتقلت إلى توبيخ المؤمنين لعدم مسارعتهم إلى تكذيب الأمر، مع أنهم كانوا بعيدين عن تلك الواقعة، عكس ما يقع عليهم في قضية مارية والتي تعيش بين ظهرانيهم صباحاً ومساءً أيام افتراء الإفك.

وإذا ذهبنا إلى أن مصدر التوبيخ يرتكز إلى وجوب الدفاع عن حريم الرسول (صلى الله عليه وآله)، فإنه أصدق وأوضح في قصة مارية، فتأمل. راجع ما كتب حول قصة الإفك، وبالأخص كتاب حديث الإفك للسيد جعفر مرتضى العاملي، وانظر الروايات المحددة للواقعة بمارية في: صحيح مسلم: ٤ / ٢١٣٩ / ٢٧٧١، طبقات ابن سعد: ٢١٤/٨، مستدرک الحاكم وتلخيصه للذهبي: ٣٩/٤ و ٤٠، الإصابة: ٣٣٤/٣، الاستيعاب بمأمش الإصابة: ٤١١/٤، مجمع الزوائد: ١١٦/٩، أسد الغابة: ٥٤٣/٥، الكامل في التاريخ: ٣١٣/٢، السيرة الحلبية: ٣١٢/٣.

هذا ملخص لقصة الإفك في كتب التفسير والتاريخ والآراء المختلفة فيها.

الفصل العشرون

عهد الحُدَيْبِيَّة

بعد ست سنوات بالمدينة، دعوة «محمد» الناس للحجّ، لا قتال ولا حرب،
قريش تقرّر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكّة، مفاوضات الصلح، أناة
«محمد» وسياسته، عهد، الحديبية
فتح مبين.

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبيّ وأصحابه من مكّة إلى المدينة، وهم فيما رأيت من
جهاد مستمر وغزو متصل بينهم وبين قريش تارة، وبينهم وبين اليهود أخرى. والإسلام أثناء
ذلك يزداد انتشاراً ويزداد قوة ومنعة.

ومنذ السنة الأولى^(٨٦١) من الهجرة عدل «محمد» بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد
الحرام، وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذي بنى إبراهيم بمكّة، والذي تجدد بناؤه بعد ذلك
حين رفع «محمد» حجره الأسود إلى مكانه من جداره وهو ما يزال في فتوة الشباب، وقبل أن
يرد بخاطره^(٨٦٢) أو بخاطر أحد من الناس ما سيلقى الله عليه من رسالة.

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت^(٨٦٣) وجهة العرب في عبادتهم يحجّون
إليه كلّ عام في الأشهر الحرم، فمن دخله أثناءها كان آمناً، فاذا التقى المرء بأشدّ الناس له
عداوة، لم يستطع عنده أن يجرد سيفاً أو يسفك دمًا. لكنّ قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر

(٨٦١) بل السنة الثانية بعد ١٧ شهراً من الهجرة في منتصف شهر رجب الحرام. الاحتجاج للطبرسي: ٤٣/١ و١٩٤، مسند أحمد: ٣٠٤/٤، صحيح البخاري: ١٣٤/٨، تفسير مجمع البيان: ٤١٥/١.

(٨٦٢) حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله) الخاصة قبل مرحلة النبوة الواردة في كتب التاريخ لحي خير دليل على وجود علاقة له مع الله سبحانه بمستوى التسديد لأقواله وأفعاله فيما يذهب اتباع مدرسة أهل البيت إلى عصمته قبل البعثة وأوضح الإمام أمير المؤمنين هذا المعنى بقوله: «ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره» نَحج البلاغة الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

(٨٦٣) بل «ملة إبراهيم (عليه السلام)» وسننه الحنيفية مع ما تخلّلها من البدع.

«محمد» والمسلمون معه أن يصدّوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب. وفي ذلك نزل^(٨٦٤) قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ)^(٨٦٥).

ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر في سورة الأنفال: (وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)^(٨٦٦). وفي هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة في هذا المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا. لكن قريشاً كانت ترى محمداً والذين معه كفورا بالآهة هذا البيت هبل واللات والعزى وسائر الأصنام معها، وكانت لذلك ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة، حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم، واجباً عليها.

والمسلمون في أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء هذا الواجب الديني المفروض عليهم، كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم. والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همّاً واصباً وألماً لذاعاً: ألم النفي وهم الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه. وهؤلاء وأولئك كانوا في ثقتهم بنصر الله رسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله، يؤمنون بأن يوماً قريباً لا بد، آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليَطُوفُوا بالبيت العتيق، وليؤدوا فريضة فرضها الله على الناس جميعاً. وإذا كانت السنة تمرّ تلو السنة فتساجل الغزوة الغزوة وتكون بدر ثم أحد ثم الخندق ثم ما بين هذه الغزوات وما بعدها، فإن هذا اليوم الذي يؤمنون به لا ريب آت. وما أشدهم لهذا اليوم شوقاً! وما أشد ما يشاركونهم «محمد» في شوقهم، وما يؤكد لهم أن هذا اليوم آت عما قريب!.

والحق أن قريشاً ظلموا «محمداً» وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة. فلم يكن هذا البيت العتيق ملكاً لقريش، ولكنه كان ملكاً للعرب جميعاً^(٨٦٧). وإنما كانت في قريش سدانة الكعبة وسقاية الحاج، وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه. ولم

(٨٦٤) تفسير الرازي: ٣٠/٦، والزحخشري: ٢٥٨/١.

(٨٦٥) البقرة (٢): ٢١٧.

(٨٦٦) الأنفال (٨): ٣٤ — ٣٦.

(٨٦٧) بل هو كما قال: عتيق عن التملك لأحد إلا الله الواحد القهار، لا للعرب ولا لغيرهم: «مثابة للناس».

هذا الاعتقاد الجاهلي بأن البيت ليس ملكاً لقريش وإنما هو ملك للعرب ناتج عن تصوّر وثقافة قومية مرفوضة إسلامياً بل حتى في نظر العرب آنذاك، فكلمة البيت العتيق كافية لنفي هذا النفور أي عتيق عن التملك لأحد إلا الله الواحد القهار فهو ليس ملكاً للعرب ولا لغيرهم وإنما هو مثابة للناس وكلمة الناس أعم من العربي وغيره.

يكن اتجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر ليبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من طقوس. فإذا جاء «محمد» ليدعو الناس إلى نبذ عبادة الأصنام، وإلى التطهر من رجس الوثنية والشرك، والسمو بالنفس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والارتفاع في سبيل ذلك فوق كل نقص، والارتقاء بالروح إلى حيث يستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله. وكان من فرائض ذلك حج البيت والعمرة، فمن العدوان مع أصحاب هذا الدين الجديد منع أداء هذه الفريضة. لكن قريشاً خافت إن جاء «محمد» ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته، وهم من صميم أصل مكة، أن يتعلّق سواد المكّين بهم وأن يشعروا بما في بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم فتكون هذه نواة حرب أهلية. ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة لم ينسوا محمد والذين معه ما حطموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبدة إلى الشام، وما أثاروا بذلك في نفوسهم من حقد وبغضاء لن يخفف منها أن البيت لله وللعرب جميعاً^(٨٦٨)، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه.

انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرّقون شوقاً يريدون زيارة الكعبة ويريدون الحج والعمرة. وإنهم ليجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي بما في رؤياه الصادقة: ذلك أنّهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون^(٨٦٩). فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتّى علا بحمد الله صوتهم، وحتّى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف. ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام؟ أفيحاربون في سبيله؟ أفيجلون قريشاً عنه عنوة؟! أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مدعنة صاغرة؟!.

كلّا! لا قتال ولا حرب. بل أذن «محمد» في الناس بالحجّ في شهر ذي القعدة الحرام. وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإياه في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين. وحرص «محمد» في نفس الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع.

وحكمته في ذلك أن تعلم العرب كلّها أنّه خرج في الشهر الحرام حاجّاً ولم يخرج غازياً، وأنّه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام، كما فرضتها أديان العرب من قبل؛ وأنّه أشرك العرب معه ممّن ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة. فإن أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها في موقفها ومن يعينها على قتال

(٨٦٨) بل هو الله الواحد القهار «مثابة للناس» لا العرب فحسب!

(٨٦٩) المغازي للواقدي: ٥٧٢/١، وتاريخ يعقوبي: ٣٧٣/١، وإمتاع الأسماع: ٢٧٤/١، وتفسير القمّي: ٣٠٩/٢، وبحار الأنوار: ٣٤٧/٢٠.

المسلمين، وكانت بامعافها في الصدّ عن المسجد الحرام، تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن ملة أبيهم إبراهيم، فأمن المسلمون بذلك أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل، وكان لديّهم بذلك مايزيد شأنه، عند العرب الذين لا يؤمنون به، رفعة على رفعتة. وما عسى أن تقول قريش لقوم جاءوا محرمين، لا سلاح معهم إلّا سيوفهم في غمودها، يتقدّمهم الهدي الذي ينحرون، ولاهمّ لهم إلّا أن يؤدّوا بتطواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعاً؟!

أذن «محمد» في الناس بالحجّ، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه، فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج في أوّل ذي القعدة أحد الأشهر الحرم بمنّ معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب^(٨٧٠)، يتقدّمهم على ناقته القصوى، فكانت عدّة الذين خرجوا ألفاً وأربعمئة. وساق «محمد» معه الهدي سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنّه لا يريد قتالاً، وأنّه إنّما خرج زائراً بيت الله الحرام معظماً له. فلمّا بلغ ذا الحليفة عقص الناس الرؤوس ولّبوا بالحجّ وعزلوا الهدي ومازوا جوانبها اليمنى، ومن بينها يعير أبي جهل الذي أخذوا بيد. ولم يحمل أحد من هذا الحاجّ سلاحاً إلّا ما يحمل المسافر من سيف مغمّد. وكانت أمّ سلمة زوج النبيّ معه في هذه الرحلة.^(٨٧١)

وبلغ قريشاً أمر «محمد» ومن معه وأنّهم يسيرون قبلهم حاجّين، فامتألت نفس قريش بالمخاوف وجعلوا يقبّلون هذا الأمر على وجوهه، يحسبونه حيلة أراد «محمد» أن يحتال بها لدخول مكّة، بعد أن صدّهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة. ولم يثنهم ما علموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة كلّها أنّهم لا تحرّكهم إلّا العاطفة الدينية لقضاء فرض يقوّه العرب جميعاً، عن أن يقرروا الحيلولة دون «محمد» ودخول مكّة، بالغاً ما بلغ الثمن الذي يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا. لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وخدمهم مئتين^(٨٧٢). وتقدّم هذا الجيش حتّى يحول بين «محمد» وأمّ القرى، وبلغ من تقدمه أن عسكر بذي طوى.

أمّا «محمد» فتابع مسيرته، حتّى إذا كان بعسفان لقيه رجل من بني كعب سأله النبيّ عمّا قد يكون لديه من أخبار قريش، فكان جوابه: «قد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم». قال «محمد»: «يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب؛ ماذا عليهم لو خلّوا

(٨٧٠) بل لم يتبعه منهم أحد، سيرة ابن إسحاق: ٣/٣٢٢، وتفسير القمّي: ٢/٣١.

(٨٧١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٨/٢ — ٣٩، والمغازي للواقدي: ١/٥٧٢ — ٥٧٤، وتاريخ الطبري: ٢/١١٦، وإعلام الوري: ١/٢٠٣،

وتاريخ ابن خلدون: ٢/٤٤٧.

(٨٧٢) المغازي للواقدي: ١/٥٧٩، وتاريخ ابن خلدون: ٢/٤٤٧، والطبقات الكبرى: ٢/٩٥، وإعلام الوري: ١/٢٠٤.

بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة! فما تظن قريش! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة»^(٨٧٣) ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع. إنه لم يخرج من المدينة غازياً وإنما خرج محرماً يريد بيت الله يؤدي عنده إلى الله فرضه، وهو لم يتخذ للحرب عدّها ؛ فلعلّه

إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها؛ بل لعلّها إنّما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصد إدراك هذه البغية حين علمت أنّه لم يخرج مقاتلاً.

وفيما كان «محمد» يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر، يدلّ مرآها على أنّه لا سبيل للمسلمين إلى درك غايتهم إلاّ أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها

وعن شرفها وعن وطنها؛ معركة لم يردّها «محمد» وإنّما حملته قريش عليها حملاً وألزمته خوض غمارها إلزاماً. إنّ المسلمين ثمن معه لا تنقصهم الحميّة، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جرّدت من غمودها لدفع عدوان المعتدي؛ لكنّه يفوت بذلك قصده، وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه، وهو أبعد من هذا نظراً وأكثر حنكة وأدقّ سياسة. إذا.. نادى في الناس قائلاً: مَنْ رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ وكذلك ظلّ مستقراً رأيه على سلوك سياسة السلم التي رسم منذ خرج من المدينة، و منذ اعتزم الذهاب إلى مكة حاجّاً. وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب مضنية وجد المسلمون في سلوكها مشقة أي مشقة، حتى أفضت بهم إلى سهل عند منقطع الوادي سلّكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المزار مهبط الحديبية من أسفل مكة. فلما رأت خيل قريش ما صنع «محمد» وأصحابه، ركضوا راجعين أدراجهم ليقفوا مدافعين عن مكة إذا دهمها المسلمون. ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت القُصوى (ناقة النبي) وظنّ المسلمون أنّها جهدت. قال رسول الله: «إنّما حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إيّاها.» ثمّ دعا الناس إلى التزول؛ فقالوا له: يا رسول الله، ما بالوادي ماء نزل عليه. فأخرج هو سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً نزل به إلى بئر من الآبار المنثورة في تلك الأنحاء فغرزه في الرمال من قاع البئر فجاش الماء، فاطمأنّ الناس ونزلوا.^(٨٧٤)

(٨٧٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٠٩، و تاريخ الطبري: ١١٦/٢، والسيرة الحلبية: ١٠/٣، وراجع بحار الأنوار: ٣٣٠/٢٠ — ٣٣١ وتفسير مجمع البيان: ١٩٦/٩.

(٨٧٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٠٩ — ٣١٠، و تاريخ الطبري: ١١٧/٢، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣١٤/٣، ومناقب آل أبي طالب: ٩٠/١، والخرائج والجرائح، لقطب الدين الراوندي: ١٢٣/١، وبحار الأنوار: ٣٥٧/٢٠.

نزّلوا، ولكنّ قريشاً بمكّة لهم بالمرصاد. وهي تؤثر الموت على أن يدخل «محمّد» عليهم إيّاها. فهل يعدّون لقريش عدّة التّزال فيحاربوها حتّى يحكم الله بينهم و بينها و حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً؟! في هذا فكر بعضهم، و في احتماله فكّرت قريش. وهو إذا كان وانتصر المسلمون فقد قضى على قريش عند العرب كلّها قضاءً أخيراً، وقد تعرّضت قريش لأن يترع «محمّد» منها سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وكل ما تُفاخر به العرب من مراسم وطقوس دينية. ماذا تصنع إذا؟! وقف المعسكران يفكر كلّ في الخطة التي يتبع. فأما «محمّد» فظل على خطته التي رسم منذ أعدّ للعمرة عدّته، خطة السلم والجنوح عن القتال إلّا أن تهاجمه قريش أو تغدر به، وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفرّ. وأما قريش فتردّدت ثمّ فكّرت في أن توفد إليه من رجالها من يتعرّف قوّته من ناحية، ومن يصده عن دخول مكّة من الناحية الأخرى. وجاءه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة يسألونه ما الذي جاء به. فلمّا اقتنعوا من حديثه بأنّه لم يأت يريد حرباً و إنّما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليدخلوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق. لكنّ قريشاً اتّهموهم وجبهوهم و صاحوا بهم: لئن جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخل علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك عنّا العرب^(٨٧٥). ثمّ بعثت قريش رسولاً آخر لم يسمع إلّا ما سمع صاحبه ولم يغامر بأن يتّهم عند قريش^(٨٧٦). وكانت قريش تعتمد فيما أعدّت من قتال «محمّداً» على حلفائهم من الأحابيش، فكّرت أن توفد سيّدهم لعلّه إذا رأى أنّ «محمّداً» لا يسمع له ولا يتفاهم و إيّاه ازداد لقريش نصرة فزادهم على «محمّد» قوة. وخرج الحليس سيّد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين. فلمّا رآه النّبّي مقبلاً أمر بالهدّي أن تُطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلاً مادياً على أنّ هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنّما جاءوا حاجّين معظّمين البيت. ورأى الحليس الهدّي سبعين بدنة تسيل عليه من عرض الوادي قد تأكلت

قال الواقدي: وكان نفر من المنافقين جلوس ينظرون إلى الماء وقد حاشت البئر وهم على شفيرها، فقال أوس بن خولي لعبدالله بن أبيّ بن أبي سلول: ويحك يا أبا الحباب: أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه؟ أبعد هذا شيء وردنا بئراً يتربض ماؤها فتوضأ رسول الله في الدلو ومضمض فاه فيه، ثمّ أفرغ الدلو فيها ونزل بالسهم فحثوها فحاشت بالرواء. فقال ابن أبيّ: قد رأيت مثل هذا!

فقال أوس: قبحك الله وقبح رأيك!

وقال له رسول الله: أي أبا الحباب، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم؟

قال: ما رأيت مثله قط!

فقال رسول الله: فلم قلت ما قلت؟

قال استغفر الله، مغازي الواقدي: ٥٨٨/٢، من هنا لا يمكن حصر معجزة الرسول (صلى الله عليه وآله) بالقرآن فقط.

(٨٧٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢١١، والمغازي للواقدي: ٥٩٣/١ — ٥٩٤، وتاريخ الطبري: ١١٨/٢، وراجع: مناقب آل أبي طالب:

١٧٥/١، وبحار الأنوار: ٣٣١/٢٠.

(٨٧٦) وهو مركز بن حفص راجع السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٢/٢، والمغازي للواقدي: ٥٩٩/١، وتاريخ يعقوبي: ٣٧٣/١، وراجع: تفسير

جميع البيان: ١٩٧/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٣/٢٠.

أوبارها، فتأثر لهذا المنظر وثارَت في نفسه ثائرات دينه، وأيقن أن قريشاً ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حرباً ولا عدواناً؛ فانقلب إلى قريش دون أن يلقي «محمداً» وذكر لهم مارأى. فلما سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له: اجلس فائماً أنت أعرابي لا علم لك. وغضب الحليس لمقاتلتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصدّ عن البيت من جاء معظماً إياه، وأنهم إن لم يخلّوا بين «محمّد» و ما جاء به نفر بالأحابيش عن مكّة. و خشيت قريش عاقبة غضبه فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم حتّى يفكّروا في أمرهم^(٨٧٧).

ثم رأوا أن يوفدوا حكيماً يطمئنون إلى حكمته، فتحدثوا في ذلك إلى عروة بن مسعود الثقفي، فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم. فلما اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمئنون إلى حكمته و حسن رأيه، خرج إلى «محمّد» وذكر له: أن مكّة بيضته. وأنه

إن يفضّضها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب^(٨٧٨) الناس ثمّ انصرف هؤلاء الأوشاب عنه، كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه «محمّد» وإن اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت. فصاح أبوبكر بعروة منكرًا أن ينصرف الناس عن رسول الله. وكان عروة يتناول لحية «محمّد» وهو يكلمه، وكان المغيرة بن شعبه واقفاً على رأس الرسول

يضرب يد عروة كلما تناول لحية «محمّد»، مع علمه بأن عروة هو الذي دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرة قتلهم. ورجع عروة بعد أن سمع من «محمّد» مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حرباً وإثماً جاء معظماً البيت مؤدياً فرض ربه. فلما كان عند قريش قال لهم: «يامعشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، و التّجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل «محمّد» في أصحابه، لا يتوضأ إلاّ ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً، فروا رأيكم»^(٨٧٩).

وطالت الأحداث على النحو الذي قدمنا؛ ففكر «محمّد» في أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأي الذي يرى. فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه هو.

(٨٧٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٢/٢، المغازي للواقدي: ٥٩٩/١ — ٦٠٠، وتاريخ الطبري: ١١٩/٢، والكافي للكليني: ٣٢٣/٨، وبحار الأنوار: ٣٦٦/٢٠.

(٨٧٨) الأوشاب من الناس: الأخلاط، الواحد: وشب. والوشب: شبيه بالاشابة، يقال: رجل من أوشاب الناس — كتاب العين: ٢٩١/٦.

(٨٧٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٣ / ٢ — ٣١٤، والمغازي للواقدي: ٥٩٥/١ — ٥٩٩، والسيرة الحلبية: ١٥/٣، وتفسير مجمع البيان: ١٩٦/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٢/٢٠.

لكنهم عقروا جل هذا الرسول وأرادوا قتله لو لا أن منعه الأحابيش فخلّوا سبيله. وقد دل أهل مكة بتصرفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما قلق له صبر المسلمين، حتى لقد فكّر بعضهم في القتال^(٨٨٠). وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلاً يرمون عسكر النبي بالحجارة؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلاً يوماً ليصيبوا من أصحاب النبي، فأخذوا أخذاً وجيء بهم إليه. أفتدري ماذا صنع؟! عفا عنهم و خلّى سبيلهم^(٨٨١) تشبهاً منه بخطة السلم واحتراماً للشهر الحرام أن يُسفك فيه دم في الحديبية، وهي من حرم مكة. وبُهِت قريش حين عرفوا هذا وسقطت كلّ حجة لهم يريدون أن يزعموا بما أنّ «محمّداً» يريد حرباً، وأيقنوا أن كلّ اعتداء من جانبهم على «محمّد» لن تنظر إليه العرب إلّا على أنّه غدر ديني، فحمد الحق في أن يدفعه بكلّ ما أوتي من قوة. ثمّ إنّّه (عليه السلام) حاول أن يمتحن صبر قريش مرّة أخرى بارسال رسول يفاوضهم؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب كي يبلغ عنه أشرف قريش ما جاء له. قال عمر: «يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها. ولكنّي أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان. فدعا النبي عثمان زوج ابنته وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش. فخرج عثمان في رسالته؛ فلقبه لأوّل ما دخل مكة أبان بن سعيد فأجاره الزمن الذي يفرغ فيه من رسالته، وانطلق عثمان إلى سادة قريش فأبلغهم رسالته. قالوا: يا عثمان إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. قال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف رسول الله؛ إنّما جئنا لترور البيت العتيق ولنعظّم حرمة ونؤدي فرض العبادة عنده. وقد جئنا بالهدّي معنا، فإذا نحرناها رجعنا بسلام. وأجابت قريش بأنّها أقسمت لن يدخل «محمّد» مكة هذا العام عنوة. وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين، وتراعى إليهم أنّ قريشاً قتلته غيلة وغدراً^(٨٨٢) ولعلّ سادة قريش كانوا في هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توفّق بين قسمهم ألاّ يدخل «محمّد» هذا العام مكة عنوة، وبين حرص المسلمين على أن يطوّفوا بالبيت العتيق ويؤدّوا إلى ربّ البيت فرضه؛ ولعلّهم قد أنسوا إلى عثمان، و كانوا في هذه الأثناء يبحثون وإياه عن تنظيم علاقاتهم بمحمّد و تنظيم علاقات «محمّد» بهم.

(٨٨٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٤/٢، والمغازي للواقدي: ٦٠٠/١، السيرة الحلبية: ١٦/٣.

(٨٨١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٤/٢، والمغازي للواقدي: ٦٠٢/١، والسيرة الحلبية: ١٨/٣، وتفسير مجمع البيان: ٢٠٥/٩، وبحار الأنوار: ٣٢٦/٢٠.

(٨٨٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٥/٢، والمغازي للواقدي: ٦٠٠/١ — ٦٠٢، وتاريخ الطبري: ١٢١/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٩٥/٩، وبحار الأنوار: ٣٢٩/٢ — ٣٣٠.

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان أشدّ القلق، وتمثّل أمامهم غدر قريش وقتلهم إيّاه في هذا الشهر الذي لا تجيز فيه أديان العرب جميعاً لعدوّ أن يقتل في حرم الكعبة ولا في حرم مكّة عدوّه، وتمثّل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم في رسالة سلم ومواعدة. ووضع كلّ منهم يده على قبضة سيفه سمة النذير وسمة البطش والغضب. ودخل في روع النبيّ (عليه السلام) أنّ قريشاً قتلت عثمان فغدرت في الشهر الحرام، فقال: «لا نبرح حتّى نناجز القوم». ودعا أصحابه إليه، وقد وقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعاً على ألاّ يفرّوا حتّى الموت. بايعوه وكلّهم ثابت الإيمان، قويّ العزيمة، ممتلئ حماسة للانتقام من غدر وقتل. بايعوه بيعة الرضوان^(٨٨٣)، التي نزل^(٨٨٤) فيها قوله تعالى في سورة الفتح: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)^(٨٨٥) فلما أتم المسلمون البيعة، ضرب (عليه السلام) بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان؛ وبهذه البيعة اهتزّت السيوف في غمودها، وتبدى للمسلمين جميعاً أنّ الحرب آتية لا ريب فيها، وجعل كلّ ينتظر يوم الظفر، أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئن. وإثّهم لذلك إذ ترامى إليهم أنّ عثمان لم يُقتل، ثمّ لم يطل بهم الأمر حتّى جاء عثمان بنفسه إليهم. على أنّ بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك، كبيعة العقبة الكبرى، علماً في تاريخ المسلمين كان «محمّد» يستريح إلى ذكرها، لما كشف من متانة الروابط بينه وبين أصحابه، ولما دلّ عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون. ومن أقدم على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جبهة الحياة وكان من الفائزين.

عاد عثمان فأبلغ «محمّداً» ما قالت قريش. فهم لم تبق عندهم ريبة في أنّه وأصحابه إنّما جاءوا حاجّين معظّمين للبيت. وهم يقدّرون أنّهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحجّ والعمرة في الأشهر الحرم، وهم مع ذلك قد خرجوا من قبل تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكّة، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات؛ فإذا هم بعد الذي حدث تركوه يدخل مكّة تحدّثت العرب بأنّهم انهزموا أمامه، فتضعضت في نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم. لذلك هم يُصرّون على موقفهم منه هذا العام إبقاء على هذه الهيبة واستبقاء لتلك المكانة. فليفكّر وإيّاهم، وهذه ظروفه وظروفهم، لعلّهم جميعاً يجدون من هذا الموقف مخرجاً، وإلاّ فليس إلّا الحرب يدخلونها طوعاً أو كرهاً. بل إنّهم لها لكارهون في هذه الأشهر. تقديرًا

(٨٨٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٥/٢ — ٣١٦، المغازي للواقدي: ٦٠٣/١، وعيون الأثر: ١٦٠/٢، إعلام الوری بأعلام الهدى: ٢٠٤/١،

وبحار الأنوار: ٣٦١/٢٠.

(٨٨٤) تفسير الطبري: ٣٤٧/١١، وتفسير زاد المسير: ٤٣٤/٧، وتفسير مجمع البيان: ١٩٥/٩.

(٨٨٥) الفتح (٤٨): ١٨.

لحرمتها من ناحية ، ولأنّها من الناحية الأخرى ، إذا لم تُحترم اليوم حرمتها ووقعت الحرب فيها، لم يأمن العرب في مستقبل أيامهم أن يجيئوا إلى مكّة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحُرْم مرّة أخرى، فيجني ذلك على تجارة مكّة وعلى أرزاق أهلها.

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كرّة أخرى.

وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له: انت «محمّدًا» فصالحه، ولا يكن في صلحه إلّا أن يرجع عنّا عامه هذا. فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنّه دخلها علينا عنوةً أبدًا. فلما انتهى سهيل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصلح و شروطه كانت تكاد تنقطع في بعض الأحيان، ثمّ يعيد اتصاها حرص الجانين على النجاح. و كان المسلمون من حول النبيّ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبراً، لتشدّد سهيل في مسائل يتساهل النبيّ في قبولها. و لولا ثقة المسلمين المطلقة في نبيّهم، ولولا إيمانهم به، لما ارتضوا ما تمّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكّة، أو لتكون الأخرى. فقد ذهب عمر بن الخطاب في أعقاب انتهاء المحادثات إلى أبي بكر و دار بينهما الحديث الآتي:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟!

أبوبكر: بلى!

عمر: أولسنا بالمسلمين؟!

أبوبكر: بلى!

عمر: فعلام نعطي الدّية في ديننا؟!

أبوبكر: يا عمر إلزم مكانك، فإنّي أشهد أنّه رسول الله!

عمر: وأنا أشهد أنّه رسول الله!

وانقلب عمر بعد ذلك إلى «محمّد»، وتحدّث وإياه بمثل هذا الحديث وهو مغيظ محنق؛ لكنّ ذلك لم يغيّر من صبر النبيّ ولا من عزمه. وكلّ الذي قاله في ختام الحديث لعمر: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يُضيعني». ثمّ كان بعد ذلك من صبر «محمّد» حين كتابة العهد ما زاد في حفيظة بعض المسلمين^(٨٨٦). فقد دعا عليّ بن أبي طالب و قال له: اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم. فقال سهيل: أمسك؛ لا أعرف الرّحمن الرّحيم، بل أكتب باسمك اللّهم. قال رسول الله: أكتب باسمك اللّهم. ثمّ قال: أكتب هذا ما صالح عليه «محمّد» رسول الله سهيل بن عمرو. فقال

(٨٨٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٦/٢ — ٣١٧، والمغازي للواقدي: ٦٠٥ — ٦٠٧، وتاريخ الطبري: ١٢٢/٢، وعيون الأثر: ١٦١/٢،

والسيرة الحلبية: ١٩/٣، وتفسير مجمع البيان: ١٩٨/٩ — ١٩٩، وبحار الأنوار: ٣٣٥/٢٠، ونقل هذه المحادثات في مجمع البيان وبحار الأنوار

بين عمر ورسول الله(صلى الله عليه وآله) .

سهيل: أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال رسول الله: أكتب هذا ما صالح عليه «محمد» بن عبد الله. ثم كتبت العهدة من الطرفين وفيها أنهما تهادنا عشر سنين، في رأي أكثر كتاب السيرة^(٨٨٧)، و سنتين في قول الواقدي^(٨٨٨)، وأن من أتى «محمدًا» من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال «محمد» لم يردّوه عليه، وأنه من أحبّ من العرب مخالفة «محمد» فلا جناح عليه، ومن أحبّ مخالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع «محمد» وأصحابه عن مكّة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام، ومعهم من السلاح السيوف في قُرْبها و لا سلاح غيرها.^(٨٨٩)

وما كاد هذا العهد يوقّع حتّى حالفت خزاعة «محمدًا» وحتّى حالفت بنو بكر قريشاً^(٨٩٠). وما كاد هذا العهد يوقّع حتّى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمر على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير وإياهم. فلما رأى سهيل ابنه ضرب وجهه وأخذ بتليبيه وجعل يحجّره ليردّه إلى قريش وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرِدّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! وزاد ذلك في قلق المسلمين وعدم رضاهم عن العهد الذي عقد الرسول مع سهيل. لكنّ «محمدًا» وجّه إلى أبي جندل قوله: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولَمَن معك من المستضعفين مخرجاً. إنّنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنّا لا نغدر بهم»^(٨٩١). وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذاً لعهد النبيّ ووعدّه. وقام سهيل راجعاً إلى مكّة. وأقام «محمد» مضطرباً فما رأى من شأن من حوله. ثمّ صلّى واطمأنّ، ثمّ قام إلى هدّيه فنحره، ثمّ جلس فحلق رأسه إيذاناً بالعمرة، وقد إمّلت نفسه بالسكينة والرضا. فلما رأى الناس صنيعه ورأوا سكينته توثبوا ينحرون ويحلقون. وإنّ منهم من حلق ومنهم من قصّر. قال «محمد»: يرحم الله الخلقين. فتنادى الناس: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله الخلقين. فتنادى الناس في قلق: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال:

(٨٨٧) تفسير القمّي: ٣١٤/٢، مجمع البيان: ١٧٩/٩ عن الزهري .

(٨٨٨) بل عشر سنين: ٦١١/٢ وأوهم المؤلف، نعم انفرد اليعقوبي بثلاث سنين: ٥٤/٢ .

(٨٨٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٧ / ٢ — ٣١٨، والمغازي للواقدي: ٦١٠/١ — ٦١٢، وتاريخ الطبري: ١٢٢/٢ — ١٢٣، والسيرة

الحلبية: ١٩/٣ — ٢١، وإمتاع الأسماع: ٢٩٥/١، وعيون الأثر: ١٦١/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٩٨/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٤/٢٠.

(٨٩٠) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٨ / ٢، والمغازي للواقدي: ٦١٢/١، وتاريخ الطبري: ١٢٣/٢، وتفسير القمّي: ٣١٤/٢، وبحار الأنوار:

٣٥٣/٢٠.

(٨٩١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٨/٢، والمغازي للواقدي: ٦٠٧/١ — ٦٠٨، وتاريخ الطبري: ١٢٣/٢.

والمقصّرين. قال بعضهم: فلم ظهرت يا رسول الله الترحيم للمحلّقين دون المقصّرين؟ فكان جوابه: لأنّهم لم يشكّوا^(٨٩٢).

لم يبق للمسلمين إلّا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكّة العام المقبل. وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض ولا يهوّنهما على نفسه، إلّا أنّها أمر الرسول . فهم ليس لهم عادة هزيمة ولا تسليم من غير قتال. وهم في إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبة في اقتحام مكّة لو أنّ «محمّداً» أمر باقتحامها. وأقاموا بالحديبية أياماً، منهم من يتساءلون في حكمة هذا العهد الذي عقد النبيّ، ومنهم من تحدّثه نفسه بالشك في حكمته. ثمّ تحمّلوا وقفلوا راجعين. وإنّهم لفي طريقهم بين مكّة والمدينة إذ نزل^(٨٩٣) الوحي على النبيّ بسورة الفتح . فتلا النبيّ

أصحابه قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)^(٨٩٤) إلى آخر السورة. لم يبق إذّا ريب في أنّ عهد الحديبية فتح مبین، وهو قد كان كذلك. وقد أثبتت الأيام أنّ هذا العهد حكمة سياسية وبُعد نظر كان لهما أكبر الأثر في مستقبل الاسلام وفي مستقبل العرب كلّه. فقد كانت هذه أوّل مرّة اعترفت قريش فيهما بـ «محمّد» لا على أنّه نائر بما خارج عليها؛ ولكن على أنّه ندّها وعدلّها، فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها. ثمّ إنّ إقرارها للمسلمين بحقّ زيارة البيت وإقامة شعائر الحجّ اعتراف منها بأنّ الإسلام دين مقرّر معترف به من أديان شبه الجزيرة، وهذنة السنتين^(٨٩٥) أو السنوات العشر قد جعلت المسلمين يطمننون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشاراً. أفليست قريش ألد أعدائه وأشدّ محاربيه قد انتهت بالاذعان لما لم تكن تدعن له من قبل قط؟! وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع أضعافاً من انتشاره من قبل. كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفاً وأربعمائة. فلمّا كان بعد عامين اثنين و جاء «محمّد» لفتح مكّة جاء في عشرة آلاف. وأشدّ ما اعترض عليه من ساورهم الشكوك في حكمة عهد الحديبية ما نصّ عليه العهد من أنّ من أتى «محمّداً» من قريش بغير إذن

(٨٩٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٢ / ٣١٩، والمغازي للواقدي: ١ / ٦١٣ — ٦١٥، وتاريخ الطبري: ٢ / ١٢٤، وتفسير القمّي: ٢ / ٣١٤، وبحار

الأنوار: ٢٠ / ٣٣٥. السؤال والجواب الأخير لا يوجد في تفسير القمّي والبحار. وقال الواقدي: لما فرغ رسول الله من الكتاب قال لأصحابه:

قوموا فانحروا واحلقوا! فلم يجبه منهم رجل إلى ذلك فقالها رسول الله ثلاث مرات كلّ ذلك يأمرهم فلم يفعل واحد منهم ذلك!

وهذا يدل على أنّ النبيّ قد لاقى من صحبه من ظواهر الشك والعصيان ثمّ الطاعة بعد التلكؤ والبطؤ.

(٨٩٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٢ / ٣٢٠، والمغازي للواقدي: ١ / ٦١٨، وعيون الأثر: ٢ / ١٦٣، وإعلام الوری بأعلام الهدى: ١ / ٢٠٥، وبحار

الأنوار: ٢٠ / ٣٦٣.

(٨٩٤) الفتح (٤٨): ١ — ٢ .

(٨٩٥) مرّ التعليق في ص ٥٣٢.

ولَّيه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردّوه على «محمّد». وكان رأي «محمّد» في هذا أنّ من ارتدّ عن الإسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين؛ وأنّ من أسلم وحاول اللحاق بمحمّد فسيجعل الله له مخرجاً. وقد صدّقت الظروف رأي «محمّد»، في ذلك بأسرع ممّا كان يظنّ أصحابه، ودلّت على أنّ الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب، ومهّد إلى ما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء «محمّد» مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام.

صدّقت الظروف رأي «محمّد» بأسرع ممّا كان يظنّ أصحابه. فقد وفد أبو بصير من مكّة إلى المدينة مسلماً ينطبق عليه العهد برده إلى قريش، لأنّه خرج بغير رأي مولاه. فكتب أزهر بن عوف والأخنس بن شريق إلى النبيّ كي يردّه، وبعثا بكتائبهما مع رجل من بني عامر ومعه مولى لهم.

قال

يا أبا بصير، إنّنا قد أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت، ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك. قال أبو بصير: يا رسول الله أتردّي إلى المشركين يفتنونني في ديني! فكرّر عليه النبيّ قوله، فانطلق مع الرجلين؛ حتّى إذا كان بذى الحليفة سأل أخا بني عامر أن يريه سيفه، وما أن استوت قبضته في يده حتّى علا به العامريّ فقتله، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة حتّى أتى النبيّ. فما رآه قال: إنّ هذا رجل قد رأى فرعاً. ثمّ قال للرجل: ويحك! مالك؟ قال: قتل صاحبك صاحبي. ثمّ ما برح حتّى طلع أبو بصير متوشّحاً السيف موجّها الحديث إلى «محمّد»، وهو يقول: يا رسول الله، وفت ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن افتن فيه، أو يُعبث بي. ولم يخف الرسول إعجابه به وتمنيّه أن لو كان معه رجال. ثمّ خرج أبو بصير حتّى نزل العيص على ساحل البحر على طريق قريش، التي كانوا يأخذون إلى الشام. وكان عهد «محمّد» وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش. فلمّا ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكّة بأمره وبما كان من إعجاب الرسول به فرّ إليه منهم نحو سبعين رجلاً اتّخذوه لهم إماماً، وجعلوا وإياه يقطعون على قريش طريقها، حتّى كانوا لا يظفرون بأحد منهم إلّا قتلوه ولا تمر بهم غير إلّا اقتطعوها. هنالك رأت قريش أنّها أكبر خسارة بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظلموا بمكّة، وقدّرت أنّ الرجل الصادق الإيمان محاولة حبسه شرّ من إطلاق سراحه، فهو لا بدّ منتهز فرصة الفرار، مقيم على الذين حاولوا حبسه حرباً عواناً هم فيها الأخسرون. وكأثما ذكرت قريش «محمّداً» حين هاجر إلى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل، وخشيت أن يكرّر أبو بصير هذا

الصنيع ؛ فبعثت إلى النبيّ تسأله بأرحامها إلاّ آوى هؤلاء المسلمين حتّى يتركوا الطريق آمناً^(٨٩٦). ونزلت قريش بذلك عمّا أصرّ عليه سهيل بن عمرو من ردّ المسلمين من قريش إلى مكّة إذا هم ذهبوا إلى «محمّد» بغير رأي مواليهم. وسقط بذلك الشرط الذي أحفظ عمر بن الخطاب والذي كان سبباً في ثورته التي ثار على أبي بكر. وآوى «محمّد» أصحابه وعاد طريق الشام آمناً.

أمّا المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان لـ «محمّد» فيهن رأي آخر. خرجت أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من بعد الهدنة، فخرج أخوها عمارة والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردها عليهما بحكم عهد الحديبية. لكنّ النبيّ أبي ورأى أنّ هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه؛ وأنّ النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن^(٨٩٧). ثمّ إنّ المرأة إذا أسلمت لم تصبح حلاًّ لزوجها المشرك فوجب التفريق بينه وبينها. وفي ذلك نزل^(٨٩٨) قوله تعالى من سورة الممتحنة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآَنُفُقُوا مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)^(٨٩٩) وكذلك صدّقت الظروف حكمة «محمّد» وبعده نظره ودقة سياسته، وأثبتت أنّه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجراً لا ينقض في سياسة الإسلام وانتشاره وهذا هو الفتح المبين.

اطمأنت العلاقات بعد الحديبية بين قريش و«محمّد» أعظم الطمأنينة وأمن كلّ جانب صاحبه ؛ واتجهت قريش كلّها إلى التوسع في تجارتها، لعلّها تستعيد من طريقها ما فقدته أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سدّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرضة للضياع. أمّا «محمّد» فاتّجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، واتّجه فكره إلى توسيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين في شبه الجزيرة. وهذا وذاك هو ما صنع بارسال الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، وباجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلاءً تاماً بعد غزوة خيبر.^(٩٠٠)

(٨٩٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٢٣/٢ — ٣٢٤، والمغازي للواقدي: ٦٢٤/١ — ٦٢٩، وتاريخ الطبري:

١٢٤/٢ — ١٢٥، وتفسير مجمع البيان: ١٩٩/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٥/٢٠ — ٣٣٦.

(٨٩٧) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٣٢٥ — ٣٢٦، والمغازي للواقدي: ٦٣٠/١ — ٦٣٢، وتاريخ الطبري: ١٢٥/٢ — ١٢٦، وتفسير مجمع

البيان: ٤٥٣/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٩/٢٠.

(٨٩٨) تفسير الطبري: ٦٤/١٢، وتفسير زاد المسير: ٢٣٨/٨، وتفسير مجمع البيان: ٤٥٢/٩.

(٨٩٩) الممتحنة (٦٠): ١٠.

(٩٠٠) إجلاء اليهود بعد خيبر عن شبه الجزيرة لو كان لما كان للوصية به موضع، ووصيته(صلى الله عليه وآله) بذلك إنّما هي في الأصل وصيّة

عمر نسبها إليه(صلى الله عليه وآله).

* * *

الفصل الحادي والعشرون

خيبر والرسول إلى الملوك

الإسلام والتنظيم الاجتماعي، تحريم الخمر، رسل «محمد» إلى الملوك والأمراء، المسلمون واليهود، غزوة خيبر، القضاء الأخير على سلطة اليهود، ردّ الملوك على رسول النبي، في انتظار عمرة القضاء.

عاد «محمد» والمسلمون معه من الحديبية قافلين إلى المدينة بعد ثلاثة أسابيع من تمام الصلح بينهم وبين قريش ألا يدخلوا مكة هذا العام وأن يدخلوها العام الذي يليه. عادوا وفي نفوسهم من أمر هذا الصلح شيء، أن اعتبره بعضهم غير متفق مع كرامة المسلمين، حتى نزلت سورة الفتح وهم في الطريق وتلاها النبي عليهم. وجعل «محمد» يفكر أثناء مقامهم بالحديبية وبعد عودهم منها ماذا عساه يصنع للمزيد من تثبيت أصحابه، ولزيادة انتشار دعوته. وانتهى به التفكير إلى ارسال رسله إلى هرقل وكسرى والمقوقس ونجاشي الحبشة وإلى الحارث العسائي وإلى عامل كسرى في اليمن^(٩٠١)، كما انتهى به إلى ضرورة القضاء قضاءً أخيراً على شوكة اليهود في شبه جزيرة العرب^(٩٠٢).

والحق أن الدعوة الإسلامية كانت قد بلغت يومئذ من النضج ما يجعلها دين الناس كافة. فهي لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه التوحيد من عبادات، بل انفرج ميدها وتناولت من صور النشاط الاجتماعي العامة ما يوازي بينها وبين سمو فكرة التوحيد، ويجعل صاحبها أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الإنساني وإلى تحقيق المثل الأعلى في الحياة. اختلف مؤرخو السيرة في تحريم الخمر متى كان، وذهب بعضهم إلى أنه كان في السنة الرابعة للهجرة، ولكن أكثرهم على أن كان

(٩٠١) إمتاع الأسماع: ٣٠٤/١، والسيرة الحلبية: ٢٤٠/٣ — ٢٥٥، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٠٧/٢، وبحار الأنوار: ٣٧٧/٢٠ — ٣٨٠

عن الخرائج والجرائح: ٦٤ و١٠٤ و١٣١ — ١٣٣.

(٩٠٢) إمتاع الأسماع: ٣٠٦/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٢٨/٢، والمغازي للواقدي: ٦٣٣/٢.

عام الحديبية^(٩٠٣). والفكرة في تحريم الخمر اجتماعية غير متصلة بالتوحيد من حيث هو التوحيد. ولا أدلّ على ذلك من أنّ التحريم لم يترّل به القرآن إلّا بعد انقضاء عشرين سنة أو نحوها على بعث النبيّ، وأنّ المسلمين ظلّوا يشربونها إلى أن نزل التحريم. ولا أدلّ على ذلك من أنّ التحريم لم يترّل مرّة واحدة، بل نزل على فترات جعلت المسلمين يخفّفون منها، حتّى كان التحريم فانتهاها عن شربها. فقد روي عن عمر بن الخطاب أنّه سأل عن الخمر وقال: اللّهمّ بين لنا فيها ذ فتزلت^(٩٠٤) الآية: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)^(٩٠٥)^(٩٠٦). فلمّا لم يكفّ المسلمون بعد هذه الآية، وكان بعضهم يقضي ليله متوفّراً على شرايه حتّى إذا ذهب إلى صلاة الفجر ذهب وهو لا يعلم ما يقول في صلاته ، عاد عمر فقال: اللّهمّ بين لنا في الخمر فإنّها تُذهب العقل والمال؛ فتزلت^(٩٠٧) الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)^(٩٠٨). وحتّى كان منادي الرسول ينادي وقت الصلاة: لا يقربن الصلاة سكران. وعلى الرغم ممّا كان يقتضي هذا الأمر من الإقلال من الشراب وما كان له في هذه الناحية من أثر بالغ جعل الكثيرين يقلّون من الخمر ما استطاعوا، فقد عاد عمر بعد زمن يقول: اللّهمّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنّها تُذهب العقل والمال. وقد كان عمر في حلّ من قولها أنّ كان العرب، والمسلمون من بينهم، يصل بهم الشراب إلى حد يجعلهم يعربدون، يأخذ بعضهم بلحية بعض ويهوي بعضهم على رأس بعض. دعا بعضهم جماعة إلى طعام وشراب، فلمّا ثَمَلُوا^(٩٠٩) ذكروا المهاجرين والأنصار، فأبدى أحدهم التعصّب للمهاجرين، فأخذ متعصب للأنصار بعظمة من عظام رأس الجزور الذي يأكلونه فجرح به أنف المهاجري. وثَمَل حَيّان فتشاجرا فشجّ بعضهم بعضاً فوقعت في أنفسهم الضغائن، وكانوا من قبل ذلك أحبة متصافين؛ إذ ذاك نزل^(٩١٠) قوله تعالى: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ

(٩٠٣) السيرة الحلبية: ٣٠/٣.

(٩٠٤) تفسير زاد المسير: ٢٣٩/١.

(٩٠٥) البقرة (٢): ٢١٩.

(٩٠٦) لا اشكال في أنّ المسلم إذا شرب الخمر لا يخرج عن كونه موحّداً هذا من جهة ومن جهة أخرى لا يمكن التفكيك بين مفهوم التوحيد والتشريعات التي جاءت بها الرسالة، لأنّها واحدة (أَفْتَوْنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) هذا بغضّ النظر عن الحكمة الإلهية في تدرّج نزول الأحكام التي أشار إليها المؤلف.

(٩٠٧) أسباب النزول للواحد: ٤٤.

(٩٠٨) النساء (٤): ٤٣.

(٩٠٩) الثمل: السكر — كتاب العين: ٢٣٠/٨ وثل الرجل بالكسر ثملاً، إذا أخذ فيه الشراب، فهو ثمل، أي نشوان — الصحاح، الجوهري:

١٦٤٩/٤.

(٩١٠) أسباب النزول للواحد: ١٣٨.

مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ^(٩١١). وقد كان أنس الساقي يوم حُرِّمَتِ الخمر، فلَمَّا سَمِعَ المُنَادِي بِتَحْرِيمِهَا بَادِرَ فَأَرَاقَهَا. لَكِنَّ أَنَسًا لَمْ يَرْفَهُمْ هَذَا التَّحْرِيمَ فَقَالُوا: أَتَكُونُ الْخَمْرَ رَجَسًا وَهِيَ فِي بَطْنِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ قَتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ. وَفِي بَطْنِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ قَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ! فَتَرَلْ^(٩١٢) قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٩١٣)).

وما أمر به الإسلام من البرِّ والرحمة وما دعا إليه من عمل الخير وما في عباداته من رياضة النفس والطبع وما يصل إليه الركوع والسجود في الصلاة من قتل غرور القلب، كل ذلك جعله الكمال الطبيعي للأديان التي سبقتة، وجعل الدعوة إليه للناس كافة. وقد كان هِرَقْلُ وكسرى يومئذ على رأس دولتي الرومان والفرس أقوى دول العصر وصاحبتي الإملاء على سياسة العالم وعلى مصير أُممه جميعاً. وكانت الحرب سجلاً بين الدولتين كما رأيت؛ وكانت الفرس صاحبة الغلب أول الأمر فاستولت على فلسطين وعلى مصر، ووضعت يدها على بيت المقدس ونقلت منه الصليب. ثُمَّ دارت على الفرس الدائرة، فعادت أعلام بيزنطة تحفّق مرّة أخرى على مصر وعلى سورية وفلسطين. واستردَّ هِرَقْلُ الصليب بعد أن نذر إن هو تمَّ له النصر أن يحجَّ إلى بيت المقدس ماشياً حتّى يرد الصليب فيه إلى مكانه^(٩١٤). ويسير عليك إذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدّر ما يبعثه اسمهما من الرهبة إلى النفوس ومن الهيبة إلى القلوب حتّى لا تفكر دولة في التعرّض لهما، ولا يدور بخلد^(٩١٥) أحد أن يفكر في غير خطبة ودّهما. وإذا كان ذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعاً، فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها، وقد كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس^(٩١٦)، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هِرَقْلٍ^(٩١٧)؛ فكان الحجاز وسائر شبه الجزيرة محصوراً في دائرة نفوذ الإمبراطوريتين. وكانت حياة العرب وفقاً على التجارة مع اليمن ومع الشام؛ فكانت بذلك محتاجة أشدّ الحاجة إلى

(٩١١) المائدة (٥): ٩٠.

(٩١٢) أسباب الزول للواحدى: ١٤٠ — ١٤١.

(٩١٣) المائدة (٥): ٩٣.

(٩١٤) الطبري: ٢ / ١٢٨.

(٩١٥) الخلد: البال، تقول: ما يقع ذلك في خلدي — كتاب العين: ٢٣٢/٤.

(٩١٦) تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١/١ و ٣٧.

(٩١٧) تاريخ الإسلام للذهبي: ٤٠/١.

مصانعة كسرى وهِرَقْل جميعاً حتّى لا يُفسدا بسلاطهما عليها تجارتها. ثُمَّ إِنَّ العرب لم تكن تزيد على قبائل تشتد الخصومة بينها حيناً وتهدأ حيناً آخر، ولا تربط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحدة سياسية تستطيع أن تفكر في مواجهة نفوذ الدولتين العظيمتين. ولذلك كان عجباً أن يفكر «محمد» يومئذ في أن يرسل رسله إلى المَلِكَيْن العظيمين وإلى غسان واليمن ومصر والحبشة يدعوهم إلى دينه، دون خشية مما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربّما تجرّ على بلاد العرب كلّها الخضوع لنير فارس أو بيزنطة.

لكن «محمدًا» لم يتردّد في دعوة هؤلاء الملوك جميعاً إلى دين الحقّ. بل خرج يوماً على أصحابه فقال: «أيّها الناس: إنّ الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم» قال أصحابه: وكيف اختلف الحواريّون يا رسول الله؟ قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل». ثُمَّ ذكر لهم أنّه مرسل إلى هِرَقْل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميريّ ملك اليمن وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام^(٩١٨). وأجابه أصحابه إلى ما أراد. فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه «محمد رسول الله»^(٩١٩). وبعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلاً أمام القارئ، كتابه إلى هِرَقْل إذا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله إلى هِرَقْل عظيم الروم. سلامٌ على من اتّبع الهدى. أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعوة الإسلام. اسلم تسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين. فإنّ تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيين»^(٩٢٠) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)^(٩٢١). ودفع بكتاب هِرَقْل إلى دحية بن خليفة الكلبي، وبكتاب كسرى إلى عبدالله بن خُذافة السهمي، وبكتاب النجاشي إلى عمرو بن أميّة الضمري، وبكتاب المقوقس إلى حاطب بن أبي بلتعة، وبكتاب ملكي عمان إلى عمرو بن العاص السهمي، وبكتاب ملكي اليمامة إلى سليط بن عمرو، وبكتاب ملك البحرين إلى العلاء ابن الحضرمي، وبكتاب الحارث الغساني ملك تخوم الشام إلى شجاع بن وهب الأسدي، وبكتاب الحارث الحميريّ ملك

(٩١٨) تاريخ الطبري: ١٢٨/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٠٦/٢، والسيرة الحلبية: ٢٤١/٣ — ٢٤٢.

(٩١٩) السيرة الحلبية: ٢٤٠/٣، بحار الأنوار: ٣٨٢/٢٠.

(٩٢٠) عيون الأثر: ٣٢٦/٢، والسيرة الحلبية: ٢٤٤/٣، بحار الأنوار: ٣٨٦/٢٠.

(٩٢١) آل عمران (٣): ٦٤.

اليمن إلى المهاجر بن أمية المخزومي^(٩٢٢). وانطلق هؤلاء جميعاً كل إلى حيث أرسله النبي. انطلقوا في وقت واحد على قول أكثر المؤرخين، وانطلقوا في أوقات مختلفة على قول بعضهم. أليس إرسال «محمد» هؤلاء الرسل عجباً يثير الدهشة؟! وليس أشد إثارة للدهشة ألاّ تمضي ثلاثون عاماً بعد ذلك حتى إذا هذه البلاد التي أرسل «محمد» إليها رسله قد فتحها المسلمون وقد اعتنق أكثرها الإسلام؟ لكن هذه الدهشة ما تلبث أن تتلاشى حين تذكر أن الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر، وكانت حضارتهما هي الغلبة على العالم كله، إنّما كانتا تتنازعان الغلب المادي، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعاً قد انحلت واضمحلت. فقد كانت فارس مقسّمة بين الوثنية والجوسية. وكانت مسيحية بزنطية قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق، فلم تظل عقيدة سليمة، تحرّك النفوس وتقوّي القلوب، بل انقلبت طقوساً يهيمن بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستغلاله. أمّا الدعوة الجديدة التي يدعو «محمد» إليها فكانت روحية صرفة، وكانت ترتفع بالإنسان إلى أسمى مراتب الإنسان. وحيثما التقت المادة والروح، وحيثما انتطح همّ الحاضر بأمل الخلود، انهزمت المادة وعنا وجه الحاضر.

ثم إنّ فارس وبزنطية كانتا — على عظم سلطانهما — قد فقدتا قوة الابتكار وملكة الانشاء، ونزلتا في عالم التفكير وفي عالم الشعور وفي عالم العمل إلى درك التقليد واحتذاء السلف، واعتبار كلّ جديد بدعة وكلّ بدعة ضلالة. والجماعة الإنسانية، كالفرد الإنساني وكلّ كائن حي، تتجدّد كلّ يوم. فإمّا كانت ماتزال فتية شابة فكان تجدّدها خلقاً وإنشاءً ومزیداً في الحياة. وإمّا كانت قد بلغت الذروة ولم تعد قادرة على الإنشاء والخلق فهي تُنفق من رأس مال حياتها، فحياتها لذلك في نقص مستمر وفي انحدار إلى درك النهاية.

والجماعة الإنسانية التي تنحدر إلى درك النهاية مصيرها أن يخلقها عنصر خارجي، فيه فتوة الحياة، خلقاً جديداً. والعنصر الخارجي المليء بقوة الحياة الفتية إلى جانب فارس وبزنطية لم يكن في ناحية الصين أو الهند ولا كان في ناحية أواسط أوربا؛ إنّما كان هذا العنصر «محمدًا». كانت دعوته في شباب فتوّتها جديرة بأن تعيد إلى هذه النفوس المهتدم داخلها بحكم الطقوس والخرافات القائمة منها مقام الإيمان والعقيدة، حياة فتية تجدّدها وتردّها إلى الحياة. وشعلة الإيمان الجديد التي كانت تضئ نفس الرسول، وقوة نفسه التي سمت فوق كلّ قوة، هي التي هدّت إلهامه إلى أن يبعث هؤلاء الرسل يدعون عظماء الأرض بدعاية الإسلام إلى دين الحقّ، دين الكمال، دين الله

جلّ شأنه؛ إلى الدين الذي يحرّر العقول لترى، والقلوب لتبصر، والذي يضع للإنسان في حياة العقيدة كما يضع له في نظام الجماعة، قواعد عامة توازي بين سلطان الروح وقوة المادة التي تنطوي على الروح، لتبلغ بالإنسان من طريق هذه الموازنة إلى غاية ما يستطيع بلوغه من قوة على الحياة؛ قوة لا يشوبها وهنٌ ولا يشوبها غرور، وتبلغ بالجماعة الإنسانية بفضل ذلك النظام إلى خير مكان أعدّها لها بعد أن تسلك ما قُدّر لها من دروب التطوّر بين كائنات الوجود جميعاً.

أفيرسل «محمّد» رسله إلى هؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة؟ صحيح أنّه قد عهدَ عهدَ الحديبية فأمنَ قريشاً وأمنَ الجنوب كلّهُ؛ لكنّه لن يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هرقل أو أن يستعين كسرى بيهود خبير وأن يحرك في نفوسهم ثاراتهم القديمة، وأن يذكرهم بإخوانهم في الدين من بني قريظة وبني التّضير وبني قينقاع وقد أجلاهم «محمّد» عن ديارهم بعد أن حصرهم بها وقتلهم فيها وقتل منهم وسفك دماءهم. واليهود أشدّ من قريش عداوة له، لأنّهم أحرص منهم على دينهم، ولأنّ فيهم ذكاءً وعلماً أكثر ممّا في قريش. وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية، ولا أن يطمئن لهم وقد سبقت بينه وبينهم خصومات لم ينتصروا في إحداها. فما أجدرهم أن يثاروا لأنفسهم إذا هم وجدوا من ناحية هرقل مدداً. لا بدّ إذاً من القضاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاءً أخيراً حتّى لا تقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمة أبداً. ولا بدّ من المسارعة إلى ذلك حتّى لا يكون لديهم من الوقت متسع للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية لـ «محمّد» والموالية لها.

وكذلك فعل؛ فإنّه لم يقيم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلّا خمس عشرة ليلة على قول، وشهراً على قول آخر، ثمّ أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلّا من شهد الحديبية، إلّا أن يكون غازياً متطوعاً ليس له من الغنيمة شيء. وانطلق المسلمون في ألف وستمئة ومعهم مئة فارس، وكلّهم واثق بنصر الله، ذاكر قوله تعالى في سورة الفتح التي نزلت في عهد الحديبية: (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (٩٢٣) وقطعوا مراحل الطريق ما بين خيبر والمدينة في ثلاثة أيّام لم تكد خيبر تحسّهم أثناءها، حتّى لقد باتوا أمام حصونها. وأصبح الصباح وغدا عمّال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مساحيهم ومكاتلهم؛ فلمّا رأوا جيش المسلمين ولّوا الأدبار يتصايحون: هذا

«محمد» والجيش معه. وقال الرسول حين سمع قولهم: خربت خير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين^(٩٢٤).

على أن يهود خير كانوا يتوقعون أن يغزوهم «محمد»^(٩٢٥)، وكانوا يودّون أن يجدوا الوسيلة إلى الخلاص منه. أمّا بعضهم فنصح لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء تغزو يثرب، دون اعتماد على البطون العربية في الغزاة، أمّا الآخرون فكانوا يرون أن يدخلوا في حلف مع الرسول، لعلّ ذلك يمحو ما ثبت في نفوس المسلمين، والأنصار منهم خاصة بعد اشتراك حَيٍّ بن أخطب وجماعة من اليهود معه، في تأليب العرب لاقْتحام المدينة وأخذها عنوة في غزوة الخندق. لكنّ النفوس من الجانبين كانت ملأى، حتّى لقد سبق المسلمون قبل غزوة خير بقتل كلٍّ من سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزّام من زعماء خير^(٩٢٦). ولذلك كانت اليهود على إتصال دائم مع غطفان، ولذلك استعانوا بهم أوّل ما ترامى إليهم خبر اعتزام «محمد» غزوهم^(٩٢٧). ويختلف الرواة فيما كان من غطفان: أهي أعانتهم، أم أن جيوش المسلمين قد حالت بينها وبين خير وسواء أكانت غطفان قد أعانت اليهود أم كانت قد وقفت بمعزل بعد أن وعدّها «محمد» حظّاً من الغنائم، فقد كانت هذه الموقعة من أكبر المواقع، أن كانت جموع اليهود في خير من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحاً^(٩٢٨)، وأن كان المسلمون مؤمنين بأنّ ما بقيت لليهود شوكة في شبه الجزيرة فستظلّ المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلاً دون تمام الغلب لهم، لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردّد إلى نفوسهم سيلاً. ووقفت قريش ووقفت شبه جزيرة العرب كلّها متطلّعة إلى هذه الغزوة؛ حتّى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولمن يتم الغلب فيها. وكان كثيرون من قريش يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين لما عُرف من قوّة حصون خير وقيامها فوق الصخور والجبال، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال^(٩٢٩).

(٩٢٤) السيرة الحلبية: ٣ / ٣١ — ٣٢، السيرة النبوية لابن هشام: ٣٢٩/٢ — ٣٣٠، إمتاع الأسماع: ٣٠٦/١ — ٣٠٧، وبحار الأنوار:

٣٢/٢١، وراجع: إعلام الوري بأعلام الهدى: ١٩٥/١.

(٩٢٥) في بعض السير أن اليهود كانوا لا يظنون بأنّ النبي سيغزوهم، السيرة الحلبية: ٣٣/٣، والمغازي للواقدي: ٦٣٧/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٠٦/١.

(٩٢٦) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٧٣.

(٩٢٧) سيرة ابن هشام: ٢ / ٣٣٠.

(٩٢٨) السيرة الحلبية: ٣٥/٣، والمغازي للواقدي: ٦٤٠/٢، بحار الأنوار: ٢٧/٢١.

(٩٢٩) مغازي الواقدي: ٦٤١/٢.

وقف المسلمون أمام حصون خير متأهبين كاملي العُدّة. وتشاور اليهود فيما بينهم، فأشار عليهم زعيمهم سلام بن مشكم فأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الوطيح والسلام، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب في حصن نطاة، ودخل سلام بن مشكم معهم يحرضهم على الحرب والتقى الجمعان حول حصن نطاة واقتتلوا قتالاً شديداً، حتى قيل: إن عدد الجرحى من المسلمين في هذا اليوم بلغ خمسين^(٩٣٠). فكم كان إذاً عدد الجرحى من اليهود؟! وتوفي سلام بن مشكم، فتولّى الحارث بن أبي زينب قيادة اليهود، وخرج من حصن ناعم يريد منازل المسلمين؛ فدحره بنو الخزرج واضطروه أن يرتدّ إلى الحصن على أعقابهم^(٩٣١). وضيّق المسلمون الحصار على حصون خير، واليهود يستميتون في الدفاع عنها، إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام «محمد» قضاء أخير على بني إسرائيل في بلاد العرب. وتتابع الأيام، فبعث الرسول أبا بكر براية إلى حصن ناعم كي يفتحه، فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فتح^(٩٣٢). وبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة، فكان حظّه حظّ أبي بكر. فدعا الرسول إليه في الغداة عليّ بن أبي طالب، ثمّ قال له: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك. ومضى عليّ بالراية، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه، فتناول عليّ باباً كان عند الحصن فتترسّ به، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فُتح الحصن، ثمّ جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية هذا الحصن^(٩٣٣)^(٩٣٤)، وإنما سقط حصن ناعم بعد أن

(٩٣٠) مغازي الواقدي: ٦٤٤/٢ — ٦٤٦، وإمتاع الأسماع: ٣٠٧ — ٣٠٨.

(٩٣١) مغازي الواقدي: ٦٥٣/٢، وتاريخ الخميس: ٤٥/٢.

(٩٣٢) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعث أبا بكر — يعني يوم خير — فسار بالناس فانهزم حتى رجع عليه وبعث عمر فانهزم بالناس حتى انتهى إليه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله له ليس بفار». رواه المتقي الهندي في كتر العمال: ٣٩٤/٦ ط. حيدر آباد — الهند وقال أخرجه ابن أبي شيبه، وأحمد بن حنبل، وابن ماجة، والبخاري، وابن جرير وصححه، والطبراني في الأوسط، والحاكم والبيهقي في الدلائل، وألف باء المقدسي في الأحاديث المختارة.

(٩٣٣) يُذكر أنّه لما بلغ الجهد بالمسلمين قال النبي (صلى الله عليه وآله): «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله كزار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه» ودعا في اليوم التالي عليّاً وأعطاه الراية فتمّ الفتح على يديه وسرّ المسلمون والنبي (صلى الله عليه وآله) جميعاً. السيرة الحلبية: ٢٣٧/٢، فضائل الصحابة: ٦٠٣/٢، مسند الإمام أحمد: ٣٨٤/٣، المواهب اللدنية: ٢٨٤/١، والاستيعاب: ٢٠٣/٣، كتر العمال: ١٢٣/١٣.

(٩٣٤) سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٤ — ٣٣٥، والمغازي للواقدي: ٦٥٣/٢ — ٦٥٥، والسيرة الحلبية: ٣٦/٣ — ٣٧، وعيون الأثر: ١٧٤/٢ —

١٧٥، وبحار الأنوار: ٣/٢١ و ٥ و ١٢ و ١٥.

قُتل قائده الحارث بن أبي زينب، ثمَّ يدل على استماتة اليهود في القتال واستماتة المسلمين في الحصار وفي الهجوم^(٩٣٥).

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعد قتال شديد، وبعد أن قُلت المؤونة عندهم قلةً، توجه بسببها جماعة منهم يشكون إلى «محمد» أمرهم ويطلبون إليه ما يسدون به رمقهم، فلم يجد شيئاً يعطيهم إياه وأذن لهم في أكل لحوم الخيل^(٩٣٦). وقد رأى أحد المسلمين قطعاً من الغنم يدخل إلى أحد حصون اليهود، فاختطف منه شاتين فذبحوهما وأكلوهما. على أنه بعد أن تمَّ لهم فتح حصن الصَّعب بن معاذ قُلت حاجتهم، أن وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكنَّ لهم من متابعة قتال اليهود وحصارهم في سائر حصونهم^(٩٣٧). واليهود أثناء ذلك كلَّه لا يسلمون في شبر أرض ولا يسلمون حصناً إلاَّ بعد أن يدافعوا عنه دفاع الأبطال، وبعد ألاَّ يبقى لهم على صدِّ هجوم المسلمين قوَّة. خرج مرحب اليهودي من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عدته وهو يرتجل:

قد علمت خيرٌ آتي مرحبٌ *** شاكي السلاح بطلٌ مجربٌ
أطعن أحياناً وحيناً أضربُ *** إذا الليوث أقبلت تحربُ
إنَّ حمائي للحمي لا يُقربُ *** يُخجمُ عن صولتي المجربُ

فصاح «محمد» بأصحابه: مَنْ لهذا؟ قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله. أنا والله الموتور الثائر! قتل أخي بالأمس. وقام إليه يأذن النبيّ وتصالوا حتَّى كاد مرحب يقتله. لكنَّ ابن مسلمة اتقى سيفه بالدركة فعصَّت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتَّى قتله^(٩٣٨). وكذلك كانت هذه الحرب بين المسلمين ضروساً قاسية، وكانت منعة حصون اليهود تزيدها شدة وقسوة. حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصارهم إياه وقتلوا حوله قتلاً شديداً، ومع ذلك لم يستطيعوا فتحه حتَّى قطعوا الماء عنه واضطروا اليهود فيه إلى الخروج منه وإلى قتال المسلمين قتالاً

(٩٣٥) المغازي للواقدي: ٦٥٧/٢ — ٦٥٨.

(٩٣٦) سيرة ابن هشام: ٢ / ٣٣١، والمغازي للواقدي: ٦٥٨/٢ — ٦٦١.

(٩٣٧) مغازي الواقدي: ٦٥٩/٢ — ٦٦٠، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٣٥/٢ و ٣٣٢.

(٩٣٨) المشهور في كتب التاريخ أنَّ القاتل هو عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، قال ابن حجر: وخرج مرحب فقال علمت خيرٌ آتي مرحب... الأبيات.

فقال عليّ (عليه السلام): أنا الذي سمعتني أمي حيدره... الأبيات.

فضرب رأس مرحب فقتله فكان الفتح على يديه. فتح الباري: ٣٦٧/٧، العمدة لابن البطريق: ١٤٨، صحيح مسلم: ١٩٥/٥، ينابيع المودة:

انتهى بالأولين إلى أن يلوذوا بالفرار^(٩٣٩). وكذلك جعلت الحصون تقع واحداً بعد الآخر في يد المسلمين، حتى انتهوا إلى الوطيح والسلام بمنطقة الكتيبة آخر حصنين منيعين عندهم. هنالك استولى على نفوسهم اليأس، فطلبوا الصلح بعد أن حاز النبي أموالهم كلها بالشقّ ونطاة والكتيبة ، على أن يحقن النبي دماءهم . وقبل «محمد» وأبقاهم على أرضهم التي آلت له بحكم الفتح، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم^(٩٤٠).

عامل «محمد» يهود خيبر بغير ما عامل به بني قينقاع وبني النضير حين أجلاهم عن أرضهم، لأنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود، وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبداً. ثم إن ما كان بخيبر من الحداثق والمزارع والنخيل كان يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة لاستغلاله وحسن القيام على زراعته. ولئن كان أنصار المدينة أهل زراعة فإن أرضهم بها كانت بحاجة إلى أذرعهم، كما أن النبي كان بحاجة إلى جيوشه للحرب، فهو لا يرضى أن يتركها للزراع. وكذلك ظل يهود خيبر يعملون بعد أن انهار سلطانهم السياسي انهياراً جنى على نشاطهم، حتى لقد أسرع خيبر من ناحية الزراعة نفسها إلى البوار والخراب، برغم ما كان من حسن معاملة النبي أهلها ومن عدل عبدالله بن رواحة رسوله إليهم كل عام بينهم في القسمة^(٩٤١). وقد كان من إحسان النبي معاملة يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عدّة صحائف من التوراة. فطلب اليهود ردّها ، فأمر النبي بتسليمها لهم^(٩٤٢)، ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، ولا هو صنيع صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة.

ولما طلب يهود خيبر الصلح أثناء محاصرة المسلمين إياهم في حصني الوطيح والسلام بعث النبي إلى أهل فدك كي يُسلموا برسائلته أو يُسلموا أموالهم. ووقع في نفوس أهل فدك الرعب بعد الذي علموا من أمر خيبر فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال. فكانت خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها، وكانت فدك خالصة لـ «محمد» لأن المسلمين لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب^(٩٤٣).

(٩٣٩) مغازي الواقدي: ٦٦٦/٢ — ٦٦٧ .

(٩٤٠) سيرة ابن هشام: ٢ / ٣٣٧، والمغازي للواقدي: ٦٧٠/٢ .

(٩٤١) مغازي الواقدي: ٦٩١/٢ .

(٩٤٢) مغازي الواقدي: ٦٨٠/٢، والسيرة الحلبية: ٤٢/٣، وتاريخ الخميس: ٥٥/٢ .

(٩٤٣) مغازي الواقدي: ٧٠٦/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٥٣/٢، وتاريخ الطبري: ١٤٠/٢، وتاريخ الخميس: ٥٨/٢، وإمتاع الأسماع:

٣٢٥/١، وبحار الأنوار: ٦/٢١، ٢٥ .

وتتميماً لما يذهب إليه المؤلف ودفعاً للغموض الذي قد يحصل في ذهن البعض جرّاء الخلاف في مسألة فدك بين فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وآله) والخليفة الأول ارتأينا أن نوجزها بما يلي:

إنّ أراضي فدك وإن كانت من أموال الدولة — بمعنى اختصاصها بمقام النبوة والإمامة والحاكم الشرعي — ولكنها غير ميزانية الدولة، وتختلف عن سائر الأموال العامة، لأنها ملك خالص للنبي (صلى الله عليه وآله) وله التصرف بها حيث يشاء كما نصّت الشريعة على ذلك، باعتبارها مفتوحة صلحاً ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب — كما قال المؤلف — ووفقاً للمصلحة الإسلامية.

وللنبي (صلى الله عليه وآله) إقطاعها لشخص أو أشخاص، أو تسليم منافعتها لمن يشاء، وليس هذا أمراً غريباً في الإسلام، فقد أقطع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من أراضي بني النضير، أبا بكر، وعبدالرحمن بن عوف، وأبا دجانة، وغيرهم (فتوح البلدان: ٣١)، وأقطع (صلى الله عليه وآله) الزبير بن العوام من أرض بني النضير ذات نخل (فتوح البلدان: ٣٤) وأقطع (صلى الله عليه وآله) بلالاً أرضاً فيها جبل ومعدن (فتوح البلدان: ٢٧)، وأقطع (صلى الله عليه وآله) عليّاً أربع أرضين (فتوح البلدان: ٢٧).

فلا ينبغي الإشكال في أنّ للحاكم الشرعي أن يقطع من الأراضي الخالصة له، وعليه فلا محذور شرعاً في أن يقطع النبي (صلى الله عليه وآله) فدكاً لفاطمة (عليها السلام). لو راجعنا الأحاديث والأخبار لعلمنا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قد أعطى فدكاً لفاطمة، وإليك بعض النماذج بما ورد في ذلك:

عن أبي سعيد الخدري، قال: لما نزلت: (وآت ذا القربى حقه) دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاطمة (عليها السلام) فأعطاه فدكاً (كشف الغمّة: ١٠٢/٢، الدر المنثور: ١٧٧/٤).

وعن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام): أقطع رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاطمة فدكاً (كشف الغمّة: ١٠٢/٢، الدر المنثور: ١٧٧/٤).

وعن ابن عباس: لما نزلت: (وآت ذا القربى حقه) أقطع رسول الله (صلى الله عليه وآله) فدكاً لفاطمة (عليها السلام)، الدر المنثور: ١٧٧/٤. وذكر المؤرخون وأصحاب الحديث: أنّ حضور فاطمة (عليها السلام) عند أبي بكر كان بعد عشرة أيام من وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) (نسخ البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٦٣/١٦)، فلما كلمت فاطمة أبا بكر، وقالت له: إنّ رسول الله جعل لي فدكاً فأعطني إياها (فتوح البلدان: ٤٤). قال: يا بنت رسول الله، والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً، وإنه قال: إنّ الأنبياء لا يورثون.

فقالت: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) وهب لي فدكاً.

فقال: فمن يشهد بذلك؟

فجاء عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فشهد، وجاءت أمّ أيمن فشهدت أيضاً.

فجاء عمر وعبدالرحمن بن عوف فشهدا أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقسمها.

قال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصدق عليّ وصدقت أمّ أيمن وصدق عمر وصدق عبدالرحمن بن عوف، وذلك أنّ مالكاً لأبيك كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأخذ من فدك قوتكم، ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله (ابن أبي الحديد: ٢١٦/١٦). ولكنّ هذا الاجراء الذي قام به الخليفة الأول أبو بكر بحقّ بنت النبي (صلى الله عليه وآله) فاطمة الزهراء يرد عليه بعض الملاحظات:

١ — اعتراف الخليفة أبي بكر بأنّ الحقّ لفاطمة (عليها السلام)، وأنها صادقة في ما تقول، حيث يقول: «صدقت يا بنت رسول الله، وصدق عليّ وصدقت أمّ أيمن» (ابن أبي الحديد: ٢١٦/١٦).

ويقول في مكان آخر: «ما كنت لتقولين على أبيك إلّا الحقّ» ابن أبي الحديد: ٢٧٤/١٦.

هذا، بالإضافة إلى أنّ الثابت في موازين القضاء، أنّ القاضي يحكم بعلمه — في الدين والأموال — وما دام أبو بكر يعلم بصدق الزهراء (عليها السلام) فعليه أن يعطيها فدكاً ويحكم بها لها دون المطالبة بالبيّنة.

٢ — لو سلّمنا أنّ أبا بكر وجد نقصاً في بيّنة الزهراء (عليها السلام) ولم يتيقن من حقّها، كان عليه — حسب موازين القضاء — أن يطالب الزهراء (عليها السلام) باليمين، ويحكم وفق الشاهد واليمين، وقد قضى بذلك النبي (صلى الله عليه وآله) كما ورد في الرواية. (جمع الزوائد: ٢٠٢/٣).

٣ — لو تزلّنا عن كلّ ما مضى، فإنّ موازين القضاء تحكم أن يذكر القاضي المدعى — في حال نقصان بيّنته — بإمكان مطالبة المنكر باليمين، وكان حقاً عليه أن يذكر فاطمة (عليها السلام) بذلك، ويحلف لها باعتباره منكرّاً، إلّا أنّه خالف هذا المقياس القضائي أيضاً، وختم المرافعة بمجرد نقصان البيّنة.

ألم يقطع النبي (صلى الله عليه وآله) بعض أراضي بني النضير بأشجارها للزبير بن العوام؟ (فتوح البلدان: ٣٤)

وتجهّز الرسول بعد ذلك كلّهُ للعود إلى المدينة عن طريق وادي القُرى فتجهّز يهودها لقتال المسلمين، وقاتلوا. لكنّهم اضطروا للاذعان والصلح كما صنعت خيبر^(٩٤٤). أمّا يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال^(٩٤٥). وبذلك دانت اليهود كلّها لسلطان النبيّ وانتهى كلّ ما كان لهم من سلطان في شبه الجزيرة، وأصبح «محمّد» بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية، وبإفئاد سلطان اليهود خفّت بغضاء المسلمين — والأنصار منهم خاصّة — أيّاهم وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب، ووقف النبيّ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبيّ وعزّى ابنه فيه. وأوصى معاذ بن جبل بالألا يفتن اليهود عن يهوديتهم. ولم يكلف يهود البحرين دفع الجزية وإن ظلّوا متمسكين بدين آبائهم. وصالح بني غازية وبني عريض بأنّ لهم الدّمة وعليهم الجزية. وعلى الجملة دان اليهود لسلطان المسلمين وتضعضع في بلاد العرب مركزهم، حتّى اضطروا لمهاجرة تلك البلاد وكانوا من قبلُ بها أعزّة، وحتّى تمّ جلاؤهم في حياة الرسول على قول، وبعد وفاته على قول آخر^(٩٤٦).

على أنّ إذعان أهل خيبر وسائر اليهود لمصيرهم في شبه الجزيرة لم يقع مرّة واحدة بعد هزيمتهم، بل لقد كانت نفوسهم في أثر الهزيمة ملأى بالغلّ والغضب أخبث الغضب. أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلامّ بني مشكم إلى «محمّد» شاة بعد أن اطمأنّ وبعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر. فجلس وأصحابه حولها ليأكلوا، وتناول (عليه السلام) الذراع فلاكّ منها مضغّة فلم يُسغها. وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول. فأما بشر فأساغها وازدردها، وأمّا الرسول فللفظها وهو يقول: إنّ هذا العظم ليخبرني أنّه مسموم، ثمّ دعا بزيب فاعترفت وقالت:

ألم يقطع معاوية ثلث فدك لمروان بن الحكم، وثلثها الآخر لعمر بن عثمان، وثلثها الآخر لابنه يزيد؟ (ابن أبي الحديد: ٢١٦/١٦).

٤ — لا معنى لجلوس أبي بكر للقضاء في هذه المرافعة، لأنّ الزهراء (عليها السلام) مدّعية، وأبا بكر منكر، فلا بدّ من رجوعهما لشخص ثالث يقضي بينهما كما فعل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والإمام عليّ (عليه السلام)، وليس للمنكر — أبي بكر — أن يجلس مجلس القاضي ويطلب بالشهود، ثمّ يحكم بما يجب.

والتاريخ يشهد أنّ الرسول (صلّى الله عليه وآله) توفّي وله أموال خاصة به ولم يمنع منها الورثة، وبقيت نساءه في بيوتهنّ، ولم يرو لنا التاريخ أنّ أبا بكر صادر سلاح النبيّ (صلّى الله عليه وآله) وثيابه ودوابه.

وهذا بنفسه دليل على ضعف الحديث الذي رواه أبو بكر، وإلاّ فما معنى التفكيك بين أمواله (صلّى الله عليه وآله) وهو يدعي أنّه سمع الرسول (صلّى الله عليه وآله) يقول: إنّنا معاشر الأنبياء لا نورث، أموالنا صدقة. ولكنّه لم يأخذ بيوت النبيّ من أزواجه. (وللمزيد من البيان راجع فاطمة الزهراء، للشيخ إبراهيم الأميني: ١٨٧، وفدك في التاريخ للسيد الشهيد محمّد باقر الصدر (قدس سره)).

(٩٤٤) مغازي الواقدي: ٧١١/٢، والسيرة الحلبية: ٩٥/٣، وتاريخ الخميس: ٥٣/٢، وعيون الأثر: ١٨٦/٢.

(٩٤٥) مغازي الواقدي: ٧١١/٢، وعيون الأثر: ١٨٨/٢، والسيرة النبويّة لابن كثير: ٤١٣/٣.

(٩٤٦) السيرة الحلبية: ٥٧/٣.

لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر. ومات بشر من أكلته هذه. وقد اختلف الرواة فذكر أكثرهم أن النبي عفا عن زينب وقدر لها عذرها بعد الذي أصاب أباهما وزوجها. وذكر بعضهم أنها قُتلت في بشر الذي مات مسموماً^(٩٤٧).

وقد تركت فعلة زينب في نفوس المسلمين أعمق الأثر، وجعلتهم في أعقاب خير لا يثقون باليهود، ويخشون غدرهم أفراداً بعد أن قُضي على جماعتهم القضاء الأخير. كانت صفية ابنة حُيي بن أخطب النضيرية من بين السبايا الذين أخذ المسلمون من حصون خير، وكانت زوجاً لكنانة بن الربيع. وكان عند كنانة ثمة يعرف المسلمون كثر بني النضير. فسأله النبي عنه فأقسم لا يعرف مكانه. فقال له «محمد»: إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم، وكان أحدهم قد رأى كنانة يطوف بخربة وذكر أمره للنبي فأمر بالخربة فحُفرت فأخرج منها بعض الكثر، فقتل في إنكاره. فلما خلصت صفية إلى المسلمين وصارت بين الأسرى، قيل للنبي: «صفية سيّدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلّا لك». فأعتقها وتزوجها مقتنياً بذلك أثر الفاتحين العظماء الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم. وقد خشي أبو أيوب خالد الأنصاري أن تتحرك في نفسها الضغينة على الرسول الذي قتل أباهما وزوجها وقومها: لذلك بات حول الخيمة التي أعرس فيها «محمد» بصفية في طريق عودته من خير متوشحاً سيفه. فلما أصبح الرسول ورآه سأله: مالك؟ قال: خفتُ من هذه المرأة وقد قتلت أباهما وزوجها وقومها، وقد كانت حديثة عهد بكفر^(٩٤٨). على أن صفية أقامت على الوفاء لـ «محمد» حتّى قبضه الله إليه. وقد اجتمع نساءه حوله في مرضه الأخير؛ فقالت صفية: أما والله يا نبي الله لو ددت أن الذي بك بي. فغمزها أزواج النبي، فقال هنّ: مضمضنّ. قلن: من أي شيء يا نبي الله؟ قال: من تغامزكن بصاحبتكن، والله إنّها لصادقة. وبقيت صفية بعد النبي حتّى خلافة معاوية، وفيها توفيت ودُفنت بالبقيع^(٩٤٩).

ماذا فعل الله بالرسول الذين أوفد «محمد» إلى هرقل وكسرى والنجاشي وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب؟! وهل سافروا قبل غزوة خير، أو أنّهم

(٩٤٧) مغازي الواقدي: ٦٧٧/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٣٧/٢ — ٣٣٨، والطبقات الكبرى: ٨٢/٢، ودلائل النبوة: ٢٦١/٤، وتفسير

مجمع البيان: ٢٠٤/٩، وبحار الأنوار: ٧/٢١.

(٩٤٨) مغازي الواقدي: ٧٠٨/٢ و ٦٧٤ — ٦٧٥، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٣٦/٢ و ٣٣٩ — ٣٤٠، وتاريخ الطبري: ١٣٧/٢، وبحار

الأنوار: ٣٣، ٥/٢١.

(٩٤٩) الإصابة في تمييز الصحابة: ٣٤٨/٤، والطبقات الكبرى: ١٢٨/٨.

حضروها حتّى تمّ النصر للمسلمين فيها ثمّ سافروا من بعدها كلّ إلى ناحيته؟ يختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كبيراً يصعب معه القطع في الأمر بقول. وأكبر ظننا أنّهم لم يسافروا جميعاً في وقت واحد، وأنّ منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها. فقد جاء في أكثر من رواية أنّ دحية بن خليفة الكلبي حضر خيبر وهو مع ذلك الذي ذهب برسالة هِرَقْل. سافر إليه وكان يومئذ عائداً يحفّ به النصر بعد أن تغلّب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس، وأن له أن يُتم نذره وأن يحجّ إلى بيت المقدس ماشياً ليردّ الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس، وأن له أن يُتم نذره وأن يحجّ إلى بيت المقدس ماشياً ليردّ الصليب الأعظم مكانه. وكان قد بلغ من سياحته مدينة حمص حين حمل الخطاب إليه. هل حمله إليه جماعة من رجاله بعد أن أسلم دحية الخطاب إلى عامله على بُصرى، أم أنّه اطلع عليه بعد أن أدخل جماعة من البدو ودحية على رأسهم يقدّم إليه الكتاب بنفسه؟ هذا ما تضطرب الرواية كذلك حوله. على كل حال فقد تُلي الخطاب عليه وتُرجم له، فلم يغضب ولم تُثر ثائرته ولم يفكر في إرسال جيش يغزو بلاد العرب. بل ردّ على الرسالة ردّاً حسناً^(٩٥٠)، جعل بعض المؤرخين يزعمون خطأ أنّه أسلم .

وفي نفس الوقت بعث الحارث الغساني إلى هِرَقْل يخبره أنّ رسولاً جاءه من «محمّد» بكتاب رأى هِرَقْل شبهة بالكتاب الذي أرسل إليه يدعو إلى الإسلام، ويستأذن الحارث في أن يقوم على رأس جيش لمعاينة هذا المدّعي النبوة. لكنّ هِرَقْل رأى الخير في أن يكون الحارث ببيت المقدس حين زيارته إيّاه ليزيد في جلال الحفلات بردّ الصليب إليه؛ ولم يعبأ بهذا الداعي إلى دين جديد^(٩٥١). ولم يدُر بخلده أنّ سنوات قليلة لن تحول حتّى يكون بيت المقدس وتكون الشام في ظل الراية الإسلامية^(٩٥٢)، وأنّ العاصمة الإسلامية ستنتقل إلى دمشق^(٩٥٣)، وأنّ النضال بين دول الإسلام والإمبراطورية الرومانية لن تهدأ ثائرته، حتّى يستولي الأتراك على القسطنطينية في سنة (١٤٥٣م)^(٩٥٤)، وحتّى يحيلوا كنيسة الكبرى مسجداً يكتب فيه اسم هذا النبيّ، الذي حاول هِرَقْل أن يظهر مظهر من لا يحفل به أو يُعنى بأمره، وأن تظل هذه الكنيسة مسجداً عدّة قرون حتّى يحيلها المسلمون الأتراك متحفاً للفن البزنطي.

(٩٥٠) الطبري: ٢ / ١٢٨ — ١٢٩، وتاريخ ابن خلدون: ٤٥٠/٢ .

(٩٥١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦١/١ .

(٩٥٢) الطبري: ٢ / ٢٣٥، وذلك بعد معركة اليرموك

(٩٥٣) وذلك في عهد معاوية عندما صار خليفة للمسلمين، اليعقوبي: ٣٥٤/٢ .

(٩٥٤) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمّد فريد بيك الحامي، بيروت لبنان، دار النفائس ط٦، ١٤٠٨ هـ .

أما كسرى عاهل الفرس فإنه ما لبث أن ثلّ عليه كتاب «محمد» يدعوّه إلى الإسلام حتّى استشاط غضباً وشقّ الكتاب؛ وكتب إلى بازان عامله على اليمن، يأمره بأنّ يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز. ولعلّه كان يحسب في هذا ما يخفف من آثار هزائمه أمام هرقل. فلمّا بلغت النبيّ مقالة كسرى وما فعل بكتابه قال: مزّق الله ملكه. وأوفد بازان رسله برسالة إلى «محمد». وفي هذه الأثناء كان كسرى قد خلفه ابنه شيرويه، وكان النبيّ قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به وطلب إليهم أن يكونوا رسله إلى بازان يدعونه إلى الإسلام. وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حلّ بفارس من هزائم وقد شعروا بالخلال سلطتها عنهم، وقد اتصلت بهم انتصارات «محمد» على قريش وقضاؤه على سلطة اليهود. فلمّا رجع رسل بازان إليه وأبلغوه رسالة النبيّ كان سعيداً بأنّ يُسلم وأنّ يبقى عامل «محمد» على اليمن^(٩٥٥) وماذا ترى يطلب «محمد» إليه وما تزال مكّة بينه وبينه؟ إذاً فله الغنم بعد أن تقلّص ظل فارس في أن يحتمي بالقوة الناشئة الجديدة في بلاد العرب من غير أن تطلب إليه هذه القوة شيئاً. ولعلّ بازان لم يقدر يومئذ أن انضمامه إلى «محمد» إنّما هو في الواقع نقطة ارتكاز قوية للإسلام في جنوب شبه الجزيرة، كما دلّت الظروف عليه بعد عامين اثنين.

وكان ردّ المقوقس عظيم القبط في مصر غير ردّ كسرى، بل كان أجمل من ردّ هرقل. فقد بعث إليه يخبره أنّه يعتقد أنّ نبياً سيظهر، ولكنّه سيظهر في الشام، وأنّه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام، وأنّه بعث معه بهديّة جاريتين وبغلة بيضاء وحماراً ومقداراً من المال وبعض خيرات مصر. أمّا الجاريتان فمارية التي اصطفاها النبيّ لنفسه والتي ولدت له إبراهيم من بعد، وشيرين التي أهديت لحسان بن ثابت. وأمّا البغلة فأسمها النبيّ ذلدل، وكانت فريدة بياضها بين البغال التي رأها بلاد العرب. وأمّا الحمار فأسمى عُفيراً أو يعفوراً. وقبل «محمد» هذه الهدية، وذكر أنّ المقوقس لم يُسلم من خشية أن يسلبه الروم ملك مصر، وأنّه لولا ذلك لآمن ولكان من حظه الهدى^(٩٥٦).

(٩٥٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢٦٠، والطبري: ١٣٣، ١٣٤.

(٩٥٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢٦٠، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٥٠.

وكان طبيعياً بعد الذي عرفنا من صلات نجاشي الحبشة بالمسلمين أن يكون ردّه جميلاً، حتّى لقد ورد في بعض الروايات أنّه أسلم^(٩٥٧) وإن أثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا. على أنّ الرسول بعث له غير كتاب دعوته إلى الإسلام بكتاب آخر يطلب إليه ردّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشة إلى المدينة. وقد جهّز لهم النجاشي سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ومعه أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان بعد أن مات زوجها عبدالله بن جحش^(٩٥٨) الذي جاء إلى الحبشة مسلماً ثمّ تنصّر وبقي على نصرانيته حتّى مات. وقد أصبحت أمّ حبيبة بعد عودها من الحبشة من أزواج النبيّ ومن أمّهات المؤمنين^(٩٥٩). ذكر بعض المؤرخين أنّ النبيّ تزوجها ليرتبط مع أبي سفيان برابطة النسب توكيداً لعهد الحديبية. ورأى آخرون غير هذا وأنّ في زواج رملة من «محمّد»، وأبو سفيان ما يزال على وثنيّته، ما تألم له نفسه ويغصّ به حلقه. وأمّا أمراء العرب، فقد ردّ أمير اليمن وعمان على رسالة النبيّ ردّاً فاحشاً وردّ أمير البحرين ردّاً حسناً وأسلم^(٩٦٠)، وردّ أمير اليمامة مظهراً استعداده للإسلام إذا هو نُصّب حاكماً؛ فلعله النبيّ لمطامعه. ويذكرون أنّه لم يلبث عاماً بعد ذلك حتّى مات^(٩٦١).

يستوقف القارئ ما في إجابات أكثر هؤلاء الملوك والأمراء من رفق ومن حسن رأي، وأنّه لم يُقتل أحد من رسل «محمّد» ولم يسجن، بل عادوا إليه كلّهم بما حملوا من رسالات في أكثرها رقة وعطف، وفي بعضها غلظة وشدة. فكيف تلقى أولئك الملوك رسالة الدين الجديد من غير أن يتألّبوا على صاحب الدعوة له، ومن غير أن يتضافروا على سحقه؟ ذلك أن عالم يومئذ كان كعالمنا الحاضر، قد طغت فيه المادّة على الروح، وأصبح فيه الترف غاية الحياة، وأصبحت الأمم تقتتل حبّاً في الظفر وإرضاء لمطامع ملوكها وساداتها وشفاء لغرور أنفسهم، أو طمعاً في مزيد من الترف تبلّغه وتستمتع به. ومثل هذا العالم قهوى فيه العقيدة إلى طقوس تُقام في العلن لا تؤمن النفوس التي تؤدّيها بشيء ممّا وراءها، ولا تُعنى إلاّ بأنّ تكون في حكم صاحب السلطان الذي يُطعمها ويكسيها ويكفل لها رخاء العيش وعرض الجاه وكثرة المال، ولا تستمسك بهذه الطقوس إلاّ بمقدار ما تدرّ عليها من خير مادي. فإذا فاتها هذا الخير، خارت عزيمتها، وتضعّضت همّتها، ووهنت فيها قوّة المقاومة. لذلك لم يلبث الناس أن سمعوا دعوة جديدة للإيمان فيها بساطة وفيها

(٩٥٧) الطبقات الكبرى : ١ / ٢٥٨.

(٩٥٨) عبيدالله بن جحش وليس عبدالله بن جحش، طبقات ابن سعد: ١ / ٢٥٩.

(٩٥٩) الطبقات الكبرى: ١ / ٢٥٩.

(٩٦٠) الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٣.

(٩٦١) الطبقات الكبرى : ١ / ٢٦٢.

قوة وفيها مساواة أمام ربّ واحد إياه نعبد وإياه نستعين، هو وحده الذي يملك ضرّ النفوس ونفعها؛ شعاع من رضاه يبدّد غضب ملوك الأرض جميعاً، ومخافة غضبه ترعزع النفس وإن أغرقها الملوك كلّهم في النعمة والرضا، والرجاء في مغفرته متصل لمن تاب وآمن وعمل صالحاً — لم يلبث الناس أن سمعوا هذه الدعوة وأن رأوا صاحبها يقوى بها على الاضطهاد وعلى الظلم وعلى التعذيب وعلى كلّ ما في الحياة المادّية من قوى؛ ويمتدّ بها سلطانه، وهو اليتيم الفقير المحروم إلى ما لم يحلم به أحد من قبله في بلده ولا في بلاد العرب كلّها، حتّى اشرأبت الأعناق وأرهفت الآذان وشعرت النفوس بظمئها وتطلّعت الأرواح لمورد ربّها، لولا بقيّة من الخوف والشك تقوم بينها وبين الحقيقة حجاباً. لذلك ردّ من ردّ من الملوك في رفق ورقة؛ وبذلك ازداد المسلمون إيماناً على إيمانهم وقوة في يقينهم.

عاد «محمّد» من خير، وعاد جعفر والمسلمون معه من الحبشة، وعاد رسل «محمّد» من حيث أوفدهم، والتقوا جميعاً بالمدينة كرامة أخرى. التقوا ليقضوا بقية عامهم هذا مشوقين ليوم في العام القابل يحجّون فيه إلى مكّة يدخلونها آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون. وقد بلغ من غبطة «محمّد» ببقيا جعفر أن ذكر أنّه لا يدري بأيّ هو أشدّ اغتباطاً: بالنصر على خير أو ببقيا جعفر^(٩٦٢). وفي هذه الفترة تجري القصة التي تروي أنّ اليهود سحروا «محمّداً» بفعل لبيد حتّى كان يحسب أنّه يفعل الشيء وهو لا يفعله. وهي قصة اضطربت فيها الروايات اضطراباً شديداً، يؤيد رأي بعضهم في أنّها أقرب إلى أن تكون محض اختراع لا ظلّ من الحقّ فيها^(٩٦٣).

وأقام المسلمون آمنين بالمدينة مستمتعين بالعيش ناعمين بفضل من الله ورضوان، لا يفكّرون من أمر الغزو في أكثر من إرسال بعض السرايا لمعاقبة من يفكّر في الاعتداء على حقهم أو سلب شيء من مالهم ومتاعهم. فلما استدار العام كانوا في ذي القعدة إذ خرج النبيّ في ألفين من رجاله لعمره القضاء نفاذاً لعهد الحديبية، وإطفاء لظماً هذه النفوس الشديدة الظماً لأداء فرائض البيت العتيق^(٩٦٤).

* * *

(٩٦٢) سيرة ابن هشام: ٢ / ٣٥٩، وبحار الأنوار: ٢٤/٢١.

(٩٦٣) تفسير الصافي: ٣٩٦/٥، الخلى لابن حزم: ٣٩٥/١١، المعجم الأوسط: ١٠١/٦، شرح نهج البلاغة: ٣٨١/١٩، الشفا بتعريف حقوق

المصطفى للقاضي عياض: ٣٤٥/١، المقنع للصدوق: ١٣٩، نيل الأوطار للشوكان: ١٢٢/٨.

(٩٦٤) مغازي الواقدي: ٧٣١/٢.

الفصلُ الثاني والعشرون

عُمرَةُ القَضَاءِ

ركب المسلمين إلى مكة، جلاء قريش عن مكة ونزول المسلمين بها، طواف «محمد» وهرولتة، زواج «محمد» من ميمونة، رغبته إلى قريش أن يُعرّس بمكة ورفضهم ذلك، إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة. استدار العام بعد الحديبية، وأصبح «محمد» وأصحابه في حلٍّ بعهدهم مع قريش، من الدخول إلى مكة ومن زيارة الكعبة. لذلك نادى الرسول في الناس كي يتجهّزوا للخروج إلى عُمرَةِ القَضَاءِ، بعد أن منعوا من قبلُ منها. ويسيرُ عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلبّون هذا النداء، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة ولهم إلى زيارة البيت الحرام هوى. لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفاً وأربعمئة في العام الذي سبقه. وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلاّ سيفاً في قرابه. لكنّ «محمدًا» كان يخشى الغدر دائماً. فجهّز مئة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة، وبعثهم طليعةً له على ألا يتخطّوا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مرّ الظهران إلى واد قريب منها. وساق المسلمون — و«محمد» على رأسهم يركب ناقته القصوى — الهذلي أمامهم ستين ناقه. وساروا من المدينة يحدهم شغف أي شغف بالدخول إلى أمّ القرى والطواف ببيت الله، ويرقّب كلّ واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التي وُلد فيها، والبيت الذي شبّ عن الطّوق بين جدرانها، والأصحاب الذين غادر ، وأن يتسنّم عرّف هذا الوطن المقدس، وأن يلمس في إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التي أنجبت الرسول ، والتي نزل فيها أوّل ما نزل من الوحي. وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين عدّتهم ألفان^(٩٦٥) يُغذّون سيرهم تطفر أمامهم قلوبهم وترقص جذلاً أفندقهم، فإذا أناخوا جعل كلّ واحد منهم يقصّ على أصحابه آخر

(٩٦٥) مغازي الواقدي: ٧٣١/٢ — ٧٣٣، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١٢٠/٢، والسيرة الحلبية: ٦٢/٣، وبحار الأنوار: ٤٦/٢١ .

عهده بمكة أو أيام طفولته بها، أو يحدث عن أصدقائه فيها، أو عن المال الذي ضحّى به في سبيل الله عند هجرته منها. تستطيع أن تتصوّر هذه المظاهرة الفدّة من نوعها، يُزجي سيرها الإيمان، ويجذب أصحابها إليه بيت جعله الله مثابة للناس وأمناءً وإنك إذا لترى بعين بصيرتك أيّ طرب كان يستخفّ هؤلاء الذين حيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس، إذ يسرون إليه ليدخلوا مكة آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقصرين، لا يخافون.

وعرفت قريش بمقدم «محمد» وأصحابه ، فجالت عن مكة، نزولاً على صلح الحديبية، وصعدت في التلال المجاورة لها، حيث ضربت الخيام، وحيث أوى منهم من أوى إلى فيء الشجر. ومن فوق أبي قُبيس وحراء، ومن فوق كلّ مرتفع مُطلّ على مكة، أطلّ هؤلاء المكيّون ينظرون بعيون كلّها التطلع إلى الطريد^(٩٦٦) وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدّهم عنه صادّ، ولا يحول بينهم وبينه حائل^(٩٦٧). وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبدالله بن رواحة بخطام القصوى، وأحاط كبار الصحابة بالنبيّ (عليه السلام) ، وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقتعد غارب بعيره. فلما انكشف البيت الحرام أمامهم انحسرت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد منادية: لبيك لبيك، متوجّهة بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذي الجلال محيطه في هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذي بعثه الله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه. والحقّ أنّه كان منظرًا فذاً من مشاهد التاريخ التي اهتزّت لها أرجاؤه، والتي جذبت إلى الإسلام قلوب أشدّ المشركين صلابة في وثنيته وفي عناده. وعلى هذا المنظر الفدّ كانت تقع عيون أهل مكة، وهذا الصوت المنبعث من القلوب يُدوي : لبيك ، لبيك، كان يخترق آذانهم فيهِزّ قلوبهم هزاً. ولما بلغ الرسول المسجد اضطلع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثمّ قال: اللهمّ ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة^(٩٦٨)، ثمّ استلم الركن عند الحجر وهرول وهرول أصحابه معه، حتّى إذا استلم الركن اليماني مشى حتّى استلم الحجر الأسود مُهرولاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرهما. والألفان من المسلمين يهرولون كلّما هرول، ويمشون كلّما مشى. وقريش تنظر من فوق أبي قُبيس فيأخذها لهذا المنظر البهر من كلّ مكان وتحسب أنّها، وكانت تحدّث عن «محمد» وأصحابه وأنّهم في عُسر وشدة وجهه، قد رأت ما يمحو من فؤادها كل وهم بوهن «محمد» وأصحابه. وفي حماسة هذه الساعة أراد عبدالله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة حرب، فصده عمر^(٩٦٩).

(٩٦٦) المغازي للواقدي: ٧٣٣/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٣١/١، والطبقات الكبرى: ١٢١/٢.

(٩٦٧) المغازي الواقدي: ٧٣٥/٢، السيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٠/٢ — ٣٧١، وإمتاع الأسماع: ٣٣٢/١، وبحار الأنوار: ٤٦/٢١.

(٩٦٨) الواقدي: ٧٣٥/٢، سيرة ابن هشام: ٣٧٠ / ٢ — ٣٧١.

(٩٦٩) المغازي للواقدي: ٧٣٥/٢ — ٧٣٧.

وقال له الرسول: «مهلاً يا بن رواحة، وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وحذل الأحزاب وحده» — أو كما قال — فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته، وردّدها المسلمون من بعده، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادي، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسنّموا الجبال حوله^(٩٧٠).

ولما أتمّ المسلمون الطّواف بالكعبة انتقل «محمّد» على رأسهم إلى الصفا والمروة فركض بينهما سبعاً، كما كان يفعل العرب من قبل، ثمّ نحر الهدْي عند المروة وحلق رأسه، وأتمّ بذلك فرائض العمرة. ولما كان الغد دخل «محمّد» إلى الكعبة وبقي بها حتّى صلاة الظهر. ولقد كانت الأصنام ماتزال تغمرها. مع ذلك علا بلال سقّفها وأذن في الناس لصلاة الظهر عندها. وصلى النّبي يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الإسلام عند البيت، الذي كان يُصدّ من سبع سنين مضت عن الصلاة عنده. وأقام المسلمون بمكّة ثلاثة الأيام المفروضة في عهد الحديبية، وقد خلت أمّ القرى من أهلها، فجاس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذى ولا يعترضهم أحد بسوء. والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويُزورون أصحابهم من الأنصار إيّاه، وكأثما هم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين؛ وكلهم يسير سيرة الإسلام يُؤدّي إلى الله يوم صلواته فيقتل في نفسه غرورها؛ ويُعين قوّتهم ضعيفهم، ويبرّ غنيهم فقيرهم؛ والنّبي يتنقل بينهم أباً مُحبّاً محبوباً، يسمّ لهذا ويمزح مع ذلك، ثمّ لا يقول إلّا حقّاً. وقريش وسائر أهل مكّة يُطلّون من منازلهم فوق السفوح على هذا المنظر الفدّ في التاريخ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم، لا يشربون خمرًا ولا يأتون معصية ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب ولا تفتنهم في الحياة فتنة، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. أي أثر يترك هذا المنظر الذي سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان؟! يسير عليك أن تقدّره حين تعلم أنّ «محمّداً» عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكّة على رأس عشرة آلاف من المسلمين^(٩٧١).

كانت أمّ الفضل زوج العباس بن عبدالمطلب عمّ النّبي قد جعلت لها أختها ميمونة يدها، وكانت ميمونة في السادسة والعشرين من عمرها، فجعلت أمّ الفضل يد أختها للعباس. ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين في عمرة القضاء هوّت إلى الإسلام نفسها، فخاطب العباس ابن

تذكر كتب السير الأخرى بأنّ الذي تكلم هو عمر وليس ابن رواحة وأنّ الذي أسكنه هو النّبي (صلى الله عليه وآله)، وقال له: إني أسمع، وعلم ابن رواحة كلمات يقولها: «لا إله إلا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده».

راجع المغازي للواقدي: ٧٣٦/٢، والطبقات لابن سعد: ١١١ — ١١٢.

(٩٧٠) المغازي للواقدي: ٧٣٥/٢ — ٧٣٧، وإمتاع الأسماع: ٣٣٢/١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٧١/٢.

(٩٧١) المغازي للواقدي: ٧٨٠/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٠/٢، وتاريخ الطبري: ١٥٢/٢، الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي:

١٦٢/١، وبحار الأنوار: ١٦٢/٢١.

أخيه في أمرها وعرض عليه أن يتزوجها، وكانت ميمونة هذه خالة خالد بن الوليد. فلما أفضى العباس بالأمر إلى «محمد» قبل وأصدقها أربعمئة درهم^(٩٧٢). وكانت ثلاثة الأيام التي نصّ عهد الحديبية عليها قد انقضت. لكنّ «محمدًا» أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش. فلما جاءه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى من قبل قريش يقولون لـ «محمد»: «إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا»، قال لهم: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه». قال «محمد» وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء في نفس أهل مكة من أثر، وكيف سحرّتهم وسكنت من خصومتهم، ويعلم أنّهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدّث إليهم وتحدّثوا إليه .

فتحت مكة أمامه أبوابها طائعة. وهذا ما خشي سهيل وحويطب، لذلك كان جوابهما: «لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا». ولم يتردد «محمد» في التزول على رأيهما تنفيذاً لعهد مع قومهما، فأذن في المسلمين بالرحيل، وخرج والمسلمون من ورائه. وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة حتّى أتاه بها بسرف فبنى بها. وميمونة أمّ المؤمنين آخر أزواج النبي، عمّرت بعده خمسين سنة، ثمّ طلبت أن تُدفن حيث بنى بها رسول الله، وحمل «محمد» معه أختي ميمونة سلمى أرملة عمّه حمزة، وعمارة البكر التي لم تنزوّج.

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها. و«محمد» لا يشك في عظم ما تركت عمرة القضاء من أثر في نفوس قريش وفي نفوس أهل مكة جميعاً، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة^(٩٧٣).

وصدّقت الأيام تقديره. فإنّه لم يلبث أن تحمّل راجعاً إلى المدينة، حتّى وقف خالد بن الوليد فارس قريش المُعَلَّم وبطل أحد يقول في جمع منها: «لقد استبان لكلّ ذي عقل أن «محمدًا» ليس بساحر ولا شاعر، وأنّ كلامه من كلام ربّ العالمين، فحقّ على كلّ ذي لبّ أن يتبعه». وقد فرع عكرمة ابن أبي جهل لما سمع، فردّ قائلاً: لقد صبوت يا خالد — ودار بينهما الحديث الآتي — : خالد : لم أصبؤ ولكنّي أسلمت.

عكرمة: والله إن كان أحقّ قريش ألا يتكلّم بهذا الكلام إلا أنت.

خالد: ولمّ ؟

(٩٧٢) المغازي للواقدي: ٧٣٨/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٢ / ٢، والسيرة الحلبية: ٦٣/٣، وبحار الأنوار: ٤١/٢١ — ٤٢ و ٤٦.

(٩٧٣) مغازي الواقدي: ٧٣٩/٢ — ٧٤١، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١٢٢ / ٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٢/٢، وبحار الأنوار:

عكرمة: لأنَّ «محمّداً» وضع شرف أبيك حين جُرح وقتل عمّك وابن عمّك ببدر، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد . أمّا رأيت قريشاً يريدون قتاله!!
خالد: هذا أمر الجاهلية وحميتها، لكنّي والله أسلمت حين تبين لي الحقّ.
وبعث خالد إلى النبيّ أفراساً وبعث إليه باقراره بالإسلام وعرفانه^(٩٧٤).
وبلغ إسلام خالد أبا سفيان، فبعث في طلبه وسأله : أحقّ ما بلغه عنه. ولما أجابه خالد أنّه حقّ غضب وقال: «واللّات والعزّى لو أعلم أنّ الذي تقول حقّ لبدأت بك قبل «محمّد» . قال خالد: «فوالله إنّهُ لحقّ على رغم من رغم». فاندفع أبوسفيان في غضبه نحوه؛ فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال: «مهلاً يا أبا سفيان . فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالداً على رأي رأي رآه وهذه قريش كلّها تبايعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتّى يتبعه أهل مكّة كلّهم». وخرج خالد من مكّة إلى المدينة، فانضم إلى صفوف المسلمين.

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة. وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكّة واتبعوا دين الحقّ. وبذلك قويت شوكة الإسلام، وأصبح فتح مكّة أبوابها لـ «محمّد» أمراً لا محلّ لريبة فيه^(٩٧٥).

* * *

(٩٧٤) السيرة النبويّة لابن كثير : ٤٥٠/٣ — ٤٥٣ .

(٩٧٥) تاريخ الطبري: ١٤٥/٢ .

الفصلُ الثالث والعشرون

غزوة مؤتة

اتجاه نظر «محمد» إلى الشام، توجيهه ثلاثة آلاف لغزوها، لواءهم لزيد بن حارثة، فإن أُصيب فلجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب فلعبد الله بن رواحة على الناس، الروم في مئة ألف أو مئتي ألف، التقاء الجيشين بمؤتة، موت الثلاثة أصحاب اللواء على التعاقب، الراية لخالد بن الوليد، مناورته وانسحابه.

لم يكن «محمد» يستعجل فتح مكة وهو يعلم أن الزمن في صفه، كما أن عهد الحديبية لم يكن قد مضى عليه غير عام واحد، ولم يكن قد جدّ ما يوجب نقضه. و «محمد» رجل وفاء لا ينقض كلمة قال، ولا عهداً عقد. لذلك ذهب إلى المدينة فأقام بضعة أشهر لم تقع خلالها غير مناوشات صغيرة، كإرسال خمسين رجلاً إلى بني سليم ليدعوهم إلى الإسلام وغدر بني سليم بهم وقتلهم إياهم بغياً بغير حق، حتّى لم يكدر رئيسهم ينجو إلا بمحض المصادفة^(٩٧٦)؛ وكغزو جماعة من بني الليث والظفر بهم والغنم منهم^(٩٧٧)؛ وكمعاقة بني مُرة على ما غدروا من قبل^(٩٧٨)، وإرسال خمسة عشر رجلاً إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام دعوة كان جزاءهم عنها القتل لم ينج منه إلا رئيسهم^(٩٧٩). وقد كانت ناحية الشام وهذه الجهات الشمالية مُتّجه نظر النبيّ منذ أمن الجنوب بعهد مع قريش وبإذعان عامل اليمن لدعوته. ذلك أنّه كان يتوسّم طريق انتشار دعوته إلى الإسلام أوّل مغادرتها حدود شبه الجزيرة، فيرى الشام والبلاد

(٩٧٦) المغازي للواقدي: ٧٤١/٢، والطبقات الكبرى: ١٢٣/٢، وتاريخ الطبري: ١٤٣/٢، وبحار الأنوار: ٤٨/٢١.

(٩٧٧) المغازي للواقدي: ٧٥٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٢٤/٢ — ١٢٥، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٠٩/٢ — ٦١٠، وبحار الأنوار:

٤٨/٢١.

(٩٧٨) الطبقات الكبرى: ١٢٦/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٢٢/٢، وعيون الأثر: ١٩٥/٢.

(٩٧٩) المغازي للواقدي: ٧٥٢/٢ — ٧٥٣، وطبقات ابن سعد: ١٢٧/٢ — ١٢٨، الطبري: ١٤٥ / ٢، وبحار الأنوار: ٥٠/٢١.

الجاورة هي المنفذ الأوّل لهذه الدعوة. لذلك لم تمض أشهر على مُقامه بالمدينة بعد عودته من عمرة القضاء حتّى وجّه ثلاثة آلاف هم الذين قاتلوا في مؤتة مئة ألف في رواية، ومنّي ألف في رواية أُخرى.

ويختلف الرواة في سبب غزوة مؤتة هذه، فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه في ذات الطّلع كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين. ويذهب آخرون إلى أن النبيّ أرسل رسولا من رسله إلى عامل هِرَقْل على بُصرى وأن أعرابياً من غسّان قتل هذا الرسول باسم هِرَقْل ، فبعث «محمّد» بالذين قاتلوا في مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره.

وكما كان عهد الحديبية مقدّمة عمرة القضاء ففتح مكّة، كذلك كانت غزوة مؤتة مقدّمة تبوك وما كان بعد وفاة النبيّ من فتح الشام. وسواءً أكان السبب الذي أدّى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبيّ إلى عامل بُصرى أو قتل رجاله الخمسة عشر في ذات الطّلع، فإنّه (عليه السلام) دعا إليه في جهادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة سنة (٦٢٩ م) ثلاثة آلاف من خير رجاله واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أُصيب جعفر فعبداً بن رواحة على الناس» وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوعاً ليدلّ بحسن بلائه في الحرب على حسن إسلامه. وودّع الناس أمراء الجيش والجيش ، وسار معهم «محمّد» حتّى ظاهر المدينة، يوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار. ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلاً: صَحِبَكُمُ اللهُ ودفع عنكم وردّكم إلينا سالمين. وكان أمراء الجيش يفكّرون كلّهم في أخذ القوم من أهل الشام على غرة منهم، على عادة النبيّ في سابق غزواته، فيُسرع إليهم النصر ويعودوا بالغنيمة . وسار القوم حتّى بلغوا مُعان من أرض الشام وهم لا يعلمون ماهو ملاقيهم.

لكنّ أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم. فقام شرحبيل عامل هِرَقْل على الشام فجمع جموع القبائل ممّن حوله، وأوفد من جعل هِرَقْل يمدّه بجيوش من الإغريق ومن العرب. وتذهب بعض الروايات إلى أن هِرَقلاً نفسه تقدّم بجيوشه حتّى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مئة ألف من الروم، كما انضمّ إليه مئة ألف أخرى من لَحْم وجُدَام والقَيْن وبهراء وبَلِيّ. ويقال: إنّ تيودور أخا هِرَقْل هو الذي كان على رأس هذه الجيوش، لا هِرَقلاً نفسه — على كلّ حال — فقد بلغ المسلمين وهم بمعان أمر هذه الجموع ، فأقاموا بها ليلتين يفكّرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذي لا قبل لهم به. قال قائل منهم: نكتب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنخبره بعدد عدوّنا. فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له. وكاد هذا الرأي يسود لولا أن تقدّم عبدالله بن

رواحة، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً، فقال: يا قوم! والله إنّ التي تكروهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة؛ ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانطلقوا ، فإنّما هي إحدى الحسينين: إما ظهور، وإما شهادة. وامتدت عدوى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كلّ، فقال الناس: فوالله صدق ابن رواحة! ومضوا، حتّى إذا كانوا بتخوم اللقاء لقيتهم جموع هرّقل من الروم والعرب بقرية يقال لها: مشارف. فلمّا دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة أن رأوها خيراً من مشارف لتحصّنهم بها. وفي مؤتة بدأت المعركة حامية الوطيس بين مئة أو مئتي ألف من جيوش هرّقل وبين ثلاثة آلاف من المسلمين.

يا لجلال الإيمان وروعة قوّته! حمل زيد بن حارثة راية النبيّ واندفع بها في صدر العدو وهو مُوقن أن ليس من موته مفرّ. لكنّ الموت في هذا المقام هو الاستشهاد في سبيل الله. وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكاناً. وحارب زيد حرب المستميت حتّى مرّقته رماح العدو. فتناول الراية من يده جعفر بن أبي طالب وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين من عمره، وهو شابّ تعدل وسامته شجاعته. وقاتل جعفر بالراية، حتّى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعفرها واندفع بنفسه وسط القوم منطلقاً انطلاقاً السهم يهوي سيفه برؤوسهم حيثما وقع. وكان اللواء يمين جعفر فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتّى قتل. يقال إنّ رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين. فلمّا قُتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ثمّ تقدّم بها وهو على فرسه فطاعن القوم ساعة ثمّ ولّى. لكنّه لام نفسه، فترل عن فرسه وقال لنفسه: أقسمت بالله لتترلنه، إنّني أراك تكريهين الجنة، ثمّ عاد إلى العدو فقاتلهم حتّى قُتل.

هؤلاء زيد وجعفر وابن رواحة استشهدوا ثلاثتهم في سبيل الله في موقعة واحدة. لكنّ النبيّ لما علم بخبرهم كان على زيد و جعفر أكبر أسى وقال: إنهم لما رفعوا إليه في الجنة رأى في سرير عبدالله بن رواحة أزوراراً^(٩٨٠) عن سريري صاحبيه؛ فسأل لم هذا؟ فقليل له: مضيا وتردّد عبدالله بعض التردّد ثمّ مضى. أترى إلى هذه العبرة والموعظة الحسنة! فإنّما معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت في سبيل الله، بل يجب عليه كلّما مضى في أمر يؤمن بأنّه لله أو للوطن أن يحمل حياته على كفه، وأن يُلقى بها فيوجه من يقف في سبيله. فإنّما فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حقّ الله والوطن، وإمّا استشهاد فكان المثل الحيّ لمن بعده، والذكر الباقي لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة ما يضحّي بالحياة في سبيله، وأنّ الامساك على الحياة في مذلة إهدار للحياة فما

يستحق صاحبها بعد ذلك في الحياة ذكراً؛ وأنَّ الرجل يُلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو عرّض حياته تعريضاً تذهب معه ضحيّة غرض وضيع؛ وأنّه كذلك يلقي بيديه إلى التهلكة إذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعي الحقّ جلّ شأنه ليقذف بها فيوجه الباطل ليسحقه ، فيوارى بها هو بالحجاب، ويخاف عليها الموت خوفاً هو شرّ من الموت. وإذا كان التردّد القليل من ابن رواحة، مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده ، قد جعله في غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاماً وطاراً للاستشهاد فرحاً، فما بالك بالذي ينكص على عقبه طمعاً في جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة! إنّه إذاً للحشرة الحقيرة وإن عرّض عند السواد جاهه، وإن بذّ مال قارون ماله. وهل لنفس إنسانية أن تغتبط حقاً لشيء اغتباطها للتضحية في جانب ما تؤمن بأنّه الحقّ يجعلها تزدري الحياة وأهل الحياة، وتنتهي من ذلك إلى الاستشهاد في سبيل الحقّ! أو إلى تمليك الحقّ الحياة!

قُتل ابن رواحة بعد تردّد ثمّ إقدام؛ فأخذ الراية ثابت بن أرقم أحد بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ خالد الراية برغم ما رأى من تفرق صفوف المسلمين وتضعضع قوتهم المعنوية. وكان خالد قائداً ماهراً ومحركاً للجيوش قلّ نظيره. لذلك أصدر أوامره ، فناور بالمسلمين حتّى ضمّ صفوفهم فوقف من محاربة العدوّ عند مناوشات امتدّت به حتّى أرخى الليل سدوله، وحتّى وضع الجيشان السلاح إلى الصباح. أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطّته فوزّع عدداً غير قليل من رجاله في خطّ طويل من مؤخرة جيشه أحدثوا — إذا أصبح الناس — من الضجّة ما أدخل إلى روع عدوّه أن مدداً جاءه من عند النبيّ، وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل في اليوم الأوّل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وإن لم يستطيعوا أن يصمدوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدري أحد عدته!! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسرّوا بعدم مهاجمته إياهم، وكانوا أكثر سروراً بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقاً كذلك أن عدوّهم لم ينتصر عليهم فيها.

لذلك ما لبث خالد والجيش معه أن دنوا من المدينة حتّى تلقّاهم «محمّد» والمسلمون معه. وطلب «محمّد» فأتي بعبدالله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه. أمّا الناس فجعلوا يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار فررت في سبيل الله، فيقول رسول الله: ليسوا بالفُرّار ولكنّهم الكُرّار إن شاء الله. ومع هذه التأسية من «محمّد» للعائدين من مؤتة فقد ظلّ المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودهم، حتّى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من

كلّ من رآه: يا فُرّار فررت في سبيل الله. ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة، ومن فعال خالد بنوع خاص، لظلت مؤتة معتبرة بعض ما لطّخ به إخوانهم في الدين جبينهم من عار الفرار.

وقد بلغ الألم من نفس «محمد» منذ علم بقتل زيد وجعفر، وحزّ الأسى في نفسه من أجلهما. لما أصيب جعفر ذهب «محمد» إلى منزله ودخل على زوجته أسماء بنت عُميس. وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظّفتهم، فقال لها: اتيني ببني جعفر. فلما أتته بهم تشتمّهم وذرفت عيناه الدمع، قالت أسماء في لهف وقد أدركت ما أصابها: يا رسول الله، بأي أنت وأمي! ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أصيبوا هذا اليوم. وازدادت عيناه بالدمع قهقاراً^(٩٨١). فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها. أمّا «محمد» فخرج إلى أهله فقال: لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم. ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فرّبت^(٩٨٢) على كتفها وبكى. وأظهر بعضهم دهشته لبكاء الرسول على من استشهد، فقال ما معناه: إنّما هي عبرات الصديق يفقد صديقه.

وفي رواية: أنّ جُنة جعفر حملت إلى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام من وصول خالد والجيش إليها. ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكفّوا عن البكاء. فقد أبدل الله جعفرًا من يديه اللتين قُطعتا جناحين طار بهما إلى الجنة^(٩٨٣).

أراد «محمد» بعد أسابيع من عود خالد أن يستردّ هبة المسلمين في شمال شبه الجزيرة، فبعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام، وذلك أن أمّه كانت من قبائل تلك النواحي، فكان يسيراً عليه أن يتألفهم. فلما كان على ماء بأرض جُدام يقال له السلسل خاف فبعث إلى النبي (عليه السلام) يستمدّه فأمدّه بأبي عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوّلين فيهم أبوبكر وعمر. وخاف «محمد» أن يختلف عمرو وهو حديث عهد بالإسلام مع أبي عبيدة من المهاجرين الأوّلين، فقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا. وقال عمرو لأبي عبيدة: إنّما جئت مدداً لي فأنا على قيادة الجيش. وكان أبو عبيدة رجلاً لينا سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا، فقال لعمرو: لقد قال لي رسول الله:

(٩٨١) هنّ المطر والدمع يهتن هتناً وهتناً وهتناً، إذا قطر متتابعاً — الصحاح الجوهري: ٢٢١٦/٦.

(٩٨٢) ربّت المرأة صبّتها: ضربت على جنبه قليلاً حتى ينام. تاج العروس: ٢٦١/١.

(٩٨٣) المعروف أن جنة جعفر بقيت في الأردن ودُفن فيها وقبره إلى الآن يعدّ مزاراً للمسلمين انظر: المغازي للواقدي: ٧٥٥/٢ — ٧٦٧،

وطبقات ابن سعد: ١٢٨ / ٢ — ١٣٠، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٣ — ٣٨٣، وبحار الأنوار: ٥٠/٢١ و ٥٤ — ٥٥ و ٥٧ — ٥٨.

لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك. وصلى عمرو بالناس، وتقدم بالجيش فشئت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربته، وأعاد بذلك هيبة المسلمين في تلك الناحية^(٩٨٤).

في هذه الأثناء كان «محمد» يفكر في مكة ومآلها. لكنّه — كما قدّمنا — كان وفيّاً بعهد الحديبية . فأقام ينتظر انقضاء السنتين، وجعل أثناء ذلك يوفد سرايا ليسكن بها ثائرة القبائل التي تحدّثها نفوسها بالثورة. على أنّه كان في غير حاجة إلى كبير عناء من هذه الناحية؛ فقد بدأت الوفود ترد إليه من مختلف النواحي تُعلن إليه طاعتها وإذعانها، وإنّه كذلك إذ حدث ما كان مقدّمة لفتح مكة، لاستقرار الإسلام بها استقراراً أسبغ عليها إلى أبد الدهر أعظم القداسة.

* * *

الفصل الرابع والعشرون: فتح مكة

الفصل الرابع والعشرون

فتح مكة

أثر موقعة مؤتة، نقض قريش عهد الحديبية، استعداد خزاعة النبيّ على قريش، سفارة أبي سفيان إلى النبيّ وفشلها، تجهز المسلمين عشرة آلاف يسرون إلى مكة، رجاء «محمد» أن يفتح أمّ القرى من غير إراقة للدماء، وفود العبّاس ثمّ وفود أبي سفيان إليه بظاهر مكة، دخول المسلمين فاتحين، المكيّون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد، عفو «محمد» عن خصومه جميعاً، تطهير الكعبة من الأصنام، إسلام أهل مكة.

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة ولواءهم لخالد بن الوليد. عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالاياب. وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة أثراً مختلفاً أشدّ الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة. أمّا الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربّهم أن لم يطل القتال بهم، مع أنّ جيش الروم كان مئة ألف على قول ومئتي ألف على قول آخر^(٩٨٥)، على حين كانت عدّة المسلمين ثلاثة آلاف^(٩٨٦). وسواء أكان فرح الروم راجعاً إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة في الدفاع والقوّة في الهجوم، حتّى لقد تحطّمت في يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة، أم كان راجعاً إلى مهارة خالد في توزيع الجيش في اليوم الثاني وإحداث ما حدث من الجلبة حتّى ظن الروم أنّ مدداً جاءه من المدينة، فإنّ القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين باعجاب أشدّ الإعجاب. وكان من ذلك أنّ أحد زعمائهم فروة بن عمرو الجذامي، وكان قائداً لفرقة من جيش الروم، ما لبث أن أعلن إسلامه فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة. وكان هرقل على استعداد للانفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية، بل كان

(٩٨٥) المغازي للواقدي: ٧٥٦/٢، وتاريخ الطبري: ١٥٠/٢، وتاريخ ابن خلدون: ٢٥٦/٢.

(٩٨٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٧٥/٢، وتاريخ الطبري: ١٤٩/٢، وتاريخ ابن خلدون: ٢٥٦/٢، ومناقب آل أبي طالب: ١٧٦/١ — ١٧٧،

وبحار الأنوار: ٥٦/٢١.

على استعداد أن يردّه إلى مركز القيادة الذي كان فيه. لكنّ فروة أبي وأصرّ على إباطه وعلى إسلامه فقتل^(٩٨٧). وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الإسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمة للعراق وللشام حيث كان سلطان الرومان في ذروته.

وزاد في انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البيزنطية اضطراباً جعل أحد عمّال هرقل، وقد كُلف أن يدفع للجيش رواتبه، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب: «انسحبوا فالامبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلاّ بمشقة. وليس لديه لذلك ما يوزّعه على كلابه...» فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الامبراطور وعن جنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التي يبشّر الناس بها. لذلك اعتنق الإسلام في هذه الفترة أُلوف من سُليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس^(٩٨٨)، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتّى نُكب اليهود في خير. ومن عبس ومن ذبيان ومن فزارة. فكانت وقعة مؤتة بذلك سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام، وفي ازدياد الإسلام عزّة وقوّة ومنعة.

لكنّ أثرها في نفس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر. فهم مالبثوا أن رأوا خالداً والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل حتّى صاحوا في وجوهم: «يا فرّار فررتم عن سبيل الله». وحتّى كان من خجل بعض كبار رجال الجيش أن لزوم بيته حتّى لا يؤذيه صبيان المسلمين وشبّانهم بتهمته الفرار^(٩٨٩). أما أثر مؤتة في نفس قريش فكان أنّها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم حتّى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزناً. فلتعدّ الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء، ولتعدّ الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية، ولتعدّ قريش حرباً على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تخشى من «محمد» قصاصاً.

وصلح الحديبية كان قد قضى أنّه من أحبّ أن يدخل في عقد «محمد» وعهده فليدخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعة قد دخلت في عهد «محمد»، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكانت بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وانحياز كلّ من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين. فلمّا كانت مؤتة وخيّل إلى قريش أن المسلمين قضى عليهم خيّل إلى بني الدّيل من بني بكر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم

(٩٨٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٥/٢، تاريخ الطبري: ١٤٩/٢، تاريخ ابن خلدون: ٢٥٦/٢، بحار الأنوار: ٤٠٨/٢١ — ٤٠٩.

(٩٨٨) سيرة ابن هشام: ٤٢٧ / ٢.

(٩٨٩) المغازي للواقدي: ٧٦٥/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٨٣ / ٢.

ليصيبوا من خزاعة بئراهم القديمة ، وحرّضهم على ذلك جماعة من قريش، منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش وأمدّوهم بالسلاح. وفيما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوتر إذ فاجأهم بنوبكر فقتلوا منهم، ففرّت خزاعة إلى مكّة ولجأوا إلى دار بُديل بن ورقاء وشكوا إليه نقض قريش ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله. وسارع عمرو بن سالم الخزاعي فعدا متوجّهاً إلى المدينة حتّى وقف بين يدي «محمّد» وهو جالس في المسجد بين الناس، وجعل يقصّ عليه ما حدث ويستنصره. قال رسول الله: «نصرت يا عمرو بن سالم» ثمّ خرج بُديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتّى قدموا المدينة فأخبروا النبيّ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم. عند ذلك رأى النبيّ أنّ ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلّا فتح مكّة، وأنّه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء^(٩٩٠).

أمّا حكماء قريش وذوو الرأي فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عكرمة ومن معه من الشُّبان من خطر. فهذا عهد الحديبية قد نُقض ، وهذا سلطان «محمّد» في شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة. ولئن فكّر بعد الذي حدث في أن ينتقم لخزاعة من أهل مكّة لتعرّضن المدينة المقدّسة لأشدّ الخطر. فماذا تراهم يصنعون؟ أوفدوا أبوسفیان إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد في المدّة. ولعلّ المدّة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً^(٩٩١). وخرج أبوسفیان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة. فلما بلغ من طريقه عُسفان لقيه بُديل بن ورقاء وأصحابه، فخاف أن يكون قد جاء «محمّداً» وأخبره بما حدث، فيزيد ذلك في مهمته تعقيداً. وبرغم ما نفى بديل مقابلته «محمّداً» فقد عرف من بعر راحلته أنّه كان بالمدينة^(٩٩٢). لذلك آثر ألاّ يكون «محمّد» أوّل من يلقي. فجعل وجهته بيت ابنته أمّ حبيبة زوج النبيّ.

ولعلّها كانت قد عرفت عواطف النبيّ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه في أمر مكّة. ولعلّ ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعاً. فقد أراد أبوسفیان أن يجلس على فراش النبيّ فطوته أمّ حبيبة. فلما سأها أبوها: أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها، كان جوابها: هو فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه. قال.

(٩٩٠) السيرة النبويّة لابن هشام : ٢ / ٣٩٠، ومغازي الواقدي: ٧٨٣/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٤٩/١، وتفسير مجمع البيان: ٤٦٨/١٠، وبحار الأنوار: ١٠١/٢١.

(٩٩١) بل مرّ أنّها كانت عشراً فكان أبوسفیان يريد توكيدها وليس تمديدتها.

(٩٩٢) معرفة أبي سفيان بأنّه كان في المدينة لم يكن من خلال بعر راحلته نعم حدث هذا في معركة بدر، وبدر قرية من المدينة. أمّا هنا فاللقاء تمّ في عسفان، وعسفان قرية من مكّة أي بعد أسبوع من خروجهم من المدينة فلا يدل بعر راحلهم على شيء.

أبوسفيان: والله لقد أصابك يا بنيّة بعدي شرّاً! وخرج مغضباً ، فكلم «محمّداً» في العهد وإطالة مدّته، فلم يردّ عليه شيئاً. فكلم أبا بكر ليكلّم له النبيّ فأبى. فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الردّ، وقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ! فوالله لو لم أجد إلاّ الذر لجاهدتكم به. ودخل أبوسفيان على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة، فعرض عليه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول، فأنبأه عليّ في رفق أنّه لا يستطيع أحد أن يردّ «محمّداً» على أمر إذا هو اعتزمه. واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس؛ فقالت : ما يجير أحد على رسول الله. واشتدت الأمور على أبي سفيان ، فاستنصح عليّاً فقال له: «والله ما أعلم شيئاً يُغني عنك شيئاً. لكنك سيّد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثمّ الحق بأرضك؛ وما أظن ذلك مغنياً ولكنّي لا أجد لك غيره»، ذهب أبوسفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنّه أجار بين الناس. ثمّ ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكّة وقلبه يفيض أسىً لما لقي من هوان على يد ابنته، وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكّة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا.

عاد أبوسفيان إلى مكّة، فقصّ على قومه ما لقي بالمدينة وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة عليّ، وأنّ «محمّداً» لم يُجزّ جواره. قال قومه: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. . وعادوا فيما بينهم يتشاورون^(٩٩٣).

أمّا «محمّد» فقد رأى ألاّ يترك لهم الفرصة حتّى يتجهزوا للقاءه. ولئن كان واثقاً من قوّته ومن نصر الله إيّاه، فقد كان يرجو أن ييغت القوم في غرة منهم، فلا يجدوا له دفعاً فيسلموا من غير أن تراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهّز . فلمّا تجهّزوا أعلمهم أنّه سائر إلى مكّة وأمرهم بالجد^(٩٩٤)، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتّى لا تقف من سيرهم على نبأ.

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً أعطاه امرأة من مكّة مولاة لبعض بني عبدالمطلب، وجعل لها جُعلاً على أن تُبلّغه قريشاً ليقفوا على ما أعدّ «محمّد» لهم. وحاطب كان من كبار المسلمين. لكنّ في النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الأحيان عليها وتقوي بها إلى ما لا ترضاه لنفسها. وما لبث «محمّد» أن أحيط بالأمر خُبراً . فسارع فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام فأدركا سارة فاستترلاها فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً. فأنذرها عليّ إن لم تخرج هذا الكتاب ليكشفنّها. فلما رأت المرأة الجدّ منه قالت: أعرض. فأعرض

(٩٩٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٩٥/٢ — ٣٩٧، ومغازي الواقدي: ٧٨٧/٢ — ٧٩٥، وإمتاع الأسماع: ٣٤٩/١ — ٣٥٠، والإرشاد

للمفيد: ١٣٣/١، وبحار الأنوار: ١٢٥/٢١ — ١٢٧ .

(٩٩٤) بل لم يخبرهم حتّى مشارف الحرم.

، فحلّت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب^(٩٩٥) منها. فردّاها إلى المدينة^(٩٩٦)، ودعا «محمد» حاطباً يسأله ما حمله على ذلك . قال حاطب: يا رسول الله ، أما والله إنّي لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدّلت ولكّني كنت امرأً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. قال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فلاضرب عنقه فإنّ الرجل قد نافق. قال رسول الله: وما يُدريك يا عمر لعلّ الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وكان حاطب من أصحاب بدر^(٩٩٧) وإذ ذاك نزل^(٩٩٨) قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ)^(٩٩٩).

وتحرّك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكة ليفتحها وليضع يده على البيت الحرام الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً. تحرّك هذا الجيش في عدد لا عهد للمدينة به. فقد بعثت القبائل من سليم ومزينة وغطفان وغيرها من انضمّ إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم في يَلَب^(١٠٠٠) الحديد يسيلون في فسيح الصحراء، حتّى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شيء. تحرّكوا وأغذّ هؤلاء الألوّف سيرهم وصاروا كلّما تقدموا فيه انضمّ اليهم من سائر القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله . وسار «محمد» على رأسهم وأكبر همّه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يُهريق نقطة دم واحدة. وبلغ الجيش مرّ الظّهان وقد كملت عدّته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر^(١٠٠١)، فهي في جدل مستمر ماذا تصنع لالتقاء عدوّه

(٩٩٥) تفصيل الحدث أن الزبير سأها عن الكتاب، فأنكرته وحلفت أنّه لا شيء معها وبكت ، فقال الزبير : ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لنخبره ببراءة ساحتها، فقال له عليّ: «يخبرني رسول الله أنّ معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها وتقول أنت أنّه لا كتاب معها» ثُمَّ اخترط السيف وتقدّم إليها ، فقال: «أما والله لنن لم تخرجي الكتاب لاكشفنك ثُمَّ لأضربن عنقك». فقالت له: فأعرض بوجهك عني ، فأعرض بوجهه عنها فكشفت قناعها وأخرجت الكتاب من عقيصتها فأخذه عليّ وسار به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. مسند أحمد: ١/١٠٥ و ١٢١، صحيح البخاري: ٨٩/٥، الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٣٤/٢.

(٩٩٦) بل إنّما رجع عليّ (عليه السلام) بكتاها وليس بها نفسها.

(٩٩٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٩٧ — ٣٩٩، ومغازي الواقدي: ٢ / ٧٩٦ — ٧٩٨، طبقات ابن سعد: ١٣٤/٢، وتفسير مجمع البيان: ٩٤٦/٩، وبحار الأنوار: ٩٤/٢١ .

(٩٩٨) تفسير الطبري: ١٢/٥٦، وتفسير مجمع البيان: ٩/٤٤٥، وأسباب النزول للواحدي: ٢٨١ .

(٩٩٩) المتحنة (٦٠): ١ .

(١٠٠٠) يَلَب، اليلب، الدروع اليمانية.

(١٠٠١) مغازي الواقدي: ٢ / ٧٩٩ — ٨٠٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٠٠، والطبقات الكبرى: ١٣٤/٢ — ١٣٥، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ١ / ٢١٩، وبحار الأنوار: ١٢٧/٢١.

«محمد» عليها. أما العباس بن عبدالمطلب عم النبي فقد تركهم في جدهم وخرج في أهله حتى لقي «محمدًا» بالجحفة. ولعل طائفة من بني هاشم كانت نبأ أو شبهه من خروج النبي، فأرادت أن تلحق به دون أن

يصيبها أذى. فقد خرج سوى العباس أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم النبي، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عمته، حتى اتصلا بجيش المسلمين وهو بنيق العقاب فاستأذنا على النبي. فرفض أن يأذن لهما، وقال لزوجيه أم سلمة حين كلمته في أمرهما: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء؛ وأما ابن عمي وصهري فقد قال بمكة ما قال. وبلغ أباسفيان (ابن الحارث) هذا الكلام فقال: والله ليؤذنين لي أو لآخذن بيد بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فرق «محمد» ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما^(١٠٢).

ورأى العباس بن عبدالمطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوته ما راعه وأزعجه. ولئن كان قد أسلم فإن ذلك لم يخل قلبه من خشية ما يحل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذي لا قبل لقوة في بلاد العرب به. أوليس قد ترك مكة لأمره، أو ليومين أو ثلاثة أيام مضت، وله بها من الأهل والخلان والأصدقاء ما لم يقطع الإسلام الذي اعتنق منذ ساعة من وشائج! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله: ما يصنع إذا طلبت قريش أمانه؟ ولعل ابن أخيه سر بمفاتحة العباس إياه في هذا، ورجا أن يتخذ منه سفيراً يلقي في قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دمًا، وتظل مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون. وجلس العباس على بغلة النبي البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك، لعله يجد حطاباً أو صاحب لبن أو أي إنسان ذاهباً إلى مكة، يحمله إلى أهلها رسالة بقوة المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكانت قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون من الظهران (على أربع فراسخ من مكة) تشعر بأن خطراً يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام قريب خديجة يتنطسون الأخبار ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحس قلوبها. وإن العباس ليسير على بغلة النبي البيضاء إذ سمع حديثاً بين أبي سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء كذلك يجري:

أبوسفیان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكر.

بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب.

(١٠٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٠٠، ومغازي الواقدي: ٨١٠/٢ — ٨١٢، وإمتاع الأسماع: ٣٥٦/١ — ٣٥٧ وتفسير مجمع البيان:

٤٧٠/١٠، وبحار الأنوار: ١٠٢/٢١ — ١٠٣.

أبوسفيان: خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وعرف العباس صوت أبي سفيان فناداه بكيتته، قائلاً: أبا حنظلة ، وأجاب أبوسفيان بدوره: أبا الفضل. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في الناس. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة! قال أبوسفيان: فما الحيلة فداك أبي وأُمّي؟ فأركبه العباس في عَجَز البغلة وردّ صاحبيه إلى مكة وسار به، والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرّ بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لئلا يلقى الرعب في قلب مكة وأهلها. فلما مرّت بنار عمر ابن الخطاب ورآها ، عرف أباسفيان وأدرك أنّ العباس يريد أن يُجيره ، فأسرع إلى خيمة النبيّ وطلب إليه أن يضرب عنقه. قال العباس: إني يا رسول الله قد أجرتك. إزاء هذا الموقف في تلك الساعة من الليل وبعد مناقشة لا تخلوا من حدة بين العباس وعمر، قال «محمد»: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به». فلما كان الصباح وجيء بأبي سفيان في حضرة النبيّ وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحوار الآتي:

النبيّ: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّه لا إله إلا الله!

أبوسفيان: بأبي أنت وأُمّي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعدُ.

النبيّ: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله!

أبوسفيان: بأبي أنت وأُمّي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمّا هذه فإنّ في النفس منها حتّى الآن شيئاً.

فتدخل العباس موجّهاً القول إلى أبي سفيان أن يُسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقه. ولم يجد أبوسفيان أمام هذا إلا أن يُسلم. فتوجّه العباس بالقول إلى النبيّ (عليه السلام) : يا رسول الله، إنّ أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال رسول الله: «نعم ! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» (١٠٠٣).

هذه الوقائع واردة عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السيرة جميعاً. إلا أنّ بعضهم يتساءل: أهى قد حدثت كلّها بمحض المصادفة؟ فخرج العباس إلى النبيّ كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة

(١٠٠٣) المغازي للواقدي: ٨١٦/٢ — ٨١٨، والسيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٢/٢ — ٤٠٣، وعيون الأثر: ٢١٨/٢، وتفسير مجمع البيان:

٤٧٠/١، ومناقب آل أبي طالب: ١٧٨/١، وبحار الأنوار: ١٠٣/٢١ — ١٠٤. وعليه فلم يدع رسول الله لأبي سفيان فخراً خاصاً بعد أن

خير المستأمنين بين دُورهم ودار أبي سفيان فلا فرق!

فإذا هو يلقي جيوش المسلمين بالجحفة؛ وخروج بديل بن ورقاء مع أبي سفيان بن حرب كان لحض الاستطلاع، مع أن بديلاً ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصّ على النبي ما لقيت خزاعة وعرف من النبي أنه ناصرهما؛ وخروج أبي سفيان كان على جهل منه بأن «محمدًا» قد سار ليغزو مكة؟! أم أن شيئاً من التفاهم ، قليلاً أو كثيراً كان قد حدث قبل ذلك، وأن هذا التفاهم هو الذي أخرج العباس للقاء «محمدًا»، وأن هذا التفاهم هو الذي جمع بين العباس وأبي سفيان، وأن أبا سفيان كان قد وثق، منذ ذهب إلى المدينة ليمدّ في عهد الحديبية ورجع صفر اليتين، موقناً بأن لا سبيل لقريش إلى ردّ «محمدًا»، وأيقن أنه إذا مهّد للفتح السبيل فستبقى له رئاسته في مكة ومقامه الكبير فيها، وأن الذي ربّما كان وقع عليه التفاهم من ذلك لم يتعد «محمدًا» والأشخاص الذين يعينهم الأمر، بدليل ما همّ به عمر من قتل أبي سفيان؟! من المغامرة أن نحكم . لكننا نستطيع أن نقرّر مطمئنة نفوسنا أنه سواء أكانت المصادفة هي التي سافت ذلك كله أم أن شيئاً من التفاهم قد وقع عليه، فالحالان تدلان على دقة «محمد» ومهارته في كسب أكبر موقعة في تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء.

ثم إن ذلك لم يحدّ «محمدًا» عن أن يتخذ لدخول مكة كلّ ما لديه من أهبة وحذر. وإذا كان النصر بيد الله يؤتاه من يشاء، فإن الله لا يؤتي النصر إلا من أعدّ له كلّ عدته، واحتاط لكلّ دقيقة وجليّة قد تقف في سبيله. لذلك أمر أن يُحبس أبوسفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة، حتّى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ليحدّث قومه بها عن بينة، ولكي لا يكون في اسرعه إليهم خيفة مقاومة من أي نوع تكون. ومَرّت القبائل بأبي سفيان، فما راعه منها إلاّ الكتيبة الخضراء يحيط بـ «محمد» فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلاّ الحدق من الحديد. فلمّا عرف أبوسفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بمؤلاء قبل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً^(١٠٠٤). ثمّ انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا «محمد» قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن^(١٠٠٥).

(١٠٠٤) وجاء في تاريخ الطبري: أن العباس عمّ النبي قد أحابه بالقول: وبحك! إنها النبوة، فقال: نعم إذا، فقلت: الحق الآن بقومك، فحدّهم..

(١٠٠٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٠٢ — ٤٠٤، المغازي للواقدي: ٨٢٢/٢، وتاريخ الطبري: ١٥٨/٢، وإعلام الوري بأعلام الهدى:

وسار «محمد» في الجيش، حتّى إذا انتهى إلى ذي طوى ورأى من هناك مكّة لا تقاوم استوقف كتابه ووقف على راحلته وانحنى لله شاكرًا، أن فتح الله عليه مهبط الوحي ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمون آمنين مطمئنين^(١٠٠٦). وفيما هو كذلك طلب أبو قحافة، ولم يكن قد أسلم كابنه، إلى حفيده له أن تظهر به على أبي قبيس، وقد كان كُفّ بصره. فلمّا ارتقت فوق الجبل سألها ما ترى؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. ثمّ قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكّة، فأسرعي بي إلى بيتي. فترلت وإياه فلم يصل إلى بيته حتّى كانت الخيل قد زحفت وتلقته قبل بلوغه إيّاه^(١٠٠٧).

شكر «محمد» الله أن فتح عليه مكّة، ولكنّه ظل مع ذلك متخذاً حذره. فقد أمر أن يفرّق الجيش أربع فرق. وأمرها جميعاً ألاّ تقاتل وألاّ تسفك دمًا إلاّ إذا أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت إليه اضطراراً. وجعل الزبير بن العوّام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكّة من شمالها، وجعل خالد ابن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكّة، وجعل سعد بن عباد على أهل المدينة ليدخلوا مكّة من جانبها الغربي^(١٠٠٨). أمّا أبو عبيدة بن الجراح فجعله «محمد» على المهاجرين وسار وإياهم ليدخلوا مكّة من أعلاها في حذاء جبل هند^(١٠٠٩). وفيما هم يتأهبّون سمع بعضهم سعد بن عباد يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمة، وفي ذلك من نقض أمر النبيّ ألاّ يقتل المسلمون من أهل مكّة ما فيه. لذلك رأى النبيّ حين بلغه ما قاله سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس^(١٠١٠)، وكان رجلاً ضخماً لكنّه كان أهدأ من أبيه أعصاباً^(١٠١١).

دخلت الجيوش مكّة فلم يلق منها مقاومة إلاّ جيش خالد بن الوليد. فقد كان يقيم في هذا الحي من أسفل مكّة أشدّ قریش عداوة لـ «محمد»، ومن اشتركوا مع بني بكر في نقض عهد الحديبية بالغارة على خزاعة، هؤلاء لم يُرضهم ما نادى به أبو سفيان بل أعدّوا عدّتهم للقتال وأعدّ

(١٠٠٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٠٥/٢، والمغازي للواقدي: ٨٢٤/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٨٤/١.

(١٠٠٧) المغازي للواقدي: ٨٢٤/٢.

(١٠٠٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٠٦/٢، والمغازي للواقدي: ٨٢٥/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٥/٢ — ١٣٦، وبحار الأنوار: ١٠٥/٢١.

(١٠٠٩) تاريخ الطبري: ١٥٩/٢.

(١٠١٠) في رواية الطبري: ٣٣٤/٢ فسمعا رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عباد وما نأمن أن تكون له في قریش صولة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعليّ بن أبي طالب (عليه السلام): أدركه فخذ الراية فكن أنت الذي تدخل بها.

(١٠١١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٠٦/٢ — ٤٠٧، وتاريخ الطبري: ١٥٩/٢، وتاريخ الخميس: ٨٢/٢، الإرشاد للمفيد: ٦٢/١، ومناقب

آل أبي طالب: ١٧٩/١، وبحار الأنوار: ١٣٠/٢١.

آخرون منهم عُدَّتْهم للفرار، وقام على رأسهم صفوان وسهيل وعكرمة بن أبي جهل. فلما دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم. لكنَّ خالدًا لم يلبث أن فرَّقهم ولم يقتل من رجاله إلاَّ اثنان ضلَّا طريقهما وانفصلا عنه. أمَّا قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلاً في رواية، وثمانية وعشرون في رواية أخرى. ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة أن رأوا الدائرة تدور عليهم حتَّى ولَّوا الأدبار تاركين وراءهم مَنْ حرَّضوهم على المقاومة يَصْلُونُ بِأس خالد وبطش أبطاله معه. وفيما «محمَّد» على رأس المهاجرين يرقى مرتفعاً يترل منه إلى مكَّة مطمئن النفس لفتحها في سكيئة وسلم، بصر بأَم القرى وبما فيها جميعاً، وبصر بتلماع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجوهم. هناك أسف وصاح مغضباً يذكر أمره ألاَّ يكون قتال. فلما علم بما كان، ذكر أن الحيرة فيما اختاره الله^(١٠١٢).

ونزل النبيُّ بأعلى مكَّة قُبالة جبل هند، وهناك ضُربت له قبة على مقربة من قبري أبي طالب وخديجة، وسئل: هل يريد أن يستريح في بيته؟ فأجاب: كلا! فما تركوا لي بمكَّة بيتاً^(١٠١٣). ودخل إلى القبة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد به عزيزاً منتصراً إلى البلد الذي آذاه وعذَّبه وأخرجه من بين أهله ودياره. وأجال بصره في الوادي وفي الجبال المحيطة به. في هذه الجبال التي كان يأوي إلى شعابها حين يشتدَّ به أذى قريش وتشتد به قطيعتها. في هذه الجبال ومن بينها حراء حيث كان يتحنَّت حتَّى نزل عليه الوحي أن: (اقْرَأْ بِإِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)^(١٠١٤). أجال بصره في هذه الجبال وفي الوادي مبعثرة منازل مكَّة فيه يتوسَّطها البيت الحرام، فبلغ من خضوعه لله أن تفرقت في عينه دمة إسلام وشكر وإذعان للحق لا حقَّ إلاَّ هو، إليه يرجع الأمر كله. وشعر ساعته أن مهمة القائد قد انتهت. فلم يُقم بالقبة طويلاً، بل خرج وامتنى ناقته القصوى وسار بها حتَّى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف «محمَّد» على بابها وتكاثر الناس في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)^(١٠١٥). ثُمَّ سألهم: يا معشر

(١٠١٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٠٧ — ٤٠٨، المغازي للواقدي: ٢ / ٨٢٥ — ٨٢٦، والطبقات الكبرى: ١٣٦/٢.

(١٠١٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٠٧، والمغازي للواقدي: ٢ / ٨٢٩، والطبقات الكبرى: ١٣٦/٢. بل قال: وهل ترك عقيل لنا منزلاً؟!

(١٠١٤) العلق (٩٦): ١ — ٥.

(١٠١٥) الحجرات (٤٩): ١٣.

قريش، ما ترون آتي فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم! قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء^(١٠١٦). وهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً.

ما أجمل العفو عند المقدرة! ما أعظم هذه النفس التي سمت كل السموم فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان. هؤلاء قريش يعرف «محمد» منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومن عذبوه وأصحابه من قبل ذلك، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد، ومن حصروه في غزوة الخندق ومن ألّبوا عليه العرب جميعاً ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرباً إرباً لما ونوا عن ذلك لحظة! هؤلاء قريش في قبضة «محمد» وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر! لكن «محمداً»! لكن النبي! لكن رسول الله ليس بالرجل الذي يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبار ولا هو بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوه، فقدّر فعفاً، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلاً في البر والوفاء بالعهد وفي سمو النفس سموً لا يبلغه أحد.

ودخل «محمد» الكعبة فرأى جدرانها صوّرت عليها الملائكة والنبون، ورأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض. أما صورة إبراهيم فنظر «محمد» إليها ملياً وقال: قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام. ما شأن إبراهيم والأزلام! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. أما الملائكة الذين صوّروا نساء ذوات جمال فقد أنكر «محمد» صورهم أن ليست الملائكة ذكوراً ولا إناثاً ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست. وكان حول الكعبة الأصنام التي كانت تعبدتها قريش من دون الله قد شذت إلى جدرانها بالرصاص، كما كان هبل داخل الكعبة، فجعل «محمد» يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب في يده^(١٠١٧) وهو يقول: (وَقُلْ جَاءَ

(١٠١٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤١١ — ٤١٢، والمغازي للواقدي: ٢ / ٨٣١ و ٨٣٥، وتاريخ الطبري: ١٦١/٢، ومناقب آل أبي طالب: ١٨٠/١، وتفسير مجمع البيان: ٤٧٢/١٠، وبحار الأنوار: ١٠٦/٢١.

(١٠١٧) ينقل لنا الإمام علي بن أبي طالب مسألة إلقاء الأصنام وتكسيها وتطهير البيت الحرام منها: وقد تحاشى المؤلف ذكرها — بقوله (عليه السلام): انطلق بي رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى كسر الأصنام، فقال لي: اجلس، فجلست إلى جنب الكعبة، ثم صعد الرسول على منكي، فقال لي: انفض بي، فنهضت به، فلما رأى ضعفي تحته، قال: اجلس، فجلست ونزل عني، وقال: يا علي اصعد على منكي فصعدت على منكبيه، ثم نهض بي حتى خيل لي أن لو شئت نلت السماء، وصعدت على الكعبة... فألقيت الصنم الأكبر وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد، فقال (صلى الله عليه وآله): عاجله فلم أزل أعاجله ورسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: إيه إيه، حتى قلعت، فقال: دقه، فدقته وكسرتة ونزلت. المستدرك على الصحيحين: ٣٦٧/٢ و ٥/٣. وروى ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ٣٤ مثله، وينابيع المودة للقندوزي: ٢٥٤.

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^(١٠١٨). وأُلقيت الأصنام لوجوهها وظهورها، وطُهر البيت الحرام بذلك منها^(١٠١٩). وأتمَّ «محمد» بذلك في أوّل يوم لفتح مكّة ما دعا إليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكّة أشدّ الحرب فيه. أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها. لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرراً.

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كلّ، ورأوا «محمدًا» يقوم على الصفا ويدعو، فخيّل إليهم أنّه تارك المدينة إلى وطنه الأوّل وقد فتحه الله عليه. وقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟! ولعلّهم كانوا على حقّ في مخاوفهم. فهذا رسول الله، وبمكّة البيت الحرام بيت الله، وبمكّة المسجد الحرام. لكنّ «محمدًا» ما لبث أن أتمّ دعاءه حتّى سأله: ما قالوا؟ فلمّا عرف بعد تردّد منهم مخافتهم قال: معاذ الله! المحيا مَحْيَاكم والممات مَمَاتكم^(١٠٢٠). فضرب بذلك للناس مثلاً في البرّ بعهدده في بيعة العقبة، وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه، برّاً ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكّة البلد الحرام.

ولما أن طُهرت الكعبة من أصنامها، أمر النبيّ بلالاً فأذّن فوقها^(١٠٢١) وصلى الناس بإمامة «محمد». ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر، مدى أربعة عشر قرناً مضت لا تنقطع، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كلّ يوم خمس مرات من فوق مسجد مكّة. ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذ يؤدّي المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله، متوجّهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبليين هذا البيت الحرام الذي طهره «محمد» يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعن قريش لما حلّ بها واطمأنت لعفو «محمد» عنها وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلّها الدهش والاعجاب بمازجها الخوف والحذر. لكنّ طائفة منها عدّها سبعة عشر رجلاً^(١٠٢٢)، كان «محمد» قد استثناهما من رحمته وأمر ساعة دخول مكّة أن يقتل رجالها ولو

(١٠١٨) الإسراء (١٧): ٨١ .

(١٠١٩) سيرة ابن هشام: ٢ / ٤١٣ و ٤١٦، والمغازي للواقدي: ٨٣٢/٢ و ٨٤٤، والسيرة الحلبية: ٨٥/٣ — ٨٧، وتفسير مجمع البيان:

١٠٤٧/٣، والإرشاد للمفيد: ١٣٨/١، والخرائج والجرائح: ٩٧/١، وبحار الأنوار: ١٠٦/٢١ و ١١٧ .

(١٠٢٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤١٦، وتاريخ الخميس: ٨٩/٢، والسيرة الحلبية: ٩٠/٣ .

(١٠٢١) المغازي للواقدي: ٨٤٦/٢، وتاريخ يعقوبي: ٦٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٧/٢ .

(١٠٢٢) بل ستة بلا عشر، أربعة رجال و امرأتين، وانظر وقارن ، الإرشاد للمفيد: ١٣٦/١، السنن الكبرى للبيهقي: ٢٠٢/٨ و ٢٠٥، المستدرک

للحاكم: ٥٤/٢ .

وُجدوا متعلّقين بأستار الكعبة^(١٠٢٣)، كان قد فضّل بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار. ولم يكن قرار «محمد» قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم؛ فهو لم يكن يعرف الحقد؛ ولكن لجرائم عظمى ارتكبوها. فأحدهم عبدالله بن أبي السرح كان قد أسلم وكان يكتب لـ «محمد» الوحي، فارتدّ مشركاً إلى قريش زاعماً أنّه كان يزيف الوحي حين يكتبه. وعبدالله بن خطل كان قد أسلم ثمّ قتل مولى له وارتدّ مشركاً وأمر جاريته فرّتنا وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجاء «محمد» فأمر بقتلهما معه، وعكرمة بن أبي جهل وكان من أشدّ الناس لَدَدًا في خصومة «محمد» والمسلمين خصومة لم تهدأ حتّى بعد فتح مكّة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها. أمر «محمد» بعد دخول مكّة ألاّ يسفك بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة. لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرّ منهم من فر. فلمّا استقرّ الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا. طمع بعض أصحابه في أن يعفو حتّى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقتلوا. فقام عثمان بن عفّان، وكان أخا ابن أبي السرح للرضاعة، حتّى أتى به النبيّ فاستأمن له؛ فصمت «محمد» طويلاً ثمّ قال: نعم، وأمنه. وأسلمت أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل الذي فرّ إلى اليمن واستأمنت له «محمدًا» فأمنه، فخرجت في طلبه وجاءت به. وعفا «محمد» كذلك عن صفوان بن أميّة وكان قد سحب عكرمة في فراره إلى ناحية البحر يستقلّنه إلى اليمن، فجيء بهما والسفينة التي تحملهما على أهبة إقلاعها. وعفا «محمد» كذلك عن هند زوج أبي سفيان التي مضت كبذ حمزة عمّ الرسول بعد استشهادها في أحد، كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم. ولم يقتل منهم إلّا أربعة منهم الحويرث^(١٠٢٤) الذي أغرى على زينب بنت النبيّ حين رجوعها من مكّة إلى المدينة، ورجلان أسلما ثمّ ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرّا راجعين إلى مكّة مرتدين إلى الشرك وقينة^(١٠٢٥) ابن خطل التي كانت تؤذي النبيّ بغنائها^(١٠٢٦).

وفي غداة يوم الفتح عثرت خُزاعة على رجل من هُذيل وهو مشرك فقتلوه. فغضب النبيّ وقام في الناس خطيباً فقال: «يا أيّها الناس، إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحلّ لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها

(١٠٢٣) وانتقاماً ومقابلة بالمثل أمر يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص الأموي بقتل الحسين(عليه السلام) أينما وجده ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة، وعلم الحسين(عليه السلام) بذلك فعزم على الخروج من مكّة، فحاول منعه ابن الزبير فحدّثه عن أبيه عن جدّه رسول الله قال: وإنّ بها كبشاً به يستحلّ حرمتها، فلا أريد أن أكون ذلك الكبش، انظر وقعة الطف لأبي مخنف.

(١٠٢٤) بل هو هبار بن الأسود، نيل الأوطار للشوكاني: ٧٥/٨، بحار الأنوار: ٣٥١/١٩، الاستيعاب المطبوع بهامش الإصابة: ٦٠٩/٣، فتح الباري: ١٠٤/٦.

(١٠٢٥) القين والقينة: العبد والأمة، وجرى في العامة أنّ القينة: المغنية. كتاب العين: ٢١٩/٥.

(١٠٢٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٤٠٩ — ٨١١، المغازي للواقدي: ٨٤٧/٢ — ٨٦٣، والسيرة الحلبية: ٨١/٣ — ٨٢، تفسير مجمع البيان: ٤٧٢/١٠، وبحار الأنوار: ١٠٥/٢١.

دماً أو يعضد فيها شجراً. لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها. ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة. ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأديبته. فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير المنظرين، إن شاءوا قدم قاتله وإن شاءوا فعقله». ثم ودّى بعد ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة^(١٠٢٧). وبهذا

الخطاب وبتصرفه الذي زاد على السماحة والعفو أمس، كسب «محمد» قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدرّون، فأقبلوا على الإسلام، ونادى مناد فيهم: «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنماً إلا حطّمه»^(١٠٢٨). ثم بعث جماعة من خزاعة ليصلحوا من العمد الخيطة بالبلد الحرام، فما دلّ أهل مكة على ما لها في نفسه من القداسة وما زادهم له حباً. فلما أخبرهم أنّهم خير أمة أخرجت للناس، وآتاه ما كان لتركهم أو يعدل بهم ناساً لولا أنّهم أخرجوه، بلغ تعلّقهم به غاية حدوده. وجاء أبو بكر بأبيه الذي ارتقى قُبَيْساً يوم الزحف يقوده حتّى وقف بين يدي النبي. فلما رآه «محمد» قال: هلاً تركت الشيخ مكانه حتّى أكون أنا آتية فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت^(١٠٢٩). فأجلس النبي الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له: اسلم. فحسن إسلامه^(١٠٣٠). وكذلك أسرت أخلاق النبوة السامية هذا الشعب الذي كان ثائراً على «محمد» أشدّ الثورة، والذي أصبح اليوم يحلّه ويقدّسه. وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساء وبايعت.

وأقام «محمد» بمكة خمسة عشر يوماً^(١٠٣١) ينظّم خلالها شؤون مكة ويفقه أهلها في الدين. وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال، ولتخطيط الأصنام^(١٠٣٢) من غير سفك للدماء. وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نخلة ليهدم العُزَيّ وكانت لبني شيبان^(١٠٣٣).

(١٠٢٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٤١٤ / ٢ — ٤١٥، والمغازي للواقدي: ٨٤٣/٢ — ٨٤٤، والسيرة الحلبية: ١٠٣/٣.

(١٠٢٨) المغازي للواقدي: ٨٧٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٧/٢.

(١٠٢٩) هذا الكلام ناتج عن معايير لم تكن معهودة في العقيدة، فلا يُكرم المرء الكافر تكريماً لولده المسلم، لأنّ الأصالة والتقدم والأفضلية على أساس الإيمان والتقوى لا على أساس الحسب والنسب كما هي قيم الجاهلية، وعلى فرض أنّ النبي قد كرم كافراً يريد الدخول في الإسلام فلا ينسحب هذا التكرّم للابن المسلم، نعم لو قبلنا الرواية فهي لا تنحصر التكرّم بعلّة واحدة فقد يكون للنبي غايات أخرى كانت هي مورداً لفعل النبي (صلى الله عليه وآله)، ولذا لا يجوز لنا تفسير فعله (صلى الله عليه وآله) تحت عناوين تنتقيها نحن.

(١٠٣٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٦ / ٢.

(١٠٣١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٣٧/٢.

(١٠٣٢) الطبقات الكبرى: ١٣٧/٢.

(١٠٣٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٣٦/٢ — ٤٣٧، وبحار الأنوار: ١٤٥/٢١.

فلما هدمها خرج إلى جُذيمة، فلما رآه القوم أخذوا السلاح؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإنّ الناس قد أسلموا.

قال رجل من جُذيمة لقومه : ويلكم يا بني جُذيمة! إنّه خالد. والله ما بعد وضع السلاح إلّا الإسار، وما بعد الإسار إلّا ضرب الأعناق. قال له قومه: أتريد أن تسفك دماءنا! إنّ الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس. وما زالوا به حتّى وضع سلاحه. عند ذلك أمر بهم خالد فغلّوا ثمّ عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم^(١٠٣٤). فلما انتهى الخبر إلى النبيّ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللّهمّ إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد». ثمّ بعث إليهم عليّ بن أبي طالب وقال له: «أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». وخرج عليّ ومعه مال أعطاه النبيّ إيّاه. فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعمّا أصيب من الأموال، حتّى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلّا وداه، أعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله ممّا لا يعلم^(١٠٣٥).

(١٠٣٤) فعل خالد بن الوليد مع بني خزيمه وقتلهم بعد إسلامهم نقلته الكتب المعتمدة منها: صحيح البخاري: ١٠٧/٥ باب بعث النبيّ خالد إلى بني خزيمه ومسنّد أحمد: ١٥٠/٢ نقله عن ابن عمر والنسائي في صحيحه: ٢ / باب الردّ على الحاكم إذا قضى بغير حقّ، وفتح الباري: ٤٦/٨ والطبقات الكبرى: ١٠٦/٢.

والروايات تؤكّد بأنّ خالداً قتلهم لئلاّ جاهلي، وقد اعترض عليه عبدالرحمن بن عوف وجرى بينهما كلام فسبّ عبدالرحمن فغضب النبيّ وجاء ذلك في أسد الغابة لابن الأثير: ٩٤/٢ ترجمة خالد.

وأصرّح من الرواية السابقة بأمر جاهلية خالد ما رواه المتقي عن سلمة بن الأكوع أنّه قال: لما قدم خالد بن الوليد على النبيّ (صلى الله عليه وآله) بعدما صنع ببني خزيمه ما صنع غاب عبدالرحمن بن عوف على خالد ما صنع قال: ياخالد أخذت بأمر الجاهلية، قتلتهم بعمك الفاكه، قاتلك الله.

وأعانه عمر بن الخطّاب على خالد فقال خالد: أخذتهم بقتل أبيك فقال عبدالرحمن: كذبت والله لقد قتلت قاتل أبي بيدي واشهدت على قتله عثمان بن عفّان، ثمّ التفت إلى عثمان فقال:

انشدك الله هل علمت أنّي قتلت قاتل أبي؟ فقال عثمان: اللّهمّ نعم، ثمّ قال عبدالرحمن: ويحك يا خالد ولو لم اقتل قاتل أبي كنت تقتل قوماً من المسلمين بأبي في الجاهلية. قال: وأخبرك أنّهم أسلموا؟ فقال: من أهل السرية كلّهم يخبرون أنّك وجدتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ثمّ حملتهم على سيف قال: جاءني أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن غر عليهم فأغررت عليهم بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال عبدالرحمن: كذبت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وغازي عبدالرحمن وأعرض رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن خالد وغضب عليه قال: أخرجه المغازي للواقدي: ٨٨١/٣ وابن عساكر، وكتر العمّال: ٤٢٠/٦ ط. حيدر آباد — الهند.

وتصرفات خالد ومخالفته لتعاليم الإسلام تحدّثت عنها عدة من الروايات:

منها: ما روي أنّ خالداً قد سبّ عمّاراً.

وذلك أنّ عمّار بن ياسر كان قد اعترض على خالد لأنّه قتل رجلاً قد أسلم على يد عمّار فحدث شجار بينهما انتهى بسبّ عمّار، فشكى عمّار ذلك إلى رسول الله فقال (صلى الله عليه وآله): «من سبّ عمّاراً سيّئه الله».

راجع المستدرک على الصحيحين: ٣٨٩/٣ — ٣٩٠، ومسنّد أحمد: ٨٩/٤، وكتر العمّال: ٧٣/٧.

ومنها: أنّ خالداً قتل مالك بن نورية وهو مسلم ودخل بزوجه ليلة قتله. راجع تاريخ الأمم والملوك: ٥٠٢/٢، والإصابة: ١ / ١ ق / ٤١٤ — ٤١٥، والطبقات الكبرى: ٧ / ٢ ق / ١٢٠.

(١٠٣٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٤٢٨ — ٤٣٠، والمغازي للواقدي: ٨٧٥/٢ — ٨٨٢، وتاريخ الطبري: ١٦٤/٢، وشرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي: ٣٠٩/١، وعلل الشرائع للصدوق: ٤٧٤/٢، وبحار الأنوار: ١٣٩/٢١.

وفي الأسبوعين اللذين أقام «محمد» بمكة عفى على كل آثار الوثنية فيها، لم ينتقل منها إلى الإسلام إلا سيدانة الكعبة أقرّها في عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم، وسقاية الحاج من زمزم جعلها لعمّه العباس وكذلك آمنت أم القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه، وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضاء^(١٠٣٦).

* * *

الفصل الخامس والعشرون

حنين والطائف

تألب هوازن وثقيف بإمرة مالك بن عوف، تحصّنهم بمضيق وادي حنين، خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم، دخول المسلمين من مضيق الوادي في عماية الصبح، ضرب هوازن وثقيف إيّاهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين، ثبات «محمد» إلى الموت، صياح العباس بالمسلمين كي يعودوا، عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم الفيء، المسير إلى الطائف، حصارها وعدم إمكان اقتحامها، تحريق نخيلها، استرحامها النبي، رجوعه من الحصار، اسلام هوازن، حديث الشيماء، العود إلى الجعرانة وقسمة الفيء، العمرة، العود إلى المدينة.

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إيّاها فرحين بنصر الله إيّاهم، مغتبطين أن لم يسفك في هذا النصر العظيم إلاّ الدم القليل، مسارعين إلى البيت الحرام كلّما أذن بلال بالصلاة، متجمهرين حول رسول الله حيث أقام وأتى ذهب، يغشى المهاجرون منهم دورهم ويتصلون بأهليهم الذين هدى الله بعد الفتح؛ ونفوسهم جميعاً مطمئنة إلى أن الأمر قد استقرّ للإسلام وأنّ الجانب الأكبر من الجهاد قد كلّل بالفوز والظفر. وإنّهم لذلك بعد خمسة عشر يوماً من مقامهم بأّم القرى، إذ ترامت إليهم أنباء أيقظت استناباتهم للغبطة، تلك أنّ هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقي في جبال هناك. فلمّا علمت بما تمّ للمسلمين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها، خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها، ففكرت فيما تصنع لالتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع، ولصدّ «محمد» والكفّ من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمّها كلّها في وحدة تربطها. لذلك جمع مالك بن عوف التّضري، هوازن وثقيفاً، كما

اجتمعت نضر وجُشم، ولم يتخلف عن الاجتماع من هوازن إلا كعب وكِلاب. وكان في جُشم دُرَيْد بن الصَّمَّة ، وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا نفع منه في الحرب، ولكَئِنا الانتفاع برأيه بعد الذي عرَّكه على السنين في مواقعها. وكذلك اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أموالها ونساؤها وأبنائها، وتمَّ جمعها حين نزلت سهل أوطاس . فلَمَّا سمع دُرَيْد رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وتُغَاء الشاة سأل مالك بن عوف: لِمَ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم؟ فلَمَّا أجابه مالك بأنَّه إنَّما أراد أن يشجَّع بها المحاربين، قال دريد: وهل يردُّ المنهزم شيء! إنَّها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجل بسيفه ورمحه؛ وإن كان عليك فُضِّحت في أهلك ومالك. واختلف مالك وإيَّاه. وتبع الناس مالكا، وكان شاباً في الثلاثين من عمره قويُّ الارادة ماضي العزيمة، وتابعهم دريد ما يردُّ لهم — رغم سابقته في الحرب — رأياً. وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قمم حنين وعند مضيق الوادي. فاذا نزل المسلمون واديه فليشدوا عليهم شدة رجل واحد تضعض صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضاً وتدور عليهم الهزيمة ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة. ويبقى لقبائل حنين في بلاد العرب جميعاً فخار النصر على هذه القوة التي تريد أن تُظَلَّ بسطانها بلاد العرب جميعاً. وصدعت القبائل بأمر مالك وتحصنت بمضيق الوادي^(١٠٣٧).

أما المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مُقامهم بمكة وعلى رأسهم «محمد» في عُدَّة وعديد لم يكن لهم من قبل بما عهد قط. ساروا في اثني عشر ألفاً من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها، وألفان ممن أسلم من قريش وبينهم أبوسفیان بن حرب، وكلَّهم تلمع دروعهم، وفي مقدمتهم الفرسان والإبل تحمل الميرة والذخيرة. سار المسلمون في هذا الجيش الذي لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله، يتقدَّم كلَّ قبيلة علَّمها ، وتمتلى النفوس كلَّها إعجاباً بهذه الكثرة وبأن لا غالب اليوم لها، حتَّى لقد تحدَّث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون: لن نغلب اليوم لكثرتنا. وساروا حتَّى بلغوا حنيناً والمساء يُقبل، فترلوا على أبواب واديهما وأقاموا بها حتَّى بُكرة الفجر^(١٠٣٨). هنالك تحرك الجيش ، وركب «محمد» بغلته البيضاء في مؤخرته ، على

(١٠٣٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٣٧/٢ — ٤٣٩، والمغازي للواقدي: ٨٨٥/٢ — ٨٨٨ و ٨٩٢، والسيرة الحلبية: ١٠٥/٣ — ١٠٧،

وتفسير القمّي: ٢٨٦/١، وتفسير مجمع البيان: ٣٤/٥، وبحار الأنوار: ١٤٧/٢١ — ١٤٩.

(١٠٣٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٤٠/٢، والمغازي للواقدي: ٨٨٩/٢ — ٨٩٠ و ٨٩٢، والطبقات الكبرى: ١٥٠/٢، والإرشاد للمفيد:

١٤٠/١، وبحار الأنوار: ١٤٩/٢١.

حين سار خالد بن الوليد على رأس بني سليم في المقدمة، وانحدروا من مضيق حنين في واد من أودية قحمة. وإنهم لذلك منحطون إلى الوادي إذ شدت عليهم القبائل بإمرة مالك بن عوف شدة رجل واحد وأصلوهم وإبلاً من النبال وهم جميعاً ما يزالون في عماية الفجر. إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفرع منهم كل مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح، وحتى قال أبوسفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش؛ لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري من «محمد»، وكان أبوه قد قُتل في غزوة أحد. وقال كَلْدَة بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم! فردّ عليه أخوه صفوان: اسكت فضّ الله فاك! فوالله لئن يرُبني رجل من قريش أحبّ إلى من أن يرُبني رجل من هوازن. تقع هذه الأحاديث والجيش يضطرب حابله بنابله والنبي في المؤخرة تمرّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مولية الأدبار مهزومة لا تلوي على شيء^(١٠٣٩).

ماذا تراه يصنع؟! أفتضيع توضحيات اثني عشرة سنة في هذه اللحظة من عماية الصبح!! أفتحنّي عنه ربّه وتخلّي عنه نصر الله إياه؟! كلا! كلا! لن يكون هذا! دون هذا تبيد أمم وتغنى أقوام! ودون هذا الموت يدخل «محمد» في غماره لعلّ في الموت لدين الله نصراً. وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. وثبت «محمد» مكانه، وأحاط به جماعة من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته^(١٠٤٠)، وجعل ينادي في الناس إذ يمرون منهزمين: أين أيها الناس أين؟!

(١٠٣٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٣٩ — ٤٤٣، والمغازي للواقدي: ٨٨٩/٢ و ٨٩٣ — ٨٩٧ و ٩٠٩، ٩١٠، وتاريخ الطبري: ١٦٧/٢ — ١٦٨، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٣٠/١، وبحار الأنوار: ١٦٦/٢١.

(١٠٤٠) لقد أحسن المؤلف حيث ذكر أسماء بعض من فرّوا من المعركة ولم يذكر تلك الشخصيات المرموقة التي كانت في عداد الفارين أمثال أبي بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف وخالد بن الوليد وطلحة والزبير وغيرهم كثيرون إذ تركوا النبي (صلى الله عليه وآله) في ساحتها لوحده مع جمع قليل ممن فداه بنفسه ووفّى له.

وهذا الأمر يستدعي ذكر أسماء الجماعة الذين ثبتوا في المعركة، وعدم الاكتفاء بذكر شيء منهم مثل المهاجرين أو الأنصار أو أهل بيته، باعتبار أن التاريخ يفيد الاعتبار وهذا موضع للاقتداء، وذكر الأسماء يمنح الإنسان قدرة على ربط الأحداث لتتجلى في النهاية صور النماذج الذين هم موضع للاقتداء، فإذا كان عليّ (عليه السلام) هو الحامل لرؤية رسول الله في المعارك كلّها، وكانت نتائجها في أكثر الأحيان تُحسم بسيفه، فهذا بنفسه يحمل معنى يغاير ما ينقله التاريخ لنا بأنّ في الصحابة من لم يشارك في معظم المعارك أو أن منهم من كان يفرّ في الساعات الحرجة فيها أو يساهم، إلا أنّها مساهمة جندي عادي، فكلّ هذه الأمور وغيرها لها دلالتها على أي حال، فقد ذكر ابن قتيبة: وكان الذين ثبتوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم حنين بعد هزيمة الناس: عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبدالمطلب وابنه الفضل وأمين بن عبيد، وهو ابن أمّ أيمن مولدة رسول الله وحاضنته وقتل يومئذ، وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وأسامة بن زيد بن حارثة، انظر المعارف لابن قتيبة: ٩٦.

وللمفيد توضيح آخر حيث يقول: لم يبق مع النبيّ إلا عشرة نفر تسعة من بني هاشم خاصة والعاشر أيمن ابن أمّ أيمن، فقتل أيمن وثبت التسعة الهاشميون حتىّ ثاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من كان المهزم، فرجعوا أولاً فأولّ حتىّ تلاحقوا، وكانت لهم الكربة على المشركين وفي

لكنّ الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون إلى شيء ولا يدور بتصورهم إلاّ هوازن وثقيف منحدرتين من معتصمهما بالقيّم تطارداًنهم حتّى تحيّا عليهما؛ ولم يخطئ تصورهم، فقد انحدرت هوازن من مكانها يتقدّمها رجل على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، وهو كلّما أدرك المسلمين طعن برمحه وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرون من ورائه يطعنون^(١٠٤). وثارت بـ «محمد» حمّيته، فأراد أن يندفع ببغلته البيضاء في صدر هذا السيل الدافق من رجال العدو، وليكن بعد ذلك أمر الله، لكنّ أباسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب أمسك بخطام بغلته وحال دون تقدّمها.

وكان العباس بن عبدالمطلب رجلاً جسيماً جهّوري الصوت قويّه، فنادى بما أسمع الناس جميعاً من كلّ فجٍّ: يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا. يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، إنّ «محمدًا» حيٌّ فهلمّوا. وكرّر العباس النداء حتّى تجاوزت في كلّ جنبات الوادي أصداؤه. وهنا كانت المعجزة، سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا «محمدًا» وذكروا عهدهم وشرفهم. وسمع المهاجرون اسم «محمد» فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم. وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة «محمد» وثباته في نفر قليل من المهاجرين والأنصار كشيّاته يوم أحد في وجه هذا العدو الزاحف، وصوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم إياه من تغلب المشركين على

ذلك أنزل الله تعالى قوله: (وَيَوْمَ حُتَيْنَ إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَفَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا).

قال المفيد: يعني بالمؤمنين عليّاً ومن ثبت معه من بني هاشم أو عامة المؤمنين الذين رجعوا بعد الهزيمة وكان رجوعهم بثبات عليٍّ ومن معه. أعيان الشيعة: ٢٧٩/١.

(١٠٤١) الاكتفاء بباراز شخصية في وسط المعركة وتصوير صفاتها من كونه رجلاً من أبطال هوازن يتمنّع بشجاعة فائقة، فكّلما أدرك المسلمين طعن برمحه ويده راية سوداء وله جمل أحمر، كلّ هذه الأمور توحى لأهمية هذا البطل، فمن الطبيعي أن ينجذب الإنسان نحو معرفة مصيره، لأنّ وجوده مؤثر في حسم المعركة وله دخل في نتائجها من حيث الانتصار أو الهزيمة، فإبرازه بقوة وإهمال مصيره بلا سبب يترك في الذهن استفهاماً، وبالتالي يكون دافعاً للبحث عن نتيجته، ولماذا يخشى الكاتب من ذكر مقتل هذا الرجل بسيف عليٍّ (عليه السلام) وإيجاد منعطف خطير في سير المعركة، حيث أعيدت الكرة بعدها لصالح المسلمين.

قال المفيد: وأقبل رجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام القوم، إذا أدرك ظفراً من المسلمين أكبّ عليهم، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه من المشركين فاتبعوه وهو يرتجز ويقول:

أنا أبو جرول لا يراح *** حتّى نبيح القوم أنباح

فصمد له عليٍّ (عليه السلام) فضرب عجزه فصرعه ثمّ ضربه فطره، ثمّ قال:

قد علم القوم لدى الصباح *** أنّي على الهجاء ذو نطاح

فكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جرول ثمّ التأم الناس وصفوا للعدو. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «اللهم إنك أذقت أول قريش نكالاً فاذق آخرها توالاً». الإرشاد: ١٤٣/١، مسند أحمد: ٢٤٢/١.

رسول الله، وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يُدَوِّي في آذانهم وتقتز لأصدائه أوتار قلوبهم. هنالك تصايحوا من كل صوب: لبيك لبيك ! وارتدوا إلى المعركة مستبسلين^(١٠٤٢).

وبدأت «محمد» تعاوده الطمأنينة حين رآهم يعودون. فقد انحدرت هوازن من مكانها وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي. وقد أضاء النهار وطمغى النور على عماية الفجر، واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبروا لهم، وهم يزداد عددهم وتشتد بعودتهم عزائم من خارت من قبل عزائمهم. وجعل الأنصار يتصايحون: يا للأنصار! ثم تنادوا: يا للخزرج. و«محمد» ينظر إلى تناحر القوم؛ حتى إذا رأى الصدام اشتد ورأى رجاله تسمو قلوبهم ويطيحون بخصومهم نادى: الآن حمي الوطيس. إن الله لا يخلف رسوله وعده. ثم طلب إلى العباس فناوله حفنة من الحصى ألقى بها فيوجوه العدو قائلاً: شاهت الوجوه! واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله مؤمنين بأن النصر لا محالة آت، وأن من استشهد منهم فله من هذا النصر أكبر من نصيب من بقي. وكان البلاء شديداً، حتى أن هوازن وثقيف ومن معهم مالبثوا أن رأوا كل مقاومة غير مجدية وأنهم معروضون للفناء عن آخرهم إذ فروا منهزمين لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، الذين أحصوها يومئذ اثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى وادي الجعرانة حيث أووا إلى أن يعود المسلمون من مطاردتهم عدوهم ومن حصار ثقيف بالطائف.

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم. وزادهم إغراءً بهذه المطاردة أن أمر الرسول أن من قتل مشركاً فله سلبه. وأدرك ابن الدُّغْنَة جملاً عليه شجار ظن به امرأة طمع في سلبها، فأناخ الجمل فإذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو دُرَيْد بن الصَّمَّة. وسأل دريد ربيعة: ما يريد به؟ قال: أقتلك، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغن شيئاً. قال دريد: بئس ما سلحتك أملك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرّجل ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فأني كذلك كنت أضرب به الرجال؛ ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دُرَيْد بن الصَّمَّة، فربّ والله يوم قد منعت فيه

(١٠٤٢) المغازي للواقدي: ٨٩٧/٢ — ٨٩٩، وتاريخ الطبري: ١٦٧/٢ — ١٦٨، والسيرة النبوية لابن هشام: ٤٤٢/٢ — ٤٤٣، والإرشاد

للمفيد: ١٤٢/١، وبحار الأنوار: ١٥٠/٢١ — ١٥١ و ١٥٦ — ١٥٧.

نساءك. ولما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره قالت له: «حرق الله يدك! إنما قال ذلك ليدكرنا نعمه عليك. فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات في غداة: أنا وأمي وأم أبيك» (١٠٤٣).

وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاساً، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شرّ هزيمة، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى «محمد». أما مالك بن عوف النَّضري فقد ثبت برهة ثم فرّ وقومه من هوازن حتى افترق عنهم عند نخلة ثم ولّى وجهه نحو الطائف فاحتفى بها (١٠٤٤) (١٠٤٥).

وكذلك كان نصر المسلمين مؤزراً. وكانت هزيمة المشركين تامة بعد ذلك الفرع الذي أصاب المسلمين في عماية الصبح، وحين شدّ المشركون عليهم شدة رجل واحد ضعفت صفوفهم وخلطت حابلهم بنابلهم. كان نصر المسلمين مؤزراً بفضل ثبات «محمد» والفئة القليلة التي أحاطت به. وفي ذلك نزل (١٠٤٦) قوله تعالى من سورة التوبة: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُعِينِكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (١٠٤٧).

(١٠٤٣) المغازي للواقدي: ٢/ ٨٩٨ — ٩٠٣ و ٩١٤ و ٩١٧ و ٩٤٣، السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٤٣ — ٤٤٩، ٤٥٣ — ٤٥٥، شرح

الأخبار للقاظمي النعمان المغربي، وبحار الأنوار: ٢١/ ١٥٠ — ١٥١ و ١٥٨ و ١٦٧ .

(١٠٤٤) لا تخلو العبارة من اشكال حين يُراد معرفة المقصود من نقل الكاتب هذه العبارات، وإلاّ فما هذه الاستيوانات لنفوس المسلمين، نعم، من الممكن استيعاء الهواجس النفسية عبر الاستفادة من الجو العام والقرائن المحيطة بالشخص وعدم معارضة هذا الاستيطان لنصوص تاريخية أخرى أو وجود قرائن تعارض ما نريد إستنتاجه حسبما يفرضه الذوق الشخصي، وعليه فمن قال: أنّ ابن الدُّعْنَةَ أراد الجمل لعلّه يحصل على امرأة حسناء فيه فخاب أمله عند القبض عليه. استفادة ذلك من أمر الرسول للمقاتلين على أنّه من قتل مشركاً فله سلبه واندفع ابن الدُّعْنَةَ جنسياً لا غير نحو الجمل، لكننا نرى ربيعة بن الدُّعْنَةَ نفسه لاحق الجمل فوجد فيه شيخاً كبيراً ذلك هو دريد بن الصَّمّة ، وتمّ حوار بين الرجلين وبإمكان ربيعة أن ينصرف ويترك الشيخ ، مازال هدفه النساء ليتابع جمالاً أخرى لعلّه يصيب المرام ، ولا داعي للانشغال مع هذا الشيخ الذي تمّ قتله نهاية الأمر، ولا تفسير لنا لهذا المشهد سوى القول بأنّ اندفاعات ربيعة بن الدُّعْنَةَ ماهي إلاّ استجابة لنداءات العقيدة فلا ينبغي أن تحصر بالتفسير الجنسي للمقاتلين ، كما هو المنهج الاستشراقي.

(١٠٤٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٤٤٩ و ٤٥٣ ، والمغازي للواقدي: ٢/ ٩٠٣ و ٩١٤ ، وتاريخ الطبري: ١٧٠/ ٢ — ١٧١.

(١٠٤٦) تفسير مجمع البيان: ٣٣/ ٥ — ٣٧ ، وتفسير الطبري: ٦/ ٣٤٠ .

(١٠٤٧) التوبة (٩): ٢٥ — ٢٨ .

على أن المسلمين لم يُحرزوا هذا النصر المؤرّر رخيصةً، بل دفعوا فيه ثمنًا غالياً لعلّهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأوّل وتدافعهم مهزومين ، ليقول فيهم أبوسفیان: إنهم لا يردهم إلّا البحر. دفعوا الثمن غالباً من مهج الرجال وأرواح الأبطال الذين استشهدوا في الموقعة. ولئن لم تُحص كتب السيرة كلّ القتلى فقد ذكرت أن قبيلتين من المسلمين فنيّا أو كادتا، وأنّ النبيّ صلّى لأرواحهم كي يدخلهم الله الجنة^(١٠٤٨). لكنّه كان النصر على كلّ حال، النصر التام تغلب فيه المسلمون على خصومهم، وغنموا منهم وأسروا ما لم يغنموا ولم يأسروا من قبل. والنصر هو كلّ شيء في النضال أيّاً كان الثمن الذي يُدفع فيه مادام نصراً شريفاً. لذلك اغتبط المسلمون بما جزاهم الله وظلّوا يرتقبون قسمة الفياء والعود بالغنيمة.

لكنّ «محمّداً» كان يريد نصرّاً أكثر روعةً وأعظم جلالاً. وإذا كان مالك ابن عوف هو الذي قاد هذه المجموعة ثمّ احتّمى بعد هزيمتها مع ثقيف بالطائف، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيّقوا عليها الحصار. وتلك كانت خطة «محمّد» في خير بعد أحد، وفي قريظة بعد الخندق. ولعلّه اذكر في موقفه هذا، يوم ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام فسخرها منه وقذفه صبيّانهم بالأحجار. حتّى اضطرّ إلى الاحتماء من أذاهم بحائط فيه كرم، ولعلّه اذكر كيف ذهب يومئذ منفرداً ضعيفاً. لا حول ولا قوة إلّا حول الله وقوّته، وإلّا هذا الإيمان العظيم الذي ملأ صدره ويدكّ الجبال، وهاهو ذا الآن يذهب إلى الطائف في جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب في ماضي تاريخها جمعاً مثله.

أمر «محمّد» أصحابه إذاً أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا ثقيفاً وعلى رأسها مالك بن عوف بها. وكانت الطائف مدينة محصّنة لها أبواب تُغلق عليها كأكثر مدن العرب في ذلك العصر (كذا). وكان أهلها ذوي دراية في حرب الحصار وذوي ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون. وقد سار المسلمون إليها، فمرّوا في مسيرتهم بليّة حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدموه ، كما خرّبوا أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف. وبلغ المسلمون الطائف ، فأمر النبيّ عسكره فتزل على مقربة منها وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون. لكنّ ثقيفاً ما لبثت أن رآهم من أعلى حصونها حتّى نالتهم بالتبّل وقتلت جماعة منهم. ولم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعه، إلّا أن يلجئوا إلى وسائل غير التي ألفوا حتّى اليوم حين حاصروا قريظة وخيبر. أتراهم إن هم اكتفوا بالحصار يصلون إلى تجويع ثقيف تجويعاً يحملها على

التسليم؟ وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التي يهاجمونها بها؟ هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت؛ فليانسحب العسكر إذاً بعيداً عن مرمى النبل لكي لا يصيبه فيقتل رجال من المسلمين، ثُمَّ ليفكر «محمد» فيما عسى أن يصنع. وأمر (عليه السلام) فنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبل في مكان أُقيم به مسجد الطائف بعد أن سلّمت الطائف وأسلمت. ولم يكن من ذلك بُدّ وقد قتلت نبال ثقيف ثمانية عشر من المسلمين، وجرح كثيرون، بينهم أحد أبناء أبي بكر. وفي جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضُربت خيمتان من جلد أحر لزوجتي النبيّ أمّ سلمة وزينب، وكانتا تسيران معه في كلّ هذه الوقائع منذ ترك المدينة. وبين هاتين الخيمتين كان «محمد» يقيم الصلاة. ولعلّ مسجد الطائف إنّما أُقيم في هذا المكان.

وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدهم. قال أحد الأعراب للنبيّ: إنّما ثقيف في حصنها كالشعلب في جُحره، لا سبيل إلى إخراجهم منه إلاّ بطول المكث، فإن تركته لم يلحقك منه ضرر. لكنّما شقّ على «محمد» أن يعود أدراجه من غير أن يصيب من ثقيف شيئاً. وكان لبني دؤس — إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكّة — علم بالرماية بالمنجنيق وبمهاجمة الحصون في حماية الدبابات، وكان أحد رؤسائها الطُفيل قد سحب «محمدًا» منذ غزا خيبر وكان معه عند حصار الطائف، فأوفده النبيّ إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفة منهم، ومعهم أدواتهم، بلغت الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إيّاها. ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم، ثُمَّ زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه. لكنّ رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحمّت قطعاً من الحديد بالنار، حتّى إذا انصهر ألقته على الدبابات فحرّقها ففرّجنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا؛ فرميتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة منهم. لم يُفلح هذا الجهد إذاً أيضاً ولم يستطع المسلمون التغلب على مناعة هذه الحصون.

ماذا عساهم إذاً يصنعون؟ فكّر «محمد» في هذا وفكّر طويلاً. ولكن! ألم ينتصر على بني النضير ويُجليها عن ديارها باحراق نخيلها؟! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بني النضير، فهي كروم لها من ذبوع الاسم في بلاد العرب جميعاً ما تباهي به الطائف أخصب بلاد العرب، وما جعل الطائف واحةً كأنّها الجنة وسط هذه الصحاري. وأمر «محمد» فبدأ المسلمون ينفذون، يقطعون ويحرّقون الكروم التي مايزال لها حتّى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذبوع صوت. ورأى الثقيفون هذا وأيقنوا أن «محمدًا» جادّ فيه، فبعثوا إليه أن يأخذه لنفسه إن شاء وأن يدعه لله

وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة، فاستمهل «محمد» رجاله، ثم نادى في ثقيف: إنه مُعتق من جاء إليه من الطائف. ففرّ إليه قرابة عشرين من أهلها عرف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفي أمداً طويلاً. هنالك رأى أن الحصار سيطول أمده، وأن جيوشه تؤدّ الرجوع لاقتسام الفية الذي كسبوا. وأنه إن أصرّ على البقاء فقد ينفد صبرهم، لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه. وكان ذوالقعدة قد استهلّ، فرجع بجيشه معتمراً وذكر أنه متجهّز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم^(١٠٤٩).

وانصرف «محمد» والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتّى نزلوا الجعرانة، حيث تركوا غنائمهم وأسراهم. هنالك نزلوا يقتسمون. وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزّع ما بقي على أصحابه^(١٠٥٠). وإيّهم بالجعرانة إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يردّ عليهم «محمد» أموالهم ونساءهم وأبناءهم، بعد أن طال عنهم غيابهم، وبعد أن ذاقوا مرارة ما حلّ بهم. ولقي الوفد «محمدًا» وخاطبه أحدهم قائلاً: يا رسول الله، إنّما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كنّ يكفلنك. ولو أنّا ملحنّا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثمّ نزل منّا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا. وأنت خير المكفولين. ولم يخطئ هؤلاء في تذكير «محمد» بصلته بهم وقرابته منهم. فقد كانت بين السبايا امرأة تحطّت الكهولة عنف عليها الجند المسلمون فقالت لهم: تعلموا، والله إنّني لأخت صاحبكم من الرّضاة، فلم يصدّقوها وجاءوا بها «محمدًا» فعرفها الشّيماء بنت الحارث بن عبد العزّى، وأدناها منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها إن أحبّت أبقاها وإن أحبّت متّعها ورجعها إلى قومها؛ فاختارت الرجوع إلى قومها.

طبيعيّ، وتلك صلة «محمد» هؤلاء الرجال من هوازن الذين أقبلوا عليه مسلمين، أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم. فقد كان ذلك أبداً شأنه مع كلّ من أسدى إليه يوماً من الدهر يدًا. كان عرفان الجميل بعض شأنه، والبرّ بكليم القلب في جبلّته. فلمّا سمع مقالتهم سألهم: أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبّ إلينا. فقال (عليه السلام): «أمّا ما كان لي ولبيني عبدالمطلب فهو لكم. وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا

(١٠٤٩) المغازي للواقدي: ٩٢٣/٢ — ٩٣٨، السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٧٨ و ٤٨٢ — ٤٨٤، وتاريخ الطبري: ١٧٠/٢ — ١٧٢،

وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٣٣/١، وبحار الأنوار: ١٥٢/٢١ — ١٥٣ و ١٦٣ و ١٦٨.

(١٠٥٠) المغازي للواقدي: ٩٤٣/٢ — ٩٤٩، والطبقات الكبرى: ١٥٢/٢ — ١٥٣.

فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا. فسأعطيكُم عند ذلك وأسأل لكم». ونفّذت هوازن قول النبيّ، فأجابهم: أمّا ما كان لي ولبي عبدالمطلب فهو لكم. قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله. وكذلك قال الأنصار. أمّا الأقرع بن حابس عن تميم وعيينة بن حصن فرفضا ورفض العباس بن مرداس عن بني سليم؛ لكنّ بني سليم لم يُقرّوا العباس على رفضه. هنالك قال النبيّ: أمّا من تمسّك منكم بحقّه من هذا السيّ فله بكلّ إنسان ست فرائض من أوّل سبي أُصيبه. وكذلك رُدّت نساء هوازن وأبنائُها إليها بعد أن أعلنت إسلامها.

وسأل «محمّد» وفد هوازن عن مالك بن عوف النصريّ. فلمّا علم أنّه ما يزال بالطائف مع ثقيف طلب إليهم أن يبلغوه: أنّه إن أتاه مسلماً ردّ عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل. ولم يبطئ مالك حين علم بوعده الرسول أن أسرج فرسه في سرّ من ثقيف وأن نجا بها حتّى لحق بالرسول، فأعلن إسلامه فأخذ أهله وماله ومئة من الإبل. وأوجس الناس خيفة إن أفشى «محمّد» هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من الفيء، فألحوا في أن يأخذ كلّ فيأه وتماصوا بذلك. فلمّا بلغ الخمس النبيّ وقف إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين اصبعيه ثمّ رفعها وقال: «أيّها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلّا الخمس. والخمس مردود عليكم» وطلب إلى كلّ أن يرّد ما غنم حتّى تكون القسمة العدل، «فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة».

قال «محمّد» هذه العبارة مغضباً بعد أن ردّوا إليه رداءه الذي أخذوا وبعد أن صاح بهم: ردّوا إليّ ردائي أيّها الناس، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نَعَمًا لقسمته عليكم ثمّ ما ألفيتُموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثمّ إنّه حمّس الغنيمة وأعطى من خُمسه إلى الذين كانوا إلى أيّام أشدّ الناس عداوةً له نصيباً على نصيبهم، فأعطى مئة من الإبل كلّاً من أبي سفيان وابنه معاوية وعليم بن الحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن العزّيّ وسائر الأشراف ورؤساء العشائر من تألّف (١٠٥١) بعد فتح مكّة؛ وأعطى خمسين من الإبل من كانوا دون هؤلاء شأنًا ومكانة، وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات. وبدأ «محمّد» يومئذ غاية في السماحة والكرم ممّا جعل أعداء الأُمس تنطلق ألسنتهم بكلّ الشناء؛ ولم يدع لأحد من هؤلاء المؤلّفة قلوبهم حاجة إلّا قضاهَا. أعطى عباس بن مرداس عددًا من الإبل لم يُرضه وعاتبه على أن فضّل عليه

(١٠٥١) المؤلّفة قلوبهم، وهم قوم وحدّوا الله وخرجوا من الشرك ولم تدخل معرفة «محمّد (صلى الله عليه وآله)» قلوبهم وما جاء به وتألفهم رسول

الله وتألفهم المؤمنون. السيرة النبويّة لابن هشام: ٩٣٨/٤.

وقال صاحب الميزان: فهم الذين يؤلّف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا، أو يدفع بهم العدو، أو يستعان بهم على حوائج

الدين. الميزان: ٣١١/٩.

عُيِّنَةُ وَالْأَقْرَعُ وَغَيْرَهُمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ: اذْهَبُوا بِهِ فاقطعوا عني لسانه، فَأَعْطَوْهُ حَتَّى رَضِيَ، كَانَ ذَلِكَ قَطْعَ لِسَانِهِ^(١٠٥٢).

على أن هذا الذي تألف به النبيّ قلوب من كانوا إلى أمس أعداءه قد جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول، ويقول بعض لبعض: «لَقِيَ وَاللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ قَوْمَهُ». ورأى سعد بن عبادَةَ أن يبلغ النبيّ مقالة الأنصار ويؤيدهم فيها؛ فقال له النبيّ: إجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فجمعهم سعد وأتاهم النبيّ فدار الحوار الآتي:

«مُحَمَّدٌ»: يامعشر الأنصار، ما قاله بلغتني عنكم وجدةً وجدتموها في أنفسكم؟! ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله. وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟
الأنصار: بلى ! الله ورسوله آمن وأفضل.

«مُحَمَّدٌ»: ألاّ تحيوني يا معشر الأنصار!

الأنصار: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

(١٠٥٢) جاء في النصّ: وبدا «مُحَمَّدٌ» يومئذ غاية في السماحة إلى أن قال... وكان ذلك قطع لسانه.

هذا النصّ مثار للتعجب، وذلك لما يكتنفه من الغموض والتشويش في الوقت الذي ينقل فيه الكاتب عن مشهد تاريخي معروف من حياة النبيّ «مُحَمَّدٌ» (صلى الله عليه وآله) تكرر نقله في كتب التاريخ بغاية من الوضوح والبساطة. أمّا لو لاحظنا النصّ أعلاه: (أعطى عباس بن مرداس عدداً من الإبل، ولم يرضه، وعاتبه على أن فضّل عليه عُيَيْنَةُ وَالْأَقْرَعُ وَغَيْرَهُمَا وبمجرد العتاب أمر النبيّ (صلى الله عليه وآله) بقطع لسانه...) فقد يتساءل القارئ هل مجرد العتاب يوجب قطع اللسان، والنص في معرض بيان سماحة النبيّ؟ ثمّ ماذا قال عباس بن مرداس؟ لا ندري، ولَمَنْ وجه النبيّ خطابه بقوله (صلى الله عليه وآله): اذْهَبُوا فَبَلَّ كان الخطاب موجّهاً لجماعة المسلمين لا على وجه التعيين أم ماذا؟ وعلى فرض أن النبيّ (صلى الله عليه وآله) قد عَيّن شخصاً أو عدّة أشخاص، فهل نفذ هؤلاء ما أرادهم النبيّ (صلى الله عليه وآله) وكيف؟ كلّ هذه الأمور وغيرها تركت بلا بيان، وهذا بطبيعة الحال يفوّت على القارئ فرصة الاستفادة من هذا المشهد، وبالإمكان ذكر القصة كما هي بلغة المصادر التاريخية بلا حاجة إلى صياغتها بطريقة معقّدة، لأنّها مذكورة في الكتب بوضوح واختصار كما يلي:

قال الطبري: أعطاه أباعر فتسخطها وعاتب فيها رسول الله فقال:

كانت نهاباً تلافيتها *** بكري على المهر في الأجرع

وايقاضي القوم أن يرقدوا *** إذا هجع الناس لم أهجع

وقد كنت في الحرب ذا تدرا *** فلم اعط شيئاً ولم أمنع

ألا أفائل أعطيتها *** عديد قوائمها الأربع

وما كان حصن ولا حابس *** يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما *** ومن تضع اليوم لا يُرفع

قال المفيد: فبلغ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قوله فاستحضره، وقال: قُمْ يا عليّ واقطع لسانه.

قال العباس بن مرداس: فوالله لهذه الكلمات كانت أشدّ عليّ من يوم خنعم حين أتونا في ديارنا، فأخذ بيدي عليّ بن أبي طالب فانطلق بي، ولو أدري أحد يخلصني منه لدعوته، فقلت: يا عليّ إنك لقاطع لساني. قال: إني لمض فيك ما أمرت فما زال بي حتّى أدخلني الحظائر، فقال لي: اعتد ما بين أربع إلى مئة فقلت: بأبي أنت وأُمّي ما أكرمكم وأحلمكم وأعلمكم، فقال: إن رسول الله أعطاك أربعاً وجعلك مع المهاجرين فإن شئت فخذها وإن شئت فخذ المئة وكن مع أهل المئة. قلت: أشر عليّ، قال: فإني آمرُك أن تأخذ ما أعطاك رسول الله (صلى الله عليه وآله) وترضى، قلت: فإني أفعل. أعيان الشيعة: ٢٨١/١.

«محمّد»: أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدّثم يا معشر الأنصار في الغلالة من الدنيا تألّفتُ بها قوماً يُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. فوالذي نفس «محمّد» بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال النبيّ هذه العبارات وكلّه التّأثّر ، وكلّه فيض من الحبّ لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزّوا به وأعزّوه، حتّى بلغ من تأثّره أن بكى الأنصار وقالوا: رضيينا برسول الله قِسْماً وحِطّاً. وكذلك أظهر النبيّ رغبة عن هذا المال الذي غنم في حُنين والذي بلغ ما لم يبلغ فيء من قبل، أظهر رغبته عنه وجعله وسيلة يتألّف بها قلوب الذين كانوا إلى أسابيع قليلة مشركين ليروا في الدّين الجديد سعادة الدنيا والآخرة. وإذا كان «محمّد» قد عناه أمر هذا المال في قسمته حتّى لقد كان المسلمون يتّهمونه، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلفة قلوبهم، فإنّه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة، ما مكّنه من أن يعود بهذه الألوّف من العرب وكلّهم راضية نفسه مطمئن قلبه مستعدّ لأن يهب حياته في سبيل الله. وخرج الرسول من الجعرانة معتمراً إلى مكّة. فلمّا قضى عمرته استخلف عتّاب بن أُسيد على أمّ القرى وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن. وعاد الأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة ليقم النبيّ بها ريثما يرزقه الله ابنه إبراهيم، وليطمئنّ إلى شيء من سكينة الحياة زمناً ثمّ يتجهّز إلى غزوة تبوك بالشام^(١٠٥٣).

* * *

(١٠٥٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٨٨/٢ — ٥٠٠، المغازي للواقدي: ٩٣٩/٢ — ٩٦٠، والإرشاد للمفيد: ١٤٦/١، والخراج والجرائح:

٩٨/١، وبحار الأنوار: ١٥٩/٢١ و١٦٧ — ١٨٢.

حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

الفصل الثلاثون: مرض النبي ووفاته

الفصل السادس والعشرون: إبراهيم ونساء النبي (صلى الله عليه وآله)

الفصل السادس والعشرون

إبراهيم ونساء النبي (صلى الله عليه وآله)

العود إلى المدينة، بانت سعاد، وفاة زينب، مولد إبراهيم، غيرة نساء النبي من مارية، مظاهرة حفصة وعائشة، حديث المغاير، مارية في دار حفصة، هجر النبي نساءه شهراً، حديث عمر مع النبي، سورة التحريم.

عاد «محمد» إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حنين وحصاره الطائف، وقد ثبت في نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قبل به في شبه الجزيرة كلها، وأن لم يبق للسان أن ينطلق بايذائه أو الطعن عليه. وعاد والأنصار والمهاجرون معه وكلهم مغتبط بفتح الله على نبيه بلد المسجد الحرام، وبما هدى أهل مكة إليه من الإسلام، وبما دان له العرب به على اختلاف قبائلهم من الطاعة والاذعان. عادوا جميعاً إلى المدينة ليطمئنوا إلى شيء من سكينه الحياة بعد أن ترك «محمد» وراءه عتاب بن أسيد على أم القرى، ومعاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم وليعلمهم القرآن^(١٠٥٤)، وقد ترك هذا النصر — الذي لم يعرف له في تاريخ العرب وفي رواياتهم نظير — أثراً بالغاً في نفوس العرب جميعاً. ترك أثراً في نفوس العظماء والسادة، الذين كانوا لا يتوهمون مجيء يوم يدينون فيه لـ «محمد» بطاعة، أو يرتضون دينه لأنفسهم ديناً وفي نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل ما يلقون من عطفهم وتأييدهم، أو مقابل ما يلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها وفي نفوس تلك القبائل البادية التي لم تكن تعدل بحريتها شيئاً، ولا كان يدور بخاطرهم أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص، أو تموت دون ذلك في حرب وطعان تفنى خلاهما فناء تاماً. وماذا يجدي على الشعراء شعرهم، وعلى السادة سيادتهم، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيها، أمام هذه القوة الخارقة للطبيعة؟ لا تقف قوة أمامها ولا يجرو سلطان على اعتراضها!

ولقد بلغ الأثر من نفوس العرب أن كتب بؤجير بن زهير إلى أخيه كعب، بعد منصرف النبي عن الطائف يخبره أن «محمدًا» قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأن من بقي من هؤلاء الشعراء قد هربوا في كل وجه، وينصح إليه أن يطير إلى النبي بالمدينة، فإنه لا يقتل أحداً

جاءه تائباً، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض. وإِنما قصّ بجزءٍ حقّاً فلم يقتل بمكّة بأمر «محمّد» خلا أربعة، منهم شاعر آذى النبيّ هجاؤه، ومنهم اثنان آذيا زينب ابنته حين أرادت بإذن زوجها أن تهاجر من مكّة لتلحق أباهما. وأيقن كعب صدق أخيه وأَنه إلّا جاء «محمّداً» ظل حياته طريداً مشرّداً. لذلك أسرع إلى المدينة ونزل عند صديق له قديم. فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبيّ وأنشده قصيدته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ *** مُتَيِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ
فعفا النبيّ عنه وحسُن من بعد ذلك إسلامه (١٠٥٥).

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تُقبل على النبيّ تقدّم الطاعة بين يديه، قدم وفد من طيّ وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل. فلما انتهوا إليه أحسن استقبالهم، وتحدّث إليه زيد، فقال النبيّ له: ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثمّ جاءني إلّا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنّه لم يبلغ كلّ ما فيه. ودعاه زيد الخير بديلاً من زيد الخيل. وأسلمت طيء وزيد على رأسها (١٠٥٦).

وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً، وكان من أشدّ العرب كراهية لـ «محمّد». فلما رأى أمره وأمر المسلمين في شبه الجزيرة، تحمّل في إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام. وإِنما فرّ عديّ حين أرسل النبيّ عليّ بن أبي طالب ليهدم صنم طيء. وهدم عليّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتم أُخت عديّ، التي حُبست في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها. ومرّ بها النبيّ فقامت إليه وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد وغاب الرافد، فامنن عليّ من الله عليك. وأعرض عنها النبيّ حين علم أنّ رافدها عدي بن حاتم الفارّ من الله ورسوله. لكنّها راجعته، وذكر هو ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب، فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة وأعطاهما نفقتها، وحملها مع أوّل ركب قاصد إلى الشام. فلما لقيت هناك أخاها وذكرت له ما أكرمها به «محمّد»، عاد إليه فألقى بنفسه إلى صفوف المسلمين (١٠٥٧).

(١٠٥٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٥٠١ .

(١٠٥٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٥٧٧ .

(١٠٥٧) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٥٧٨ — ٥٨١ .

وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تَفِدُ إلى «محمّد» بعد فتح مكّة وبعد انتصار حنين وحصاره الطائف، تدين له بالرسالة وبالإسلام، وهو في مقامه ذاك بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شيء من سكينه الحياة.

لكن سكينه حياته لم تكن يومئذ صفواً. فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضة مرضاً خشي منه عليها. وهي منذ آذاها الحويرث وهبار حين خروجها من مكّة أذى أفرعها فأجهضها، قد ظلت مهتمة العافية. وانتهى المرض بوفاتها^(١٠٥٨). وبموثها لم يبق لـ «محمّد» من عقبه إلا فاطمة، بعد أن ماتت أمّ كلثوم، كما ماتت رقية قبل زينب^(١٠٥٩). وحزن «محمّد» لفقدائها وذكر لها رقة شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبي العاصي ابن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره بيدر^(١٠٦٠)، وتفتديه برغم إسلامها وشركه، وبرغم محاربتة أباهاً حرباً لو انتصرت قريش فيها لما أبقت لـ «محمّد» على حياة. ذكر «محمّد» رقة شمائلها وجميل وفائها وذكر ما لاقت من ألم المرض طوال أيامها منذ عادت من مكّة إلى حين وفاتها. وكان «محمّد» يشارك كلّ ذي ألم ألمه، وكل ذي مُصاب مصابه. وكان يذهب إلى أطراف المدينة وإلى ضواحيها يعود المريض ويواسي البائس ويأسو جراح الكليم. فإذا أصابه المقدار في ابنته بعد ما أصابه من قبل في أختها وكما أصابه ما قبل رسالته في إخوتها، فلا جرم أن يحزن ويشتد به جوى الحزن، وإن وجد من برّ الله ورفقه به ما يعزّ به كيما يسلمو.

ولم يطل انتظاره التأساء؛ فقد رزقه الله من مارية القبطية غلاماً دعاه إبراهيم تيمناً باسم إبراهيم جدّ الأنبياء، الحنيف المسلم^(١٠٦١). وكانت مارية إلى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس إلى النبيّ في مرتبة السراي^(١٠٦٢)، فلم يكن لها من أجل ذلك منزلٌ إلى جوار المسجد، كما كان لأزواج النبيّ أمّهات المؤمنين؛ بل أنزلها «محمّد» بالعالية من ضواحي المدينة في الحُل الذي يقال له اليوم مشربة أمّ إبراهيم بمنزل تحيط به كروم، كان يختلف إليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه^(١٠٦٣). وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إليه مع أختها سيرين وجعل سيرين لحسان بن

(١٠٥٨) تاريخ الطبري: ١٤٤/٢، والكامل في التاريخ: ٢٢٩/٢، وسير أعلام النبلاء: ٢٥٠/٢.

(١٠٥٩) ماتت رقية في السنة الثانية من الهجرة. وماتت زينب في السنة الثامنة من الهجرة، الطبري: ١٤٤/٢، الكامل: ٢٢٩/٢. وماتت أمّ كلثوم

في السنة التاسعة من الهجرة، الطبري: ١٩٢/٢، الكامل: ٢٩١/٢، وشذرات الذهب: ١٢٨/١.

(١٠٦٠) انظر تاريخ الطبري: ١٦٤/٢.

(١٠٦١) عيون الأثر: ٣٦٧/٢، الوفا بأحوال المصطفى: ٦٧٨.

(١٠٦٢) الفصول المهمة: ٢٤١، والإصابة: ٣٩١/٤، وقرب الإسناد للحميري: ٩، بحار الأنوار: ١٥١/٢٢.

(١٠٦٣) طبقات ابن سعد: ٢١٢/٨ — ٢١٣، السمط الثمين: ١٦٣، والإصابة: ٣٩١/٤. بل لم يكن السبب الذي دعا النبيّ لأن ينقلها إلى

العالية لأنها ملك يمين وإلا لماذا لم ينقل نساء الأخريات اللاتي هن ملك يمين أيضاً؟

ثابت^(١٠٦٤). ولم يكن «محمد» يرجو أن يُعقب بعد أن ظلّ أزواجه جميعاً من بعد وفاة خديجة، ومنهنّ الفتاة الفتية ومنهنّ التّصف التي أعقبت من قبل، لم تبشر إحداهنّ بخصب عشرة أعوام متتابة. حملت مارية ثمّ ولدت إبراهيم وقد تحطّى هو إلى الستين فاضت بالمسرّة نفسه وامتلأ هذا القلب الإنساني الكبير أنساً وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قرباً.

كان طبيعياً أن يدسّ ذلك إلى نفوس سائر أزواجه غيرّة تزايدت أضعافاً بأنّها أمّ إبراهيم بأنّهنّ جميعاً لا ولد لهنّ. ولم تكن نظرة النبيّ إلى هذا الطفل إلاّ تزيد هذه الغيرة كلّ يوم في نفوسهنّ اشتعّالاً. فهو قد أكرم سلمى زوج أبي رافع قابلة مارية أيّما إكرام. وهو قد تصدّق يوم وُلد بوزن شعرة ورقاً على كلّ واحد من المساكين. وهو قد دفعه لترضعه أمّ سيف، وجعل في حيازتها سبعا من الماعز ترضعه لبنها^(١٠٦٥). وهو قد كان يمرّ كلّ يوم بدار مارية ليراه، وليزداد أنساً بابتسامه الطفل البرينة الطاهرة، ومسرّة بنموّه وجماله. أي شيء أشدّ من هذا كله إثارة للغيرة في نفوس أزواج لم يلدن؟! وإلى أي حد تدفع الغيرة أولئك الأزواج!!^(١٠٦٦)

حمل النبيّ إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشة وهو فيّاض بالبشر، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت: إنّها لا ترى بينهما شهماً. ولما رأت النبيّ فرحاً بنموّ الطفل لاحظت في غضب، أن كلّ طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيراً منه

نموّاً^(١٠٦٧). وكذلك كان مولد إبراهيم سبباً أثار من زوجات النبيّ امتعاضاً لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافة، بل تعدّاه إلى أكثر منها، وترك في تاريخ «محمد» وفي تاريخ الإسلام من الأثر ما نزل به الوحي وقُدّسه كتاب الله الكريم.

وكان طبيعياً أن يحدث هذا الأثر. فقد جعل «محمد» لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفاً قطّ عند العرب. قال عمر بن الخطّاب في حديث له: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً حتّى أنزل الله تعالى فيهنّ ما

وعليه فإنّ السبب الذي دعاه لنقلها لأنّها حملت من النبيّ فغارت منها أزواجه كعائشة وحفصة وآذيها حتّى اشتكت ذلك إلى النبيّ ممّا دعاه أن ينقلها إلى العالية.

(١٠٦٤) طبقات ابن سعد: ٢٦٠/١، وعيون الأثر: ٣٣٨/٢.

(١٠٦٥) الاستيعاب: ٢٠٨/٤، والإصابة: ٩٩/٤.

(١٠٦٦) إنّ عائشة لا ترى شهماً بين إبراهيم وبين النبيّ، وفي موضع آخر حين وفاة إبراهيم قالت للنبيّ: لا تحزن إنه ليس بولدك وبهذه المناسبة نزلت آية الإفك.

(١٠٦٧) اليعقوبي: ٤١١/١، وتفسير القمّي: ٩٩/٢، وبحار الأنوار: ١٥٥/٢٢.

أنزل وقسم لمن ما قسم. فبينما أنا في أمر أؤتمره إذ قالت لي امرأتي: لو صنعت كذا وكذا. فقلت لها: ومالك أنت ولما هاهنا وما تكلفك في أمر أريدك! فقالت لي: عجباً لك يا بن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يظل يومه غضبان. قال عمر: فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها: يا بنية، إنك لتراجعين رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إننا لنراجعه. فقلت: تعلمين أنني أحذر عقوقه الله وغضب رسوله. يا بنية لا يغرنك هذه التي قد أعجبها حسننها وحب رسول الله (صلى الله عليه وآله) إياها. ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها، فقالت لي أم سلمة: عجباً لك يا بن الخطاب! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأزواجه! قال عمر: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها»^(١٠٦٨). ورؤي في صحيح مسلم أن أبا بكر استأذن على النبي ودخل بعد أن أذن له، ثم استأذن عمر ودخل أيضاً بعد الإذن، فوجد النبي جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكناً. فقال عمر: «لأقولن شيئاً أضحك النبي (صلى الله عليه وآله)». ثم قال: يا رسول الله: لو رأيت بنت خارجة تسألني النفقة، فقمتم إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله وقال: هن حولي يسألنني النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما ليس عنده. فقلن: والله لا نسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) أبداً شيئاً ليس عنده». رواه مسلم^(١٠٦٩).

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبي لأنه (عليه السلام) لم يخرج للصلاة؛ فتساءل المسلمون بعدها عما منعه. وفي حديث أبي بكر وعمر مع عائشة وحفصة نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب^(١٠٧٠): (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً* وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً)^(١٠٧١)^(١٠٧٢).

(١٠٦٨) صحيح البخاري: ٦٩/٦، صحيح مسلم: ١٩٠/٤.

(١٠٦٩) صحيح مسلم: ١٨٧/٤.

(١٠٧٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦٢/١٤ — ١٦٣.

(١٠٧١) الأحزاب (٣٣): ٢٨ — ٢٩.

(١٠٧٢) يستفاد من أسباب النزول التي ذكرت للآيات (٢٨ — ٣١) من سورة الأحزاب أن نساء النبي (صلى الله عليه وآله) قد طلبن منه طلبات مختلفة فيما يتعلق بزيادة النفقة، أو لوازم الحياة المختلفة بعد بعض الغزوات التي وفرت للمسلمين غنائم كثيرة، لكن النبي (صلى الله عليه وآله) امتنع عن تلبية طلباتهن وهو يعلم أن الاستسلام أمام هذه الطلبات التي لا تنتهي سيحمل معه عواقب وخيمة واعتزلهن شهراً، فترلت الآيات أعلاه وحاطبتهم بنبرة التهديد والحزم المتمزج بالرأفة والرحمة. وخيرهن بين البقاء مع النبي، أو مفارقتة.

ثُمَّ إِنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ كُنَّ يَأْتِمُرْنَ بِهِ. فَقَدْ كَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ. فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فِي رَوَايَةٍ وَعَلَى زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ فِي رَوَايَةٍ، فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ، فَأَحْدَثَ ذَلِكَ الْغِيْرَةَ فِي نَفُوسِ سَائِرِ نِسَائِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ إِنْ أَتَيْتَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فَلْتَقِلْ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ مَغَافِيرٍ. أَكَلْتُ مَغَافِيرَ؟ (وَالْمَغَافِيرُ شَيْءٌ حَلَوٌ لَهُ رِيحٌ قَوِيَّةٌ كَرِيهَةٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ لَا يَجِبُ الرَّائِحَةُ الْكَرِيهَةُ). فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ لَهُ: ذَلِكَ، فَقَالَ: بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ. وَرَوَتْ سُودَةُ وَكَانَتْ تَوَاطَأْتُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ مَعَ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ لَمَّا دَنَا مِنْهَا، قَالَتْ لَهُ: أَكَلْتُ مَغَافِيرَ؟ قَالَ لَا. قَالَتْ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ قَالَ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرِبَةً مِنْ عَسَلٍ. قَالَتْ: جَرَسَتْ لِحْلَهُ الْعُرْفُطُ — أَيِ رَعَتِ النَّحْلُ شَجَرَ الْعُرْفُطِ الَّذِي يَشْمُرُ الْمَغَافِيرَ — . وَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لَهُ مَا قَالَتْ سُودَةُ. ثُمَّ دَخَلَ عَلَى صَفِيَّةَ فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ قَوْلِهَا، فَحَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ. فَلَمَّا فَعَلَ قَالَتْ سُودَةُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَاللَّهُ لَقَدْ حَرَمَنَاهُ. فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا عَائِشَةُ نَظْرَةً ذَاتَ مَغْزَى وَقَالَتْ لَهَا: اسْكُتِي^(١٠٧٣).

طَبِيعِيَّ وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ لِأَزْوَاجِهِ هَذِهِ الْمَكَانَةَ، بَعْدَ أَنْ كُنَّ كَغَيْرِهِنَّ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ لَا رَأْيَ لَهُنَّ، أَنْ يَتَغَالَيْنَ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ بِحَرِيَّةٍ لَمْ يَكُنْ لِمِثْلَاتِهِنَّ بِهَا عَهْدٌ، وَأَنْ تَبْلُغَ إِحْدَاهُنَّ مِنْ مَرَاجِعَةِ النَّبِيِّ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمُهُ غَضَبَانٌ. وَكَمْ أَعْرَضَ عَنْهُنَّ، وَكَمْ هَجَرَ بَعْضَهُنَّ، حَتَّى لَا يَدْفَعُهُنَّ رَفْقُهُ بَهْنٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنْ غُلُوهِنَّ، وَأَلَّا تَخْرُجَ بِإِحْدَاهُنَّ الْغِيْرَةَ إِلَى غَيْرِ لَائِقٍ بِالسَّدَادِ. فَلَمَّا وَلَدَتْ مَارِيَةَ إِبْرَاهِيمَ خَرَجَتْ الْغِيْرَةُ بِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَمَّا أَذْهَنَ بِهِ، حَتَّى كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَائِشَةَ إِذْ تَنَكَّرَ عَلَيْهِ كُلُّ شَبْهِ بَيْنِ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَهُ، وَلِتَكَادَّ تَتَّهَمَ مَارِيَةَ بِمَا يَعْرِفُ النَّبِيُّ بِرَأْيِهَا مِنْهُ^(١٠٧٤).

وَحَدَّثَ أَنَّ كَانَتْ حَفْصَةُ يَوْمًا قَدْ ذَهَبَتْ إِلَى أَبِيهَا فَتَحَدَّثَتْ عَنْهُ. وَجَاءَتْ مَارِيَةَ إِلَى النَّبِيِّ وَهُوَ فِي دَارِ حَفْصَةَ وَأَقَامَتْ بِهَا زَمَنًا مَعَهُ. وَعَادَتْ حَفْصَةُ فَوَجَدَتْهَا فِي بَيْتِهَا، فَجَعَلَتْ تَنْتَظِرُ خُرُوجَهَا وَهِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ غِيْرَةً، وَجَعَلَتْ كُلَّمَا طَالَ بِهَا الْإِنْتَظَارُ تَزْدَادُ الْغِيْرَةَ بِهَا شِدَّةً. فَلَمَّا خَرَجَتْ مَارِيَةَ وَدَخَلَتْ حَفْصَةَ عَلَى النَّبِيِّ، قَالَتْ لَهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكَ أَنَّكَ عِنْدَكَ. وَاللَّهُ لَقَدْ سَبَّبَتْنِي. وَمَا كُنْتُ لِتَصْنَعَهَا لَوْلَا هَوَانِي عَلَيْكَ». وَأَدْرَكَ «مُحَمَّدٌ» أَنَّ الْغِيْرَةَ قَدْ تَدْفَعُ حَفْصَةَ إِلَى إِذَاعَةِ مَا

وَيَسْتَفَادُ مِنْ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ كَلَّمَنَّهُ بِكَلَامٍ خَشَنٍ حَافٍ حَتَّى أَتَّهَنَ قُلْنَ: لَعَلَّكَ تَظُنُّ إِنْ طَلَقْتُنَا لَا نَجِدُ زَوْجًا مِنْ قَوْمِنَا غَيْرَكَ.

كُتِبَ الْعُرْفَانُ: ٢٣٨/٢.

وَلِهَذَا أَمَرَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَنْ يُوَاجِهَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِحُزْمٍ تَامٍ، وَيُوضِّحَ لَهَا حَالَهُ الدَّائِمِيَّ.

وَأَخِيرًا بَيَّنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ تَكْلِيفَ النَّبِيِّ وَوَاجِبَهُنَّ فِي أَتَّهَنَ يَجِبُ أَنْ يَكُنَّ قَدُورَةً وَأَسُوءَةً لِلْمُؤْمِنَاتِ عَلَى الدَّوَامِ. رَاجِعِ التَّفْسِيرَ الْأَمْثَلُ: ٢٠٧/١٣.

(١٠٧٣) صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ١٨٤/٤.

(١٠٧٤) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ١٨٩/٢.

رأت والتحدّث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أنّ مارية عليه حرام إذا هي لم تذكر ممّا رأت شيئاً. ووعدها حفصة أن تفعل. لكنّ الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به، فأسرته إلى عائشة. وأومات هذه إلى النبيّ بما رأى منه أنّ حفصة لم تصن سرّه. ولعلّ الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبيّ. ولعلّهنّ جميعاً وقد رأين ما رفع النبيّ من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبيّ على أثر قصة مارية هذه، وإن تكن لداهما قصة لا شيء فيها أكثر ممّا يقع بين رجل وزوجه، أو رجل وما ملكت يمينه ممّا هو حلّ له، وممّا لا موضع فيه لهذه الضجّة التي أثارت ابنتا أبي بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لنفسيهما من النبيّ عن ميله لمارية^(١٠٧٥). ولقد رأينا أنّ شيئاً من الجفوة وقع بين النبيّ وأزواجه في ظروف مختلفة بسبب النفقة أو بسبب غسل زينب أو لغير ذلك من الأسباب التي تدل على أنّ أزواج النبيّ كنّ يجدن عليه أن يكون لعائشة أحبّ، أو أن يكون لمارية أهوى.

وبلغ من أمرهنّ أن أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنّه لا يعدل بين نسائه وأنّه لحبه لعائشة يظلمهنّ. ألم يجعل لكلّ امرأة يوماً وليلة! ثمّ رأت سودة انصراف النبيّ عنها وعدم بشاشته لها فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاءً للرسول. ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام في ميل النبيّ عن العدل بين نسائه، بل نالت من عائشة وهي جالسة بما جعل عائشة تتحفّر للرّد عليها لولا إشارات من النبيّ كانت تهدئ من حدّها. غير أنّ زينب اندفعت ولجّ بها الاندفاع وبالغت في النيل من عائشة حتّى لم يبق للنبيّ بدٌّ من أن يدع لحُميرائه أن تدافع عن نفسها. وتكلّمت عائشة بما أفحم زينب وسرّ النبيّ ودعاه للاعجاب بابنة أبي بكر^(١٠٧٦).

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في بعض الظروف وبسبب إثارة بعضهنّ باخبة على بعض حدّاً همّ النبيّ معه أن يطلق بعضهنّ لولا أنّهنّ جعلنه في حلّ أن يؤثّر من يشاء منهنّ على من يشاء. فلمّا ولدت مارية إبراهيم لجّت بهنّ الغيرة أعظم لجاج، وكانت بعائشة ألجّ. ومدّ هنّ في لجاج الغيرة بهنّ هذا الرّفق الذي كان «محمّد»

(١٠٧٥) سنن أبي داود، باب الطلاق الحديث ٢٢٨٣، وسنن ابن ماجة في الطلاق، الحديث: ٢٠١٦، والنسائي، باب الطلاق: ٢١٣/٦.

(١٠٧٦) صحيح مسلم، فضائل الصحابة برقم: ٢٤٢٢، الاستيعاب: ٣٠٨/٢، حلية الأولياء: ٥٣/٢.

يُردّ هذا الأمر: وذلك أنّه لم يرد أنّه كان يحبّ عائشة أكثر من غيرها لورود تصاريح أخرى من فم عائشة بأنّه يميل إلى غيرها كما مارية القبطية، ثمّ يكشف هذا النصّ أنّ زوجات النبيّ قد اتّهمنّ النبيّ بالظلم في الوقت الذي كان قد طهره الله من الرّجس.

يعاملهنّ به، وهذه المكانة التي رفعهنّ إليها. و«محمد» ليس خلياً ليشغل وقته بهذا اللجاج وليدع نفسه لعبث نسائه. فلا بدّ من درس فيه حزم وفيه صرامة يردّ الأمور بين أزواجه إلى نصابها، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه للدعوة إلى رسالته. وليكن هذا الدرس هجرهنّ والتهديد بفراقهنّ، فإن ثبتن إلى رشادهنّ فذاك، وإلاّ متعهنّ وسرحهنّ سراحاً جميلاً.

وانقطع النبيّ عن نسائه شهراً كاملاً لا يكلم أحداً في شأنهنّ، ولا يجروّ أحد أن يفتحه حديثهنّ. وفي خلال ذلك الشهر اتجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الإسلام ومدّ سلطانه فيما وراء شبه الجزيرة. على أنّ أبا بكر وعمر وأصهار النبيّ جميعاً — وما كان أكثرهم! — كانوا في قلق أشدّ القلق على ما قدّر مصيراً لأُمّهات المؤمنين، وما يتعرّضنّ له من غضب رسول الله، وما يجرّ إليه غضب الرّسول من غضب الله وغضب ملائكته. بل لقد قيل: إنّ النبيّ طلق حفصة بنت عمر بعد الذي كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه. وقد سرى الهمس بين المسلمين أنّ النبيّ مطلق أزواجه. وأزواجه خلال ذلك مضطربات ناديات، أن دفعتهنّ الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهنّ، هو منهنّ الأخ والأب والابن وكلّ ما في الحياة وما وراء الحياة. وجعل «محمد» يقضي أكثر وقته في خزانة له ذات مشربة، يجلس غلامه ربّاح على أسكفّتها — أي عتبها — ما أقام هو بالخزانة، ويرقى هو إليها على جذع من نخل هو الخشونة كلّ الخشونة.

وإنّه لفي خزانته يوم أوفى الشهر الذي نذر فيه هجر نسائه على التمام، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطّرقين ينكتون الحصى ويقولون: طلق رسول الله (صلى الله عليه وآله) نساءه، ويبدون لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحاً عميقاً، إذ قام عمر من بينهم فقصد إلى مقام النبيّ بخزانته ونادى غلامه ربّاحاً كي يستأذن له على رسول الله. ونظر إلى ربّاح يروم الجواب. فإذا ربّاح لا يقول شيئاً علامة أنّ النبيّ لم يأذن. فكرّر عمر النداء ولم يجب ربّاح مرّة أخرى. فرفع عمر صوته قائلاً: «يا ربّاح استأذن لي عندك على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإني أظنه ظنّ أنّي جئت من أجل حفصة. والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنّ عنقها». وأذن النبيّ فدخل عمر فجلس ثمّ أجال بصره فيما حوله وبكى. قال «محمد»: ما يُبكيك يا ابن الخطاب؟ وكان الذي أبكاه هذا الحصر الذي رأى النبيّ مضطجعاً عليه وقد أثر في جنبه، والخزانة لاشيء فيها إلاّ قبضة من شعير ومثلها من قرظ وأفيق — أي جلد — معلق. فلمّا ذكر عمر ما يبكيه علّمه «محمد» من وجوب الإعراض عن الدنيا ما ردّ إليه طمأنينته. ثمّ قال عمر: يا رسول الله! ما يشقّ عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهنّ فإنّ الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو

بكر والمؤمنون معك. ثم انعكف يحدث النبي حتى تحسّر الغضب عن وجهه وحتى ضحك. فلما رأى

ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه. فلما ذكر النبي أنه لم يطلقهن استأذنه في أن يفضي بالأمر لأولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون. ونزل إلى المسجد فنادى بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله (صلى الله عليه وآله) نساءه. وفي هذه القصة نزلت الآيات الكريمة من أول سورة التحريم^(١٠٧٧): (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)^(١٠٧٨). وبذلك انتهى الحادث وثاب إلى نساء النبي رشادهن ورجع هو إليهن تائبات عابدات مؤمنات، وعادت إلى حياته البيتية السكينة التي يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أدائه.

ما قصصنا الآن عن هجر «محمد» نساءه، وتخيره إياهن ومقدمات هذا الهجر ونتائجه والوقائع التي سبقته وأدت إليه، هو في رأيي الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث، رواية يتضافر على تأييدها ما جاء في كتب التفسير وفي كتب الحديث، وما جاء متفرقاً عن أخبار «محمد» ونساءه في كتب السير المختلفة. بيد أنه لم تكن واحدة من هذه السير تقصّ الحوادث، أو تضع المقدمات والنتائج بالصورة التي سردنا هنا. وأكثر السير تمرّ بهذا الحادث مرّاً دون أن تقف عنده؛ وكأنما تجده خشن الملمس فتخشى أن تقربه. وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير ولا يشير بكلمة إلى مسألة حفصة ومارية. فأما المستشرقون فيجعلون مسألة حفصة ومارية وإفشاء حفصة إلى عائشة بما عاهدت النبي أن تكتمه، سبب كل الذي وقع؛ ليحاولوا بذلك أن يضيفوا جديداً لما يُلقون في رُوع قرائهم عن النبي العربي، من أنه كان رجلاً محباً للنساء حباً معيياً. وعندني أنّ المؤرخين المسلمين لا عذر لهم في إغفال هذه الوقائع ولها مغزاها الدقيق الذي سقنا شيئاً من أمره، وأنّ المستشرقين يتخطّون الدقة التاريخية متأثرين في ذلك بهواهم المسيحي، فالنقد التاريخي

(١٠٧٧) صحيح البخاري: تفسير سورة التحريم، وصحيح مسلم: الحديث ١٤٧٤ .

(١٠٧٨) التحريم (٦٦): ١ - ٥ .

الترية يأبى كل الإباء على أيّ إنسان، بله عظيم كـ «محمد»، أن يجعل من إفشاء حفصة لعائشة بأنها وجدت زوجها في بيتها مع مولاة له هي ملك يمينه وهي بذلك حلّ له، سبباً لهجر «محمد» نساءه جميعاً شهراً كاملاً، وتهدده إياهنّ جميعاً بأنّ يطلّقهنّ. والنقد التاريخي التريه يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد. فإذا كان الرجل عظيماً كـ «محمد»، فرفيقاً كـ «محمد»، واسع الصدر طويل الأناة متّصفاً بما لـ «محمد» من سائر الصفات التي يُقرّ له بها مؤرخوه جميعاً على سواء، كان اعتبار أيّ من الحادّين لذاته سبباً لهذا الهجر والتهديد بالطلاق فما يَزورّ عنه النقد التاريخي وبنأى عنه بجانبه أشدّ النأي. وإنّما يطمئن هذا النقد ويستقيم منطق التاريخ إذا سيقت الحوادث المساق الذي لا مفرّ معه من أن تؤدّي إلى نتائجها المحتومة، فتصبح بذلك أموراً طبيعية يسيغها العقل ويرضاها العلم. وما فعلنا نحن هو في نظرنا المساق الطبيعي للحوادث، وهو الذي يتفق مع حكمة «محمد» وعظمته وحزمه وبعد نظره^(١٠٧٩).

ويتحدّث بعض المستشرقين عمّا أنزل من الآيات في مستهلّ سورة التحريم ممّا نقلنا هنا، ويذكر أنّ كتب الشرق المقدّسة جميعاً لم تشر إلى مثل هذا الحادث المتزلي على هذه الصورة. وما أحسبنا بحاجة إلى أن نذكر ما ورد بالكتب المقدّسة جميعاً والقرآن من بينها عن قوم لوط ونقيصتهم، وما كان من مجادلته الملكين ضيفي لوط، ولا ماورد في هذه الكتب عن امرأته وأنها كانت من الغابرين. بل إنّ التوراة لتقصّ نبأ ابنتي لوط إذ سَقتا أباهما حتّى ثلّ ليلتين متتاليتين ليقترب كلّ واحدة منهما ليلة كيما يُخصبها فتلد، مخافة فناء آل لوط بعد إذ أنزل الله بهم من الجزاء ما أنزل^(١٠٨٠). لكنّ الكتب المقدّسة جميعاً جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرة للناس. وقد تناول القرآن من ذلك الكثير، قصّ الله فيه على رسوله أحسن القصص. والقرآن لم يتزل لـ «محمد» وحده، وإنّما نزل للناس كافّة. و «محمد» نبيّ ورسول خلت من قبله الرسل الذين قصّ القرآن أخبارهم. فإذا قصّ القرآن من أخبار «محمد» وتناول من سيرته ليكون للمسلمين مثلاً، وليكون للمسلمين فيه أسوة حسنة، وأشار إلى حكمته في تصرفاته، فلا شيء من ذلك يخرج عمّا أوردت سائر الكتب المقدّسة وما أورد القرآن من سير الأنبياء. فإذا ذكرت أن هجر «محمد» نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التي رُويت في شأنه، ولم يكن لأنّ حفصة أفضت إلى عائشة بما فعل «محمد» مع مارية ممّا

(١٠٧٩) هذه الممارسات التي تؤذي النبيّ (صلى الله عليه وآله) الصادرة من نساءه تؤكد عدم صحة نظرية عدالة كلّ الصحابة التي التزمها كتاب

السيرة والتاريخ الإسلامي، وتؤيد من جهة صحة ما يذهب إليه أتباع مدرسة أهل البيت من عدم صحة الالتزام بعدالة كلّ الصحابة.

(١٠٨٠) العهد القديم، سفر التكوين، الفصل ١٩، خطبة ابنتي لوط: ٢٣ .

يحقّ لكلّ رجل مع أزواجه وما ملكت يمينه، رأيت في هذه الملاحظة التي يبيدها بعض المستشرقين ما لا يثبت أمام النقد التاريخي، ولا يتفق مع منطق الحوادث وما جرت به الكتب المقدّسة في شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم^(١٠٨١).

(١٠٨١) أمّا الآيات الأولى من سورة التحريم (١ — ٥) فقد وردت في أسباب نزولها روايات عديدة أشهرها وأنسبها: أنّ رسول الله كان يذهب أحياناً إلى زوجته زينب بنت جحش فتبقيه في بيتها حتّى تأتي إليه بعسل كانت قد هيأته له (صلى الله عليه وآله)، ولكن لما سمعت عائشة بذلك شقّ عليها الأمر؛ ولذا قالت: إنّها قد اتفقت مع حفصة إحدى أزواج الرسول على أن يسألا الرسول بمجرّد أن يقترب من أي منهما بأنّه هل تناول صمغ المغافير، وهو نوع من الصمغ يترشح من بعض أشجار الحجاز يسمى (عرفط) ويترك رائحة غير طيّبة علماً أنّ الرسول كان يُصر على أن تكون رائحته طيّبة دائماً.

وفعلًا سألت حفصة الرسول (صلى الله عليه وآله) هذا السؤال يوماً، وردّ الرسول بأنّه لم يتناول صمغ (المغافير) ولكنّه تناول عسلًا عند زينب بنت جحش، ولهذا أقسم بأنّه سوف لن يتناول ذلك العسل مرة أخرى، خوفاً من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذت على شجر صمغ (المغافير)، وحدّرها من أن تنقل ذلك إلى أحد لكي لا يشيع بين الناس أنّ الرسول قد حرّم على نفسه طعاماً حلالاً، فيقتدون بالرسول ويحرّمونه. إمّا بشبهة على أنفسهم، أو خوفاً من أن تسمع زينب وينكر قلبها وتنالم لذلك.

لكنّها أفشت السرّ فتبيّن أخيراً أنّ القصة كانت مدروسة ومعدّة، فتألم الرسول (صلى الله عليه وآله) لذلك كثيراً، فترلت الآيات السابقة لتوضح الأمر وتنهى من أن يتكرر ذلك مرة أخرى في بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وتؤكد روايات أخرى بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) ابتعد عن زوجاته. صحيح البخاري: ١٩٤/٦، لمدة شهر بعد هذا الحادث انتشر أنّ رسول الله عازم على طلاق زوجاته، الأمر الذي أدّى إلى كثرة المخاوف منهنّ.

والسرّ الذي أسرّه النبي لبعض زوجاته ثمّ لم يحفظه يتكوّن من أمرين: الأوّل: تناول العسل عند زوجته زينب بنت جحش. الثاني: تحرّم العسل على نفسه في المستقبل.

أمّا الزوجة التي أذاعت السرّ ولم تحافظ عليه فهي حفصة حيث نقلته إلى عائشة حين سمعت به.

أمّا الرسول فقد أطلع على افشاء هذا السرّ عن طريق الوحي، فقد ذكر جزءاً منه لحفصة، ومن أجل عدم إحراجها كثيراً لم يذكر لها القسم الثاني الذي هو تحرّم العسل على نفسه.

وقد تحدّث القرآن الكريم مع زوجتي الرسول اللتين كانتا وراء الحادث بقوله: (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا).

وقد اتفق المفسرون على أنّ تينك الزوجتين هما حفصة بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر. راجع التفسير الأمثل: ٤٠٥/١٨، جامع البيان

للطبري: ٢٠٠/٢٨، ح ٢٦٦٦٠ و ٢٦٦٧٨، تفسير القرطبي: ٢٦/١ و ١٨/١٨٩، تفسير ابن كثير: ٤١٥/٤.

وورد في صحيح البخاري عن ابن عباس أنّه قال: سألت عمر من كانت المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال

عمر: هما حفصة وعائشة. صحيح البخاري: ١٩٥/٦.

الفصل السابع والعشرون

تبوك وموت إبراهيم

الخراج وجبايته، أنباء تهيؤ الروم، نغير «محمد» في المسلمين ليتهيئوا للقتال بالشام، الخوالب المنافقون وشدة «محمد» معهم، الجيش العرم في لظى الطريق إلى الشام، انسحاب الروم خوفاً من «محمد»، عهده ليوحنا ولأمرأء الحدود، العود إلى المدينة، مرض إبراهيم، وفاته وبكاء «محمد» إياه.

لم يغير هذا الحادث المتري وهذا الاضراب والاضطراب بين النبي وأزواجه من سير الشؤون العامة شيئاً. وكانت الشؤون العامة بعد فتح مكة وإسلام أهلها قد بدأ يتضاعف خطرها، وقد بدأت العرب جميعاً تحسّ جلال هذا الخطر. فالبيت الحرام وما يتصل به من سدانة ورفادة وسقاية وما يتصل بالحجّ إليه من مختلف الطقوس قد أصبح في حكم «محمد» وفي حكم الدين الجديد. فلا جرم إذا أن تزداد شؤون المسلمين العامة لفتح مكة، وأن يزداد العرب إحساساً بسلطانهم في كلّ ناحية من شبه الجزيرة. وازدياد الشؤون العامة يحتاج بطبعه إلى مزيد في النفقات العامة. لذلك لم يكن بدّ من أن يدفع المسلمون زكاة العشر، وأن يدفع العرب الذين أصروا على جاهليتهم ما يفرض عليهم من خراج. قد يُخرجهم ذلك وقد يدعوهم إلى التذمر وإلى أكثر من التذمر. لكنّ ما اتصل بالدين الجديد من نظام في شبه الجزيرة جديد لم يجعل من جمع العشر والخراج محرّجاً. ولهذا الغاية أوفد «محمد» صيارفه بعد قليل من عوده من مكة ليجمعوا إليه عشر إيراد القبائل التي دانت للإسلام من غير أن يتعرّضوا لأصول أموالها. وذهب هؤلاء كلّ وجهته. فتلقّتهم القبائل بالترحاب ودفعت لهم زكاة العشر طيبة بدفعها نفوسهم، لم يندّ عن ذلك غير فرع من بني تميم وغير بني المصطلق. فقد كان الصيرف يقتضي قبائل في جوار بني تميم زكاة العشر، وهم يدفعونها من إبلهم وأموالهم، فسارعت بنو العبر — فخذ من بني تميم — إليه قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها وسيوفها وطردته من أرضها. فلمّا بلغ الخبر «محمدًا» بعث إليهم عيينة بن حصن على رأس خمسين فارساً انقضوا عليهم في سرّ منهم ففروا. وأصاب المسلمون الأسرى

والسبايا وهم يزيدون على خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً، وعادوا موفورين إلى المدينة؛ وحبس النبي هؤلاء الأسرى. وكان من بني تميم جماعة أسلموا وقاتلوا إلى جانب النبي عند فتح مكة وفي حنين، وكان منهم من لا يزال على جاهليته. فلما عرفوا ما أصاب أصحابهم من بني العنبر أرسلوا إلى النبي وفداً من أشrafهم نزلوا إلى المدينة ودخلوا المسجد، ونادوا النبي من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا «محمد». وأذى نداؤهم النبي، فما كان ليخرج إليهم لولا أن أذن لصلاة الظهر. فلما رأوه ذكروا ما صنع عيينة بأهلهم، كما ذكروا ما كان لمن أسلم منهم من جهاد إلى جانبه، وما لقومهم من مكانة بين العرب؛ ثم قالوا له: إنا جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فقام خطيبهم عطار بن حاجب، فلما فرغ دعا رسول الله ثابت بن قيس ليرد عليه. ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال، وأجابه حسان بن ثابت. فلما انتهت المفاخرة قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. وأسلم القوم فاعتق النبي الأسرى وردهم إلى قومهم^(١٠٨٢).

فأما بنو المصطلق فإنهم لما رأوا الصيرف فرّ هارباً خافوا عاقبة أمرهم وأوفدوا إلى النبي من ذكر له أن الخوف في غير محل له هو الذي أدى إلى ما وقع من سوء التفاهم^(١٠٨٣).

ولم تكن ناحية من نواحي شبه الجزيرة إلا بدأت تحس سلطان «محمد». ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان إلا بعث النبي إليها قوة تحملها على الإذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها أو بالإسلام ودفع الزكاة.

وفيما عيّنه على بلاد العرب جميعاً، حتى لا ينتقض فيها منتقض وحتى يستتب الأمن في ربوعها من أقصاها إلى أقصاها، إذ اتصل به «محمد» نبأ من بلاد الروم أنها قمت جيوشاً لغزو حدود العرب الشمالية غزواً ينسي الناس انسحاب العرب الماهر في مؤتة، وينسي الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليتاخم سلطان الروم في الشام وسلطان فارس في الحيرة. واتصل به هذا النبأ مجسماً أيماً تجسيم. فلم يتردد برهة في تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه والقضاء عليها قضاءً يقضي في نفوس سادتها على كل أمل في غزو العرب أو في التعرض لهم. وكان الصيف لما ينته. والقيظ في أوائل الخريف يصل إلى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف

(١٠٨٢) المغازي للواقدي: ٩٧٣/٢ — ٩٨٠، الطبقات: ١٦٠/٢ — ١٦١، وعيون الأثر: ٢٥٣/٢ — ٢٥٤، وجمع البيان: ٢١٥/٩.

(١٠٨٣) المغازي للواقدي: ٩٨٠/٢ — ٩٨١، والطبقات الكبرى: ١٦١/٢، وإمتاع الأسماع: ٤٢/٢، وجمع البيان: ٢٢٠/٩. واغفل هيكل

ذكر كذبة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي أخي عثمان من الرضاة عن بني المصطلق والتي بشأنها نزل قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) والتي بها عُرف الوليد بالفاسق. الغارات لابن محمد الثقفي:

٢٥١/١ و٥٩٨، السقيفة وفدك للجوهري: ١٢٨، السنن الكبرى للبيهقي: ٥٥/٩، جمع الزوائد للهيتمي: ١٠٩/٧، الأحاد والمثاني

للضحاك: ٣٠٩/٤، المعجم الكبير للطبراني: ٢٧٥/٣ ح ٣٣٩٥.

في هذه الصحاري إرهاباً وقتلاً. ثُمَّ إِنَّ الشَّقَّةَ من المدينة إلى بلاد الشام طويلة شاقة تحتاج إلى الجلد وتحتاج إلى المؤونة وإلى الماء. إِذَا لَا مَفَرَّ من أَنْ يطالع «مُحَمَّد» الناس بعزمه السير إلى الروم وقتلهم حتَّى يأخذوا لذلك عِدَّتَهُم. وَلَا مَفَرَّ من أَنْ يخالف «مُحَمَّد» بذلك تقاليده في سابق غزواته حين كان يتوجَّه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي إليها يقصد، تضليلاً للعدو حتَّى لا يفشو خبر مسيرته. وأرسل «مُحَمَّد» في القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ كيما تُعدَّ أكبر جيش يمكن اعداده، وأرسل إلى سراة المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله، وليحرِّضوا الناس على الانضمام إليه، حتَّى يكون من الأهبة بما يدخل الروح في نفوس الروم الذين عُرفوا بوفرة عِدَّتِهِم وكثرة عديدهم.

بِمَ عسى أَنْ يستقبل المسلمون هذه الدعوة إلى هجر أبناءهم ونساءهم وأموالهم في شِدَّة القِيظ ليقطعوا فيافي وصحاري مجدبة قليلة الماء، ثُمَّ ليلقوا عدوًّا غلب الفرس ولم يقهره المسلمون؟! أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول وشديد تعلُّقهم بدين الله إلى الإقبال على دعوته متدافعين بالمناكب حتَّى يضيق بهم فضاء الصحراء، دافعين أمامهم أموالهم وإبلهم، مدرِّعين بسلاحهم، مثيرين أمامهم من التَّقع ما إن كان يكاد يبلغ العدوَّ نبؤهُ، حتَّى يوَلَّى الأدبار لا يلوي على شيء؟ أم تُمسكهم مشقَّة الطريق وشدة الحرِّ ومخافة الجوع والعطش، فيتقاعسون ويتراجعون؟ لقد كان في المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك، كان فيهم أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونوراً، ونفوس غَمَرها ضياء الإيمان فلا تعرف غيره، وكان فيهم من دخل في دين الله رَغَباً ورَهَباً: رَغَباً في مغنم الحرب بعد أن أصبحت قبائل العرب كلّها لا تثبت أمام غزو المسلمين، فتسلَّم لهم ثُمَّ يؤدُّوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ورَهَباً من هذه القوة التي تضطرب أمامها كلّ قوة ويخشى سلطانها كلّ ملك^(١٠٨٤). فأما الأولون فأقبلوا لدعوة رسول الله خِفَافاً مسرعين، ومنهم الفقير الذي لا يجد الدابة يحمل نفسه عليها، ومنهم الغنيّ ماله بين يديه يقدِّمه في سبيل الله راضيةً نفسه طامعاً في الإستشهاد والانحياز إلى جوار الله. وأما الآخرون فتشاكلوا وبدأوا يلتمسون الأعذار، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم يهزؤون بدعوة «مُحَمَّد» إِيَّاهم لهذا الغزو النائي في ذلك الجوّ المحرق. هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت^(١٠٨٥) فيهم سورة التوبة، فيها أعظم دعوة للجهاد وأشدَّ تخويف من عذاب الله يصيب من تخلف عن إجابة رسوله.

(١٠٨٤) وهؤلاء هم المنافقون على اختلاف مراتبهم، وكان يُعرف بعضهم بذلك، والقسم الآخر لا يعرف لأنَّ نفاقه خفي فكان ينطبق عليهم عنوان الصحابة وبناءً على ذلك لا يمكن الأخذ بنظرية عدالة كلّ الصحابة وسيأتي التعليق على هذه المسألة مُفصَّلاً.

(١٠٨٥) أسباب النزول للواحدي: ١٦٥ — ١٦٦، وجمع البيان: ٩٨/٥.

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ فترل قوله تعالى: (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ* فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَسْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (١٠٨٦). وقال «محمد» للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد، هل لك العام في جلاّد بني الأصفر؟ فقال: «يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنّه ما من رجل أشدّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر». وبنو الأصفر هم الروم. فأعرض عنه رسول الله، وفيه نزلت (١٠٨٧) الآية: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لُمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (١٠٨٨). وانتهر الذين تنطوي قلوبهم على بغضاء «محمد» هذه الفرصة ليزيدوا المنافقين نفاقاً، وليحرّضوا الناس على التخلف عن القتال. هؤلاء لم ير «محمد» أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم، ورأى أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. بلغه أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سُويلم اليهودي يثبطون الناس ويلقون في نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، فحرّق عليهم بيت سُويلم ففرّ أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم الباقون النار فأفلتوا ولكنهم لم يعودوا لمثلها، ثم كانوا مثلاً لغيرهم فلم يجروا أحد بعدهم على مثل فعلهم (١٠٨٩) (١٠٩٠).

وقد كان لهذه الشدة في أخذ المنافقين ومن معهم أثرها. فقد أقبل الأغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش: أنفق عثمان ابن عفان وحده ألف دينار (١٠٩١)، وأنفق كثيرون

(١٠٨٦) التوبة (٩): ٨١ — ٨٢ .

(١٠٨٧) أسباب النزول للواحدي: ١٦٦، وجميع البيان: ٦٥/٥ .

(١٠٨٨) التوبة (٩): ٤٩ .

(١٠٨٩) ولهذه الأحداث التاريخية والسلوكات المتناقضة وغيرها لقسم من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي صرح بها القرآن والسنة النبوية والتي منها قوله (صلى الله عليه وآله): «لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ فليجلج النار» السيرة النبوية لابن هشام: ٢٧٩/٢، وقوله: «أنا فرطكم على الحوض وسأنازع رجالاً فأغلب عليهم فلاقولن ربّ أصحابي أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» مسند أحمد: ٣٥/٢، نعم لهذا ترى مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) : أنّ حال الصحابة كحال غيرهم من حيث العدالة ففيهم العادل وغير العادل، وليس كلّ من صحب رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان عادلاً، وليس للصحبة دور في عدالة الصحابي ما لم تتجسّد سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سلوكه ومواقفه، فالملاك هو السيرة العملية؛ وكلّ من تطابقت سيرته مع المنهج الإسلامي فهو عادل، ومن خالف المنهج الإسلامي فهو غير عادل، وهذا الرأي يتطابق مع القرآن الكريم والسنة الشريفة، فقد أشار القرآن الكريم وكذا السنة إلى أنّ من الصحابة من هم مؤمنون حقاً، كما أنّ منهم المنافقين، كما مرّ عليك في متن الكتاب، ولزيد من التفصيل راجع: (سلسلة في رحاب أهل البيت) نظرية عدالة الصحابة، الصادرة عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) .

(١٠٩٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٥١٧/٢، وتاريخ ابن خلدون: ٤٦٧/٢، وتاريخ الخميس: ١٢٤/٢ .

(١٠٩١) يتردّد الإنسان في قبول هذا المقدار من الإنفاق، فيما لو ضمّ هذه الرواية إلى غيرها من الروايات أو تأمّل في دلالتها. فعن عبد الرحمن بن سمرة، أنّه قال: لقد قدّم عثمان بن عفان للنبي (صلى الله عليه وآله) ألف دينار مساهمة منه في تجهيز الجيش فصبّها في كمّه فأخذ رسول الله يقبلها بيده ويقول: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم.

غيره كلّ في حدود طاقته، وتقدّم كلّ قادر على نفقة نفسه بعدّته ونفقته. وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم النبيّ معه، فحمل منهم من استطاع، واعتذر للباقيين وقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاّ يجدوا ما ينفقون. ولبكائهم هذا أطلق عليهم اسم البكّائين. واجتمع لـ «محمد» في هذا الجيش، الذي سُمّي جيش العسرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه، ثلاثون ألفاً من المسلمين^(١٠٩٢).

اجتمع الجيش وقام أبوبكر فيه يؤمّ الناس للصلاة في انتظار عود «محمد» من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته^(١٠٩٣). وقد استخلف عليها محمد بن مسلمة، وخلف عليّ بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم

وقد وصف صاحب تاريخ الخميس هذا الحديث بالغرابة، وروي عن قتادة أنّ عثمان حمل في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً، كما روي أيضاً في حديث حذيفة أنّه قدّم للنبيّ عشرة آلاف دينار فصّبّها بين يديه فجعل يقلّبها ويقول: اللّهم اغفر لعثمان ما قدّم وأخر وما أسرّ وما أعلن ما يبالي عثمان بما يفعل بعد اليوم.

الروايات أعلاه قد اختلفت في الكمية التي انفقها عثمان في تلك الغزوة، وتضاربت مضامينها، والاختلاف في المضامين من الأسباب الموجبة لتوهينها وعدم الاعتداد بها، ولهذا وصفها البكري في تاريخه بالغرابة. الرواية أعلاه من حيث السند من المراسيل والإرسال من عيوب الرواية، كما هو مقرر في محله على أنّها قد اشتملت على ما يتناقى مع منطوق القرائن، حيث جاء فيها: أنّ النبيّ قال ما ضرّ عثمان ما يفعل بعد اليوم، والقرآن يشير: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

ومن الجائر أن يكون عثمان قد ساهم في تسريح هذا الجيش، كما ساهم غيره من المسلمين، وقد جاء في أكثر الروايات أنّ النساء ساهمن بحليهنّ في هذه الغزوة وشاركن الرجال في ذلك. راجع سيرة المصطفى لهاشم معروف الحسيني: ٦٢٦.

(١٠٩٢) السيرة الحلبية: ١٣٩/٣.

(١٠٩٣) المصادر التاريخية الأمّ والرئيسية لم تذكر هذه الحادثة إطلاقاً.

(١٠٩٤)، وأصدر ما رأى أن يصدر من الأوامر، ثم عاد إلى الجيش يتولّى قيادته. وكان عبدالله بن

(١٠٩٤) أفرزت تعبئة غزوة تبوك عدداً من العناصر التي التفت على أمر الرسول (صلى الله عليه وآله) وحاولت أن تتخلف عن الجيش بشي الأعدار.

منهم من قال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما أحد أشدّ عجباً بالنساء مني، وإني لأخشى إن رأيت بنات بني الأصفر — الروم — لا أصبر عليهنّ، فأعرض عنه رسول الله وقد نزل فيه قول الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا...) .

ومنها المنافقون الذين قالوا: بحسب «محمد»: أن قتال بني الأصفر للعب، فتزل فيهم أيضاً قول الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ...) .

ومنها البكّاءون الذين يرغبون في الخروج إلّا أنّهم فقراء محتاجون وطلبوا من الرسول ما يحملهم عليه من دابة، فقال لهم رسول الله: (لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ).

فتولّوا وأعنيهم تفيض من الدمع حزناً إلّا يجدوا ما ينفقون.

ومنها المتخلفون وقد تخلفوا لا عن شك أو رغبة عن الجهاد وكانوا أهل صدق لا يُتهمون في إسلامهم الذي أطلق عليهم القرآن المخلفون الثلاثة الذين فاتتهم غزوة تبوك، فوبّخهم الله تعالى وعاقبهم على تخلفهم ليكون في ذلك عبرة لمن سواهم.

ومنها المجاهدون الصادقون الذين لبّوا نداء رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهَيَّأُوا لِفُورِهِمُ لِلخُرُوجِ معه في شوق بالغ ورغبة عظيمة في الجهاد.

لقد كان من أبرز فضائل عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أنّه شارك في جميع المعارك، ولازم رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جميع غزواته، — وكان هو حامل لواءه في تلك المعارك والغزوات — ما عدا تبوك حيث بقي في المدينة بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يشارك في هذا الجهاد المقدّس، لأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يدرك جيداً أنّ بعض المنافقين والمتريّسين، والمتحينين الفرص من رجال قريش سيستغلّون فرصة غيبة النبيّ القائد عن المدينة — مركز الدولة الإسلامية — فيثرون فيها فتنة، ويجهزون على الحكومة الإسلامية الفتية بانقلاب أو ما شابه ذلك، وأنّ مثل هذه الفرصة إنّما تسنح لهم إذا قصد رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكاناً نائياً، وانقطع ارتباطه بعاصمة الإسلام (المدينة)!!

ولقد كانت «تبوك» أبعد نقطة خرج إليها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جميع غزواته، فكان يحسد — بقوة — أن تقوم القوى المضادة للإسلام بقلب الأوضاع في غيابه، ويجمعوا من يروا رأيهم ويذهب مذهبهم من شتى أنحاء الحجاز، ويتحدوا لضرب الدولة الإسلامية والقضاء عليها من الداخل.

ولهذا — رغم أنّه استخلف محمد بن مسلمة على المدينة — قال للإمام عليّ بن أبي طالب:

«أنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجري وقومي، يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك».

ولقد أزعج بقاء عليّ (عليه السلام) — في المدينة — المنافقين الذين كانوا يترصدون بالإسلام الدوائر، ويتحينون الفرصة، ويفكّرون في انقلاب في غيبة النبيّ (صلى الله عليه وآله)، لأنّهم كانوا يعرفون أنّهم لن يعودوا يستطيعون مع وجود عليّ (عليه السلام) في المدينة، ومراقبته الدقيقة لتحركاتهم ونشاطاتهم فعل أي شيء ممّا كانوا ينوون القيام به، ولهذا أرجفوا به، وبثّوا شائعات خبيثة حوله، بغية إجباره على مغادرة المدينة فقالوا: ما خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً إلّا استثقلاً له، وتخفّفاً منه، أو: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) دعاه إلى الخروج لتبوك، ولكنّ عليّاً امتنع من الخروج بحجّة الحرّ الشديد، وبُعد الطريق وإثارة للدعة والراحة والرفاهية!!

ولإبطال هذه الشائعة الخبيثة، وتكذيب هذا الكلام، أخذ عليّ (عليه السلام) سلاحه، وخرج حتّى أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو نازل بالجرف — وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة — فقال:

«يا نبي الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني أنّك استقلتني وتحفّفت منّي».

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) حينئذ كلمته التاريخية الخالدة التي تعتبر من أبرز الأدلة وأقواها وأوضحها على إمامة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وخلافته بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بلا فصل:

«كذبوا، ولكنني خلّفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي». إمتاع الأسماع: ٤٤٩/١ و ٤٥٠ .

أَبِيّ قَدْ خَرَجَ فِي جَيْشٍ مِنْ قَوْمِهِ يَسِيرُ بِهِ إِلَى جَانِبِ جَيْشِ «مُحَمَّدٍ»^(١٠٩٥). لَكِنَّ النَّبِيَّ رَأَى أَنَّ يَظَلُّ عَبْدِ اللَّهِ وَجَيْشَهُ بِالْمَدِينَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ مَا يَزَالُ ضَعِيفَ الثِّقَةِ بِهِ وَبَصَحَةَ إِيمَانِهِ. وَأَمَرَ فَتَحَرَّكَ الْجَيْشُ وَثَارَ النَّقْعُ وَصَهَلَتِ الْخَيْلُ وَارْتَقَتِ نِسَاءُ الْمَدِينَةِ سَقْفَهَا يَشْهَدْنَ هَذَا الْجَحْفَلَ الْجَرَّارَ يَتَوَجَّهُ مَحْتَرِقًا الصَّحْرَاءَ صَوْبَ الشَّامِ، مُسْتَهِينًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالْحَرِّ وَالْظَّمَا وَالْمَسْغَبَةِ، تَارِكًا وَرَاءَهُ الْقَوَاعِدَ وَالْخَوَالِفَ مِمَّنْ آثَرُوا الظِّلَّ وَالنِّعْمَةَ وَاللَّذَّةَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَعَلَى رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ. وَلَقَدْ حَرَّكَ مَنْظَرَ الْجَيْشِ يَتَقَدَّمُهُ عَشْرَةُ آلَافٍ فَارِسٍ^(١٠٩٦) وَمَنْظَرُ النِّسَاءِ مَأْخُودَاتٍ بِجَلَالِهِ وَقُوَّتِهِ بَعْضُ نَفُوسٍ لَمْ تَحَرَّكْهَا دَعْوَةُ الرَّسُولِ فَتَقَاعَسَتْ وَلَمْ تَتَّبِعْهُ. رَجَعَ أَبُو خَيْثَمَةَ بَعْدَ أَنْ رَأَى هَذَا الْمَنْظَرَ فَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ قَدْ رَشَّتَا وَاحِدَةً مِنْهُمَا عَرِيْشَهَا وَبَرَدَتْ لَهُ فِيهِ مَاءٌ وَهَيَّأَتْ لَهُ فِيهِ طَعَامًا، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ مَا صَنَعَتَا، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ فِي الضَّحَى وَالرِّيحِ وَالْحَرِّ وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلِّ بَارِدٍ وَطَعَامٍ مَهِيَّا وَامْرَأَةً حَسَنَاءَ فِي مَالِهِ مَقِيمٌ؟ هَيَّا لِي زَادًا حَتَّى أَلْحَقَ بِهِ. فَهَيَّأَتْ لَهُ زَادَهُ وَلَحَقَ بِالْجَيْشِ^(١٠٩٧). وَلَعَلَّ جَمَاعَةً مِنَ الْخَوَالِفِ قَدْ فَعَلُوا فَعَلَ أَبِي خَيْثَمَةَ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا مَا فِي التَّقَاعِ وَالْخَوْفِ مِنْ شَتَارٍ وَمِثْلِهِ.

وَسَارَ الْجَيْشُ حَتَّى بَلَغَ الْحِجْرَ وَبِمَا أَطْلَالَ لِمَنَازِلِ ثُمُودَ مَنْقُورَةً فِي الصَّخْرِ. هُنَالِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْأُتْرُوقِ فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنْ بَثْرِهَا. فَلَمَّا رَاحُوا قَالَ لَهُمْ: لَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا وَلَا تَتَوَضَّأُوا مِنْهُ لِلصَّلَاةِ. وَمَا كَانَ مِنْ عَجِينِ عَجْنَتُمُوهُ فَاعْلَفُوهُ لِلْإِبِلِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَخْرُجَنَّ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ. ذَلِكَ أَنَّ الْمَكَانَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَمُرُّ بِهِ. وَكَانَتْ تَعْصِفُ أحيانًا عَوَاصِفُ الرَّمْلِ تَطْمُرُ النَّاسَ وَالْإِبِلَ. وَلَقَدْ خَرَجَ رَجُلَانِ عَلَى خِلَافِ أَمْرِ الرَّسُولِ احْتَمَلَتْ أَحَدُهُمَا الرِّيحَ وَطَمَرَتْ الْآخَرُ الرَّمَالَ. فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ أَلْفُوا هَذِهِ الرَّمَالَ قَدْ طَمَّتِ الْبُئْرُ فَلَمْ يَبْقَ بِهَا مَاءٌ فَفَزَعُوا خِيفَةَ الظَّمَا وَقَدَّرُوا لِمَا بَقِيَ مِنْ طَوْلِ الطَّرِيقِ^(١٠٩٨). وَإِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ إِذْ مَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ أَمْطَرَتْهُمْ فَارْتَوَوْا وَأَصَابُوا مِنَ الْمَاءِ مَا شَاءُوا وَزَايَلَهُمُ الْفَزَعُ وَطَارَ أَكْثَرُهُمْ سُرُورًا وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

فَرَجَعَ عَلِيٌّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلَى سَفَرِهِ. انْظُرْ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ لِلْسَّبْحَانِي: ٥٥٧/٢.

(١٠٩٥) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٥١٩/٢.

(١٠٩٦) الْمَغَازِي لِلْوَاقِدِيِّ: ١٠٠٣/٢، وَالطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ١٦٦/٢، وَعْيُونُ الْأَثَرِ: ٢٦٨/٢، وَتَفْسِيرُ مَجْمَعِ الْبَيَانِ: ١٠٤/٥، وَبَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٢١٨/٢١.

(١٠٩٧) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٥٢٠/٢، وَالْمَغَازِي لِلْوَاقِدِيِّ: ٩٩٨/٢ — ٩٩٩، وَتَارِيخُ الْخَمِيسِ: ١٢٥/٢ — ١٢٦، وَرَاجِعُ التَّنْبِيْهِ لِلطُّوسِيِّ: ٣١٤/٥، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٢٠٣/٢١ — ٢٠٥.

(١٠٩٨) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٥٢١/٢ — ٥٢٢، وَالْمَغَازِي لِلْوَاقِدِيِّ: ١٠٠٦/٢، وَالسِّيرَةُ الْحَلَبِيَّةُ: ١٣٤/٣، وَبَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٢٤٩/٢١.

على النبيّ يقولون: إنّها معجزة. فلم يرض قوْلهم، وكان جوابه لهم: إنّما هي سحابة مارة^(١٠٩٩) (١٠٠).

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك. وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوّته فأثرت الانسحاب بجيشها الذي كانت وجّهت إلى حدودها ليتحصّن داخل بلاد الشام في حصونها^(١١٠١). فلمّا انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف «محمّد» أمر انسحاب الروم ونفى إليه ما أصابهم من خوف، لم ير محلاً لتتبعهم داخل بلادهم. وأقام عند الحدود يتحدّى من شاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتّى لا يتخطّى من بعد ذلك إليها أحد^(١١٠٢). وكان يوحنا بن رُوبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود. ولقد وجّه إليه النبيّ رسالة أن يدعن أو يغزوه؛ فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وتقدّم بالطاعة وصالح «محمّداً» وأعطاه الجزية، كما صالحه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية. وكتب رسول الله لهم كتب أمن، هذا نصّ أحدها وهو ما كتب ليوحنا:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمانة من الله و«محمّد» النبيّ رسول الله ليوحنا بن رُوبة وأهل أيلة سُنْفَنهم وسيّارهم في البرّ والبحر لهم ذمة الله و«محمّد» النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فأنّه لا يحول ماله دون نفسه، وإنّه طيّب لـ «محمّد» أخذه من الناس، وأنّه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر. وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد أهدى «محمّد» إلى يوحنا رداءً من نسج اليمن وأحاطه بكلّ صنوف الرعاية، بعد أن اتفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كلّ عام^(١١٠٣).

(١٠٩٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٢٢/٢، والمغازي للواقدي: ١٠٠٨/٢ — ١٠٠٩، تاريخ الخميس: ١٢٦/٢، وبحار الأنوار: ٢٤٩/٢١ — ٢٥٠.

(١١٠٠) لم يكن هذا الجواب لرسول الله، وإنّما كان هذا كلام المنافقين وجوابهم، حين شكى المسلمون العطش لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، فاستقبل القبلة ودعا ولم يكن في السماء سحابة، فما زال يدعو حتّى اجتمعت السحب من كلّ ناحية، فما برح من مكانه حتّى نزل المطر وانكشفت السحب فسقى الناس وارتووا عن آخرهم ومأوا أسقيتهم، فقال أحد المسلمين لبعض المنافقين: ويحك أبعد هذا شيء؟ وهل بقي عندك شيء من الريب؟ فقال: إنّما هي سحابة مارة، وانطلق الجيش في طريقه إلى تبوك، وقبل وصولهم إليها نزلوا في مكان، فضلّت ناقة الرسول (صلى الله عليه وآله) فخرج أصحابه في طلبها، فقال زيد بن الصلت القينقاعي وكان من المنافقين: أليس «محمّد» يزعم أنّه نبيّ يخبركم عن السماء وهو لا يدري الآن أين ناقتة، وعلم رسول الله بهذه المقالة عن طريق الوحي، فقال وعنده عمارة بن حزم: إنّ رجلاً قال: إنّ «محمّداً» يخبركم عن السماء وهو لا يدري أين ناقتة، وإني والله لا أعلم إلّا ما علّمني ربّي، وقد دلّني الآن عليها وهي في الوادي قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتّى تأتوا بما فذهبوا فوجدوها كما أخبر رسول الله.

(١١٠١) لم يرد في كتب التاريخ أنّ الروم قد انسحبوا، نعم، إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) اكتشف بأنّ أمر الانسحاب شائعة كاذبة بثّها الروم على لسان تجار الميرة إلى المدينة.

(١١٠٢) المغازي للواقدي: ١٠١٩، وتاريخ دمشق لابن عساكر: ١١١/١ — ١١٣، وتاريخ الخميس: ١٢٩/٢.

(١١٠٣) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٢٥/٢ — ٥٢٦، ودلائل النبوة: ٢٣٩/٥، والسيرة النبويّة لزيني دحلان: ١٣٢/٢.

لم يبق «محمد» بحاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه، وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاص أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة ومعاونته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته. لذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمئة فارس وانقلب هو بجيشه راجعاً إلى المدينة. وأسرع خالد بالانقضاء على دومة في غفلة من مليكها الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش. ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حساناً وأخذ أكيدر أسيراً وهدّده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها. وفتحت المدينة الأبواب فداءً لأمرها، وساق خالد منها ألفي بعير وثمانئة شاة وأربعمئة وسق من بُرّ وأربعمئة درع، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي في عاصمته. هنالك عرض «محمد» الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً^(١١٤).

لم يكن عود «محمد» على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين. فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذي عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه «محمد» بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم، بل كان كلّ الذي نظروا إليه أنّهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا في قطعها ما تحمّلوا من الأذى، وهاهم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا، بل لم يقاتلوا، وكلّ الذي فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوماً^(١١٥). فهل لهذا قطعوا الصحراء في شدة القيط؟ في حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل «محمد»، فينقل من ملاء الإيمان قلوبهم نبأهم إليه، فيأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة و«محمد» يحفظ النظام في صفوفه؛ حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها. لحقه بها ومعه أكيدر ومعه ما حمل من دومة من إبل وشاة وبر ودروع، وعلى أكيدر حلة من ديباج موشى بالذهب بُهت أهل المدينة لمراها.

هنالك اضطرب الذين تحلفوا عن اتباعه اضطراباً ردّ المستهزئين إلى صوابهم. جاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب. وأعرض «محمد» عما صنعوا تاركاً لله حسابهم. لكنّ ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلّفهم واعترفوا بذنبهم. هؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. وهؤلاء الثلاثة أمر «محمد» فأعرض المسلمون عنهم خمسين يوماً، ما يكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة. ثمّ تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا

(١١٤) المغازي للواقدي: ١٠٢٥/٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٥٢٦/٢، والسيرة الحلبية: ٢٠٦/٣، وإعلام الوری بأعلام الهدى: ٢٤٤/١،

وبحار الأنوار: ٢٤٦/٢١.

(١١٥) الطبقات الكبرى: ١٦٨/٢، وإمتاع الأسماع: ٧٠/٢.

عنهم ونزل^(١١٠٦) فيهم قوله تعالى في سورة التوبة: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ*)

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١١٠٧)).

من يومئذ بدأ «محمد» يشتد في معاملة المنافقين شدة لم يألفوا من قبل. وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يُخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه. وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم — وذلك ما لم يقم بنفس «محمد» ريب فيه، بعد أن وعده ربه لينصرون دينه وليعلن كلمته — كان المنافقون خطراً عظيماً. ولقد كان له من قبل حين كان الإسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجري بين المسلمين. أما وقد انتشر الدين في أنحاء بلاد العرب جميعاً، وهاهو ذا يشارف الانتقال منها، فكلّ قهوان مع المنافقين شرّاً تُخشى مغيبته، وخطرٌ ما أسرع ما يستشري إذا لم تُجث جرتومته. بنى جماعة مسجداً بذي أوان — بينه وبين المدينة ساعة من فهار — ، وإلى هذا المسجد كان يأوي جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضِراراً وكفراً. وطلبت هذه الجماعة إلى النبي أن يفتح المسجد بالصلاة فيه، وكان طلبهم هذا قبل تبوك؛ فاستمهلهم حتى يعود. فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقة ما قصد إليه من إقامته أمر بحرقه^(١١٠٨)، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا، ولم يبق لهم من يحميهم إلاّ عبدالله بن أبي شيخهم وقائدهم.

على أن عبدالله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين، مرض إثرهما، وتوفي. ولما كان ما بينه وبين النبي منذ نزل بالمدينة قد جعل «محمدًا» لا يناله إلاّ بالحسن، فإنّه ما لبث أن دُعِيَ للصلاة عليه حتى صلى وقام على قبره إلى أن دُفن وفرغ منه. وبوفاته انهار ركن المنافقين وآثر من بقي منهم أن يُخلص لله توبته^(١١٠٩).

(١١٠٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٥٣١/٢ — ٥٣٧، والمغازي للواقدي: ١٠٤٩/٢ — ١٠٥٣، والسيرة الحلبية: ١٤٥/٣، وجمع البيان:

١٣٧/٥، وبحار الأنوار: ٢١٩/٢١ — ٢٢٠.

(١١٠٧) التوبة (٩): ١١٧ — ١١٨.

(١١٠٨) المغازي للواقدي: ١٠٤٥/٢ — ١٠٤٦، وتاريخ الخميس: ١٣٠/٢، والسيرة الحلبية: ١٤٤/٣، وتفسير القمي: ٣٠٥/١، وبحار الأنوار:

٢٥٥/٢١.

(١١٠٩) إمتاع الأسماع: ٩٠/٢. هذه النتيجة التي توصل إليها المؤلف تخالف العقل والتاريخ حيث لم يذكر لنا التاريخ بأن حركة النفاق قد انتهت واختفت عن مسرح الحياة بعد موت ابن أبي زعيم النفاق، ولا تُشكّل وفاته كعامل سحري يحول القلوب والتمنيات الفكرية والنفسية بين

بغزوة تبوك تَمَّت كلمة رَبِّكَ في شبه الجزيرة كُلِّها، وأمن «محمَّد» عادية عليها، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدِّمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبي (عليه السلام). وكذلك أقام «محمَّد» بالمدينة مغتبطاً لما أفاء الله عليه. وفي هذه الأثناء كان ابنه إبراهيم قرّة عينه له ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً. فكان إذا فرغ من استقبال الوفود من القيام بأمر المسلمين ومن أداء حقّ الله ورسالته وحقّ أهله جميعاً لهم، اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذي ظلّ يترعرع وينمو ويزداد شبهه بـ «محمَّد» وضوحاً يزيد أباه له حبّاً وبه تعلقاً. وخلال هذه الأشهر جميعاً كانت حاضنته أمّ سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التي أهداها النبي إليها. ولم يكن تعلق «محمَّد» بإبراهيم لغاية في نفسه لها اتصال برسالته أو بمنّ يخلفه. فقد كان (عليه السلام) في إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر في ولده ولا فيمن يرثه؛ بل كان يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»^(١١٠). إنّما هي العاطفة الإنسانية في أسمى معانيها؛ العاطفة الإنسانية التي بلغت من السموّ في نفس «محمَّد» ما لم تبلغه في نفس أحد غيره، العاطفة الإنسانية التي جعلت العربي يرى فيمن يخلفه من الذكران صورة من صور الخلود، هذه العاطفة هي التي جعلت «محمّداً» يخلع على إبراهيم كلّ هذا الحبّ ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده. ولقد زاد هذه العاطفة رقة وقوّة في نفسه أنّه فقد أولاده القاسم والطاهر والطيب في طفولتهم، وهم مايزالون في حجر أمّهم خديجة، وأنّه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجاً وأمّهات، فلم تبق له منهنّ غير فاطمة. هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فرّقوا بعينه تحت الثرى، تركوا في نفسه قرحة ألم اندملت بمولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاءً وأملاً. وكان حلاًّ له أن يمتلئ بهذا الأمل غبطة واستبشاراً.

لكنّ هذا الأمل لم يكن ليطول إلّا تلك الأشهر التي ذكرنا. فقد مرض إبراهيم بعدها مرضاً خيف منه على حياته، فنقل إلى نخل بجوار مشربة أمّ إبراهيم، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين ترضّانه. ولم يطل بالطفل المرض. فلمّا كان في الاحتضار وأخبر النبي بأمره، أخذ بيد عبدالرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدة ألمه، حتّى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها، فوجد إبراهيم في حجر أمّه يجود بنفسه، فأخذه فوضعه في حجره وقلبه يرجف ويده

عشية وضحاها، أمّا القول بأنّ المنافقين قد تابوا فهذا ما لا يمكن قبوله أيضاً لأنّه من السرائر والتي لم تثبت لنا بخبر صادر عن الله أو رسوله وهذا ما لا يمكن للمؤلف أن يدّعيه.

وبقاء شريحة المنافقين في المدينة يستدعي حضورهم الفاعل في الأحداث التي أعقبت وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) بالرغم من احراق مسجدهم وموت أحد أركانهم.

بينما غيب المؤلّف دورهم في الأحداث بمجرد إعلان المؤلّف أنّ من بقي منهم أثر أن يُخلص لله توبته.

(١١٠) علّقنا على هذا الحديث مفصّلاً في الفصل (الحادي والعشرون) والصفحة (٥٥٦) الهامش (٣).

تضطرب، وقد ملك الحزن عليه فواده وبدت صورة الألم على قسّمات وجهه. وضعه في حجره، وقال: «إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً». ثمّ وجم وذرفت عيناه، والغلام يجود بنفسه وأمه وأختها تصيحان فلا ينهّاهما رسول الله. فلما استوى إبراهيم جثماناً لا حراك به ولا حياة فيه وانطفأ بموته ذلك الأمل الذي تفتّحت له نفس النبيّ زمنّاً، زادت عينا «محمّد» قهّاناً وهو يقول: «يا إبراهيم لولا أنّه أمر حقّ، ووعد صدق وأنّ آخراً سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك بأشدّ من هذا». وبعد أن وجم هنيئته، قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلّا ما يرضي الربّ، وإنا يا إبراهيم عليك لحزونون».

ورأى المسلمون ما بـ «محمّد» من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردّوه عن الامعان فيه، فذكّروه بما نهي عنه؛ فقال: «ما عن الحزن نهيت وإثما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء. وإنّ ما ترون بي أثر ما في القلب من محبة ورحمة. ومن لم يُبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة». أو كما قال. ثمّ إنّه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف، وطلب إليهما أن قهّونا عليهما، قائلاً: «إنّ له لمرضعاً في الجنة». ثمّ إنّ أمّ بردة غسلته — أو غسله الفضل بن عبّاس، في رواية أخرى — وحُمِل من بيتها على سرير صغير وشيّع النبيّ وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع، حيث دفن بعد أن صلّى النبيّ عليه. فلما تمّ دفنه أمر «محمّد» بسد القبر، ثمّ سوى عليه بيده ورشّ الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: «إنّها لا تضرّ ولا تنفع ولكنّها تُقرّ عين الحيّ وإن العبد إذا عمل عملاً أحبّ الله أن يتقنه»^(١١١).

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس؛ فرأى المسلمون في ذلك معجزة وقالوا: إنّها انكسفت لموته. وسمعهم النبيّ. أترى فرط حبه لإبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزّى بسماع مثل هذه الكلمة، أو يسكت على الأقلّ عنها أو يعذر الناس، إذ يراهم مأخوذِينَ بما

(١١١) استغرب عبدالرحمن بن عوف من بكاء النبيّ (صلى الله عليه وآله) على ولده إبراهيم، فاعترض على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قائلاً: أو لم تكن نهيت عن البكاء وأنت تبكي؟

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لا إثما هذه الرحمة، ولا يرحم من لا يُرحم» بحار الأنوار: ١٥١/٢٢، أو قال: «لا ولكن نهيت عن خمش وجهه وشقّ جيوب ورثة شيطان» السيرة الحلبية: ٣١٠/٢.

وورد في السنن وكتب الحديث، أنّه (صلى الله عليه وآله) بكى على ولده إبراهيم كما أنّه ندب إلى البكاء على عمّه حمزة وبكى على قبر أمّه وأبكى من حوله، كما أمر (صلى الله عليه وآله) بإرسال الطعام لأهل المصاب حين جاء نعي جعفر كما عيّن النبيّ أيام الحداد على الميت، لكنّ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يروي أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نهى عن البكاء وعائشة استدركت عليه حيث قالت: والله ما حدّث رسول الله إنّ الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، قال ابن عبّاس (رضي الله عنه) عند ذلك: والله هو أضحك وأبكى. صحيح البخاري: ١٥٥/١ — ١٥٦ وصحيح مسلم كتاب الجنائز ح ٢٢ ص ٦٤١.

قال النووي في شرح صحيح مسلم عن روايات النهي عن البكاء المروية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): وهذه الروايات من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبدالله (رضي الله عنهما) وأنكرت عائشة ذلك ونسبتها إلى النسيان والإشتهاء وأنكرت أن يكون النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال ذلك. شرح النووي بهامش صحيح مسلم: ٢٢٨/٦ كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، المطبعة المصرية (١٣٤٩ هـ).

يحسبونه المعجزة؟ كلاً! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون في الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم، فهو لا يليق بالتزيه الحكيم، فما بالك بالرسول العظيم؟! لذلك نظر «محمد» إلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال: «إنَّ الشَّمْسَ والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة»^(١١٢). آية عظمة أكبر من ألا ينسى الرسول رسالته في أشدّ المواقف التي تملأ نفسه بالفجيعة والاهول! لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لـ «محمد» موقف الإجلال والإعظام، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكباره وإعلان عرفانهم بصدق رجل لا يرضى في أدقّ المواقف إلا الصدق والحقّ.

ثرى ماذا كان شعور أزواج النبيّ بفجيئته في إبراهيم وحزنه الشديد عليه؟ أمّا هو فتعزّى بفضل الله وبمتابعة أداء رسالته وبازدياد الإسلام انتشاراً في هذه الوفود التي كانت ما تفتأ تتوارد إليه من كلّ صوب؛ حتّى لقد دعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود، وهي السنة التي حجّ أبوبكر فيها كذلك بالناس^(١١٣).

* * *

(١١٢) السيرة الحلبية: ٣٠٩/٣ — ٣١٠.

(١١٣) الطبقات الكبرى: ١٦٨/٢، والسيرة الحلبية: ٢١١/٣.

الفصلُ الثّامن والعِشرون

عام الوفود وحجّ أبي بكر بالنّاس

دخول العرب أفواجاً في دين الله، إسلام عروة بن مسعود الثقفي وقتل أهل الطائف له، أخذ القبائل المجاورة الطريق على ثقيف، وفدها إلى النبيّ وشروطه، إسلام الوفود وإسلام الطائف وهدم صنمها اللّات، حجّ أبي بكر بالنّاس، لحاق عليّ بن أبي طالب به، سورة براءة أساس الدولة الإسلامية المعنوي، الجهاد في الإسلام وتسويفه.

بغزوة تبوك تمّت كلمة ربّك في شبه جزيرة العرب كلّها، وأمن «محمّد» من كلّ عادية عليها. والحقّ أنّه لم يلبث أن عاد بعد هذه الغزوة إلى المدينة حتّى بدأ من كان مايزال على شركه من أهل شبه الجزيرة يفكّر. ولئن كان المسلمون الذين صحبوا «محمّداً» في مسيره إلى الشام، وكابدوا من صنوف المشاقّ واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالاً، قد عادوا وفي نفوسهم شيء من السخط أن لم يُقاتلوا ولم يغنموا بسبب انسحاب الروم إلى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها، فإنّ هذا الانسحاب قد ترك في نفس قبائل العرب المحتفظة بكيانها وبدينها أثراً عميقاً، وترك أثراً أعمق في نفس قبائل

الجنوب باليمن وحضرموت وعمان. أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردّوا منهم الصليب وجاءوا به إلى بيت المقدس في حفل عظيم؟ وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاورة لها أزماناً طويلة! فإذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جميعاً، فما أجدر هذه البلاد، بأن تنضمّ كلّها في تلك الوحدة التي تستظل بعلم «محمّد»، — علم إسلام — لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعاً؟ وماذا يضرّ أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون «محمّداً» يُثبّت من جاءه معلناً الإسلام والطاعة في إمارته وعلى قبيلته؟ فلتكن السنة العاشرة للهجرة إذاً سنة الوفود، وليدخل الناس في دين الله أفواجاً، وليكن لغزوة تبوك ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر ممّا كان لفتح مكّة، والانتصار في حنين، وحصار الطائف.

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطائف، التي قاومت النبيّ أثناء حصارها ما قاومت، حتّى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها، هي أوّل من أسرع إلى إعلان الطاعة بعد تبوك، وإن تردّدت طويلاً في إعلان هذه الطاعة. فقد كان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف المقيمين بالطائف غائباً باليمن أثناء غزو النبيّ بلاده بعد موقعة حنين. فلمّا عاد إلى موطنه ورأى النبيّ انتصر في تبوك وعاد المدينة، أسرع إليه يُعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه لاعتناق دين الله. ولم يكن عروة ليجهل «محمّداً» وعظم أمره، وقد كان أحد الذين تفاوضوا وإياه عن قريش في صلح الحديبية. وعرف النبيّ بعد إسلام عروة اعتزامه الذهاب إلى قومه يدعوهم إلى الدين الذي دخل فيه. وقد كان النبيّ يعرف من تعصّب ثقيف لصنمها اللات ومن نخوتها وشدّتها ما جعله يحذّر عروة ويقول له: إنهم قاتلوك. لكنّ عروة اعتزّ بمكانه من قومه، فقال: يا رسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم. وذهب عروة فدعا قومه إلى الإسلام، فتشاوروا فيما بينهم ولم يُبدوا له رأياً. فلمّا كان الصباح قام هو على عليّة ينادي إلى الصلاة. هنالك صدقت فِراسة الرسول^(١١٤). فلم يُطق قومه صبراً، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كلّ وجه فأصابه سهم قاتل. واضطرب من حول عروة أهله؛ فقال وهو يسلم الروح: «كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، فليس فيّ إلّا ما في الشهداء الذي قُتلوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل أن يرتحل عنكم». ثمّ طلب أن يُدفن مع هؤلاء الشهداء فدفنه أهله معهم^(١١٥).

ولم يذهب دم عروة هدرًا؛ فقد كانت القبائل التي تحيط بالطائف قد أسلمت كلّها، وقد رأت في هذا الذي صنعت ثقيف بسيد من ساداتها إثماً ونكراً. ورأت ثقيف من أثر ذلك أنّهم صاروا لا يأمن لهم سرب، ولا يخرج منهم رجل إلّا اقتُطع، وأيقنوا أنّهم إن لم يجدوا سبيلاً إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فمصيرهم لا ريب إلى الفناء. وأتمر القوم فيما بينهم وتحدّثوا إلى كبير منهم (عبد ياليل) كي يذهب إلى النبيّ يعرض عليه صلح ثقيف معه. وخشي عبد ياليل أن يُصيبه من قومه ما أصاب عروة بن مسعود، فلم يقبل أن يخرج إلى «محمّد» حتّى أوفدوا معه خمسة آخرين، اطمأن إلى أنّه إذا خرج معهم ثمّ عادوا شغل كلّ رجل منهم رهطه. ولقي المغيرة بن شعبة القوم حين دنوا من المدينة، فأسرع يريد أن يخبر النبيّ خبرهم، ولقيه أبوبكر يشتدّ في السيرة فلمّا عرف منه ما جاء فيه طلب إليه أن يدع له هذه البشريّ يزفّها إلى رسول الله. ودخل أبوبكر فأخبر النبيّ بقدوم وفد ثقيف عليه.

(١١٤) ولعلّها لم تكن فِراسة بقدر ما كانت خيرة غيبية.

(١١٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٣٧ — ٥٣٨، وإمتاع الأسماع: ٨٤/٢، وعيون الأثر: ٢٨١/٢، وإعلام الورى بأعلام الهدى:

٢٤٩/١، وبحار الأنوار: ٣٦٤/٢١.

وكان هذا الوفد ما يزال يعتزّ بقومه، وما زال يذكر حصار النبيّ للطائف وانصرافه عنها. فبالرغم ممّا علّمهم المغيرة كيف يحْيُون النبيّ بتحية الإسلام لم يرضوا حين قابله إلا أن يحْيوه بتحية الجاهلية. ثمّ إنهم ضربت لهم قبة خاصة في ناحية من المسجد أقاموا بها يُصرون على الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينة إليهم. وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله في مفاوضاتهم وإيائه، فكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند النبيّ حتّى يأكل منه خالد. وقام هذا بالسّفارة، فأبلغ «محمّداً» أنّهم — مع استعدادهم للإسلام — يطلبون إليه أن يدع صنمهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها وأن يُعفيهم من الصلاة. وأبى «محمّد» عليهم ما طلبوا من ذلك أشدّ إباء. ومع أنّهم نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين ثمّ أن يدعها سنة ثمّ أن يدعها شهراً واحداً بعد انصرافهم إلى قومهم، فقد كان إباؤه في ذلك حاسماً لا تردّد فيه ولا هوادة. وكيف تريد بنيّ يدعو إلى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية، أن يتهاون في أمر صنم منها وإن كان لقومه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف. فالإنسان إمّا أن يؤمن وإمّا ألاّ يؤمن، وليس بين الطرفين إلاّ الارتياب والشكّ. والشكّ والإيمان لا يجتمعان في قلب، كما لا يجتمع الإيمان والكفر. وبقاء اللات طاغية ثقيف علماً على أنّهم ما يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جلّ شأنه إشراك بالله، والله لا يغفر أن يُشرك به.

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاة؛ فرفض «محمّد» قائلاً: إنّه لا خير في دين لا صلاة فيه. ونزل الثقيفيون عن بقاء اللات وقبلوا الإسلام وإقامة الصلاة. لكنّهم طلبوا ألاّ يكسروا أوثانهم بأيديهم. إنهم حديثوا عهد بإيمان وقومهم ما يزالون في انتظارهم ليروا ما صنعوا، فليجنّبهم «محمّد» تحطيم ما كانوا يعبدون و ما كان يعبد آبائهم. ولم ير «محمّد» أن يشتد في هذه أيضاً. فسيان أن يكسر الثقيفيون الصنم وأن يكسره غيرهم؛ فهو سيُهدم وستقوم في ثقيف عبادة الله وحده. قال (عليه السلام): «أمّا كسر أوثانكم بأيديكم فسُنعفيكم منه» وكتب لهم رسول الله ثمّ أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنّاً. أمره عليهم رغم حداثة سنّه؛ لأنّه كان أحرصهم على الفقه في الإسلام وتعلّم القرآن، بشهادة أبي بكر والسابقين إلى الإسلام. وأقام القوم مع «محمّد» ما بقي من رمضان وصاموا وإيائه وهو يبعث لهم بفطورهم وسحورهم. فلمّا آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى «محمّد» عثمان بن أبي العاص، قائلاً: تجاوز في الصلّة واقدر الناس بأضعفهم؛ فإنّ فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة.

عاد القوم إلى بلادهم، فوجّه النبيّ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة، كانت لهما وثقيف مودة وحرمة، ليقوما بهدم اللات. وقدم أبوسفيان والمغيرة لهدم الصنم، فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حُسراً يكيّن، ولا يجروّ أحد أن يقترب منه بعد الذي كان من اتفاق وفد ثقيف

والنبيّ على هدمه. وأخذ المغيرة مال اللّات وحليها ففضى منه بأمر الرّسول وبالاتفاق مع أبي سفيان، ديناً كان على عروة والأسود^(١١٦). وبهدم اللّات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلّها قد أسلمت، وكانت سطوة «محمّد» قد امتدت من بلاد الروم في الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب. وكانت هذه البلاد الباقية في جنوب شبه الجزيرة تنهياً كلّها لتنضم إلى الدين الجديد، ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كلّ قوتها. وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفة قاصدة كلّها إلى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالإسلام^(١١٧).

بينما كانت الوفود تترى إلى المدينة كانت الأشهر الحرم يتلو أحدها الآخر حتّى اقترب موعد الحجّ. ولم يكن النبيّ (عليه السلام) قد أدّى الفريضة إلى يومئذ على تمامها كما يؤدّيها المسلمون اليوم. أفتراه يخرج في عامه هذا شكراً لله على ما نصره على الروم، وما أدخل الطائف في حظيرة الإسلام، وما جعل الوفود تجيء إليه من كلّ فجّ عميق؟ إنّ شبه الجزيرة ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله. ما يزال بها الكفّار وما يزال بها اليهود والنصارى. والكفّار على عهدهم في الجاهلية ما يزالون يحجّون إلى الكعبة في الأشهر الحرم، والكفّار نجس، فليبق إذاً بالمدينة حتّى يتمّ الله كلمته، وحتّى يأذن الله له بالحجّ إلى بيته. وليخرج أبوبكر في الناس حاجاً.

وخرج أبوبكر في ثلاثئة مسلم قاصداً إلى مكّة، لكنّ العام قد يتلو العام والمشركون ما يزالون يحجّون بيت الله الحرام، أليس بينه وبين الناس عهد عام ألاّ يُصدّ عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام؟! أليست بين «محمّد» وبين قبائل من العرب عهود إلى آجال مسماة، فمادامت هذه العهود فسيظلّ بيت الله يحجّ إليه من يشرك بالله ومن يعبد غير الله، وسيظلّ المسلمون يرون طقوس الجاهلية تؤدّى بأعينهم حول الكعبة، وهم بحكم هذه العهود الخاصة وهذا العهد العام لا قبل لهم بصد أحد عن حجّه وعبادته. ولئن كانت الأوثان التي يعبد العرب قد حُطّم الكثير منها وحطم منها كلّ ما كان في الكعبة أو حولها، فإنّ هذا الاجتماع في بيت

المقدّس اجتماعاً يضمّ الثائرين على الشرك وعلى الوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية، تناقض غير مفهوم. ولئن استطاع أحد أن يفهم حجّ اليهود والنصارى جميعاً إلى بيت المقدس، على أنّه أرض الميعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى، فلن يستطيع أحد أن

(١١٦) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٥٣٨ — ٥٤٢، وإمتاع الأسماع: ٨٤/٢ — ٨٨، وعيون الأثر: ٢٨١/٢ — ٢٨٣، وإعلام الوري بأعلام

الهدى: ٢٤٩/١، وبحار الأنوار: ٣٦٤/٢١.

(١١٧) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٥٥٩ — ٥٦٠.

يفهم اجتماع عبادتين: حول بيت تُحطَّم فيه الأصنام، وتُعبَد فيه الأصنام
التي حُطِّمَتْ. لذلك كان طبيعياً أن يُحال بين المشركين وبين الاقتراب

المسجد النبوي

خريطة المدينة المنورة

من البيت الذي طُهر من الشرك ومُسحت عنه كلّ معالم الوثنية. وفي هذا نزلت الآيات من سورة براءة. لكنّ موسم الحجّ بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كلّ فجّ يقضي مناسك حجّه. فليكن هذا الاجتماع أو ان تبليغهم أمر الله بنقض كلّ عهد بين الشرك والإيمان إلّا من عهد عُقد لأجل: فإنّه يبقى إلى أجله.

ولهذه الغاية أوفد النبيّ عليّ بن أبي طالب كي يلحق بأبي بكر، وكي يخاطب الناس حين الحجّ يوم عرفة بما أمر الله ورسوله. وحضر عليّ في أثر أبي بكر والمسلمين الذين برزوا إلى الحجّ معه كي يؤدّي رسالته. فلمّا رآه أبوبكر قال له: أمير أم مأمور؟ قال عليّ: بل مأمور. وأخبره بما جاء فيه، أنّ النبيّ إنّما بعثه لينادي في الناس لأنّه من أهل بيته^(١١٨). فلمّا اجتمع الناس بمضى

(١١٨) ماهو مقصود المؤلف من أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) بعث عليّاً لأنّه من أهل بيته؟ ولماذا لم يذكر قصة البراءة كما تذكرها أشهر الكتب التاريخية والسيرة والتفسير والحديث؟

هذا ما يثير الاستغراب! وعليه فنجد أنفسنا مضطرين إلى نقل القصة كما تذكرها كتب التاريخ، لا كما ينقلها المؤلف، ونوضّح الدلالة فيها رغم عدم رغبة المؤلف بإيضاح تلك الحقائق.

عن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) دعا أبا بكر (رضي الله عنه) يقرأها على أهل مكّة، ثمّ دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه.

ورجع أبوبكر (رضي الله عنه)، فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال: لا ولكنّ جبرئيل جاءني فقال: لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك؛ وعليّ منّي ولا يؤدّي عنّي إلّا عليّ. مسند أحمد: ٣/١، ٣٣١ و٢١٢/٣، ٢٨٣ و١٦٥/٤، وسنن الترمذي: ٥/ح ٣٧١٩، وسنن النسائي كتاب الخصائص: ٥/ح ٨٦٤١، وجامع الأصول: ٩/ح ٦٤٩٦، وجمع الزوائد: ٩/١١٩، وتاريخ يعقوبي: ٧٦٢/٢، والبداية والنهاية: ٣٩٤/٧.

وفي هذه الرواية عدّة دلالات:

١ — إنّ بعث النبيّ (صلى الله عليه وآله) عليّاً وعزله أبا بكر إنّما كان بأمر ربّه بتزول جبرئيل: «إنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك» فليس بصحيح أنّ النبيّ إنّما بعثه لينادي في الناس لأنّه من أهل بيته، وإلّا لماذا أرسل أبا بكر أول الأمر فما هكذا يا هيكّل تساق الإبل!

٢ — المهمّة العظيمة الذي انتخب لأجلها عليّ بأمر السماء لم تقتصر على قراءة براءة أو نقض العهد؛ ولذا لم يرد في شيء منها مثلاً: (لا يؤدّي براءة أو لا ينقض العهد إلّا أنت أو رجل منك، وعليه فلا دليل إلى تقييد ما يؤدّيه الإمام عليّ على براءة وذلك لأمر:

أ — إنّ عليّاً (عليه السلام) كما كان ينادي ببراءة، كذلك كان ينادي بحكم آخر وهو أنّ من كان له مدّة فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر. وهذا أيضاً مما تدل عليه آيات براءة.

ب — والحكم الثاني الذي تضمنه أداء عليّ (عليه السلام) هو: (أن لا يطوفنّ بالبيت عريان) وهو حكم إلهي مدلول عليه بقوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) (الأعراف: ٣١) وقد ورد في بعض الروايات ذكر الآية مع الحكم. وأكّده المؤلف حين نقل الرواية بعد ذكره للآية الشريفة.

ج — الحكم الثالث الذي أذاه الإمام أو الذي أمر بأدائه (أن لا يطوف أو لا يحجّ البيت مشرك بعد هذا العام) وهو مدلول قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِهِمْ هَذَا) (التوبة: ٢٨)

٣ — هذا الحدث الخطير والمهم من تاريخ الرسالة وتدخّل الوحي فيه يكشف لنا بلاشك أنّ علّة العزل والنصب لم تكن بدافع الرغبة في المقام والطموح إلى السلطة — نعوذ بالله تعالى — ولا وشيعة القربى مع عليّ كما يذهب إليها البعض، بل كان الغرض من هذا التغيير وبهذه الطريقة هو الكشف عملياً عن أهلية عليّ لإمرة المؤمنين عند غياب الرسول (صلى الله عليه وآله) وصلاحيته للقيام بالمهام المتعلقة بالحكومة الإسلامية بعد الرسول (صلى الله عليه وآله).

يُؤَدُّونَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَقَفَّ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ وَإِلَى جَانِبِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَنَادَى عَلِيٌّ فِي النَّاسِ يَتْلُو قَوْلَهُ
تَعَالَى:

(بِرَأْةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ* وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ
الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَاجْرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ* كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ
عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ* اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*
لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ* فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ* أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ
وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ* أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ* مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ*
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى
أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ*
يُسِّرُّهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ* لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ* ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ* قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ* وَقَالَ الْيَهُودُ غَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْآخِبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ* إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١١١٩).

وقف عليّ في الناس وهم يؤدّون مناسك الحجّ بمنى فتلا عليهم هذه الآيات من سورة التوبة
نقلناها هنا كاملة لغرض سببته. فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة، ثمّ صاح بالناس: أيّها الناس إنّ الله لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) عهد فهو إلى مدّته. صاح عليّ في الناس بهذه الأوامر الأربعة، ثمّ أجّل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كلّ قوم إلى مآمنهم وبلادهم. ومن يومئذ لم يحجّ مشرك، ولم يطف بالبيت عريان(١١٢٠). ومن يومئذ وُضع الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية.

(١١١٩) التوبة (٩): ١ — ٣٦ .

(١١٢٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٤٣ — ٥٤٥، والمغازي للواقدي: ٢ / ١٠٧٦ — ١٠٧٨، والطبقات الكبرى: ١٦٨/٢ — ١٦٩،

وتاريخ الخميس: ١٣١/٢، واليعقوبي: ٧٦/٢، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٩٩/٢، ومناقب آل أبي طالب: ٣٩١/١، وتفسير مجمع

البيان: ٩/٥، وبحار الأنوار: ٢٦٤/٢١ — ٢٦٦ و ٢٧٣ — ٢٧٥ .

هذا الأساس هو الذي جعلنا نسجل هنا صدر سورة التوبة كلّ، ودعا الحرص على أن يدرك العرب جميعاً هذا الأساس عليّ بن أبي طالب إلى ألاّ يكتفي بقراءة هذه الآيات من براءة يوم الحجّ على ما اتفقت عليه الرواية، بل جعله يقرؤها على الناس من بعد ذلك في منازلهم، على ما جاءت به روايات كثيرة^(١١٢١). وإنّك إذ تتلو صدر براءة هذا وتعيد تلاوته بإمعان وروية لتشعر حقاً بأنّها الأساس المعنويّ في أقوى صورة لكل دولة ناشئة تقوم. ونزول «براءة» كلّها بعد آخر غزوة من غزوات النبيّ، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون انضمامهم للدين الجديد، وبعد أن أصبح الحجاز كلّ ومعه قمامة ونجد منصوباً تحت راية الإسلام، وبعد أن أعلن كثير من قبائل الجنوب في شبه الجزيرة الاذعان لـ «محمد» والانضواء لدينه، يجلو الحكمة التاريخية في نزول الآيات التي تنتظم أساس الدولة المعنوي في هذا الطرف. فالدولة لتكون قوية يجب أن تكون لها عقيدة معنوية عامة يؤمن بها أهلها ويدافعون جميعاً عنها بكلّ ما أوتوا من عتاد وقوة. وأية عقيدة أعظم من الإيمان بالله وحده لا شريك له. وأية عقيدة أكبر سلطاناً على النفس من أن يحس الإنسان نفسه تتصل بالوجود في اسمى مظاهره، لا سلطان عليه لغير الله ولا رقيب غير الله على ضميره. فإذا وجد الذين يقومون في وجه هذه العقيدة العامة التي يجب أن تكون أساس الدولة، فأولئك هم الفاسقون، وأولئك هم نواة الثورة الأهلية والفتنة الماحقة. وأولئك يجب لذلك ألاّ يكون لهم عهد، ويجب أن تقاتلهم الدولة. فإن كانوا ثائرين على العقيدة العامة ثورة جامحة وجب قتلهم حتّى يُذعنوا. وإن كانت ثورتهم على العقيدة العامة غير جامحة، كما هو الشأن في أهل الكتاب، فيجب أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

النظر إلى المسألة من الجهة التاريخية والجهة الاجتماعية يهدينا إلى هذا التقدير لمغزى الآيات التي تلا القارئ هاهنا من سورة التوبة. وهو يهدي إلى هذا التقدير كلّ منصف نزيه القصد. لكنّ الذين أسرفوا في أحكامهم على الإسلام وعلى رسوله يذرون هذا النظر جانباً ويعرضون لهذه الآيات القوية غاية القوة من سورة التوبة على أنّها دعوة إلى التعصب لا تتفق مع ما ترصاه الحضارة الفاضلة من تسامح، دعوة إلى قتال المشركين وقتلهم حيث تَقِفهم المؤمنون في غير رفق ولا هوادة، دعوة إلى إقامة الحكم على أساس البطش والجبروت. هذا كلام تقرؤه في كثير من كتب المستشرقين. وهو كلام قهوى اليه الأذهان التي لم تنضج عندها ملكة النقد الاجتماعي والتاريخي حتّى من أبناء المسلمين. وهو كلام لا يتفق مع الحقيقة التاريخية ولا يتفق مع الحقيقة الاجتماعية في شيء. وهو لذلك يؤدي بأصحابه عند تفسيرهم ما أوردنا من سورة التوبة وما جاء من مُشابهه في مواضع كثيرة من القرآن تفسيراً يأباه منطق الحوادث في سيرة

الرّسول تمام الإباء، وتأباه حياة النّبيّ العظيم في تسلسلها من يوم بعث ربّه إياه وقيامه بالدعوة إلى دين الحقّ، إلى يوم اصطفاه الله إليه.

ويجملُ بنا لبيان ذلك أن نسأل عن الأساس المعنوي للحضارة الحاكمة اليوم، ثمّ نقيس به هذا الأساس المعنوي الذي دعا «محمّد» إليه. فالأساس المعنوي للحضارة الحاكمة اليوم هو حرية الرأي حرية لا حدّ لها، ولا حدّ للتعبير عنها إلّا بالقانون. وحرية الرأي هذه هي لذلك إذاً عقيدة يدافع الناس عنها ويضحّون في سبيلها ويجاهدون لتحقيقها ويحاربون من أجلها، ويعتبرون ذلك كلّ آية من آيات المجد التي يُفاخرون بها الأجيال ويتباهون بها على ما سبقهم من العصور. ومن أجل ذلك يقول المستشرقون الذين أشرنا إليهم: إنّ دعوة الإسلام لمقاتلة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر دعوة إلى التعصّب تتنافى مع هذه الحرية. وهذه مغالطة مفضوحة إذا عرفت أنّ قيمة الرأي الدعوة له والعمل به. والإسلام لم يدعُ لمناوأة المشركين من أهل الجزيرة إذا هم أذعنوا ولم يدعوا إلى شركهم ولم يعملوا به وقيموا طقوسه. والحضارة الحاكمة اليوم تحارب الآراء التي تُناقض مواضع العقيدة منها بأشدّ مما كان يحارب المسلمون المشركين، وتفرض على من يعتبر كتابياً بالنسبة لهذه الحضارة الحاكمة ماهو شرّ من الجزية ألف مرّة.

ولسنا نضرب المثل لذلك بما كان حين محاربة تجارة الرقيق — وإن آمن الذين كانوا يقومون بهذه التجارة — بأنّها لا حرمة فيها. لا نضرب هذا المثل حتّى لا يقال إنّنا لا نستنكر هذه التجارة، وإن كان الإسلام لم يدع إلى أكثر من محاربة ما يستنكر. لكنّ أوروبا اليوم، أوروبا صاحبة الحضارة الحاكمة تؤيّد أميركا وتعزّزها قوات الجنوب في آسيا والشرق الأقصى منها، قد حاربت البلشفية وهي مستعدة لمحاربتها أشدّ الحرب. ونحن في مصر مستعدّون للاشتراك مع الحضارة الحاكمة لمحاربة البلشفية. والبلشفية ليست مع ذلك إلّا رأياً في الاقتصاد يحارب الرأي الذي تدين به الحضارة الحاكمة اليوم. أف تكون دعوة الإسلام لمحاربة المشركين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه دعوة وحشية إلى التعصّب وضد الحرية، وتكون الدعوة إلى محاربة البلشفية الهادمة للنظام الاجتماعي في الحضارة الحاكمة، دعوة إلى الحرية في العقيدة والرأي وإلى احترامها! ثمّ إنّ قوماً رأوا في غير بلد من بلاد أوروبا أنّ التهذيب النفسي يجب أن يتصل به التهذيب الجسمي، وأنّ ما تواضع الناس عليه من ستر الجسم كلّ أو بعض أعضائه أشدّ إثارة للمعاني الجنسية في النفس وأشدّ لذلك إفساداً للخلق من أن يسير الناس وكلّهم عُريان. وبدأ أصحاب هذا الرأي ينفذونه وأقاموا محلات العرى في غير مدينة من المدن، وأقاموا أماكن يغشاها من شاء للتدرّب على هذا التهذيب الجسمي. لكنّ هذا الرأي لم يلبث أن بدأ ينتشر حتّى رأى القائمون بالأمر في كثير من البلاد أنّ في انتشار مظاهره إفساداً للتهذيب الخُلقي يضرّ بالجماعة، فحرّموا

«محلات العرى» وحاربوا القائمين بالرأي، ونهوا بالقانون عن إنشاء أماكن هذا التهذيب الجسمي. وما نشك في

أنّ هذا الرأي لو أنّه انتشر في أمة بأسرها لكان سبباً لإعلان الحرب عليها من أمم أخرى على أنّها مفسدة للحياة المعنوية في الإنسان، كما أثّرت حروب بسبب الرقيق، وكما تُثار حروب أو ما يشبهها بسبب تجارة الرقيق الأبيض وبسبب الاتجار بالمخدرات. لماذا ذلك كلّ؟ لأنّ حرية الرأي على إطلاقها يمكن أن تحتل ما بقيت حبيسة في حدود القول الذي لا يتصل منه بالجماعة ضرراً أو أذى. فإذا أوشك هذا الرأي أن يثير في الجماعة الإنسانية الفساد فقد وجبت محاربة هذه التأثيرات ووجبت محاربة مظاهر الرأي جميعاً، بل وجبت محاربة الرأي نفسه، وإن اختلفت مظاهر هذه الحرب بمقدار ما يترتب على هذه المظاهر من فساد في الجماعة يُخشى منه على قوامها الخلقي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

هذه هي الحقيقة الاجتماعية المعترف بها والمقررة لدى الحضارة الحاكمة اليوم. ولو أردنا أن نستقصي مظاهر ذلك وآثاره في مختلف الشعوب لطل بنا البحث، وليس هاهنا موضعه. على أنّك تستطيع أن تقول إنّ كلّ تشريع يراد به قمع أية حركة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إنّما هو حرب للرأي الذي تصدر عنه هذه الحركة. وهذه الحرب تجد ما يسوّغها في مبلغ ما يصيب الجماعة الإنسانية من ضرر إذا تُفّدت الآراء التي تُشبّ الحرب عليها. فإذا أردنا أن نقدّر دعوة الإسلام إلى مقاتلة الشرك، وأهله وحرّهم حتّى يذعنوا، وهل هذه الحرب مسوّغة أو غير مسوّغة، فيجب أن ننظر فيما تمثله فكرة الشرك هذه وما تدعو إليه. فإن اتفقت الكلمة على فادح ضررها بالجماعة الإنسانية في مختلف عصورها كان إعلان الإسلام الحرب عليها له ما يسوّغه، بل له ما يوجبه.

والشرك الذي كان موجوداً حين قيام «محمد» (عليه السلام) بالدعوة إلى دين الله الحقّ لم يكن يمثّل عبادة الأصنام وكفى. ولو أنّه كان كذلك لوجبت محاربته وفمن الازدراء للعقل الإنساني وللكرامة الإنسانية أن يعبد الإنسان حجراً. لكنّ هذا الشرك كان يمثّل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات، بل كان يمثّل نظاماً اجتماعياً هو شرّ من الرقّ وشرّ من البلشفية وشرّ من كلّ ما يتصور العقل في هذا القرن العشرين. كان يمثّل وأد البنات وتعدد الزوجات إلى غير حد، حتّى ليحل للرجل أن يتزوَّج ثلاثين وأربعين ومئة وثلاثمئة امرأة وأكثر من ذلك، وكان يمثّل الربا في أفحش ما يستطيع الإنسان أن يتصور الربا، وكان يمثّل الإباحية الخلقية في أسفل صورها، وكانت جماعة الوثنيين العرب شرّ جماعة أُخرجت للناس. نوّد أن يجيب كلّ منصف على هذا السؤال: لو أنّ جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاماً فيه من الطقوس والعادات وأد

البنات، وتعدّد الزوجات، وإباحة الرقّ لسبب أو لغير سبب، واستغلال الأموال استغلالاً فاحشاً، ثمّ قامت ثورة على ذلك كلّه تحاول تحطيمه والقضاء عليه، أفْتَتَهُم هذه الثورة بالتعصب والعمل ضد حرية الرأي! وإذا افترضنا أنّ أُمَّة اطمأنت إلى هذا النظام الاجتماعي المنحط وأوشكت أن تنتقل منها العدوى إلى غيرها من الدول، فأعلنت عليها هذه الدول حرباً، أفْتَكُون هذه الحرب مسوَّعة أم غير مسوَّعة؟! وهل تكون مسوَّعة أكثر من الحرب الكبرى الأخيرة التي أطاحت بملايين أهل هذا العالم لغير سبب إلّا للشه الجشع من جانب دول الاستعمار! وإذا كان ذلك شأنها فما عسى أن تكون قيمة نقد المستشرقين للآيات التي تلا القارئ من سورة براءة، ولدعوة الإسلام إلى حرب الشرك وأهله فمن يدعون إلى إقامة نظام فيه ما ذكرنا، وشرّ ما ذكرنا!

وإذا كانت هذه هي الحقيقة التاريخية في شأن هذا النظام الذي كان قائماً في بلاد العرب يظّله علم الشرك والوثنية، فهناك أيضاً حقيقة تاريخية أخرى مستمدة من حياة الرّسول. فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسائله ثلاث عشرة سنة^(١١٢) متتابعة يدعو الناس فيها إلى دين الله بالحجّة ويجادلهم بالتي هي أحسن، وهو فيما قام به من غزوات لم يكن معتدياً قط، وإنّما كان مدافعاً عن المسلمين دائماً؛ مدافعاً عن حريّتهم في الدعوة إلى دينهم الذي يؤمنون به ويضحون بحياتهم في سبيله. وهذه الدعوة القويّة غاية القوة إلى قتال المشركين على أنّهم نجسّ، وأنّهم لا عهد لهم ولا ميثاق، وأنّهم لا يرْعَوْنَ في مؤمن إلّا ولا ذمّة. إنّما نزلت بعد آخر غزوة غزا النبيّ: غزوة تبوك. فإذا حلّ الإسلام ببلاد تفشّى فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي الهدّام الذي كان قائماً في شبه الجزيرة حين بعث النبيّ، فدعا المسلمون أهلها إلى ترك هذا النظام وإلى الأخذ بما أحلّ الله وتحريم ما حرّم فلم يدعنوا، فليس من منصف إلّا يقول بالثورة عليهم وبقتلهم حتّى تتمّ كلمة الحقّ، وحتّى يكون الدين كلّ الله.

ولقد أثمر هذا الذي تلا عليّ — من براءة وما نادى في الناس بألّا يدخل الجنّة كافر، وبألّا يحجّ بعد العام مشرك، وبألّا يطوف بالبيت عُريان — خير الثمرات، حتّى أزال كلّ تردّد من نفوس القبائل التي كانت ماتزال متباطئة في تلبية دعوة الإسلام.

وبذلك دخلت في الإسلام بلاد اليمن ومهّرة والبحرين واليمامة، ولم يبق من يناوئ «محمّداً» إلّا عدداً قليلاً أخذتهم العزّة بالإثم وغرّهم بالله الغرور. من هؤلاء عامر بن الطفيل الذي ذهب مع وفد بني عامر ليستظّلوا براية الإسلام. فلمّا كانوا عند النبيّ امتنع عامر ولم يُسلم، وأراد أن يكون للنبيّ ندّاً. وأراد النبيّ أن يُقنعه كيما يسلم، فأصرّ على إباته فخرج وهو يقول: أما والله لأملأّنها عليك خيلاً ورجالاً.

قال «محمد»: اللهم اكفني عامر بن الطفيل! وانصرف عامر يريد قومه. وإِنَّه لفي بعض الطريق إذ أصابه الطاعون في عنقه وقضى عليه وهو في بيت امرأة من بني سُلُول. قضى عليه وهو يردّد: يا بني عامر! أَعُدَّة كَعْدَةِ البعير وموتة في بيت سُلُولية! أمّا أربد بن قيس فقد أبى أن يسلم وعاد إلى بني عامر، ولم يطل به المقام، بل أحرقته صاعقة حين خرج على جمل له يبيعه. ولم يمنع إباء عامر وأربد قومهم من أن يُسلموا^(١١٢٣). ومن هؤلاء بل هو شرّ منهم مكاناً مُسيلمة بن حبيب؛ فقد جاء في وفد بني حنيفة من أهل اليمامة، وخلفه القوم على رحلهم وذهبوا إلى رسول الله فأسلموا وأعطاهم النبيّ، فذكروا له مسيلمة، فأمر له بمثل ما أمر للقوم، وقال: أمّا إِنَّه ليس بشرّكم مكاناً، وذلك لحفظه رحال أصحابه. فلمّا سمع مسيلمة قولهم ادّعى النبوة، وزعم أن الله أشركه مع «محمد» في الرسالة، وجعل يسجع لقومه ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نسمةً تسعى، من بين صفاق وحشا». وأحلّ مسيلمة الخمر والزنا ووضع عن قومه الصلاة، وانطلق يدعو الناس إلى تصديقه^(١١٢٤). فأما مَن عدا هؤلاء من العرب فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجاً من أطراف شبه الجزيرة وعلى رأسهم رجال من أعزّ الرجال من أمثال عدي بن حاتم وعمرو بن معدي كرب. وبعث ملوك حمير رسولاً بكتاب منهم إلى النبيّ يعلنون فيه إسلامهم. فأقرّ لهم إسلامهم وكتب إليهم بما لهم وما عليهم في شرع الله. فلمّا انتشر الإسلام في جنوب شبه الجزيرة، بعث «محمد» من السابقين إلى الإسلام من يُفقههم في دينهم ويثبتهم فيه.

لم تُطل الوقوف عند وفود العرب إلى النبيّ كما فعل بعض الأقدمين من كتاب السيرة، لتشابه أمرهم في الانصواء تحت راية الإسلام. ولقد أفرد ابن سعد في طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول خمسين صفحة كبيرة نكتفي بأن نذكر منها أسماء القبائل والبطون التي أوفدها.

فقد جاء وفود من: مُزينة، وأسد، وتميم، وعبس، وفزارة، ومُرة، وثعلبة، ومُحارب، وسعد بن بكر، وكِلاب، ورؤاس بن كلاب، وعُقيل بن كعب، وجعدة، وقُشير بن كعب، وبني البكاء، وكنانة، وأشجع، وباهلة، وسُلَيم، وهلال بن عامر، وعامر بن صعصعة، وثقيف. وجاءت وفود ربيعة من: عبد القيس، وبكر بن وائل، وتغلب، وحنيفة، وشيبان. وجاء من اليمن وفد من طي، وتُجيب، وخولان، وجُعفي، وصُداء، ومُراد، وزُبيد، وكندة، والصّدَف، وخُشين وسعد هُذَيم،

(١١٢٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٦٨ — ٥٦٩، والكامل في التاريخ: ٢٠٤ / ٢، والسيرة الحلبية: ٢١٨ / ٣ — ٢٢٠، وإعلام البورى بأعلام

الهدى: ٢٥٠ / ١، وبحار الأنوار: ٣٦٥ / ٢١.

(١١٢٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٧٦ — ٥٧٧، والسيرة الحلبية: ٢٢٣ / ٣ — ٢٢٤، والكامل في التاريخ: ٢٠٤ / ٢ — ٢٠٥، وبحار

الأنوار: ٣٧١ / ٢١.

وبليّ، وبهراء، وعُدرة، وسلامان، وجُهينة، وکلب، وجَرم، والأزد، وغسّان، والحارث بن كعب، وهمدان، وسعد العَشيرة، وعنس، والداريين، والرهاويين حيّ من مذحج، وغامد، والنخع، وبجيلة، وخنعم، والأشعرين، وحضرموت، وأزد عُمان، وغافق، وبارق، ودّوس، وثمالة، والحُدّان، وأسلم، وجُدام، ومهرة، وحَمير، ونجران، وجيشان. وكذلك لم يبق في شبه الجزيرة بطن أو قبيلة حتّى أسلم إلاّ من قدّمنا^(١١٢٥).

كان ذلك شأن المشركين من أهل شبه الجزيرة. سارعوا إلى اعتناق الإسلام وتركوا عبادة الأوثان، وتطهّرت بلاد العرب جميعاً من الأصنام وعبادتها. وتمّ ذلك بعد تبوك طواعيةً واختياراً، من غير أن تُزهق نفس أو يُهرق دمّ. فماذا صنع اليهود والنصارى مع «محمّد»، وماذا صنع «محمّد» معهم؟

الفصل التاسع والعشرون: حجة الوداع

(١١٢٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٢٩١ — ٣٥٩، والسيرة الحلبية: ٢١١/٣ — ٢٣٩، وبحار الأنوار:

الفصل التاسع والعشرون

حجة الوداع

«محمد» وأهل الكتاب، موقفه من النصارى ومجادلته إياهم، وحدة موقف «محمد» منهم، بعث عليّ بن أبي طالب إلى اليمن، دعوة «محمد» الناس للحجّ ومجيئهم إلى المدينة من كلّ صوب، مسيرهم في نحو مئة ألف إلى مكّة، مناسك الحجّ، خطبة «محمد».

منذ تلا عليّ بن أبي طالب صدر سورة براءة على الحاجّ من مسلمين ومشرّكين حين حجّ أبو بكر بالناس، ومنذ أذن فيهم بأمر «محمد» حين اجتمعوا بمنى ألاّ يدخل الجنة كافر، وألاّ يحجّ بعد العام مشرك، وألاّ يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) عهد فهو له إلى مدّته. أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعاً أن لم يبق لهم إلى المقام على عبادة الأوثان سبيل، وأنّهم إن يفعلوا فليأذّنوا بحرب من الله ورسوله. وقد كان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيرة العرب حيث اليمن وحضرموت؛ لأنّ أهل الحجاز وما والاها شمالاً كانوا قد أسلموا واستظلّوا براية الدين الجديد، وكان الأمر في الجنوب مقسماً بين الشرك والمسيحية. فأما المشركون فأقبلوا، كما رأيت من قبل، يدخلون في دين الله أفواجاً ويبعثون وفودهم إلى المدينة فيلقون من النبيّ كلّ حفاوة بهم تزيدهم على الإسلام اقبالا، وتردّ أكثرهم إلى إمارته فتجعله أشدّ على دينه الجديد حرصاً. وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت^(١١٢٦) فيهم بما تلا عليّ من سورة التوبة هذه الآيات: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)^(١١٢٧) إلى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١١٢٦) تفسير مجمع البيان: ٤٠/٥، وأسباب النزول للواحدي: ١٦٤ — ١٦٥ .

(١١٢٧) التوبة (٩): ٢٩ .

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لِلْأَنفُسِ كُفً فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ^(١١٢٨).

يقف كثيرون من المؤرخين أمام هذه الآيات من سورة التوبة ختام ما نزل من القرآن، يسألون أنفسهم: هل أمر «محمد» (عليه السلام) في شأن أهل الكتاب بغير ما أمر به من قبل أثناء سني رسالته؟ ويذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب والمشركين فيما يشبه المساواة؛ وأن «محمدًا» وقد ظفر بالوثنية في شبه الجزيرة بعد أن استعان عليها باليهودية وبالمسيحية، معلناً خلال أعوام رسالته الأولى أنه إنما جاء مبشراً بدين عيسى وموسى وإبراهيم والرسل الذين خلوا من قبل، قد جعل وجهته إلى اليهود الذين بدأوه العداوة، فظل بهم حتى أجلاهم عن شبه الجزيرة. وأثناء ذلك كان يتوَدَّد إلى النصارى وتزل عليه الآيات تُشيد بحسن إيمانهم وجميل مودتهم، ويترنل عليه قوله تعالى في سورة المائدة: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)^(١١٢٩). وهاهو ذا الآن يجعل وجهته إلى النصرانية يريد بها ما أراد باليهودية من قبل، فيجعل شأن النصارى كشأن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ وهو يصل إلى ذلك بعد أن أجاز النصارى من أتبعه من المسلمين حين ذهبوا إلى الحبشة يستظلون بعدل نجاشيها، وبعد أن كتب «محمد» لأهل نجران وغيرهم من النصارى يُقرهم على دينهم وعلى القيام بطقوس عبادتهم. ويذهب أولئك المستشرقون إلى أن هذا التناقض في خطة «محمد» هو الذي أدى إلى استحكام العداوة بين المسلمين والنصارى من بعد، وأنه هو الذي جعل التقريب بين أتباع عيسى وأتباع «محمد» غير ميسور إن لم يكن في حكم المستحيل.

والأخذ بظاهر هذه الحجة قد يُغري الذين يستمعون إليها بالميل إلى أنها تصف جانباً من الحق، إن لن تغرهم بتصديقها فأما تتبَّع التاريخ والتدقيق في ظروف نزول الآيات وأسباب نزولها، فلا يدع محلاً للريب البتة في وحدة موقف الإسلام وهو «محمد»، من الأديان الكتابية منذ بدء رسالته إلى ختامها. فالمسيح بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم. والمسيح بن مريم عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً وجعله مباركاً أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حياً. ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة إلى ختامها. والله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ ذلك روح الإسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى، وذلك روح الإسلام مادام العالم. ولقد ذهب وفد من نصارى نجران إلى النبيِّ يجادلونه في الله. وفي بنوة عيسى لله من قبل أن تنزل سورة التوبة بزمان

(١١٢٨) التوبة (٩): ٣٤ — ٣٥.

(١١٢٩) المائدة (٥): ٨٢.

طويل، ويسألون «محمداً»: أن عيسى أمه مريم فمن أبوه؟ وفي ذلك نزل (١١٣٠) قوله تعالى من سورة آل عمران: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (١١٣١). وفي هذه السورة —

(١١٣٠) تفسير مجمع البيان: ٣٠٩/٢، وأسباب النزول للواحدي: ٦١ — ٦٢.

(١١٣١) آل عمران (٣): ٥٩ — ٦٤. في الآية ٦١ من هذه الآيات قوله تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ... الآية) يخاطب الله رسوله (صلى الله عليه وآله) قائلاً: إذا استمر أحد في مجادلتك بعد هذه الاستدلالات البيّنة بشأن عيسى (عليه السلام)، فادع إلى المباهلة حتى يأتي بأبنائه ونسائه، وادع أنت أيضاً أبناءك ونساءك وتضرّعوا إلى الله أن يفضح الكاذب.

لعل قضية المباهلة بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت أسلوباً يبين صدق النبي وإيمانه بشكل قاطع. إذ كيف يمكن لمن لا يؤمن كلّ الإيمان بعلاقته بالله أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيهِ أن يتقدّموا معه إلى الله يدعونه أن يتزل لعناته على الكاذب، وأن يروا سرعة ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟! لا شك أنّ دخول هذا الميدان خطر جداً، لأنّ المبتهل إذا لم يجد استجابة لدعائه ولم يظهر أي أثر لعقاب الله على معارضيهِ، فلن تكون النتيجة سوى فضيحة المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل ومدرك أن يخطو مثل هذه الخطوة دون أن يكون مطمئناً إلى أنّ النتيجة في صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى المباهلة تعتبر واحداً من الأدلة على صدق دعوته وإيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التي كانت ستكشف عنها المباهلة.

تقول الروايات الإسلامية: عند عرض هذا الاقتراح للمباهلة، طلب ممثلو مسيحيي نجران من رسول الله أن يمهّلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأي مع شيوخهم. فكان لهم ما أرادوا. وكانت نتيجة مشاورتهم — التي تعتمد على ناحية نفسية — هي أنّهم أمروا رجالهم بالدخول في المباهلة دون خوف إذا رأوا «محمداً» قد حضر في كثير من الناس ووسط جلبة وضوء، إذ أنّ هذا يعني أنّه بهذا يريد بثّ الرعب والخوف في النفوس وليس في أمره حقيقة. أما إذا رأوه قادمًا في بضعة أنفار من أهله وصغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبيّ الله حقاً، وليتجنّبوا مباهلته.

وقد حضر المسيحيون إلى المكان المعين، ثمّ رأوا أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أقبل يحمل الحسين على يد ويمسك الحسن باليد الأخرى ومن خلفه عليّ وفاطمة، وهو يطلب منهم أن يؤمنوا على دعائه عند المباهلة. وإذ رأى المسيحيون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، ورفضوا الدخول في المباهلة، وقبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمة.

وجاء في تفسير الآية ما يلي:

بعد الآيات التي استدلت فيها على بطلان القول بألوهية عيسى بن مريم، يأمر الله نبيّه بالمباهلة إذا جاءه من يجادل من يعد ما جاء من العلم والمعرفة. وأمره أن يقول لهم: إني سأدعوا أبنائي، وأنتم أدعوا أبنائكم، وأدعوا نسائي، وأنتم أدعوا نساءكم، وأدعوا نفسي، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذ ندعوا الله أن يتزل لعنته على الكاذب متاً.

لا حاجة للقول بأنّ القصد من المباهلة لم يكن إحضار جمع من الناس للعلن، ثمّ ليتفرّقوا كلّ إلى سبيله، لأنّ عملاً كهذا لن يكون له أي تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء واللعن أثر مشهود عياناً فيحقيق بالكاذب عذاب فوري.

وبعبارة أخرى: فإنّ المباهلة — وإن لم يكن في الآية ما يشير إلى تأثيرها — كانت بمثابة «السهم الأخير» بعد أن لم ينفع المنطق والاستدلال، فإنّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو «أثرها الخارجي».

أحد أدلة عظمة أهل البيت (عليهم السلام)

يصرّح المفسّرون من الشيعة والسنة أنّ آية المباهلة قد نزلت بحقّ أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وأنّ الذين اصطحبهم النبي (صلى الله عليه وآله) معه للمباهلة هم هم: الحسن والحسين وفاطمة وعليّ (عليهم السلام). وعليه، فإنّ «أبنائنا» الواردة في الآية ينحصر مصداقها في الحسن

سورة آل عمران — يتوجّه الحديث حديثاً معجزاً إلى أهل الكتاب يعاتبهم لِمَ يصدّون عن سبيل الله من آمن، وَلِمَ يكفرون بآيات الله وهي التي جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها

والحسين(عليهما السلام)، ومصدق «نساءنا» ينحصر في فاطمة(عليها السلام)، ومصدق «أنفسنا» ينحصر في علي(عليه السلام). وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص.

وحاول بعض أهل السنّة أن ينكر وجود أحاديث في هذا الموضوع، فصاحب تفسير المنار يقول في تفسير الآية: الروايات متّفقة على أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) اختار للمباهلة عليّاً وفاطمة وولديهما ويحملون كلمة «نساءنا» على فاطمة وكلمة «أنفسنا» على عليّ فقط، ومصادر هذه الروايات شيعية، ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتّى راجت على كثير من أهل السنّة. لكن بالرجوع إلى مصادر أهل السنّة الأصلية يتّضح أنّ الكثير من تلك الطرق لا تنتهي بالشيعية ويكتب الشيعة، وإنكار هذه الأحاديث الواردة بطريق أهل السنّة، يسقط سائر أحاديثهم وكتبهم من الاعتبار.

ولكي نلقي الضوء على هذه الحقيقة التي ينكرها صاحب المنار، نورد هنا بعضاً من رواياتهم ومصادرها: انظر القاضي نور الله الشوشري في المجلّد الثالث من كتابه النفيس «إحقاق الحق»، الطبعة الجديدة، ص ٤٦، تراه يتحدّث عن إتّفاق المفسّرين في أنّ «أبناءنا» في هذه الآية إشارة إلى الحسن والحسين، و «نساءنا» إشارة إلى فاطمة، و «أنفسنا» إشارة إلى علي(عليه السلام). ثمّ يشير في هامش الكتاب إلى نحو ستين من كبار أهل السنّة من الذين قالوا إنّ آية المباهلة نزلت في أهل البيت، ويذكر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصيل في الصفحات (٤٦ — ٧٦).

ومن المشاهير الذين نقل عنهم هذا التصريح:

- ١ — مسلم بن الحجاج النيسابوري، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفة التي يعتمد عليها أهل السنّة. المجلّد ٧ ص ١٢٠ (طبعة محمد عليّ صبيح — مصر).
- ٢ — أحمد بن حنبل في كتابه «المسند» ج ١ ص ١٨٥ (طبعة مصر).
- ٣ — الطبري في تفسيره المعروف، ج ٣ ص ١٩٢ (المطبعة الميمنية — مصر).
- ٤ — الحاكم في كتابه «المستدرک» ج ٣ ص ١٥٠ (طبعة حيدر آباد الدكن).
- ٥ — الحافظ أبو نعيم الإصفهاني في كتاب «دلائل النبوة» ص ٢٩٧ (طبعة حيدرآباد).
- ٦ — الواحدي النيسابوري في كتابه «أسباب النزول» ص ٧٤ (المطبعة الهندية — مصر).
- ٧ — الفخر الرازي في تفسيره المعروف، ج ٨ ص ٨٥ (المطبعة البهية — مصر).
- ٨ — ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول» ج ٩ ص ٤٧٠ (مطبعة السنّة المحمدية — مصر).
- ٩ — ابن الجوزي في كتابه «تذكرة الخواص» ص ١٧ (طبعة النجف).
- ١٠ — القاضي البيضاوي في تفسيره ج ٢ ص ٢٢ (مطبعة مصطفى محمد — مصر).
- ١١ — الألوسي في تفسيره «روح المعاني» ج ٣ ص ١٦٧ (المطبعة المنيرية — مصر).
- ١٢ — الطنطاوي في تفسيره المعروف «الجواهر» ج ٢ ص ١٢٠ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي — مصر).
- ١٣ — الزمخشري في تفسيره «الكشاف» ج ١ ص ١٩٣ (مطبعة مصطفى محمد).
- ١٤ — الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه «الإصابة» ج ٢ ص ٥٠٣ (مطبعة مصطفى محمد).
- ١٥ — ابن الصبّاغ في كتابه «الفصول المهمة» ص ١٠٨ (طبعة النجف).
- ١٦ — العلامة القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ج ٣ ص ١٠٤ (طبعة مصر سنة ١٩٣٦م).

وجاء في كتاب «غاية المرام» عن صحيح مسلم في باب (فضائل عليّ بن أبي طالب) أنّ معاوية قال يوماً لسعد بن أبي وقّاص: لِمَ لا تسبّ أبا تراب (علي(عليه السلام))؟! قال: «تركت سبّه منذ أن تذكرت الأشياء الثلاثة التي قالها رسول الله(صلى الله عليه وآله) في حقّ علي(عليه السلام) (وأحدها) عندما نزلت آية المباهلة لم يدع النبي(صلى الله عليه وآله) سوى فاطمة والحسن والحسين وعليّ، وقال: اللَّهُمَّ هُؤُلاءِ أَهْلِي.

إنّ صاحب «الكشاف» وهو من كبار علماء أهل السنّة، يذهب إلى أنّ هذه الآية أقوى دليل على فضيلة أهل الكساء. راجع تفسير الأمثل: ٣٩١/٢.

إبراهيم، قبل أن تحرف عن مواضعها، وقبل أن يوجهها التأويل بما تقوى أغراض هذه الحياة الدنيا ومتاعها الغرور. وفي كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذي وجه به في سورة آل عمران. ففي سورة المائدة يقول تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (١١٣٢). وفي سورة المائدة كذلك يقول تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) (١١٣٣) إلى آخر هذه الآيات التي نقلنا في تقديم هذا الكتاب. وسورة المائدة هي التي من بين آياتها الآية يحتج بها المؤرخون من النصارى، ويتخذونها دليلاً على تطور موقف «محمد» منهم مع ظروفه السياسية؛ إذ يقول تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (١١٣٤).

والآيات التي نزلت في سورة براءة وتحدثت عن أهل الكتاب لم تتحدث عنهم في إيمانهم بالمسيح ابن مريم، وإنما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي أكلهم أموال الناس بالباطل وفي كثرة الذهب والفضة. والإسلام يرى ذلك خروجاً من أهل الكتاب على دين عيسى. يجعلهم يحلّون ما حرّم الله ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله، على الرغم من ذلك كله. شافعاً لهم لا تجوز معه مساواتهم بالوثنيين، ويكفي معه إن هم أصروا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى أن يحلّوا ما حرّم الله، أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون. كانت هذه الدعوة التي أذن عليّ بها يوم حجّ أبو بكر بالناس (١١٣٥) آية إسلام الناس من أهل الجنوب في شبه الجزيرة ودخولهم في دين الله أفواجا. فقد توالى الوفود تترى على المدينة كما قدمنا من قبل، ومن بينها وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب. وكان النبيّ يكرم كلّ وافد عليه ويردّ الأمراء مكرمين إلى إماراتهم. من ذلك ما سبق لنا ذكره في الفصل الماضي. ومنه أنّ الأشعث بن قيس قدم في وفد كندة في ثمانين راكباً، دخلوا المسجد على النبيّ وقد رجّلوا

(١١٣٢) المائدة (٥): ٧٣ — ٧٥ .

(١١٣٣) المائدة (٥): ١١٦ .

(١١٣٤) المائدة (٥): ٨٢ .

(١١٣٥) مرّ في إحدى تعليقاتنا في الفصل الثامن والعشرين بأنّ الوحي قد تدخّل بارجاع أبي بكر واستبداله بعليّ ليبلغ أحكاماً أخرى بالإضافة إلى

سورة براءة، فراجع ص ٦٧٥ .

لَمَمَهُمْ وَتَكَحَّلُوا وَلَبَسُوا جِيبَ الْحَبْرِ بَطْنُهَا بِالْحَرِيرِ. فَلَمَّا رَأَاهُم النَّبِيُّ قَالَ: أَلَمْ تُسَلِّمُوا؟ قَالُوا: بلى. قَالَ: فَمَا هَذَا الْحَرِيرُ فِي أَعْنَاقِكُمْ! فَشَقُّوهُ. وَقَالَ لَهُ الْأَشْعَثُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ بَنُو آكَلِ الْمُرَارِ وَأَنْتَ ابْنُ آكَلِ الْمُرَارِ^(١١٣٦). فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَرَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ^(١١٣٧). وَقَدِمَ وائِلُ بْنُ حَجَرِ الْكَنْدِيِّ مَعَ الْأَشْعَثِ وَكَانَ أَمِيرَ بِلَادِ الشَّاطِئِ مِنْ حَضْرَمَوْتَ فَأَسْلَمَ، فَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ فِي إِمَارَتِهِ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ الْعَشْرَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِهِ لِيُرَدَّهُ إِلَى جَبَاةِ الرَّسُولِ. وَكَلَّفَ النَّبِيُّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ أَنْ يَصْحَبَ وائِلًا إِلَى بِلَادِهِ. وَأَبَى وائِلُ أَنْ يَرُدَّهُ أَوْ أَنْ يُعْطِيَهُ نَعْلَيْهِ يَتَّقِي بِهَمَا حَمَارَةَ الْقَيْظِ مَكْتَفِيًا بِأَنْ يَدْعَهُ يَسِيرَ فِي ظِلِّ بَعِيرِهِ. وَقَبِلَ مَعَاوِيَةُ ذَلِكَ عَلَى مَخَالَفَتِهِ لَمَّا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامَ مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً، حَرَصًا عَلَى إِسْلَامِ وائِلٍ وَقَوْمِهِ^(١١٣٨). وَلَمَّا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي رُبُوعِ الْيَمَنِ، أَوْفَدَ النَّبِيُّ مُعَاذًا إِلَى أَهْلِهِ يَعْلَمُهُمْ وَيَفْقَهُهُمْ وَأَوْصَاهُ، قَائِلًا: «يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ، وَإِنَّكَ سَتَقُومُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَكَ: مَا مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ؟ فَقُلْ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ». وَذَهَبَ مُعَاذٌ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ وَمَنْ الْجُبَاةُ يَعْلَمُونَ النَّاسَ وَيَقْضُونَ بَيْنَهُمْ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^(١١٣٩). وَبَانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي رُبُوعِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ، مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا وَمِنْ شَمَالِهَا إِلَى جَنُوبِهَا، انْتَقَلَتِ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ إِلَى مَا قَبْلَ عَشْرِينَ سَنَةً قِبَائِلَ مُتَنَافِرَةً تَشْنُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا الْغَارَةَ عَلَى الْأُخْرَى كَلَّمَا وَجَدَتْ فِي ذَلِكَ مَغْنَمًا، فَأَصْبَحَتْ أُمَّةً وَاحِدَةً يَظْلُهَا لُؤَاءٌ وَاحِدٌ هُوَ لُؤَاءُ «مُحَمَّدٍ» رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ). وَتَدِينُ كُلُّهَا بِدِينٍ وَاحِدٍ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَتَتَجَهَّ قُلُوبُهَا جَمِيعًا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ طَهَّرَتْ مِنْ رَجَسِ الْوُثْنِيَّةِ وَاسْتَرَاخَتْ إِلَى حُكْمِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَبِذَلِكَ هَدَأَتْ الْخُصُومَاتَ بَيْنَ أَهْلِهَا فَلَمْ يَبْقَ لَغْزُو أَوْ خُصُومَةٌ مَوْضِعٍ، وَلَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَلَّ سَيْفَهُ مِنْ قَرَابِهِ إِلَّا أَنْ يَدَافِعَ عَنْ وَطَنِهِ أَوْ يَدْفِعَ الْمُعْتَدِيَّ عَلَى دِينِ اللَّهِ.

عَلَى أَنْ جَمَاعَةٌ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ احْتَفَظُوا بِدِينِهِمْ مُخَالَفِينَ فِي ذَلِكَ الْأَكْثَرِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ بَنِي الْحَارِثِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ قَبْلِ. إِلَى هَؤُلَاءِ وَجَّهَ النَّبِيُّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ كَيْ يَسْلَمُوا مِنْ مَهَاجَمَتِهِ. وَلَمْ يَلْبَثْ خَالِدٌ أَنْ نَادَى فِيهِمْ حَتَّى أَسْلَمُوا وَحَتَّى بَعَثَ خَالِدٌ وَفْدًا مِنْهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ لِقِيَةِ النَّبِيِّ فِيهَا بِالْتَّرْحِيبِ وَالْمُودَّةِ^(١١٤٠). ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ عَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْضَعُوا

(١١٣٦) المرار: شَجَرٌ مَرٌّ، وَمِنْهُ بَنُو آكَلِ الْمُرَارِ: قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ. لِسَانُ الْعَرَبِ: ١٦٧/٥ .

(١١٣٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٨٥ — ٥٨٦ ، والسيرة الحلبية: ٢٢٧/٣ — ٢٢٨ ، وعيون الأثر: ٣٠١/٢ ، وراجع: مناقب آل أبي

طالب: ١٥١/١ ، وبحار الأنوار: ٣٧٥/٢١ .

(١١٣٨) السيرة النبوية لابن كثير: ٤ / ١٥٤ — ١٥٥ .

(١١٣٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٩٠ .

(١١٤٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٩٢ ، وتاريخ الخميس: ١٤٤/٢ .

للواء الإسلام، أن كان الإسلام قد ظهر بالحجاز، وأن كانت اليمن هي التي اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبل أبداً. إلى هؤلاء أرسل النبي علي بن أبي طالب يدعوهم إلى الإسلام. لكنهم استكبروا أول أمرهم وقابلوا دعوة علي بمهاجمته؛ فلم يلبث علي أن شتتهم على الرغم من صغر سنّه (١٤١) وأنه لم يكن معه إلا ثلاثمائة فارس. وارتد المنهزمون ينظمون من جديد صفوفهم. بيد أن علياً أحاط بهم وأوقع في صفوفهم الرعب، فلم يجدوا من التسليم بداً. وسلّموا وأسلموا وحسن إسلامهم، وأنصتوا إلى تعليم معاذ وأصحابه. وكان وفداهم آخر وفد استقبله النبي بالمدينة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى (١٤٢).

بينما كان علي يتأهب للعود إلى مكة كان النبي يتجهز للحج ويأمر الناس بالتجهز له، ذلك أن أشهر السنة استدارت وأقبل ذوالقعدة وأوشك أن يولي، ولم يكن النبي قد حجّ الحجّ الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدّى الحجّ الأصغر قبل ذلك مرتين. وللحجّ مناسك يجب أن يكون (عليه السلام) قدوة المسلمين فيها. وما كاد الناس يعرفون ما صح عليه عزم النبي ودعوته إياهم للحج معه حتى انتشرت الدعوة في كلّ ناحية من شبه الجزيرة، وحتى أقبل الناس على المدينة ألوفاً ألوفاً من كلّ فجّ وحذب: من المدائن والبوادي من الجبال والصحاري. من كلّ بقعة من هذه البلاد العربية المترامية الأطراف، والتي استنارت كلها بنور الله ونور نبيه الكريم. وحول المدينة ضربت الخيام لمئة ألف أو يزيدون جاءوا تلبية لدعوة نبيهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام. جاءوا إخوة متعارفين تجمع بينهم المودة الصادقة والأخوة الإسلامية، وكانوا إلى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين. وجعلت هذه الألوف المؤلفة تجوس خلال المدينة وكلّ باسم الثغر، وضاح الطلعة. مشرق الجبين، يصف اجتماعهم انتصار الحق وانتشار نور الله انتشاراً ربط بينهم وجعلهم جميعاً كالبنيان المرصوص (١٤٣).

وفي الخامسة والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة سار النبي وأخذ نساءه جميعاً معه، كلّ في محفّتها. سار وتبعه هذا الجمع الزاخر، يذكر طائفة من المؤلفين أنّه كان تسعين ألفاً، ويذكر آخرون أنّه كان أربعة عشر ومئة ألف ساروا يحذوهم الإيمان وتملاً قلوبهم الغبطة الصادقة لسيرهم إلى بيت الله الحرام يؤدّون عنده فريضة الحجّ الأكبر. فلما بلغوا ذا الحليفة نزلوا وأقاموا ليلتهم بها. فلما أصبحوا أحرم النبي وأحرم المسلمون معه، فليس كلّ منهم إزاره ورداءه

(١٤١) ولد(عليه السلام) بعد ثلاثين سنة من عام الفيل فهو اليوم أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، إذاً فليس بصغير.

(١٤٢) المغازي للواقدي: ١٠٧٩/٢ و طبقات ابن سعد: ٢ / ١٦٨، والسيرة الحلبية: ٢٠٦/٣، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٥٧/١، وبحار الأنوار: ٣٦٠/٢١ و ٣٦٣.

(١٤٣) السيرة الحلبية: ٢٥٧/٣، والمغازي للواقدي: ١٠٨٩ — ١٠٩٠، والطبقات الكبرى: ١٧٢/٢ — ١٧٣، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٥٩/١، وبحار الأنوار: ٣٨٤/٢١ و ٣٨٩.

وصاروا ينتظمهم جميعاً زياً واحداً هو أبسط ما يكون زياً، وقد حققوا بذلك المساواة بأسمى معانيها وأبلغها. وتوجه «محمد» بكل قلبه إلى ربه ونادى ملئياً والمسلمون من ورائه: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة والشكر لك لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك»^(١١٤٤). وتجاوبت الوديان والصحاري بهذا النداء، تلبى كلّها وتنادي بارئها مؤمنة عابدة. وانطلق الركب بألوفه وعشرات ألوفه يقطع الطريق بين مدينة الرسول ومدينة المسجد الحرام، وهو يتزل عند كلّ مسجد يؤدي فيه فرضه. وهو يرفع الصوت بالتلبية طاعة لله وشكراً لنعمته، وهو ينتظر يوم الحج الأكبر بصبر نافذ وقلوب مشوقة وأفئدة كلّها إلى بيت الله هوى ومحبة. وصحارى شبه الجزيرة وجبالها ووديانها وزروعها النضرة في دهش لما تسمع وتتجاوب به أصداؤها لما لم تعرف قطّ قبل أن يباركها هذا النبي الأمي عبدالله ورسوله. فلما بلغ القوم سرف^(١١٤٥)، وهي محلة في الطريق بين مكة والمدينة، قال «محمد» لأصحابه: من لم يكن منكم معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعّل، ومن كان معه هدي فلا^(١١٤٦).

وبلغ الحجاج مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة، فأسرع النبي والمسلمون من بعده إلى الكعبة، فاستلم الحجر الأسود فقبله، وطاف بالبيت سبعا هرولاً في الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل في عمرة القضاء. وبعد أن صلى عند مقام إبراهيم عاد فقبل الحجر الأسود كرامة أخرى، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا، ثم سعى بين الصفا والمروة. ثم نادى «محمد» في الناس أن لا يبقى على إحرامه من لا هدي معه ينحره. وتردد بعضهم، فغضب النبي لهذا التردد أشد الغضب وقال: ما أمركم به فافعلوه. ودخل قبته مغضباً. فسألته عائشة: من أغضبك؟ فقال: ومالي لا أغضب وأنا أمر أمراً فلا يتبع! ودخل أحد أصحابه وما يزال غضبان، فقال: من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار. فكان جواب الرسول: أوما شعرت أنني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟ ولو أنني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتى أشتريه، ثم أحل كما حلوا. كذلك روى مسلم^(١١٤٧). فلما بلغ المسلمين غضب رسول الله حلّ الألوف من الناس

(١١٤٤) المغازي للواقدي: ١٠٩٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٧٣/٢، وتاريخ يعقوبي: ٤٣٨/١، والكافي للكليني: ٢٤٩/٤، وبحار الأنوار: ٣٩٦/٢١.

(١١٤٥) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.

(١١٤٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٠١/٢، وتاريخ الطبري: ٢٠٤/٢، والكامل في التاريخ: ٢٠٥/٢، والإرشاد للمفيد: ١٧٣/١، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٦٠/١، وبحار الأنوار: ٣٨٦/٢١.

(١١٤٧) وكأنه لم يرق للمؤلف أن يذكر اسم من تردد من الصحابة في تبعيته للرسول (صلى الله عليه وآله) حتى أغضب نبيه، وذكر المؤرخون اسمه وهو عمر بن الخطاب الذي خاطبه وعاتبه بما أغضبه. ومواقف الخليفة الثاني من النبي كثيرة منها قوله على النبي: أنه غلبه الوجع حين

إحرامهم على أسف منهم، وحلّ نساء النبيّ وحلّت ابنته فاطمة مع الناس، ولم يبق على إحرامه إلاّ من ساق الهدّي معه.

وبينما المسلمون في حجيجهم أقبل عليّ عائداً من غزوته باليمن وقد أحرم للحجّ لما علم أنّ رسول الله حجّ بالناس. ودخل على فاطمة فوجدها قد حلّت إحرامها؛ فسألها فذكرت له أنّ النبيّ أمرهم أن يحلّوا بعمره. فقام فذهب إلى النبيّ فقصّ عليه أخبار سفرته باليمن. فلما أتم حديثه، قال له النبيّ: انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حلّ أصحابك. قال عليّ: يا رسول الله، إنّني أهملت كما أهملت. قال النبيّ: ارجع فاحلل كما حلّ أصحابك. قال عليّ: يا رسول الله، إنّني قلت حين أحرمت: اللهمّ إنّني أهلّ بما أهل به نبيّك وعبدك ورسولك «محمّد». فسأله النبيّ: أمعه هذّي فلما نفى عليّ أشركه «محمّد» في هذّيه وثبت عليّ على إحرامه وأدّى مناسك الحجّ الأكبر^(١٤٨). وفي الثامن من ذي الحجة يوم التروية ذهب «محمّد» إلى منى، فأقام بخيامه فيها وصلى فروض يومه بها وقضى الليل حتّى مطلع فجر يوم الحجّ، فصلّى الفجر وركب ناقته القصواء^(١٤٩) حين بزغت الشمس ويّمّ بها جبل عرفات والناس من ورائه. فلما ارتقى الجبل

أمر(صلى الله عليه وآله) أن يؤتى له بكتاب يكتب فيه كتاباً لن تضلّ الأُمة من بعده. صحيح البخاري: ٣٢/١ كتاب العلم باب كفاية العلم والذي منعه من الكتاب هو عمر.

ثمّ إنّ الله ورسوله قد أحلّا متعة الحجّ للأبد وقد حرّمها عمر. صحيح البخاري: ١٥٢/٢ كتاب الحج باب التمتع والإقرا، وصحيح مسلم: ٩٠٨/٢، كتاب الحجّ باب جواز العمرة، ومسند أحمد: ٢٥٢/١.

وقد أحلّ الله ورسوله متعة النساء، وقد حرّمها عمر. صحيح البخاري بحاشية السندي: ٢٤٦/٣، كتاب النكاح، وصحيح مسلم: ١٠٢٢/٢، ومسند أحمد: ٤٧/٤.

وبدعة عمر في الطلاق الثلاث. صحيح مسلم: ١٨٣/٤، ومستدرک الحاكم: ١٩٦/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، مسند أحمد: ٣١٤/١.

عمر يفني من لم يجد الماء بأن لا يصلي. صحيح مسلم: ١٩٣/١ و٢٨٠/١، وسنن النسائي: ١٦٨/١. وقوله لرسول الله(صلى الله عليه وآله): أليس الله هناك أن تصلي على المنافقين؟ فقال له الرسول(صلى الله عليه وآله): «أنا ابن خورتين» صحيح البخاري: ٢٥/٤ باب لبس القميص.

وكان عمر يعطي من المال ما لا يجوز حتّى أنّه كان يعطي عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم كلّ سنة ومنع أهل البيت خمسهم. شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٥٣/٢.

وقال القوشجي في جواب نقد الطوسي عليه: (إنّه أعطى أزواج النبيّ، وأقرض، ومنع فاطمة وأهل البيت خمسهم، وقضى في الجدّ بمئة قضية، وفضّل في القسمة والعطاء ولم يكن ذلك في زمن النبيّ).

قال القوشجي: (وأجيب عن الوجوه الأربعة بأنّ ذلك ليس بما يوجب قدحاً فيه فإنّه من مخالفة المجتهد لغيره في المسائل الاجتهادية). شرح التجريد: ٤٠٨.

يقصد أنّ مخالفة عمر لرسول الله هي من باب مخالفة مجتهد لمجتهد آخر.

فراجع وانظر، بل وبقي مُصرّاً عليه حتّى نفى عن متعة الحجّ ومتعة النساء على عهده، اجتهداً في مقابل النصوص الشرعية، انظر: النص والاجتهاد: ١٨٤ — ١٨٥ للإمام شرف الدين.

(١٤٨) صحيح مسلم: ٣٤/٤، والسيرة الحلبية: ٢٦١/٣ — ٢٦٤، وعيون الأثر: ٣٤٣/٢ — ٣٤٤.

(١٤٩) تقدّمت «القصواء» غير مرّة هكذا «القصوى» بالقصر، وهو تحريف ورد في كثير من الكتب.

أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته، ومنهم الملبّي ومنهم المكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء. وضربت للنبي قبة بنمرة (قرية بشرق عرفات) وكان ذلك بعض ما أمر به. فلما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض غرنة، وهناك نادى في الناس وما يزال على ناقته بصوت جهوري كان يردده مع ذلك من بعده ربيعة بن أمية بن خلف. وهو يقف بين عبارة وأخرى قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، اسمعوا قولي فيأتي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا.

وإنّكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت.

فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإنّ كلّ رباً موضوع — أي مهدر — ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

قضى الله أنّه لا رباً، وإنّ رباً عبّاس بن عبدالمطلب موضوع كلّ.

وإنّ كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أول دماءكم أضع، دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب...

أمّا بعد أيها الناس، فإنّ الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً. ولكنّه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به ممّا تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله. وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرّم، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان.

أمّا بعد، أيها الناس، فإنّ لكم على نسائكم حقّاً ولهنّ عليكم حقّاً. لكم عليهنّ ألاّ يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألاّ يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ضرباً غير مبرّح. فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنّهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً. وإنّكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي فيأتي قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمر
أبيناً: كتاب الله وسنة رسوله^(١١٥٠).

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل
لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم.
اللهم هل بلغت؟

كان النبي يقول هذا وريبعة يردده من بعده مقطوعاً مقطوعاً ويسأل الناس أثناء ذلك ليحفظ
بيقظة أذهانهم. فكان النبي يكلفه أن يسألهم مثلاً: إن رسول الله يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟
فيقولون: يوم الحج الأكبر. فيقول النبي: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن
تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا. فلما بلغ خاتمة كلامه وقال: اللهم هل بلغت، أجاب الناس من كل
صوب نعم. فقال: اللهم اشهد.

ولما أتم النبي خطابه نزل عن ناقته القصواء وأقام حتى صلى الظهر والعصر ثم ركبها حتى
بلغ الصخرات؛ هناك تلا (عليه السلام) على الناس قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)^(١١٥١). فلما سمعها أبوبكر بكى أن أحسن أن النبي وقد
تمت رسالته قد دنا يومه الذي يلقي فيه ربه.

وترك النبي عرفات وقضى ليله بالمزدلفة، ثم قام في الصباح فزّل المشعر الحرام، ثم ذهب
إلى منى وألقى في طريقه إليها الجمرات؛ حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثاً وستين ناقه، واحدة عن كل
سنة من سني حياته، ونحر علي ما بقي من الهدى المئة التي ساق النبي منذ خروجه من المدينة، ثم
حلق النبي رأسه وأتم حجّه^(١١٥٢). أتم هذا الحج، يسميه البعض حجة الوداع، وآخرون حجة

(١١٥٠) قد مرّ التعليق بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: إني مخلف فيكم الفلقين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً،
فراجع ص ٤٨٥ و ٤٨٦ الهامش.

(١١٥١) المائدة (٥): ٣. للأسف لم يذكر المؤلف أن النبي في آية مناسبة تلا هذه الآية؟ لا سيما إذا عرفنا أن القرآن والسنة قد تركهما النبي ولم
تعتصم بهما الأمة من الضلال، بل تفرقت فرقاً وشيعاً ولم يُشر النبي (صلى الله عليه وآله) حسب ما ذكره المؤلف إلى مصير الأمة بعد النبي
ومصير القيادة والخلافة، التي هي أهم مرافق الدولة الإسلامية فكيف أكمل الله دينه من دون تعيين مصيرها؟ وكيف اهتم النبي بما دوّنها في
الأهمية وأهمل أمر الخلافة والإمامة؟ وهل هي من بديهيات العقل والشريعة بحيث لا تحتاج إلى بيان الموقف القرآني والشرعي منها؟ وإذا كانت
بديهية عقلية أو دينية فلماذا اختلف الصحابة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) من أجلها وأوجدوا شروخاً كبيراً في الأمة الإسلامية على مدى
العصور والأجيال؟!

(١١٥٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٠٢/٢ — ٦٠٦، وتاريخ الطبري: ٢٠٥/٢ — ٢٠٦، وعيون الأثر: ٣٤٤/٢ — ٣٤٧، والسيرة الحلبية:

٢٦٥/٣ — ٢٧١، ودعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي: ٣٢٤/١ — ٣٢٥، وبحار الأنوار: ٣٨٣/٢١ — ٣٨٦ و ٣٩٠ — ٣٩٣.
في كل هوامش الكتاب ذات الحساسية التي أثارها الكاتب التزامنا فيها المنهج المعتدل وبقدر المستطاع، فحاولنا أن نتلمس آخر الأعداء وأبعد
الاحتمالات لهفوات الكاتب، مثل احتمال عدم توفر المصادر أو قلة اطلاع على كتب الكلام، أو في التفسير، إلا أنه في هذه المرة غير
معذور، فقد تأملنا كثيراً واحتملنا له آخر الاحتمالات فلم نجد أي مبرر يسوغ له في أن يتجاوز مسألة حدث الغدير التاريخي المعروف، فراه
بكل جرأة ينقل أحداثه بإهمام محاولاً خلط حدثه مع حجة الوداع التي تسبقه تاريخياً ليكونا حدثاً واحداً كما يحلو له، ومثل هذا العرض

الناقص لا يحقق غرض الكاتب وهو أعجز من أن يقف أمام التيار الجارف من عشرات الروايات المعتمدة عند الفريقين — ليلغيها بخطة قلم — التي تنقل لنا سبب نزول آيتين ولحقتهم آية ثالثة (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) مؤكدة قيمة الحدث عند الله في هذه الواقعة وللنبي فيها خطبة مشهورة تختلف عن خطبته في حجة الوداع، فهل من المعقول أن الكاتب لم يطلع عليها ولم يطلع على أسباب نزول الآيات التي ذكرها والتي افترضها قد نزلت في حجة الوداع. والجدير بالذكر أن الخطبة كانت في مسجد الخيف في منى بعد عرفات والمزدلفة ولم تكن في عرفات. ثم إن حدث الغدير قد تدخل الوحي في التخطيط له وإبلاغ الأمة بهذا القرار الخطير في مسيرة الرسالة (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ ...) الذي أعقبه بيعة مطلقة من جميع المسلمين للإمام علي بن أبي طالب للخلافة بعد النبي وقد نقلت كتب التاريخ هذه الحادثة المهمة التي يهملها من لا يروى له فهم كل حقائق التاريخ التي وقعت في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله).

وعليه، فمن اللازم بيان التفريق بين الحديثين مع الإشارة إلى الطرق التي نقلت لنا هذه الواقعة من أجل كشف القناع الذي أخفى به الكاتب تلك الحادثة، وأين الأمانة في النقل التي طالما طبل لها الكاتب في ثنايا سطور كتابه؟ نسأله تعالى أن يهدينا وإياه سبيل الرشاد ويوحد كلمة المسلمين، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

١ — حجة الوداع

تحرك موكب النبي (صلى الله عليه وآله) في أواخر شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة باتجاه مكة ليؤدي مناسك الحج، وحيث اللقاء مع الجموع القادمة من أطراف الجزيرة العربية يحلونها هدف واحد وتحت راية واحدة، يرددون شعاراً إلهياً واحداً: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ». (يرى بعض المؤرخين أن من خرج مع النبي يبلغ تسعين ألفاً، والبعض الآخر

مائة وعشرين ألفاً، عدا من حج من أهالي مكة وضواحيها واليمن وغيرها. راجع السيرة الحلبية: ٢٥٧/٣، وكثر العمال: ٦٠٩/١١).

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) قد كتب إلى علي (عليه السلام) في اليمن يأمره أن يلتحق به في مكة ليحج معه، وأسرع علي بالخروج من اليمن ومعه الغنائم والحلل التي أصابها من اليمن، والتقى بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقد أشرف على دخول مكة، فاستبشر بلاقائه وأخبره بما صنع في اليمن، ففرح النبي (صلى الله عليه وآله) بذلك وابتهج وقال له: بِمَ أَهَلَلْتَ؟ فقال علي (عليه السلام): يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّكَ لَمْ تَكْتُبْ إِلَيَّ بِأَهْلَالِكَ وَلَا عَرَفْتَهُ فَعَقِدْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَقُلْتَ: اللَّهُمَّ إِهْلَالًا كَاهِلَالِ نَبِيِّكَ، وَسَقَتْ مَعِيَ مِنَ الْبَدَنِ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) يَا أَكْبَرَ وَأَنَا قَدْ سَقَتْ مَعِيَ سِتًّا وَسِتِينَ، فَأَنْتَ شَرِيكِي فِي حِجَّتِي وَمَنَاسِكِي وَهَدْيِي، فَأَقِمْ عَلَى إِحْرَامِكَ وَعُدْ إِلَى جِيشِكَ وَعَجِّلْ بِهِ حَتَّى نَجْتَمِعَ بِمَكَّةَ، وَكَانَ عَلِي (عليه السلام) قد سبق الجيش حينما بلغ مشارف مكة وأمر عليهم رجلاً منهم. (الإرشاد للمفيد: ١٧٢/١، السيرة النبوية لابن كثير: ٢٠٥/٤).

وأدى النبي مناسك العمرة والحج وعليه معه، وقال (صلى الله عليه وآله): مَنَى كُلُّهَا مَنَحَرٌ، فنحر بيده الكريمة ثلاثة وستين، ونحر علي (عليه السلام) سبعة وثلاثين تمام المئة، ثم اجتمع الناس فخطب النبي (صلى الله عليه وآله) خطاباً جامعاً وعظ المسلمين فيه ونصحهم. (السيرة الحلبية: ٢٨٣/٣، السيرة النبوية لابن كثير: ٢٩١/٤).

أتم النبي (صلى الله عليه وآله) والمسلمون مناسكهم في منى، ثم رجع إلى مكة فدخل فيها، وطاف طواف الوداع، ثم أتجه إلى المدينة. وهذا عرض مختصر لحجة الوداع.

٢ — حدث الغدير

ولما انتهت مناسك الحج، وتعلم المسلمون مناسكه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قرّر رسول الله (صلى الله عليه وآله) الرحيل عن مكة، والعودة إلى المدينة، فأصدر أمراً بذلك.

ولما بلغ موكب الحجاج العظيم إلى منطقة «رايع» — التي تقع على الطريق بين مكة والمدينة — والتي تبعد عن «الجحفة» — وهي من مواقيت الإحرام وتنشعب منها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين — بثلاثة أميال نزل أمين الوحي جبرئيل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمنطقة تدعى «غدير خم» القريبة من الجحفة بالآية التالية: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) المائدة (٥) : ٦٧.

إنَّ نصَّ الآية يكشف عن أنَّ الله تعالى ألقى على عاتق النبي (صلى الله عليه وآله) مسؤولية القيام بمهمة خطيرة يساوي عدم القيام بها عدم تبليغ الرسالة وضياع الجهود الجبَّارة طيلة ٢٣ سنة من الكفاح والجهاد في سبيل الله. وأي أمر أكثر خطورة من أن يُنصَّب أميناً على رسالته وشاهداً على أمته وقائداً رسالياً يخلفه من بعده على مرأى ومسمع من مئة ألف شاهد؟

من هنا أصدر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمره بالتوقّف، فتوقفت طلائع ذلك الموكب العظيم، والتحق بهم من تأخّر. لقد كان الوقت وقت الظهيرة، وكان الجوّ حاراً إلى درجة كبيرة جداً، وكان الشخص يضع قسماً من عبائه فوق رأسه والقسم الآخر منها تحت قدميه، وصنّع للنبي (صلى الله عليه وآله) مظلة وكانت عبارة عن عبائة أُلقيت على أغصان شجرة، وصلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالحاضرين الظهر جماعة، وفيما كان الناس قد أحاطوا به صعد (صلى الله عليه وآله) على منبر أُعيد من أحداج الإبل وأفتأها، وخطب في الناس رافعاً صوته وهو يقول:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضلّ ولا مُضلّ لمن هدى وأشهد أن لا إله إلا هو وأنّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، أيُّها الناس قد تبأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبيّ إلا مثل نصف الذي قبله، وأني أوشك أن أدعى فأجيب وأني مسؤول وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنّك قد بلغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً، قال (صلى الله عليه وآله):

«ألمستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ جنته حق وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال (صلى الله عليه وآله): «اللهم اشهد».

ثم قال (صلى الله عليه وآله): «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً».

فنادى مناد: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وما الثقلان؟

فقال (صلى الله عليه وآله): «كتاب الله سبب طرف بيد الله وطرف بأيديكم فتمسكوا به، والآخر عترتي وإنّ اللطيف الخبير تبأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الخوض فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا».

وهنا أخذ بيد «علي» (عليه السلام) ورفعها حتّى رُوي بياض آباطهما وعرفه الناس أجمعون، ثم قال:

«أيُّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال (صلى الله عليه وآله): «إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه (لقد كرّر النبي (صلى الله عليه وآله) هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأي التباس أو اشتباه)، ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه واد الحقّ معه حيث دار». راجع للوقوف الكامل على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعة الغدير للعلامة الأميني ج ١، المعجم الكبير للطبراني: ١٨٠/٣، ح ٣٠٥٢، كتر العمّال: ٢٩٠/٥، ح ١٢٩١١، شواهد التنزيل للحسكاني: ٢٥٦/١، تاريخ مدينة دمشق: ٢١٩/٤٢، أنساب الأشراف للبلاذري: ١١٠، ح ٤٧ و ٤٨، البداية والنهاية لابن كثير: ٣٨٦/٧.

واقعة الغدير خالدة إلى الأبد:

لقد تعلّقت المشيئة الربانية بأن تبقى واقعة الغدير التاريخية في جميع القرون والعصور كتاريخ حيّ يجتذب القلوب والأفئدة، ويكتب عنه الكتاب الإسلاميون في كلّ عصر وزمان ويتحدثون حوله في مؤلفاتهم المتنوعة في مجال التفسير والتاريخ والحديث والعقائد، كما يتحدثون حوله الخطباء

بمجالس الوعظ ومن فوق صهوات المنابر، ويعتبرونها من فضائل الإمام عليّ الذي لا يتطرق إليها أي شك أو ريب.

ولم يقتصر هذا على الكتاب والخطباء، بل استلهم الشعراء من هذه الواقعة الكبرى التي فجّرت بالتفكير حول هذه الحادثة، وبالإخلاص لصاحب الولاية بنابيع التعبير في وجودهم فانشأوا أروع القصائد، وجادت قرائحهم بأنواع مختلفة من القصيد الجميل، وخلفوا لمن بعدهم ويبلغات مختلفة آثاراً أدبية ولائية خالدة.

وقلّما نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامة وفي التاريخ الإسلامي والأمة الإسلامية خاصة بمثل ما حظيت به واقعة الغدير من الاهتمام، وقلّما استقطبت اهتمام الفئات المختلفة من المحدثين والمفسرين والكلاميين والفلاسفة، والشعراء والأدباء، والكتّاب والخطباء، وأرباب السير والمؤرخين كما استقطبت هذه الحادثة، وقلّما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

إنّ من أسباب خلود هذه الواقعة الكبرى ودوام هذا الحدث هو: نزول آيتين من آيات القرآن الكريم فيها (المائدة: ٣ و ٦٧)، فما دام القرآن الكريم باقياً مستمراً يتلى آناء الليل وأطراف النهار تبقى هذه الحادثة في الأذهان والنفوس ولا تمحو خاطرها من العقول والقلوب. وحيث إنّ المجتمع الإسلامي في العصور الغابرة وكذا الطائفة الشيعية كانوا يعتبرون هذا اليوم عيداً كبيراً من الأعياد الدينية، وكانوا يقيمون فيه ما يقيمونه من المراسيم في الأعياد الإسلامية، اتّخذت هذه الحادثة التاريخية (حادثة الغدير) طابعاً إسلامياً خالداً.

ويستفاد من مراجعة مصادر التاريخ بوضوح أنّ اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير، وكانت هذه التسمية تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة أنّ ابن خلكان يقول حول «المستعلي بن المستنصر»: فبوع في يوم غدير خمّ وهو الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ. (وفيات الأعيان: ٦٠/١).

وقال في ترجمة المستنصر بالله العبيدي: وتوفي ليلة الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمئة، قلت: وهذه هي ليلة عيد الغدير أعني ليلة الثامن عشر من شهر ذي الحجة وهو غدير خمّ. (وفيات الأعيان: ٦٠/١).

وقد عدّه أبوريحان البيروني في كتابه «الآثار الباقية» مما استعمله أهل الإسلام من الأعياد. (ترجمة الآثار الباقية: ٣٩٥، الغدير: ٢٦٧/١). وليس ابن خلكان وأبوريحان البيروني، هما الوحيدان اللذان صرّحا بكون هذا اليوم هو عيد من الأعياد، بل الثعالبي قد اعتبر هو الآخر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين. (ثمار القلوب: ٥١١).

إنّ عهد هذا العيد الإسلامي وحذوره ترجع إلى نفس يوم «الغدير» لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أمر المهاجرين والأنصار، بل أمر زوجته ونساءه في ذلك اليوم بالدخول على «علي (عليه السلام)» وتهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيد بن أرقم: كان أول من صافق النبي (صلى الله عليه وآله) وعليّاً: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس. (الغدير: ٢٧٠/١).

الدلائل الأخرى على أبدية الغدير:

ويكفي في أهمية هذا الحدث التاريخي أنّ هذه الواقعة التاريخية رواها مئة وعشرة صحابي، على أنّ هذه العبارة لا تعني أنّ رواية هذه الواقعة اقتصر على هؤلاء المئة والعشرة من ذلك الحشد الهائل بل يعني إنّ هؤلاء قد جاء ذكرهم في كتب أهل السنة ومصنفاتهم.

صحيح أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألقي خطابه المذكور الذي تضمّن نصب علي (عليه السلام) للخلافة في مئة ألف أو يزيدون من الناس، ولكنّ كثيراً منهم كانوا قد أتوا من مناطق نائية من الحجاز ولهذا لم يرو عنهم هذا الحديث، كما أنّ كثيراً من الذين حضروا ذلك المشهد التاريخي العظيم رَوَوْا ونقلوا للآخرين هذا الحديث ولكنّ التاريخ لم يوفق لذكر أسمائهم، أو إذا تمّ ذلك لم يصل إلينا.

ثمّ إنّه روى هذا الحديث في القرن الثاني الإسلامي وهو عصر التابعين تسعة وثمانون تابعياً.

وقد بلغ عدد من روى حديث «الغدير» في القرون اللاحقة في كتابه من علماء أهل السنة وفضلائهم ثلاثمئة وستون شخصاً، وصحّحه جمع كبير منهم واعترفوا بتواتره.

ففي القرن الثالث رواه اثنان وتسعون عالماً.

وفي القرن الرابع رواه أربعة وأربعون.

وفي القرن الخامس رواه أربعة وعشرون.

وفي القرن السادس رواه عشرون.

وفي القرن السابع رواه واحد وعشرون.

وفي القرن الثامن رواه ثمانية عشر.

وفي القرن التاسع رواه ستة عشر.

وفي القرن العاشر رواه أربعة عشر.

وفي القرن الحادي عشر رواه اثنا عشر.

وفي القرن الثاني عشر رواه ثلاثة عشر.

وفي القرن الثالث عشر رواه اثنا عشر.

وفي القرن الرابع عشر رواه عشرون عالماً.

ولم يكتف البعض بنقل ورواية هذا الحديث في كتبهم ومؤلفاتهم، بل ألفوا له رسائل أو كتباً مستقلة.

وقد ألف المؤرخ الإسلامي الكبير «الطبري» كتاباً في هذا المجال أسماه «الولاية في طرق حديث الغدير» روى فيه هذا الحديث عن النبي بحمس وسبعين سنداً.

ولقد روى «ابن عقدة» في رسالة «الولاية» هذا الحديث بمئة وخمسين طريقاً.

وروى أبو بكر محمد بن عمر البغدادي المعروف بالجعابي هذا الحديث بخمس وعشرين طريقاً.

كما روى من علماء الحديث هذه الواقعة نظراء:

أحمد بن حنبل الشيباني — ٤٠ سنداً.

ابن حجر العسقلاني — ٢٥ سنداً.

الجزري الشافعي — ٨٠ سنداً.

أبو سعيد السجستاني — ١٢٠ سنداً.

الأمير محمد البيهقي — ٤٠ سنداً.

النسائي — ٢٥٠ سنداً.

أبو العلاء الهمداني — ١٠٠ سنداً.

أبو العرفان الحبان — ٣٠ سنداً.

وبلغ عدد من ألف رسالة خاصة أو كتاباً مستقلاً حول هذه الواقعة وخصوصياتها وتفاصيلها (٢٦) مؤلفاً ولعلّ هناك غيرهم ممن ألف كتاباً أو رسالة مستقلة حول هذا الحدث التاريخي المهم لم تدوّن أسماؤهم، أو ضاعت مؤلفاتهم مع الأحداث التي طرأت على الأمة الإسلامية وضُيِّعت الكثير من تراثها الفكريّ خلال عمليات الإغارة والنهب أو الهدم والإحراق.

ولقد كتب علماء الشيعة كتباً قيّمة حول هذه الواقعة أجمعها وأشملها كتاب عبقات الأنوار للسيد مير حامد حسين اللكنهوي ثمّ كتاب «الغدير» بقلم العلامة الجليل والكاظم الإسلامي القدير المرحوم آية الله الشيخ الأمين (رحمه الله)، والذي يقع في أحد عشر مجلداً في ما يقرب من ستة آلاف صفحة، وقد استفدنا كثيراً من تلك الموسوعة في تنظيم الفصل الحاضر.

ثمّ إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يلبث أن نزل عليه قوله تعالى بعد نصبه علياً لإمرة المسلمين في تلك الواقعة:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا). (المائدة (٥): ٣).

فكبر النبي (صلى الله عليه وآله) بصوت عالٍ ثمّ أضاف قائلاً:

«الحمد لله على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ برسالي، وولاية عليّ بن أبي طالب من بعدي» (مناقب أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي: ٤٠٩/١، الصوامير المهرقة للتستري: ١٧٩).

ثمّ نزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) من ذلك المنبر المصنوع من حدائق الإبل وأمر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أن يجلس في خيمة وأمر أطباق الناس وكلّ من حضر المشهد من أمته ومنهم الشيخان ومشايخه قريش ووجوه الأنصار، كما أمر أمّهات المؤمنين بالدخول على أمير المؤمنين (عليه السلام) وتهنئته على نصبه لمنصب الإمامة والخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ففعل الناس ذلك وانكبوا على عليّ (عليه السلام) بأيديهم وكان أوّل من صافق وهناً عليّاً أبو بكر وعمر واصفين إيّاه بالولاية.

وهنا قام «حسن بن ثابت الأنصاري» شاعر الإسلام واستأذن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أن ينشد شعراً بهذه المناسبة، فأذن له رسول الله (صلى الله عليه وآله) قائلاً له: قل على بركة الله، فقال:

يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيَّهُمْ *** بِخُمْ واسمعُ بالنبيّ مناديا

وقد جاءه جبريلُ عن أمر ربّه *** بأنّك معصومٌ فلا تكُ وانبا

وبلّغهم ما أنزلَ الله ربُّهم *** إليك ولا تخشى هناك الأعادي

فقام به إذ ذاك رافع كفّه *** بكف عليّ معلنٌ الصوت عاليا

فقال فمن مولاكم ووليكم *** فقالوا ولم يبدو هناك تعاميا

إلهك مولانا وأنت وليّنا *** ولن تجدنّا فينا لك اليوم عاصياً

فقال له: قم يا عليّ فإنّي *** رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

البلاغ، وغيرهم حجة الإسلام. وهي في الحق ذلك كله. فقد كانت حجة الوداع، رأى فيها «محمد» مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة. وكانت حجة الإسلام، أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته. وكانت حجة البلاغ، أتم النبي فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه. وما «محمد» إلا نذير.

* * *

فمن كنت مولاه فهذا وليه *** فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه *** وكن للذي عادى علياً معاديا

فيارب أنصر ناصريه لنصرهم *** إمام هدى كاليدرجلوا الدياجيا

ولقد كان هذا الحديث على مدى التاريخ الإسلامي أكبر دليل على أفضلية علي (عليه السلام) على جميع صحابة النبي كافة، حتى أن أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) احتج به مراراً فقد احتج به في مجلس الشورى الذي عقد لتعيين الخليفة عقيب وفاة الخليفة الثاني، وفي أيام خلافة عثمان وفي أيام خلافته (عليه السلام) أيضاً، كما أن شخصيات كثيرة من وجوه المسلمين احتجوا به على منكري حق علي وأفضليته وكان ذلك دائماً وأبداً.

الفصلُ الثلاثون

مَرَضُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) ووفاته

تفكيره في غزو الروم، جيش أسامة، بدء مرض النبي، ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل حُنين، شكواه من وجع رأسه الحمى، أمره أبا بكر أن يصلي بالناس، صحو الموت، اختيار الرفيق الأعلى.

تَمَّت حَجَّةُ الْوُدَّاعِ وَآنَ لِعَشْرَاتِ الْأُلُوفِ مِمَّنْ صَحَبُوا النَّبِيَّ فِيهَا أَنْ يَعُودُوا إِلَى دِيَارِهِمْ فَانْجَدَ^(١١٥٣) مِنْهُمْ أَهْلُ نَجْدٍ. وَأَتَمَّ^(١١٥٤) أَهْلُ تَهَامَةَ، وَانْحَدَرُوا إِلَى الْجَنُوبِ أَهْلَ الْيَمَنِ وَحَضْرَمُوتَ وَ مَاحَاذَهَا. وَسَارَ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ مُيَمِّمِينَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوهَا أَقَامُوا بِهَا فِي أَمْنٍ مِنْ نَاحِيَةِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا، وَفِي تَفَكُّيرٍ مُتَّصِلٍ مِنْ جَانِبِ «مُحَمَّدٍ» فِي أَمْرِ الْبِلَادِ الْخَاضِعَةِ لِلرُّومِ وَالْفَرَسِ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْعِرَاقِ. إِنَّهُ أَمِنَ مِنْ نَاحِيَةِ شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ جَمِيعاً بَعْدَ أَنْ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، وَبَعْدَ أَنْ جَعَلَتْ الْوُفُودُ تَتْرَى إِلَى يَثْرِبَ تُعْلَنُ الطَّاعَةُ وَتَتَفَيَّأُ ظِلَالُهَا تَحْتَ لَوَاءِ الْإِسْلَامِ، وَبَعْدَ أَنْ انْحَازَ الْعَرَبُ جَمِيعاً إِلَيْهِ فِي حَجَّةِ الْوُدَّاعِ. وَكَيْفَ لَا يُخَلِّصُ مُلُوكُ الْعَرَبِ فِي وَلَا تَهْمُ لِلنَّبِيِّ وَلَدِينِهِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَا أَبْقَاهُ لَهُمُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ مِنْ سُلْطَانٍ وَاسْتِقْلَالٍ ذَاتِي. أَوَلَمْ يَبْقَ بَدْهَانَ عَامِلُ فَارِسَ عَلَى أَرْضِ الْيَمَنِ فِي مُلْكِهِ حِينَ أَعْلَنَ بَدْهَانُ إِسْلَامَهُ وَحَرَصَ عَلَى وَحْدَةِ الْعَرَبِ وَأَلْقَى نِيرَ الْجَوْسِ^(١١٥٥) وَلَمْ يَكُنْ مَا يَقُومُ بِهِ بَعْضُهُمْ فِي أَنْحَاءِ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ مِنْ حَرَكَاتٍ تَشْبِهُ الْإِنْتِقَاضَ لَيْسْتَغْرِقَ مِنَ النَّبِيِّ شَيْئاً مِنَ التَّفَكُّيرِ، أَوْ لِيُثِيرَ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً مِنَ الْمَخَافِ بَعْدَ أَنْ انْبَسَطَ سُلْطَانُ الدِّينِ الْجَدِيدِ فِي كُلِّ الْأَنْحَاءِ، وَعَنْتَ كُلَّ الْوُجُوهِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، وَآمَنَتِ الْقُلُوبُ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

لذلك لم يُشَرِّ قِيَامَ الَّذِينَ قَامُوا إِذْ ذَاكَ يَدْعُونَ النَّبِيَّةَ عَنَاءَ «مُحَمَّدٍ» وَلَا اِهْتِمَامَهُ، صَحِيحٌ أَنَّ بَعْضَ الْقَبَائِلِ الْقَاصِيَةِ عَنْ مَكَّةَ كَانَتْ تَسْرِعُ بَعْدَ الَّذِي عَرَفَتْ عَنْ «مُحَمَّدٍ» وَنَجَاحَ دَعْوَتِهِ إِلَى

(١١٥٣) أنجد: خرج باتجاه نجد، مجمع البحرين: ١٤٨/٣ .

(١١٥٤) أتم: أتى تهامة. مجمع البحرين: ١٤٨/٣ .

(١١٥٥) تاريخ الطبري: ١٣٤/٢، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٦. وأما ذكر اسم عامل فارس على اليمن: بادان أو بادام.

الاستماع لمدّعي النبوة من أهل قبيلتهم، وتودّ لو يكون لها من الحظّ ما أُوتيت قريش! وأنّ هذه القبائل كانت لبعدها عن مقرّ الدين الجديد لا تعرف كلّ أمره. لكنّ الدعوة الحقّ إلى الله كانت قد تأسّلت في بلاد العرب، فلم تك اليسير حربها. وما لاقى «محمّد» في سبيل هذه الدعوة كان قد انتشر في الآفاق خبره، ولم يكن مستطاعاً لغير ابن عبد الله احتماله. وكلّ ادّعاء أساسه البهتان لا مفر أن ينكشف سريعاً بهتانه. فكل ادّعاء للنبوة لم يكن مقدّراً له أي نجاح ذي بال. قام طليحة زعيم بني أسد وأحد أشاوس العرب في الحرب ومن ذوي السلطان بنجد، وزعم أنّه نبيّ ورسول، وأيدّ زعمه بالتنبؤ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم. لكنه بقي خائفاً من الانتقاض على «محمّد» طوال حياة «محمّد» ولم يعلن الثورة إلّا بعد أن قبض الله اليه رسوله. وهزم ابن الوليد طليحة في ثورته هذه فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه^(١١٥٦). ولم يكن مسيلمة ولا كان الأسود العنسي خيراً مكاناً من طليحة طيلة حياة النبيّ. بعث مسيلمة إلى النبيّ (عليه السلام) يقول: إنّ نبيّ مثله: «وإنّ لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم لا يعدلون» فلمّا ثلّي الخطاب نظر النبيّ لرسولي مسيلمة وأبدى لهما أنّه كان يأمر بقتلهما لولا أنّ الرسل في أمن، ثمّ أجاب مسيلمة بأنّه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب. «وإنّ الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين والسلام على من اتّبع الهدى»^(١١٥٧). وأمّا الأسود العنسي، صاحب اليمن بعد موت بدّهان، فقد جعل يدّعي السحر ويدعو الناس إليه خفية، حتّى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرّد عمال «محمّد» على اليمن، وتقدم إلى نجران وقتل فيها ابن بدّهان ووارث عرشه، وبني بزوجه، ونشر في تلك الأصقاع سلطانه، ولم يُثر استفحال أمره عناية «محمّد» ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن يبعث إلى عمّاله باليمن كي يحيطوا بالأسود أو يقتلوه. ونجح المسلمون في تأليب اليمن من جديد على الأسود، وقتلته زوجته انتقاماً منه لقتله زوجها الأوّل ابن بدّهان^(١١٥٨).

كان تفكير «محمّد» وكانت عنايته متجهين إذاً إلى الشمال بعد عودته من حجة الوداع، وكان من ناحية الجنوب آمناً مطمئناً. والحقّ أنّه منذ غزوة مؤتة، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالإياب مكتفين بما أبدى خالد بن الوليد من مهارة في الانسحاب، كان «محمّد» يحسب لناحية الروم حسابها ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتّى لا يعود إليها الذين جعلوا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلها. ولهذا جهّز الجيش العرم^(١١٥٩) الذي

(١١٥٦) تاريخ الطبري: ٢٤٧/٢ و ٢٥٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ٢٣٢/٢.

(١١٥٧) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٦٠٠، وتاريخ الطبري: ٢٠٣/٢ — ٢٠٤.

(١١٥٨) تاريخ الطبري: ٢٤٨/٢ — ٢٤٩، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ٢٢٨/٢.

(١١٥٩) وقد عرم بالضم والفتح والكسر. والعرام: الشدّة والقوّة والشراسة. النهاية في غريب الحديث: ٢٢٣/٣.

جهّز حين بلغه تفكير الروم في مهاجمة حدود شبه الجزيرة، وسار هو على رأسه حتّى بلغ تبوك، فألقى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيئته^(١١٦٠). لكنّه مع هذا ظلّ يقدر لناحية الشمال أن تنور الذكريات بمُحمة المسيحية وأصحاب الغلب في ذلك العصر من أهل الإمبراطورية الرومانية. فعلنوا الحرب على من أجّلوا النصرانية عن نجران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب^(١١٦١). لذلك لم يُطل بالمسلمين المقام بالمدينة بعد عودهم من حجّة الوداع بمكّة حتّى أمر النبيّ بتجهيز جيش عزم إلى الشام، جعل فيه المهاجرين الأوّلين ومنهم أبو بكر وعمر، وأمر على الجيش أسامة ابن زيد بن حارثة.

وكان [أسامة بن] زيد يومئذ حَدَثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنّه، فكان لإمارته على المتقدّمين الأوّلين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس لولا إيمانها^(١١٦٢) الصادق برسول الله. والنبيّ إنّما أراد بتعيين [أسامة] بن زيد أن يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في موقعة مؤتة، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزي به ذلك الإستشهاد، وما يبعث إلى جانب ذلك في نفس الشباب الهمة والحميّة، ويعودهم على الاضطلاع بأعباء أجسم التبعات^(١١٦٣). وأمر «محمّد» أسامة أن يُوطى الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قُتل أبوه، وأن يتزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح. وأن يُمعن فيهم قتلاً، وأن يُحرقهم بالنار، وأن يتمّ ذلك دراكاً حتّى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه. فإذا أتم الله له النصر لم يُطل بقاءه بينهم وعاد غانماً مظفراً^(١١٦٤).

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجُرف على مقربة من المدينة يتجهّزون للسفر إلى فلسطين، وإنّهم لفى جهازهم إذ حال مرض رسول الله، ثمّ اشتداد المرض به دون مسيرهم. وقد يسأل إنسان: كيف يحول مرض رسول الله دون مسيرة جيش أمر هو بجهازه وسفره؟! لكنّ مسيرة جيش إلى الشام يقطع البید والصحاري أيّاماً طويلة ليست بالأمر الهين. ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبيّ أحبّ إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما

(١١٦٠) مرّ في محلّه أنّه (صلى الله عليه وآله) لم يلق الروم، لا أنّهم انسحبوا.

(١١٦١) بل لم يجلو النصرانية عن نجران وإنّما عاهدوهم.

(١١٦٢) لم تكن كلّ نفوس المهاجرين وكبار الصحابة كذلك وإنّما بعضهم.

(١١٦٣) ذكر الدكتور لتعيين أسامة ثلاثة حكيم، ولم يذكر الحكمة الرابعة وهي تأمير هذا الشاب على كبار الصحابة كي لا يتدّرعوا لدفع

عليّ (عليه السلام) عن الخلافة بأنّه في سن الشباب! ثمّ الحكمة من تعيّن كبار المهاجرين فيه إبعادهم عن المدينة حين وفاته (صلى الله عليه وآله)

لكي لا يزاحموا عليّاً (عليه السلام) على خلافته، وسيأتي تفصيل هذا عن المرحوم الشيخ المظفر (رحمه الله).

(١١٦٤) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٤١/٢ — ٦٤٢، والمغازي للواقدي: ١١١٧/٢، وتاريخ الطبري: ٢٢٤/٢ وبحار الأنوار: ٤١٠/٢١.

وراء هذا المرض^(١١٦٥)، ثمَّ إنَّهم لم يعرفوا قطَّ من قبل أنَّه شكاً مرضاً ذا بال. فهو لم يُصب من

(١١٦٥) كيف يُعد التمرد على أمر الرسول (صلى الله عليه وآله) والتراجع عن مخططه — وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحي يوحى —

كيف يعدَّ هذا حسنة تحت ذريعة حب المتخلفين للنبيِّ وقلقهم على مصيره، لأنَّه في حالة مرض، ولم يقف الكاتب على العلل التي دعت النبيَّ لتجهيز جيش أسامة وتشديده على الحضور فيه بل دعت إلى لعن المتخلفين عن جيش أسامة والحكمة التي جعل فيها أسامة وهو صغير السن قائداً للجيش، وانضواء كثير من الصحابة تحت إمرته وبقاء عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) معه في المدينة بأمر منه (صلى الله عليه وآله) وهي أمور واستفهامات يعرف أجوبتها الكاتب جيداً، وكم نتمنى أن يعفينا عن الدخول في تفاصيلها ونكون بمستوى الوفاء لأمتنا فنعرض لها الحقائق كما هي لتستفيد من تاريخها وتكون أمة كما أريد لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وعليه، كما وجدنا أنفسنا مضطرين في التعليق على عبارات مشوشة أو مشوهة لنصوص الكتاب في السابق ففي هذه المرّة لا بدّ من كشف الغموض الذي طالما شُوِّهت من خلاله حقائق التاريخ الجسيمة، بعد أن تغافل المؤلف عن بيان المفاسل التاريخية المهمة في حياة الرسالة. إنَّ خلاصة حدث غزوة الروم بقيادة أسامة بن زيد ومرض النبيِّ (صلى الله عليه وآله) وبقاء عليّ بن أبي طالب معه، وغمرد الصحابة عن اللحاق بجيش أسامة يتم بالشكل التالي:

قال الشيخ المحقق محمّد رضا المظفر في كتابه «السقيفة»: مرض النبيِّ (صلى الله عليه وآله) مرضه الذي انتقل به إلى الرفيق الأعلى، فوجس منه خيفة الفراق، وهو يعلم أن أمته على شفا حرف هار من بحر للفتن متلاطم، والعرب مغلوبة على أمرها تحرق الأُمم عليه وعلى قومه وأهل بيته، وتنتهز الفرص للوثوب لأخذ ثأرها وهو على حذر منهم، والمنافقون بالمِرصاد بين ظهري المسلمين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويعدون من أصحابه وهو على المسلمين منهم أحذر، وليس عهد دحرجة الدباب في العقبة بعيد. وأكثر من ذلك هذه الأخبار ترد بخروج الأسود العنسي ومسيلمة يدعيان النبوة فتتكاثر أتباعهما.

ما أشدَّ حال النبيِّ وحزنه وهو يستدبر أمة هذه حالها وهي تستقبل الفتن كقطع الليل المظلم، كما في الحديث. وقد رأى مواقع الفتن خلال بيوت المدينة كمواقع القطر في حديث آخر. (صحيح مسلم: ١٦٨/٨ باب نزول الفتن).

ولكنَّه في هذا الموقف الدقيق مع ذلك يرمي بجيشه اللَّحَب إلى مكان سحيق، إذ يعقد اللواء بيده للشباب أسامة بن زيد أميراً على الجيش بعد يوم واحد من ابتداء شكاته، بعد أن كان أمرهم بالبعث قبل ابتداء مرضه. ثمَّ يضم تحت لوائه شيوخ المهاجرين والأنصار وجنّتهم ووجوهم منهم أبو بكر — (صرح بدخول أبي بكر في البعث أكثر المؤرخين، منهم ابن سعد في طبقاته: ٤/٤٦ و ٤/١٣٦، وابن عسّاكر في التهذيب: ٢/٣٩١ و ٣/٢١٥، وصاحب كتر العَمال: ٥/٣١٢، وصاحب تاريخ الخميس: ٢/١٧٢، واليعقوبي في تاريخه: ٢/٩٣، وابن أبي الحديد: ٢/٢١١، وغيرهم ممّا لا يحصى. ولم نجد تصريحاً ولا تلويحاً لأحد من المؤرخين بخروجه من جيش أسامة. وإنّما يكتفي بعضهم بقوله: «وجوه المهاجرين» وما يؤدي هذا المعنى بدون تصريح باسم أحد، ولكنَّ بعض المؤلفين الجدلّيين حاول انكار دخوله من غير حجّة ظاهرة، وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة وسعد ابن أبي وقاص وأسيد بن حضير وبشير بن سعد وغيرهم، ليحارب بهم أهل أبنى بناحية البلقاء من أرض الشام، أولئك قتلة أبي أسامة زيد من الروم.

ثمَّ يشدّد في الخروج ويلعن المتخلف منهم ويغضب ذلك الغضب لتباطؤ القوم ولغظهم حول تأمير فتى يافع على شيوخ المسلمين، فيقول: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأثم الله! أن كان خليقاً للإمارة وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة».

ويستفيد الشيخ المظفر من هذا الإجراء عدة أمور منها:

أولاً: أن تسند قيادة أعظم جيش إسلامي يومئذ — في ذلك الظرف الدقيق الذي وصفناه، في مرض النبيِّ — إلى شاب يافع لم يتجاوز العشرين من سنه «على جميع التقادير»، وهو لم يجزّب الحروب بعد وبالأصح لم تسند إليه أية قيادة من هذا النوع ولا من نوع آخر. والجيش معبأً لجهاد أقوى أعداء الإسلام في ذلك الموقع البعيد عن العاصمة الإسلامية.

ثانياً: أن يؤمّر هذا الفتى مع ذلك، على شيوخ المسلمين الذين فيهم قوَاد الحروب ورؤساء القبائل وأصحاب النبيِّ الذين يرون لأنفسهم مقاماً أسمى ومزلة رفيعة. ويرشحون أنفسهم لمنصب هو أعظم كثيراً من منصب قائدهم الصغير هذا.

ثالثاً: أن يتباطأ المسلمون عن الالتحاق بهذا البعث بالرغم من اصرار النبيِّ، وتشديده النكير على المتخلفين ولعنه إياهم. ويكفي أن نعرف أن البعث وقع قبيل شكاته أو في أوّلها وقد استدامت علته أربعة عشر يوماً «على أوسط التقادير». وفي كلّ هذه المدة الطويلة يتناقل القوم عن الخروج. وقد عسكر قائدهم الفتى بالجرف، وهو عن المدينة بفرسخ واحد «بعد أن عقد النبيُّ له الراية بيده الشريفة» ينتظر جيشه المُتمرد يجتمع إليه، فتخلق الإشاعات عن حال النبيِّ فيرجع أسامة إلى المدينة برايته فيركّزها على باب النبيِّ، ولكنَّ الرسول في كلّ مرة يأمره بالعودة

ويبحث القوم على الالتحاق به. ولكنه في اليوم الأخير يرجع مرتين، في المرة الأولى يأمره النبي بالسير قائلاً: «اغد على بركة الله تعالى» فيودعه ويخرج، وفي المرة الثانية يرجع ومعه عمر وأبو عبيدة فيجد النبي يجود بنفسه، ثم يلتحق بالرفيق الأعلى.

فماذا دهم المسلمين حتى خالفوا الصريح من أمر النبي هذه المدة الطويلة من غير حياء منه ولا خجل ولا خوف من الله ورسوله وتوطنوا على غضبه ولعنهم جهاراً! أتراهم استضعفوا النبي وهو مريض شاك فتمردوا عليه، أم ماذا؟!

رابعاً: أن ينكر هؤلاء المسلمون على نبيهم تأميره لهذا الفتى، ثم لا يرددون أن نأثمهم عن ذلك، وليس لهم على كل حال حق هذا الإنكار إذا كانوا حقاً قد تغذوا بتعاليم الإسلام وعرفوا أن النبي لا ينطق عن الهوى وما كان لهم الخيرة.

خامساً: إن النبي قد علم بقرب أجله ويعلم أن الفتى قد قبلت كقطع الليل المظلم، فكيف يبعد جيشه وقوته عن العاصمة ومركز الدعوة بل كيف يخلي المدينة من شيوخ المهاجرين والأنصار وزعمائهم وأهل الحل والعقد منهم.

فلا بد أن يكون كل ذلك لأمر عظيم، أكثر من هذه الظواهر التي يتصورها الناس.

فهل نجد حلاً لهذه المشاكل تطمئن إليه النفس الحرة، بعد عرفاننا للنبي وعظمته وأنه لا يفعل ولا يقول إلا عن وحي وسر إلهي؟

لم يصح عندنا تفسير لمشاكل هذا الحادث إلا بأن نقول: إنه (صلى الله عليه وآله) أراد:

أولاً: أن يهيئ المسلمين لقبول «قاعدة الكفاية» في ولاية أمورهم، من ناحية عملية، فليست الشهرة ولا تقدم العمر هما الأساس لاستحقاق الإمارة والولاية، فلذا قال عن أسامة مؤكداً جدارته بالقسم والام التأكيد: «وَأَمَّ اللَّهُ إِنْ كَانَ خَلِيفًا لِلْإِمَارَةِ — يعني زيدا — وَإِنَّ ابْنَ خَلِيقٍ لِلْإِمَارَةِ».

وإذا علمنا أن علي بن أبي طالب هو المهيأ لولاية أمور المسلمين بعد النبي — على الأقل — إن فرض أنه لم يكن هو المنصوص عليه؛ أفلا يثبت لنا أن قضية أسامة كانت لقبول الناس إمارة علي على صغر سنه يومئذ بالقياس إلى وجوه المسلمين وكان إذ ذاك لا يتجاوز الثلاثين؟ وهذا ما يفسر به المشكل الأول والثاني في هذا البعث.

وثانياً: أن يبعد عن المدينة ساعة وفاته من يطمع في الخلافة خشية أن يزعجوها عن صاحبها الذي نصبه لها في الخلافة. وقد ثبت عنه أنه كان يتوَحَّس خيفة على أهل بيته ولا سيما على علي، فوصفهم بأنهم المظلومون من بعده. ولذا تراه عبثاً في هذا الجيش كل شخصية معروفة تتناول إلى الرئاسة، ولم يدخل فيه علياً ولا واحداً ممن يميل إليه الذين كانوا له بعد ذلك شيعة ووافقه على ترك البيعة لأي بكر، فلم يذكر واحداً منهم في البعث، وهم ليسوا أولئك النكرات الذين لا يذكرون.

وهذا ما يفسر تباطؤ القوم عن البعث وعرقلتهم له بخلق الإشاعات في المعسكر عن وفاة الرسول، مع إصراره (صلى الله عليه وآله) ذلك الإصرار العظيم. ولم يمكنهم أن يصرخوا بما في نفوسهم. فاعتذروا بصغر قائدهم؛ وفي هذا كل معنى التهجين لرأي النبي وعصيان أمره الصريح.

فكان الغرض إخلاء المدينة من المزاehمين لعلي ليم الأمر له، بعد أن اتضح للنبي أن التصريحات بخلافته لا تكفي وحدها للعمل بما عندهم، كما امتنعوا عن السير تحت لواء أسامة وهو لا يزال في قيد الحياة، فقدّر أن القوم إذا ذهبوا في بعثهم هذا يرجعون وقد تم كل شيء لخليفته المنصوب من قبله، فليس يسعهم إلا أن ينضوا حينئذ تحت جماعة المسلمين ورايتهم.

وقالوا: أن يقلل من نزوع التوثيين للخلافة، ليقم الحجة لهم وللناس بأن من يكون مأموراً طائعاً لشاب يافع ولا يصلح لإمارة غزوة مؤتة كيف يصلح لذلك الأمر العظيم وهو ولاية أمور جميع المسلمين العامة وهي في مقام النبوة وصاحبها أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وزبدة المخض أن بعث أسامة لا يصح أن يفسر إلا بأنه تدبير لاتمام أمر علي بن أبي طالب بمقتضى الظروف المحيطة به من تقدم النص على علي، وقرب أجل النبي (صلى الله عليه وآله) وعلمه بأن هناك من لا يروق له ولاية ابن عمه، وبمقتضى الدلائل الموجودة في الواقعة نفسها، من تأمير فتى يافع وتكديس وجوه القوم قوادهم في البعث، وعدم دخول علي ومن يميل إليه، وامتناع جماعة عن الالتحاق بالجيش، وحث النبي على تنفيذه وغضبه من اعتراضهم وتخلفهم، وهو في مرض الفراق والظرف دقيق على المسلمين.

فهذا البعث في الوقت الذي كان تدبيراً لإخلاء المدينة لعلي وحزبه كان حجة على المستصغرين لسنه ودليلاً على عدم صلاح غيره لهذا المنصب العظيم. فإذا كان الإخلاء لم يتم لتمانع القوم وعرقلتهم للبعث فإن الحجة ثابتة مع الدهر.

ولا يصح للباحث أن يدعي أن السبب الحقيقي لتخلف القوم هو ما تظاهروا به من عدم الرضى بإمارة قائدهم الصغير، وإن تذرّعوا به عذراً لإخفاء تلك الشبهة التي عرفها النبي من أحزم، لأننا نرى أن لو كان هذا هو السبب الحقيقي لما تنفذ البعث بعد أن تم أمر الخلافة الذي به زال المانع الحقيقي، والمسلمون إلى النبي أطوع منهم إلى أبي بكر لو كان يمنعونهم صغر القائد. ولم يتأب عمر نفسه بعد ذلك أن يخاطب أسامة بالأمر طيلة حياته اعترافاً بإمارته.

المرض بأكثر من فقد الشهية في السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذباً: إنّ اليهود سحروه^(١٦٦)، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة في السنة السابعة من الهجرة. ثم إنّ حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكلّ من يتبعها عن المرض. فهذا الزهد في الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة في الملبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبّها «محمد» ويحرص عليها، حتّى ليقول: إنّّه لولا خيفته أن يشقّ على قومه لفرض عليهم السواك في اليوم خمس مرات^(١٦٧)، وهذا النشاط الدائم: نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى، وهذا القصد في كلّ شيء، وفي الملذات قبل كلّ شيء، وهذا السموّ عن عبث الأهواء، وهذه الرفعة النفسية لا تُدانيها رفعة، وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون في خير صور الحياة وأدقّ أسرار الكون. هذا كلّه يجنب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظّه، فإذا كان سليم التكوين قويّ الخلق، كما كان «محمد»، جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلاً. فإذا مرض كان طبيعياً أن يخاف محبّوه وأصحابه، وكان طبيعياً أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعة. فهو منذ بدأ يجهر بدعوته في مكة منادياً الناس بعبادة الله وحده لا شريك له، وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم، قد لقي من العنت ما تنوء به النفوس ثمّا شتت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة، وما اضطّره للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته. وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر في أدقّ الظروف وأشدّها تعرّضاً للخطر، وهاجر وهو لا يعرف ما قدّر له بالمدينة، ولقد كان بها في الفترة الأولى من مقامه موضع

أما الشفقة على النبيّ — إن لم تكن عذراً آخر تذرّعوا به — فلا يصح أن تكون سبباً حقيقياً، إذ ينبغي أن يكونوا عليه أشفق بالتحاقهم بالبعث وقد غضب أشدّ الغضب من تأخرهم على ما فيه من حال ومرض. ولئن ذهبوا يسألون عنه الركبان كان أكثر برّاً بنبيهم من أن يعصوا أمره ويغضبوه ذلك الغضب المولم له.

ولو أنّ القوم كانوا قد امتثلوا الأمر لأصابوا خيراً ولتبدل سير التاريخ وبجرى الحوادث بدلاً قد لا يحيط به حتّى الخيال (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ولما وقع ما وقع بعد ذلك من خلاف بين المسلمين وتطاحن وحروب دموية أهكت قوى الإسلام وأضعفت روحية الدين، حتّى انفصمت عرى الجامعة الإسلامية سريعاً وانتهكت حرمان الأحكام الدينية، فعاد الإسلام كما نشاهد اليوم غريباً كما بدأ.

أي أمر عظيم وتدير حازم صنعه النبيّ لسدّ باب كلّ خلاف يحدث؟ «وكل أفعاله عظيمة» لو تمّ ما أراد. ولكن لا أمر لمن لا يُطاع. راجع السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر: ٧٢ — ٨٠.

(١٦٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١٩٦ و ٢٠٠.

(١٦٧) المصنف، للصنعاني: ٥٥٥/١، مستدرک ابن المبارك: ٣٦. رواه البرقي في المحاسن، والكليني في الكافي، والصدوق في علل الشرائع وكتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٣/١ ح ١١٨، وعنهما جميعاً في وسائل الشيعة: ١٩/٢ ح ٣.

دسّ اليهود وعبّثهم. فلمّا نصره الله وأذن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة في دين الله أفواجاً، ازداد عمله وتضاعف مجهوده، وظلّ الأمر يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة أولى القوة، وأنّ له عليه الصلاة والسلام^(١٦٨) في بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان. وأيّ موقف أشدّ هولاً من موقفه يوم أُحد، حين ولّى المسلمون وسار هو يصعد في الجبل ورجال قريش يشتمدون في تنبّعه ويرمونّه حتّى كسرت رباعيته! وأيّ موقف أشدّ هولاً من موقفه يوم حنين حين ارتدّ المسلمون في عماية الصبح مولّين الأدبار، حتّى قال أبو سفيان: إنّ البحر وحده هو الذي يردّهم، و «محمد» واقف لا يرتد ولا يتراجع وينادي في المسلمين: إلى أين، إلى أين؟! إليّ إليّ... حتّى عادوا وحتّى انتصروا^(١٦٩)! والرسالة! والوحي! وهذا الجهد الروحي المضني في اتصاله بسرّ الكون وبالملا الأعلى، هذا الجهد الذي روي بسببه عن النبيّ، أنّه قال: شيتني هود وأخواتها^(١٧٠). رأى أصحاب «محمد» هذا كلّه ورأوه يحمل العبء، صلّباً قوياً لا يعرف المرض إليه طريقاً. فإذا هو مرض بعد ذلك كلّه، فمن حقّ أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا في السير من معسكرهم بالجرف إلى الشام حتّى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله في نبيّه ورسوله.

وحادث وقع جعلهم أشدّ خوفاً. فقد أرقّ «محمد» ليلة أوّل ما بدأ يشكو، وطال أرقه، وحدّثته نفسه أن يخرج في ليل تلك الأيام، أيام الصيف الرقيقة النسيم، فيما حول المدينة. وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلاّ مولاه أبا مويهبة. أفندري أين ذهب؟ ذهب إلى بقيع الغرقد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة. فلمّا وقف بين المقابر، قال يخاطب أهلها: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهتئ لكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلها، الآخرة شرّ من الأولى» حدّث أبو مويهبة أنّ النبيّ قال له أوّل ما بلغا بقيع الغرقد: «إني أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي» فلمّا استغفر لهم وآن له أن يؤوب، أقبل على أبي مويهبة فقال له: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثمّ الجنّة فخيرت

(١٦٨) لا يخفى أنّ هذه الصيغة من التصلية والتسليم على الرّسول الكريم قد نعى عنها بقوله: لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، قيل: يا رسول الله وما الصلاة البتراء؟ قال: أن تقولوا: اللّهم صلّ على محمّد وتسكّون. فقالوا: فما نقول يا رسول الله؟ قال: بل قولوا: اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد، فقال بعضهم: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، فقال: لا، لا تفصلوا بيني وبين آلي بعلى. كما عن الصواعق الخرقة لابن حجر: ٨٧ و ١٣٩ ط القاهرة سنة ١٣١٢ هـ. ق وانظر الدّر المنثور: ٢١٥/٥ — ٢٢٠ ففيه ١٨ حديثاً بذكر الآل في الصلوات، وانظر غاية المرام في حجة الخصام للسيد هاشم البحراني: ٣١٤ ط حجر ففيه ٢٣ حديثاً بهذا الشأن من طرق عامة المسلمين.

(١٦٩) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٤٢/٢ — ٤٤٣.

(١٧٠) المصنّف، للصنعاني: ٣٦٨/٣، مسند أبي يعلى الموصلي: ١٨٤/٢.

بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. قال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال «محمد»: لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنة»^(١١٧١).

تحدث أبو مويهبة بما رأى وما سمع، لأن النبي بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التي زار فيها البقيع، فاشتد خوف الناس ولم يتحرك جيش أسامة. صحيح أن هذا الحديث الذي يروى عن أبي مويهبة يلقاه بعض المؤرخين بشيء من الشك، ويذكرون أن مرض «محمد» لم يكن وحده هو الذي حال دون تحرك الجيش إلى فلسطين، وأن تدمير الكثيرين من تعيين حدث كأسماء على رأس جيش يضم جلة المهاجرين الأولين والأنصار كان أكبر من مرض «محمد» في عدم تحرك الجيش آنراً^(١١٧٢)، وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون في تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارئ في هذا الفصل، ولئن كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأي رأيهم في تفاصيل هذا الذي روى أبو مويهبة، فإننا لا نرى مسوغاً لإنكار الحادث من أساسه، وإنكار ذهاب النبي إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقة إدراكه اقتراب ساعته، ساعة الدنو من جوار الله. فالعلم لا ينكر في عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض مظاهر الحياة النفسية (Psychique)، ودقة الإدراك لدنو الأجل يؤتاها الكثيرون؛ حتى يستطيع أي إنسان أن يقصّ ما عرف من وقائع ذلك شيئاً غير قليل، ثم إن هذه الصلة بين الأحياء والموتى وهذه الوحدة بين الماضي والمستقبل وحده لا يحدّها زمان ولا مكان، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا نقصر عن استجلاء صورتها. فإذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم، فلا محلّ لإنكار هذا الحادث الذي روى أبو مويهبة من أساسه، ولا محلّ لهذا الإنكار بعد الذي عُرف في أدوار حياة «محمد» كلّها من قوة اتصاله النفسي والروحي بعوالم الكون اتصالاً يجعله يدرك في هذا الشأن أضعاف ما يدرك الموهوبون في هذه الناحية^(١١٧٣).

وأصبح «محمد» في الغداة ومراً بعائشة فوجدها تشكو صُداً في رأسها تقول وا رأساه! فقال لها وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة وا رأساه. لكن شكواه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذي يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تلطّف ومفاكهة. كرّرت عائشة الشكوى من صُداها حين سمعته يشكو؛ فقال لها: وما ضربك لو مُتّ قبلي فقمّت عليك وكفّنتك وصليت عليك ودفنتك! وأثارت هذه الدعابة غيرة الأنوثة في نفس عائشة، كما أثارت

(١١٧١) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٤٢/٢، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٤/٢، وتاريخ الطبري: ٢٢٦/٢، وبحار الأنوار: ٤٠٩/٢١ —

٤١٠، ولا أبو مويهبة ولا غيره يسأله عن من يخلفه بعده؟! ولا عن تلك الفتن وما يصنعون!

(١١٧٢) تاريخ يعقوبي: ٤٤٣/١، والطبري: ٢٢٤/٢، والكامل: ٢١٥/٢، وبحار الأنوار: ٤١٠/٢١ — ٤١١.

(١١٧٣) ولا يشكك أحد بمثل هذا التشكيك إلا بمدى دوافع اتجاهه نحو المادية.

عندها حبّ الحياة والحرص عليها، فأجابت: ليكن ذلك حظّ غيري. والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نساءك. وتبسّم النبيّ وإن لم يمكنه الألم من متابعة الدعابة^(١١٧٤). فلما سكن عنه الألم بعض الشيء قام يطوف بأزواجه كما عودهنّ. لكنّ الألم جعل يعاوده وتزداد به شدته؛ حتّى إذا كان في بيت ميمونة لم يُطق مغالبتها ورأى نفسه في حاجة إلى التمريض. هنالك دعا نساءه إليه في بيت ميمونة واستأذنه، بعد أن رأى حاله، أن يمرّض في بيت عائشة. وأذن له أزواجه في الانتقال؛ فخرج عاصباً رأسه يعتمد في مسيرته على عليّ بن أبي طالب وعلى عمّه العباس وقدماه لا تكاد أن تحملانه حتّى دخل بيت عائشة^(١١٧٥).

وزادت به الحمّى في الأيام الأولى من مرضه، حتّى لكان يشعر كأنّ به منها لباً. لكنّ ذلك لم يكن يمنعه ساعة تزول الحمّى من أن يمشي إلى المسجد ليصلّي بالناس. وظلّ كذلك عدّة أيام، لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه أو خطابهم. على أنّ ذلك لم يمنعه من أن يصل إلى أذنه الهمس بما يقول الناس أنّه أمر غلاماً حدثاً على جلّة المهاجرين والأنصار لغزو الشام، لذلك وعلى الرغم من أنّه كان يزداد وجعه كلّ يوم شدةً شعر بضرورة التحدّث إلى الناس حتّى يعهد إليهم، فقال لأزواجه وأهله هريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى حتّى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. وجيء بالماء من آبار مختلفة وأقعد أزواجه في مخضب لحفصة — والمخضب: الطست — وصبّ عليه ماء القرب السبع حتّى طفق يقول: حسبكم حسبكم. ولبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله ثمّ صلّى على أصحاب أحد واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم، ثمّ قال: «أيّها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلت في إمارته لقد قلت في إماره أبيه من قبله، وإنّه خليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها». وسكت «محمّد» برهة خيم الصمت على الناس أثناءها ثمّ عاد إلى الحديث، فقال: «إنّ عبداً من عباد الله خيرّه الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختر ما عند الله» وسكت «محمّد» من جديد والناس كأنّما على رؤوسهم الطير. لكنّ أبا بكر أدرك أنّ النبيّ إنّما يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرفقة وجدانه وعظيم صداقته للنبيّ أن يمسك عن البكاء، ثمّ قال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا^(١١٧٦)! وخشى «محمّد» أن تمتد عدوى التأثير من أبي بكر إلى الناس، فأشار إليه قائلاً: على رسلك يا أبا بكر^(١١٧٧). ثمّ أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلّا باب أبي بكر^(١١٧٨). فلما

(١١٧٤) وأما هي من أحاديث عائشة، راجع سنن الدارمي: ٣٨/١.

(١١٧٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٦٤٩ و ٦٤٣.

(١١٧٦) ثمّ لم يسأله عن خليفته ولا سأله أحد غيره مع ما هو عليه من الحال؟!

(١١٧٧) ثمّ لم يسأله عن سبب تخلّفه عن جيش أسامة؟! ألم يقل إنّّه كان منهم على التعيين؟!

أَقفلت قال: إني لا أعلم أحداً كان أفضل من الصحبة عندي أبداً منه. وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً^(١١٧٩)، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده. ونزل «محمد» عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة، لكنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال:

«يا معشر المهاجرين استوصوا بالأَنْصار خيراً، فإنَّ الناس يزدون والأنصار على هيتتها لا تزيد. وإنَّهم كانوا عيبي التي أُوتيت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»^(١١٨٠).
ودخل «محمد» بيت عائشة. لكنَّ المجهود الذي أنفق يومئذ وهو في مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شدة. وأيَّ مجهود بالنسبة لمريض تساوره الحمى يخرج بعد أن تُصب عليه سبع قرب من الماء، ويخرج تثقله أكبر الشواغل: جيش أسامة، ومصير الأنصار من بعده، ومصير هذه الأمة العربية التي ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها^(١١٨١). لذلك حاول أن يقوم في غده ليصلي بالناس كما عودهم، فإذا هو لا يقدر. إذ ذاك قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس^(١١٨٢). وكانت عائشة ماتزال تحرص على أن يؤدي النبي الصلاة لما في ذلك من مظهر الصحة، فقالت: إنَّ أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال «محمد»: مروه فليصل بالناس. فكررت عائشة قولها؛ فصاح «محمد» بها والمرض يهزه: إنَّك صواحب يوسف^(١١٨٣) مروه فليصل بالناس. وصلى أبوبكر بالناس كأمر النبي. وإنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر^(١١٨٤) أن يصلي بالناس مكان أبي بكر، وكان عمر جهرير الصوت،

(١١٧٨) حين تذكر كتب الحديث والسير مناقب الإمام علي بن أبي طالب تذكر له منقبة سد الأبواب إلا بابه ولعل المؤلف كان من بين المطلعين عليها.

قال ابن أبي الحديد: (كانت لجماعة الصحابة أبواب شارة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله) فقال يوماً «سدوا كل باب في المسجد إلا باب علي» فسدت، فقال في ذلك قوم، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم فقال: «إن قوماً قالوا في سد الأبواب وتركوا باب علي، أتى ما سددت ولا فتحت وإنما أمرت بأمر فاتبعته» شرح النهج: ١٩/١٧٣، وفي مسند أحمد عن عدة طرق: ١/١٧٥، وكثر العمال: ١١/٥٩٨ ح ٣٢٨٥٧، ومستدرک الحاكم: ٤/٣، ١١٦ و ١٢٥، وخصائص النسائي: ١٣، وصحيح الترمذي: ٣٠١/٢، والدر المنثور: ٦/١٢٢، وصحيح ابن حبان: ١٥/٣٩٩.

(١١٧٩) هذا يتنافى مع ماورد في الصحيحين عن حديث الكتف والدواة في مرض وفاته (صلى الله عليه وآله)، كما في الصحيحين: البخاري: ٤/١٦١٢ ح ٤١٦٨ و ٤١٦٩، صحيح مسلم: ٣/٤٥٥ ح ٢٢ كتاب الوصية حيث منع النبي صلى الله عليه وآله من أن يكتب وصية في مرض موته فأوصى بالتمسك بالثقلين وبأهل بيته خيراً. وثانياً أنه حديث موضوع وضعته البكرية في مقابل حديث الإخاء الوارد في حق علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١١/٤٩ الخطبة ٢٠٣.

(١١٨٠) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٦٤٩ — ٦٥٠. ثم لم يسأله أحد من الأنصار ولا من غيرهم: توصي بالأنصار من؟ المهاجرين؟ أفهم الذين يلون أمرك بعدك؟ وكيف؟

(١١٨١) ثم لا يفكر ولا يخطط ولا يذكر ولا يسأله أحدهم عن من يتولى هذا المصير بعده؟!

(١١٨٢) ألم يكن مع جيش أسامة؟! أم كان من المتمردين؟!

(١١٨٣) سيأتي التعليق عليها آخر الفصل.

(١١٨٤) ألم يقل إنه كان من جيش أسامة بالتعيين؟! فكيف تخلف عنه؟!

فلما كبر في المسجد سمعه «محمد» من بيت عائشة فقال: فأين أبو بكر؟ يأبي الله ذلك والمسلمون. ومن هنا ظنّ بعضهم أنّ النبي استخلف أبا بكر من بعده إن كانت الصلاة بالناس أوّل مظهر للقيام مقام رسول الله^(١١٨٥).

وبلغت به شدة المرض حداً آله. ذلك أنّ الحمى زادت به، حتّى لقد كانت عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعوّاده أيديهم من فوقها شعروا بحرّ هذه الحمى المصنية. وكانت ابنته «فاطمة» تعودته كلّ يوم، وكان يحبها ذلك الحبّ الذي يمتلئ به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كلّ عقبه. لذلك كان إذا دخلت على النبيّ قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه. فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبلته، فقال: مرحباً بابنتي، ثمّ أجلسها إلى جانبه وأسرّ لها حديثاً فبكت، ثمّ أسرّ لها حديثاً آخر فضحكت. فسألته عائشة في ذلك فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله). فلما مات ذكرت أنّه أسرّ لها أنّه سيّقبض في مرضه هذا فبكت، ثمّ أسرّ أنّها أوّل أهله يلحقه^(١١٨٦) فضحكت. وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون إلى

الروايات التي تتحدث عن إمامة أبي بكر للصحابة في مرض رسول الله (صلى الله عليه وآله) متضاربة حول عدد الأيام التي صلّى فيها وعدد الصلاة بل والمكان أيضاً، ثمّ نفر الذين كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتهدى بينهم لشدة مرضه عند خروجه للصلاة. والبحاري ينقل الرواية عن عائشة التي تدعي الرؤية ولا تثبت أنّها كانت في المسجد مع أنّها لم تنسب الرواية إلى أحد غيرها.

وابن أبي الحديد يعتقد بأنّ أبا بكر قد صلّى بالمسلمين صلاة واحدة وذلك فجر يوم الاثنين الذي توفي فيه الرسول (صلى الله عليه وآله) وأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قد تدارك الأمر وخرج إلى الصلاة في حالة يرثى لها من الإعياء وصرف أبا بكر عن إمامة المصلّين. ثمّ ما معنى أن يأمر النبي (صلى الله عليه وآله) أبا بكر للصلاة بالمصلّين بسبب مرضه الشديد ثمّ يعود النبي فيخرج في كلّ مرة ليؤمّ المصلّين ويصرف أبا بكر عن إمامتهم ويأتمّ مرة أخرى بأبي بكر؟!!

فهل يمكن لنا أن نستدلّ بأنّ النبي أراد من ذلك أن يقول للمسلمين إنّ القائد للأمة هو أبو بكر لا غير فإذا كان فعلاً يريد ذلك فلماذا لا يصحّ بذلك؟ ثمّ لماذا يوقع الأمة في الحيرة والترديد بهذه الطريقة بدل التصريح؟

وبعد ذلك ذكروا شروطاً لإمامة الصلاة، ودّعى ابن كثير أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) اختار أبا بكر لإمامة المصلّين لاستجماع هذه الشروط في شخص أبي بكر وأنّها دليل على أنّه أعلم بالصلاة وأقرأهم.

وورد في الخبر المتفق على صحته أنّ رسول الله قال: «يؤمّ القوم أقرأهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأكبرهم سنّاً فإن كانوا في السن سواء فأقدمهم سلماً» وهذه الصفات قد توفرت كلّها في الصّديق.

وهذا الادعاء الذي قاله ابن كثير والأشعري ليس بصحيح فشرط القراءة لا يتوفر في أبي بكر لأننا لو تابعنا أخبار القرّاء من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم نجد أبا بكر أحدهم كما أنّ أبا بكر لم يكن أحفظ الصحابة بسنة رسول الله ولا بتفسير القرآن فعليّ بن أبي طالب كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني...». انظر: (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٨٦/٢ و١٢٦/٦، كتر العمال: ١٣/١٦٥، ح ٣٦٥٠٢، تاريخ مدينة دمشق: ٣٣٥/١٧، رقم ٢١٠٦).

أمّا شرط الأكبر سنّاً فالعبّاس بن عبدالمطلب كان أكبر منه سنّاً ونرى الأقدم إسلاماً من الصحابة فهو عليّ بن أبي طالب فأين هي الشروط التي توفرت في أبي بكر دون غيره؟! راجع الصحوة للأستاذ صباح البياتي: ٥٤١ — ٥٦٧ تجد الإشارة إلى المصادر الكافية.

(١١٨٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٦٥٢. ثمّ لا يكون أي حديث عن سبب تخلف هذين عن تسيير جيش أسامة؟!!

(١١٨٦) سبق أن نقل المؤلف التشكيك في خبر أبي مويهبة وتنبؤ النبي (صلى الله عليه وآله) بدنوّ أجله ثم دفع ذلك التشكيك بحمله على مناجاة الأرواح من النواحي النفسية وليس على الوحي، ومرّ هنا مرور الكرام فلم يتكلم في حمل أخباره ابنته بأنّها أوّلهم لحوقاً به؟! وهي في ريعان الشباب! فهل هذا أيضاً من مناجاة الأرواح؟! أم ماذا؟! ولماذا ترى هذه بشرى فضحك؟! لو لم يكن يخبرها عن ما يجري عليها بعده من الهوان! .

جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه. وكانت الحمى تصل به حتى يُغشى عليه أحياناً ثم يفيق وهو يعاني منها أشد الكرب؛ حتى قالت فاطمة يوماً وقد حزن الألم في نفسها لشدة ألم أبيها: واكرب أبتاه! فقال: لا كرب على أبيك بعد اليوم. يريد أنه سينتقل من هذا العالم عالم الأسي والألم^(١١٨٧).

وحاول أصحابه يوماً قهوين الألم على نفسه، فذكروا له نصائحه ألا يشكو المريض. فأجابهم: إن ما به أكثر مما يكون في مثل هذه الحال برجلين منهم^(١١٨٨). وفيما هو في هذه الشدة وفي البيت رجال قال: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً. قال بعض الحاضرين: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد غلبه الوجع^(١١٨٩)، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله، ويذكرون أن عمر^(١١٩٠) هو الذي قال هذه المقالة^(١١٩١). واختلف الحضور، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم من يأبي ذلك مكتفياً بكتاب الله^(١١٩٢). فلما رأى «محمد» خصومتهم قالوا: قوموا. وما فتى ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبي إملأه^(١١٩٣). أما عمر فظلّ ورأيه، أن قال الله في كتابه الكريم: مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ^(١١٩٤).

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي، حتى هبط أسامة وهبط الناس معه من الجرف إلى المدينة. ودخل أسامة على النبي في بيت عائشة، فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم. فلما بصّر بأسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له^(١١٩٥).

(١١٨٧) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/٢٤٧، والوفا بأحوال المصطفى: ٧٩٦، وإمتاع الأسماع: ٢/١٣٤، والسيرة الحلبية: ٣/٣٥١، وتفسير فرات الكوفي: ٥٨٦، وبحار الأنوار: ٢٢/٤٥٨ و ٤٩٠ — ٤٩١.

(١١٨٨) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/٢٠٦ — ٢٠٨.

(١١٨٩) هذه هي اللفظة المخفضة من مقولة عمر، وإلا ففي أخبار أخر أنه قال: إن الرجل ليهجر! وغلبه الوجع أيضاً بمعناه، وإلا فلو غلبه الوجع بدون فقد الوعي فماذا يعني ذلك؟! والقرآن يقول: (لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى). كشف الغمّة: ج ٤٧ / فتح الباري: ٨/١٠٠ — ١٠٢، الطبقات الكبرى: ٢/٢٤٢، عمر بن الخطاب، عبدالرحمن أحمد البكري: ٦٤، تذكرة الخواص: ٦٥.

(١١٩٠) ألم يكن مع جيش أسامة؟!

(١١٩١) اجتهداً في مقابل نصّ النبي!

(١١٩٢) مكتفياً بكتاب الله عن سنة رسول الله؟! مخالفاً أمره متبعاً عمر؟! ليس هذا من الإجتهد في مقابل النص؟! ثم لماذا هذا المنع والاصرار؟!

(١١٩٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٤٢ — ٢٤٥، وتاريخ ابن خلدون: ٢/٤٨٥، والكمال في التاريخ: ٢/٢١٧، وتاريخ الطبري: ٢٢٨/٢ — ٢٢٩، والإرشاد للمفيد: ١/١٨٤، وبحار الأنوار: ٢٢/٤٦٢ و ٤٦٨ — ٤٦٩ و ٤٧٣.

(١١٩٤) الأنعام (٦): ٣٨. فهل معنى ذلك: حسبنا كتاب الله عن سنة رسول الله؟! ولا سيما عن ما يصفه رسول الله بأنه يضمن لهم إن عملوا به أن لا يضلّوا بعده أبداً؟! اللهم إلا أن يقال: إنه كان قد سمع منه (صلى الله عليه وآله) حديثه في الثقلين كتاب الله وعتره رسول الله، وهذا الوصف الخاص: لن تضلّوا بعده، فأراد أن لا يؤكّده ذلك اليوم فقال مقالته. وإلا فلماذا هذا المنع والإصرار عليه؟

(١١٩٥) سيرة ابن هشام: ٢ / ٦٥١.

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسعفوه بعلاج، فأعدت أسماء قريبة ميمونة شراباً كانت عرفت أثناء مُقامها بالحبشة كيف تعدّه، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمى فصّبوه فيه. فلما أفاق قال: من صنع هذا؟ ولم فعلتموه؟! قال عمّه العباس: خشنا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب. قال: ذلك داء ما كان الله عزّ وجلّ ليقدّني به! ثمّ أمر بمن في الدار خلا عمّه العباس أن يتناولوا هذا الدواء لم تُستثن منهم ميمونة رغم صيامها^(١٩٦).

وكان عند «محمد» أوّل ما اشتدّ المرض به سبعة دنائير خاف أن يقبضه الله إليه و ماتزال باقية عنده، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها. لكنّ اشتغالهم بتمريضه والقيام في خدمته واطّراد المرض في شدّته أنساهاهم تنفيذ أمره. فلما أفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته من إغمائه سألهم: ما فعلوا بها؟ فأجابت عائشة أنّها ما تزال عندها. فطلب إليها أن تحضرها ووضعها في كفّه، ثمّ قال: ما ظنّ «محمد» برّيه لو لقي الله وعنده هذه. ثمّ تصدّق بها جميعاً على فقراء المسلمين^(١٩٧).

وقضى «محمد» ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى، حتّى لكأنّ الدواء الذي سقاه أهله قد فعل وقضى على المرض عنده. وبلغ من ذلك أنّه استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس، وكان أبو بكر ساعته يصلي بالناس^(١٩٨). فلما رأى المسلمون النبيّ وهم في صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يُفتنون فرحاً به وتفرّجوا، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسرّ «محمد» بما رأى من ذلك أكبر السرور واغتبط له أعظم الغبطة. وأحسّ أبو بكر بما صنع الناس وأيقن أنّهم لم يفعلوه إلّا لرسول الله، فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلّى لـ «محمد» عن مكانه. فدفعه «محمد» في ظهره وقال: صلّ بالناس، وجلس هو إلى جنب أبي بكر فصلى قاعداً عن يمينه^(١٩٩). فلما فرغ من صلاته أقبل

(١٩٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٣٥ — ٢٣٧. إنّما روى هذا من غير طرق أهل البيت (عليهم السلام)، وذلك تصديقاً عملياً لوصف

عمر لرسول الله يومئذ بالهجر أو غلبة الوجع فلا يدري ما يقول! وإلّا فما الحكمة في ذلك؟! وذلك من رسول حكيم؟!

(١٩٧) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٣٧ — ٢٣٩. وعليه فهو في كمال وعيه ولم يغلبه الوجع كما قال عمر!

(١٩٨) ألم يكن في جيش أسامة؟!

(١٩٩) هنا اختلفت الرواية هل أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحداً أن يصلي بالناس أو لا، فروى ابن هشام في سيرته: أنّه حين دعاه بلال

إلى الصلاة قال: مروا من يصلي بالناس، فخرج عبدالله بن زمعة فإذا عمر، فقال له: «قم فصلّ بالناس» وكان أبو بكر غائباً، فلما كبر سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) صوته فأرسل إلى أبي بكر فجاء بعد أن أتمّ عمر الصلاة فصلّى بالناس.

وروى الطبري عن عائشة، أنّه قال: «مروا أبا بكر أن يصلي بالناس» فقالت عائشة: إنّ رجل رقيق، فأعاد، فأعادت، فغضب وقال: «إنك صواب يوسف» فخرج يهادى بين رجلين وقدماه تخطّان في الأرض، فلما دنا من أبي بكر تأخّر فأشار إليه أن قم في مقامك، فقعد إلى جنب أبي بكر، قالت: فكان أبو بكر يصلي بصلاة النبيّ والناس يصلون بصلاة أبي بكر. وروى ابن سعد وغيره نحوه.

وقال المفيد: إنّّه قال: يصلي بالناس بعضهم فأتني مشغول بنفسي، فقالت عائشة: مروا أبا بكر، وقالت حفصة: مروا عمر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «اكفّن فإنك صويحبات يوسف» وقام مبادراً وإنّه لا يستقل على الأرض من

على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال: «أيها الناس: سَعَرَت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم. وإني والله ما تمسكون عليّ بشيء، إني والله لم أحلّ إلا ما أحلّ القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن. ولعن الله قوماً اتَّخذوا قبورهم مساجد» (١٢٠٠).

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من ظاهر التقدّم في صحة النبيّ حتّى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه في مسيرة الجيش إلى الشام، وحتّى مثل بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبي الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحبّ. واليوم يوم بنت خارجة، أفأتيها؟ فأذن النبيّ له في ذلك (١٢٠١). وانطلق أبوبكر إلى السنج بأطراف المدينة حيث تقيم زوجته. وانصرف عمر وعليّ

الضعف، فأخذ بيد عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس فاعتمد عليهما ورجلاه تخطّان الأرض من الضعف، فلمّا خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب فأومأ إليه بيده أن تأخّر عنه، فتأخّر وقام (صلى الله عليه وآله) مقامه فكبر وأبداً الصلاة التي كان قد ابتدأ بها أبوبكر ولم ين عليّ ما مضى من فعله... الخ.

أقول: مالنا ولما رواه هؤلاء المؤرخون المختلفون في العقيدة، المختلفون في النقل، فبعض يروي أنّه لم يأمر أحداً بعينه أصلاً، وبعض أنّه لم يأمر بذلك في أوّل الأمر ثمّ أمر أبا بكر بعدما سمع عمر يكبر وأنّ الناس صلّوا الصبح مرتين، وبعض يروي أنّه أمر أبا بكر من أوّل الأمر، مالنا ولهذه الأخبار المتناقضة لكننا نقول: إنهم اتفقوا جميعاً على أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج إلى المسجد في حالة شديدة من المرض والضعف حتّى أنّه لا يكاد يستقل ولا ينقل قدميه، بل اعتمد على رجلين ورجلاه تخطّان الأرض خطأ وصلّى جالساً فإن كان يريد بذلك تأييد أبي بكر فقد عيّنه للصلاة وصلّى الناس خلفه ولو لم يخرج لكان أشدّ تأييداً له، لأنّه بخروجه وقعت الشبهة في أنّه لعلّه لم يرض بتقدمه. واتّمام الناس بأبي بكر وهو بالنبي (صلى الله عليه وآله) يوجب أن يكون إماماً ومأموماً في وقت واحد، وهذا غير جائز في الشرع ولم يتركه إماماً إلى آخر الصلاة؟!

(١٢٠٠) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢١٥ — ٢١٦. وفي الحديث: أقبلت الفتن، ثمّ لا يسأله أحدهم: ماهي هذه الفتن؟ وفي ماذا؟ ونحن ما نفعل؟ وما نصنع؟!

ومن الغرائب أن تطرح قضية اتّخاذ القبور مساجد في هذا الظرف الحرج. يضاف إلى ذلك أنّ حديث اتّخاذ قبور الأنبياء مساجد من أحاديث أسامة بن زيد السقيمة. أخرجه أحمد في مسنده: ٢٠٣/٥.

قال الزهري: (رويت عنه روايات رائعة كما عزيت إليه أخرى سقيمة، وهذا الحديث من الأحاديث السقيمة). ينقل الذهبي عن عبيد الله بن عبد الله قال: رأيت أسامة يُصلّي عند قبر النبيّ فمرّ به مروان، فقال: أتصلي عند قبر؟! (وقال له قولاً قبيحاً). سير أعلام النبلاء: ٤٩٦/٢.

ثمّ إنّ الطائفتين حول الكعبة يطوفون حول حجر إسماعيل ويتمسّحون بمجذّاره وفيه قبر إسماعيل وأمه هاجر. قال ابن هشام: ودفن إسماعيل في الحجر مع أمّه هاجر: ٦/١.

وتاريخ الطبري: ٣٥٢/١ وتاريخ ابن الأثير: ٨٩/١. ويستدل على صحّة البناء على القبور بأنّ قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) والخليفين أبي بكر وعمر في بناء سقف منذ أن توفوا إلى يومنا هذا.

وروى أبو بكر بن الفقيه عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: ما من نبيّ هرب من قومه إلّا هرب إلى الكعبة يعبد الله فيها حتّى يموت وأن قبر هود وصالح في ما بين زمزم والمقام وأنّ في الكعبة قبر ثلاثين نبياً، وما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود قبر سبعين نبياً. مختصر كتاب البلدان تأليف أبي بكر بن الفقيه الحمادي: ١٧. ويؤيد صحة ما ذكرنا قوله تعالى: (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) البقرة: ١٢٥. وقوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً) الكهف: ٢١.

(١٢٠١) وهل يستأذن أبوبكر ويأذن له النبيّ وهو يؤكد على عدم التخلّف عن تسيير جيش أسامة؟!

لشؤونهما^(١٢٠٢) وتفرّق المسلمون وكلّهم سعيد مستبشر، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتصل بهم من أخبار النبيّ ومرضه واشتداد الحمّى به وإغمائه، وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه، وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غاية الضعف. وعائشة تنظر إلى هذا الرجل الذي يمتلئ قلبها تقديساً لجلال عظمته^(١٢٠٣). وقد ملكها الإشفاق عليه لضعفه ومرضه، فهي تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوّة والحياة.

لكنّ خروج النبيّ إلى المسجد لم يكن إلّا الصحو الذي يسبق الموت. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كلّ لحظة ضعفاً، وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريب في أنّه لم يبق له في الحياة إلّا سويّعت. ترى ماذا عساه كان يشعر في هذه السويّعات الباقية له على فراق الحياة؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هادياً ونبيّاً وما لاقى فيها، وما أتم الله عليه من نعمته، وما شرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحقّ؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربّه متوجّهاً إليه بكلّ روحه على نحو ما كان يفعل كلّ حياته؟ أم أنّه كان يعاني هذه الساعات الأخيرة من آلام الترع ما لم يُبق لديه قوة الاستدكار؟ تختلف الروايات في ذلك اختلافاً كبيراً. وأكثرها على أنّه دعا في هذا اليوم القائن من أيام شبه الجزيرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وأنّ رجلاً من آل أبي بكر دخل إلى عائشة وفي يده سواك، فنظر إليه «محمّد» نظراً دلّ على أنّه يريد، فأخذته عائشة من قريبها ومضغته له حتّى لان وأعطته إياه فاستقّ به^(١٢٠٤). وأنّه وقد شقّ عليه الترع توجّه إلى الله يدعو: اللَّهُمَّ أعنّي على سكرات الموت. قالت عائشة: وكان رأس النبيّ في هذه الساعة في حجرها: «وجدت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة. قلت: خيّرت اخترت والذي بعثك بالحقّ. وقبض رسول الله

(١٢٠٢) ولكنّ شتان ما بين شأنيهما، فشأن عليّ الوصي تمرّض النبيّ، وشأن عمر اللحاق بجيش أسامة، ولكنّه لم يفعل.
(١٢٠٣) لماذا الرجوع إلى بيت عائشة؟ فهل لهذا دليل نقلي؟ أم أنّ الكاتب يتخيّل ذلك، لا سيّما ونحن نلاحظ أنّ الكاتب من حيث لا يشعر يصوّر للقارئ أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) لا يكاد يفارق بيت عائشة في الوقت الذي كانت له أكثر من زوجة! فهل كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) يظلم سائر زوجاته؟! حاشا وحاشا. وقد كانت صفية أفضل من عائشة وحفصة عند النبيّ (صلى الله عليه وآله). راجع صحيح الترمذي: ٣٦٧/٥ ح ٣٩٨٣ و ٣٩٨٤، والإصابة لابن حجر: ٣٤٧/٤، والإستيعاب بامش الإصابة: ٣٤٨/٤، وأسد الغابة: ٤٩١/٥، والمستدرک: ٢٩/٤.

(١٢٠٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٣٣ — ٢٣٤. وهذا أيضاً من غريب ما رووا في غريب فعله (صلى الله عليه وآله) يومئذ، وكأنّهم يحاولون أن يؤكّدوا مصداق قول عمر فيه: إنّ لهجر أو غلبه الوجع! وإلّا أفلم يكن له سواك؟! حتّى يريد سواك الرجل وتمضغه عائشة وتعطيه؟!

بين سَحْرِي ونَحْرِي ودولتي لم أظلم فيه أحداً. فَمَنْ سفهي وحادثة سني أَنَّهُ (صلى الله عليه وآله وسلم) قُبِضَ وهو في حجري، ثُمَّ وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي (١٢٠٥). أمات «محمَّد» حقاً ؟ ذلك ما اختلفت العرب

(١٢٠٥) وهذا أيضاً من أحاديث عائشة، وهو معارض لما عن عليّ (عليه السلام) كما في نهج البلاغة: خطبة ٢٢. وبشكل عام فإنَّ سطور الفصل الثلاثين قد مُلئت بالتزوير وقلب الحقائق، لذا ارتأينا أن نسلط الضوء ابتداءً على حادثة طلب النبيّ في أن يأتيه بقلم وقرطاس حتّى قبيل وفاته ليكون الردّ جامعاً على التصوير الذي نظمته الكاتب حسبما يريد، لا كما تنقله كتب التاريخ .

كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) يعرف بما يجري من نشاطات خارج منزله للسيطرة على مقاليد الحكم، ولهذا قرر لغرض الحيلولة دون انحراف مسألة الخلافة من محوره الأصلي والحيلولة دون ظهور الاختلاف والافتراق، أن يدعم مكانة «عليّ» ويعزز إمارته وخلافته وخلافة أهل بيته، وذلك بأن يثبت الأمر في وثيقة حيّة وخالدة تضمن بقاء الخلافة في خطّها الصحيح.

من هنا يوم جاء بعض الصحابة لعيادته أطرق برأسه إلى الأرض ساعة، ثُمَّ قال بعد شيء من التفكير وقد التفت إليهم:

«إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده».

فبادر عمر وقال: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله (الملل والنحل: ج ١ المقدمة الرابعة: ٢٢)، طبعاً لم يكن الهدف من «أكتب» أن يكتب النبيّ بيده ذلك الكتاب، فالتبّي لم يكتب شيئاً في حياته أبداً كما هو مبحوث في أبحاث أُمّية النبيّ، بل المقصود هو الإملاء على كاتب.

فناقش الحاضرون رأي الخليفة، فخالفه قوم وقالوا: هاتوا بالدواة والصحيفة ليكتب النبيّ ما يريد، وناصر آخرون عمرأ وحالوا دون الإتيان بما طلبه النبيّ، ووقع تنازع بينهم وكثر اللغط فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشدة لتنازعهم ولما وجّه إليه من كلمة مهينة، وقال:

«فُوموا عني لا ينبغي عندي التنازع».

قال ابن عباس بعد نقل هذه الواقعة المؤلمة المؤسفة: «الرزية كلّ الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله» (صحيح البخاري كتاب العلم: ٢٢/١ و ١٤/٢، صحيح مسلم: ١٤/٢، مسند أحمد: ٣٢٥/١، الطبقات الكبرى: ٢/٢٤٤، الملل والنحل: ١/٢٢).

إنّ هذه الواقعة التاريخية قد نقلها فريق كبير من محدّثي الشيعة والسنة ومؤرخيهم وتعتبر روايتها — حسب قواعد فنّ الدراية والحديث — من الروايات المعتبرة الصحيحة، غاية ما في الأمر أن أغلب محدّثي أهل السنة نقلوا كلام «عمر» بالمعنى لا باللفظ، ولم يوردوا نصّ الكلمات الجارحة النابية التي نطق بها في ذلك المجلس المقدّس.

ولا يخفى أن الإحجام عن نقل نصّ عبارته ليس لأجل أن العبارات التي تفوّه بها تعدّ إهانة لمقام النبوة، بل إنّ هذا التصرف لأجل الحفاظ على مقام الخليفة ومكانته حتّى لا يسيء الآخرون النظرة إليه إذا عرفوا بما قاله في حقّ رسول الله (صلى الله عليه وآله).

من هنا عندما بلغ أبو بكر الجوهري — مؤلف كتاب «السقيفة» — في كتابه إلى هذا الموضوع من القضية قال عند نقل كلام عمر هكذا: وقال عمر كلمة معناها: أنّ الوجع قد غلب على رسول الله. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/٢٠)

ولكنّ بعضاً آخر عندما يريد نقل ما قاله الخليفة لا يصرّح باسمه، حفظاً لمقامه، فيقول: فقالوا هجر رسول الله. (صحيح مسلم: ١/١٤، مسند أحمد: ١/٣٥٥).

إنّ من المسلّم أن مثل هذه العبارة الجارحة النابية لو صدرت عن آية شخصية مهما كان مقامها لعدّت ذنباً لا يُغتفر، لأنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) مصوّن من أي نوع من أنواع الخطأ والاشتباه والهديان، فهو لا ينطق إلّا بالوحي.

إنّ اختلاف الصحابة لدى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي محضره كان عملاً سيئاً ومشيناً إلى درجة أن إحدى أزواجه (صلى الله عليه وآله) اعترضت على هذه المخالفة وقالت من وراء حجاب: ألا تسمعون النبيّ (صلى الله عليه وآله) يعهد إليكم؟ إتنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحاجته.

فقال عمر: اسكنن فإنكّن صويحبات يوسف، إذا مرض عصرتن أعينكن، وإذا صحّ أخذتنّ بعنقه. (كتر العمال: ٣/١٣٨، الطبقات الكبرى: ٢/٢٤٤، وفي الطبقات: إنّ النبيّ قال (في الردّ على عمر): هنّ خير منكم.

إنّ بعض المتعصّبين وإنّ التمسوا لمخالفة الخليفة لطلب النبيّ أعذاراً في الظاهر إلّا أنّهم خطّأوا كلامه الذي قال فيه: «حسبنا كتاب الله»، واعتبروه كلاماً غير صحيح، وصرّحوا جميعاً بأنّ الركن الأساسي للإسلام هو السنة النبويّة، ولا يمكن أن يغني كتاب الله الأُمة الإسلامية عن أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولهذا يدافع المؤلف عن الخليفة الثاني عمر إذ يقول:

ما فنى ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبي إملأه. أما عمر فظلّ ورأيه أن قال الله في كتابه الكريم: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (الأنعام: ٣٨).

فلو أنه لاحظ ما قبل هذه الجملة القرآنية وما بعدها لما فسرهما بمثل هذا التفسير، ولما آيد الخليفة في مقابل نصّ النبي المعصوم المطاع، لأنّ المقصود من الكتاب في الآية هو الكتاب التكويني، وصفحات الوجود، فإن لكل نوع من الأنواع في عالم الوجود صفحة من كتاب الصنع، وتشكل كل الصفحات غير المعدودة كتاب الخليفة والوجود وإليك نصّ الآية: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام: ٣٨).

وحيث إنّ ما قبل الجملة التي استدلّ بها يرتبط بخلقه الدواب والطيور، ويرتبط ما بعدها بموضوع الحشر في يوم القيامة، يمكن القول بصورة قاطعة بأن المراد من الكتاب في الجملة المستدلّ بها والذي لم يفرط فيه من شيء هو الكتاب التكويني، وصفحة الخلق.

ثمّ إنّنا لو قبلنا بأن المقصود من الكتاب هو القرآن الكريم فإنّ من المسلم أن فهم هذا الكتاب — وبحكم تسميته — يحتاج إلى بيان النبي وهدايته، كما يقول: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ الذِّكْرَ لِلنَّاسِ لِتَذَكَّرَ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل: ٤٤)

تأمل في هذه الآية فإنها لا تقول «لتقرأ» بل تقول بصراحة: «لتبين».

وعلى هذا الأساس إذا كان كتاب الله كافياً لم نحتاج إلى توضيح النبي وبيانه احتياجاً شديداً. (إنّ بيان مدى حاجة القرآن إلى بيان النبي خارج عن نطاق هذه الرسالة، فاطلبه في محله).

ولو كان حقاً أنّ الأئمة الإسلامية لا تحتاج إلى النبي فلماذا كان حبر الأئمة وعلمها الكبير ابن عباس يقول: يوم الخميس وما أدراك ما يوم الخميس! ثمّ جعل تسهيل دموعه حتّى رؤيت على خده كأنها نظام اللؤلؤ، وقال: قال رسول الله، أيتوني بالكف والدواة أو اللوح والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً... فقالوا... (مسند أحمد: ٣٥٥/١، صحيح البخاري: كتاب الجزية: ٦٥/٤ و ٦٦).

فمع هذا الحزن الذي كان يديه ابن عباس، مضافاً إلى الإصرار الذي أظهره رسول الله كيف يمكن القول بأن القرآن يغني الأئمة الإسلامية من هذه الوصية — أو الكتاب — الذي كان النبي يريد كتابته.

والآن إذا كان النبي لم يوفّق لكتابة الكتاب وإملأه، فهل يمكن أن نخدس — في ضوء القرائن القطعية — ماذا كان ينوي النبي كتابته في هذه الرسالة؟

ماذا كان الهدف من الكتاب؟

إنّ الطريقة الجديدة والقوية في تفسير القرآن الكريم التي أصبحت اليوم موضع عناية المحققين والعلماء في هذا العصر هو رفع إهام الآية واجمالها في موضوع معين بواسطة آية أخرى تتحدث عن ذلك الموضوع ذاته ولكنها أوضح من الأولى دلالة ومفاداً، وبعبارة أخرى الاستعانة في تفسير آية بآية أخرى.

إنّ هذه الطريقة لا تختصّ بتفسير آيات القرآن، بل تنسحب على الأحاديث والروايات الإسلامية أيضاً إذ يمكن رفع الإجمال عن حديث بحديث مشابه، لأنّ القادة الكبار يتحدّثون في موضوع مهمّ وخطير بصورة مؤكدة ومكرّرة لا تتشابه ولا تنحد في دلالتها، فقد تكون دلالتها على الآية واضحة وقد يكون بيان المقصود فيها بالإشارة والكناية حسب المفتضيات.

قلنا: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) طلب من أصحابه وهو في فراش المرض دواة وصحيفة ليملي عليهم شيئاً لا يضلّون بعده أبداً، ثمّ تسبب التنازع الذي حدث بين الحاضرين في أن ينصرف من كتابة ما أراد.

يمكن أن يسأل سائل: ماذا كان يريد رسول الله (صلى الله عليه وآله) كتابته في ذلك الكتاب؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال واضحة، لأنّه مع أخذ الأصل الذي ذكرناه في مطلع البحث بنظر الاعتبار يجب القول بأنّ هدف النبي لم يكن إلّا تعزيز الوصيّة ودعم خلافة الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وإمرته والتأكيد على لزوم أتباع أهل بيته وما صرّح به النبي (صلى الله عليه وآله) في الغدير وغيره.

وهذا المطلب يستفاد من حديث الثقلين المتفق عليه بين محدثي السنّة والشيعية، لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال في شأن الكتاب الذي نوى كتابته: إنّهُ يتغي كتابته شيء لا يضلّون بعده أبداً. وقد جاءت هذه العبارة بعينها في حديث الثقلين إذ يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) معتبراً عدم الضلال بعده معلولاً لاتباع الكتاب والعترة، إذ قال:

«إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتكم بما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي». (صحيح الترمذي: ٣٢٨/٥ ح ٣٨٧٤، جامع الأصول: ١/١٨٧، راجع المراجعات: المراجعة ٨)

ألا يمكن بعد ملاحظة هذين الحدين والتشابه الموجود بينهما الحدس — بصورة قطعية — بأن ما كان يهدفه رسول الله (صلى الله عليه وآله) من طلب الدواة والصحيفة هو مفاد كتابة حديث الثقلين، أو ما هو أعلى ممّا يفيد حديث الثقلين وهو تعزيز ودعم ولاية الإمام عليّ (عليه السلام) وخليفته مباشرة وبلا فصل، وهو الذي عيّنه للإمامة والخلافة في الثامن عشر من شهر ذي الحجة، عند مفترق طرق الحجاج المدنيين والحجازيين.. وأعلن عن ذلك بصورة شفاهية.

هذا، مضافاً إلى أنّ مخالفة من شكّل شورى الخلافة في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورشح رفيقه القديم للخلافة بصورة خاصة بعد رحيل رسول الله إلى ربّه، وحصل هو بدوره على أجرته عند موت الأوّل بصورة نقدية وعيّنه للخلافة خلافاً لجميع القواعد والأصول، خير شاهد على أنّ القرائن التي كانت في مجلس النبيّ وكلامه كانت تكشف عن أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان يريد أن يُملي على كتابه أمراً يتعلق بخلافة المسلمين والإمامة والقيادة التي أثبتّها لعلّيّ وأهل بيته الطاهرين في أحاديثه وخطبه. ولهذا خالف بعض القوم الحضور هذا المطلب بشدّة وحاولوا دون الإتيان بالقلم والقرطاس بوقاحة، وخالفوا كتابة شيء يعصمهم عن الخطأ، وإلاّ فلماذا أصرّوا في مخالفتهم... وارتكبوا ما ارتكبوا.

لماذا لم يصرّ النبيّ في كتابة الكتاب؟

كان في إمكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) رغم معاكسات جماعة من أصحابه أن يطلب كاتبه ويكتب الكتاب الذي كان يريد، فلماذا لم يتصرف هكذا، ولم يستغل مكانته القويّة بل امتنع عن ذلك؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال واضحة: فلو أنّ النبيّ كان يصرّ على كتابة الكتاب لأصرّوا في الإساءة إلى النبيّ الذي قالوا عنه أنّه غلبه الوجع أو هجر، ولعمد أنصارهم إلى إشاعة وبثّ هذا الأمر الرخيص، وصنعوا لإثباته الأفاعيل فكانت تتسع رقعة الإساءة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذه الحالة وتستمرّ، فتفقد الرسالة أثرها المنشود. من هنا عندما قال البعض للنبيّ — ملافة لما لحق به من الأذى — أنأتيك بالدواة والكتف؟ فقال: «أبعد الذي قلتم؟ لا ولكن أوصيكم بأهل بيتي خيراً». (بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢، نقلاً عن الإرشاد وإعلام الوري)

ملافة الأمر وتداركه:

إنّ مخالفة بعض الصحابة الصريحة وإن صرفت النبيّ عن الكتابة إلاّ أنّه بلغ مقصوده من طريق آخر، فهو — بشهادة التاريخ — بينما كان يعاني المرض، والوجع الشديدين، خرج إلى المسجد وهو متوكّئ على عليّ بن أبي طالب وميمونة مولاته فجلس على المنبر، ثمّ قال: «يا أيّها الناس إني تارك فيكم الثقلين».

وسكت، فقام رجل فقال: يا رسول الله ما هذا الثقلان؟ فغضب حتّى احمرّ وجهه ثمّ سكن، قال:

«ما ذكرتهما إلاّ وأنا أريد أن أخبركم بهما ولكن ربوت فلم استطع، سبّب طرفه بيد الله، وطرف بأيديكم، تعلمون فيه كذا، ألا وهو القرآن، والنقل الأصغر أهل بيتي».

ثمّ قال:

«وأيم الله إني لأقول لكم هذا ورجال في أصلاب أهل الشرك أرجى عندي من كثير منكم».

ثمّ قال:

«والله لا يحبهم عبدٌ إلاّ أعطاه الله نوراً يوم القيامة حتّى يرد عليّ الحوض، ولا يبغضهم عبدٌ إلاّ احتجب الله عنه يوم القيامة» (بحار الأنوار: ٢٢، نقلاً عن مجالس المفيد).

هذا وقد روى ابن حجر العسقلاني تدارك ما فات بصورة أخرى، ولا تنافي بين الصورتين، إذ يمكن وقوع كليهما.

«أيّها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً، فينطلق بي، وقد قدّمت إليكم القول معذرة إليكم ألاّ إني مخلّف فيكم كتاب الله ربّي عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي».

ثمّ أخذ بيد عليّ (عليه السلام) فقال:

«هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، خليفتان نصيران، لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض فاسألهما ماذا خلّف فيهما» (الصواعق المحرقة: الباب ٩ من الفصل الثاني: ٥٧، وكشف الغمّة: ٤٣)

فمع أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذكر حديث الثقلين (حديث الثقلين من الروايات المتفق عليها بين الشيعة والسنة وقد نقل عن الصحابة بأكثر من ٦٠ طريقاً، يقول ذلك ابن حجر العسقلاني في الصواعق: ١٣٦). وقد خصّص المرحوم ميرحامد حسين الهندي قسماً من موسوعته «العبيقات» بذكر أسناد حديث الثقلين ودلالته، وقد طبعت في ستة أجزاء مؤخراً) قبل مرضه في مواضع متعددة وبألفاظ مختلفة، ولفت نظر الناس إلى أهمية هذين الثقلين، ولكنّه لفت الأنظار مرةً أخرى وهو في فراش المرض أمام جمع أصحابه الذين حالوا دون كتابة ما أراد إلى عدم افتراق القرآن والعتره ومن هنا يمكن الحدس بأنّ الهدف من التكرار هو تدارك ما فات من كتابة الكتاب الذي لم يوفق لكتابته. على أن معارضة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعدم الزول عند رغبته في كتابة وصيّته دلّت بوضوح على فاعلية الخط المعارض لكتابة السنة في حياته (صلى الله عليه وآله) بل دلّت على وجود نهج آخر غير نهجه (صلى الله عليه وآله) يحمل شعار القرآن ولا ينصاع إلى السنة النبوية وإن كان هذا الخط في نهاية المطاف قد رفع شعار السنة النبوية وتسّتر بها لتمشيتها منهجه الذي ينتقي من السنة ما يشاء ومن البدعة ما يشاء لتصبح سنة جديدة وهكذا يعيش المسلمون اليوم ما يسمّى بالسنة وليس ما هو سنة خالصة وقد وعد النبي (صلى الله عليه وآله) أمته بأن هذا الوضع سوف ينتهي أيضاً ولكن عليّ يدي المهديّ من آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

تقسيم الدنانير:

دأب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مجال بيت المال أن يوزّع أمواله في أقرب فرصة سانحة بين الفقراء والمحتاجين. وعندما كان في فراش المرض تذكر أنّ هناك دنانير عند إحدى زوجاته فطلبها فوراً، فاحضرها عنده فأخذها (صلى الله عليه وآله) بيده وقال: «ما ظنّ محمد بالله لو لقي الله وهذه عنده؟ انفقها». ثمّ أمر عليّاً (عليه السلام) فتصدّق بها. (الطبقات الكبرى: ٢/٢٣٨ و ٢٣٩).

وداع النبي مع أهله:

خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أيام مرضه إلى مسجده مراراً يصلي بالناس، ويذكرهم أموراً. وذات يوم من أيام مرضه أخرج إلى مسجده معصوب الرأس مكتئباً على عليّ (عليه السلام) يمين يديه وعلى الفضل باليد الأخرى فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

«أما أيّها الناس فإنّه قد حان مني خفوق بين أظهركم فمن كانت له عندي عدّة فليأتني أعطه إيّاها، ومن كان له عليّ دين فليخبرني به».

فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إنّ لي عندك عدّة، إني تزوجت فوعدتني أن تعطيني ثلاثة أواق.

فقال (صلى الله عليه وآله) إنحلها يا فضل ثمّ نزل وعاد إلى بيته.

فلما كان يوم الجمعة — ثلاثة أيام قبل وفاته — صعد المنبر فخطب، وقال فيما قال:

«أي رجل كانت له قبل «محمد» مظلمة إلا قام فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إليّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأشهاد».

فقام إليه رجل يقال له سودة بن قيس، فقال: إنّك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب المشقوق فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني.

فقال (صلى الله عليه وآله) لبلال: قم إلى مول فاطمة فائتني بالقضيب المشقوق.

إنّ طلب النبي (صلى الله عليه وآله) بأن يقتصّ منه من له ذلك لم يكن مجرد مجاملة أخلاقية، بل كان (صلى الله عليه وآله) يريد أن ينبّه الناس إلى أهمية مثل هذه الحقوق جدياً. (هذا مضافاً إلى أنّ ضرب بطن سودة بالقضيب من قبل النبي لم يكن عمداً ولهذا لم يكن له الحقّ إلا في أخذ الدية دون القصاص، مع ذلك أراد النبي أن يلي طلبه لما قال أريد أن اقتص). ولما أتى بالقضيب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال (صلى الله عليه وآله): أين الشيخ؟ قال سودة: ها أنا ذا يا رسول الله بأيّ أنت وأمي فقال (صلى الله عليه وآله): «فاقتص مني حتّى ترضى».

فقال سودة: فاكشف لي عن بطنك.

ووسط دهشة الصحابة وحزهم وغمهم وبكائهم تقدم سودة إلى النبي وقال: أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله، وقيل بطن النبي وصدره الشريف. فدعا له رسول الله وقال: اللهم اعف عن سودة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد. مناقب آل أبي طالب: ١/٢٣٥ وراجع سيّد المرسلين: ٢١/٦٦٩ — ٦٧٨).

يومئذ فيه اختلافاً كاد يثير بينهم الفتنة وما تؤدي الفتنة اليه من حرب أهلية لولا أن أراد الله بهم
وبدينه الحقّ الحنيف خيراً^(١٢٠٦).

* * *

(١٢٠٦) صرف المؤلف إثارة هذا الخلاف عن عمر إلى العرب! وإلاّ فلا خلاف في المصادر في أنّ مثير الخلاف إنّما كان عمر بن الخطاب
فحسب، وإنّما كان يريد من ذلك الهاء الناس عن البيعة لأحد بعد رسول الله حتّى يحضر أبويكر من السنج، فلمّا حضر، حضر إلى عمر
تفكيره في قوله سبحانه: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) فاستسلم للأمر الواقع، لحصول المأمول.

الفصل الحادي والثلاثون: دَفْن الرّسول

الفصل الحادي والثلاثون

دفن الرسول (صلى الله عليه وآله)

اختلاف المسلمين هل مات «محمد»، عمر يخطب الناس بأنه لم يمّت، أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات ويتلو عليهم القرآن، اقتناع المسلمين بقول أبي بكر، خوف الخلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين، بيعة السقيفة ثم البيعة العامة لأبي بكر، تجهيز النبيّ وغسله، مرور الناس به رجالاً فنساءً فصبياناً، دفنه حيث قبض، إنفاذ جيش أسامة إلى الشام وانتصاره، آخر ما قال الرسول (صلى الله عليه وآله).

إختار النبيّ (عليه السلام) الرفيق الأعلى في بيت عائشة ورأسه في حجرها^(١٢٠٧) فوضعت رأسه على وسادة وقامت لتلتمد^(١٢٠٨) وتضرب وجهها مع النساء اللاتي أسرعن إليها لأوّل ما بلغهنّ الخبر^(١٢٠٩). وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجّة، لأنّهم رأوا النبيّ في الصباح وكلّ شيء يدلّ على أنّه عوفي، ثمّ جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه بنت خارجه بالسّبح^(١٢١٠). لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبيّ وهو لا يصدّق أنّه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به، فحسبه في غيبوبة لا بد أن يفيق منها. وعبثاً حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة؛ فقد ظلّ مؤمناً بأنّ محمّداً لم يمّت. فلمّا ألح المغيرة قال له: كذبت. وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: «إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله قد توفّي، وأنّه والله ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثمّ رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. والله ليرجعنّ رسول الله، كما رجع موسى فليقطعن أيدي

(١٢٠٧) مرّ أنّ ذلك من حديثها هي، وهو معارض بما جاء عن عليّ (عليه السلام) في نهج البلاغة: الخطبة ٢٢.

(١٢٠٨) تلتمد: تلطم، مجمع البحرين: ١٦٢/٦.

(١٢٠٩) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٦٢.

(١٢١٠) وهي منازل بني الحارث بعوالي المدينة وبينها وبين منزل النبيّ (صلى الله عليه وآله) ميل، وهي إحدى محال المدينة كان بها منزل أبي بكر

حين تزوّج مليكة. معجم البلدان للحموي: ٢٦٥/٣.

رجال وأرجلهم زعموا أنه مات»^(١٢١١). واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم في حال أشبه شيء بالذهول . لئن كان «محمد» قد مات حقاً فواحرّ قلباه! و يا لله للناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق، همّ يذهل القلب ويذهب باللب. وإن كان «محمد» قد ذهب إلى ربه، كما يقول عمر، فذلك أدعى للذهول؛ وانتظار أوبته حتى يرجع، كما رجع موسى أشدّ إمعاناً في العجب. لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله لم يمّت. وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يروونه ويسمعون إلى صوته الجهوري وإلى دعائه واستغفاره! وكيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته، وقد دانت له العرب كلّها، وبقي أن يدين له كسرى، وأن يدين هرقل بالإسلام! وكيف يموت وهو هذه القوة التي هزّت العالم مدى عشرين سنة متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ. لكنّ النساء هناك ما زلن يلتدّمن ويضربن وجوههنّ علامة أنّه مات. ولكنّ عمر هاهنا في المسجد ما يزال ينادي بأنّه لم يمّت وبأنّه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأنّ الذين يقولون بموته إنّما هم المنافقون؛ هؤلاء المنافقون، الذي سيضرب «محمد» أيديهم وأعناقهم بعد رجعتهم. أيّ الأمرين يصدّق المسلمون؟ لقد أخذهم الفرع أوّل الأمر، ثمّ ما زالت بهم أقوال عمر تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبيّ، حتّى كادوا يصدّقون أمانيتهم ويصوِّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

وإنّهم كذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السُّنح وقد بلغه الخبر الفادح، وبصُرّ بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف طويلاً ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل فقيل له: لا حاجة لأحد اليوم بإذن. فدخل فألقى النبيّ مُسجّى في ناحية من البيت عليه بُرد حبرة، فأقبل حتّى كشف عن وجهه ثمّ أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيّاً وما أطيبك ميتاً! ثمّ إنّ أخذ رأس النبيّ بين يديه وحدّق بمعارف وجهه التي بقيت لم يُنكرها عدوان الموت عليها وقال: بأبي أنت وأُمّي! أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً! ثمّ أعاد الرأس إلى الوسادة وردّ البُرد على وجهه^(١٢١٢) وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويُقنعهم بأنّ «محمدًا» لم يمّت. وفسح الناس لأبي بكر طريقاً فلمّا دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر:

(١٢١١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٦٦. ومن أين لعمر بهذا؟! أمن التشبيه بموسى بن عمران فقط؟! ومن أين له بأنّه سيرجع ولماذا لا يبقى عند ربه كما بقي عيسى بن مريم؟! ومن أين له بأنّه إذا رجع يقطع أرجل رجال زعموا موته كما في نصوص القرآن الكريم؟! اللهمّ لم يكن ذلك كذلك إلّا لحاجة في نفس يعقوب قضائها، تلك هي إلهاؤهم عن البيعة لأحد حتّى يحضر أبو بكر من السُّنح، فلمّا حضر، حضّر عمر فكرته عن قوله سبحانه: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مُّيِّتُونَ) ولذلك فقد سكّت وأذعن واستسلم للأمر الواقع إذ حصل الأمل.

(١٢١٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٦٤.

أنصت! لكنَّ عمر أبي أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم. فأقبل أبوبكر على الناس وأشار إليهم بأنَّه يكلمهم. ومن كأبي بكر في هذا الموقف! أليس هو الصديق صفِّي النبيّ ومن لو اتَّخذ النبيّ خليلاً لا تأخذه خليلاً! لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيُّها الناس، إنَّه من كان يعبد «محمّداً» فإنَّ «محمّداً» قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيّ لا يموت. ثمَّ تلا قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)^(١٢١٣). وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبي بكر؛ فلمَّا سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرَّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه موقناً أنَّ رسول الله قد مات^(١٢١٤). وأمَّا الناس فقد أخذوا من قبل بأقوال عمر، حتَّى لقد ألفتوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبوبكر وكأنَّهم لم يكونوا

يعلمون أنَّها نزلت^(١٢١٥). وكذلك زایل القلوب كلَّ شك في أنَّ «محمّداً» قد اختار جوار الرفيق الأعلى وأنَّ الله قد ضمَّه إليه^(١٢١٦).

أفكان عمر غالباً حين اقتنع بأنَّ «محمّداً» لم يمت وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟ كلا! وإنَّ العلماء ليحدِّثونا اليوم بأنَّ الشمس ستظلُّ تتناثر على حِقَب الدهور حتَّى يجيء يوم تفتنى فيه. أفيصدق أحد هذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك في إمكانه؟ هذه الشمس التي ترسل من ضيائها ومن حرارتها ما يحيا العالم به كيف تفتنى وكيف تنطفئ ثمَّ يبقى العالم بعدها يوماً! و«محمّد» لم يكن أقلَّ من الشمس ضياءً، ولا حرارة، ولا قوّة. وكما أنَّ الشمس مُحسنة فقد كان «محمّد» محسناً. وكما أنَّ الشمس تتصل بالكائنات كلّها، فقد كان روح «محمّد» يتصل بالكائنات جميعاً، وما زال ذكره (صلى الله عليه وآله) يعطر الكون كلّهُ. فلا عجب إذا اقتنع عمر بأنَّ «محمّداً» لا يمكن أن يموت. وهو حقّاً لم يمت ولن يموت^(١٢١٧).

(١٢١٣) آل عمران (٣): ١٤٤ .

(١٢١٤) أفلم يكن يسمع بها من قبل؟!

(١٢١٥) فما الفرق بينهم وبين أبي بكر؟! ألم يكن كأحدهم؟!

(١٢١٦) الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٦٨ .

(١٢١٧) حين مات النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان يوماً للمسلمين مضرب المثل فإذا بالغوا في يوم مصيبة قالوا: (إنَّه كيوم مات فيه رسول الله).

وما تنتظر من المسلمين ساعة يسمعون الواعية والباب مغلق على مَنْ فيه، إلّا أن يهرعوا فيجتمعوا في مسجدهم والطرقات نكساً أبصارهم مطأطفي رؤوسهم. ولم تبق عين لم تدمع، ولا قلب لم يجزع، ولا نفس لم تنقطع. حتَّى أصبح الناس كالغنم المطيرة في الليلة الشتائية (كما في الحديث).

ولكنَّ عمر بن الخطاب أبي على الناس تصديقهم بموت نبيِّهم، إذ طلع إلى الناس ماسكاً سيفاً قائلاً: إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله تُوفيَّ وإنَّ رسول الله والله ما مات ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى ابن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثمَّ رجع بعد أن قيل

مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله مات. (السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠٥/٤، وتاريخ الطبري: ٤٤٢/٢).

وجاء في رواية أخرى بأنه: لما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان أبوبكر غائباً فجاء بعد ثلاث، ولم يجزؤ واحد أن يكشف عن بطنه حتى أربد (تغير) بطنه وكان عمر يقول: لم يمّ، وكان يتوعد الناس بالقتل. (أنساب الأشراف: ٥٦٥/١ — ٥٦٨، وتاريخ الطبري: ٤٤٣/٢، تفسير القرطبي: ٢٢٢/٤).

وتذكر رواية ثالثة فوجد (أي أبو بكر) عمر بن الخطاب قائماً يوعد الناس ويقول: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) حي لم يمّ وأنه خارج إلى من أرحف به وقاطع أيديهم وضارب أعناقهم وصالبهم. (الطبقات: ٢٦٦/٢، وتاريخ الطبري: ٤٤/٢، والكامل في التاريخ: ٣٢٣/٢). وجاء في الملل والنحل: وقال عمر بن الخطاب: من قال إنّ محمداً مات قتلته بسيفي هذا، وإنّما رفع إلى السماء، كما رفع عيسى بن مريم. (الملل والنحل: ١٥/١، وأنساب الأشراف: ٥٦٥/١).

وقال عمر: إني لأرجو أن يعيش رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد مات. (مسند أحمد بن حنبل: ١٩٦/٣، كتاب العثمانية: ٧٩).

استأذن عمر والمغيرة فدخلوا عليه فكشفا الثوب عن وجهه فقال عمر: واغشياه ما أشد غشي رسول الله (صلى الله عليه وآله). وقال المغيرة: يا عمر مات والله رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال عمر: كذبت ما مات رسول الله، ولكنك رجل تحوسك فتنة، ولن يموت رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يفني المنافقين. (طبقات ابن سعد: ٢٦٧/٢، كتاب العثمانية، الجاحظ: ٧٩).

وجاء في سنن الدارمي فقام عمر فقال: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يمّ ولكن عرج بروحه كما عرج بروح موسى، والله لا يموت رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم، فلم يزل عمر يتكلم حتى أزيد شدقه بما يوعد ويقول، فقام العباس فقال: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد مات وأتته لبشر: وإنه يأسن كما يأسن البشر أي قوم قوموا فادفنوا صاحبكم، فإنه أكرم على الله من أن يمته إمامتين! أيمت أحدكم إمامته ويمته إمامتين وهو أكرم على الله من ذلك، أي قوم، فادفنوا صاحبكم فإن يك كما تقولون فليس بعزيز على الله أن يحدّ التراب عنه. (سنن الدارمي: ٣٩/١، الكامل في التاريخ: ٣٢٣/٢).

هنا لا يدري الإنسان لماذا رسول الله يقطع أيدي وأرجل من أرحف بموته، أو بالأصح من قال بموته؟ ولأي ذنب يستحق الضرب بالسيف هذا القاتل؟ ومن أين علم أنّ رسول الله لا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله؟ كما في بعض الروايات، وما هذا الرجوع؟ أرجوع بعد الموت أو بعد غيبة «كغيبه موسى بن عمران كما يدّعيها عمر بن الخطاب في بعض الحديث» ولكنها أي غيبة هذه وهو مسجّى بين أهله لا حراك فيه؟

ونلاحظ من أقوال عمر عن الرسول (صلى الله عليه وآله) كلمات غير مرتبة، فمرة يقول: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذهب إلى ربّه أي بجسده، ومرة يقول إنه رفع إلى السماء كما رفع عيسى (صلى الله عليه وآله) بروحه وجسده ومرة ثالثة عرج بروحه. وهذه أقوال لا تشبه بعضها بعضاً، فجسد الرسول موجود وعمر يقول: ذهب إلى ربّه كموسى (عليه السلام)؟ ولما أنكر عليه الناس ذلك، قال: رفع إلى السماء بروحه وجسده، ولما اشتدّ النكير والتعجب قال: بل عرج إلى السماء بروحه، في حين أنّه قال للمغيرة بأنه (صلى الله عليه وآله) مغشى عليه!

ولما أكد الناس موته (صلى الله عليه وآله) وذكروا الآيات القرآنية في ذلك: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً) (آل عمران: ١٤٤) (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر: ٣٠). لم يهتم عمر وصحبه بذلك.

واستمر في تهديده وتكرار أقواله إلى أن عاد أبوبكر، وبمجرد أن عاد وذكر الآية المباركة: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...) سكت عمر.

والقضية التي كشفت الأمر هي تركه وأبوبكر وابن الجراح مراسم دفن الرسول (صلى الله عليه وآله) وانتقلهم بسرعة خاطفة إلى سقيفة بني ساعدة! فلم ينتظروا مجيء الرسول (صلى الله عليه وآله) من السماء كما قال عمر، ولم يشتركوا في مراسم جهازه، ولم يطالبوا بالمشاركة في تغسيل النبي (صلى الله عليه وآله) وفيها شرف عظيم.

والمسألة الخطيرة الرابعة هي تهديد عمر المسلمين بقطع أيديهم وأرجلهم وألسنتهم ورقابهم إن قالوا بموت محمد (صلى الله عليه وآله)، والله سبحانه يقول: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)، وقد أكد الله تعالى موته وأفصح عنها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وجاء في الرواية: «ولما ذهب سالم بن عبيد وراء الصديق إلى السنع الذي لجأ إليه هروباً من المشاركة في جيش أسامة الذي أمر النبي بالالتحاق به وأعلمه بموت رسول الله (صلى الله عليه وآله) أقبل أبو بكر فوجد عمر بن الخطاب قائماً يوعد الناس ويقول: إن رسول الله حي لم يموت. فجلس عمر حين رأى أبا بكر مقبلاً!!» كثر العمال: ٢٣٢/٧، ط مؤسسة الرسالة.

وقال ابن أبي الحديد: بأن عمر خاف من تغلب أقوام عليها — الخلافة — (شرح نهج البلاغة: ١٣٠/١).

وقد قال عبدالفتاح عبدالمقصود: كل أعمال عمر من بيعته لابن الجراح وذهابه لوحده مع أبي بكر إلى السقيفة .. نعتذر عنها لولا تهديد عمر للقائلين بموت النبي! وبهذا التهديد يتهمه عبدالفتاح باصطناع الموقف. السقيفة والخلافة، عبدالفتاح عبدالمقصود المصري: ١٠٩، ١١١. وبينما أرسل عمر سالم بن عبيد لإخبار أبي بكر بموت النبي (صلى الله عليه وآله) كان عمر ينادي بعدم موته، ثم ترك مراسم دفنه. (راجع السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر).

وصول النبا باجتماع الأنصار

لم يهدنا التاريخ إلى أن أبا بكر وعمر أي شيء صنعا مباشرة بعد حادثة إنكار موت النبي واجتماعهما، وأين كانا قبل ذهابهما إلى السقيفة فهل دخلا إلى دار النبي معاً والباب مغلق دون الناس، أو أتتهما وقفا على الباب؛ أو أن أبا بكر وحده دخل الدار؟ كل واحد من هذه الاحتمالات يستشعر فيه حديث، وجائز وقوعها جميعاً.

ولكن مثلهما جدير بهما ألا يارحا النبي (صلى الله عليه وآله) في مثل هذه الساعة، وإذا كان شيء يحدث فإنما يحدث هاهنا، ومحوره هذا المشغول بجهاز النبي «علي بن أبي طالب»، ومن كان يتوهم أن الأنصار تستبد بهذا الأمر على آل البيت والمهاجرين وتطمع فيه دونهم فتبادر إلى اجتماعها معرضة عنهم شأن لا ينكر في هذا الأمر.

وأغلب الظن أنه لم يطل الزمن على وصولهما إلى الدار حتى جاء اثنان من الأوس مسرعين إلى دار النبي، (ذكر ذلك في العقد الفريد: ٦٣/٣ وفي الجزء الثاني من شرح النهج) ولم نر غيرهما يصرح باسم الشخص المخير. ولكن عمر بن الخطاب نفسه يحدثنا أنه صادف أتتهما في ذهابهما إلى السقيفة، فأشار عليهما بالرجوع ليقضوا أمرهم بينهم. واحسب أن عمر أراد أن يحفظ لهما هذه اليد، فيكتم عليهما غايتهم هذه على قدومهما دفاعاً عنهما، لأن الأنصار اجتمعت بعد بيعة أبي بكر في محفل فدعوهما وغيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين وأكبروا فعلهما فخطبا فردت عليهما الأنصار واغلظوا وفحشوا عليهما وكل منهما قال شعراً «راجع شرح النهج: ١١/٢، نقلاً عن كتاب الموقفيات للزبير بن بكار) وهما معن بن عديوعويم بن ساعدة؛ وكان بينهما وبين سعد الخزرجي المرشح للخلافة مودة قديمة، فأخذ معن بيد عمر بن الخطاب، ولكن عمر مشغول بأعظم أمر فلم يشأ أن يصغي إليه، لولا أن يبدو على معن الاهتمام إذ يقول له: «لابد من قيام» فأسر إليه باجتماع الأنصار ففزع أشد الفزع، وهو الآخر يصنع بأبي بكر ما صنع معن معه، فيسر إلى أبي بكر بالأمر، وهو يفزع أيضاً أشد الفزع. فذهبا يتقاوردان مسرعين إلى حيث يجتمع الأنصار، وتبعهما أبو عبيدة بن الجراح، فتماشوا إلى الأنصار ثلاثتهم. (الطبري: ٢٠٨/٣).

أما علي وأما من في الدار وفي غير الدار من بني هاشم وباقي المهاجرين والمسلمين، فلم يعلموا بكل الذي حدث وما عزم عليه أبو بكر وعمر.

ولماذا؟ ألم تكن هذه الفتنة التي فزعا لها أشد الفزع تعم جميع المسلمين بخبرها وشرها وأخص ما تخص علياً ثم بني هاشم؟ أوليس من الجدير بما أن يوقفهم على جلية الأمر ليشاركوها الرأي ويساعدوها على إطفاء نار الفتنة الذي دعاها إلى الذهاب إلى مجتمع الأنصار مسرعين؟ ثم لماذا يحض عمر أبا بكر دون الناس ثم أبا عبيدة؟

ليس من السهل الإحاطة بأسرار ذلك التكم وهذا التخصيص، وهو موضوع بكر لم يقرع بابه الباحثون. ولكننا إذا علمنا أن الجماعة كانوا يلاحظون في علي تلك الصفات التي توهمه للقيادة من حيث التنصيص والكفاءة فيحذرون أن يستبق إلى بيعته مستبق، نجد منفذاً إلى خبايا هذا التكم ونظمين إلى أنهم رأوا الأصلح لهم أن يتداركوا الأمر بأنفسهم من دون أن يشيع الخبر وحينئذ يستطيعون أن يهيمنوا على الوضع ولا يقع ما يحذرون، إذ يكسبون على الأنصار اجتماعهم السري في جو هادئ ممن يتحسس لعلي. وهذا التخصيص من عمر يُشجّعنا على أن ندرك التفاهم السري بينه وبين أبي بكر، بل بينهما وبين أبي عبيدة في هذا الشأن، بل بينهم وبين سالم مولى أبي حذيفة. ولذلك وجدنا عمر بن الخطاب يأسف عند الموت ألا يكون واحد من هذين «أبي عبيدة وسالم» حياً حتى يجعل الخلافة فيه من بعده مع أن سالم ليس من قريش. وإذا كانوا لم يلاحظوا في علي ما قلناه، فمن هو أجدر منه بالإخبار بهذا الأمر، ومن أجدر من قومه بني هاشم؟ وعلي ليس ذلك الرجل الذي يستهان بشأنه ويستصغر قدره حتى لا يستشار ولا يخبر بمثل هذا الأمر الخطير، وهو لم يكن منصوباً عليه بالخلافة فإن مواحة النبي له مرتين دون سائر الخلق وجعله منه بمنزلة هارون من موسى وهو أحب الناس إليه ومولى كل من كان مولاه وولي كل مؤمن من بعده ووارثه ووصيه ويدور الحق معه كيف ما دار.. كل هذا وغيره ما شئت أن تحدث يجعل له المنزل الأول في هذا الشأن ليستشار على الأقل.

ولئن كان مشغولاً عنهم بجهاز النبي (صلى الله عليه وآله) فحدير بأن يكون على خبر من ذلك ليكون رداءً لهم عند حدوث ما يكره، وهم مقدمون على أمر عظيم، وعليّ من لا يُنكر في شجاعته وبطولته وإيمانه وتفانيه في سبيل نصرته الإسلام. ولكنّه بالرغم من ذلك كلّ لم يعلم بالحادث إلا بعد أن سمع التكبير من المسجد عالياً، وقد فرغوا من اجتماع السقيفة وجاءوا بأبي بكر يبايعونه البيعة العامة. ولست في تعليلي هذا أدعي الإحاطة بأسرار هذا التكتّم، وإثما ذكرت ما يبدو لي عند البحث مقتنعاً أنّه أهم أسرارهِ وعسى أن يكون هناك من يستطيع أن يشيع الموضوع بحثاً، فيزيدنا علماً على علم أو يكشف لنا على جهل.

تأثير دخول المهاجرين في اجتماع الأنصار

لنجيء الآن مع أبي بكر وعمر وأبي عبيدة إلى السقيفة، فنرى الأنصار مجتمعين يتداولون الحديث، وسعد بن عباد بينهم مرّمل وجع يخطب فيهم وقد ترأس حفلهم مرشحاً للخلافة. ولا نشك أنّ الأنصار الآن في لغط وحماس، قد أخذت الأناينة والفخر بأطرافهم معدّين للوثبة عدّتها، يريدون في اجتماعهم السري هذا أن يقبضوا على ناصية هذا الأمر العظيم، وليس أمامهم من يطاولهم. وإذ يدخل عليهم وجوه المهاجرين فجأة لا بدّ أن يسقط في أيديهم بافتضاح أمرهم قبل إبرامه، ويتخوفهم من خروجه من أيديهم بعد ما قالوا وصنعوا. ولا بد أن يرتكبوا لذلك ويقوّي فيهم شعور الخذلان. وقد عرفنا نفسياهم التي يتغلب عليها الضعف، فيتغير عليهم مجرى الحادثة. وهنا ينقلب الدور فيتغيثون لمواجهة هذا الحادث الجديد بما يقتضيه، فمن كان يبغيض الإمارة لسعد وجد الفرصة قد حانت للانتفاض عليه، وبالعكس أصحابه الذين يوادونه لا بدّ أن ينقلبوا مدافعين. وهذا أول تبدّل في حالهم وانخزال في اجتماعهم. وبعد دخول جماعة المهاجرين هذا الاجتماع وسؤالهم عن هذا المرّمل من هو؟ وما شأنه؟ نرى عمر يذهب ليتبدئ المنطق، وقد زوّر في نفسه مقالة في الطريق ليقولها بين يدي أبي بكر، وكان يخشى جد أبي بكر أو حدّته، وكان ذا جد كما يقول هو. ومن الواضح أنّ الموقف دقيق جداً يدعو إلى كثير من اللين واللباقة رعاية لهذه العواطف الثائرة المتحفزة، ولكنّ أبا بكر بمنع عمر من ابتداء الكلام، وكأنّه هو أيضاً يرقب شدته وغلظته المعروفتين فيه فانطلق يتكلم، وما شيء كان زوّره عمر إلّا أتى به أو بأحسن منه على ما يُحدّثنا عمر نفسه. ولقد كان أبو بكر يحسن المعرفة بما يتطلب هذا الوضع من الرفق والسياسة، أو لاترى لما كادوا أن يطأوا سعداً قال قائل: قتلتم سعداً.. فقال عمر وهو مغضب: «اقتلوا سعداً قتله الله إنّهُ صاحب فتنة» فالتفت إليه أبو بكر قائلاً: «مهلاً يا عمر! الرفق هنا أبلغ». ولا أعتقد مع ذلك أنّ عمر كان يجهل ضرورة الموقف ولكنّي أخاله — وقد تمت البيعة لأبي بكر — لم يجد حاجة لكثير من هذا اللين والمداراة وقد أخذ بموافقة الأنصار إلّا القليل، وتحقيق فشل سعد وانخزاله. فهو إذاً يعرف موضعي اللين والشدّة. ولعلّه — هو رجل الساعة بعد أبي بكر — أراد أن يظهر بالغلظة لينطق بأبكر بكلمة اللين.

تأثير خطاب أبي بكر على المجتمعين

من المتيقّن أنّ الرجال الذين سادوا الأمم والجماعات فأحسنوا سيادتهم هم من أبرع الناس في علم الاجتماع وهم لا يشعرون. وإثما جيلوا على معرفة فطرية تشحذها التجارب التي تخلق في النفس الملكية على تطبيق النظريات عند الحاجة. وأبو بكر وعمر هما من أولئك الناس الذين عرفوا خواص نفسية الجماعات وكيف يمكن التأثير عليها في الوقت المناسب كما دلّت الحوادث المتكرّرة على ذلك. ولاشك أنّ مميزات الجماعة المقصودة لعلماء الاجتماع كانت متوفرة أيضاً هنا أتم من توفرها في اجتماع المسجد غير موت النبي الذي أشرنا إليه سابقاً، فقد كان الاجتماع حافلاً إلتجاً فيه سعد بن عباد أن ينيب عنه ابنه أو بعض بني عمّه في إلقاء كلامه فيرفع به صوته ليسمع المجتمعين. وقد اجتمعوا لغرض واحد حسّاس أعني تأمير من يخلف ذلك النبي العظيم، ليكون على رأس هذه الأمة الكبيرة القوية المستعدة، وهم على ما هم عليه من الحال التي وصفناها من التوثب والشعور بالاستحقاق والتكتّم. واطّكّ عرفت في البحث الأسبق أنّ الاجتماع الذي يتألف على هذا النحو كيف يطلع فيه قرن العاطفة ويأزر رأس العقل والتفكير في المجتمعين، فيصبح عرضة للتقلبات والإنقلابات الفجائية، ويقوى فيه سلطان المحاكات والتقليد الأعمى. بل تظهر عليه الأعراض المتناقضة، فيبنا تجده قد يقوم بأعمال وحشية جبارة تدل على شجاعة أفراده البالغة حدّها، تجده مرة أخرى يجبن من الصغير. وبيننا تراه يأبى بأعمال صبيانية مضحكة تراه تارة أخرى يحكم التدبير والتنظيم. وما ذلك كلّ إلّا من سجية المحاكاة الموجودة في كلّ إنسان فتسود على المجتمع عندما يبطل حكم العقل، وحينئذ يكون تابعاً مسخّراً لكلّ من يحسن تسخيرهُ بالمؤثرات التي تهيمن على العاطفة كالنوم وتوابعها مغناطيسياً. ونحن إذا فهمنا جيداً هذه البديهيات عن روية الجماعات، ولاحظنا توفّر شروط الجماعة الاجتماعية في جماعة السقيفة، نفهم معنى تلك الأساليب التي اتبعها أبو بكر وصاحبه، كما سترى للتأثير على المجتمعين يومئذ ونفهم سرّ تأثير جماعة الأنصار وانقلابهم الفجائي على أنفسهم،

فأخذ أبو بكر وعمر الأمر من أيديهم باختيارهم. على أنهما في جنب قوة الأنصار واعتزازهم بجمعهم تلك الساعة لا يعدان شيئاً، وليس من المهاجرين معهما إلاّ أبو عبيدة بن الجراح كما سبق وسالم مولى أبي حذيفة على رواية، فسمع الآن إلى الأساليب التي قلنا عنها:

لقد رأينا سابقاً كيف حرّض أبو بكر بين الأنصار، وأثار عواطف الأوس على الخزرج. وقد صادف منهم نفوساً متهيئة الوثبة على سعد. حتّى استمالهم إلى جانبه وهم يشعرون أو لا يشعرون. في حين أنهم يعلمون أنّ الأمر إذا كان للأنصار وإن تولاه رئيس الخزرج فهو إلى حيازتهم أقرب وإلى سلطاتهم أدنى. ولكنّ للعاطفة هنا سلطانها القاهر على النفس لا يقف في وجهها أي سور محكم من المنطق والتفكير.

ولنتفحص الآن خطبته التي واجههم بها في أوّل الملاقاة وقال عنها عمر: (ما شيء كان زورته في الطريق إلاّ أتى به أو بأحسن منه). فإنّه ذكر فيها أولاً ما للمهاجرين من فضل وسابقة في الإسلام بأنهم أوّل من عبداً في الأرض وآمن بالله وبالرسول وأنهم أولياءه وعشيرته وأحقّ الناس بهذا الأمر — أي الخلافة — من بعده. وأنّ العرب لا تدين إلاّ لهذا الحيّ من قريش وأنهم لا ينازعهم في ذلك إلاّ ظالم! ثمّ خاطب الأنصار فلم يغمط حقّهم وسابقتهم وجهادهم، لكنّ.. لكنّ من غير استحقاق لهذا الأمر، وإذا استحقوا شيئاً فإنّما هي «الوزارة» ولغيرهم الإمارة. فقال:

«.. وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلكم في الدين ولا سابقتكم العظيمة في الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ولرسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم حلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمثلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء». (الطبري: ٢٠٨/٣).

وفي هذا البيان الشيء المدهش من إطفاء نار عواطفهم المتأجّجة ضد المهاجرين. وإشباع نمة نفوسهم الفخورة المتطاولة بفضلهم، وجهادهم ونصرهم، وتقريبها إلى المهاجرين للاعتراف بفضلهم، لأنّه ليس أقوى على تحذير أعصاب الجماعة الهائجة من الذهاب مع تيار روحهم المندفعين بها، فأعطى لهم ما يسألون بلسان حاكم من الاعتراف بالفضل والجهاد وكلّ فخر يشعرون به متناولين.

حقاً لقد صدق وصدقوا، فإنّ لهم الفضل الذي لا ينكر، ولكنهم أخطأوا بزعهم أنّ لهم بذلك حتّى الإمارة، وهنا نجد أبا بكر يريد أن يحوّلهم عن هذا الزعم فيحذّر أن يحدّث عواطفهم بما ينقص منزلتهم ويحطّ من تلاوتهم، فعدل عن التصريح بكلمة الخطأ أو ما ينسق عليها من معناها، واتباع أسلوباً آخر من البيان وأتته لمن السحر المأثور فلم يزد على كلمة: «فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمثلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وفيها تنبيه على خطأهم من طرف خفي من دون إلتجاء إلى الكلمة التي بها تخرج عواطفهم وتثير الحزازات مع الشاء عليهم في نفس الوقت، ثمّ إثبات الوزارة لهم.

وإذا أردت التدقيق في هذه الكلمة ترى الشيء الأعجب: فهو الآن يريد أن يفضلّ المهاجرين الأوّلين «الأوّلين بالخصوص!» عليهم، ليثبت لهم استحقاق الخلافة، ولو كان وضعهما في طرفين وفضل المهاجرين لأثار ذلك بحفيظتهم وحرّش بين خصمين متناولين من القدم، فعدل عن منطوق مقصوده والتاف إليهم من طريق تفضيل الأنصار أنفسهم على الناس. وألقى في الطريق كلمة «بعد المهاجرين الأوّلين» فتظاهر أنّه يريد أن يقول: ليس أحد بمثله الأنصار. وأنّ هذا مقصوده ليس غير، وإنّما استثنى المهاجرين كأمر ثابت مقرر لا يتطرق إليه الشكّ وليس محلاً للنقاش، لا لأنّه المقصود في البيان.

وهنا إذ تهدأ تلك النفوس الجامحة في الجماعة راضية بما قيل لها وفق شعورها تنفكّ أوصالها وترجع من حيث جاءت، كأنّها حصل لها كلّ ما تصبو إليه. وهذا من انخراط نفسية الجماعات فلا تشعر بالنتيجة التي يراد أخذها منها وإن خالفت تفكيرها عند التأمل، لأنّ عادة الجماعة في الأفكار أن تقبلها جملة، أو تردّها جملة، ولا طاقة لها على التأمل والتفكير بين الأفكار، ولا صبر لها على التمييز.

مضافاً إلى أنّ الوعد بجعلهم الوزراء لا يفتاتون بمشورة ولا تقضي الأمراء دونهم الأمور يُطمأن رغبتهم وأطماعهم، ويذهب بخوفهم من الاستبداد عليهم وأخذ الثأر منهم، ويسدل على ما حاولوه ستاراً كثيفاً من النسيان. وبعبارة أصح، يأخذ أثره الوقتي وتلهو الجماعة عن صدق الوفاء به ولا تحتاج إلى التدليل عليه، ولا يكلف قائله إلاّ الوعد وبهرجة الكلام.

وهناك كلمتان أخريان في تلك العبارة التي حلّلناها لا يفوتنا أن نتعرف إليهما وإلى ما فيهما من معنى أخاذ.

الأولى — كلمة «الأوّلين» فأبعدهم بها عن شعور الخصومة الموجودة للمهاجرين عامة. والمهاجرون والأنصار حزبان متناولان، وقد كان تنافسهما أمراً واضحاً للعيان في زمن الرسول وبعده حتّى قال لهم النبيّ يوماً: «ما بال دعوى أهل الجاهلية»، وذلك عندما قال الأنصاري: «يا للأنصار!» وقال المهاجري: «يا للمهاجرين!» فأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح حتّى كاد أن تكون فتنة عظيمة في قصة مشهورة. (راجع البخاري: ١٦٥/٢ و١٢٦/٣). فتجد أبا بكر بتخصيص المهاجرين بالأوّلين كيف اتقى شعور الأنصار بخصومتهم لعامة المهاجرين، وهم لا ينكرون ما للأوّلين من فضل وقد سبقوهم إلى الإسلام وعبادة الرّحمن على أنّه بهذا التخصيص قرّب نفسه وصاحبه إلى هذا الأمر.

الثانية — كلمة «عندنا» — فانظر إلى ما فيها من قوة سحرية إذ رفع نفسه بها عن مقام القرن المنازع للأنصار، وأخرجها عن الحزبين: الأنصار والمهاجرين، ونصّب نفسه بها كحكم بينهما يفضّل هذا على ذاك ثمّ يختار لهم ما فيه الصلاح. وهذا له الأثر البالغ في إخماد نار

عاطفة التعصب عليه، ويعطيه أيضاً منزلة في نفوسهم هي أعلى وأرفع تجعل له نفوذ الحكم المستشار والزعيم للفريقين وعلى العكس فيما لو نصّب نفسه مزاحماً لهم مطالباً بحقّ يعود له ولحزبه. وشأن الجماهير أنّها لا تنتظر الدليل على الدعاوي البرّاقة المبهرجة. لأنّ التصوير ولو بالألفاظ له الحكم الفصل على نفسياتها.

فارجع الآن إلى تلك العبارة ودقّقها، وهي جمجمة تسحن الجماعات من غير طحن، وإلاّ فمن المقصود بضمير «عندنا» يتكلم عنه أبو بكر غير جماعة المهاجرين وهو منهم، وعلى تقديره فمن الذي حوّله أن يُمثّل المهاجرين بشخصه؟.. ولكنّه جرد من نفسه «ومعه غيره» حكماً مفضلاً، عنده المهاجرون أفضل من الأنصار وليس بمنزلة الأنصار أحد بعدهم. فلا تعجب بعد معرفتنا لهذه الأساليب التي لها القوّة السحرية على الجماعات أن يأخذ أبو بكر بناصية الحال، ويستهوّي المجتمعين لينظروا إليه بقلوبهم لا بعقولهم، فيصرفهم كيف يريد، فانتظر نتيجة تأثيره عليهم.

نقاش المهاجرين والأنصار

قرأنا في البحث السابق خطبة أبي بكر وما فيها من الأساليب فلنرَ مدى تأثيرها على المجتمعين وكيف كانت النتيجة؟ لم يردّ عليه إلاّ الحباب بن المنذر في كلامه المتقدّم في البحث السابق، وقد رأيناه لم يأت بشيء، وكان أوّل منخزل أمام المهاجرين وإن ظهر بالقوّة التي تلاشت في آخر كلامه كما شرحناه، ففتح على نفسه باب الحجّة الظاهرة، إذ قال: «فمنكم أمير ومنهم أمير»، على أنّه ظهر جليّاً بمظهر المتعصّب المغالب، فاستهلّ كلامه بقوله: «املكوا عليكم أمركم...» وهذا مردود عليه معكوس الأثر. وهنا، جاء دور عمر بن الخطاب فقال: «هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن. والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها من غيركم ولكنّ العرب لا تمتنع أن تولّي أمرها من كانت النبوة فيهم ووليّ أمورهم منهم. ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين. من ذا ينازعنا سلطان «محمّد» وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدلّ بباطل أو متجانف لأثم أو متورط في هلكة». فتجد كلام عمر هذا — وإن كان هادئاً — لا يبلغ كلام أبي بكر إذ ظهر بمظهر الخصم المدّعي بحقّ الإمارة. وكان أبا بكر فسخ له المجال لأن يكون هو المدعي العام عن المهاجرين بعد أن نصب نفسه كحكم للمتنازعين. كما نلاحظ أيضاً أنّه لم يشر إلى قضية النصّ على قريش أو على خصوص واحد منهم، وإلّا القضية قضية رضی العرب وإبائهما وأنّ المهاجرين أولياء «محمّد» وعشيرته. ولذا قال عليّ (عليه السلام): «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الفمرة».

فقام الحباب بعد عمر فقال: «يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتهم فاجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم — والله — أحقّ بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان تمّن لم يكن يدين. أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجّب. أنا شبل في عرينة الأسد. أما والله لو شتتم لنعيدنّها جذعة. والله لا يردّ أحد على ما أقول إلاّ حطمت أنفه بالسيف».

وهذه عصبية جاهلية وسوء قصد ظاهر. فقال له عمر: «إذاً يقتلك الله» فانتحى به الناحية الدينية إذ نسب القتل إلى الله تعالى ولم يقل يقتلك الناس. وهذا أسلوب من الردّ فيه التهديد والتنديد على تلك دعوى الجاهلية منه. فقال الحباب: «بل إياك يقتل».

وهذه مهاترة يلتجأ إليها عند ضعف الحجّة وشدة الغضب، فترى الحباب في كلّ ذلك كان قلق الوضين يرسل من غير سدد، وتتضوع من فمه رائحة نفسه، ولا يعرف أن يسر حسواً في ارتغاء، فافتحم في الميدان بجنان الفارس المدلّ بقوته ونفسه، ومن سيفه ولسانه تنطف دعوى الجاهلية الأولى البشعة في الإسلام، تأبأها عليه الصبغة الدينية المصطبغ بها المجتمع يومئذ، وهو في الدرجة الأولى متأثر بالإسلام وتعاليمه، وللشعور الديني المكان الأوّل في تأثر الجماعات الدينية وانفعالها، فما لم يستخدم هذا الشعور لا يرجى أن يحدث في الجماعات التعصب الذي يجعل الإنسان يرى سعادته في التضحية بنفسه وبكلّ عزيز فداء للمقصد الذي يوجّه إليه.

فالحباب إن تولّى الدفاع عن سعد وقومه نصرته لهم فهو الذي أفسد عليهم أمرهم أكثر من أي شخص آخر من حيث يظنّ الصلاح، وبدلاً من أن يقود المجتمعين للغرض الذي اجتمعوا لأجله قد خسروهم وأعطى القيادة — من حيث لا يشعر — لغيره الذي عرف كيف توكّل الكفّ في استمالتهم واستعمال نفوذ فيهم. وكان أوّل ظهور هذه الخسارة قيام ابن عمّه بشير بن سعد الخزرجي، فنقض على الخزرج ما أجمعوا عليه فقال:

«يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا إلاّ رضی ربّنا وطاعة نبيّنا والكدرح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي من الدنيا عرضاً فإنّ الله وليّ المّة علينا بذلك، ألا إنّ «محمّداً» من قريش وقومه أحقّ به وأولى. وأتم الله لا يراي الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتّقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم».

أنظر إلى الشعور الديني كيف أخذ بأطراف كلام هذا الرجل، متأثراً بدعوة أبي بكر وصاحبه، خارجاً على قومه بل على نفسه، وكان بعد ذلك أول مبایع من القوم. ولا أعتقد أن ذلك كله عن نفاسة لسعد كما رماه به الحباب لما مَدَّ يده للبيعة، فناده: «يا بشير بن سعد عَقَّت عقالاً! ما أحوجك إلى ما صنعت؟ أنفست على ابن عمك الإمارة!». فقال بشير: «لا والله ولكن كرهت أن أنزع قوماً حقاً جعله الله لهم».

بل أعتقد أنه كان صادقاً بعض الصدق أو كله فيما ادَّعاه عن نفسه فإن سير الحادثة كما وصفناه يدل دلالة واضحة على تأثر الجماعة بكلام أبي بكر وانقيادها إلى دعوته، ولا سيما بعد ما صدر من الحباب ما يبعد النفوس عن دعوة قومه. نعم! وإثما كان مبدأ ظهور ذلك التأثير في بشير بن سعد، فيصح أن نجعله ممثلاً لشعور قومه تلك الساعة.

المهاجرون يربحون الموقف

إن الحقيقة، هي التي وصفناها لك. إن القوم قد تكهروا بدعوة المهاجرين وتهاؤوا لبيعة واحد منهم بالرغم من وجود التنافس بين الحزبين، كما أشرنا إليه وصرَّح به أبو بكر في خطبته التي تقدَّمت في البحث السابق، إذ قال: «فقد جلس بين لُحَيٍّ أسد يقضمه المهاجري ويجرحه الأنصاري» وزاد في قهقهة هذا منافسة الأوس والخزرج وحسدهم لسعد. وطبيعي أن تنافس القريب أكثر أثراً من منافسة البعيد مهما كانت. ولذلك نرى أبا بكر لما سمع مقالة بشير لم يتأخر عن تقرير النتيجة من هذا النقاش، فلا بدَّ أنه علم بانقلاب الجمع تأثراً بدعوتهم كيف وهو قد هيمن عليهم ونوَّهم تنوعاً مغناطيسياً، فيعرف كيف سخَّره وقاده فقدَّم للبيعة أحد الرجلين اللذين معه: عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، وقال: «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فأيهما شئتم فبايعوا».

وقد جرى في هذا الكلام هنا على نفس تلك الطريقة التي سلكها في خطبته المتقدمة في البحث المتقدم من ترفُّعه عن مقام المعارضة، وتجريده من نفسه حكماً للحزبين يختار لهما ما هو الصالح باجتهاده، فاختار لهم أحد الرجلين.

ولكنَّ الجمهور كما قلنا ضعيف الرأي والاختيار، لا يعرف أن يختار ولا يعرف أن يعيَّن ما يختار، ويبقى في مثل هذا الحال منتظراً إشارة من سخَّره ونوَّه التنوع المغناطيسي، أولأي شخص آخر يفاجئه بإرادة قوية حازمة، فلو أن أحداً من الحاضرين قام فبايع أحداً منهما عمر أو أبا عبيدة لبوع وانتهى كل شيء. ولو أن أبا بكر عين واحداً لما تأخروا عن بيعته. ولكنَّ هذا التردد بين الرجلين يظهر أنه كان مقصوداً تمهيداً لارجاع الأمر إليه، ولعله عن تفاهم سابق واتفق بين الثلاثة ليتعاقبوا هذا الأمر. ولذلك تمَّتْ عمر عند الموت أن يكون أبا عبيدة حيناً ليعهد إليه.

أما هما فقد أبيا عليه وقال عمر: «لا والله لا نتولَّى الأمر عليك أبسط يدك نبايعك!» قال هذا القول ولم يترك فرصة تستغل للردِّ والاحتجاج، فحقَّق القول بالعمل، وأقدم بإرادة جازمة لا تعرف التردد بتطلبها الموقف الدقيق، فذهب ليباع أبا بكر، ولم يمتنع أبو بكر فمدَّ يده ولكنَّ بشير بن سعد هذا الذي تقدمت خطبته سابق عمر بن الخطاب إليها فوضع يده بين يديهما مبايعاً، كأنما أراد بذلك أن يحز في الفضيلة في السبق أو ليرهن على إخلاصه للمهاجرين، بل هذا من اندفاعات الجمهور المدهشة بنتيجة انفعالهم بالمؤثرات التي تطرأ عليهم.

وهو من أبلغ الشواهد على ما قلنا من تكهرب نفوس جمهور السقيفة، بتلك المؤثرات التي استعملها أبو بكر، بتلك الحداقة واللباقة، فإنَّ لبعض الألفاظ والجمل سلطاناً لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل. ألفاظ وجمل يفوه بها الخطيب خاشعاً أمام الجمهور، فلا تكاد تخرج من فيه حتَّى تعلو الوجوه هيبتها وتنعو القلوب لها احتراماً، كأنَّ فيها قوَّة إلهية أو موجة سحرية، فتثير تارة في النفوس أشدَّ الصواعق من الغضب، وتسكِّنها تارة إذا جاشت فتمزَّق أشلاءها وتقودها إلى حيث يريد المتكلم راضية قانعة. (راجع كتاب «روح الاجتماع» المعرب لغستاف لبون: ١١٣).

ويظهر أن عمر أيضاً أدرك حقيقة الموقف وكيف قد ربحه المهاجرون، فلم يبق إلا أن يصدر أحدهم الحكم الفاصل في تعيين من يبايع منهم، فأقدم على بيعة أبي بكر — كما رأيناه — غير متردِّ ولا متخوف؛ ولا مستشير، ومدَّ يده مسرعاً. وإلاَّ فإنَّ الأمر أعظم من أن يتم بهذه السرعة والسهولة التي كانت: بإقدام شخص واحد يعقد البيعة لشخص آخر، الظاهر ظهور الشمس أنه صاحبه المنحاز إليه، في وقت هو أحد ثلاثة أو أربعة من الحزب المعارض لقوم في عقر دارهم، معتزتين بقوتهم يريدون أن يملكوا أعظم سلطان لأعظم أمة، وهو لم يأخذ رأيهم وتصديقهم على ما أراد. (على أنه قال بعد ذلك في خلافته: «فمن بايع أميراً من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه تغرة أن يقتلا» راجع كثر العمال: ج ٣ / ح ٢٣٢٣) وإثما أقدم كأنَّ الأمر لا يدور إلا بينه وبين أبي بكر كأمر ثابت لا شك فيه. وهذه مغامرة خطيرة لها ما بعدها، ولم تكن منه إلاَّ لأنه أدرك نضج القوم وهيئتهم لبيعة أحد المهاجرين.

ولذلك لم نجد معارضة من القوم، بل الأوس ذهبت جميعها مسرعة للبيعة من غير تردد ولا تلوّكٍ يقدمها أسيد بن حُضير بعد أن قالت ما قالت كما تقدّم في البحث المتقدم. ثُمَّ تبعهم جميع الأنصار ما عدا سعد ومن كان شديد التعصب له كابنه قيس والحباب. ولا شك أنّ للعدوى أثرها الفعّال في الجماعات فتسري سرّيات النار في الهشيم، أو تيار الكهرباء في سلوكه، فقد وجدنا كيف كان هلعهم في نزاحهم على البيعة وتسابقهم إليها، كأنما تفوت دونها الفرصة، فأقبلوا من كلّ جانب يبايعون أبابكر، حتّى ازدحموا على سعد بن عبادة السيّد المطاع في الخزرج بل الأنصار كلّهم، هذا الزعيم الذي كان قبل ساعة مرشحاً للبيعة خليفة للنبي، وأميراً على جميع المسلمين، وكادوا يطأونه فيقتلونه وهو مرّمل وجع، فحمل إلى داره صفر اليدين.

وهذا الطّف شيء في تناقض أفعال الجمهور وعدم ثباته وتطرفه في أعماله وآرائه وشدة نزقه، فإنّه لا يعرف الحلم والصبر ولا قمع النفس عن الاسترسال في نزاعاتها، ولا المحافظة على الآداب العامة المصطلح عليها، وهو مع ذلك كثير النسيان لأحواله السابقة.

أمّا الحباب — ولا ينبغي أن ننساه — لما رأى إقبال الناس على البيعة انتضى سيفه، فحامله عمر فضرب يده، فندر السيف فأخذه منه، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتّى فرغوا من البيعة، ولكن من المعلوم أنّه لم يصنع شيئاً ولم يستطع ردّ جماع أي شخص من قومه، حتّى تمت البيعة مرغماً، وصدق فيه وفي قومه المثل المشهور «ربّ ساع لقاعد». ولبّيت أراه في تلك الساعة كيف كان حاله فتربّد شدقه ويتميز غيظاً ويعضّ على أنامله، وقد ملكت حواسه سورة الغضب، وماذا كان يقول لقومه ولنفسه بعد ذلك الذي مضى منه من التهديد والوعيد ثمّ ذهب هباءً وخار ضعفاً! لا شك أنّه لو كان من أبناء هذه المدينة الحديثة متشعباً بعاداتها، لكان — وهو على مثل هذه الحال — ضحية الانتحار ليتخلص من شنارها ويستريح عارها.

النتيجة:

نستنتج من سير الحادثة أن طريقة بيعة أبي بكر لم تكن طريقة اختيار بالمعنى الصحيح (فصدّق كلمة الأستاذ محمّد فريد أبي حديد في مقاله «نظرة في نظام بيعة الخلفاء» المنشور في مجلة الرسالة المصرية العدد ١٠) ويحقّق معنى أنّها كانت «فلتة» وفق الله شرّها على حدّ تعبير عمر بن الخطاب.

وقد رأينا السرعة التي جرت بالحادث لم تبق مجالاً للمفكّر أن يشحذ فكره ولا للمعارض أن يقيم حجّته، فكانت مفاجأة في مفاجأة. مع أنّ العاطفة العدائية عند الأوس المهيجّة من أبي بكر كان لها الأثر الفعّال في تقريب النتيجة، وساعدها بل أشعل أوارها أنّ المجتمعين انطبعت فيهم أوصاف الجماعة الاجتماعية، ممّا يذهب عنهم صحة الاختيار والحكم.

فلا بدع إذا لم يثق الباحث المُفكّر باختيار جماعة السقيفة، ولا يغتر به دليلاً على صحة هذه الطريقة من البيعة في الإسلام، وقد أشرنا في الفصل الأول إلى أنّ عمر نفسه قال عنها: «فمن دعا إلى مثلها فهو الذي لا بيعة له ولا لمن بايعه».

ولا غرابة أيضاً إذا لم يدافع أحد عن النصّ على عليّ بن أبي طالب، وقد اندفع المجتمعون بتيار جارف لا يقف في سبيله شيء، ونحن نعرف رأي المهيمنين على الاجتماع في عليّ، وهم يتعدون أن يتم له شيء من ذلك افتراهم يدعون إليه في هذا المجتمع الذي أسس على الإعراض عن النصّ فيه، وإذا قال بعد ذلك بعض الأنصار أو كلّهم: «لا نبايع إلّا عليّاً» كما سبق فقد قلنا أن ذلك بعد خراب البصرة، فإنّ هذا الجمهور أصبح لا يملك اختياره وتفكيره وشعوره بواجبه الديني لما قلناه من تكهره بتيار تلك القوة السحرية قوة الاجتماع التي تجعل أعماله أعمالاً لا شعورية، على أنّ أساس الاجتماع ارتكز على طمع الأنصار من جهة وتخوّفهم من جهة أخرى «على ما شرحناه فيما تقدّم». وهذان لم يتركاهم يفكّرون في واجبه الديني فيبعد أن أفحموا وغلبوا اندفعوا مع الغالبين، وتلك هي فطرة البشر.

ويشهد على ما نحسّه من الضعف الديني في تلك الأحكام العاجلة والقرارات الخاطئة في اجتماع السقيفة، أنّه ممّا تقرر في تلك النهضة أمران عامان:

١ — إنّ الأنصار لا حقّ لهم في هذا الأمر.

٢ — إنّهم الوزراء لمن كانت له الإمارة.

مع أنّ الأول شك فيه أبو بكر نفسه بعد ذلك، إذ تمنّى فيما تمنّى لو سأل النبيّ عنه، والثاني هذا المنصب المزعوم وزارة الخليفة، لم يعط لأحد منهم لا في عهد أبي بكر ولا بعده، بل هذا المنصب لم يحدث لأحد إلّا في عهد العباسيين.

وبهذه النتيجة التي حصلنا عليها من سير حوادث السقيفة وملابسائها، يسهل علينا أن نفسّر بها الآية الكريمة: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُبِلَ انْقَلَبْتُمْ...) . فإنّ الاجتماع كان — على كلّ حال — انقلاباً على الأعقاب، حتّى لو لم تؤمن بالنصّ من قبل النبيّ (صلى الله عليه وآله) على من سيكون خليفة من بعده، لأنّ الاجتماع كما قلنا من أصله كان افتياتاً على المسلمين ولم يكن مستنداً إلى قاعدة إسلامية، أو تصريح من الرسول. وكذلك ما قرّره الاجتماع، لم يكن إلّا قراراً خاطئاً تحكّمت فيه العواطف في المبدأ والمنتهى .

وكان أسامة بن زيد قد رأى النبيّ صباح ذلك اليوم حين خرج إلى المسجد وظنّ كما ظنّ المسلمون جميعاً أنّه تعافى، فذهب ومن كان قد عاد إلى المدينة من الجيش المسافر إلى الشام، ولحق بالمعسكر بالجُرف وأمر الجيش بالتجهّز للمسير. وإنّه كذلك إذ لحق به الناعي نذيراً بوفاة النبيّ، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كلّه إلى المدينة؛ ثمّ ذهب هو فركّز علمه عند باب عائشة وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد (١٢١٨).

والحقّ أنّ المسلمين كانوا من أمرهم في حيرة. فهم لم يلبثوا بعد أن سمعوا أبا بكر، وبعد أن أيقنوا أنّ «محمّداً» قد مات، حتّى انحاز حيّ من الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيدالله في بيت فاطمة، وانحاز المهاجرون ومعهم أسيد بن حضير في بني عبدالأشهل إلى أبي بكر. وإنّ أبا بكر وعمر لذلك إذ أتى آت ينبتهما نبأ الأنصار الذين انحازوا إلى سعد بن عباد، ثمّ يردف النبأ بقوله: فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفارق أمرهم ورسول الله (صلى الله عليه وآله) في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر موجّهاً حديثه إلى أبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتّى ننظر ما هم عليه. وإنّهم لفي طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان، فذكرا للمهاجرين ما تمّلاً عليه القوم وسألاهم: أين يريدون؟ فلمّا علما أنّهم يريدون الأنصار قالوا: لا عليكم ألاّ تقرّبوهم؛ يا معشر المهاجرين أقضوا أمركم. قال عمر: والله لنأيتهم. وانطلقوا حتّى نزلوا بهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مُزَمَّل، قال عمر بن الخطاب: من هذا؟ قالوا: سعد بن عباد، به وجع. فلمّا جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يامعشر المهاجرين رهطٌ منّا وقد دقّت دافّة من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبيّ. لذلك لم يلبث عمر أن سمع هذا الكلام حتّى أراد أن يدفعه؛ فأمسك به أبو بكر مخافة شدّته وقال: على رسلك يا عمر! ثمّ قال موجّهاً كلامه للأنصار: «أيّها الناس. نحن المهاجرون أوّل الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسّهم رحماً برسول الله. أسلمنا قبلكم، وقُدّمتنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

بِإِحْسَانٍ^(١٢١٩). فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفياء وأنصارنا على العدو. أمّا ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً. فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، فمنّا الأمراء ومنكم الوزراء. هناك استشاط أحد الأنصار غضباً وقام فقال: أنا جُذيلها المحكك وعُذيقها المُرَجَّب، منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال أبوبكر: بل منّا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بينهما. هنالك كثر اللفظ وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف؛ فنادى عمر بصوته الجّهوري: ابسط يدك يا أبابكر، فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول: «ألم يأمر النبيّ بأن تصلّي أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحبّ رسول الله منها جميعاً». ومستّ هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبرة حقّاً عمّا ظهر من إرادة النبيّ حتّى هذا اليوم الأخير الذي رآه الناس فيه، فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون^(١٢٢٠) ثمّ بايع الأنصار^(١٢٢١).

(١٢١٩) التوبة (٩): ١٠٠ .

(١٢٢٠) لم يذكر منهم سوى عمرو أبي عبيدة بن الجراح.

(١٢٢١) سيرة ابن هشام: ٢ / ٦٥٦ و ٦٥٨ و ٦٥٩، وتاريخ يعقوبي: ٧/٢ — ٨ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ٢/٢٢٠ — ٢٢٥.

حادثة السقيفة من أهم الحوادث في التاريخ الإسلامي وأخطرها، حيث أصبحت المنطلق الذي أسس عليه البعض واعتمد قرارها كنصوص شرعية في إدارة الحكم فيما بعد، بينما يعتقد مذهب أهل البيت بأنّ الاجتماع المذكور ليس بشرعي وغير ملزم للمسلمين، مادام صاحب الرسالة قد نصّ على الإمام عليّ بالإمامة بعده وأعدّه من أجل التصدي لهذه المهمة. وإليك مناقشة ما تمّ في هذا الاجتماع ليتبيّن لك لعب المعادلات السياسية في الساعة الأخيرة من دفن النبيّ، وعدم شرعية هذا الاجتماع الذي جرّ ما وراعه من الولايات والتمزّق ومظاهر الانحراف في صفوف الأُمّة الإسلامية إلى يومنا هذا.

عقد رسول الله في مرض وفاته لواءً بيده لمولاه أسامة بن زيد، وأمره على جيش فيه المهاجرون والأنصار مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبيوقاص فعسكر بالجرف وغضب عليهم لما تكلموا في تأمير أسامة عليهم وقال: إنّه لخليق بالإمارة فذهبوا إلى معسكرهم وثقل رسول الله فجاء أسامة وودّعه وقال الرسول: انفذوا بعث أسامة وفيما همّوا بالرحيل يوم الإثنين جاءهم الخبر أن الرسول قد حضر فاقبلوا إلى المدينة وحضروا في بيت الرسول فقال: «هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فقال عمر: إنّ النبيّ عليه الوجلّ وعندكم كتاب الله فحسبنا كتاب الله، فلمّا أكثروا اللفظ والاختلاف قال: «قوموا عني لا ينبغي عند النبيّ التنازع» فقالوا: هجر رسول الله، وبكى ابن عباس حتّى خضّب دمه الحصباء.

وأما موقف عمر — حين توفي الرسول وأبوبكر غائب بالسنع — هنا أخذ عمر يقول: ما مات رسول الله ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى وغاب عن قومه أربعين ليلة. والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال يزعمون أنّه مات. وقال: من قال أنّه مات علّوت رأسه بسيفي، فنليت عليه الآية، (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) آل عمران: ١٤٤. وقال له العباس: إنّ رسول الله قد مات، هل عند أحدكم عهد من رسول الله في وفاته فليحدثنا. لم ينته عمر من كلامه وتهديده حتّى أزيّد شذواه ولما أقبل أبوبكر وتلا الآية (وما محمد إلا رسول...) سكت عمر .

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر وتقدّم ابن الخطّاب، فتكلّم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت ثمة وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله، ولكنّي قد كنت أرى أنّ رسول الله سيديّ أمرنا ويبقى ليكون آخرنا. وإنّ الله قد أبقي فيكم كتابه الذي به هدىّ رسوله. فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له. وإنّ الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار؛ فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة^(١٢٢٢)(١٢٢٣).

وكانت الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة وحنان رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين أهله يغسلونه وأخرجوا سعد بن عبادَةَ — وكان مريضاً — فذكر سابقَةَ الأنصار وقال: أتستبدون بهذا الأمر؟ فأجابوا: قد وفقت في الرأي ولن نعدو مادامت، نوليّك هذا الأمر فسمع بذلك أبو بكر وعمر فأسرعَا مع جماعتهما إلى السقيفة، وذكر أبو بكر سابقَةَ المهاجرين وقال: هم أولياؤه وعشيرته وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ولا يَنازعهم ذلك إلّا ظالم. فقال الحباب بن المنذر: يا معشر الأنصار املِكوا عليكم أمركم فإنّ الناس في فينكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم فإنّ أبي هؤلاء إلّا ما سمعتم، فمَنّا أمير ومنكم أمير. فقال عمر: هيهات لا يجتمع إثنا في قرن... لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيّها من غيركم. وهدد أحدهما الآخر بالقتل فقالت الأنصار: لا نبايع إلّا عليّاً. فتخوَّف عمر من الاختلاف وقال لأبي بكر: ابسط يدك أبايعك، وسبقه بشير بن سعد وبايع فناده الحباب بن المنذر: عَققت عقاق، أنفست على ابن عمّك الإمارة؟! وبايع عمر وأبو عبيدة وقالت الأوس: لنن وليّتها الخزرج مرّة لا زالت لهم الفضيلة عليكم وما جعلوا لكم نصيباً، فبايعوا أبا بكر، فانكسر على سعد بن عبادَةَ والخزرج وكادوا يطأون سعد بن عبادَةَ فقال أصحابه: اتَّقوا سعداً لا تطأوه فقال عمر: اقتلوه قتله الله. ثمّ قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أهلك حتّى تنذر عضوك فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصت من شعره ما رجعت وفي فيك واضحة، فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر، الرفق هاهنا أبلغ. فاعرض عنه عمر فحُمل سعد إلى بيته. وأخرج أبو بكر من السقيفة وجاءت قبيلة أسلم فبايعت فانتصر بهم أبو بكر، وأقبلت الجماعة تزفّه إلى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فصعد المنبر وشغلوا عن دفن رسول الله حتّى كان يوم الثلاثاء، فجاؤوا إلى المسجد ثانية فجلس أبو بكر على منبر رسول الله ووقف عمر وقال: قوله بالأمس لم يكن من كتاب الله ولا عهد من رسول ولكنّه كان يرى أنّ الرّسول (صلى الله عليه وآله) سيديّ أمرهم ويكون آخرهم وأنّ الله أبقي فيهم القرآن يهتدون به وقد جمع أمركم على صاحب رسول الله قوموا فبايعوه، فبايعه الناس عندئذ بعد بيعة السقيفة ثمّ خطب أبو بكر فقال: قد وليت عليكم ولست بخيركم فإنّ أحسنّت فأعنيوني... شغلوا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقية الإثنين وليلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء وصلى المسلمون على رسول الله زمراً زمراً وعلّى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين جثمانه وأهله فولّوا أجنانه ولم يشهد أبو بكر وعمر غسل الرّسول (صلى الله عليه وآله) وتلقينه ودفنه. قالت عائشة: ما علمنا بدفن الرّسول حتّى سمعنا صوت المساحي في خوف الليل وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار وبنو هاشم ومالوا مع عليّ بن أبي طالب فذهبوا إلى العباس ليستميلوه فجابههم بالردّ وتحصّن في دار فاطمة وقال له: إن أبوا فقاتلهم. فأقبل بقبس نار على أن يضرهم عليهم الدار فلقيتهم فاطمة فقالت: يا ابن الخطّاب أجنحت لتحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلون فيما دخلت فيه الأمّة. وإليه أشار أبو بكر في مرض موته حين قال: (أما إني لا آسى على شيء في الدنيا إلّا على ثلاث فعلتھنّ ووددت أنّي لم أفعلھنّ... فوددت أنّي لم أكشف عن بيت فاطمة ولو أغلق على حرب...) ثمّ إن عليّاً حمل فاطمة ليلاً إلى بيوت الأنصار يسألهم النصرة وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يابنت رسول الله مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو كان ابن عمّك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به، فيقول عليّ: أفكنت أترك رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بيته لم أجهّزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه؟ وتقول فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له ولقد صنعوا ما الله حسبهم.

راجع تفصيل أخبار السقيفة، في السيرة النبويّة لابن هشام: ٣٣٤/٤، تاريخ الطبري حوادث سنة (٢١١ / ٤٤٣) وأنساب الأشراف: ٥٦٣/١، طبقات ابن سعد: ٢ ق ٥٣/٢، وتاريخ أبي الفداء: ١٦٤/١، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ٢١/٢، وكتر العمّال: ٥٣/٤، وتاريخ ابن كثير: ٢٤٣/٥، وسنن ابن ماجه ح ٦٢٧.

(١٢٢٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٦٠/٢.

(١٢٢٣) وهذه الخطبة تبيّن نهج الدولة علانية في رفض النقل الثاني الذي أوصى به رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والاعتماد على ثقل واحد ألا وهو القرآن وهو نفس كلام عمر لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في رزية يوم الخميس، حيث قال: (حسبنا كتاب الله) ردّاً على قول

الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) في ذلك اليوم: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنيهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة. (صحيح مسلم: ٢٢/٥ — ٢٦ ح ٨، ٢٤، مسند أحمد: ٤٩٢/٥ ح ١٨٧٨٠، كثر العمّال: ١٧٨/١ ح ٨٩٨).

فموقف الدولة هذا يعني نقضاً لقول الرسول (صلى الله عليه وآله) في الثقلين في خطبة حجة الوداع وخطبة بيعة الغدير ووصية يوم الخميس. وأراد عمر من توضيحه منهج الدولة الخطير الوقوف أمام الحوادث المتوقعة، وعلى رأسها مطالبة الإمام عليّ (عليه السلام) بالخلافة أولاً. وثانياً: إقناع الناس بقبول هذه النظرية الجديدة وحيدة الجانب. وردّ الملتزمين بنصّ الرسول (صلى الله عليه وآله) في بيعة يوم الغدير القائمة على الثقلين، مثلما قال الأنصار إستناداً إليها: لا نبايع إلاّ عليّاً (عليه السلام) ومثلما استند إليها بنوهاشم وباقي المهاجرين في تأييدهم لعليّ (عليه السلام) والإلتفاف حوله.

وعملية سلب السلطة من الإمام عليّ (عليه السلام) من قبل أبي بكر تعني نفس:

١ — النظرية السياسية: فسلب السلطة من أهل البيت (عليهم السلام) بتولية أبي بكر ثمّ عمر ثمّ ابن الجراح، تعني إبعاد أهل البيت (عليهم السلام) عن الخلافة.

وذهبوا في النظرية إلى درجة منع بني هاشم من تولّي وظائف الدولة، كولاة ومسؤولين.

٢ — النظرية الاقتصادية: وتعني سلب أي قدرة اقتصادية لبني هاشم تمكّنهم من النهوض لتطبيق نظرية الثقلين، لذلك سلبوا فداً من فاطمة الزهراء بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» المخالف للقرآن الذي مرّ الحديث حوله في الفصل (الحادي والعشرون) الصفحة (٥٤٧) — (٥٥٠) هامش رقم (٣).

ولم ينفع فاطمة شهادة الإمام عليّ (عليه السلام) وأُمّ أيمن وأُمّ سلمة لها، وكانت فاطمة (عليها السلام) صاحبة اليد على البستان من مدة طويلة، والشرع يقول: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» فجعلوها هي المدّعية! طالبين منها الدليل ليهربوا هم من إيضاح البينة لفقدانهم لها!

ويجب على أي حاكم مسلم البتّ لصالحها، وحتىّ القوانين الوضعية في العالم الآن تحكم لها (عليها السلام)، وفعلاً حكم لها عمر بن عبدالعزيز فأعاد لأبنائها حقّها وحكم لها المأمون العباسي.

٣ — النظرية التشريعية: وهي المتمثلة في قول الرسول لعليّ (عليه السلام): أنا مدينة العلم وعليّ بإجماع، وأفضاكم عليّ (عليه السلام) وأفقهكم عليّ (عليه السلام)، وعليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة. (المستدرک، الحاكم: ١٢٤/٣، ١٢٦، تهذيب التهذيب: ٣٢٠/٦، ٤٢٧/٧، مجمع الزوائد: ١٣٤/٩، تاريخ الخلفاء، السيوطي: ١٦٢).

فالإمام عليّ (عليه السلام) مفسّر القرآن والعالم بالأحكام الشرعية، ولكنّ هؤلاء تجاوزوه واجتهدوا في الدين بأرائهم بعيداً عن النصوص مثل: منع عمر متعة الحجّ ومتعة النساء، قائلاً: متعتان كانتا على عهد رسول الله، أنا أمنعهما وأعاقب عليهما.

في حين قال القرآن الكريم: (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) (البقرة (٢): ١٩٦). وقال: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً) (النساء (٤): ٢٤). فاحتجّ الفخر الرازي على تحريم عمر للمتعة، وسألوا عبدالله بن عمر عن متعة الحجّ، فقال: هي حلال، فقال له سائل: إنّ أباك قد نهى عنها فقال: رأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر أبي نتبع أم أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: لقد صنعها رسول الله (صلى الله عليه وآله) (صحيح الترمذي: ١٥٧/١).

وفرض صلاة التراويح وجعل تكبيرات صلاة الجنائز أربعاً بدل خمس، وجعل الطلاق بالثلاث في جلسة واحدة كالثلاث طلاقات، وأسقط حيّ على خير العمل من الأذان والإقامة.

٤ — النظرية القضائية: كان عمر هو قاضي المسلمين في زمن أبي بكر، وعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) نزيل داره لا عمل عنده ولا مقام رسمي.

وطبقاً لأطروحة النظام الجديد أُحرق الحديث النبويّ ومُنِع من تدوينه مدة مئة سنة تقريباً.

وطبقاً لهذه النظرية مكث الإمام (عليه السلام) في بيته مدة أربعة وعشرين عاماً، وهو رفيق القرآن وأقضى المسلمين وأعلمهم وأشجعهم وأزهدهم وأفقههم وأفضلهم نسباً، وسابقة وشرفاً وتربيةً.

وغسله الإمام عليّ (عليه السلام) كما أوصى بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله)، تعاونوا الملائكة ودفنه عليّ (عليه السلام) وعاونوه العباس والفضل وأوس الخولي الأنصاري.

وصلّوا على الرسول (صلى الله عليه وآله) بلا إمام لقول عليّ (عليه السلام): إنّ رسول الله إمامنا حيّاً وميتاً، فدخل عليه فوج بعد فوج يصلّون عليه بغير إمام وينصرفون.

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة فألقى في الناس هذا الخطاب الذي يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب. قال بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه: «أما بعد أيّها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي، حتّى أريح عليه حقّه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتّى آخذ الحقّ منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلّا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» (١٢٢٤).

وبينما المسلمون يختلفون ثمّ يتفقون على بيعة أبي بكر بيعة السقيفة، ثمّ بيعة العامة، كان جثمان النبيّ حيث كان على سرير موته يُحيط به الأقربون من أهله. فلمّا تمت البيعة لأبي بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كي يدفنه (١٢٢٥)، وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن؟ قال جماعة من المهاجرين: يُدفن في مكّة مسقط رأسه وبين أهله. وقال غيرهم: بل يدفن في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله. وما أدري كيف قال أصحاب هذا الرأي وبيت المقدس كان ما يزال بأيدي الروم، وكان بين الروم والمسلمين من العداوة منذ مؤتة ما جهّز رسول الله جيش أسامة للثأر له. ولم يرض المسلمون هذا الرأي ولاهم رضوا أن يدفن النبيّ بمكّة، ورأوا أن يدفن بالمدينة التي آوته ونصرته والتي استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام. وتحدثوا أين يدفن؟ قال فريق منهم: يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلّي بهم؛ ورأى هؤلاء أن يدفن حيث المنبر أو إلى جانبه. لكنّ هذا الرأي لم يلبث أن رُفض لما رُوي عن عائشة أن النبيّ كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه فكان يضعه مرة على وجهه ويكشفه مرّة عنه وهو يقول: قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (١٢٢٦) ! ثمّ قضى أبو بكر بين الناس إذ قال: إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: ما قبض نبيّ إلّا دفن حيث يُقبض. وبذلك تقرر أن يحفر له مكان الفراش الذي قبض فوقه (١٢٢٧).

وتولّى أهله الأقربون وفي مقدمتهم عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبدالمطلب وولده الفضل وفتحهم وأسامه بن زيد غسل النبيّ. وكان أسامة بن زيد وشقران مولى النبيّ هما اللذان يصبّان الماء عليه وعليّ يُغسله وعليه قميصه؛ فقد أبوا أن يرفعوا عنه القميص. وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيباً حتّى كان عليّ يقول: «بأي أنت وأمي! ما أطيبك حيّاً وميتاً!» ويذهب بعض

(١٢٢٤) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٦١/٢ .

(١٢٢٥) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٦٢/٢ .

(١٢٢٦) انظر فقه الحديث وما يورد عليه في كتاب «الوهابية دعاوى وردود»: ١٥٦ — ١٦٠ .

(١٢٢٧) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٦٣/٢ . بل قضى بذلك عليّ (عليه السلام) .

المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الزكية ترجع إلى ما اعتاد النبيّ طوال حياته من التطيّب حتّى كان يرى الطيب بعض ما حُبّب إليه من هذه الحياة الدنيا . فلمّا فرغوا من غسله وعليه قميصه كُفّن في ثلاثة أثواب ثوبين صُحاريين وبُرد حبرة أدرج فيه إدراجاً . ولما تمّ الجهاز على هذا النحو تُرك الجثمان حيث كان وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون يُلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلّون على النبيّ ثمّ يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم إلى قرار سحيق.

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصلّيان مع المسلمين لا يؤمّهم في صلاتهم هذه أحد. فلمّا استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. نشهد أن نبيّ الله ورسوله قد بلغ رسالة ربّه وجاهد في سبيله حتّى أتمّ الله النصر لدينه. وآنه وفي بوعده، وأمر ألاّ نعبد إلّا الله وحده لا شريك له. وكان المسلمون يجيبون عن كلّ جملة من كلام أبي بكر في هيبة وخشوع: آمين آمين. فلمّا فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أُدخل النساء ثمّ أُدخل الصبيان من بعدهم. وهؤلاء وأولئك جميعاً كلّ واجفّ قلبه محزون فؤاده يفري الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين، وتساوره على دين الله أشدّ الحشية من بعده^(١٢٢٨).

وإني لأستعيد الساعة بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة من ذلك اليوم صورة هذا المشهد الرهيب المهبوط فتمتلى نفسي هيبة وخشوعاً ورهبة. هذا الجثمان المسجّى في ناحية من الحجرة التي ستصبح غداً قبراً والتي كانت إلى أمس بساكنها حياة ورحمة ونوراً، هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذي دعا الناس إلى الهدى والحق، وكان لهم المثل الأعلى في البرّ والرحمة والاقدام والهدى وإنصاف المظلوم والانتصاف من كلّ معتد أثيم، وهذه الجموع تمرّ به كاسفة البال كسيرة الطّرف، وكلّ رجل وكلّ امرأة وكلّ صبي يذكر في هذا الرجل الذي اختار جوار ربّه أباه وأخاه وصاحبه ووفّيه ونبيّ الله ورسوله. أية قداسة كانت تمتلى بها تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقاً لما يخبئ الغد بعد موت الرّسول. استعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب فأراني شاخصاً له مأخوذاً به ممتلى القلب من جلال هيئته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً.

وكان من حقّ المسلمين أن تساورهم الحشية. فمنذ ذاع خبر موت النبيّ في المدينة وترامى إلى قبائل العرب الحبيطة بما اشرّأت اليهودية والنصرانية ونجم التّفاف وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب، وهمّ أهل مكّة بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك،

(١٢٢٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٦٢/٢ — ٦٦٤، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٧٧ و ٢٨٤ — ٢٨٥ و ٤٩٢، وتاريخ الطبري:

حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل النبي على أم القرى فتواري منهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو بينهم فقال بعد أن ذكر وفاة النبي: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، ثم قال: بأهل مكة كنتم آخر ما أسلم فلا تكونوا أول من ارتد، والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لما رجعوا عن ردّهم. (١٢٢٩)

وقد كان للعرب في حفر قبورهم طريقتان: إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مُسطح القاع؛ والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوساً. وكان أبو عبيدة بن الجراح يَضْرَح كحفر أهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة. وحر أهل النبي أي الطريقتين يسلكون في حفر قبره. فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة. فأما المبعوث إلى أبي عبيدة فلم يعد به (١٢٣٠) وجاء المبعوث إلى أبي طلحة به فلحد لرسول الله على طريقة أهل المدينة (١٢٣١). فلما كان المساء وبعد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعوه الوداع الأخير اعتزم أهل النبي دفنه، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبي يلبسه، ثم أنزله الذين تولّوا غسله إلى المقرّ الأخير لرُفاته وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل (١٢٣٢)، وقالت فاطمة مثل هذا القول. وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول (١٢٣٣)، أي بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى (١٢٣٤).

وظلّت عائشة من بعد ذلك تعيش بمزلها في الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم. ولما مات أبو بكر دفن إلى جوار النبي، كما دفن عمر إلى جواره من بعد (١٢٣٥). ويُروى أن

(١٢٢٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٦٦٥ — ٦٦٦.

(١٢٣٠) ذلك لأنه كان مشغولاً بتوطيد بيعة الخليفة!

(١٢٣١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٦٦٣.

(١٢٣٢) ما قاله الأستاذ تؤيّد المصادر التاريخية فإنّ عائشة — وهي الزوجة الأثيرة عند الرسول (صلى الله عليه وآله) بحسب زعمها — ما كانت تعلم بدفن رسول الله حتى سمعت صوت المساحي من جوف الليل، ليلة الأربعاء وأن أبا بكر وعمر — خليليه ووزيريه حسب زعم المؤلف — لم يشهدا دفن النبي أيضاً. كثر العمال: ٣/١٤٠، والعقد الفريد: ٣/٦١، وتاريخ الذهبي: ١/٣٢١. وتاريخ الطبري: ٢/٤٥٢. وهذا نلزم الأستاذ بأقواله من أن عائشة هي أعرف الناس بتفصيلات حياة النبي (صلى الله عليه وآله)، ولكن هذه المرّة نراها لا تعلم بدفن زوجها فكيف التوفيق؟!

(١٢٣٣) تذكر مصادر مدرسة أهل البيت أن وفاة النبي كان في (٢٨) صفر وليس في الثاني عشر من ربيع الأول.

(١٢٣٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٦٦٤.

(١٢٣٥) بأيّ مجوّز شرعي؟! بينما لم تسمح عائشة لسبط الرسول الأكبر ووريثه الحسن بن عليّ المحتج بأن يدفن عند جدّه لأن الزهراء فاطمة هي الوريث الوحيد لرسول الله (صلى الله عليه وآله) عند وفاته فأبناؤها ورثة رسول الله من بعدها بلا ريب، فإن لم يكن هو وارثاً لجدّه فكيف يجوز لعائشة أن تدّعي ذلك لنفسها فتسمح لجثمان أبيها ولجثمان عمر بأن يُدفنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله)! وهل هي من أولي الأمر وأصحاب القرار أم أنّها مالكة لما لم يملكها الرسول من أرض داره التي كان يسكنها. تلك إذن قسمة ضيزى! وإنا لله وإنا إليه راجعون ممّا جرى على أهل بيت نبيّه من قبل هؤلاء الذين يزعمون أنهم يعملون بكتاب الله ويترون سنّة سول الله!

عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها إلى يومئذ غير أبيها وزوجها. فلما دُفن عمر كانت لا تدخل إلا محتجة لابسة كامل ثيابها^(١٢٣٦).

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به^(١٢٣٧). وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبي. وانضم عمر إلى المعترضين ورأى ألا يشتت المسلمون وأن يحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر قد يدعو إليهم. لكن أبابكر لم يتردد برهة في تنفيذ أمر الرسول، ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسن من أسامة وأكثر منه في الحرب دُرّة. وتجهّز الجيش عند الجرف وأسامه على رأسه، وخرج أبو بكر يودّعه. هنالك طلب إلى أسامة أن يعفي ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبي بكر^(١٢٣٨). ولم تمض عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذي قُتل بمؤتة أشد انتقام. وقد كانت صيحة الحرب في تلك الأيام المظفرة: «يا منصور أمت». وكذلك نفذ أبو بكر ونفذ أسامة أمر النبي وعاد بالجيش إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي قتل أبوه بمؤتة عليه، يتقدمه اللواء الذي عقده له رسول الله بيده^(١٢٣٩).

ولما قبض النبي طلبت فاطمة ابنته إلى أبي بكر أن يردّ عليها ما ترك من أرض بفدك وخير. لكنّ أبا بكر أجابها بقول أبيها: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة». ثمّ قال لها: فأما إن كان أبوك قد وهبك هذا المال فأني أقبل كلمتك في ذلك وأنفذ ما أمره به وأجابت فاطمة بأنّ أباهما لم يفض إليها بشيء من ذلك، إنّما أخبرها أمّ أيمن بأنّ ذلك كان قصده. عند ذلك أصرّ أبو بكر على استبقاء فدك وخير وردّها إلى بيت مال المسلمين^(١٢٤٠).

(١٢٣٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٩٤. وهل له من سند شرعي؟

(١٢٣٧) بل لم يكن ذلك كذلك وإنّما كان بعد لأي من الزمن لا يقل عن ثمانية عشر يوماً، فإنّه إنّما خرج لأوّل ربيع الثاني. كما في مغازي الواقدي: ١١٢٥/٢.

(١٢٣٨) وهو إنّ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أن عمر وأبا بكر كانا مأمورين بالحضور في جيش أسامة بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله). ولعلّ تخلفهما كان لمصلحة أهمّ من أمر الرسول بالالتحاق به. وقد كشفت الأحداث أنّ الأمر الأهمّ كان الأخذ بزمام أمر الأمة بالنحو الذي قرأت. فياله من اجتهاد وياله من تأوّل وتوجيه للتمرّد على أوامر الرسول (صلى الله عليه وآله). ولو كانا يأتمران بأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) لكان الفتح المؤرّر كما لاحظت ولما كانت الأمة تنشقّ شقينّ ولما اختلف المهاجرون والأنصار في نصرته لعلّي (عليه السلام) ولما كان شعار خوف الفتنة يوقعهم فيما وقعوا فيه من الفتن إلى يومنا هذا الذي تشهد فيه بعض المنضويين تحت شعار سنّة الرسول الأعظم بحاربون أتباع أهل البيت ويحرمون نصره حزب الله في جنون لبنان الأبي في معركته المصرية مع الإسرائيليين واليهود الغاصبين! فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

(١٢٣٩) تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٦. وكان بيد بريدة بن الحُصيب الأسلمي، الذي انضمّ إلى عليّ (عليه السلام) وأبى بيعة أبي بكر حتى اضطرّ عليّ (عليه السلام) إليها فتبعه بريدة. وكان ممن حضر جنازة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في جوف الليل.

(١٢٤٠) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٣١٤ — ٣١٧. بل لمعرفة الحقيقة راجع: فدك في التاريخ للشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره).

وكذلك خرج «محمد» من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئاً من عَرَضِها الزائل لأحد بعده، خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدِّينَ القِيَمَ، ومَهْدَ فيها لهذه الحضارة الإسلامية الكبرى التي تَفِيَّ العالم ظلالها من قبل وسيَتَفِيَّ ظلالها من بعد، وأَقَرَّ فيها التوحيد، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وقضى فيها على الوثنية في كلِّ صورها ومظاهرها القضاء المبرم، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البرِّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، وترك من بعده كتاب الله هدىً للناس ورحمة، وكان فيه المثل الأعلى والأسوة الحسنة. وكان من آخر ما ضربه للناس من الأمثلة أن قال للناس يوم كلمهم أثناء مرضه: «أيُّها الناس مَنْ كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد مني، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومَنْ أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحنةاء فهي ليست من شأني». وادَّعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها^(١٢٤١)، ثُمَّ ترك العالم بعد ذلك مخلفاً هذا الميراث الروحي العظيم

إنَّ هذا الحدث التاريخي المهم يطويه الأستاذ بعجالة غريبة ومغرية حيث يَصوِّر لنا بهذه السذاجة أنَّ الزهراء فاطمة مهجة قلب المصطفى وابنة أعظم نبيٍّ وأُمِّ السبطين المعصومين تحتج بما ليس لها فيه من حقٍّ وأنَّ أُمَّ أَمَّنْ هي التي غَرَّرت بها، وأنَّ الحقَّ لأبي بكرٍ حيث قرَّر سلب حقِّها اعتماداً على ما نسبته أبو بكرٍ وحده إلى الرسول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وهذا الحديث لم يسمعه ولم يروه إلاَّ أبو بكر وحده وينتهي إلى اعتراف الزهراء بأنَّ النبيَّ لم يفض إليها بشيء ولكن كيف يفسر الأستاذ ما نقله البخاري في صحيحه: فغضبت فاطمة بنت رسول الله فهجرت أبابكر فلم تزل مهاجرة حتَّى توفيت بسبب غضبه لعدوك. صحيح البخاري: ٤٣/٤ دار الفكر — بيروت.

وكيف يوجِّه المؤلف احتجاج فاطمة على أبي بكرٍ في المسألة نفسها. انظر أسد الغابة: ٩٦/٣، ومسند أحمد: ٤/١ ح ١٤، وسنن أبي داود: ٥٠/٣، وتاريخ ابن كثير: ٢٨٩/٥، وشرح النهج: ٨١/٤، وتاريخ الذهبي: ٣٤٦/١، وسنن الترمذي: ١٠٩/٧ باب ما جاء في تركه رسول الله، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٧٢/٥.

ولما عمد أبو بكر إلى منع فاطمة بنت رسول الله فذكاً إرثها من أبيها دخلت على أبي بكر في مسجد رسول الله وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فخطبت أبلغ خطبة وقد جاء في خطبتها:

«... وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا؟ أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟! أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلَّى لكم كالشمس الضاحية آتِي ابنه.

أيُّها المسلمون! أُلْغِبَ على إرثه؟ يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً [على الله ورسوله]! أفعلِّي عمد تركتم كتاب الله ونذوقوه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: (وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا (عليه السلام) إذ قال: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) يَرْتِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) وقال: (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) وقال: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى) وقال: (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا لَوْصِيَّةً لِلَّذِينَ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفحكم الله بآية من القرآن أخرج أبي محمد منها؟ أم هل تقولون: إنا أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملَّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونهاكم محظومة مرحولة تلقاك يوم حشرِك فنعِمَ الحكمُ الله والزعيمُ محمد والموعِدُ القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم ما قلتم إذ تندمون ولكلَّ نبيٍّ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُجزّيه ويحلَّ عليه عذاب مقيم. انظر بلاغات النساء: ٢٣ — ٣٣ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، والشافي في الإمامة: ٦٩/٤ — ٧٧، وأمالِي الطوسي: ٣٨٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢١١/١٦.

الذي ما يزال ينتشر في العالم حتّى يتمّ الله كلمته وينصر دينه على الدين كلّه ولو كره الكافرون
«صلى الله عليه وسلم» (١٢٤٢).

* * *

(١٢٤٢) مرّ بيان كيفية الصلاة على محمّد وآله كما يريدّها الرسول (صلى الله عليه وآله) لا كما يُملّيه المقصّرون في حقّ محمّد وآل محمّد من الصلاة البتراء التي هي عنها سيّد المرسلين (صلى الله عليه وآله). . فراجع.

خاتمة الكتاب

أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما قصدت إليه من تأليف هذا الكتاب، وأن يكون قد تمّ كما أردت بحثاً علمياً توخّيت فيه الحقيقة العلمية وحدها، وأن أكون قد مهّدت به السبيل إلى مباحث في موضوعه أكثر استفاضة وعمقاً، تجلّو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تلتمسها. فهذا الكتاب ليس إلاّ بداية البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل. وما أشك في أنّ التعمق فيه يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تعليلها تعليلاً علمياً، ثمّ إذا مباحث علم النفس تفسّرها وتجلّوها واضحة للمتعلّقين. فحياة «محمد» حياة إنسانية بحثة بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ. ولقد كان (صلى الله عليه وآله) حريصاً على أن يقدر المسلمون أنّه بشر مثلهم يوحي إليه، حتّى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن، وبصراح أصحابه بذلك»^(١٢٤٣). لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثمّ أمطرتهم السماء، ذهب بعضهم إليه يقول إنّها معجزة فكان جوابه: «إنّما هي سحابة مارة»^(١٢٤٤). ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره قال الناس: إنّ هذا الكسوف معجزة، فكان جوابه: «إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت إنسان ولا لحياته»^(١٢٤٥). ذلك بأنّه يريد ألاّ يعبد أحد إلاّ الله،

(١٢٤٣) لا يوجد أي مستند لهذا الكلام، وأنّ معاجز النبي (صلى الله عليه وآله) من غير القرآن كانت قد شاعت بين الناس، قال القاضي عياض المالكي... وهو — أي النبي (صلى الله عليه وآله) — أكثر الرسل معجزة وأهمهم آية وأظهرهم برهاناً وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط. الشفاء: ٢١٢/١ .

وقال القاري في شرح الشفاء... قيل ظهر على يد نبيّنا (صلى الله عليه وآله) ألف معجزة وقيل ثلاثة آلاف. شرح الشفاء: ٥٢١/١ . وقال الحافظ السروي: كان للنبي (صلى الله عليه وآله) من المعجزات ما لم يكن لغيره من الأنبياء، وذكر أنّ له أربعة آلاف وأربعمئة وأربعين معجزة. المناقب: ١٥٢/١ .

وجمع المجلسي في كتابه بحار الأنوار: ٣٠١/١٧ معجزات الرسول (صلى الله عليه وآله) وصنّفها في إثني عشر باباً وأحد الأبواب هو القرآن الكريم، فكيف سوّغ الأستاذ لنفسه أن يحصر معجزات الرسول (صلى الله عليه وآله) بالقرآن؟!

(١٢٤٤) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢ / ٥٢٢. بل ليس ذلك كلامه (صلى الله عليه وآله) وإنّما هو كلام منافق!

(١٢٤٥) السيرة الحلبية: ٣٠٩/٣ — ٣١٠. ولكنّ هذا لا يدل على نفي أيّ اعجاز سوى القرآن الكريم!

وأن يقف المسلمون من أمر الرسول عند محبته وإجلاله والصلاة والسلام عليه. وذلك ما دعا أبا بكر حين خطب الناس إثر وفاة النبي، والناس مختلفون أमत أم لم يمت^(١٢٤٦)، إلى أن يقول: (من كان يعبد «محمدًا»، فإن «محمدًا» قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)^(١٢٤٧).

وهذا الذي جرى عليه النبي وقال به أبو بكر يوم وفاته هو ما حال بين كثير من علماء المسلمين وكتّابهم والوقوف عند ما أُضيف إلى سيرة النبي من خوارق وضعها بعض الغلاة، مضاهاة لما ورد في القرآن عن عيسى وموسى، أو دسّها من دسوا الاسرائيليات على الإسلام ونبيّه ليزيّفوا بها العقائد وليبعثوا بها الشك إلى نفوس من يؤمنون بأنّ سنّة الله لن تجد لها تبديلاً. وما كان «محمد» بحاجة إلى الخوارق لإثبات رسالته وقد كانت حياته قبل الرسالة مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة، وكانت حياته بعد الرسالة كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به. تضحية استهدفت فيها حياته للموت مرات، بعد أن أغراه قومه بالمال وبالمملك وبكل المغريات. وما كان «محمد» بحاجة إلى الخوارق لإثبات رسالته، ولا كان بحاجة إلى أكثر مما قال لعمّه أبي طالب، حين مشى إليه قريش لينهى ابن أخيه عنها. فلما حدّث الشيخ محمدًا في ذلك كانت الكلمة التي وجهت التاريخ وجهته قوله: «يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(١٢٤٨). ثمّ احتماله بعد ذلك ما احتمال حتّى أظهر الله هذا الأمر.

(١٢٤٦) هذا الكلام الذي اعتمده هيكل وسوّغ له أن ينفي من خلاله المعجزات الأخرى للرسول (صلى الله عليه وآله) من غير القرآن ينافي الوقائع التاريخية، ولو أنّ الأستاذ راجع مصادره لوجد أن هذا الكلام لم يكن لرسول الله وإنّما كان لشخص منافق أراد أن يشكّك بمعجزات الرسول (صلى الله عليه وآله) والتي منها سقوط المطر فلفظ: «إنّما هي سحابة مارة» ليس لرسول الله وإنّما لأحد المنافقين. ولكنّ الذي دفع بهيكل أن يستفيده كدليل لنفي معجزات أخرى إنّما هو لانسجام هذا القول مع منهجه. راجع السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٢٢/٢.

(١٢٤٧) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٥٦ / ٢.

توفي الرسول وأبو بكر غائب بالسنح فأخذ عمر يقول: ما مات رسول الله ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى وغاب عن قومه أربعين ليلة والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال يزعمون أنّه مات. وقال: من قال أنّه مات علوت رأسه بسيفي، فتلوا عليه الآية: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) آل عمران: ١٤٤.

وقال له العباس: إنّ رسول الله قد مات، هل عند أحدكم عهد من رسول الله في وفاته؟ فليحدّثنا.

ولم ينته عمر من كلامه وتهديده حتّى أزيّد شدقه، ولما أقبل أبو بكر وتلا الآية (وَمَا مُحَمَّدٌ...) سكّت عمر.

وموقف عمر بخالف الثوابت في الرسالة ويفتقد الدليل الشرعي. من أين عرف عمر أنّ رسول الله قد ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى؟ ولماذا يقسم بالله أنّه يرجع كما رجّع موسى؟ ثمّ ما ذنب هؤلاء الذين سيقطع أيديهم رسول الله أسرقوا شيئاً أم أنّهم نقلوا خبر موت رسول الله كما شاهدوا؟ وبأي حقّ يقتل عمر هؤلاء؟ ولماذا لا يرد على قول العباس عمّ النبي؟ ثمّ ألم يقرأ قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...) وإذا كان غافلاً عن ذلك فلماذا لم يسمعها منهم ويسمعها من أبي بكر؟ أليس هذا أسلوب متعمّد من أجل تفويت الفرصة على الناس لينشغلوا بهذا اللغظ إلى حين يجيء أبي بكر من السنح والتنسيق لتدبير أمر الخلافة في السقيفة.

(١٢٤٨) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢٦٦ / ١.

وقد بلغت هذه الحياة الإنسانية من السموّ ومن القوة ما لم تبلغه حياة غيرها. وبلغت هذا السمو في نواحي الحياة جميعاً. وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون كلّ من أزلّه إلى أبده، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة. ولولا هذا الاتصال ولولا صدق «محمد» في رسالة ربّه، لرأينا الحياة على كرّ الدهور تنفيّ كما قال شيئاً. لكنّ ألفاً وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ «محمد» عن ربّه آية الحقّ والهدى. وبحسبنا على ذلك مثلاً واحداً نضربه؛ ذلك ما أوحى الله إلى «محمد» أنّه خاتم الأنبياء والمرسلين. انقضت أربعة عشر قرناً لم يقل أحد خلالها أنّه نبيّ أو إنه رسول ربّ العالمين فصدّقه الناس. قام في العالم أثناء هذه القرون رجال تسنّموا ذروة العظمة في غير ناحية من نواحي الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوة أو الرسالة. ومن قبل «محمد» كانت النبوات تترى والرسل يتتابعون، ينذر كلّ قومه أنّهم ضلّوا ويردّهم إلى الدين الحقّ ولا يقول أحدهم أنّه أرسل للناس كافة^(١٢٤٩) أو أنّه خاتم الأنبياء والمرسلين. أما «محمد» فيقولها فتصدّق القرون كلامه. (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

ولقد جاء «محمد» للناس بدين الحقّ. ووضع لهم أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادتهم. ليس هذا الأساس اقتصادياً كأساس الحضارة الغربية الحاكمة اليوم. إنّما هو أساس روحي يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كلّ شيء. فإذا بلغ من هذا الإدراك حدّ الإيمان دعاه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده، وتغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية، مبادئ الإباء والأنفة والأخوة والحبّة والبرّ والعطف. وعلى أساس هذه المبادئ ينظم الإنسان الحياة الاقتصادية. هذا التدرج هو أساس الحضارة الإسلامية، كما جاء بها «محمد». فهي حضارة روحية أولاً. والنظام الروحي فيها هو أساس النظام التهذيبي، أو النظام الخلقي إن شئت. والمبادئ الخلقية هي أساس النظام الاقتصادي، أو النظام المادي، فلا يجوز أن يُضحّى بشيء من هذه المبادئ في التنظيم الاقتصادي. وأنت ترى أنّ هذا التدرج يجعل أساس الحضارة الإسلامية يختلف عن أساس هذه الحضارة التي تحكم العالم اليوم وتتحكم فيه، أعظم الاختلاف؛ بل هو على النقيض منه تماماً.

فالنظام الاقتصادي، أو المادي هو الأساس الأوّل للحضارة الغربية. ومن ثمّ نشأت في الغرب مذاهب تريد أن تجعل كلّ شيء في الحياة خاضعاً لحياة العالم الاقتصادية، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الإنسانية بوحي ما كان من مدّ أو جزر اقتصادي في أممها المختلفة. وقواعد الخلق أقيمت وتقام في كثير من مذاهب الفلسفة الغربية على القواعد النفعية المادية البحتة. أمّا

(١٢٤٩) عالمية الإسلام لا تنفي عالمية الرسل أوّلي العزم قبل الإسلام لأنّهم أرسلوا للناس كافة ولكنّ بحدود زمانهم.

المسألة الروحية في نظر أهل هذه الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة، فلا محل لأن يعنى الناس كجماعة أنفسهم بها. وفي اعتقادي أنّ هذا التصوير للحياة هو الذي جرّ على الإنسانية ما تعاني في العصور الأخيرة من محن. وهو الذي يجعل كلّ تفكير في منع الحرب وفي توطيد أركان السلام في العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة. فما دامت صلتى بك أساسها الرغبة الذي آكل أنا أو تأكل أنت، وقائمة بذلك على أساس القوة الحيوانية في كلّ منّا، فسيظلّ كلّ منّا يرقب الفرصة التي يحسن فيها الاحتيال للحصول على رغبة صاحبه، وسيظلّ كلّ منّا ينظر للآخر على أنّه خصمه لا على أنّه أخوه، وسيظلّ الأساس الخلقي الكمين في النفس، يختفي حتى تدفع الحاجة لظهوره، أساساً حيوانياً بحثاً، تحركه المنفعة وحدها وتترلق عليه المعاني الإنسانية السامية والمبادئ الخلقية الكريمة. مبادئ الإيثار والحبّة والأخوة، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق به.

وفي يقيني أنّ التصوير الإسلامي للحضارة هو التصوير الجدير بالإنسانية الكفيل بسعادتها. ولو أنّه استقرّ في النفوس وحكم الحياة حكم الحضارة الغربية اليوم إيّاهما لتبدلت الإنسانية غير الإنسانية، ولاهتارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بها، ولقامت مبادئ تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها. فالإيمان أولاً، والإيمان قبل كلّ شيء، هو ما يجب أن يلتزمه الإنسان ويستريح إليه، والإيمان شيء، والإسلام شيء آخر. قال تعالى في آخر سورة الحجرات: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١٢٥٠). وقال تعالى: (يَمُتُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُتُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(١٢٥١). والإيمان شعور روحي يحسّ به الإنسان يملأ نفسه كلّما اتّصل بالكون وفنى في لا نهاية المكان والزمن وامتلأ الكائنات كلّها في نفسه، وهو مع ذلك كلّ ذرة من هذه العوالم تجري كلّها على سنن تمسكها وتسبح كلّها بحمد الله بارئها وخالقها، أهو جل شأنه ماثل فيها متصل بها، أم هو مستقل بنفسه منفصل عنها؟ هذه مضاربات جدلية عقيمة تضلّ ولا تهدي وتضر ولا تنفع. وهي بعد لا تزيدنا علماً: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)^(١٢٥٢). وإذا كنّا حتى اليوم لا ندرك ما الكهرباء وإن رأينا بأعيننا آثارها، ولا نعرف ما الأثير وإن عرفنا كيف ينقل على موجاته الصوت والصورة، وكانت تكفيننا هذه الآثار لنؤمن بالكهرباء وبالأثير.

(١٢٥٠) الحجرات (٤٩): ١٤ .

(١٢٥١) الحجرات (٤٩): ١٧ .

(١٢٥٢) الإسراء (١٧): ٨٥ .

فما أشدّنا غروراً ونحن نشهد كلّ يوم من بديع صنع الله إذا نحن لم نؤمن به حتّى نعرف كنهه. تترّه جل شأنه عمّا يصفون. إنّ غاية ما نعرف أنّ الزمان والمكان وكلّ ما تصوّره لأنفسنا في الوجود أمور نسبية بالنسبة لنا. إنّ هي إلاّ أسماء سميّاها لنفيد من الحياة خير ما في الحياة. أمّا في الحقّ فإنّها وحدة برّها الله وذرائنا فيها لنسير في الأرض ولنطوّرّها وتطوّرنا بإذن الله أطواراً ثمّ تُردّ إلى عالم الغيب والشهادة يحكم الله فينا بحكمه إنّّه حكيم حميد.

يوم يؤمن الإنسان بهذا، وهذا هو الحقّ، ويجعله أساس حياته، فقد وجب عليه أن يلتمس سنّة الله في الكون ليجعلها سنته ونظامه. ولا سبيل إلى معرفة هذه السنّة إلاّ بادامة الاتصال بالكون والنظر فيه والتماس العون من الله للاهتداء إلى أسرارهِ. إليه تعالى يتّجه الإنسان بقلبه وروحه، إيّاه يعبد وإيّاه يستعين. وهذه هي الصلاة، وهذا هو الاتصال بالله شكراً لله على نعمته والتماساً للعون منه أن يهدينا إلى ما لم نهُتد إليه. فإذا أثقل جسمنا روحنا وطغت ماديتنا على إنسانيتنا، فقد وجب أن نكف جهد الطاقة عمّا يجعل الجسم يثقل الروح ويجعل المادة تطفئ على الإنسانية. وذلك هو الصوم. فإذا بلغ الإنسان من طريق هذه الرياضة الهداية إلى ما يهتدي إليه من سنن الكون وأسراره ازداد لإخوانه بني الإنسان حبّاً، وتحابّ بنو الإنسان جميعاً في الله وتعاونوا على البرّ والتقوى، ورحم قويّهم ضعيفهم، ونزل غنيّهم لفقرهم عن حظّ من ماله. وتلك هي الزكاة، والمزيد عليها هي الصدقة. وهي تزيد الناس محبة بعضهم لبعض وتدعوهم ليجتمعوا من أطراف الأرض ليزداد بعضهم لبعض في الله محبة. وخير مكان يجتمعون حوله إنّما هو بيت الله بمكّة. وهذا هو الحجّ. وهذه قواعد الإسلام وفرائضه على ما نزل به الوحي وما بيّنه «محمّد» عبدالله ورسوله.

النفس الراضية المطمئنة إلى هذا الإيمان لا تستريح دون الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه لتزداد اتصالاً بالله. وسبيلها في هذه المعرفة البحث والنظر في خلق الله ثمّ في الكون نظراً علمياً دعا القرآن إليه وجدّد المسلمون الأولون فيه، وهو الآن الطريقة العلمية الحديثة في الغرب. وكلّما ازداد المؤمن معرفة لهذه الأسرار أقام على أساس إيمانه ومعرفته مبادئ الخلق التي يحمل نفسه عليها في الحياة. وقد جاء في القرآن الكريم من هذه المبادئ أمثلها وأسمّاها كما كان مثل «محمّد» في حياته على ما رأيت غاية ما تطمح إليه النفس وترجو بلوغه. فإذا حلّت هذه المبادئ السامية من النفس محل الإيمان نظمت على أساسها سلوكها في الحياة وتجارها وأقامت على أساسها قواعد المعاملات الاقتصادية بين الناس.

لست أطمع في هذه الخاتمة أنّ أُصوّر الحضارة الإسلامية ونظامها، فهذا التصوير يحتاج إلى بحث مستفيض يستغرق كتاباً في حجم هذا الكتاب أو أكبر منه. وحسبي بياناً لذلك أن أشير إلى

أنَّ الرِّبَا، وهو أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة، قد حرَّمه الإسلام تحريماً قاطعاً، وأنَّ هذا التحريم للرِّبَا قاعدة أساسية للحضارة التي تكفل للعالم سعادته؛ وأنَّ أذكر أنَّ الاشتراكية الإسلامية اشتراكية لم تُبحث بعد^(١٢٥٣)، وهي في اقتناعي اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ومن نضال الطوائف. وإنَّما تقوم على أساس خلقي سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البرِّ والتقوى. وإنَّما قصدت من هذه اللمحة السريعة وهذه الإشارة الموجزة غاية الإيجاز إلى بيان ما في بحث حياة «محمَّد» وتعاليمه من نواحيها المختلفة من خير للإنسانية كلّها لا للمسلمين وحدهم؛ وأنَّ هذا الرجل الذي بعثه الله هداية الناس كافة ما تزال حياته وما تزال تعاليمه ولما يكشف البحث فيها عن غاية ما أراد الوحي منها. فإذا أنا دعوت، كما دعوت في تقديم هذا الكتاب، إلى التخصص في هذه الدراسة على الطريقة العلمية الصحيحة، الطريقة التي تريد الحقَّ لوجه الحقِّ وحده ولا ترضى استنباط الحيل ولا خداع الحق، فإنَّما أدعو إلى عمل واجب لخير الإنسانية كلّها إذا أريد توجيهها وجهة الكمال.

ولعلَّ الله يتيح لي حظَّ المشاطرة بنصيب في هذه البحوث، أو يُتيح لي القيام بدراسة بدائية في بعضها، كما قمت بهذه الدراسة البدائية في حياة «محمَّد»، وأنَّ يجعل لي من الغبطة والسعادة بدراساتي المقبلة ما أفاء عليَّ من سعادة وغبطة بالبحوث التي أدَّت إلى وضع هذا الكتاب. إنَّه سميع مجيب.

* * *

(١٢٥٣) الاشتراكية: مصطلح غربي لا علاقة له بالإسلام لا من حيث المنهج ولا من حيث النشأة فهو يرجع للفلسفة المادية. أمَّا الإسلام فله نظريته في العدالة والمساواة، بعيداً عن هذا الفهم الخاطئ الذي لا يميز بين المفاهيم الإسلامية عن غيرها.

شكر واعتذار

لما صح عزمي على طبع هذا الكتاب بعد أن راجعت موادّه وصححتها وأضفت إليها وحذفت منها، فكرت في أن أجعل منه حظاً للفقراء والمحتاجين شكراً لله على توفيقه إياي في وضعه وطبعه. وأردت أن أشرك في زكاة الشكر هذه رجلاً أقدر مجهوده وأعرف برّه بالفقراء وذوي الحاجات، ذلك الرجل هو زعيم مصر الاقتصادي العظيم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر وشركاته الأربعة عشر، فذهبت إليه وذكرت له ما صح عزمي عليه من طبع عشرة آلاف نسخة تكون الطبعة الأولى على أن أجعل ألفاً منها للجمعية الخيرية الإسلامية، وطلعت باشا من كبار أعضائها، وطلبت إليه أن أطبع الكتاب بمطبعة مصر. فلم يتردد الرجل في أن يبذل لي من مختلف صور العون غاية ما رجوت. فشكراً له على صنيع كان له فضل معاونتي أكبر المعاونة في الإسراع إلى إصدار الكتاب، وشكراً له على ما شاركني في هذه المعاونة القيّمة للجمعية الخيرية الإسلامية. جزاه الله عن صالح مجهوده وعظيم عمله في سبيل وطنه وفي سبيل الله خير الجزاء.

وكنت أحسب أنني أستطيع طبع الكتاب في ستة أسابيع. لكنّ إناقة محمود بك خاطر مدير مطبعة مصر وحرصه على أن يظهر الكتاب في خير ثوب له، جعلني أطمئن إلى أناة ربّما أقلقت بعض الذين عاونوا على طبع الكتاب بالاشتراك فيه قبل ظهوره، وبذلك أتاحت إخراج الكتاب في هذا الثوب الذي أعجبنى ويعجب القراء. فلمطبعة مصر ولحمود بك خاطر أجزل الشكر على ما صنعوا.

ولقد ذكرت في تقديم الكتاب ما عاونني به الأستاذ عبدالرحيم محمود المصحح بدار الكتب أثناء تأليف الكتاب حين كان يستعير لي الكتب من دار الكتب من غير حاجة مني إلى الذهاب إليها. وليس يسيراً على أن أفيه في هذه الكلمة حقّه من الشكر على معاونته إياي في تصحيح الكتاب أثناء طبعه، وفي ضبط الأعلام والآيات القرآنية، حتّى ما أحسب القارئ يقع على خطأ مطبعي يقف عنده. ولئن بقيت بعض هفوات لا تخفى فليس يستحق التنبيه عليه منها إلاّ خطأ نأسف لعدم التنبيه إليه، وذلك في آخر كلمة في السطر الرابع من (ص ١٠٩). فقد وردت كلمة (البلد) وصحتها (بلداً) في آية (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...) (١٢٥٤) الخ.

ويرجع الفضل في تنسيق الصحف الأولى من الكتاب إلى فن الأساتذة الخطّاطين: محمّد حسني وسيّد إبراهيم ومصطفى بك غزلان فلحضراتكم جزيل شكري.

وقد اشترك في وضع فهارس الأعلام كلّ من حضرات الأساتذة: الشيخ أحمد عبدالعليم البردوّني، وعليّ أحمد الشهداوي أفندي، وإبراهيم الأبياري أفندي، وعبدالحفيظ شبلي أفندي المصححين بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية.

ولو أنّني أردت أن أشكر كلّ منّ عاونني في طبع هذا الكتاب لما أمنت أن يجني النسيان على بعضهم. لكنّي مع ذلك لا أستطيع أن أغفل الأستاذ عليّ فودة الذي كان عوني وعون الأستاذ عبدالرحيم محمود، واعتذر لسائر من عاونوني عن عدم ذكر أسمائهم وأشكرهم.

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا إلى الخير وإلى حسن أداء واجبنا في الحياة.

محمّد حسين هيكّل

مصادر التحقيق

مصادر التحقيق

(أ)

- ١ — الآثار الباقية، محمد بن أحمد «أبو ريجان البيروني» المتوفى (٤٤٠ هـ).
- ٢ — الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم الضحاك المتوفى (٢٨٧ هـ).
- ٣ — أبوطالب كافل رسول الله وناصره، السيد عبدالرحيم الموسوي (معاصر)، سلسلة في رحاب أهل البيت ط ١ (١٤٢٢ هـ) المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام).
- ٤ — الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).
- ٥ — إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، علي بن الحسين المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ).
- ٦ — الأحاديث الطوال، أبو قاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ).
- ٧ — الاحتجاج على أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي المتوفى (٥٦٠ هـ).
- ٨ — الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار المتوفى (٢٥٦ هـ)، منشورات الشريف الرضي ط ١ (١٤١٦ هـ).
- ٩ — الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى (٢٨٢ هـ).
- ١٠ — اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ).
- ١١ — الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري المتوفى (٢٥٦ هـ).
- ١٢ — أرجح المطالب، الشيخ عبيد الله الآمرتسري الحنفي الهندي المتوفى (١٣٦٧ هـ).
- ١٣ — إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري، أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى (٩٢٣ هـ).

- ١٤ — الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبدالله محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد المتوفى (٤١٣ هـ).
- ١٥ — أسباب نزول القرآن، أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى (٤٦٨ هـ).
- ١٦ — أسد الغابة في معرفة الصحابة، عليّ بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (٦٣٠ هـ).
- ١٧ — الإسلام على مفترق الطريق، محمد أسد (معاصر).
- ١٨ — أسنى المطالب في نجاة أبي طالب، أحمد بن زيني دحلان المتوفى (١٣٠٤ هـ).
- ١٩ — الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبرّ القرطبي المتوفى (٤٦٣ هـ).
- ٢٠ — الإصابة، أبو الفضل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ).
- ٢١ — الأصول الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر ثنير الشامي، ط بيروت.
- ٢٢ — الأصنام، محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي المتوفى (١٤٦ هـ).
- ٢٣ — الأصنام، أبو المنذر هشام بن أبي نصر الكلبي المتوفى (٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ).
- ٢٤ — أضواء على السنّة المحمّدية، الشيخ محمود أبو ريّه المتوفى (١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م).
- ٢٥ — إعلام الوری بأعلام الهدى، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبري المتوفى (٥٤٨ هـ).
- ٢٦ — الأعلام، خير الدين الزركلي المتوفى (١٣٩٦ هـ).
- ٢٧ — أعيان الشيعة، السيّد محسن بن عبدالكريم الأمين الحسيني العاملي المتوفى (١٣٧١ هـ) إعداد نجله السيد حسن الأمين، دار التعارف بيروت ط ٥ ١٤٠٣ هـ.
- ٢٨ — الأغاني، عليّ بن الحسين أبو الفرج الإصفهاني المتوفى (٣٥٦ هـ).
- ٢٩ — إقبال الأعمال، رضي الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ).
- ٣٠ — الإكتفاء، سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي المتوفى (٦٣٤ هـ).

- ٣١ — إكمال الدين وتمام النعمة، محمد بن علي بن بابويه الصدوق القمي المتوفى (٣٨١ هـ).
- ٣٢ — الأمالي، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (الصدوق) المتوفى (٣٨١ هـ).
- ٣٣ — الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ).
- ٣٤ — الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء)، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦ هـ).
- ٣٥ — أم المؤمنين عائشة، العلامة السيّد مرتضى العسكري (معاصر).
- ٣٦ — إمتاع الأسماع، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ المتوفى (٨٤٥ هـ).
- ٣٧ — الأمثل في تفسير الكتاب الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (معاصر).
- ٣٨ — إنباء نجباء الأبناء، محمد بن محمد بن ظفر الصقلي المتوفى (٥٦٥ هـ).
- ٣٩ — إنجيل برنابا «العهد الجديد».
- ٤٠ — أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى (٢٧٩ هـ).
- ٤١ — الأنوار العلوية في شرح الألفية الشهيدية، أحمد بن محمد بن عبدالله بن علي الرفاعي السبعي المتوفى (٩٦٠ هـ).
- ٤٢ — إيمان أبي طالب، الشيخ المفيد المتوفى (٤١٣ هـ).

(ب)

- ٤٣ — بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي المتوفى (١١١١ هـ).
- ٤٤ — البحر المحيط، محمد بن يوسف بن علي يوسف الغرناطي الأندلسي (أبوحيان البحري) المتوفى (٧٤٥ هـ).
- ٤٥ — البدء والتاريخ، مصهر بن طاهر المقدسي المتوفى (٥٠٧ هـ).
- ٤٦ — البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المتوفى (٧٧٤ هـ).
- ٤٧ — بولاق وتاريخه (تاريخ بولاق).
- ٤٨ — بلوغ الإرب، محمود شكري بن عبدالله الآلوسي البغدادي المتوفى (١٣٤٢ هـ).

٤٩ — بلوغ الإرب والسل بالتشرف بذكر نسب الرسول، عبدالبرّ بن عبدالله القادر القيومي المتوفى (١٠٧١ هـ).

٥٠ — البيان في تفسير القرآن، السيّد أبو القاسم الخوئي المتوفى (١٤١٣ هـ).

(ت)

٥١ — تاج العروس، محمّد بن محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي المتوفى (١٢٠٥ هـ).

٥٢ — تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم المتوفى (١٣٨٨ هـ)، دارالجيل، بيروت، ط٣، ١٤١١ هـ.

٥٣ — تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبدالله محمّد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ).

٥٤ — تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ)، دار الكتب العلمية، ط٢ (١٤٠٨ هـ)، بيروت.

٥٥ — تاريخ أبي الفداء (مختصر أخبار البشر)، أبو الفداء إسماعيل بن عليّ بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب المتوفى (٧٣٣ هـ).

٥٦ — تاريخ ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المقرئ المتوفى (٨٠٨ هـ).

٥٧ — تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أبوبكر أحمد بن عليّ الخطيب المتوفى (٤٦٣ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٩ هـ.

٥٨ — تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).

٥٩ — تاريخ الخميس، حسين بن محمّد بن الحسن الدياربكري المتوفى (٩٦٦ هـ).

٦٠ — تاريخ الحروب الصليبية، وليم موير، تعريب سهيل زكار.

٦١ — تاريخ الدولة العثمانية العلية، محمّد فريد بك المحامي (معاصر).

٦٢ — تاريخ القرماني (أخبار الدول وآثار الأول) أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (القرماني) المتوفى (١٠١٩ هـ).

- ٦٣ — تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ).
- ٦٤ — تاريخ مكة المشرفة، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي (ابن ضياء) المتوفى (٨٥٤ هـ).
- ٦٥ — تاريخ هيردوث (أبو التواريخ)، هيردوث.
- ٦٦ — تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفى (٢٨٤ هـ).
- ٦٧ — التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٦٨ — تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ).
- ٦٩ — تذكرة الخواص، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي بن عبد الله سبط ابن الجوزي المتوفى (٦٥٤ هـ).
- ٧٠ — تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن عليّ الهندي الفتني، المتوفى (٩٨٦ هـ).
- ٧١ — تفسير البرهان، هاشم بن سليمان البحراني المتوفى (١١٠٧ هـ).
- ٧٢ — تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى (٧٩١ هـ).
- ٧٣ — تفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المتوفى (٨٧٥ هـ).
- ٧٤ — تفسير الخازن، الشيخ عليّ بن محمد بن إبراهيم البغدادي المتوفى (٧٢٥ هـ).
- ٧٥ — تفسير العياشي، أبو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي المتوفى (٣٢٠ هـ).
- ٧٦ — تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، الحسن بن محمد بن الحسين القميّ النيسابوري الحلبي المتوفى (٨٥٠ هـ).
- ٧٧ — تفسير القرآن الكريم، محيي الدين بن عربي المتوفى (٦٣٨ هـ).
- ٧٨ — تفسير القميّ، أبو الحسن عليّ بن إبراهيم القميّ المتوفى (٣٢٩ هـ)، ط ٢، النجف الأشرف، ١٣٨٧ هـ.

- ٧٩ — تفسير الكبير، محمد بن عمر فخر الدين الرازي المتوفى (٦٠٦ هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت.
- ٨٠ — تفسير المحيط، (البحر المحيط)، أبو حيان البحري المتوفى (٧٤٥ هـ).
- ٨١ — تفسير الصافي، محسن الفيض الكاشاني المتوفى (١٠٩١ هـ).
- ٨٢ — تفسير فرات الكوفي، أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي المتوفى (٣٥٢ هـ).
- ٨٣ — تفسير القرآن العظيم، ابن كثير إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى (٧٧٤ هـ).
- ٨٤ — تفسير شبر، السيّد عبدالله شبر المتوفى (١٣٤٢ هـ).
- ٨٥ — تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام بن نافع الصنعاني الحميري المتوفى (٢١٢ هـ).
- ٨٦ — تفسير المنار، محمد رشيد رضا المتوفى (١٣٥٤ هـ)، دار المنار، ١٣٧٣ هـ ، مصر.
- ٨٧ — تفسير القرآن الحكيم، للإمامين محمد عبده المتوفى (١٣٢٣ هـ)، ومحمد رشيد رضا المتوفى (١٣٥٤ هـ).
- ٨٨ — تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ).
- ٨٩ — تفسير المنير لمعالم التزويل المسفر عن وجوه محاسن التأويل، محمد بن عمر بن عربي بن علي بن نوي الجاوي المتوفى (١٣١٦ هـ).
- ٩٠ — تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد القرطبي المتوفى (٦٧١ هـ).
- ٩١ — تلخيص التمهيد لعلوم القرآن، الشيخ محمد هادي معرفت (معاصر).
- ٩٢ — تلخيص المستدرک على الصحيحين، أبو عبدالله الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ).
- ٩٣ — تصحيح الاعتقاد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري المفيد المتوفى (٤١٣ هـ).
- ٩٤ — التمهيد، الشيخ هادي المعرفة (معاصر).

- ٩٥ — التمهيد، أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى (٤٠٣ هـ).
- ٩٦ — تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، ورّام بن أبي فراس المالكي التستري المتوفى (٦٠٥ هـ).
- ٩٧ — تزيه القرآن من المطاعن، القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسدي المعتزلي المتوفى (٤١٥ هـ).
- ٩٨ — تنقيح المقال، عبدالله بن محمد بن حسن المامقاني المتوفى (١٣٥١ هـ).
- ٩٩ — تهذيب الآثار، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ).
- ١٠٠ — تهذيب تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر، تحقيق عبدالقادر بدران المتوفى (١٣٤٦ هـ).
- ١٠١ — التوحيد، الدكتور سمير سليمان (معاصر).
- ١٠٢ — تيسير المطالب في أمالي أبي طالب، يحيى بن الحسين بن هارون المتوفى (٤٢٤ هـ).

(ث)

- ١٠٣ — الثاقب في المناقب، أبو جعفر محمد بن علي بن حمزة الطوسي المتوفى (٥٦٠ هـ)، دار الزهراء ط١، ١٤١١ هـ.
- ١٠٤ — ثمار القلوب (الثعالبي)، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي المتوفى (٤٢٩ هـ).

(ج)

- ١٠٥ — الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي المتوفى (٦٧١ هـ).
- ١٠٦ — جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ).
- ١٠٧ — جامع الأصول، مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى (٦٠٦ هـ).
- ١٠٨ — جمهرة الرسائل، الدكتور أحمد زكي صفوة (معاصر).
- ١٠٩ — جمهرة اللغة، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى (٣٢١ هـ).
- ١١٠ — الجواهر، الطنطاوي الجوهري المتوفى (١٣٥٨ هـ) مطبعة الباي، مصر.

(ح)

- ١١١ — الحاوي للفتاوي، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).
١١٢ — حلية الأبرار، السيّد هاشم بن سليمان الكتكاني البحراني المتوفى (١١٠٧ هـ).
١١٣ — حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الإصفهاني المتوفى (٤٣٠ هـ).
١١٤ — حياة الصحابة، محمد بن يوسف الكاندهلوي الحنفي المتوفى (١٣٨٤ هـ).
١١٥ — حياة محمد (صلى الله عليه وآله)، أميل درمنجهام، ط أمريكا (١٩٣٠ م).
١١٦ — حياة محمد (صلى الله عليه وآله)، وليم موير، ط (١٩١٢ م).

(خ)

- ١١٧ — الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن عبدالله الراوندي المعروف بقطب الدين الراوندي المتوفى (٥٧٣ هـ).
١١٨ — خصائص أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى (٣٠٣ هـ).
١١٩ — خلاصة عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار، تلخيص السيّد عليّ البلاغي المتوفى (١٣٠٦ هـ).

(د)

- ١٢٠ — دائرة المعارف الإسلامية، بوركلمان، ط. دار الفكر، بيروت.
١٢١ — دائرة المعارف الإسلامية، أحمد شنتاوي، إبراهيم تركي خورشيد عبدالحميد يونس.
١٢٢ — دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي المتوفى (١٣٧٣ هـ).
١٢٣ — الدراسات العربية الألمانية، البرت ديتريت.
١٢٤ — الدراسات العربية الإسلامية، روبرت روى.
١٢٥ — الدرّ المنثور (تفسير)، جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).

١٢٦ — دعائم الإسلام، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور التميمي المغربي المتوفى (٣٦٣ هـ).

١٢٧ — دلائل الصدق، محمد حسن محمد المظفر المتوفى (١٣٧٥ هـ).

١٢٨ — دلائل النبوة، إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الإصبهاني المتوفى (٥٢٥ هـ).

١٢٩ — دلائل النبوة، أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي المتوفى (٤٥٨ هـ).

١٣٠ — ديوان أبوطالب، أبو نعيم عليّ بن حمزة البصري التميمي المتوفى (٣٧٥ هـ).

(ذ)

١٣١ — ذخائر العقبى، أحمد بن عبدالله الطبري المتوفى (٦٩٤ هـ).

(ر)

١٣٢ — الرحلة المدرسية، محمد جواد البلاغي المتوفى (١٣٥٢ هـ).

١٣٣ — روح الاجتماع، غستاف ليون.

١٣٤ — روح المعاني في تفسير القرآن، محمد بن عبدالله الحسيني الآلوسي المتوفى (١٢٧٠ هـ).

١٣٥ — الروض الآنف، أبو شعلة عبدالرحمن بن إسماعيل الدمشقي المتوفى (٦٦٥ هـ).

١٣٦ — روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري المتوفى (٥٠٨ هـ).

١٣٧ — الرياض النضرة، محبّ الدين أبو العباس أحمد بن محمد الطبري المكي المتوفى (٦٩٤ هـ).

(ز)

١٣٨ — زاد المسير، عبدالرحمن بن عليّ بن محمد الجوزي القرشي البغدادي المتوفى (٥٩٧ هـ).

١٣٩ — زاد المسير في هدى خير العباد، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى (٥٧١ هـ).

١٤٠ — زاد المسير، الحسن بن أحمد بن الحسن العطار الهمداني المتوفى (٥٦٩ هـ).

(س)

١٤١ — سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى (٩٤٢ هـ).

١٤٢ — السقيفة، محمد رضا المظفر، المتوفى (١٣٨١ هـ).

١٤٣ — السقيفة والخلافة، عبدالفتاح عبدالمقصود (معاصر).

١٤٤ — السقيفة وفدك، أبوبكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهري المتوفى (٣٢٣ هـ).

١٤٥ — السمط الثمين في مناقب أمّهات المؤمنين، محبّ الدين أحمد عبدالله المتوفى (٦٩٤ هـ).

١٤٦ — سمط النجوم العوالي، عبدالملك بن حسين العصامي المكي الشافعي المتوفى (١١١ هـ).

١٤٧ — سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن أشعث السجستاني المتوفى (٢٧٥ هـ).

١٤٨ — سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني المتوفى (٢٧٥ هـ).

١٤٩ — السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن شعيب النسائي المتوفى (٣٠٣ هـ).

١٥٠ — السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي المتوفى (٤٥٨ هـ).

١٥١ — سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى (٢٩٧ هـ).

١٥٢ — سيّد المرسلين، الشيخ جعفر السبحاني (معاصر).

١٥٣ — سيرة أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)، دار الرسالة ط٧ (١٩٩٠م) بيروت.

١٥٤ — سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى (١٥١ هـ).

١٥٥ — السيرة الحلبية، (إنسان العيون في سيرة الأمين والمؤمن)، عليّ بن برهان الدين الحلبي المتوفى (١٠٤٤ هـ).

١٥٦ — السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى (٢١٣ هـ)، دار الوفاق (١٣٧٥ هـ)، بيروت.

١٥٧ — السيرة النبوية، أحمد بن زيني دحلان المتوفى (١٣٠٤ هـ).

١٥٨ — السيرة النبوية، ابن كثير إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي المتوفى (٧٤٧ هـ)، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، بيروت.

١٥٩ — سيرة المصطفى، هاشم معروف الحسني المتوفى (١٤٠٤ هـ).

(ش)

١٦٠ — الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي المتوفى (٤٣٦ هـ).

١٦١ — شذرات الذهب، أبو الفلاح عبدالحلي بن أحمد ابن العماد الحنبلي المتوفى (١٠٨٩ هـ).

١٦٢ — شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي المتوفى (٣٦٣ هـ).

١٦٣ — شرح التجريد، عليّ بن محمد القوشجي المتوفى (٨٧٩ هـ).

١٦٤ — شرح الخفاجي (نسيم الرياض)، أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري المتوفى (١٠٦٩ هـ).

١٦٥ — شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني المتوفى (١٠٩٩ هـ).

١٦٦ — شرح الشفاء، الملاّ عليّ القاري الحنفي المتوفى (١١٠٤ هـ).

١٦٧ — شرح كلمات أمير المؤمنين، كمال الدين ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني المتوفى (٦٧٩ هـ)، ثمّقه عبد الوهاب.

١٦٨ — شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف بن مري النووي المتوفى (٦٧٦ هـ).

١٦٩ — شرح نهج البلاغة، أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني المعتزلي المتوفى (٦٥٦ هـ).

١٧٠ — شرح نهج البلاغة، الفيض المتوفى (١٠٩١ هـ).

١٧١ — الشفا بتعريف المصطفى، أبو الفضل اليحصبي المتوفى (٥٤٤ هـ).

١٧٢ — شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الحنفي النيسابوري (الحاكم الحسكاني) المتوفى (٤٧٠ هـ).

١٧٣ — الشورى في ظلّ النظام الحكم الإسلامي، عبد الرحمن عبد الخالق (معاصر).

١٧٤ — الشيعة في الميزان، السيّد محمد حسين الطباطبائي المتوفى (١٤٠٢ هـ).

(ص)

- ١٧٥ — الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى (٣٩٣ هـ).
١٧٦ — صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة الجعفي البخاري المتوفى (٢٥٦ هـ).
١٧٧ — صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى (٣٦١ هـ).
١٧٨ — صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي المتوفى (٩٥٤ هـ).
١٧٩ — الصحيح من السيرة، السيد جعفر مرتضى العاملي (معاصر).
١٨٠ — الصحوة، صباح عليّ البياقي (معاصر).
١٨١ — صفة الصفوة، أبو الفرج ابن الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ).
١٨٢ — الصوارم المهرقة، السيد القاضي نور الله التستري استشهد (١٠١٩ هـ).
١٨٣ — الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي المتوفى (٩٧٤ هـ).

(ط)

- ١٨٤ — الطبقات الكبرى، ابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المتوفى (٢٣٠ هـ).
١٨٥ — الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، عليّ بن موسى بن طاووس الحسني المتوفى (٦٦٤ هـ).

(ع)

- ١٨٦ — العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف (معاصر).
١٨٧ — العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، محمد بن أحمد بن عليّ الفاسي المتوفى (٨٣٢ هـ).
١٨٨ — العقد الفريد، أحمد بن محمد عبدربه الأندلسي المتوفى (٣٢٨ هـ).
١٨٩ — علل الشرائع، محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي (الصدوق) المتوفى (٣٨١ هـ).
١٩٠ — العمدة (عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار)، يحيى بن الحسن الأسدي الحلبي (ابن بطريق) المتوفى (٦٠٠ هـ).
١٩١ — عمر بن الخطّاب، عبدالرحمن البكري (معاصر).

١٩٢ — العهد الجديد (إنجيل).

١٩٣ — العهد القديم (سفر التكوين) التوراة.

١٩٤ — العين، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى (١٧٥ هـ).

١٩٥ — عيون الأثر، ابن سيّد الناس، محمد بن محمد أبو الفتح المتوفى (٧٣٤ هـ).

١٩٦ — عيون أخبار الرضا، أبو جعفر محمد بن عليّ بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).

(غ)

١٩٧ — الغارات (الاستنفاة والغارات)، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد، بن هلال المعروف بابن هلال الثقفي المتوفى (٢٨٣ هـ).

١٩٨ — غاية المطالب، السيد محمد بن عليّ بن أبي الحسن العاملي المتوفى (١٠٠٩ هـ).

١٩٩ — غاية المرام في حجة الخصام، السيد هاشم سلمان إسماعيل عبدالواحد الحسيني البحراني (١١٠٧ هـ).

٢٠٠ — الغدير في الكتاب والسنة، عبدالحسين الأميني التبريزي النجفي المتوفى (٣٩٠ هـ).

(ف)

٢٠١ — فاطمة الزهراء، الشيخ إبراهيم الأميني (معاصر).

٢٠٢ — فتاوى (ابن تيمية)، أبي العباس بن أحمد بن التيمية المتوفى (٧٢٨ هـ).

٢٠٣ — فتح الباري، أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ).

٢٠٤ — فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى (٢٧٩ هـ).

٢٠٥ — فذك في التاريخ، الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) (١٤٠٠ هـ).

٢٠٦ — فرائد السمطين (في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة)، إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن عبدالله الجويني المحويني المتوفى (٧٣٠ هـ).

٢٠٧ — الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦ هـ)، دار المعرفة، ط ٢ (١٣٩٥ هـ)، بيروت.

٢٠٨ — الفصول المهمة في معرفة الأئمة، عليّ بن محمد بن أحمد المالكي المشهور بابن الصباغ المتوفى (٨٥٥ هـ).

٢٠٩ — الفصول المهمة في تأليف الأئمة، السيّد عبدالحسين شرف الدين المتوفى (١٣١٧ هـ).

٢١٠ — الفصيح في تعيين الذبيح، جلال بن السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).

٢١١ — فضائل عليّ بن أبي طالب، فضل بن شاذان بن الخليل النسابوري المتوفى (٢٦٠ هـ).

٢١٢ — فضائل الصحابة، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١ هـ).

٢١٣ — فقه الحديث في الوهابية (دعاوى وردود).

(ق)

٢١٤ — القرآن في الإسلام، السيّد محمد حسين الطباطبائي المتوفى (١٤٠٢ هـ)، دار الكتب، ط ٥ (١٤١١ هـ)، قم.

٢١٥ — قرب الإسناد، أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري من علماء القرن الثالث.

٢١٦ — قصة الحضارة، ول ديورانت.

٢١٧ — قصص الأنبياء، قطب الدين الراوندي المتوفى (٥٧٣ هـ).

(ك)

٢١٨ — الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي المتوفى (٣٢٩ هـ).

٢١٩ — الكامل في التاريخ، عليّ بن محمد بن محمد عبدالكريم الشيباني الجزري ابن الأثير المتوفى (٦٣٠ هـ).

٢٢٠ — كحل البصر في سيرة سيّد البشر، الشيخ عباس بن محمد رضا القمّي المتوفى (١٣٥٣ هـ).

٢٢١ — الكشف، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري المتوفى (٥٣٨ هـ).

٢٢٢ — كشف الغمّة في معرفة الأئمة، عليّ بن عيسى الإربلي المتوفى (٦٩٢ هـ).

- ٢٢٣ — كفاية الطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب، محمد بن يوسف الكنجي الشافعي المتوفى (٦٥٨ هـ)، ط الغربي وط الحيدرية، النجف الأشرف.
- ٢٢٤ — الكلمة الغراء في تفضيل فاطمة الزهراء (عليها السلام)، السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوي المتوفى (١٣٧٧ هـ).
- ٢٢٥ — كثر العرفان، أبو عبد الله مقداد بن عبد السيوري المتوفى (٨٢٦ هـ).
- ٢٢٦ — كثر العمّال في سنن الأقوال، عليّ المتقي ابن حسام الدين الهندي المتوفى (٩٧٥ هـ).

(ل)

- ٢٢٧ — لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري المتوفى (٧١١ هـ).
- ٢٢٨ — لسان الميزان، أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ).

(م)

- ٢٢٩ — مجالس الشيخ، الشيخ المفيد المتوفى (٤١٣ هـ).
- ٢٣٠ — مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي المتوفى (١٠٨٥ هـ).
- ٢٣١ — مجمع البيان، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى (٥٤٨ هـ)، دار إحياء التراث العربي ط ١ (١٤١٢ هـ)، بيروت.
- ٢٣٢ — مجمع الزوائد، نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي المتوفى (٨٠٧ هـ).
- ٢٣٣ — المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي المتوفى (٢٨٠ هـ).
- ٢٣٤ — المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي المتوفى (٣٢٠ هـ).
- ٢٣٥ — المحلى، أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦ هـ).
- ٢٣٦ — المختارة، محمد بن عبد الواحد بن عبد الرحمن ضياء الدين المقدسي المتوفى (٦٤٣ هـ).
- ٢٣٧ — مختصر كتاب البلدان، أبو بكر أحمد بن محمد المهداني المتوفى (٣٤٠ هـ).

٢٣٨ — مختصر أبي الفداء وذيله، محمد بن محمد بن محمود بن غازي بن أيوب التركي الحلبي الحنفي المعروف بابن الشحنة المتوفى (٨١٥ هـ).

٢٣٩ — المراجعات، عبدالحسين شرف الدين الموسوي المتوفى (١٣٧٧ هـ).

٢٤٠ — مروج الذهب ومعادن الجواهر، علي بن الحسين المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ).

٢٤١ — المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥ هـ).

٢٤٢ — مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين النوري الطبري المتوفى (١٣٢٠ هـ).

٢٤٣ — مستدرک ابن المبارك، عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد بن المبارك بن القطان الجرجاني المعروف بابن عدي المتوفى (٣٦٥ هـ).

٢٤٤ — المسند، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١ هـ).

٢٤٥ — مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن عليّ المثنى التميمي المتوفى (٣٠٧ هـ).

٢٤٦ — المصباح المنير، أحمد بن محمد بن عليّ الفيومي المتوفى (٧٧٠ هـ).

٢٤٧ — المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعائي المتوفى (٢١٢ هـ).

٢٤٨ — المصنف، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي المتوفى (٢٣٥ هـ).

٢٤٩ — المعارف، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦ هـ).

٢٥٠ — معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى (٥١٦ هـ).

٢٥١ — معالم المدرستين، السيّد مرتضى العسكري (معاصر).

٢٥٢ — معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن عليّ الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).

٢٥٣ — معاني القرآن، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري أبو جعفر النحاس المتوفى (٣٣٨ هـ).

٢٥٤ — المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن مطير اللخمي الشامي الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ).

٢٥٥ — معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي المتوفى (٦٢٦ هـ).

- ٢٥٦ — المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن مطير اللخمي المتوفى (٣٦٠ هـ).
- ٢٥٧ — المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية)، أخرجه إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبدالقادر، ومحمد علي النجار.
- ٢٥٨ — المغازي، محمد بن عمر بن واقد أبو عبدالله الواقدي المتوفى (٢٠٧ هـ).
- ٢٥٩ — مطالب السؤول، محمد بن طلحة الشافعي المتوفى (٦٥٤ هـ).
- ٢٦٠ — مقدمة ابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار.
- ٢٦١ — المقنع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي الصدوق (٣٨١ هـ).
- ٢٦٢ — مكارم الأخلاق، أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي المتوفى (٥٤٨ هـ).
- ٢٦٣ — المكتبة التاريخية، ديود ورس.
- ٢٦٤ — الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨ هـ).
- ٢٦٥ — مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني المتوفى (٥٨٨ هـ).
- ٢٦٦ — مناقب أحمد بن حنبل، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي المتوفى .
- ٢٦٧ — مناقب العشرة (مخطوط)، النقشبندي.
- ٢٦٨ — مناقب علي بن أبي طالب، علي بن محمد بن محمد الواسطي الشافعي المعروف المغازلي المتوفى (٤٨٣ هـ).
- ٢٦٩ — مناقب الإمام أمير المؤمنين، محمد بن سليمان الكوفي القاضي (٣٠٠ هـ).
- ٢٧٠ — المنتقى في مولود المصطفى، محمد بن مسعود بن محمد الكازروني المتوفى (٧٥٨ هـ)، تعريب نجله عفت الدين.
- ٢٧١ — منتهى الآمال، الشيخ عباس محمد رضا القمي المتوفى (١٣٥٣ هـ).
- ٢٧٢ — المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبدالرحمن بن علي أبو الفرج الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ).
- ٢٧٣ — المنجد في اللغة والأعلام، لويس معلوف المتوفى (١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م)، ط بيروت دار المشرق.
- ٢٧٤ — من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).
- ٢٧٥ — منية المريد، الشيخ زين الدين بن علي العاملي المعروف بالشهيد الثاني، المتوفى (٩٦٦ هـ).

٢٧٦ — المواهب الجليل، المؤسسة العربية تحت إشراف الدكتور عبدالوهاب الكيالي وكامل الزهري.

٢٧٧ — المواهب اللدنية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري المتوفى (٩٢٣ هـ).

٢٧٨ — موسوعة التاريخ الإسلامي، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي (معاصر).

٢٧٩ — موسوعة السياسة، أسسها عبدالوهاب الكيالي رئيس التحرير ماجد نعمة .

٢٨٠ — الموفقيات، زبير بن بكّار الأسدي المتوفى (٢٥٦ هـ).

٢٨١ — موسوعة المورد، منير البعلبكي (معاصر).

٢٨٢ — موسوعة لاروس الفرنسية.

٢٨٣ — الموطأ، مالك بن أنس المتوفى (١٧٩ هـ).

٢٨٤ — الموقف الإسلامي من أسطورة تحرف القرآن الكريم، السيد عبدالرحيم الموسوي، ط الجمع العالمي (١٤٢٢ هـ)، قم.

٢٨٥ — المنهاج «مجلة» العدد السادس، السنة الثانية (١٤١٨ هـ) تصدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

٢٨٦ — منهاج السنّة، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية المتوفى (٧٢٨ هـ).

٢٨٧ — منهاج الكرامة، العلامة حسن بن يوسف المطهر الحلّي المتوفى (٧٢٦ هـ).

٢٨٨ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ).

٢٨٩ — الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي المتوفى (١٤٠٢ هـ).

(ن)

٢٩٠ — النبوة، محمد حسن آل ياسين (معاصر).

٢٩١ — النزاع والتخاصم، تقي الدين أحمد بن عليّ المقرئ المتوفى (٨٤٥ هـ).

٢٩٢ — النص والاجتهاد، السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوي المتوفى (١٣٧٧ هـ) .

٢٩٣ — نظرية الإمامة، د. أحمد محمود صبحي.

٢٩٤ — نظرية عدالة الصحابة، السيّد عبدالرحيم الموسوي (معاصر) ط ١ (١٤٢٢ هـ)
الجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام).

٢٩٥ — نظم درر السمطين، محمد بن يوسف الزرندي الحنفي المتوفى (٧٥٠ هـ).

٢٩٦ — نقض العثمانية، أبو جعفر الإسكافي المعتزلي المتوفى (٢٤٠ هـ).

٢٩٧ — نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن عليّ بن أحمد بن عبد الله القلقشندي المتوفى (٨٢١ هـ).

٢٩٨ — النهاية في غريب الحديث، مبارك بن مبارك الجزري ابن الأثير المتوفى (٦٠٦ هـ).

٢٩٩ — نهج البلاغة، الإمام عليّ بن أبي طالب أعدّه وجمعه محمد بن الحسين بن موسى الموسوي أبوالحسن الشريف الرضي المتوفى (٤٠٦ هـ).

٣٠٠ — نهج الحقّ وكشف الصدق، العلامة الحسن بن يوسف بن مطهر الحلّي المتوفى (٧٢٦ هـ).

٣٠١ — نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار، مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي المتوفى (١٢٩٨ هـ)، دار الكتب العلمية ط ١ (١٢٩٨ هـ)، بيروت.

٣٠٢ — نور الثقلين (تفسير)، عبد عليّ بن جمعة الحويزي المتوفى (١١١٢ هـ).

٣٠٣ — نيل الأوطار، محمد بن عليّ الشوكاني المتوفى (١٢٥٠ هـ).

(هـ)

٣٠٤ — هوية التشيع، د. الشيخ أحمد الوائلي المتوفى (١٤٢٤ هـ).

٣٠٥ — الهدى إلى دين المصطفى، الشيخ محمد جواد البلاغي النجفي المتوفى (١٣٥٢ هـ)

(و)

٣٠٦ — وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي المتوفى (١١٠٤ هـ).

٣٠٧ — الوفا بأحوال المصطفى، أبو الفرج عبدالرحمن بن عليّ بن محمد بن عليّ الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ).

٣٠٨ — وفيات الأعيان، أبو العباس أحمد بن محمد البرمكي المعروف بابن خلكان المتوفى (٦٨١ هـ).

٣٠٩ — وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري المتوفى (٢١٢ هـ).

٣١٠ — ولاية الأمر، الشيخ محمد مهدي الآصفي (معاصر).

(ي)

٣١١ — ينابيع المودة، سليمان بن إبراهيم القندوزي، المتوفى (١٢٩٤ هـ)، دار الأسوة ط ١ ،
١٤١٦ هـ طهران.

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- فهرس الأمم والقبائل والطوائف
- فهرس الأماكن
- فهرس الغزوات والوقائع والأيام
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الآية رقم الآية الصفحة

البقرة

- (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى...) ٣٨—٣٩١٨
(كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا...) ٥٧٣٣٠
(لَنْ تَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ...) ٦١٣٦٨
(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ...) ٧٩٢١
(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ...) ٨٥٥٤٠
(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى...) ٨٧—٨٩٣٣٤
(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً...) ١٢٥—١٢٧١١٣
(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ...) ١٢٦٧٨٥
(آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ...) ١٣٦٣٣٨
(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ...) ١٤٢—١٤٣٣٣٧
(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ..) ١٤٤٣٣٦—٣٣٧
(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ١٥٩٤١٥
(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ...) ١٧٩٣٢٨
(إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...) ١٨٠٧٧٣
(وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ...) ١٩٠٣٥٤
(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) ١٩٠٣٥٧

الآية رقم الآية الصفحة

- (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ...) ١٩٣٣١٥
(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...) ١٩٤٣٢٨
(فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى...) ١٩٦٧٦٦
(ومن الناس من يشري نفسه...) ٢٠٧٣٠٠
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ...) ٢١٧٥١٨

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ...) ٢١٩٥٤٠

(خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ...) ٢٤٣١٤

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...) ٢٥٦٣٥٧

آل عمران

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا*...) ٥٧٧٣

(إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ...) ٤٨—٤٩٤٧—٤٥

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ...) ٥٠—٥٩٤٩

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ...) ٦١٣٤٠

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ...) ٥٩ — ٦٤٦٩٠

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا...) ٦٤٥٤٤

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا...) ٦٤٣٣٩

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...) ٩٦—٩٧١١٣

الآية رقم الآية الصفحة

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...) ١٤٤ ٧٤٦، ٧٤٠، ٧٤٦، ٧٤٣

(وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ) ١٥٩٤١٤

(أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ...) ١٦٥٢٨

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ...) ١٦٨—١٧٥٤٤٣

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ...) ١٨١٣٣٥

النساء

(فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ...) ٣٤٥٦

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ...) ٣٤٨٦

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ...) ١٠—١٣٤٧٢

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...) ١١٧٧٣

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ...) ٢٤٧٦٦
 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا...) ٤٣٥٤١
 (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...) ٢٧٤، ٤٨٥٠
 (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ...) ٥٦٢٤٩
 (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا...) ٥٢٤٦٥—٥١
 (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ٨٠١٦
 (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) ١٢٥١٠٤

الآية رقم الآية الصفحة

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ...) ١٥٨٥٠—١٥٧
 (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ...) ١٢٩٤٥٦

المائدة

(أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...) ٣١٥، ٤٢، ٧٠٣، ٧٠٩
 (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...) ١٨٤٩—١٧
 (... فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ...) ٢٤٣٦٨
 (وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا...) ٤٩ — ٥٠٣٣٦
 (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...) ٥٤٢٦٣
 (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ...) ٦٧٢٣
 (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ...) ٧٣٤٩—٧٢
 (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...) ٧٣ — ٧٥٦٩٣ — ٦٩٤
 (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً...) ٨٢٤٦
 (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...) ٩٠٥٤١ — ٥٤٢
 (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا...) ٩٣٥٤٢
 (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى...) ١١٦ — ١١٨٤٩، ٦٩٣
 (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ...) ١١٨٣٨٧

الأنعام

- (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ...) ٣٨٧٢٩ ، ٧٣٦
(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ...) ٣٨٧٣٦
(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ...) ٧٦ — ١٠١ — ٧٩١٠١ — ١٠٢
(قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي...) ١٦١١٠٣
(قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ...) ٥٧ ١٧٨

الأعراف

- (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى...) ٩٦٧١٥
(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي...) ٢٠١ — ١٨٨٢٠٠

الأنفال

- (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى...) ٧٣٧١
(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى...) ١٢٣٧٩
(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ...) ١٧٣٨٠
(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ...) ٣٠٣٠٤
(وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ...) ٣٤ — ٣٦٥١٨
(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ...) ٤١٣٨٣
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ...) ٦٥ — ٦٦٣٧٨

- (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ...) ٦٧٣٨٧ ، ٣٨٨
(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ...) ٧٥٧٧٣

التوبة

- (بِرَأَاةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...) ١ — ٣٦
٦٨٨ ، ٦٨٩
٦٧٤ ، ٦٧٧ ،

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي...) ٢٥ — ٢٨٦١٧ — ٦١٨
(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ...) ٣١٢١
(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ...) ٣٠٥ — ٤٠٣٠٤
(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي...) ٤٩٦٥٠ ، ٦٥٢
(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي...) ٨١ — ٨٢٦٤٩
(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ...) ١٠٠٧٦١
(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...) ١١٣ ١٠١
(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...) ١١٧ — ١١٨٦٥٨

يونس

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ...) ٨٨٣٨٧

هود

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا...) ٥٣١١٥

الآية رقم الآية الصفحة

يوسف

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ...) ١٨٥٠٩ — ٥١٠
(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ...) ٥٥١٣
(اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا...) ٩٧١٣
(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ...) ١٠٦٩٥
(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا...) ١٠٨١٧٨
(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى...) ١١١٧٧٨

إبراهيم

(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ...) ٣٦٣٨٧
(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...) ٤١١٠١

الحجر

- (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ٤٢٢٢٦
(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ...) ٥٢—٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٦، ٥٣٢٢٦
(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا...) ٨٨٢٤٣
(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ...) ٨٩١٩٢
(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ...) ٩٤١٩٢

الآية رقم الآية الصفحة

النحل

- (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ...) ٤٤٧٣٧
(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى...) ٩٩٢٢٦
(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ...) ١٠٣٢٤٠
(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...) ١٢٦—١٢٧٤٢٨

الأنعام

- (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...) ١٢٧٨
(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى...) ١٥١١٥
(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي...) ٦٠٢٦٩
(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ...) ٧٣—٧٥ ٢٢٩، ٢٢٦، ٢٢٥
(وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئِنَّاكَ...) ٧٤٢٢٩، ٢٥٧، ٢٥٨
(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ...) ٨١٦٠٢
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...) ٨٥٧٨١

الكهف

- (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...) ١١٠٢٧٤

مريم

- أَنْتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ... (٨٤٥٠
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ... (٢٣-٢٧٤٥٠
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا... (٢٩-٣٣٢١٦
مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ... (٣٥٤٩

الأنبياء

- أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ... (٦٧٣٨٧
أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ... (٦٢-٦٣١٠١
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧٧٤٩
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ... (٧٣-١٧٨

الحج

- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ... (٣٩٣١٥
مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ... (٧٨١٠٣

المؤمنون

- أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ نَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا... (١١٥١٢

النور

- الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ (١١٥١٥
إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ... (١١-١٩٥١٠
لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ... (١٢ و ١٤٥١٣

الفرقان

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسجُدوا لِلرَّحْمَنِ...) ٦٠٢٢٦

الشعراء

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ *...) ٢١٤-٢١٥١٩١-١٩٢، ٢٤٣

النمل

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ...) ١٠١٧٨

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) ١٦٧٣٣

القصص

(هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا...) ١٥٤٤٩-٤٥٠

الآية رقم الآية الصفحة

الروم

(أَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ *...) ١-٦٤٥

(وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) ٣٨٥٥٤

لقمان

(لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا...) ٣٣٥١

الأحزاب

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ...) ٤٤٦٠

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ...) ٢٨-٢٩٦٣٤

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ...) ٣٠-٣١٤٩٢-٤٩٣

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ...) ٣٢-٣٣٤٩٥

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا...) ٣٦٤١٥، ٤٦٠

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَ نَعَم...) ٣٧٤٤٨

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ...) ٣٧٤٦٠

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ... فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ...) ٣٧٤٦١

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...) ٤٩٥—٥٣٤٩٤

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ...) ٥٨—٦٢٤٩٢

الآية رقم الآية الصفحة

الصفات

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ...) ١٠٢ — ١٠٧١٠٦

(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ...) ١١٢١٠٥

سورة ص

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً...) ٢٦١٢

الزمر

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) ٣٠٧٤٤، ٧٤٧

فصلت

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ...) ٣٤٢٨٣

الشورى

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ٣٨٤١٤

الزخرف

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ...) ٣١—٣٢٢٤٦

الآية رقم الآية الصفحة

الفتح

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا...) ٢٥٣٤-١
(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا...) ١٥٥٤٧ - ٥٤٨
(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ...) ١٨٥٢٩ - ٥٣٠
(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...) ٢٩٢٦٣

الحجرات

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ...) ١٣٦٠٠
(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ...) ١٣٢٤٦، ٤٥٩
(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا...) ١٤٧٨٠
(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...) ١٧٧٨٠

سورة ق

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ...) ٣٠٢٤٩

النجم

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ...) ٤٤١٥-٣، ٧٢٩
(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) ٤٢٣
(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى...) ١٠٢٧٨ - ٩

الآية رقم الآية الصفحة

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى...) ١٧٢٧٨
(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ...) ٢٣٢٣١-١٨
(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ...) ٢٠٢٢٤-١٩
(فاسجدوا لله واعبدوا) ٦٢٢٢٦
(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى...) ١٧٨٥ - ٢

الواقعة

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا...) ٢٦٤١٢-٢٥

الحديد

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ... ١١٣٣٥)
(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ... ٢١٣٤١)

الحشر

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ... ٥٤٢٠)
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ... ١١-١٣٤٤١)
(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ... ٢٣-٢٤٤٤١)

الآية رقم الآية الصفحة

المتحنة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا... ١٥٩٢)
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ... ١٠٥٣٧)

المنافقون

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا... ٧-٨٥٠٠)

التغابن

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا... ١٧٣٣٤)

التحریم

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ... ١-٥٦٣٩)
(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ... ٤٦٤٣)

القلم

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ٤٢٤٣

الحاقة

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ...) ١٨-٣٧٢٤٦

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ...) ٤٤-٤٦٢٣

الآية رقم الآية الصفحة

المعارج

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ) ١٧٠٤

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ *...) ٨-١٨٢٤٨-٢٤٩

نوح

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ...) ٢٦٣٨٧

المدثر

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *...) ١-٧١٨٠

النازعات

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) ٢٠٨، ٢٤٧٥

عبس

(عَبَسَ وَتَوَلَّى *...) ١-١٦٢٤٣-٢٤٤

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ *...) ٣٣-٤٢٢٤٨

البروج

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ *...) ٤-٨٨٦

الآية رقم الآية الصفحة

الفجر

(إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*...) ٧-١٤١٤

الضحى

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا...) ١-١١١٨٥

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى*...) ٦-٧١٤٦

الشرح

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...) ١-٣١٤٣

العلق

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي...) ١-٥١٧٥، ٢٤٣، ٦٠٠

الزلزلة

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...) ٧-٨١٧٤، ٢١١، ٦٥١

التكاثر

(الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ*...) ١-٨١٩٩

الآية رقم الآية الصفحة

العصر

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ...) ١-٥١٢٩

المسد

(تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ...) ١-٣١٩٨

الأخلاص

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * ...) ١-٤٢٩، ٥٠، ٣٣٣

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث القائل للصفحة

- «آبُونَ تائبون إن شاء الله لرَبِّنا حامدون» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٩٦
- «أباهلكم بخير أهل الأرض، وأكرمهم إلى الله» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٤٠
- «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٩١
- «أبناءؤكم ونساءؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٢
- «إجمع لي قومك في هذه الحظيرة» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٤
- «احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤١٦
- «أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٩٣
- «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٥٤
- «إذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم:...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٣٨—٤٣٩
- «إذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩٥
- «إذهبوا به فاقطعوا عني لسانه» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٤
- «أرأيتم لو أحررتكم أن خيلاً بسفح هذا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٣٢
- «ارجع فاحلل كما حل أصحابك» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٠
- «استوصوا بهم خيراً» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٨٦
- «أشيروا علي أيها الناس» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٦٨
- «أصبحت فأتني به» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩٥

الحديث القائل للصفحة

- «إضرب عنقه، واللهم اغن المقداد من فضلك» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٨١
- «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٢٦
- «إعمل لدياك كأتك تعيش أبداً...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٣٠
- «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩١ — ٥٩٢
- «أقضي كتابتك وأتزوجك» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٠٤

«أُكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٣٢

«اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٣٢

«أُكْتُبُ هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ «مُحَمَّدٌ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٣٢

«أُكْتُبُ هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ «مُحَمَّدٌ» بن عبد الله» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٣٢

«الآباء ثلاثة: أب زوجك وأب...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٠١

«أَلَا تَجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ!» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٥

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ اخْتَبَرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ...» علي (عليه السلام) ١١٣

«الحمد لله، الله أكبر» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٠٢

«السلام عليكم يا أهل المقابر...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٢

«الله أكبر وأنا قد سقت معي ستاً وستين...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٤

«اللهم ارحم امرأاً أراهم اليوم من نفسه...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٦٩

«اللهم اعف عن سودة بن قيس كما عفا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٤١

«اللهم أعطني على سكرات الموت» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٤

«اللهم اغفر لعثمان ما قدّم وأخّر وما...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٥١

الحديث القائل بالصفحة

«اللهم اكفني عامر بن الطفيل!» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٨٣

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٥—٢٦٦

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٠٨

«المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٣١

«ألم يُخزك الله يا حُيَيّ!» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٨٠

«أما أيها الناس فإنه قد حان مني خفوق بين...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٤٠

«أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٢

«أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٣

«أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٣

«أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتهم ولصدقتهم: أتيتنا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٥—٦٢٦

«أمن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٦

«أنا الذي سمّني أمي حيدر...» علي (عليه السلام) ٥٥٢

«إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ١٨٦
«إِنَّ أُصَيْبَ زَيْدٍ فَجَعَفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٥٧٧
«أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَسَأُنَازِعُ رَجُلًا...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٦٥٠
«إِنَّا لَا نَقْتُلُهُ بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحَسِّنُ صَحْبَتَهُ مَا بَقِيَ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٥٠١
«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٧٧٦
«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٦٦٣
«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلَيَّ بِأَهْلِهَا، وَأَقْضَاكُمْ عَلَيَّ (عليه السلام)...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٧٦٥

الحديث القائل بالصفحة

«إِنَّا يَا إِبْرَاهِيمَ لَا نَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٦٦١
«أَنْتَ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَدَارِ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٦٥٣
«أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِي» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٤١٧
«أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفْلًا...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٢٩٣
«إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٣٩١
«أَنْ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) لَمَّا تَرَكَ تِجَارَةَ الشَّامِ وَتَصَدَّقَ...» الْعَسْكَرِيُّ (عليه السلام) ١٨١ —

١٨٢

«انْطَلِقْ فَطُفْ بِالْبَيْتِ وَحَلِّ كَمَا حَلَّ أَصْحَابُكَ» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٧٠٠
«إِنَّ لَهُ لِمَرْضَعًا فِي الْجَنَّةِ» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٦٦١
«إِنَّ مَا بِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونُ فِي مِثْلِ هَذِهِ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٧٢٨—٧٢٩
«إِنَّمَا حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ. لَا تَدْعُونِي...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٥٢٤
«إِنَّمَا نَسَجَدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَنِي نَبِيًّا...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ١٨٧
«إِنَّمَا هِيَ سَحَابَةٌ مَارَّةٌ» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٧٧٦
«إِنَّهُ آذَانَا وَهَجَانَا بِالْشَّعْرِ، وَلَوْ قَرَّرَ كَمَا قَرَّرَ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٤٠٢
«إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيدِجَةَ، وَإِنْ حَسَنَ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٣٢٧
«إِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَكِنَّهَا تُقَرَّرُ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٦٦٢
«إِنَّهَا لِمُشِيَّةٌ يُغَضِّضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٤١٨
«إِنَّ هَذَا أَخِي، وَوَصِيِّي، وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ١٩٤
«إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ...» الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) ٢٨٦

«إِنَّهُ مُعْتَقٌ مِنْ جَاءَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّائِفِ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢١

الحديث القائل بالصفحة

«إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرَمِينَ وَإِنِّي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٢٧

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْهَزِيمَةَ» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤١٣

«إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ هَذَا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٢

«إِنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٨

«أَوْ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٩٩

«أَوْ مَخْرَجِي هَمْ؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٧٥

«إِيَّاكُمْ وَالْمَثَلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٢٨

«إِنِّي بَدَوْتُ بِدَوَاةٍ وَصَحِيفَةٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٥

«أَيُّ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ قَبْلَ «مُحَمَّدٍ» مَظْلَمَةٌ إِلَّا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٤٠

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي لَا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠١ — ٧٠٢

«أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَكَافَّةً فَلَا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٤٣

«أَيُّهَا النَّاسُ أَنْفِذُوا بَعَثَ أَسَامَةَ، فَلَعَمْرِي لَثْنٌ قَلْتُمْ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٤

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٧٧

«أَيُّهَا النَّاسُ: سَعَرَتِ النَّارُ وَأَقْبَلَتِ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٢

«أَيُّهَا النَّاسُ كَأَنِّي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٨٦

«أَيُّهَا النَّاسُ. مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونِي فِي أَهْلِي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٠٧

«أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٧٤

«أَيُّهَا النَّاسُ، وَاللَّهِ مَا لِي مِنْ فِئْتِكُمْ وَلَا هَذِهِ الْوَبَرَةُ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٣

«أَيُّهَا النَّاسُ يَوْشَكَ أَنْ أُقْبِضَ قَبْضًا سَرِيعًا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٩

الحديث القائل بالصفحة

«أَمَّا وَاللَّهِ مَا دَعَوْهُمْ...» الصادق (عليه السلام) ٢١

«أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٣٢

«بَغْسَ مَا جَزَيْتَهَا أَنْ حَمَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهَا وَنَجَّاكَ بِهَا ثُمَّ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٩٧

«بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! مَا أَطْلَبُكَ حَيًّا وَمَيِّتًا! عَلِيٌّ (عليه السلام) ٧٦٨

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٤٤

«بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٥٤

«بل الرفيق الأعلى من الجنة» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٤

«بل هو الرأي والحرب والمكيدة» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٧٢

«بِمَ أهللت؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٥

«تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٦١

«تُطعم الطعام وتقرأ السلام على مَنْ عرفت...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٢٦

«تقولون: لا إله إلا الله...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٠

«ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، في...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٧٢—٢٧٣

«خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٥٠

«دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٤٤

«ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٦

«ذلك داء ما كان الله عز وجل ليقدفني به!» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٠

«ردوا إليّ ردائي أيها الناس، فوالله...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٣

«سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٦٩

الحديث القائل للصفحة

«فاقتصص مني حتى ترضى» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٤١

«فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢١٤

«فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٩٨

«فأيكم يؤازرني على هذا الأمر وأن...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٩٣

«فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٧٩

«فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس وقالوا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٩٨

«فهل لك في خير من ذلك؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٠٤

«قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام. ما شأن...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٠١

«قد جنتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٩٣

«قد حضرته مع عمومي ورميت فيه بأسهم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٥٢

«قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم. وما...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤١٣ — ٤١٤

«قل لهم: إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٢

«قم إلى منزل فاطمة فائتني بالقضيب المشوق» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٧٤١
«قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٢٥
«قوموا عني لا ينبغي عند النبيّ التنازع» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٧٦٣
«قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٧٣٥
«كذبوا، ولكنني خلّفتك لما...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٦٥٣
«كم ينحرون كلّ يوم؟» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٦٩
«كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٥٠٢

الحديث القائل للصفحة

«لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٩١
«لا تبكي يا بنّة فإنّ الله مانع أباك» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٢٦٥
«لا تحزن إنّ الله معنا» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٠٢
«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٢٦
«لا تعجل لعلّ الله يجعل لك صاحباً» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٢٩٦
«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٢٦
«لا تكذبوا عليّ فإنّه من كذب...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٦٥٠
«لا تكوننّ إمعة، تقول...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ١٨
«لا كرب على أبيك بعد اليوم» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٧٢٨
«لا نفديكموهما حتّى يقدم صاحبانا فإنّا نخشاكم...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٣٥٦
«لأنّهم لم يشكّوا» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٥٣٤
«لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربّي والجنّة» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٧٢٢
«لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٤١٦
«لا يكون أحدكم إمعة...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ١٨
«لم أظنّك سمعت منهم لي أذى!...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٤٧٧
«لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام» الرسول(صلى الله عليه وآله) ١٠١
«لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قطّ...» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٤٢٧ — ٤٢٨
«لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٤٧٧
«ليته لا يتزل عليّ شيء ينفرهم عني» الرسول(صلى الله عليه وآله) ٢٢٤

- «ما أحبُّ أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٥٣
- «ما أرت منك؟» علي (عليه السلام) ٣١٧
- «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٩٢
- «ما أقرأ؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٧٥
- «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٥٥
- «ما أمركم به فافعلوه» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٩٩
- «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٨١
- «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٥٤
- «ما ذكرتهما إلا وأنا أريد أن أخبركم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٩
- «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٩
- «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٥١
- «ما ظنَّ محمد بالله لو لقي الله وهذه عنده؟ انفقيها» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٤٠
- «ما ظنَّ «محمد» برّبه لو لقي الله وعنده هذه» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٠
- «ما عن الحزن نهيت وإئتما نهيت...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٦١
- «ما قبض نبي إلا دفن حيث يُقبض» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٦٨
- «ما كنت لأفشي سرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله)» الزهراء (عليها السلام) ٧٢٨
- «ما ورث الأنبياء من قبلي، كتاب ربهم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣١٧
- «مرحباً بابنتي» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٨
- «من استطاع أن يقي وجهه من النار...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٢٦

- «من صنع هذا؟ ولم فعلتموه؟!» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٠
- «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٨٧
- «من لم يكن منكم معه هدي فأحبّ أن يجعلها...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٩٨
- «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤١٧
- «من يعذرني ممن يؤذيني في أهلي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥١٤
- «منى كلّها منحرة» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٥

«مهلاً يا بن رواحته، وقل لا إله إلا الله...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٧٠

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٥٦

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٦٠، ٧٧٢

«نصيرت يا عمرو بن سالم» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٨٨

«نعم كلمة واحدة تعطونهاها تملكون بها...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٠

«نعم ! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن،...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩٥

«واكرب أبتاه!» الزهراء (عليها السلام) ٧٢٨

«والذي بعثني بالحق ما أخرتكم إلا لنفسي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣١٧

«والذي نفسي بيده إن العذاب تدلّى على أهل...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٤٠

«والذي نفسي بيده لقد رضي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٧٩

«والله إنّي لأخوه وولّيه ووارث علمه...» عليّ (عليه السلام) ١٩٥

«والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٢٨

الحديث القاتل للصفحة

«والله لا يحبهم عبداً إلا أعطاه الله نوراً...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٩

«والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٥

«وأيّم الله إنّي لأقول لكم هذا ورجال في...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٩

«ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمّه...» عليّ (عليه السلام) ١٨٧

«وما الذي معك؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٨٦

«ومالي لا أغضب وأنا أمر أمراً فلا يتبع!» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٩٩

«وما يُدريك يا عمر لعلّ الله قد اطلع...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩١

«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩٥

«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٩٥

«هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٣٩

«هلاً تركت الشيخ بمكانه حتّى أكون...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٠٥

«هل تدرون أيّ يوم هذا؟» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٢

«هلمّ إليّ ثوباً... ليأخذ كبير كلّ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٦٥

«هَلِّمُوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضَلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٩، ٧٦٣

«هَنْ حَوْلِي يَسْأَلْنِي النِّفْقَةَ» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٣٤

«يَا أَبَا بَكْرَ ، مَا ظَنُّكَ بِاِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثَهُمَا» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٠٢

«يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مِفَاتِيحَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٢

«يَا إِبْرَاهِيمَ لَوْلَا أَنَّهُ أَمَرَ حَقًّا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٦١

«يَا إِخْوَانَ الْقُرْدَةِ ! هَلْ أَحْزَاكُمْ اللَّهُ وَأَنْزَلَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٧٨

«يَا أُمَّ هَانِئٍ لَقَدْ صَلَيْتَ مَعَكُمْ الْعِشَاءَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٦٨

الحديث القائل بالصفحة

«يَا أَهْلَ الْقَلْبِ . يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٨١

«يَا أَبَا بَصِيرَ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٣٦

«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٩٤

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّكَ لَمْ تَكْتُبْ إِلَيَّ بِإِهْلَالِكَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٠٤

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَهْلَلْتُ كَمَا أَهْلَلْتَ عَلَيَّ (عليه السلام) ٧٠٠

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قُلْتُ حِينَ أَحْرَمْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي...» علي (عليه السلام) ٧٠٠

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ ذَهَبَتْ رُوحِي وَانْقَطَعَ ظَهْرِي...» علي (عليه السلام) ٣١٧

«يَا سُودَةَ! أَعْلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى رَسُولِهِ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٨٥

«يَا عَائِشَةُ ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ مَا بَلَغَكَ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٠٩

«يَا عَلِيُّ إِنَّ قُرَيْشًا اجْتَمَعَتْ عَلَى الْمَكْرِ بِي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٣٠٠

«يَا عَمَّ ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٢٠٧، ٢٠٤، ٢١٩،

٧٧٧ — ٧٧٨

«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَا قَالَةُ بَلَغْتَنِي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٢٥

«يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ ، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ أَجْعَلَ بَيْنِي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٤٧٩

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ اسْتَوْصُوا بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٧٢٦

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ... أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ١٩٨

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٠٠

«يَا نَبِيَّ اللَّهِ، زَعَمَ الْمُنَافِقُونَ أَنَّكَ إِنَّمَا...» علي (عليه السلام) ٦٥٣

«يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ لَقَدْ أَهْلَكْتَهُمُ الْحَرْبُ؛ مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٥٢٣

«يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ، وَإِنَّكَ...» الرسول (صلى الله عليه وآله) ٦٩٥

حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

(أ)

آدم (عليه السلام): ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٥ .

آمنة بنت وهب (أم النبي (صلى الله عليه وآله)): ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦، ٢٨٣، ٤٠٩ .

أبان بن سعيد: ٥٢٨ .

إبراهيم (عليه السلام): ١٤، ٤٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ٢٧٠، ٢٧٦، ٣٣٦، ٣٤٣، ٣٨٧، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢١، ٦٣١، ٦٩٣، ٦٩٩، ٧٣٢، ٧٨٥ .

إبراهيم الأبياري: ٧٨٥ .

إبراهيم بن محمد (صلى الله عليه وآله): ٣٦، ٤٥٢، ٥١١، ٥٦١، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٥، ٦٣٧، ٦٤٥، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣ .

أبرهة الأشرم: ٨٧، ١٢٧ .

ابن أبي (عبد الله بن أبي): ٣٩٧، ٤١١، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٨٠، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٥، ٥١٢، ٥١٧، ٥٥٦، ٦٥٣، ٦٥٩ .

ابن إسحاق (محمد بن إسحاق): ٢٥، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٤، ١٦٥، ٢٠٦، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٢٥، ٣٧٢، ٥٢٢ .

ابن الأعور السلمي: ٤٧٢ .

ابن أم مكتوم الأعشى: ٢٤٣، ٢٥٩، ٣٦٦ .

ابن بدهان: ٧١٣

ابن الحويرث = عثمان بن الحويرث

ابن الخطاب (عمر بن الخطاب): ٢٢٣، ٢٣٥، ٣٨٦، ٤٠٤، ٤٥٥، ٥٩٤، ٦٣٣، ٦٣٩، ٧٦٢، ٧٧١.

ابن الدغنة ربيعة (بن ربيع السلمي): ٦١٦، ٦١٧.

ابن رواحة (عبدالله بن رواحة): ٣٨٢، ٣٨٤، ٤٧١، ٥٥٣، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨٥.

ابن العاص (عمرو بن العاص): ٢٠٠، ٢١٥، ٢١٧، ٥٤٤، ٥٦٧، ٥٧٤، ٥٨٢.

ابن عباس (عبدالله): ٥، ١٢، ١٣٧، ٢٥٨، ٤١٧، ٥٥٤، ٦٤٢، ٦٦٢، ٧٢٩، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٤٢.

ابن هشام (راوي السيرة): ٢٥، ٢٦، ٥٩، ٦٣، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٤، ٢٣٥، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٦، ٢٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٧٥، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤١٨، ٤٦٩، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٩٦، ٤٧٩، ٤٩٨، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٦٤، ٥٦٩، ٥٨٣، ٥٨٧، ٦٠٢، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٦٢.

ابنة حاتم الطائي: ٦٢٩.

أبو أمية بن المغيرة المخزومي: ١٦٥.

أبو أيوب خالد الأنصاري: ٥٥٨.

أبو البخترى بن هشام: ٢٥٥، ٣٨١.

أبو براء عامر بن مالك (ملاعب الأستة): ٤٣٦.

أبو بصير (عتبة بن أسيد بن جارية): ٥٣٥، ٥٣٦.

أبوبكر بن أبي قحافة التيمي (رضي الله عنه): ٤٥، ٦٦، ٦٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٦، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٥، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤١٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٨، ٤٨٧، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٥٥، ٥٨٢، ٦٠٦، ٦٥٢، ٦٦٣، ٦٦٧، ٦٧٠، ٦٧٣، ٧٠٣، ٧١١، ٧٢٦، ٧٣١، ٧٣٣، ٧٣٤، ٦٣٩، ٦٨٧، ٦٩٤، ٧١٤، ٧٢٧، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٥، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٤، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٤، ٧٧٧، ٧٩١.

أبو جندل بن سهيل بن عمرو: ٥٣٣.

أبو جهل بن هشام: ١٥٧، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٥٥، ٢٦٠، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١ .

أبو حذيفة بن عتبة: ٣٨١ .

أبو الحكم = أبو جهل

أبو حنظلة = أبو سفيان

أبو الحيسر أنس بن رافع: ٢٨٦ .

أبو خيثمة: ٦٥٤ .

أبو دجاجة: ٤٤١، ٤٢٥، ٤١٩، ٤١٧، ٥٥٤ .

أبو رافع مولى النبي: ٦٣٢ .

أبو سعد بن أبي طلحة: ٤٢٤ .

أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب: ١٩٨، ٥٩٣، ٦١٤ .

أبوسفيان بن حرب بن أمية:

١٣٢، ١٥٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٤٢، ٢٤٦، ٣٤٧، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٩٢،

٤٠٠، ٤٠٧، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٤٢، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٧٤،

٤٧٥، ٤٧٦، ٥٦٢، ٥٧٣، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٩،

٦١١، ٦١٢، ٦١٨، ٦٦٩، ٧٢١ .

أبو سلمة بن عبد الأسد: ٤٣٢ .

أبو طالب بن عبدالمطلب: ١٢١، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٦، ١٨٨،

١٨٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥ .

أبوالعاص بن الربيع بن عبد شمس: ١٦٩، ١٧٠، ٣٩١، ٦٣٠ .

أبو عامر عمرو بن صفى الأوسي: ٤١٨ .

أبو عبيدة بن الجراح: ١٩٠، ٤٣٢، ٧٤٨، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٧٠ .

أبو عفاك: ٣٩٤ .

أبو غبشان الخزاعي: ١١٨ .

أبوالغيداق: ٤٢١ .

أبو قحافة: ١٨٨، ٥٩٧، ٢٢٠، ٧٧٢ .

أبو قيس بن الأسلت: ٢٨٧ .

- أبو كعب الغفاري: ٤١٠.
- أبو لبابة (بشير بن عبد المنذر): ٣٨٦، ٤٧٨ .
- أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب: ١٣٣، ١٧٠، ١٩٢، ١٩٨، ١٩٩، ٣٩٠.
- أبولون: ٥٣.
- أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي: ٢٤٦ .
- أبو مويهبة (مولى الرسول): ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣.
- أبو نائلة (سلطان بن سلامة): ٣٩٦ .
- أبو الهيثم بن التيهان: ١٦٩ .
- أبي بن خلف: ٤٢٦ .
- الشيخ أحمد عبد العليم البردوني (المصحح بدار الكتب المصرية): ٧٨٥.
- الأستاذ أحمد لطفي (الموظف بدار الكتب المصرية): ٦٤.
- الأخنس بن شريق: ٢٤٢، ٣٧٢، ٥٣٥.
- إدريس (عليه السلام): ٢٧٠ .
- أربد بن قيس: ٦٨٤.
- أرطاة بن عبد شرحبيل: ٤١٩.
- إرفنج: ٦٣، ٦٨، ٤٤٩، ٤٦٢ .
- أرياط: ٨٧ .
- أزهر بن عوف: ٥٣٥.
- إساف: ١٢٤، ١٢٥، ١٩١ .
- أسماء: ٥٠٨، ٥١٢، ٦١٣، ٧١١، ٧١٤، ٧١٥، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٤٣، ٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٧١، ٧٧٢.
- إسحاق (عليه السلام): ١٠٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ٣٣٨.
- أسد بن عبد العزى: ١٣٣.
- إسرائيل ولفنسون (الدكتور): ٤٦٦.
- الإسكندر: ٢٤٧ .
- أسماء بنت أبي بكر: ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٥.
- أسماء بنت عميس زوج جعفر: ٣١٦، ٥٨١.

إسماعيل (عليه السلام) : ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٦،
١٢٤، ١٢٨، ٣٣٦، ٣٣٨، ٥٢١، ٧٣٢.

الأسود: ٦٦٩.

الأسود بن عبد الأسد المخزومي: ٣٧٥.

الأسود بن عبد المطلب: ٤٠٣.

الأسود العنسي: ٧١٣، ٧١٦.

أسيد بن حضير: ٣٠٨، ٤١٣، ٧٣٢، ٥٠٧، ٥١٢، ٧١٦، ٧٤٨، ٧٦٠.

الأشعث بن قيس: ٦٩٤.

الأقرع بن حابس: ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٤٧.

أكيدر بن عبد الملك الكندي النصرائي: ٦٥٦، ٦٥٧.

أم أيمن (حاضنة النبي صلى الله عليه وآله): ١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ٥١٢، ٥٥٥، ٦١٣، ٧٦٥،
٧٧٢.

أم جميل زوج أبي لهب: ٢٠٧.

أم حبيبة بنت أبي سفيان (أم المؤمنين): ١٦٧، ٥٦٢، ٥٨٩.

أم حكيم بنت الحارث بن هشام: ٦٠٤.

أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة (أم المؤمنين): ٤٤٧، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٨، ٥٢٢، ٥٩٣،
٦٢٠، ٦٣٣، ٧٦٥.

أم سيف (حاضنة إبراهيم ابن الرسول): ٦٣٢، ٦٦٠.

أم الفضل بنت الحارث (زوج العباس): ٥٧١.

أم قصي فاطمة بنت سعد بن سيل: ١١٧.

أم كلثوم ابنة الرسول: ١٦١، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ٤٠٤، ٤٥٤، ٦٣٠.

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: ٥٣٧.

أم هانيء ابنة أبي طالب: ٢٦٨.

أميمة بنت زينب (ابنة الرسول): ٣٢٧.

إميل درمنجم (المستشرق): ٥٢، ٥٥، ٦٣، ١٤٣، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٠٣، ٤٤٩، ٤٦٢.

أميمة بنت عبد المطلب: ٤٥٨.

أمية بن أبي الصلت: ١٣٢، ٢٠٥، ٢٤٦.

أمية بن خلف: ٣٤٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٤٣٤، ٧٠١.

أُمَيَّة بن عبدشمس: ١٢١، ١٣٣.

أنس: ٥٤٢.

أنس بن فضالة: ٤١٠.

أنس بن النضر: ٤٢٥.

إنوسان الثامن: ٥٤.

أهيب بن عبدمناف: ١٣٥.

أوزوريس: ٧٤.

أولار: ٦٩.

أياس بن معاذ: ٢٨٦.

إيزيس: ٧٤.

(ب)

بارتلمي: ٥٤.

بازان: ٥٦٠، ٥٦١.

باقوم الرومي: ١٦٤.

بيلياندر: ٥٤.

بحير بن زهير: ٦٢٨.

بحيرا (الراهب): ١٤٨.

بدهان: ٧١٢، ٧١٣.

بديل بن ورقاء: ٥٢٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٤، ٥٩٥.

البراء بن معرور: ٢٩١.

البراض بن قيس الكناني: ١٥٠، ١٥١.

بريدة شيخ بني سهم: ٣٠٧.

بريدو: ٥٤.

بشر بن البراء: ٥٥٧.

بشر القرشي: ١٥١.

بلال الحبشي: ٢٠٦، ٢٢٧، ٣٢٥، ٣٧٨، ٣٧٩، ٥٧٠، ٦٠٣، ٦٠٩، ٧٢٦، ٧٣١،

٧٣٦.

بنت خارجة (حبيبة زوج أبي بكر): ٦٣٤، ٧٣٣، ٧٤٤.

بنت مضاض بن عمرو (زوج إسماعيل): ١١٠.

الكونت بولنفليه: ٥٤.

بييل: ٥٢.

بيير باسكال: ٥٤.

بيير (فترابل): ٥٤.

(ت)

القديس تبريها: ٩٥.

ترفاجان: ٥٣.

تيودور (أخو هرقل): ٥٧٧.

(ث)

ثابت بن أرقم: ٥٨٠.

ثابت بن قيس: ٤٨٠، ٤٤٦.

ثوية (جارية أبي هب): ١٣٩.

(ج)

جان داماسين: ٥٣.

جانبه: ٥٤.

جبر النصراني: ٢٣٥، ٢٤٠.

جبير بن مطعم بن عدي: ١٤٨، ٢٩٤، ٤٢٠.

جيبيردنجن: ٥٣.

الجد بن قيس: ٦٤٩.

جعفر بن أبي طالب: ٥٤، ٢١٧، ٢٦١، ٥٦٢، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٥.

جعفر باشا ولي: ٦٥.

جوستنيان: ٨٦.

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار: ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦.

(ح)

- الحارث بن أبي زينب: ٥٥٠، ٥٥١.
- الحارث بن أبي شمر: ٦٢٢.
- الحارث بن أبي ضرار: ٤٩٨، ٥٠٤.
- الحارث بن أمية: ٢٩٤.
- الحارث الحميري: ٥٤٤، ٥٤٥.
- الحارث بن الصمة: ٤٢٦.
- الحارث بن عبدالعزيز (زوج حليلة السعدية): ١٤٠.
- الحارث بن عبدالمطلب: ١٣٣، ١٣٦، ٤٥٥، ٥٩٣، ٦١٢، ٦١٤، ٧٠١.
- الحارث بن عوف: ٤٦٧.
- الحارث الغساني: ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٥٩.
- الحارث بن هاشم: ١٢٤.
- الحارث بن هشام: ٤٠٧، ٦٢٤.
- حاطب بن أبي بلتعة: ٥٤٤، ٥٩١، ٥٩٢.
- الحباب بن المنذر بن الجموح: ٣٧٢، ٤١٠.
- حُجَي بنت حليل بن حبشية: ١١٨.
- حبشية بنت خارجة: ٦٣٤، ٧٣٣، ٧٤٤.
- حذافة السهمي: ٥٤٤.
- حرام بن ملحان: ٤٣٦.
- حرب بن أمية: ١٥٢.
- حسان (أخو أكيدر بن عبد الملك): ٦٥٧.
- حسان بن ثابت: ٤٣٥، ٤٧٤، ٥٠٥، ٥١١، ٥٦١، ٦٣١، ٦٤٦، ٦٤٧.
- الحسن بن علي: ١٣٣، ٥٩٠.
- حسيل بن جابر أبو حذيفة: ٤٢٣.
- الحضرمي = عامر الحضرمي: ٣٦٦.
- حضير الكتائب أبو أسيد: ٢٨٧.
- حفصة بنت عمر بن الخطاب (أم المؤمنين): ٤٠٤، ٤٥٣، ٤٥٥، ٥٤٨، ٦٢٧، ٦٣١، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٩٩، ٧٢٤.

الحكم بن كيثان: ٣٥٦.

حكيم بن حكيم: ٥٩٤.

الحليس (سيد الأحابيش): ٥٢٦.

حليل بن حبشية: ١١٨ .

حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية: ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.

حمزة بن عبدالمطلب: ١٣٣، ١٣٥، ١٣٩، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦،

٢٦٠، ٢٨٢، ٣١٧، ٣١٨، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٥، ٣٧٩، ٤١٨،

٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٧، ٤٢٨، ٥٧٢، ٦٠٤، ٦٦٢.

حمنة بنت جحش: ٥٠٥، ٥١١.

حنانة الحميري: ١٢٨.

حواء: ٤٦.

الحويرث (بن نقيذ): ٦٠٥، ٦٣٠ .

حويطب بن عبدالعزى: ٣١١، ٥٧٢، ٦٢٤.

الحيسمان بن عبدالله الخزاعي: ٣٩٠ .

حيي بن أخطب النضيري: ٣٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٥،

٤٧٧، ٤٨٠، ٤٨١، ٥٤٨، ٥٥٧.

(خ)

خارجة بن زيد: ٣١٧.

خالد بن سعيد بن العاص: ٦٦٨ .

خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي: ٤٣٣.

خالد بن الوليد: ٤١٧، ٤٢٢، ٤٢٧، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٣٠، ٥٦٧، ٥٧١، ٥٧٣، ٥٧٥،

٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٩٨، ٦٠٤، ٦٠٦، ٦٠٨، ٦١١، ٦١٢، ٦٥٦،

٦٦٨، ٦٩٦، ٧١٣.

خبيب بن عدي: ٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٩٦ .

خديجة بنت خويلد بن أسد: ١٣٣، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،

١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥،

١٨٦، ١٨٧، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٨٢، ٣٢٧،

٣٩١، ٤٤٧، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٠٣، ٥٩٤، ٥٩٩،
٦٣١، ٦٠٠.

الخطاب: ١٦٧ .

حنيس: ٤٠٤.

خوات بن جبير: ٤٧١.

خويلد بن أسد بن عبد العزى: ١٣٣، ١٥٧، ١٦٠ .

خيثمة أبو سعد بن خيثمة: ٤١٢.

(د)

داود (عليه السلام): ٢٧٠ .

دبرجلي القسيس: ٥٤.

دحية بن خليفة الكلبي: ٥٥٤، ٥٥٩ .

دراج بن ربيعة بن حرام: ١١٧ .

درمنجم = إميل درمنجم: ٥٢، ٥٥، ٦٣، ١٤٣، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٠٣، ٤٤٩، ٤٦٢.

دروتي: ٥٤.

دريد بن الصمة: ٦١٠، ٦١٦، ٦١٧.

دكاستري: ٥٤ .

دلدل (بغلة الرسول): ٥٦١ .

دوزي: ٥٤ .

ديودور الصقلي: ١١٤.

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبي بكر: ٣٠٥.

ذو نفر: ١٢٨ .

ذو نواس الحميري: ٨٦ .

(ر)

رباح (مولى الرسول): ٦٣٨، ٦٣٩.

ربيعة بن أمية بن خلف: ٧٠١ .
ربيعة بن البراء: ٤٧٣ .
ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب: ٦١٢، ٦٩٥، ٧٠١ .
ربيعة بن حرام: ١١٧ .
ربيعة بن ربيع = ابن الدغنة: ٦١٦، ٦١٧ .
رقية بنت محمد (عليه السلام): ١٥٧، ١٦١، ١٦٨، ٣٨٥، ٤٠٤، ٤٥٤، ٦٣٠ .
مدام ركاميه: ٤٥٨ .
رودلف دُلوهيم: ٥٣ .
رولان: ٥٣، ٥٤ .
ريحانة (بنت عمرو): ٤٨٢ .
ريمون ليون: ٥٤ .
رُينان: ٥٤، ٤٥٠ .
رينو: ٥٢ .

(ز)

الزبير بن باطا القرظي: ٤٨٠ .
الزبير بن عبدالمطلب: ١٥٢ .
الزبير بن العوام: ١٩٠، ٣٦٩، ٤٢٦، ٥٥٤، ٥٩١، ٥٩٨، ٧٦٠ .
زمعة بن الأسود: ٢٥٥ .
زهير بن أبي أمية: ٢٥٤، ٢٥٥ .
زهير بن أبي سلمى: ٢٩٦ .
زهرة بن كلاب: ١١٧ .
زيد بن حارثة: ١٦٩، ١٨٨، ٢٧٣، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٩١، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤٤٧، ٥٧٥ .
زيد بن الحنبل: ٦٢٩ .
زيد بن الدثنة: ٤٣٤، ٤٣٥ .
زيد بن سهل أبو طلحة: ٧٧٠ .
زيد بن عمرو: ١٦٧ .

زيد بن محمد = زيد بن حارثة

زينب بنت جحش: ٤٤٧، ٤٥٢، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٨٢، ٥٠٥، ٥١٢، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٧، ٦٤٣.

زينب بنت الحارث: ٥٥٧ .

زينب بنت خزيمة: ٤٤٧، ٤٥٥، ٤٥٨.

زينب بنت الرسول: ٦٩، ١٥٧، ١٦١، ١٦٨، ١٧٠، ٣٢٧، ٣٩١، ٣٩٢، ٦٠٥، ٦٢٠، ٦٢٨، ٦٣٠.

زينب بنت مخزوم: ٤٥٩

(س)

سارة (زوج إبراهيم عليه السلام): ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤.

سالم بن عمير: ٣٩٤.

سان بارتلمي: ٣٩٠ .

ساتليير: ٥٤.

سباع بن عبدالعزى بن الغبشاني: ٤١٩ .

سيرنجر المستشرق: ٥٤، ٦٨، ٣٥٠، ٤٦٢.

سراقة بن مالك بن جعشم: ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠ .

سعد بن أبي سيد بني قريظة: ٤١٠، ٤٧٥، ٤٧٨.

سعد بن أبي وقاص الزهري: ١٩٠، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٢٤، ٣٢٥، ٤٣٢، ٤٨٦، ٦٩١، ٧٦٣.

سعد بن الربيع: ٣١٨، ٤١٠ .

سعد بن زرارة: ٣٠٧، ٣٠٨.

سعد بن زيد الأنصاري: ٤٨٢.

سعد بن عبادة (سيد الخزرج): ٢٩٤، ٣٤٦، ٤٧١، ٤٩٨، ٥٠٧، ٥١٢، ٥٩٨، ٦٢٥،

٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، سعد بن معاذ الأشهلي (سيد الأوس): ٢٨٧، ٣٠٨،

٣٦٩، ٣٧٣، ٤١٣، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤.

سعيد بن جبير: ٤٥٧ — ٤٥٨ .

- سعيد بن زيد: ٢٢٠ .
- السكران بن عمرو بن عبدشمس: ٤٥٣ .
- سلام بن أبي الحقيق: ٤٦٥، ٥٤٨ .
- سلام بن مشكم: ٥٤٩، ٥٥٠ .
- سلمان الفارسي: ٤٦٣، ٤٦٨ .
- سلمة بن خويلد: ٤٣٢ .
- سلمة بن سلامة: ٤١٠ .
- سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي: ٤٩٧ .
- سلمة بن هشام: ٥٨١ .
- سلمى (أرملة حمزة): ٥٧٢ .
- سلمى (زوج أبي رافع، قابلة مارية): ٦٣٢ .
- سلمى بنت عمرو الخزرجية: ١٢٢، ١٢٣ .
- سليط بن عمرو: ٥٤٤ .
- سليمان (عليه السلام) : ٢٧٠ .
- سماك بن خرشة: ٤١٧ .
- سهل بن حنيف: ٤٤١ .
- سهل بن عمرو: ٣١٠، ٣١٢ .
- سهيل بن عمرو: ٣١٠، ٣١٢ .
- سهيل بن عمرو أبو يزيد: ٣٨٥، ٣٩١، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٧، ٦٢٤، ٧٦٩ .
- سودة بنت زمعة (أم المؤمنين): ٢٦٨، ٣٢٢، ٣٨٥، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٨ .
- سويد بن الصامت: ٢٨٥، ٢٨٦ .
- سويلم اليهودي: ٦٥٠ .
- سيد أمير علي: ٦٣ .
- سيرين (أخت مارية): ٦٣١، ٦٦١ .
- سيف بن ذي يزن الحميري: ٨٧، ٨٨ .

(ش)

شارلمان: ٥٣ .

شاس بن قيس: ٣٣٣ .

شجاع بن وهب الأسدي: ٥٤٤.

شرحبيل (عامل هرقل): ٥٧٧.

شعيب (عليه السلام) : ١١٥.

شقرا (مولى الرسول): ٧٦٨ .

شهربراز: ٤٤.

شول: ٥٤.

شيبه بن ربيعة: ٣٨١، ٣٧٥، ٢٥٦.

شيبه بن عثمان بن أبي طلحة: ٦١٢.

شيبه بن هاشم: ١٢٣.

شبرويه بن كسرى: ٨٨، ٨٩، ٥٦٠.

الشيما بنت الحارث بن عبدالعزيز: ١٤١، ١٤٥، ٦٢٢.

(ص)

صالح (عليه السلام) : ١١٥.

صفوان بن أمية: ٣٩٣، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٣٤، ٤٠٤.

صفوان بن المعطل السلمي: ٥٠٣، ٥٠٥.

صفية بنت حيي بن أخطب النصيرية (أم المؤمنين): ٥٥٧، ٥٥٨، ٧٣٣.

صفية بنت عبدالمطلب: ٤٢٨.

صواب الحبشي: ٤٢٤.

(ض)

ضرار بن الخطاب: ٤٧٣.

ضمضم بن عمرو الغفاري: ٣٦٥.

(ط)

الطاهر بن الرسول (عليه السلام) : ١٦١، ١٦٨، ٦٦٠.

الطفيل بن عمرو الدوسي: ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١.

طلحة بن أبي طلحة = عبدالعزيز طلحة بن أبي طلحة

طلحة بن عبيد الله: ١٩٠، ٢٠٦، ٣٦٤، ٤٢٥، ٦٥٠، ٧٦٠.

عبد شمس بن عبدمناف: ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٣٣.
عبدالعزى بن طلحة بن أبي طلحة: ٤٠٨، ٤١٧، ٤١٨.
عبدالعزى بن عبدالمطلب = أبو لهب.
عبدالعزى بن قصي: ١٣٣.
عبدالله بن أبي بكر: ٣٠١، ٣٠٣.
عبدالله بن أبي ربيعة: ٢١٥.
عبدالله بن أبي السرح: ٦٠٤.
عبدالله بن أبي بن سلول: ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤١١، ٤١٦، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٣،
٤٨٠، ٤٩٩، ٥١٢.
عبدالله بن أريقط: ٣٠٠، ٣٠٥.
عبدالله بن أمية بن المغيرة: ٥٩٣.
عبدالله بن أنيس: ٤٣٣.
عبدالله بن جبير: ٤٢٢.
عبدالله بن جحش الأسدي: ٣٤٥، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٧٢، ٤٥٩، ٤٦٠،
٥٦٢.
عبدالله بن جعفر: ٥٨١.
عبدالله بن خطل: ٦٠٤.
عبدالله بن رواحة: ٣٨٢، ٣٨٤، ٥٥٣، ٥٧٠، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٥.
عبدالله بن الزبعرى: ٢٠٠.
عبدالله بن زيد بن ثعلبة: ٣٢٥.
عبدالله بن سلام: ٣٣٢.
عبدالله بن طارق: ٤٣٤.
عبدالله بن عبدالمطلب: ٩٩، ١٢٥، ١٣٣، ٢٨٣.
عبدالله بن كعب: ٣٨٢.
عبدالله بن محمد: ٢٨٧.
عبدالمطلب بن هاشم: ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٥،
١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٦، ١٨٦،
١٩٦، ٢٨٨.

- عبدمناف بن قصي: ١١٩، ١٢٠، ١٣٣، ١٧٠ .
- عبد ياليل: ٦٦٧ .
- عبيدالله بن حنش: ١٦٧ .
- عبدة بن الحارث بن عبدالمطلب: ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٧٥، ٤٥٥ .
- عتاب بن أسيد: ٦٢٦، ٦٢٧، ٧٦٩ .
- عتبان بن مالك الخزرجي: ٣١٧ .
- عتبة بن أبي لهب: ١٦٩ .
- عتبة بن أبي وقاص: ٤٢٥ .
- عتبة بن ربيعة: ٣١٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨١ .
- عتبة به غزوان: ٣٥٤، ٣٥٦ .
- عتيبة بن أبي لهب: ١٦٩ .
- عثمان بن أبي العاص: ٦٦٩ .
- عثمان بن الحويرث: ١٦٧، ١٧٠ .
- عثمان بن طلحة: ٤٦٧، ٥٦٧، ٥٧٤، ٦٠٠، ٦٠٨ .
- عثمان بن عفان: ٦٧، ١٤٧، ١٦٧، ١٧٠، ١٩٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٨٥، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٤٢، ٤٥٤، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٦٠٤، ٦٠٧، ٦٤٧، ٦٥١، ٧٠٤ .
- عدّاس النصراني: ٢٦٦ .
- عدي بن حاتم الطائي: ٦٢٩، ٦٨٤ .
- عروة بن عتبة الهوازي: ١٥٠ .
- عروة بن مسعود الثقفي: ٥٢٦، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧ .
- عزال بن سموع: ٤٨٠ .
- عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحي (أو عزة الشاعر): ٣٨٨، ٤٠٨ .
- العزّي (صنم): ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٨٧، ١٩١، ٢٠٠، ٢٣٠، ٣٦٧، ٥١٩، ٥٧٣، ٦٠٦ .
- عزير: ٣٣٧ .
- عصماء بنت مروان: ٣٩٤ .
- عطاء: ٢٥٨ .
- عطارد بن حاجب: ٦٤٦ .

عفیر (حمار النبی): ٥٦١.

عقبة بن أبي معيط: ١٥٧، ٣٦٦، ٣٨٣، ٣٨٤، ٥٣٧، ٦٤٧.

عقیل بن أبي طالب: ١٣٣.

عكرمة بن أبي جهل: ٤٠٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤٧٣، ٥٢٢، ٥٧٣، ٥٨٨، ٥٩٩، ٦٠٤.

العلاء بن الحضرمي: ٥٤٤.

عليّ بن أبي طالب: ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ١١٣، ١٣٣، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩،

١٩٠، ٢٢٠، ٢٦١، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٦٧،

٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٤، ٤٠٤، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦،

٤٢٨، ٤٣٨، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٨٦، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٣٢، ٥٥٠،

٥٥٢، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٦٠٢، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٣، ٦١٤، ٦٢٩،

٦٥٢، ٦٥٣، ٦٦٥، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٧، ٦٨٧، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٦، ٧٠٠، ٧٠٤،

٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٤،

٧٢٥، ٧٢٦، ٧٣١، ٧٣٣، ٧٣٥، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣،

٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٦٨، ٧٧٢، ٧٧٣.

عليّ أحمد الشهداوي (المصحح بدار الكتب المصرية): ٧٨٥.

عليّ فودة: ٧٨٥.

علیم بن الحارث بن كلدة: ٦٢٣ — ٦٢٤.

عمارة (أخت ميمونة): ٥٧٢.

عمار بن ياسر: ٢٠٦، ٦٠٧.

عمارة بن عقبة: ٥٣٧.

عمارة بن الوليد بن المغيرة: ٢٠٢.

عمر بن أبي ربيعة: ٤٨٩.

عمر بن أسد: ١٦٠.

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): ٦٦، ٦٧، ١٧٩، ١٨٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٢٩،

٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٠، ٢٨٢، ٣٠٠، ٣٠٨، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٦٧، ٣٦٨،

٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٨، ٤٥٣، ٤٥٤،

٤٦٢، ٤٨٦، ٤٩٩، ٥٠٢، ٥٢٨، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٠، ٥٤٨،

٥٥٠، ٥٥٥، ٥٧٠، ٥٨٥، ٥٨٩، ٥٩١، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦٠٧، ٦٢٧، ٦٣٣،

٦٣٦، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٢، ٦٦٢، ٦٩٩، ٧٠٤، ٧٠٦، ٧٢٦، ٧٢٩، ٧٣٠،
٧٣١، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٤١، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧،
٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٥، ٧٦٨، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٦.

عمرة بنت علقمة الحارثية: ٤٢٤.

عمرو بن أم مكتوم: ٣٦٦.

عمرو بن أمية الضمري: ٤٣٦، ٤٣٨، ٥٤٤.

عمرو بن جحاش بن كعب: ٤٣٨.

عمرو بن الجموح: ٣٧٩.

عمر بن الحضرمي: ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦٣.

عمرو بن سالم الخزاعي: ٥٨٨.

عمرو بن العاص السهمي: ٢٠٠، ٢١٥، ٥٤٤، ٥٦٧، ٥٧٤، ٥٨٢،

عمرو بن عبد ود: ٤٧٣.

عمرو بن معد يكرب: ٦٨٤.

عمير بن عوف: ٣٩٤.

العوام بن خويلد بن أسد: ١٣٣.

عيسى (عليه السلام): ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ٩٢، ٩٣،
١٤٩، ١٥٨، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٧، ٢١٨، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٢٠، ٣٣٤،
٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٧، ٣٨٧، ٤٥٠، ٤٦٢، ٥٤٣، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٣،
٦٩٤، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٧٧.

عيننة بن الأقرع: ٤٨٥.

عيننة بن حصن بن حذيفة: ٤٦٧، ٤٧٢، ٤٩٦، ٤٧٩، ٤٢٣، ٧٤٦.

(غ)

غليوم بَسْتَل: ٥٤.

(ف)

فاطمة بنت الخطاب: ٢٢٠، ٢٢١.

فاطمة بنت الرسول(صلى الله عليه وآله) : ٦٧، ١٦١، ١٦٢، ١٧٠، ١٨١، ١٨٣، ٢٦٥، ٣٠٧،
٣٤٠، ٤٠٤، ٤٢٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٩٠، ٦٣٠، ٦٦٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٩،
٧٠٠، ٧٢٨، ٧٣٦، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢.

فرات بن حيان: ٤٠٣.

فرانسيسك ميشيل: ٥٢.

فرعون موسى: ٧٥، ١٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩.

فروة بن عمرو الجذامي: ٥٦٨.

الفضل بن العباس: ٦٦١، ٦٦٢، ٧٣١.

فحاص اليهودي: ٣٣٤، ٣٣٥.

فوستر: ٥٤.

فيفس: ٥٣.

فيل: ٦٨، ٤٦٢.

فيميون: ٨٦.

(ق)

قارون: ٢٤٧.

القاسم بن الرسول(صلى الله عليه وآله) : ١٦١، ١٦٨، ١٧٠، ٦٦٠.

قتادة: ٢٥٨.

قثم بن العباس: ٧٦٨.

قرمان المنافق: ٤٢٠، ٤٢١.

قس (بن ساعدة): ١٥٠، ١٩١.

القصواء (ناقة الرسول(صلى الله عليه وآله)): ٥٥٢، ٥٦٨، ٦٠٠، ٧٠١، ٧٠٢.

قصي بن كلاب: ١١٥، ١١٧.

قيس بن سعد بن عبادة: ٧٦٢.

قيصر (ملك الروم): ٧٦، ٨٦، ٨٧، ١١٤، ١٦٧، ٤٧٢، ٥٢٧.

قينة بن خطل: ٦٠٥.

(ك)

كارليل: ٥٤، ٦٨ .
كرز بن جابر الفهري: ٣٤٧.
كسرى أبرويز: ٤٤، ٨٧، ٨٨، ٤٧٢، ٥٢٧، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٧، ٥٥٨،
٥٦٠، ٥٦١، ٧٤١.
كعب بن أسد: ٤٧٠، ٤٧٨، ٤٨٠ .
كعب بن الأشرف: ٣٩٥، ٤٠٢، ٤٣٨.
كعب بن زهير: ٦٢٨.
كعب بن زيد: ٤٣٦.
كعب بن مالك: ٤٢٦، ٦٥٨.
كلاب بن مرة: ٦١٢.
كنانة بن أبي الحقيق: ٤٦٥.
كنانة بن الربيع: ٥٥٧.
كوسال ديرسفال: ٥٤، ٦٦، ١٣٩.

(ل)

اللات (صنم): ١١٤، ١٢٨، ١٦٨، ١٧٢، ١٨٧، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٦٦،
٣٦٧، ٤٢٤، ٥١٩، ٥٧٣، ٦٦٦، ٦٦٨، ٦٦٩.
لامنس: ٦٥، ٤٤٩، ٤٦٢.
لبيد بن الأعصم: ٥٦٤.
لقمان: ٢٨٦.
لورد اللبني: ٣٦٠.
لوط (عليه السلام): ٦٤٢.

(م)

ماحوم (الصنم): ٥٣.
مارية القبطية: ٤٥٢، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥٦١، ٦٢٧، ٦٣١،
٦٣٢، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٤٢، ٦٦١.
مالك بن جعشم المدلجي: ٣٦٦.

مالك بن عوف النصري: ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٦، ٦١٩، ٦٢٣.
ماهوم: ٥٣.

مجلي بن عمرو الجهني: ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٧٠.

الشيخ محمد عبده: ١٢، ٥٩، ١١٣، ٢٣١، ٤١٤.

محمد بن مسلمة: ٤٣٨، ٥٥٢، ٥٦٧، ٦٥٢.

الشيخ محمد مصطفى المراغي: ٦٥.

الأستاذ محمود بك خاطر: ٧٨٤.

مراتشي: ٥٤.

مرارة بن الربيع: ٦٥٨.

مرثد بن مرثد الغنوي: ٣٦٧.

مرحب اليهودي: ٥٥١، ٥٥٢.

مروان (أمير المدينة): ١٢٧.

مریم(عليها السلام) : ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٧، ٧٥، ٧٧، ٩٣، ٢٠٩، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٩٣،

٣٢٦، ٤٥٠، ٥٤٣، ٦٨٩، ٦٩١، ٦٩٤، ٧٤٤، ٧٤٧.

مسطح بن أثاثة: ٥١١.

مسعر بن رخيلة: ٤٦٧.

مسلم بن الحجاج القشيري (صاحب الصحيح): ٦٩٩.

مسيلمة بن حبيب: ٦٨٤.

مسلم بن عقيل بن أبي طالب: ١٣٣.

مسيلمة (الكذاب) : ٧١٣.

مصعب بن عمير: ٢٨١، ٢٨٨، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٨٤.

مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي: ١١٠، ١١٧، ١٢٤.

المطعم بن عدي: ٢٥٥.

المطلب بن عبد مناف: ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣.

معاذ بن جبل: ٥٥٦، ٦٢٦، ٦٢٧.

معاذ بن عفراء: ٣١٠.

معاذ بن عمرو بن الجموح: ٣٧٩.

معاوية بن أبي سفيان بن حرب: ١٢١، ١٣٣، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٧٨، ٥٥٤، ٥٥٨، ٥٦٠، ٦٢٣، ٦٩٠، ٦٩٥.

معبد الخزاعي: ٤٢٩.

المغيرة بن شعبة: ٥٢٧، ٦٦٧، ٦٦٩، ٧٤٤، ٧٤٧، ٧٤٨.

المغيرة بن عبدالله المخزومي: ١٢٥.

المقداد بن عمرو: ٣٦٨، ٣٨٤.

المقوقس: ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٦١، ٦٣١.

مكرز بن حفص: ٣٩١.

مكرم عبيد (الأستاذ): ٦٥.

مناة (الصنم): ١٦٩، ٢٢٤، ٢٣١، ٣٠٨.

المنذر بن عمرو: ٤٣٦.

المهاجر بن أمية المخزومي: ٥٤٥.

موسى بن عمران (عليه السلام): ٤٧، ٧٥، ٨٦، ١٤٩، ١٥٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٨١،

٢٠٠، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٨٣، ٣١٦،

٣١٧، ٣٢٠، ٣٣٨، ٣٨٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٦٢، ٥٤٩، ٦٥٢، ٦٨٨، ٦٩٣،

٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٧، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٧٦.

موير = وليم موير

ميسرة (غلام خديجة): ١٥٨.

ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين): ٥٦٧، ٥٧١، ٥٧٢، ٧٢٤، ٧٣٠.

(ن)

نائلة (صنم): ١٢٤، ١٢٥، ١٩١.

النايعة: ٢٩٦.

النجاشي: ٨٦، ٨٧، ١٢٨، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٦١،

٣٣٠، ٥٨، ٥٦٢.

نسطاس: ٤٣٤.

نسطور الراهب: ١٥٨.

النضر بن الحارث: ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٨.

النعمان بن المنذر: ٨٧، ١٥٠، ١٥١، ٦٢٢.

نعيم بن عبدالله: ٢٢٠.

نعيم بن مسعود الأشجعي: ٤٠٣، ٤٢٢، ٤٧٥، ٤٧٦.

نفيسة بنت منية: ١٥٩.

نفيل بن حبيب الخثعمي: ١٢٨.

نوح(عليه السلام): ٤٧، ٢٧٠، ٣٨٧.

نوفل بن عبدالله بن المغيرة: ٤٧٣.

نوفل بن عبدمناف: ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٣٣.

نيكولا دكيز: ٥٣.

(هـ)

هاجر: ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩.

هارون(عليه السلام): ٢٧٠.

هاشم بن عبدمناف: ٩٤، ٩٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٣، ١٥٢، ١٦٦.

هالة بنت عبدمناف (أم حمزة): ١٣٥.

هبار بن الأسود بن المطلب: ٦٣٠.

هبل (صنم): ٩٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٩١، ١٩٨، ١٩٩.

٢٠٠، ٢٤٧، ٢٤٨، ٤٣١، ٥١٨، ٦٠٢.

هرقل: ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٥٧، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١.

٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٦، ٥٨٧، ٧٤٥.

هشام بن صبابه: ٤٩٨.

هشام بن عمرو: ٢٥٤.

هلال بن أمية: ٦٥٨.

هند بنت أبي طالب = أم هانئ

هند بنت عتبة: ٣٩٢، ٤٠٨، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٧، ٤٨٩، ٦٠٤.

هوتنجر: ٥٤.

هود(عليه السلام): ١١٥.

هوذة بن قيس: ٤٦٥.

هورس: ٧٤.

هيرن: ٨٣.

هيروودوت: ١١٤.

(و)

واشنطن أرفنج: ٤٤٩.

واقد بن عبدالله التميمي: ٣٦٣.

الواقدي: ٥٣٢.

وائل بن حجر الكندي: ٦٩٥.

وحشي الحبشي (مولى جبير): ٤٢٠.

ورقة بن نوفل: ١٤٥، ١٦٧، ١٧١، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ٢٠٥.

الوليد بن عتبة بن ربيعة: ٣٧٥.

الوليد بن عقبة: ٥٣٧.

الوليد بن المغيرة: ١٦٤، ٢٠٢، ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٦.

وليم موير: ٥٥، ٦٥، ٨٣، ١١١، ١١٢، ١٤٣، ٢٢٧، ٥١١.

وهب بن عبد مناف: ١٣٥.

وهرز: ٨٨.

(ي)

يحيى (عليه السلام): ٢٧٠.

يسار: ٤٠١، ٤٤٧.

اليسير بن رزام: ٥٤٨.

يعرب بن قحطان: ١١٠.

يعفور = عفير

يعقوب (عليه السلام): ٣٣٨.

يوحنا بن رؤبة: ٢٢٠، ٢٢٧.

يوسف(عليه السلام) : ٧٢٦ ، ٧٢٨ .

يوسف النجار: ٤٥٠ .

يوليوس قيصر: ١١٤ .

يونس بن متى(عليه السلام) : ٢٦٦ ، ٤٦٢ .

فهرس الأمم والقبائل والطوائف

(أ)

الآشورية: ٧٣، ٧٤.

آل أبي بكر: ٧٣٤.

آل جعفر: ٥٨١.

آل فرعون: ٢٧٣.

الأتراك: ٥٦٠.

الأحباش = الحبشة

الأريسيون: ٥٤٤.

الأزد: ٦٨٥.

أزد اليمن: ٨٩.

أسد = بنو أسد

أسد عُمان: ٦٨٥.

أسلم: ٦٨٥.

أشجع: ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٨٧، ٦٨٥.

الأشعريون: ٦٨٥.

الأعاجم = العجم

الأغريق: ٥٧٧.

الأفغان: ٤٣.

الألمان: ٣٧٧.

أمريكا: ٣٦٠.

الأنصار: ٢٨٩، ٢٩٥، ٣١١، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٣٢، ٣٣٥،

٣٤٠، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٨٤، ٤٠٠، ٤١١،

٤١٦، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٥٦، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٤، ٥٠٩، ٥٢٢، ٥٤١، ٥٤٨،

٥٥٦، ٥٦٧، ٥٧١، ٥٩٢، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦٠٢، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٣، ٦١٥، ٦٢٣،
٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٥٨، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٦، ٧٤٨، ٧٤٩،
٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١،
٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٧٢.

أهل قحمة: ١٢٨.

أهل حنين: ٧١١.

أهل كندة: ٩٦.

أهل النبي (صلى الله عليه وآله): ٧٧٠.

الأوس: ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٣، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٩،
٣٢١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٦٧، ٣٩٧، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٨،
٤٣٩، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٧٩، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥١٢، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠.
إيطاليا: ٣٦٠.

(ب)

بارق: ٦٨٥.

باهلة: ٦٨٥.

بحيلة: ٦٨٥.

البروتستانتيون: ٦٠، ٣٩٠.

البطالسة: ٩٣.

بكر بن وائل = بنو بكر بن وائل

بلي: ٥٥٧، ٦٨٥.

بنو أسد: ١٥٧، ١٩٨، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٥٥، ٧١٢.

بنو إسرائيل = اليهود

بنو الأصفر = الروم

بنو أمية: ١٢٢، ١٤٧، ٤٥٤.

بنو أمية بن زيد: ٣٩٤.

بنو البكاء: ٦٨٥.

بنو بكر: ٣٦٥، ٥٨٧، ٥٩٨.

بنو بكر بن عبد مناة: ٥٨٨.

بنو بكر بن وائل: ٤٠٣، ٦٨٥.

بنو تميم: ٦٤٦، ٦٨٥.

بنو تيم: ١٥٢، ١٩٨.

بنو ثعلبة: ٣٢١، ٤٠١، ٤٤٤، ٦٨٥.

بنو جشم: ٣٢١، ٦١٠.

بنو الحارث: ٣٢١، ٦٨٥.

بنو حمير = حمير

بنو حنيفة: ٢٨٢، ٢٦٧، ٦٨٤، ٦٨٥.

بنو خزاعة = خزاعة

بنو الخزرج = الخزرج

بنو خطمة: ٣٨٥.

بنو الدئل: ٣٠٥.

بنو دوس: ٦٢٠، ٦٨٥.

بنو الديلم: ٥٨٨.

بنو زهرة: ١٢١، ١٣٥، ١٥٢، ١٩٨، ٣٧٢.

بنو ساعدة: ٣٢١، ٤١٧، ٤٣٦.

بنو سعد: ١٢٥، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٢، ٤٦٦.

بنو سعد بن بكر: ١٤٤، ٦٨٥.

بنو سلمة: ٣٠٨، ٣٠٩، ٦٤٩.

بنو سلول: ٦٨٤.

بنو سليم: ٤٠١، ٤٠٢، ٤٣٦، ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٧٥، ٥٨٧، ٥٩٢، ٦١١، ٦٢٣، ٦٨٥.

بنو سهم: ١٩٩، ٣٠٧.

بنو شيبان: ٦٠٦، ٦٨٥.

بنو ضمرة: ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨.

بنو ظفر: ٣٠٨، ٤٢٠.

بنو عامر: ٢٨٢، ٣٤٦.

بنو عامر بن صعصعة: ٢٦٧، ٦٨٥.

بنو عبدالأشهل: ٢٨٦، ٣٠٨، ٧٦٠.

بنو عبدالدار: ١٢٠، ١٦٤، ٤١٧.

بنو عبدالمطلب: ١٢٥، ١٣٦، ١٤٧، ١٩٣، ١٩٨، ٢٣٦، ٢٦١، ٢٨٢، ٥٩١، ٦٢٢، ٦٢٣.

بنو عبدمناف: ١١٩، ١٢٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٢٠، ٢٤٦، ٢٩٧.

بنو العجلان: ٥٨٠.

بنو عدي: ١٦٤.

بنو عدي بن كعب: ٥٢٨.

بنو عريض: ٥٥٦.

بنو عمرو بن عوف: ٣٩٤.

بنو العنبر: ٥٥٦.

بنو غازية: ٥٥٦.

بنو فزارة: ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٨٧، ٦٨٥.

بنو قريظة: ٣١٥، ٣٢٢، ٤٦٣، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٩٦، ٥١٢، ٥٤٧، ٥٥٨.

بنو قيلة = الأوس والخزرج

بنو قينقاع: ٣١٥، ٣٢٢، ٣٣٥، ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٣٩، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٨٠، ٥٤٧، ٥٥٣.

بنو كعب: ٥٢٣، ٦١٠.

بنو كنانة: ١٥١، ١٥٢، ٢٢٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٤٦٥، ٥٩٠، ٦٨٥.

بنو لحيان: ٤٣٣، ٤٨٥، ٤٩٦.

بنو الليث: ٥٧٥.

بنو محارب: ٤٠١، ٤٤٤، ٦٨٥.

بنو مخزوم: ١٥٧، ١٦٦، ١٩٨، ٢١٢.

بنو مدلج: ٣٤٧، ٣٤٨.

بنو مرة: ٤٦٦، ٤٦٧، ٦٨٥.

بنو المصطلق: ٤٨٥، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥١٠، ٥١٢، ٥١٣، ٦٤٦، ٦٤٣.

بنو النجار: ١٤٥، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٨٠.

بنو النضير: ٣١٥، ٣٢٢، ٤٣١، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٧١،

٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩، ٤٨١، ٥٤٧، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٨، ٥٥٩.

بنو هاشم: ١٥٢، ١٢١، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٦، ١٨٦، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٤، ٢٣٦،

٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩١، ٣٨٠، ٥٩٢، ٦١٢، ٧٤٨، ٧٦٣، ٧٦٥.

بنو هوازن: ١٤٥.

بنو وائل: ٤٦٥.

بھراء: ٥٧٧، ٦٨٥.

البيزنطيون: ٥٣، ٨٧، ٥٤٢، ٦٥٦.

(ت)

تحيب: ٦٨٥.

تغلب: ٦٨٥.

تميم = بنو تميم

تيوزوفية الهند: ٥٧، ٧٠.

(ث)

ثعلبة = بنو ثعلبة

ثقيف: ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨٢، ٤٠٨، ٦٠٩، ٦١٣،

٦١٥، ٦١٦، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٣، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩،

٦٨٥.

ثمالة: ٦٨٥.

ثمود: ١١٥، ١٤٨، ١٥٨، ٦٥٤.

(ج)

جذام: ٥٧٧، ٦٨٥.

جذيمة: ٦٠٧.

جرم: ٦٨٥.

جرهم: ٩٩، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١١٧، ١٢٥.

جشم = بنو جشم

جعدة: ٦٨٥.

جعفي: ٦٨٥.

جهينة: ٦٨٥.

جيشان: ٦٨٥.

(ح)

الجار بن كعب: ٦٨٥.

الحبشة: ٥٦، ٧٥، ٧٨، ٨٧، ٨٨، ٩٣، ٩٤، ١٢٨، ١٤٢، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٩، ٢١٣،
٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩،
٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٥٢، ٣٦٥، ٤٠٣، ٤٢٠، ٤٥٣،
٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٦٢، ٥٦٤، ٦٨٩، ٧٢٠، ٧٣٠.

الحدان: ٦٨٥.

حضر موت: ٦٨٥.

حمير: ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٦٨٤، ٦٨٥.

حنيفة = بنو حنيفة

الحواريون: ٥٧، ٧٥، ١٠٥، ١٩٩، ٢٩٣، ٣٢٠، ٥٤٣، ٥٤٤.

(خ)

ختعم: ٦٨٥.

خزاعة: ١١٧، ١١٨، ١١٩، ٤٠٩، ٤٩٨، ٥٢٥، ٥٣٣، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩،
٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٠٥، ٦٠٦.
الخزرج: ١٢٢، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٠،
٣١٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٦٧، ٣٩٢، ٣٧٩،
٤٠٩، ٤١٠، ٤٢٥، ٤٣٩، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٧، ٥١٢، ٥٥٠،
٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١.

خشين: ٦٨٥.

حولان: ٦٨٥.

(د)

الداريون = بنو عبدالدار

دوس = بنو الدوس

(ذ)

ذبيان: ٥٨٧.

(ر)

ربيعه: ١١٨، ٦٨٥.

الرهاويون: ٦٨٥.

رؤاس بن كلاب: ٦٨٥.

الروم: ٤٤، ٤٥، ٥١، ٥٧، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ١٤٩، ١٦٧، ٣٣٧، ٤٨٦، ٥٤٤،

٥٦١، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٠، ٥٨٥، ٥٨٦، ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٢،

٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٠، ٧١١، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٦، ٧٦٧.

رومانيا: ٣٦٠.

(ز)

زبيد: ٦٨٥.

(س)

سعد بن بكر = بنو سعد بن بكر

سعد العشيرة: ٦٨٥.

سعد هذيم: ٦٨٥.

سلامان: ٦٨٥.

سليم = بنو سليم

(ش)

شبيان = بنو شبيان

الصدق: ٤٨٥.

[illegible]

٤٩٠ ، ٤٨٨ ، ٤٨٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨١ ، ٤٧٣ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦ ،
٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ،
٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨٢ ،
٥٩٣ ، ٦٠١ ، ٦١١ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٤٥ ،
٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٨ ، ٦٦٥ ، ٦٧٠ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ،
٦٩٥ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧١٦ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٤١ ، ٧٤٥ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ،
٦٧١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٩ .

عقيل بن كعب: ٦٨٥ .

عنس: ٦٨٥ .

(غ)

غافق: ٦٨٥ .

غامد: ٦٨٥ .

الغساسنة: ٧٨ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

غطفان: ٤٠١ ، ٤٤٤ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،
٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٤٩٧ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ .

(ف)

الفرس: ٤١ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٤٩ ، ٢٣٩ ، ٤٧٤ ، ٤٨٦ ، ٥٤٢ ، ٥٥٩ ،
٥٦٠ ، ٦٤٨ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٧١١ .

فزارة = بنو فزارة

الفندال: ٧٦ ، ٩٣ .

(ق)

القبط: ٥٦١ .

قريش: ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

القين: ٥٠٦.

(ك)

الكاثوليك: ٦٠، ٣٩٠.

كعب = بنو كعب

كلاب: ٦١٠، ٦٨٥.

كلب: ٢٨٢، ٦٨٥.

كنانة = بنو كنانة

كندة: ٢٦٧، ٢٨٢، ٦٨٥، ٦٩٤.

(ل)

اللخميون: ٧٨، ٥٧٧.

الجوس: ٤٤، ٤٥، ٧٨، ٧٩، ٢٠٣، ٥٤٥، ٧١٢.

مجوس فارس: ٢٥١.

محارب = بنو محارب

مذحج: ٦٨٥.

مراد: ٦٨٥.

مرة = بنو مرة

مزينة: ٥٩٢، ٦٨٥.

المسيحيون: ٤٤، ٤٥، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧،

٧٨، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٢١٤، ٢٩٠، ٢٢٠، ٢٨٤، ٣٣٧، ٣٤١، ٣٥٧، ٣٥٨،

٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٥٠، ٤٦٤، ٤٩٠، ٥٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٩١،

٧١٤.

المصريون: ١١١، ١١٩، ٢٥١، ٤٨٦، ٧٠٤.

المكيون: ١٦٧، ٢٨٩.

المناذرة: ٧٨، ١٣١.

المهاجرون: ٢١٥، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٦١، ٢٩٦، ٢٠٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٣١١،

٣١٢، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥٤،

٣٥٥، ٣٦٥، ٣٦٧، ٤١١، ٥٠٧، ٥٢٢، ٥٤١، ٥٦٨، ٥٨٢، ٥٩٢، ٥٩٥، ٥٩٨،

٥٩٩، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦٢٤، ٦٢٧، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧١٤، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٦،
٧٤٨ — ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٦٧، ٧٧٢.
مهرة: ٦٨٥.

(ن)

ناهس: ١٢٨.
نجران: ١٣١، ٢١٨، ٦٨٥.
النجع: ٦٨٥.
النصارى = المسيحيون
نصارى الحبشة: ٩٤.
نصارى الروم: ١٤٩.
نصارى الشام: ١٥٨.
نصارى نجران: ٨٦، ٩٤، ٢١٨، ٣١١، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٦٨٩، ٦٩٦.
نصر: ٧١٤.

(هـ)

هذيل: ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٦٤، ٦٠٥.
الهكسوس: ١٠٢.
هلال بن عامر: ٦٨٥.
همدان: ٦٨٥.
الهنود: ٢٥١.
هوازن: ١٤٥، ١٥١، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٥، ٦١٦، ٦٢٢، ٦٢٣.

(و)

الوثنية الإغريقية: ٩٤.
الوثنية المصرية: ٩٤.
الوثنية اليونانية: ٧٤.

الوثنيون: ٤٣، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٨٦، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥،
١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٩، ١٥٠، ١٦١، ١٦٨، ١٧٤، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٥٧،
٢٨٥، ٣٠٩، ٣٤٩، ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٣٥، ٤٦٦، ٤٩٠، ٥٢٠، ٥٤٥، ٦٠٢، ٦٠٨،
٦٧٠، ٦٧٣، ٦٨٢، ٦٨٨، ٦٩٤، ٦٩٦، ٧٧٤.

(ي)

اليمن: ٤٣.

اليهود: ٤٦، ٥٠، ٦٥، ٧٠، ٨٦، ٩٣، ١٠٥، ١١١، ١٣١، ١٣٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠،
١٦٦، ١٧١، ١٧٤، ٢٥٠، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،
٢٩٢، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣١،
٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٥٢، ٣٥٣،
٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤١١، ٤١٦،
٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٥٠، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٥،
٤٩١، ٥١٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٦،
٥٥٧، ٥٦١، ٥٦٤، ٥٨٧، ٦٧٠، ٦٨٥، ٦٨٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٧٢.

يهود البحرين: ٥٥٦.

يهود بني عوف: ٣٢١.

يهود بني النجار: ٣٢١.

يهود بني النضير: ٤٣٨.

يهود تيماء: ٥٤٨، ٥٥٦.

يهود خبير: ٣١٥، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥٣.

يهود المدينة: ٢٥٨، ٣١١، ٣٥٣، ٣٦٨.

يهود وادي القرى: ٣٩٨، ٥٤٨.

فهرس الأماكن

(أ)

آسيا: ٤٢، ٤٨٩، ٤٨٠.

آشور: ٧٤، ٧٦.

الأبواء: ١٤٦، ٢٨٣، ٣٤٦، ٣٥١، ٤٠٩.

أبو قبيس: ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٩٧، ٦٠٦.

الأثيل: ٣٨٣.

أحياد: ١٥٤.

أحد: ١٨٩، ٣٧٣، ٣٨٨، ٣٩٢، ٤٠٧، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٣،

٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٥، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٨٨،

٥٤٢، ٥٧٣، ٦٠١، ٦٠٤، ٦١٤، ٦١٨، ٧٢١، ٧٢٤.

أذرح: ٦٥٦.

أذرعاء: ٤١، ٣٩٨، ٤٤٠، ٤٧٩.

الأراك: ٥٩٣.

أرض بني عامر: ٤٣٦.

أرض جذام: ٥٨٢.

أرض العرب = بلاد العرب

إرم: ٢٨٨.

إسبانيا: ٤٢.

استراليا: ٢٧٦

إفريقية: ٤٢.

افغانستان: ٤٢.

الأقصر: ٦٣.

ألمانيا: ٥٤، ٣٧٧.

أم القرى = مكة

أمريكا: ٤٤، ٤٨٠.

الأندلس: ٤٢، ٤٣، ٥١، ٥٣، ٥٥٣.

أنطاكية: ٥٣.

انجلترا: ٧٦.

أوروبا: ٤٢، ٤٤، ٧٦، ٢٥٩، ٣٨٩، ٣٩٩، ٤٥٧، ٤٨٩، ٤٩٠، ٥٤٦، ٤٨٠.

أوروبا الشمالية: ٤٨٩.

أوروبا الغربية: ٤٨٩.

أوشليم: ٥٥٣.

أوطاس: ٦١٠.

أيلة: ٦٥٥، ٦٥٦.

إيوان كسرى: ٨٧.

(ب)

باب أبي بكر: ٧٢٥.

باب الصفا: ١٦٥، ١٦٦.

بادية الشام: ٨٠.

باريس: ٣٩٠.

البحر الأبيض المتوسط: ٧٤، ٧٨، ٩٣.

البحر الأحمر: ٧٨، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ٩٩، ١١٦، ٣٠٥، ٣٤٨، ٤٤٤.

بحر الروم = البحر الأبيض

بحر القلزم = البحر الأحمر

بحران: ٤٠٢.

البحرين: ٥٤٤، ٥٦٢، ٦٨٣.

بدر: ١٨٩، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢،

٣٧٣، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٨٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٠،

٤٠١، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١، ٤١٢، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٣٠،

٤٣١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٥٥، ٤٦٣، ٤٦٩، ٥١٨، ٥١٩، ٥٤٢، ٥٨٩، ٥٩١،
٥٩٣.

البرقة: ٤٢.

البصرى: ٤٤، ١٤٨، ١٥٨، ٥٥٩، ٥٧٦.

البقيع (بقيع الغرقد): ٥٥٨، ٦٦٢، ٧٢٢، ٧٢٣.
بكة = مكة

بلاد الروم: ٨٦، ٦٤٧، ٦٦٩.

بلاد العرب: ٤٣، ٤٥، ٦٥، ٦٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١١١،
١١٢، ١١٤، ١١٥، ١٢٧، ١٣٣، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٨٢، ٢٤٤، ٣٨٠، ٤٦٣، ٤٦٤،
٤٦٦، ٤٦٨، ٤٨٧، ٥٤٣، ٥٥٠، ٥٥٦، ٥٥٩، ٥٦١، ٥٦٤، ٥٩٣، ٦١١، ٦٢١،
٦٤٧، ٦٥٨، ٦٨٢، ٦٨٥، ٧١٢، ٧١٤.

البلد الحرام = مكة

البلقاء: ٧١٤، ٧١٦، ٧٧٢.

البلقان: ٤٢.

البندقية: ٢٧٦.

بواط: ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١.

بولونيا: ٤٢.

البيت = البيت الحرام

بيت إبراهيم = البيت الحرام

بيت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه): ٢٩٩، ٥٠٨.

بيت إسماعيل = البيت الحرام

البيت الحرام: ٥٩، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥، ١١٠، ١١٣،
١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥، ١٦٤، ٤٣٨، ٥١٩،
٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٥، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠،
٥٩٧، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦٧٣، ٦٧٤، ٧١١.

بيت الحميرة: ١٢٧.

بيت عائشة = دار عائشة

البيت العتيق: البيت الحرام

بيت اللات: ١٢٨.

بيت لحم: ٢٧٠، ٢٧٦.

بيت المقدس: ٢٦٨، ٢١٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨٣، ٣١٩، ٣٣٦، ٣٦٠، ٤٦٥، ٥٤٢،
٥٥٩، ٥٦٠، ٦٦٥، ٦٧٠، ٧٦٧.

بيت ميمونة = دار ميمونة

بيت اليمين: ١٢٧.

بئر معونة: ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٧، ٤٦٧.

بيزنطية: ٧٦، ٧٧، ٨٧، ٨٩، ٩١، ٩٣، ١٦٧، ٥٤٢، ٥٤٣.

(ت)

تبوك: ٦٤٥، ٦٥٢، ٦٥٥، ٦٥٧، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٨٣، ٦٨٥، ٧١٤،
٧٧٦.

التركستان: ٤٢.

تامة: ٨٤، ٩٠، ١٢٨، ١٢٩، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١١، ٦١١، ٦٢٣، ٦٧٧، ٧١١.

تونس: ٤٢.

(ث)

ثنية المرار: ٥٢٤.

ثنية الوداع: ٤٩٧.

(ج)

جبال اليمن: ٨٥.

جبل سيناء: ٢٧٠، ٢٧٦.

جبل هند: ٥٩٨، ٥٩٩.

الجحفة: ٤٠٨، ٥٩٢، ٥٩٥، ٧٠٤.

جدة: ٩٩، ١٦٤.

جرباء: ٦٥٦.

الجرف: ٦٥٢، ٧١٥، ٧١، ٧٢٢، ٧٦٠، ٧٧١.

الجزائر: ٤٢.

الجزيرة = بلاد العرب

جزيرة العرب = بلاد العرب

الجعرانة: ٦٠٩، ٦١٦، ٦٢١، ٦٢٦.

(ح)

الحبشة: ٥٦، ٧٥، ٧٨، ٨٧، ٨٨، ٩٢، ٩٤، ١٢٨، ١٤٢، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٩، ٢١٣،
٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣،
٢٣٤، ٢٣٦، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٥٢، ٣٥٦، ٤٠٣، ٤٢٠، ٤٥٣، ٥٣٩،
٥٤٣، ٥٤٤، ٥٦٢، ٥٦٤، ٦٨٩، ٧٢٠، ٧٣٠.

الحجار: ٩٠، ٩٦، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١٥١، ٣١٦، ٣٤٦، ٣٣٤، ٤٣٤، ٤٤٣،
٥٦٠، ٦٤٣، ٦٥٢، ٦٦٩، ٦٦٧، ٦٨٧، ٦٩٦، ٧٠٤، ٧٣٦.

الحجر: ٧١، ٦٥٤.

الحجر الأسود: ١١٤، ١٦١، ١٦٤، ٢٥٧، ٥٦٩، ٦٩٩.

الحديبية: ٤٥٨، ٥١٠، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩،
٥٤٠، ٥٤٧، ٥٥٦، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٣،
٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٦٦.

حراء: ١٦١، ١٦٨، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، ٥٦٨، ٦٠٠.

الحرم = البيت الحرام

الحرم المكي = البيت الحرام

حرة بني سليم: ٤٣٦.

حصن بن قريظة: ٤٨١.

حصن الزبير: ٥٥٢.

حصن السلام: ٥٤٩، ٥٥٢، ٥٥٤.

حصن الصعب بن معاذ: ٥٥١.

حصن القموص: ٥٥١.

حصن ناعم: ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١.

حصن نطاة: ٥٤٩، ٥٥٠.

حصن الوطيح: ٥٥٤، ٥٥٢، ٥٤٩.
حضر موت: ١١٥، ٦٦٥، ٦٦٩، ٦٨٥، ٦٨٧، ٦٩٥، ٧١١.
حمراء الأسد: ٤٢٩، ٤٣٠.
حمص: ٥٥٩.
حنين: ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦٣٠، ٦٦٦، ٧٢١.
الخوراء: ٣٦٤، ٣٦٥.
حوض البحر الأبيض المتوسط: ٧٨، ٩٣.
حوض البحر الأحمر: ٧٨، ٩٣.
الحيرة: ٨٠.

(خ)

خليج العقبة: ١١٥.
الخليج الفارسي: ٨٣، ٨٥.
الخنديق: ٤٤٥، ٤٦٣، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨٥، ٥١٢، ٥١٩،
٥٤٨، ٦٠١، ٦١٨.
خير: ١٤٧، ١٨٩، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٩، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٦٩، ٤٩١، ٥٣٨،
٥٣٩، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٢، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٤، ٥٨٧، ٦١٨،
٦٢٠، ٧٧٢.

(د)

دار أبي بكر = بيت أبي بكر الصديق
دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري: ٣١٠، ٣١٢.
دار بُديل بن ورقاء: ٥٢٥.
دار حفصة: ٦٢٧، ٦٣٦.
دار خديجة: ١٥٩.
دار عائشة: ٥٠٤، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٩، ٧٣٣، ٧٤٣، ٧٤٥.
دار عبدالله بن جدعان: ١٥٢.
دار عبدالمطلب: ١٣٩.

دار فاطمة: ٧٦٠، ٧٦٢.
دار مارية: ٦٣٢.
دار ميمونة: ٧٢٤.
دار الندوة: ١١٥، ٢٠١، ٢٩٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٦٧.
دار الكعبة: ١٣١.
الداروم: ٧١٤.
دجلة: ٨٠، ٨٣.
دمشق: ٥٦٠.
دومة الجندل: ٤٣١، ٤٤٤، ٤٤٥.
ديار ثمود: ١٤٨، ١٥٨.

(ذ)

ذات الرقاع: ٤٤٤.
ذات الطلح: ٥٧٦.
ذفران: ٣٦٧.
ذنب نقمي: ٤٦٨ — ٤٦٩.
ذو أمر: ٤٠١.
ذو أوان: ٦٥٩.
ذو الحليفة: ٥٢٢، ٥٣٦، ٦٩٨.
ذوى طوى: ٥٢٣، ٥٩٧.
ذو المجاز: ١٤٩، ١٥٠، ٢٣٨.

(ر)

رايغ: ٣٤٦.
ربوع تهامة: ٩٠.
ربوة الصفا: ٦٩٩.
الرجيع: ٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٩٦.
رضوى: ٣٤٧.

الركن الشامي: ١٦٥.

الروحاء: ٣٦٦، ٤٢٩.

روسيا: ٤٢.

الروم = بلاد الروم

رومة: ٤٦٨.

رومية: ٤٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٩٢، ٩٥، ٢٠٩، ٣٥٩، ٤٩٠.

(ز)

زمزم: ٩٩، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٢، ٢٠٠، ٦٠٨، ٧٣٢.

(س)

السبخة: ٤٧٣.

سد مأرب: ٨٥، ٨٩.

سدني: ٢٧٦.

سرف: ٥٧٢، ٦٩٨.

سفوان: ٣٤٧.

سقيفة بني ساعدة: ٧٣٦، ٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٣.

السلت: ٧٦.

السلسل: ٥٨٢.

سلع: ٤٦٩، ٤٧٣، ٤٩٧.

السنح: ٧٣٣، ٧٤١، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٨، ٧٦٣، ٧٧٦، ٧٧٧.

سورية = الشام

سيراخيفو: ٣٩٩.

(ش)

الشام: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٧٥، ٧٨، ٨٠، ٨٣، ١٠٩، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٠،

١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧،

١٨١، ٢١٨، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٦٣، ٣٦٤،

٣٩١، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٩٦، ٥٢٠، ٥٣٦،
٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٥٦، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٨٢، ٥٨٣،
٥٨٧، ٦٢٩، ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٥٣، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٦٥، ٧١٣، ٧١٤،
٧١٥، ٧١٦، ٧٢١، ٧٢٤، ٧٣٣، ٧٤٣، ٧٦٠، ٧٧١.

شبه جزيرة العرب = بلاد العرب

الشرق الأقصى: ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٦٨٠.

شعب العقبة: ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩.

٨٦، ١٠٨، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٨٠، ٤٢٢،
٤٢٦، ٦٠٦.

(ص)

صحراء إفريقية الكبرى: ٨١.

صخرة يعقوب: ٢٧٠.

الصفاء: ١٠٩، ١١١، ١٦٣، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٢٠، ٢٢١، ٥٧٠، ٦٠٢، ٦٩٩.

صنعاء: ١٢٩.

الصين: ٤٢، ٥١، ٧٣، ٤٨٩، ٥٤٦.

(ط)

الطائف: ٩١، ١٢٨، ١٤٥، ١٥٠، ٢٥٣، ٢٦٥، ٢٨٢، ٣٥٠، ٣٥٤، ٦٠٩، ٦١٧،
٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٠، ٦٦٥، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧٧، ٧٣٦.

(ع)

العالية: ٦٣١، ٦٦١.

العراق: ٤٢، ٧٣، ١٠٢، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١٦٧، ٤٠٣، ٤٠٧، ٥٤٣، ٧١١.

عرفات: ١٥٠، ٧٠١، ٧٠٣، ٧٠٤.

عرق الظبية: ٣٦٧، ٣٨٤.

عرنة: ٤٣٣.

العريض: ٤٠٠.

عسفان: ٤٩٦، ٥٢٣، ٥٨٩.

العشيرة: ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٤، ٣٨٥.

العقبة: ٢٨١، ٢٨٨.

العقيق: ٤٠٩.

عكاظ: ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ٢٣٨.

عمان: ٥١٢، ٥٤٤، ٥٦٢، ٦٦٥، ٦٨٥.

العيص: ٣٤٦، ٥٣٦.

(غ)

الغار = غار حراء

غار ثور: ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢.

غار حراء: ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨.

الغال: ٧٦.

غران: ٤٩٦.

غزة: ١٢٣، ١٣٦.

(ف)

فارس: ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٥٧، ٧٣، ٨٠، ٨٣، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٣، ١٢١، ٢٤٠، ٢٥١،

٤٤٠، ٥٤٣، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٦٦٦، ٧١١.

فارغ (حصن حسان بن ثابت): ٤٧٤.

فدك: ٣١٥، ٥٥٤، ٥٥٥، ٦٤٧، ٧٧٢.

الفرات: ٧٨، ٨٠، ٩٣.

فرنسا: ٦٩، ٧٦، ٣٦٠، ٣٩٠.

فلسطين: ٧٥، ٨٠، ٨٣، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ٢٠٩، ٣١٦، ٥٤٢،

٧١٤، ٧١٥، ٧٢٢.

فينيقيا: ٧٦، ٧٧.

(ق)

قباء: ٣٠٩، ٤١٠، ٤٣٨.

قبر أبي طالب: ٥٩٩.

قبر خديجة: ٥٩٩.

القردة: ٤٠٣.

قرقرة الكدر: ٤٠٠، ٤٠١.

القسطنطينية: ٤٢، ٥٦٠.

(ك)

كراع الغميم: ٥٢٣.

الكعبة: ٨٧، ٩٦، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١٤٥، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢، ١٨٩، ٢٠١، ٢٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٧، ٢١٢، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٥٦، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٤٣، ٣٦٥، ٤٣١، ٤٣٥، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٥، ٥٢٩، ٥٦٧، ٥٧٠، ٥٧٤، ٥٨٥، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦٧٠، ٦٩٩، ٧٣٢.

كنيسة القديس بطرس: ٩٥.

(م)

مأرب: ٨٥.

محنة: ١٤٩، ١٥٠، ٢٣٨.

الخيوط الهندي: ٨٠، ٨٥.

مدرسة الإسكندرية: ٩٤.

مدين: ١١٥، ١٤٨.

المدينة: ٤٦، ٧٧، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٥، ١٦٢، ١٦٩، ٢٠٠، ٢١٤، ٢١٦، ٢٥٨، ٢٧٤، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦٠، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠١، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٨، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤، ٤٤١، ٤٤٢.

٤٧٦ ، ٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٣ ، ٤٥٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٣ ،
 ٥٠٠ ، ٤٩٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٦ ، ٤٩٢ ، ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٣ ، ٤٨١ ، ٤٨٠ ، ٤٧٧ ،
 ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٠ ، ٥١٧ ، ٥١٢ ، ٥١١ ، ٥٠٦ ، ٥٠٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٢ ، ٥٠١ ،
 ٥٧٢ ، ٥٦٨ ، ٥٦٢ ، ٥٥٦ ، ٥٥٣ ، ٥٤٨ ، ٥٤٧ ، ٥٣٩ ، ٥٣٧ ، ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٤ ،
 ٥٩٢ ، ٥٩١ ، ٥٨٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٦ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٨٠ ، ٥٧٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٤ ،
 ٦٣٠ ، ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٦ ، ٦٢٠ ، ٦٠٩ ، ٦٠٥ ، ٦٠٢ ، ٥٩٩ ، ٥٩٨ ، ٥٩٦ ، ٥٩٥ ،
 ٦٦٦ ، ٦٦٥ ، ٦٥٩ ، ٦٥٧ ، ٦٥٦ ، ٦٥٤ ، ٦٥٣ ، ٦٥٢ ، ٦٤٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٥ ، ٦٣١ ،
 ٧١٥ ، ٧١١ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣ ، ٦٩٨ ، ٦٩٧ ، ٦٩٤ ، ٦٩٦ ، ٦٨٧ ، ٦٧٢ ، ٦٦٩ ، ٦٦٧ ،
 ٧٧١ ، ٧٧٠ ، ٧٦١ ، ٧٤٤ ، ٧٦٠ ، ٧٣٣ ، ٧٢٩ ، ٧٢٢ ، ٧٢١ ، ٧٢٠ ، ٧١٨ ، ٧١٦ ،
 ٧٧٢ .

مراكش: ٤٢ .

مرید سهل وسهيل: ٣١٠ ، ٣١٢ .

مر الظهران: ١٥٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ .

المروة: ١٠٩ ، ١١١ ، ٢٠٠ ، ٥٧٠ ، ٦٩٩ .

المريـسـع: ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥١٢ .

المزدلفة: ٧٠٣ ، ٧٠٤ .

المسجد الأقصى: ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٣١١ ، ٣٣٦ ، ٥١٧ .

المسجد الحرام = البيت الحرام

مسجد ذي أوان: ٦٥٩ .

مسجد الطائف: ٦١٩ .

مسجد قباء: ٣٠٩ ، ٤١٠ .

مسجد النبي (صلى الله عليه وآله): ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٤١٠ ، ٤٣٨ ،
 ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٦٩ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠ ،
 ٦٠٣ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣١ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٣٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٨ ، ٦٧٥ ،
 ٦٩٤ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٢٤ ، ٧٢٧ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ،
 ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٧٣ .

مشارف: ٥٧٨ .

مشربة أم إبراهيم (مارية): ٦٣١.

المشعر الحرام: ٧٠٣.

مصر: ٤٢، ٤٣، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨١، ٨٩، ١٠٢، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١٦٤،
١٩٢، ١٩٣، ٢٠٩، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤١، ٦٨٠، ٦٨١، ٧١١، ٧٧٤.

مضيق حنين: ٦١١.

مضيق الصفراء: ٣٨٢.

معان: ٥٧٧.

مكة: ٤٥، ٤٧، ٦٥، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١،
١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧،
١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥،
١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٤،
١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠،
٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥،
٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠،
٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥،
٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٣، ٣١٧، ٣١٨،
٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢،
٣٥٤، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٣،
٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٦،
٤٢٠، ٤٢٢، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٨٧، ٤٨٩،
٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٣، ٥٢١، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٩،
٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٠، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٦٦، ٦٧٠، ٦٧٣، ٦٨٧، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩،
٧٠٣، ٧١٠، ٧١٢، ٧٢٠، ٧٦٧، ٧٦٩، ٧٧٠.

منازل بني لحيان: ٤٦٩.

منى: ٢٩٣، ٧٠٠، ٧٠٣، ٧٠٤.

مؤتة: ٥٧٨.

(ن)

الناصره: ٢٠٩.

نجد: ٨٤، ٩٠، ٩٦، ١١٦، ١٥١، ٢٧٨، ٣٠٣، ٣٣٦، ٣٦٨، ٣٨٢، ٥٨٦، ٦٧٧، ٧١١.

نجران: ٨٦ن ١٣١، ٢١٨، ٣٤٠، ٦٨٥، ٦٨٩، ٧١٣، ٧١٤.

نحلة: ١٥٠، ١٦٧، ٣٥٤، ٤٣٣، ٦٠٦، ٦١٧.

نمرة: ٧٠١.

النمسا: ٣٩٩.

نيق العقاب: ٥٩٣.

النيل: ٨٥، ٢٠٨.

(هـ)

الهند: ٤٢، ٤٣، ٥١، ٥٧، ٧٠، ٧٦، ٨٨، ١٨٩، ٢٨٩، ٥٤٦، ٥٥٠، ٦٠٧.

(و)

وادي القرى: ١١٥، ١٤٨، ١٥٨، ٣٩٨، ٥٤٨، ٥٥٦.

الوتير: ٥٨٨.

ودان: ٣٤٦.

(ي)

يثرب = المدينة

اليمامة: ٥٤٤، ٥٦٢، ٦٨٣، ٦٨٤.

اليمن: ٤٣، ٤٤، ٧٣، ٨١، ٨٠، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤،

٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٩، ١١٦، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٥١،

٣٠١، ٣١٦، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤١، ٥٣٩، ٥٣٤، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢،

٥٨٦ ، ٦٠٤ ، ٦٥٦ ، ٦٦٦ ، ٦٦٩ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٦٩٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ،
٧٠٥ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ .

ينبع: ٣٤٧ .

اليونان: ٧٤ ، ٧٥ .

فهرس الغزوات والوقائع والأيام

بيعة الرضوان: ٥٢٩، ٥٣٠.

بيعة السقيفة (سقيفة بني ساعدة): ٧٣٥، ٧٤٢، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٣.

بيعة العقبة الصغرى: ٢٨١.

بيعة العقبة الكبرى: ٢٨١، ٢٨٨، ٣١٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٤٠٩، ٤٣٣، ٥٣٠.

الحديبية: ٤٥٨، ٥١٠، ٥١٦، ٥١٨، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩،

٥٤٠، ٥٤٧، ٥٥٦، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٥،

٥٨٧، ٥٩٦، ٥٩٨.

حرب الفجار: ١٣٥، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٦٠.

الحرب الكبرى: ٣٦٠، ٣٧٧، ٣٨٩، ٣٩٩، ٤٧٥.

الحروب الصليبية: ٤٤، ٥١، ٣٥٩، ٣٦٠، ٤٦٢.

عام الفيل: ١٢٩، ١٣٧، ١٣٩.

غزوة الأبواء: ٣٤٦.

غزوة أحد: ١٨٩، ٣٧٣، ٣٨٨، ٣٩٢، ٤٠٧، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٢،

٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٨٨، ٤٤٢، ٤٧٣،

٥٧٤، ٦٠٤، ٦١٤، ٦١٨، ٧٢١.

غزوة الأحزاب: ٤٨٢، ٤٩١، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٦،

٤٧٧، ٤٩١، ٥١٢، ٥٢١.

غزوة بدر: ٣٤٧، ٣٥١، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٠، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٦،

٤١٩، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٥٥، ٥١٧، ٥٤٢، ٥٩١.

غزوة بني أسد: ٤٣١.

غزوة بني قينقاع: ٣٩٣.

غزوة بني لحيان: ٤٨٥.

غزوة بني المصطلق: ٤٨٥، ٤٩٨، ٥١٢، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥١٤.

غزوة تبوك: ٥١، ٤٤٥، ٤٢٦، ٤٥٢، ٤٦٠، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٨٣، ٧٧٦.

غزوة حنين: ٦١٢، ٦١٧، ٦٧٦، ٧٢١.

غزوة الخندق = غزوة الأحزاب

غزوة خيبر: ٣١٣، ٣١٩، ٥٤٧، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٧، ٥٦٤، ٤٩١، ٥٣٨،
٥٣٩، ٥٤٨، ٥٥٩.

غزوة دومة الجندل: ٤٣٣، ٤٤٤، ٤٤٥.

غزوة السويق: ٣٩٣، ٤٠٠، ٤٠٧.

غزوة الطائف: ٦٠٩.

غزوة غطفان: ٤٦٣، ٤٧٣.

غزوة مؤتة: ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٨، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٦٤٧، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٦، ٧٢٢.

غزوة اليمس: ٧٠٠.

فتح مكة: ٢٤١، ٣٤٤، ٥١٢، ٥٣٥، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٨،

٦٠٢، ٦٠٤، ٦١٠، ٦٢٤، ٦٢٧، ٦٣٠، ٦٤٦، ٦٦٦.

يوم بُعاث: ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٣٣، ٣٥٣، ٤٨٠.

فهرس الموضوعات

كلمة المجمع ٥٠٠٠

٥٠٠٠ بدايات تدوين السيرة

٦٠٠٠ مستويات كتابة السيرة

٧٠٠٠ أساليب كتابة السيرة

٧٠٠٠ دور السيرة في بناء المجتمع الإسلامي

٧٠٠٠ الدسّ في كتب السيرة

٨٠٠٠ مسؤوليتنا تجاه السيرة

المدخل ١١٠٠٠

١٨٠٠٠ عقبات في كتابة التاريخ

٢٠٠٠٠ حُجب تعترض الثقافة

٢٢٠٠٠ السلطان والسنة

٢٣٠٠٠ السلطان والفقهاء

٢٤٠٠٠ السلطان والتاريخ

٢٧٠٠٠ وعي التاريخ وضعف الأمة

٢٩٠٠٠ الوعي التاريخي طريق الاستنهاض

٣١٠٠٠ محمد حسين هيكل ومنهجه في كتابة التاريخ

٣٣٠٠٠ ملاحظات حول منهج الدكتور هيكل في كتابه حياة محمد (صلى الله عليه وآله)

تقديم الكتاب ٤١٠٠٠

٤١٠٠٠ محمد عليه الصلاة والسلام

٧٣٠٠٠ الفصل الأول: بلاد العرب قبل الإسلام

٩٩٠٠٠ الفصل الثاني: مكة . والكعبة . وقُريش

١٣٥٠٠٠ الفصل الثالث: محمد : من ميلاده إلى زواجه

١٦١٠٠٠ الفصل الرابع: من الزواج إلى البعث

١٧٩٠٠٠ الفصل الخامس: من البعث إلى إسلام عمر

| | |
|---|--------|
| الفصلُ السّادسُ: قصة الغرانيق | ٢٢٣... |
| الفصلُ السّابعُ: مساءات قريش | ٢٣٥... |
| الفصلُ الثّامنُ: من نقض الصحيفة إلى الإسرائ | ٢٥٣... |
| الفصلُ التّاسعُ: بيعتا العقبة | ٢٨١... |
| الفصلُ العاشرُ: هجرة الرّسول | ٢٩٩... |
| الفصلُ الحادي عشرُ: أوّل العهد بيثرب | ٣١١... |
| الفصلُ الثّاني عشرُ: السرايا والمناوشات الأولى | ٣٤٥... |
| الفصلُ الثّالث عشرُ: غزوة بدر الكبرى | ٣٦٣... |
| الفصلُ الرابع عشرُ: بين بدر وأحد | ٣٩٣... |
| الفصلُ الخامس عشرُ: غزوة أحد | ٤٠٧... |
| الفصلُ السّادس عشرُ: آثار أحد | ٤٣١... |
| الفصلُ السّابع عشرُ: أزواج النّبيّ | ٤٤٧... |
| الفصلُ الثامن عشرُ: غزوتا الخندق وبني قريظة | ٤٦٣... |
| الفصلُ التّاسع عشرُ: من الغزوتين إلى الحديبية | ٤٨٥... |
| الفصلُ العشرون: عهد الحديبية | ٥١٧... |
| الفصلُ الحادي والعشرون: خير والرسول إلى الملوك | ٥٣٩... |
| الفصلُ الثّاني والعشرون: عمرة القضاء | ٥٦٧... |
| الفصلُ الثّالث والعشرون: غزوة مؤتة | ٥٧٥... |
| الفصلُ الرابع والعشرون: فتح مكّة | ٥٨٥... |
| الفصلُ الخامس والعشرون: حنين والطائف | ٦٠٩... |
| الفصلُ السّادس والعشرون: إبراهيم ونساء النّبيّ (صلى الله عليه وآله) | ٦٢٧... |
| الفصلُ السّابع والعشرون: تبوك وموت إبراهيم | ٦٤٥... |
| الفصلُ الثّامن والعشرون: عام الوفود وحجّ أبي بكر بالنّاس | ٦٦٥... |
| الفصلُ التّاسع والعشرون: حجّة الوداع | ٦٨٧... |
| الفصلُ الثّلاثون: مرض النّبيّ (صلى الله عليه وآله) ووفاته | ٧١١... |
| الفصلُ الحادي والثّلاثون: دفن الرّسول (صلى الله عليه وآله) | ٧٤٣... |
| خاتمة الكتاب | ٧٧٥... |
| شكر واعتذار | ٧٨٤... |

مصادر التحقيق ٧٨٧...

الفهارس ٨١٣...

فهرس الآيات القرآنية ... ٨١٥

فهرس الأحاديث الشريفة ... ٨٣٣

فهرس الأعلام ... ٨٤٥

فهرس الأمم والقبائل والطوائف ... ٨٦٧

فهرس الأماكن ... ٨٧٩

فهرس الغزوات والوقائع والأيام ... ٨٩١

فهرس الموضوعات ... ٨٩٣